

# أدب السِّياسة

في العصر الأُموي

الدكتور  
أحمد محمد راحوني

استاذ الأدب العربي  
بكلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

دار الفكر

بيروت - لبنان







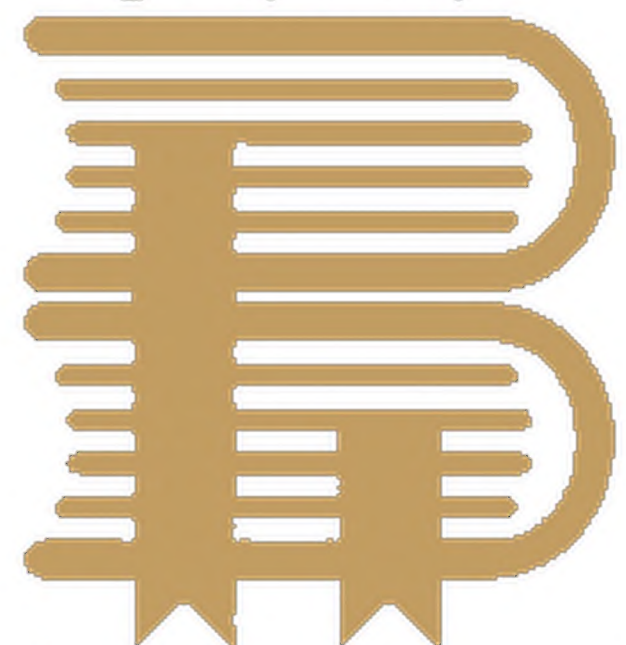
الدكتور  
أحمد محمد الجوفى  
أستاذ الأدب العربى  
كلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

# أدب السبائية

فى العصر الأوسى

دار الفقه العلمى  
بـيروت - لبنان

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد :

- ١ -

فلست أنكر أن إلحاق الأدب بالعصور السياسية في بدئها ونهايتها لا يخلو من تَجَوُّز ، ولا يسلم من حَيْف ، لأن الأدب ليس شارة يَسْهُل على الناس تغييرها بقيام دولة وسقوط دولة ، وإنما هو ثَمَار للنفوس ، وتناج للعواطف والعقول ، فلا بد من أن تمر عليها حقبة من الزمن ؛ لتتسلخ من ماضيها ، أو لينسلخ عنها ماضيها ، وتتقمص ثوب حاضرها ، وتتشكل لمستقبلها . ولقد يتأني الماضي على أن ينسلخ كله ، فتبقى منه آثار ورواسب ومظاهر ، تبدو في إنتاج الأدباء ، عن قصد ، وعن غير قصد .

وإذا فإن دراسة الأدب السياسي في العصر الأموي لا تعنى أنه نجم على حين غرة ، منذ ولي معاوية أمر الأمة ، ولا تعنى أنه غَرَبَ فجأة حينما تولى بنو العباس ، وإنما تعنى أن أدب السياسة استكمل مقوماته في عصر بني أمية ، إذ قامت الأحزاب السياسية الخالصة ، والفرق الدينية التي ساهمت في السياسة بقدَر ، وكان الصراع الحزبي في هذه الحقبة أشد عنفا ، وأطول مدى ، وأبرز في الأدب مظهرا ، من الصراع الشبيه بالحزبي في أخريات صدر الإسلام ، ومن الصراع الحزبي في عصر بني العباس .

ثم إن العصر الأموي شهد الأحزاب كلها ، وعاصر صراعا ، ورأى مصرع اثنين منها ؛ لأن قوة الزيريين قد تحطمت في منتصف العصر ، واهوى أثرهم ،



وأملحة الحوارج قد تثلث قبيل نهايته ، ثم خبا نجمهم ، فلما قامت الدولة العباسية لم يكن هناك إلا أنصار بني أمية يستخفون أو يفرون ، وشيعة قد انقسموا على أنفسهم ، فصار بعضهم عباسيا ، وبقى بعضهم علويا .

لهذا لا أجد تجوزا ولا حقيفا في أن أدرس الأدب السياسي في هذا العصر السياسي .

— ٢ —

ولقد رددت النظر في أدب العصر الأموي ، فوجدت بعضه قد درس ، حتى كاد يستوفي حقه من الدرس ، ووجدت الأدب السياسي ما زال في حاجة إلى دراسة متأنسة جامعة لأنواعه من شعر وخطابة وحوار وكتابة ، فرأيت أن أختص ألوانه كلها بدراسة متأنية ، لأتبين أحوالها ، وبواعث ازدهارها ، ولأتعرف خصائصها ، ومدى توافقها أو تخالفها في إنتاج الأحزاب ، وإلى أي حد نجح الأدب في تصوير الصراع السياسي الناشب ، وفي الترجمة عن عواطف المتشيعين لهذا الحزب أو ذاك ، وماذا بلغ بلاؤه في الدعاية والتأييد والتكثير ، وفي التشهير والتجريح والتنفير ، ثم ماذا كان نصيبه في ميدان سياسي آخر ، هو النزاع القبلي ، والنزاع الجنسي أو الشعبي .

— ٣ —

وإذا فلم يكن بُدٌّ من دراسة مفصلة للأحزاب السياسية في العصر الأموي ، تتناول نشأتها ومذاهبها وغاياتها ، ليتكشف أدها في ضوء بواعثه وأهدافه .

وقد آثرت أن أدرس الأدب من نصوص شتى ، وأن أحللها في تفصيل تارة ، وفي إجمال تارة ، لأنها الينايع الأولى التي ينبغي أن نردّها ، لنستنبط منها رأينا في الأدب وأحكامنا عليه ، ولقد تضطرنّا إلى مخالفة أحكام سابقة ، وآراء شائعة . وكثيراً ما استعنت بالتاريخ ، لجلاء بعض الأحداث ، وتجليّة الجو الذي قيل فيه النص .



ثم آثرت أن أورد النصوص أولا ، وأن أعقب عليها بدراسة عامة لخصائصها ،  
ثم أتبعها بدراسة لبواعث ازدهارها .

وقد ختمت الدراسة بوضع تراجم موجزة لبعض الشعراء والخطباء والكتاب  
الذين مارسوا السياسة واشتهروا بها .

وإني لأمل أن أكون قد تَهَدَّيْتُ إلى بعض الحق ، ووَفَّقْتُ إلى بعض  
الصواب ، وساهمت في جلاء غامض ، وكشف عن مجهول ، والله المستعان ؟

أحمد محمد الحوفي

شوال سنة ١٣٨٤ } القاهرة في  
يناير سنة ١٩٦٥ }



# تمهيد

ما الذى نعى بأدب السياسة أو بالأدب السياسى ؟  
إن إضافة الأدب إلى السياسة أو وصف الأدب بأنه سياسى يقتضينا أن نحدد مفهوم السياسة أولا ، ونحدد مفهوم أدب السياسة ثانياً .

## — ١ —

١ — أما السياسة فإنها بالمعنى اللغوى ولاية شئون الرعية ، وتدير أمورها ، والاضطلاع بأمرها ونهياها .

جاء فى لسان العرب : السُّوسُ الرياسة ، يقال ساسهم إذا رأسهم ، ويقال سوسوه وأساسوه إذا رأسوه ، وساس الأمر سياسة قام به ، والجمع ساسة وسؤاسٌ

سادة قادة لكل جميع ساسة للرجال يوم القتال  
ويقال سوس الرجل أمور الناس إذا ملك أمرهم ، ويروى قول الخطيئة :  
لقد سوست أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين  
وفى الحديث : كان بنو إسرائيل يسومهم أنبياءهم ، أى تتولى أمورهم ، كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية ، والسياسة القيام على الشئ بما يصلحه (١) .  
وجاء فى أساس البلاغة : الوالى يسوس الرعية ، ويسوس أمرهم ، ويسوس أمورهم ، وسوس فلان أمر قومه ، وذكر بيت الخطيئة (٢) .

وجاء فى القاموس المحيط : مست الرعية سياسة : أمرتها ونهيتها ، وفلان مجرب قد ساس ، أى أدب ، ومجرب قد سيس عليه أى أدب ، وسوس فلان أمور الناس صير ملكاً (٣)

---

(١) لسان العرب مادة سوس .

(٢) أساس البلاغة مادة سوس .

(٣) القاموس المحيط مادة سوس .



٢ — وهى فى عرف المسلمين الأولين كانت منوطة بالإمامة ، أى الخلافة ، فعرفها الماوردى بقوله : « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » (١) .

ومعنى هذا أن السياسة الإسلامية رعاية لشئون المسلمين المتصلة بدينهم وبدنياتهم . ثم عرفها ابن خلدون بأنها « حمل الكفاة على مقتضى النظر الشرعى ، فى مصالحهم الآخروية والدينية الراجعة إليها ، إذ أن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به » (٢) .

٣ — أما فى الاصطلاح الغربى فالسياسة هى فن الحكم ، والرجل السياسى هو الذى يمارس أعمال الإدارة المدنية ، وهو أيضاً الحاكم الرسمى الموجه الناصح (٣) .

٤ — ومن هنا يتبين أن التعريف الإسلامى والتعريف الغربى يتفقان فى أن السياسة هى فن الحكم ، ويختلفان فى أن الإسلام يبنى طريقة الحكم على دعائم من الشرع ؛ إذ كان الإسلام ديناً ودولة ، أما الغربيون فيقتصرون الحكم على شئون الدنيا ، بغض النظر عن الدين ؛ إذ أن الدين ليس أساساً عندهم فى الحكم ، وإنما له رجاله المختصون به .

فالمسلمون والغربيون إذاً فهموا السياسة على أنها أسلوب الحكم وطريقته . أما دراسة هذا الأسلوب من نواحي شكله ونظامه ، ومزاياه وعيوبه ، ومن نواحيه فى داخل الدولة وفى خارجها ، وعلاقتها بغيرها من الدول ، سواء أكانت هذه الدراسة فى الزمن الحاضر ، أو فى الماضى ، فإن هذا هو ما يطلق عليه علم السياسة .

---

(١) الأحكام السلطانية ٣ لـ الماوردى

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٨٥

(٣) The concise oxford Dictionary



الأدب السياسى أو أدب السياسة هو الفن القولى — شعراً وكتابة وخطابة وحواراً — الذى يتعاطى شئون الحكم تأييداً أو تفنيدياً ، أو يتناول علاقة الأمة بغيرها فى حرب أو سلم .

وهذا الأدب السياسى ليس وليد العصر الإسلامى ، كما يتوهم كثير من الدارسين ، وإن كان قد استكمل خصائصه ومعاله فى العصر الإسلامى .

ففى الجاهلية أدب سياسى كثير ، ولكنه مصبوغ بصبغة قبلية ، إذ كانت القبيلة وحدة المجتمع العربى ، وهى بهذا المعنى تشبه الدولة إلى حد بعيد . ذلك أن الدولة أو الدولة تقوم على دعائم ، أهمها وحدة الجنس ، ووحدة اللغة ، ووحدة الثقافة ، ووحدة الإقليم ، ووحدة المصالح الاقتصادية ، والاتفاق فى الأهداف والآمال والآلام والمشاعر ، ووحدة الدين وإن استبعد وحدة الدين كثير من الدارسين .

فهل كانت هذه الدعائم محققة فى القبيلة ؟ نعم .

١ — فالقبيلة ليست من جنس واحد فحسب ، بل إنها فى أعم حالاتها جماعات من الأسر موصولة برباط من القرابة الدموية .

وأقول فى أعم حالاتها ، لأنه لم يكن من الحتم اللازم أن تنحدر القبيلة كلها من أب واحد ، وإن كان النسب القريب هو الأصل الغالب فى تكوين القبيلة من فصائل وعشائر وأنفاذ وبطون وعمائر<sup>(١)</sup> .

فقد كان هناك مع النسب الحلف ، والمؤاخاة ، والاسترقاق ، والاستلحاق ،

والولاء ، لكن الصبغ العام للقبيلة هو القرابة أو صبغ النسب<sup>(١)</sup>

٢ — والقبيلة تتكلم بلغة واحدة ، ولهجة متعددة ، وثقافتها المشتركة واحدة .

٣ — وهى تقيم فى مجال معين ، أو ترحل رحلة جماعية إلى مجال آخر ، وبهذا تتحد فى الوطن .

٤ — وتخضع القبيلة لنظام واحد من العرف والعادات فى الحكم والقضاء والميراث والحرب والملكية والزواج . الخ .

٥ — ويحكمها شيخ مهيب مجرب ، له من السلطان المعنوى على النفوس أكثر مما للحكام ، ترجع إليه القبيلة فى مشاوراتها وخصوماتها ، ويتكفل هو برعاية صوالحها .

٦ — وللقبيلة أهداف مشتركة ، ومشاعر واحدة ، فهى تجدد فى اجتماعها واتحادها ما يكفل لها الخير والقوة والسلامة والحرية والحصول على الأرزاق ، وهى تحرص على شرفها ومفاخرها وطيب سمعتها .

٧ — أما الوحدة فى الدين فإنه كان لكل قبيلة صنمها الخاص ، كسُواع لهذيل ، ويفوث لمذحج ، ونسر لحُمير ، ووَدّ لكلب ، ويعوق لخَيوان الخ .

لكن كانت للعرب أصنام عامة يعظمونها جميعاً ، كالعزى بواى حُرّاض ، ومناة بين مكة والمدينة ، واللات بالطائف<sup>(٢)</sup> ، وكان فى العرب كثير من القبائل يدينون بالنصرانية أو باليهودية أو بالزرادشتية<sup>(٣)</sup> .

وإذا فالقبيلة دويلة ، أو تشبه الدويلة شها قويا ، إلا أن نظام الدويلة مكتوب ، ونظام القبيلة هو عرفها المتبع وتقاليدها المتوارثة .

(١) الحلف : أن تأسر قبيلة شخصاً لا يستطيع الفداء ، فيصير حليفاً لها يرث منها كما يرث الصريح من بنيتها ، ولكن دية إذا قتل نصف دية الصريح .  
المؤاخاة : أن يؤاخى فرد من قبيلة فرداً من أخرى ، أو تؤاخى قبيلة قبيلة ، على النصر والحماية .

الاسترقاق : اتخاذ الأسرى عبيداً ، واستخدامهم فى الحرب والسلام .  
الاستلحاق : أن يلحق رجل آخر بنسبه سواء أكان حراً أم عبداً أم مولى .  
الولاء : أن ينسب العبد المعتق إلى سيده الذى أعتقه أو إلى قبيلته ، فالمولى هو القريب .  
(٢) راجع الأصنام لابن الكلبي .  
(٢) راجع ( الحياة العربية من الشعر الجاهلى ) للمؤلف .



ومن هنا يصح أن نعتبر الشعر القبلي المتصل بمصالح القبيلة والدفاع عنها والرد على خصومها شعراً سياسياً .

— ٣ —

فلما صدع النبي عليه الصلاة والسلام بالدعوة ، واستنهلت بشائر الدولة الإسلامية ، بدأ المسلمون ينشئون مجتمعاً جديداً ، لا يخضع لعرف القبيلة ، بل يخضع لقانون واحد عام ، ولا يتوخى منافع فردية أو قبلية ، وإنما يتوخى المصلحة العامة للمجتمع كله ، وهذا المجتمع الجديد بذية واحدة متماسكة بأواصر من اللغة والدين ووحدة الأهداف والمصالح المشتركة ، ومتجانس في عواطفه ومشاعره ، فهو إذاً مجتمع سياسى ، لم يلبث — بعد استكمال وسائل الوحدة والقوة — أن صار دولة ، ثم ما لبثت هذه الدولة الناشئة أن عمت جزيرة العرب وما جاورها ، ثم اتسعت في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب ، ومارست شؤون السياسة كلها من حكم ودفاع وقضاء وتعليم واقتصاد ومعاهدات وغيرها مما تقوم به كل دولة متحضرة ، ولم توصف وظيفة من هذه الوظائف أو عمل من هذه الأعمال بأنه دينى .

ذلك بأن الإسلام كما فهمه المسلمون دين وسياسة ، ولم يكن في الإسلام صنفان متميزان من الوظائف أو الأعمال العامة يخاص أحدهما للدين ، ويخلص الآخر للسياسة ، لأن الدين والسياسة متلازمان في الإسلام ، فالخليفة أو الحاكم يمثل السلطة المدنية ، إذ يسوس الرعية ، ويتولى شؤونها هو وأعوانه ، لكن هذه السياسة قائمة على الخضوع للدين ، والاهتداء بأحكامه .

وقد نجمت في هذا المجتمع دعوات وآراء سياسية ، وجرت في أرضه تيارات متعارضة ، اعتمدت في جريانها على السيف وعلى اللسان .

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ما ذهبنا إلى أن الأدب السياسى الذى أثمره الصراع فى العصر الأموى أضخم تراث سياسى فى الأدب العربى منذ نشأته إلى العصر الحديث .

# الباب الأول

## الأجرب السياسية

عوامل نشأتها

- ١ -

عاش المسلمون في عهد النبي عليه الصلاة والسلام في شغل عن العصبية إلا في القليل النادر ، لأنهم صاروا وحدة سياسية تصرف جهودها لحماية عقيدتها وصيانة حياتها ، ولأن الغزوات شغلتهم عن دعاوى الجاهلية ، وتعاليم الدين الجديد صاغتهم على الإخاء والمساواة والتعاون والمحبة ، ثم إن شخصية الرسول طغت على نزعاتهم ونزواتهم ، فاستظلوا جميعاً بظله ، واقتدوا بأفعاله وأقواله ، ووجدوا فيه الأب المحبوب المرهوب الذي يسوى بين بنيه ، ويعطف بعضهم على بعض ، وينسيهم ماسلف من شحناء وبغضاء .

- ٢ -

ولم يكد الرسول يلحق بالرفيق الأعلى حتى بدرت العصبية المتوارية ، ونجم النزاع على من يخلفه .

وكان هذا النزاع بين طائفتين اثنتين من المسلمين هما المهاجرون والأنصار ، لكن المهاجرين — ممثلين في أبي بكر وعمر — سرعان ما أخذوا الفتنة ، وأقنعوا الأنصار أو حاولوا أن يقنعوهم بأن الخلافة في قريش .

وقد مثل الشعر غبطة قريش بالخلافة ، إذ قال أبو عبدة القرشي أياتا استبشر فيها بيعة أبي بكر ، وندد بتطلع الأنصار إلى الخلافة ، منها :



شكر المن هو بالثناء حقيق  
 ذهب اللجج وبويع الصديق  
 من بعدما زلت بسعد نعله  
 ورجاء رجاء دونه العيوق  
 إن الخلافة في قرش مالكم  
 فيها ورب محمد معروق<sup>(١)</sup>

لكن الأنصار لم يرتضوا هذه الدعوى — دعوى الخلافة في قرش — فراحوا  
 يشيدون بأعمالهم في نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحماية الدين وإيواء  
 المهاجرين ، ويتعصرون على صنيعهم الذي ضاع . يقول حسان بن ثابت :

نصرنا وآوينا النبي ولم نخف  
 صروف الليالي والبلاء على رجل  
 بذلنا لهم أنصاف مال أكفنا  
 كقسمة أيسار الجزور من الفضل  
 فكان جزاء الفضل منا عليهم  
 جهالتهم حقا وما ذاك بالعدل<sup>(٢)</sup>

واحتدم اللجج بين شعراء قرش وشعراء الأنصار ، فعمرو بن العاص يتهكم  
 بتطلع الأنصار إلى الخلافة ، وما لك بن العجلان الأنصاري يرد عليه ، ثم يدعو  
 خزيمة بن ثابت الأنصاري إلى المواجهة والكف عن هذا اللجج<sup>(٣)</sup> .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨/٦ . سعد : هو ابن عبادة أحد الأنصار  
 الذين كانوا يريدون الخلافة . معروق : نصيب قليل ، من عرق الرجل الشراب إذا جعل فيه  
 عرقا من الماء أي قليلا . العيوق : نجم

(٢) ديوان حسان ٢٧٢ أيسار : جميع ياسر وهو الجازر أو الذي يقسم جزور الميسر .  
 الجزور : اللقاة التي تجزر أو البعير

(٣) شرح نهج البلاغة ١٠/٦ — ١٤

انقضى عهد أبى بكر وعمر فى سلام ووئام ، إذ كفلا للمسلمين أسباب الرضا والطمأنينة ، وحققا لهم التسوية فى الحقوق ، وكان المسلمون فى عمل جاد شاق متصل بالفتوح وإقرار النظام الجديد ، ودرء الخطر المتهدد من الفرس والروم . فلما انقضى عهد أبى بكر وعمر زالت عوامل ، وجدت أسباب ، جعلت المسلمين يجدون فروقا بين الحياة المثالية التى نعم بها آباؤهم فى العهد الأول للإسلام والحياة الواقعية التى يعيشون هم فيها .

وكان من أثر هذا أن استعلن التذمر ، ودبت الفتنة ، وسخط كثير من المسلمين حكم الخليفة عثمان ، ثم انفجرت مراجل السخط ، وكان عثمان ضحيتها .

وحيث اتسعت الهوة بين المسلمين ، وعصفت فرقتهم بوحدتهم ، فنشأت الأحزاب السياسية ، وسرعان ما استكملت أسباب قوتها ، ومعالم شخصيتها .

وقد كانت أحزابا سياسية حقيقية ، لكل منها مذهب وآراؤه ونظرياته فى الحكم ، ولكل منها وسائله فى الدعاية لآرائه ، ووسيلة تحقيقها ، والتطور بها من نطاق الرأى والفكر إلى ميدان العمل ، فهى من هذه الناحية دانية الشبه من الأحزاب الحديثة ، إذ أنها تشاركها فى أن لكل منها مناهجه ونظمه وأهدافه وجهوده التى يسلكها فى تحقيق أغراضه .

فما هذه الأحزاب ؟ وما الأصول التى قامت عليها ؟ وما أهدافها ؟ وكيف دار الصراع بينها ؟



# الفصل الأول

## الأمويون

( ٤١ - ١٣٢ هـ - ٦٦١ - ٧٤٩ م )

- ١ -

كانت خلافة عثمان فرصة مواتية للأمويين ، ليستردوا سلطانهم في الجاهلية ، وليستأثروا بالخلافة دون بني هاشم ، لأن عليا وكثيرا من بني هاشم ومن الأنصار كانوا يرونه أحق بالخلافة من عثمان .

فلما قتل عثمان ببيع علي بالخلافة بيعه لم تكتمل ، إذ انشق عليه معاوية بالشام ، ونقض البيعة كبراء بني أمية ، وهربوا إلى مكة والبصرة ودمشق (١) .

ولقد أطمع معاوية في الخلافة أنه حاكم على الشام منذ زمن ، وأنه أثير عند أهل الشام ، عظيم النفوذ هناك ، إذ ساسهم بالرفق والحلم ، ووسع عليهم في الأعطيات والهبات ، وكان أعوانه من بني أمية ليسوا قلة .

فقد تولى معاوية دمشق لعمر بن الخطاب ، ثم ضم إليه عمر ولاية الأردن لما مات أخوه يزيد بن أبي سفيان ، وما زال معاوية يليهما حتى جاء عثمان فأقره عليهما ، ثم ضم إليه ولاية فلسطين بعد موت واليها ، وولاية حمص لما استعفى واليها ، وبهذا صارت الشام كلها في إمرة معاوية . وكان نجم معاوية صاعدا ، فطال عهده بالشام مدة عمر ومدة عثمان ، وكان معاوية مياسياً موهوباً ، عطف على أهل الشام

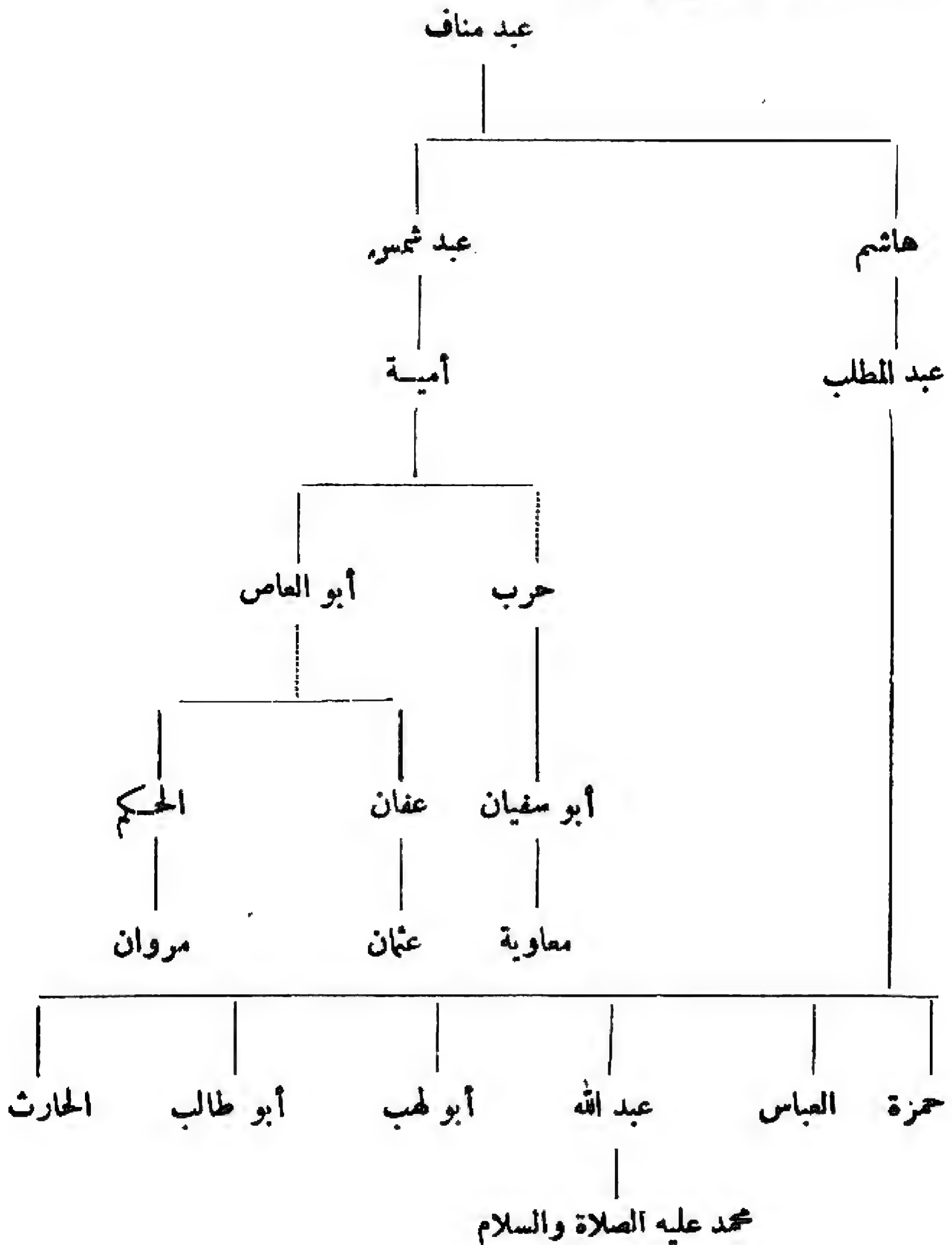
---

(١) تحايل طلحة والزبير فاستأذنا عليا في العمرة فأذن لهما ، فلحقا بمكة وانضمت إليهما السيدة عائشة وكانت بمكة ، وجعلت تعرض على الثأر لعثمان ، ثم اتفقوا على الشخوص إلى البصرة هم وأعوانهم لإثارة أهلها والاستعداد لحرب علي والثأر لعثمان ( الطبري ٥ / ١٦٢ - ١٦٧ )

فأحبوه ، ورضى عن سياسته الخليفةتان ، فلم يفكر أحدهما في عزله ، ولم يخش هو أن يعزل ويخاصة في عهد عثمان ، إذ كان الولاة كثيرا ما يولون ويعزلون . وليس أدل على محبة الشاميين لمعاوية من أنهم ناصروه على علي ، ولم يشترك واحد منهم في الثورة على عثمان ، أو محاصرة داره ، أو المشاركة في مقتله .

ولم يعدم معاوية الحيلة لاستئالة الأعوان ، وإضعاف علي ، فجعل يبذل الأموال ، وجعل يطالب بدم عثمان ، ويحمل عليا جريرة مصرعه ، وينادي بأنه قريب عثمان (١)

(١) ( القرابة بين معاوية وعثمان )





وولى دمه ، وقد قتله الثوار مظلوماً ، فلا بد أن يثار له من قاتليه<sup>(١)</sup> . والقراية بين عثمان ومعاوية ليست بعيدة ، لأنهما يتصلان عند الجد الثاني ، ثم إن مروان ابن الحكم كان أحد المناصرين لمعاوية .

وكانت دعواهم قائمة على أن علياً إذا لم يكن قد حرض على قتل عثمان ، فإنه تخلى عن نصرته وحمايته من الثوار ، ثم إن قاتليه في جند علي ومن أتباعه ، فعليه أن يسلمهم لبني أمية ليقتصوا منهم ، وقد رفض علي أن يسلم أشخاصاً لم تثبت عليهم تهمة ، وليس القصاص منهم من شأن معاوية أو مروان ، بل هو من شأن علي وحده ، لأنه الخليفة النقيم على شئون المسلمين .

كذلك اعتمد بنو أمية على أن لهم في الجاهلية سابقة ومجداً ، وأنهم ليسوا بأقل من بني هاشم ، فقد كان لواء قريش في الجاهلية لبني عبد شمس ، وسقاية الحجاج لبني هاشم ، وأضافوا إلى هذا أن الحكمين قد قضيا لمعاوية على علي .

ثم زعموا فيما بعد أنهم ورثة النبي ، وأحق العرب بالحكم ، أو زعم بعض أنصارهم ذلك ، فقال شاعر في تكذيبهم<sup>(٢)</sup> .

أيها الناس اسمعوا أخبركم	عجباً زاد علي كل العجب
عجباً من عبد شمس أنهم	فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحد فيما زعموا	دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه	يحرز الميراث إلا من قرب

وكانت السيدة عائشة تحرض أهل مكة على الثأر لعثمان ، وعلى محاربة علي ، وتقول : قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه . فقال لها ابن أم كلاب : ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت . ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلاً<sup>(٣)</sup> فقد كفر . قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول . فقال لها ابن أم كلاب<sup>(٤)</sup> :

(١) مروج الذهب ٣٣/٢ .

(٢) مروج الذهب ٧٣/٢ .

(٣) نعثل : شيخ أحق ورجل لحيانى كان يشبه به عثمان للنيل منه .

(٤) الطبرى ١٧٤/٥ .

منك البداء<sup>(١)</sup> ومنك الغيّر ومنك الرياح ومنك المطر  
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر  
فهبنا أطمناك في قتله وقاتله عنــــــدنا من أمر  
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر  
وقد بايع الناسُ ذا تدرأ<sup>(٢)</sup> يُدِيلُ الشُّبَا وَيَقِيمُ الصُّعْرَ<sup>(٣)</sup>  
ويلبس للحرب أثوابها وما من وفى مثل من قد غدر

لهذا رفض معاوية أن يبايع علياً ، وغدر طلحة والزبير ببيعتهما لعلي ، وخرجاً لقتاله ، وانضمت إليهما السيدة عائشة وانتصر علي في موقعة الجمل (٣٦ هـ ٦٥٦ م)<sup>(٤)</sup> وقتل فيها طلحة والزبير .

وتعاضد معاوية في دعواه وفي إثارة الناس ، فعرض قميص عثمان في مسجد دمشق ملوثاً بدمه ، وعرض أصابع زوجته نائلة وقد قطعت وهي تحاول أن ترد الثوار عن زوجها<sup>(٥)</sup> .

ثم تجدد الصراع إذ التقى علي ومعاوية بصفين (٣٧ هـ ٦٥٧ م) جنوبي الرقة ، وكاد النصر يتم لعلي ، لولا الحيلة التي لجأ إليها قائد جيش معاوية عمرو بن العاص ، فقد رفع بعض جنده المصاحف ، وكان التحكيم وخلع علي وتثبيت معاوية .

وقد تبين اتهام الأمويين لعلي في أبيات للوليد بن عتبة<sup>(٥)</sup> — أخى عثمان لأمه — هدد فيها بني هاشم ، وتوعدهم ، واتهم علياً بقتله لتخلص الخلافة له ، واتهمه بأنه أخذ مافي دار عثمان من سلاح وإبل بعد أن بويع بالخلافة :

(١) البداء : البدء .

(٢) ذو تدرأ : ذو عز ومنعة . الشبا : المراد الرماح والسيوف ، أي يغلب خصمه .  
الصعر : المراد الكبير .

(٣) سميت بذلك لأن السيدة عائشة كانت تركب جلا

(٤) الآداب السلطانية — الفخرى ١٢٥ ، ١٣٧ .

(٥) الأغاني ١٢٢/٥ .

بنی هاشم رُدُّو سلاح ابنِ أختکم ولا تنهوه ، لا تحمل مناهبه  
بنی هاشم لا تعجلوا بإقادة سوا علینا قاتلوه وسالبه  
وإنا وإیاکم وما کان منکم

كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه<sup>(١)</sup>

بنی هاشم کیف التعاقد بیننا وعند علی سیفه ونجائبه<sup>(٢)</sup>  
لعمرك لا أنسى ابن أروى وقتله

وהל يذسین الماء - ما عاش - شاربہ؟<sup>(٣)</sup>

هم قتلوه کی یكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مراربه<sup>(٤)</sup>

وإنی لـمـجتاب إلیکم بحـفـل یصم السميع جرسه وجلائبه<sup>(٥)</sup>

ورد الفضل بن العباس بن أبی لهب علیه فی قوله<sup>(٦)</sup> :

فلا تسألونا سیفکم إن سیفکم  
أضیع وألقاه لدى الرّوع صاحبه  
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا  
فهم سلبوه ، سیفه وحرائبه<sup>(٧)</sup>  
وكان ولیّ العهد بعد محمد  
علیّ وفی کل المواطن صاحبه  
علیّ ولیّ الله أظهر دینه  
وأنت مع الأشقیین فیما تحاربه  
وقد أنزل الرحمن أنك فاسق  
فمالك فی الإسلام سهم تطالبه

(١) صدع الصفا : الشق فی الصخر الصلد . لا يرأبه شاعبه : لا يصلحه مصلح .

(٢) النجائب : النوق النجیبات

(٣) ابن أروى : أروى أم عثمان ، وهی بنت کریر بن ربیعة بن حبیب بن عبد شمس

وأُمها البیضاء أم حکیم بنت عبد المطلب ، فالهاشمیون إذا أخوال عثمان وهو ابن بنت عمه النبی

(٤) المرازب : جمع أمرزبان وهو رئیس الفرس .

(٥) مجتاب : سائر . جحفل : جيش كثير . الجلائب : جمع جلیبة وجلوبة وهی الخیل

المجلوبة .

(٦) مروج الذهب ١/٤٤٣ .

(٧) كان المحاصرون لعثمان ست مئة رجل من مصر فیهم محمد بن أبی بکر ومثنی رجل

من الکوفة ومئة من البصرة . (مروج الذهب ١/٤٤٠) الحرائب : جمع حریبة وهی المال المسلوب .



على أن التاريخ المنصف يرى علياً من التعريض على الثورة ، ويرثه من التقصير في حماية عثمان ، ويرثه من السرور بمقتله<sup>(١)</sup> .

— ٢ —

قامت الدولة الأموية سنة ٤١ هـ ٦٦١ م بعد أن اضطر الحسن بن علي إلى التنازل عن حقه في الخلافة ، ليجنب المسلمين معاطب الفتنة والحروب ، ولأنه أيقن — بعد أن خذله أهل العراق — بأن لا طاقة له بمعاوية وجنده ، فصالحه على أن يكون المسلمون بعد وفاة معاوية أحراراً ، يولون عليهم من يشاءون .

ثم زار معاوية الكوفة سنة ٤١ هـ<sup>(٢)</sup> وبايعه أهلها على مشهد من الحسن والحسين ، ومنذ ذلك الوقت غادرها الحسن إلى المدينة ، وتوفي بها بعد ثمانى سنوات .

وهي تنتسب إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو عظيم من عظماء قريش في الجاهلية ، طالما نازع عمه هاشم بن عبد مناف في الشرف والرياسة ، وقد ورث أحفادهما هذه المنافسة في الإسلام .

وأول ملوك الدولة معاوية بن أبي سفيان ( ٤١ — ٦٠ هـ ٦٦٠ — ٦٨٠ م ) وآخرهم مروان بن محمد ( ١٢٧ — ١٣٢ هـ ٧٤٤ — ٧٥٠ م ) وخلفاؤها أربعة عشر<sup>(٣)</sup> .

---

(١) راجع تفصيل هذا فيما سيجي في الفصل الخاص بالشيعة .

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٥٤ ومروج الذهب ٢/٣٦ .

(٣) معاوية ( ٤١ — ٦٠ ) ، يزيد ( ٦٠ — ٦٤ ) معاوية بن يزيد ( نحو شهرين ) مروان بن الحكم ( ٦٤ — ٦٥ ) ، عبد الملك بن مروان ( ٦٥ — ٨٦ ) ، الوليد بن عبد الملك ( ٨٦ — ٩٦ ) ، سليمان بن عبد الملك ( ٩٦ — ٩٩ ) ، عمر بن عبد العزيز ( ٩٩ — ١٠١ ) ، يزيد بن عبد الملك ( ١٠١ — ١٠٥ ) ، هشام بن عبد الملك ( ١٠٥ — ١٢٥ ) ، الوليد بن يزيد بن عبد الملك ( ١٢٥ — ١٢٦ ) ، يزيد بن الوليد بن عبد الملك ( ١٢٦ ) إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ( ١٢٦ ) مروان بن محمد ( ١٢٧ — ١٣٢ )

وقد استطاع معاوية أن يستأثر بالخلافة ، ليقرها في البيت الأموي .

والحق أن الخلافة منذ آلت إلى معاوية لم يكن لها الطابع الكامل الذي كان للخلفاء الراشدين من قبل ، فقد صارت ملكية في مظهرها ونظامها ، ولا يميزها من ملكية الفرس والروم إلا انضواؤها تحت لواء الإسلام وأخذها بأحكامه .

ولم يلبث معاوية إلا قليلا حتى شرع يوطد الملك لابنه يزيد ، ويعهد إليه بولاية العهد في حياته .

ويذكر المؤرخون أنه استجاب لمشورة المغيرة بن شعبة وإلى الكوفة في أن يأخذ البيعة ليزيد ، متذعرا بأن اختلاف المسلمين بعد مقتل عثمان كان مدعاة إلى سفك الدماء ، وأن استخلاف يزيد يبقى المسلمين جرائر الفرقة « فاعقده له ، فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس ، وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة » (١)

وسواء أكان المغيرة صاحب الفكرة ، أم كان معاوية هو الذي أوحى إليه بها ، فإن معاوية سرعان ما كتب إلى مروان بن الحكم وإلى المدينة بقوله : « إني كبرت سني ، ودق عظمي ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، ورأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى » (٢) .

وإذا فقد اطمأن معاوية إلى استقرار ملكه ، ثم مد بصره إلى المستقبل ، فزينت له نفسه أو زين له المغيرة بن شعبة أن يجعل الملك وراثيا في عقبه ، باستخلاف يزيد من بعده .

وإن هذا لحدث في الإسلام لم يعرفه المسلمون قبل معاوية ، ولم يهتم بمثله خليفة ممن سبقوه ، لأن أبا بكر عهد إلى عمر ، ولم يستخلف أحدا من أبنائه ، ولأن عمر تخير ستة من جلة الصعابة ليختاروا أحدهم ، وضم إليهم ابنه عبد الله ليكون شاهدا ومرجعا فحسب ، ورفض أن يخلفه ابنه حتى لا يعذب من آل الخطاب

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ١٩٨ .

(٢) ابن الأثير ٣/ ١٩٩ .

ثمان ، ثم جاء عثمان وطال عهده ، ولم يستخلف أحداً ، وخلفه طي ، وأبى أن يعهد إلى أحد من بنيهِ ، فداعرض عليه الناس أن يبايعوا الحسن ، قال لهم : لا آمركم ولا أنهاركم ، وقال مرة لأصحابه : أترككم كما ترككم رسول الله .

طي أن معاوية هب لقتال طي ، وهو يزعم أنه يطالب بدم عثمان ، ويزعم أنه يريد أن يكون أمر الخلافة للمسلمين ، يختارون من يشاءون .

ثم إنه لما صالح الحسن بن طي أراد أن يصلحه على أمور ، منها أن يعهد للحسن من بعده ، فرفض الحسن ، واشترط أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين ، فقبل معاوية .

ولكن معاوية لم يرض في شيء مما كان يدعو إليه ، ويتذرع به ، فقد آل الحكم إليه ، ولم يتعقب قتلة عثمان ، بل لم يهم بأن يتعقب أحداً ممن بقى منهم ، وآل الحكم إليه بوسائل شتى ، فتلقاء أحسن لقاء ، وحرص عليه أشد الحرص ، ونسى أو تناسى دعوة الشورى التي تذرعه بها أيام طي ، ثم قبلها لما اشترطها الحسن عليه حينما تصالحا .

وها هو ذا لا يريد أن يخلى بين المسلمين وحریتهم في اختيار حاكمهم ، وإنما يحملهم حملاً على الرضا باستخلاف يزيد سنة ٥٦ هـ .

تمت البيعة ليزيد ، فكانت سبباً في انقسام المسلمين فريقين كبيرين : راضين بالبيعة ، وساخطين عليها .

أما الذين ارتضوها فهم سكان الشام ، لما سبق من إشارهم معاوية ، ولأنهم كانوا قد ألفوا النظام الملكي الوراثي منذ حكمهم آل جفنة الساسنة ، ولأن النظام الجديد يكفل لهم بقاء الحكم في ديارهم ، ويعيد إلى إقليمهم سيادته على نفسه ، ويصيرهم سادة العالم الإسلامي .

وأما الذين سخطوها فهم جمهور المسلمين ، وبخاصة أهل الحجاز وأهل العراق ، خفي الحجاز قرشيون أولى بالخلافة من يزيد ، وأنصار يؤثرون علماً ويشايهون أبناءه



وبالعراق متمردون على بنى أمية ، من خوارج وشيعة .

وهؤلاء الساخطون لم يكتفوا سخطهم ، بل جهر به كثير منهم منذ اللحظة الأولى .

ذلك بأنه لما خطب مروان بن الحكم بالمدينة داعيا إلى تحقيق ما أراد معاوية قاطعه عبد الرحمن بن أبي بكر بقوله : « كذبتهم ، ما الخير أردتهم لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كما مات هرقل قام هرقل » (١) .

وكان في المعارضين الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وكلهم بالحجاز . وكان من المعارضين بالشام عبد الله بن عامر ، ومران بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، لكن معارضي الشام رضوا ، فاتجه معاوية إلى الحجاز ، فلم يثن المعارضون عن رأيهم .

والذي ألاحظه أن الساخطين لم يجمعوا أمرهم ، ولم يوحّدوا جهودهم ، وإنما كانوا أحزابا متنازعة ، بعضها سياسي خالص ، وبعضها سياسي ديني ، كما سنرى .

مات معاوية ، فاتسعت هوة الخلف وازدادت نيران العصبية اشتعالا .

فقد كان كثير من كبراء الأمة غير راضين عن البيعة ليزيد ، لهذا لم يكف يتولى حتى خرج عليه الحسين بالعراق ، ثم عبد الله بن الزبير بالحجاز .

وإذا كان الحسين قد قتل ، وقتل معه بعض أهل بيته وبعض أشياعه ، فإن هذا القتل لم يكفل ليزيد الراحة ، بل جلب عليه نقمة أشد ؛ لأنه استجد الحزازات القديمة ، وغير القلوب على يزيد ، حتى إن عبد الملك بن مروان كان يقول فيما بعد إن هذا القتل عجل بسقوط ملك آل حرب ، ولهذا نهى الحجاج واليه على الحجاز أن يتعرض لمحمد بن علي المعروف بابن الحنفية ، أو إلى أتباعه ، وجاء في كتابه إليه قوله : « جنبني دماء بنى عبد المطلب ، فليس فيها شفاء من الحرب . وإني رأيت

---

(١) ابن الأثير ٣/ ١٩٩ .

بنى حرب سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي<sup>(١)</sup> فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبين في أيامه .

وأما ابن الزبير فقد أوقع قائد يزيد — مسلم بن عقبة — بأتباعه في موقعة الحرة بالمدينة ، واشتفى يزيد بهذه الواقعة ، وعدّها ثأراً لأعزائه انقتلى ببدر ، إذ تمثل لما سمع نبأ النصر بأبيات عبد الله بن الزبير<sup>(٢)</sup> التي قالها في يوم أحد :

ليت أشياخي ببدر علموا جزع الخزرج من وقع الأسل

ثم حاصر جيش يزيد مكة ، وأحرق أستار الكعبة ، وصدع ركنها ، بأمر قائده الثاني الحصين بن نمير ، ومات يزيد ، فعاد الجيش إلى الشام .

لكن ابن الزبير أعلن خلافته بعد موت يزيد ، وبايعته الأمصار .

ولم يعمر معاوية بن يزيد أكثر من أربعين يوماً . فلما مات زلزل الملك لزيادة السخط ، ولصغر خالد بن يزيد ، فبايعت القيسية بالشام عبد الله بن الزبير ، وولى عليهم زعيمهم الضحاك بن قيس ، وتعصب الكلبيون لخالد ، لأنهم أخواله وأخوال أبيه ، وانضم إليهم مروان بن الحكم ، على أنه كان يعتزم أن يستأثر بالحكم فيما بعد . ثم كانت نصرة مروان على قيس في موقعة مرج راهط ، وبويع مروان ، وانتقل الملك من بيت سفيان إلى بيت مروان .

لكن البيت السفياني له أنصار ، لهذا لم تغرب شمسُه إلا بمقتل عمرو بن سعيد الأشدق في عهد عبد الملك .

وكان عبد الله بن الزبير لما يزل خليفة على الحجاز ، ومعتزفاً به من كثير من الأمصار ، فولى عبد الملك الحجاج بن يوسف الحجاز ، ليقضى به على ابن الزبير ، ونهض هو لقتال مصعب بالعراق فقتله ، ثم قتل الحجاج ابن الزبير .

ثم ندب عبد الملك الحجاج ليقضى على الخوارج بنواحي العراق ، فقاتلهم هو والمهلب بن أبي صفرة ، حتى أضعفهم .

## طابع سياستهم

يهيئنا من السمات العامة لسياستهم ما يتصل بالأدب شعراً وخطابة وكتابة وحواراً ،  
لنستبين جو النصوص وملايساتها ومراميها ، ولنتبين مقدار نُجْحِها أو تخلفها في خدمة  
السياسة المنوطة بها .

### — ١ —

كان بنو أمية ودعاتهم وأشياعهم ، ينتحلون خلافة الله ورسوله ، فعلى المسلمين  
أن يطيعوهم ، وأن يناصروهم ، ويقاتلوا من يتمرد على سلطانهم .

يدل على هذا أن حسان بن مالك — سيد قحطان بالشام — قال لسكان  
الأردن - لما توفي يزيد بن معاوية ، ودعا عبد الله بن الزبير لنفسه — : يا أهل  
الأردن ، ما شهدتكم على ابن الزبير ، وعلى قتلى أهل الحرة <sup>(١)</sup> ؟

قالوا : نشهد أن ابن الزبير منافق ، وأن قتلى أهل الحرة في النار .

قال : فما شهدتكم على يزيد بن معاوية ، وقتلاكم في الحرة ؟ قالوا : نشهد  
أن يزيد على الحق ، وأن قتلانا في الجنة . قال : وأنا أشهد لئن كان يزيد بن  
معاوية وهو حى قائماً على الحق إنه اليوم وشيعته على الحق ، وإن كان ابن الزبير  
يومئذ وشيعته على باطل ، إنه اليوم على باطل ، فبايعوه حيثئذ على قتال ابن الزبير  
وأعوانه <sup>(٢)</sup> .

ويدل على ذلك أن زياداً جهر في خطبته بالبصرة بأن معاوية وحكومته  
يلون أمور الناس بسلطان الله ، ويحمونهم من الأعداء بجند ينفقون عليهم من مال  
الله ، فعليهم أن يسمعوا ويطيعوا ، ولهم أن ينعموا بعدل الحكم فيما ولوا : « أيها  
الناس إنا أصبحنا لكم ماسة ، وعنكم زادة ، نسومكم بسلطان الله الذي أعطانا ،

---

(١) موقعة بالقرب من المدينة بين الزبيريين والأمويين

(٢) تاريخ الطبري ٣٥/٧ .



ونذود عنكم بفيء الله الذي حولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما أولينا ، فاستوجبوا عدلنا وقيامنا بمناصحتكم لنا ، وادعوا الله بالصالح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون ، وكهفكم الذي إليه تأوون ،<sup>(١)</sup> وسنجد في النصوص ترديداً لهذه الفكرة من الشعراء والخطباء .

— ٢ —

ولقد اتسم حكمهم بالعصبية ، عصبية للعرب عامة ضد المعجم والموالي ، وعصبية لليمنية على القيسية ، وعصبية لبني أمية على بني هاشم ، وعصبية للقبائل الموالية لهم على المناوئة ، كعصبيتهم لكعب وتغلب على قيس . وسأفصل القول في هذا فيما بعد<sup>(٢)</sup> .

وكان يزيد بن معاوية أشدهم تعصباً على بني هاشم ، جرياً على ما كان بين البيتين من منافسة وعداء في الجاهلية وفي الإسلام .

فهو لم ينس أن جده لأمه وخاليه قتلوا يوم بدر ، ولم ينس أن المهاجرين والأنصار قد فتحوا مكة مع النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن جده أبا سفيان أسلم في ذلك اليوم محرراً بعد أن قاوم الإسلام والمسلمين طويلاً ، وهو يذكر أن الأنصار كانوا أقوى ظهور لعل على معاوية .

ثم إن ثورة أهل المدينة عليه ، وخلعهم إياه ، وثورة أهل مكة بعد عام ، لم تبرح خاطره ، وليس أدل على حنقه عليهم من قوله إذ بلغته ثورتهم :

لقد بدلوا الحلم الذي من سمجتي فبدلت قومي غلظة بليان<sup>(٣)</sup>

فلما انتصر جيشه عليهم تمثل بقول عبد الله بن الزُّبَيْرِي شاعر قريش في موقعة أحد :

ليت أشياخي بيدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل  
وزاد عليه قوله :

(١) تاريخ الطبري ١٢٤/٦ والبيان والتبيين ٢/٦ :

(٢) راجع الفصل الخامس بالعصبية القبلية .

(٣) الطبري / ٥٧

لأهلوا واسهلوا فرحا ثم قالوا : يا يزيد لا تُشَلَّ (١)

وعاد إلى الاستشهاد بقول ابن الزبير .

فجزيناهم بمدر مثلهما وأقنا ميل بدر فاعتدل

### — ٣ —

جری بنو أمية على تعيين من يخلفونهم ، يريدون بذلك إظهار أبنائهم أو المقربين إليهم ، ويريدون أن يقوا الأمة مصارع الفرقة والاختلاف فيمن يتولى بعد موت الخليفة .

ولكن ولاية العهد هذه جرت من الشرور بقدر ما كان متوقعا منها الخير ، ذلك لأن كثيرين من الأمراء كانوا ينافسون على ولي العهد بإشاره بالولاية ، وكانوا يتنافسون على الاستئثار بها ، وكانوا أحيانا يتعددون فيكيد بعضهم لبعض .

وقد ناصر بعض الشعراء ولاية اليهود ، كمسكين الدارمي وجري ، كما ناصرهم بعض الساسة كالحنبل وقيس بن مسلم .

وكثيرا ما كانت الولاية تتغير وتتنقل وتشعل الفتن ، من هذا أنه بعد موت معاوية الثاني عظم شأن ابن الزبير ، وناصره الضحاك بن قيس الفهري ، وتزعم مروان بن الحكم بنى أمية ، فالتقى هو وعمرو بن سعيد الأشدق ، واتفقا على أن تكون الخلافة لمروان ، ثم لحالد بن يزيد بن معاوية ، ثم لعمر ، ورضى عمرو بهذا ، وناصر مروان ، ولما تم الأمر لمروان بايع بعده لحالد ، ولعمر بعد خالد ، ثم مات مروان ، فخلفه ابنه عبد الملك .

لكن المشكلة تكررت ، إذ اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق ، ليقاتل مصعب بن الزبير ، فقال له عمرو : إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدني

---

(١) أهلوا واستهلوا : رفعوا أصواتهم فرحا . لا تشل : - فظ الله يدك من الشان .

هذا الأمر من بعده ، فجاهدت معه ، فاجعل لى هذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك .

فلما كان عبد الملك على ثلاث مراحل من دمشق أغلقها عمرو ، وأعلن غصيانته ، فرجع إليها عبد الملك ، وحاصرها ، ثم صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة من بعده ، لكنه احتال وقتله سنة ٦٩ هـ .

ولم يشذ عن نظام توريث الخلافة إلا معاوية بن يزيد ، فقد أرادها شورى ديمقراطية ، كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين ، وود لو أنه وجد جماعة كالذين عهد إليهم عمر ، ليفوض إليهم اختيار خليفته من بعده ، فإنه لما تولى سنة ٦٤ هـ خطب هذه الخطبة (١) :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإنى قد نظرت فى أمركم ، فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب — رحمة الله عليه — حين فزع إليه أبو بكر ، فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة فى الشورى مثل ستة عمر ، فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتهم ، فما كنت لأتزودها ميتا ، وما استمتعت بها حيا » . ثم دخل منزله ، ولم يخرج إلى الناس ، واعتكف حتى مات ، وقيل طعن أو دس له السم ، وكانت ولايته قصيرة لم تزيد على شهرين أو ثلاثة .

ولما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية ، وطالبوه بأن يعهد إلى من يختاره من أهل بيته ، فقال : « والله ما ذقت حلاوة خلافتكم ، فكيف أتقلد وزرها ، وتنتحلون أنتم حلاوتها ، وأتعجل مرارتها ؟ اللهم إنى برىء منها ، متخل عنها ، اللهم إنى لا أجدر نقرأ كأهل الشورى ، فأجعلها اللهم ينصبون من يرونها أهلا لها (٢) » .

(١) مروج الذهب ٢ / ٩٧ والطبرى ٧ / ٣٤ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٩٨ .



وكان لهم ولاية يحكمون الأقاليم باسم الخلفاء ، كزياد والحجاج وقتيبة بن مسلم الباهلي وسعيد بن العاص وآل المهلب ، وكان لبعض هؤلاء الولاية سياسة خاصة وشخصية متميزة ، وقد التف الشعراء ببعضهم ، ومدحوهم ، كما مدح جرير الحجاج ، وكما مدح جميل وكثير وابن قيس الرقيات وغيرهم وإلى مصر عبد العزيز بن مروان .

## الفصل الثاني

### الشيعة

- ١ -

نستطيع أن نتأصل النشأة البعيدة لأنصار علي بن أبي طالب (١) ، فنردها إلى العهد الذي اختير فيه أبو بكر ثم عمر للخلافة ، إذ كان علي وبعض بني هاشم يرونه أولى بخلافة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ذلك أن الأنصار رغبوا في الخلافة ، وعارضهم المهاجرون يوم السقيفة ، محتجين بأنهم عشيرة النبي وقومه ، فلما علم بذلك علي بن أبي طالب قال: إن يكن ما قله المهاجرون حقاً فالحجة لنا دونهم . وتشبع يومئذ على جميع بني هاشم وبني المطلب ، وانضم إليهم الزبير بن العوام وثلاثة عشر رجلاً أو اثنا عشر من المهاجرين والأنصار ، واحتجوا على تنحية علي (٢) . علي أن أتباع علي كانوا يعرفون بالعلوية في حياته ، وبعد مماته مع الدلالة عليهم باسم الشيعة أيضاً ، واستمر ذلك مدة بني أمية ، كما كان أتباع معاوية يعرفون بالعثمانية .

فلما قامت الدولة العباسية نسخ اسم العلوية والعثمانية ، وصار المسلمون شيعة وأهل سنة وخوارج .

---

(١) لم يكن أنصار علي يسمون في أول الأمر ( الشيعة ) وإنما تمحضت هذه الكلمة للدلالة عليهم بعد قتله جاء في لسان العرب وفي تاج العروس : شيعة الرجل أتباعه وأنصاره جمعها شمع وجمع الجمع أشياع . وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة . وأصل الشيعة الفرقة من الناس على حدة ، وكل من عاون إنساناً وتحزب له فهو له شيعة ، وهو يقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد . ثم غلب هذا الاسم على كل من يتولى علماً وأهلاً بيته ، حتى صار اسمهم خاصاً ، فإذا قيل فلان من الشيعة عرف أنه منهم .

والدليل على أن الكلمة لم تخص للدلالة على شيعة علي وحدهم إلا بعد مقتله أننا نجد لها مستعملة بمعنى الأعوان والأنصار في عهد علي ، فهوؤلاء شيعة علي ، وأولئك شيعة معاوية وهكذا .

لكن الحزب العلوي لم يولد إلا بعد أن نشبت الفتنة ، وثار الثوار على عثمان وقتلوه ، فقد كان بنو هاشم يريدون الخلافة ، ويرون أنهم الأحق بها ، وكانوا يرشعون لها عليا ، وكان الساخطون على عثمان من غير بني هاشم يريدون خليفة آخر غير عثمان ، وكان على واحد ممن يركنون إليهم .

وكان قد نقم كثير من كبار المهاجرين والصحابة والمسلمين عدة أمور من عثمان ، بعضها يتصل بمسائل دينية ، وبعضها يتصل بمسائل سياسية وإدارية واجتماعية ومالية ، وأكثر بعضهم من نصحه ، وأغلظ بعضهم في نصحه ، لكن عثمان لم يستجب للنصح الرفيق ، ولم يستمع للنصح الجاد الحازم ، فتفاقم الخطب ، واتسعت الهوة ، وامتلاّت العراق والحجاز ومصر بالأئمين والناقدين والساخطين ، وانتهز عبد الله بن سبأ هذا الجو الملائم ، فصب على النار زيتا ، وجعل يشير المسلمين على عثمان ، فيزيدهم سخطاً على سخط ، وكان للرجل دعاة بالحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر يكاثرهم ويكاثرونه ، وكان لا يفتأ يحرض المسلمين على الثورة ، ويقول لأتباعه : انهضوا في هذا الأمر ، فحركوه ، وأظهروا أنكم أمرون بالمعروف ناهون عن المنكر ، لتستميلوا إليكم الناس .

وعبد الله هذا يهودى من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، أسلم في زمن عثمان ، ثم انتقل في بلاد المسلمين يحاول إضلالهم (١) .

كان عمر قد عهد بالشورى إلى ستة من جلة الصحابة ، هم الباقر من العشرة الذين بشرهم النبي بالجنة ، هؤلاء الستة هم : علي وعبد الرحمن بن عوف وعثمان والزبير ابن العوام وطلحة بن عبد الله وسعد بن أبي وقاص ، وكان الخليفة الذى اختير هو عثمان (٢) .

---

(١) الطبرى ٩٨/٥ .

(٢) الطبرى ٣٤/٥ .

فلما قتل عثمان صاروا أربعة ، لأن عبد الرحمن بن عوف كان قد مات في خلافة عثمان ٣٣ هـ .

فماذا كانت وجهة كل من هؤلاء الأربعة أيام الفتنة وبعد أن قتل الثوار عثمان ؟ (٣)  
أما سعد فقد اعتزل فيمن اعتزل ، وبعد عن الثورة والشراذم الثائرة التي وفدت من الجند المرابط في البصرة والكوفة ومصر ، وضمت إليها شراذم من أبناء المهاجرين ومن جفاة الأعراب .

وأما الزبير فقد وقف من الفتنة موقفاً لا هو دفاع خالص عن عثمان ، ولا هو تحريض سافر على عثمان ، وأغلب الظن أن ميله كان إلى الثوار .

وأما طلحة فقد كان يحرض الثوار ، ويذكر نفسه للخلافة عند جماعة منهم ، ولم يكن عمله هذا خافياً على عثمان ، فقد تكررت شكواه منه إلى علي وإلى غير علي ، وقد ذهب علي إلى طلحة ليرده عن مسلكه هذا ، فرأى عنده فريقاً من الثوار ، ونصح له فرفض نصحه ، فخرج علي إلى بيت المال ، فاستخرج ما فيه ، وقسمه على الناس ، ونال أعوان طلحة من هذا المال ، فتفرقوا عنه ، وحمد عثمان لعلي ما فعل .

وأغلب الظن أن شكوى عثمان لعلي ، ونصح علي لطلحة ، وإخراجه المال من بيت المال لا صطناع الفريق الذين كانوا يؤازرون طلحة ، أو الذين كان طلحة يظن أنهم يؤازرونه ، ثم رضا عثمان بما فعل علي ، أغلب الظن أن هذا وحده كفيل بتوضيح موقف علي من الفتنة ، وسخطه على الثوار .

فما بالنا إذا علمنا أن علياً كان يخذل الثأرين عن ثورتهم ، وأنه سافر بينهم وبين عثمان مرتين ، وأنه أفلح في الأولى فردهم عن المدينة ، وأفلح في الثانية فطمأنهم إلى قبول عثمان لما طلبوا ، وصرفهم عن المدينة ، فلما عادوا على حين غرة واحتلوا المدينة بعد خروجهم منها حاول أن يردمهم المرة الثالثة ، فأفلت الأمر من يده ، فأعان عثمان بما استطاع ، إذ أرسل إليه الماء لما شدد الثوار عليه الحصار ، ومنعوه



الماء ، وأرسل ابنه الحسن والحسين ومولاه قنبراً ليجمعوا عثمان من الثوار ، وحاكاه كثير من الصحابة ، فبعثوا أبناءهم ، واشتبك المدافعون عن عثمان مع الثوار ، وجرح الحسن ، وشجق قنبر ، فخشي الثوار أن يتعهد بنو هاشم وبنو أمية ، وأن يجمعوا أمرهم لحماية عثمان ، فتسلل بعضهم إلى دار قوم من الأنصار ، وتسوروا عليها ، ودخلوا على عثمان فقتلوه .

فلما علم علي بمقتله أسرع إليه ، فدخل عليه الدار حزينا ، واطم الحسن وضرب الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، ولعن عبد الله بن الزبير ، فقال له طلحة : يا أبا الحسن ، لا تشتم ولا تضرب ولا تلعن ، لو أن عثمان دفع إلى الثوار مروان بن الحكم ما قتلوه<sup>(١)</sup> .

وقعت الكارثة ، واغتيل عثمان ، ولم يكن بد من اختيار خليفة يدبر شؤون المسلمين ، ويجمع كلمتهم ، وينفذ فيهم حدود الله ، فمرض الثوار على طي أن يقبل الخلافة فأبى ، ثم استعانوا عليه بالمهاجرين والأنصار فقبل ، وأقبل المسلمون فبايعوه . بايعه المسلمون إلا قلة ، منهم سعد بن أبي وقاص ، لأنه كان ممن اعتزلوا الفتنة ، وآثروا الحيدة المطلقة ، فخلاه علي وشأنه ، ومنهم عبد الله بن عمر ، وقد حذره علي عواقب الدس والمكيدة ، ومنهم الزبير وطلحة ، ولكل منهما طمع في الخلافة ، لهذا لم يدعهما الثوار وشأنهما ، ولم يتسامح علي معهما كما تسامح مع سعد وابن عمر ، بل اضطرهما الثوار إلى البيعة ، أوهما سارعا إلى البيعة مخافة الاضطرار ، واستوثق منهما علي<sup>(٢)</sup> .

وإذا فقد صار علي خليفة المسلمين ببيعة اشترك فيها من كانوا بالمدينة من أهل الكوفة والبصرة ومصر ، ومن كانوا في المدينة من الأنصار والمهاجرين . والحق أن اختيار علي كان غاية التوفيق في خضم هذا الحرج والضيق ، فهو ابن عم النبي وربيه ، وقد تعهد النبي بتربيته منذ العاشرة ، وقربه إلى نفسه أعظم تقريب ، واستخلفه علي ودائعه حينما هاجر من مكة حتى يردها إلى ذويها ، وكشف له عن

(١) مروج الذهب ٤٤١/١ .

(٢) كانت الكوفة زبيرية الهوى والبصرة طاحية الهوى ( الطبري ٥ / ١٦٨ ) وأغلب

الظن ان كلامهما كان يطمع في أن يوليه علي المصير الذي يناصره .

خطته في النجاة من المؤمنين بقتله ليلة الهجرة ، فنام في فراشه ، فلما هاجر بعد النبي  
أخى النبي بينه وبينه ، وهو إلى هذا زوج ابنته فاطمة ، ووالد الحسن والحسين  
سبطي الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو إلى كل ذلك بطل من أبطال الجهاد ،  
شهد مع النبي حروبه كلها ، وكان صاحب رأيته ، وهو علم من أعلام الصحابة  
في معرفة الشريعة ، واستقامة المقصد ، ووثاقة الإيمان .

أما مكة فقد تأبّت على البيعة ؛ لأن كثيرا من أنصار عثمان وخصوم علي كانوا  
بها ، وفي مقدمتهم السيدة عائشة . وقد حزنت أشد الحزن لما علمت بأن المدينة  
بايعت عليا ، وقالت : وددت لو أن السماء انطبقت على الأرض ، ولم يصر الأمر  
إلى علي <sup>(١)</sup> . ثم انضم إليها طلحة والزبير ؛ وما لبثوا إلا قليلا حتى تجمعوا وقصدوا  
إلى البصرة في نحو ثلاثة آلاف <sup>(٢)</sup> .

لم يكن بد للخليفة الذي بويع ، واشترك في بيعته بعض هؤلاء ، من أن يلحق  
بهم ، وقد فعل ذلك ، غير عازم على قتالهم ، بل لحق بهم لينظرهم ويدعوهم إلى  
الصلح ، عسى أن يثوبوا إلى الحق ويعودوا معه إلى المدينة ، فقد مثل : أي شيء  
تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ فقال . أما الذي نريد ونتوى فالإصلاح إن قبلوا منا  
وأجابونا إليه . فقبل له : فإن لم يجيبونا إليه ؟ قال : ندعهم ما تركونا . قيل له :  
فإن لم يتركونا ؟ قال : نمتنع منهم <sup>(٣)</sup> .

ومعنى هذا أن عليا حريص على السلام أشد الحرص ، حتى إنه إذا حارب فلن  
يفعل أكثر من الدفاع .

ثم التقى الفريقان في موقعة الجمل <sup>(٤)</sup> ، وقتل الزبير وطلحة ، وبايعت البصرة .  
وبعد أن هدأت المعركة بأيام رد عليّ السيدة عائشة إلى المدينة ، وشيعها وكرمها ،  
ثم ارتحل إلى الكوفة فبايعته ، وبدأت الرسل تسفر بينه وبين معاوية ، فلم يقدر  
لها نجاحا ، ثم كانت موقعة صفين ، وكان التحكيم .

(١) الطبري ١٧٢/٥ وما بعدها . (٢) الطبري ١٦٨/٥

(٣) الطبري ١٨٣/٥ . (٤) ذكر ابن النديم فقلا عن ابن إسحاق أن عليا لما

خرج لقتال طلحة والزبير تسمى أتباعه بالشيعة

انتقل على إلى العراق ، واختار الكوفة مركزاً له ، وانبوعا لدعوته ، وعاصمة  
لخلافته ، وانضوى تحت لوائه كثير من سكان العراق .

وصارت العراق والكوفة بمخاصة موئل الشيعة ، ومنبع التشيع ، ومصدر  
الثورات على بني أمية .

وهناك أسباب شتى لإقبال العراق بعامة والكوفة بخاصة على التشيع ،  
لعل أقواها :

١ — أنهم وجدوا علياً أجدر بالخلافة من معاوية ، وأعجبوا بعلمه وتقواه  
وعطفه عليهم .

٢ — وشعروا بأن في التشيع لأبناء على نصرة للجنس الفارسي ، لأن الحسين  
ابن علي تزوج شاهبا نو إحدى بنات يزدجرد آخر أكاسرة الفرس ، فأبناء الحسين  
في نظرهم ورثة ملوكهم وورثة تقاليدهم .

٣ — أن أكثر سكان الكوفة من أصل فارسي ، أسلموا واندمجوا بالعرب<sup>(١)</sup> .  
وكانت العقيدة الشيعية ملائمة لعقولهم ، وملائمة لعواطفهم وماضيهم ؛ لأنهم كانوا  
يعتقدون في ملوكهم أنهم مصطفون من الله لسياسة خلقه ، فهم ظل الله على أرضه ،  
وهم مؤيدون بقوة من عنده ، ولهم على الناس أن يسمعواهم ويطيعواهم ، وليس  
لأحد حق عليهم — م . وإذا فلم يكن الفرس يستطيعون أن يتصوروا خليفة النبي يختار  
بالانتخاب ، وإنما يفهمون أنه يرث الخلافة ، كما توارثها البرثيون ( ٢٥٥٥ ق م  
إلى ٢٢٦ م ) وكما توارثها من بعدهم بنو ساسان نحو أربعة قرون ( ٢٢٦ م — ٦٥٢ م ) .

فلا غرابة في أن نقل الفرس الدين أسلموا ولاءهم القديم لملوكهم إلى ولاء جديد  
لعلي بن أبي طالب وبنيه ، لأنهم أقرب الناس إلى النبي عليه الصلاة والسلام ،  
وأحقهم بوراثته .

(١) فجر الإسلام ٩٢ عن وهوسن Wellhausen

ولقد يدل على هذا أن الفرس كانوا يؤثرون أقارب النبي في ولائهم ، فقد حالت الأساورة <sup>(١)</sup> الأزد — وهم من اليمن — ثم سألوا عن أقرب الحيين — الأزد وبني تميم — نسباً إلى النبي عليه الصلاة والسلام وإلى الخلفاء الراشدين ، فقل لهم بنو تميم ، فتركوا الأزد وحالفوا بني تميم .

ولقد اتفق على هذا الوصف كثير من الباحثين ، قال الأستاذ نولدكه : إن الملوك الفرس كانوا يزعمون أن لهم وحدثهم الحق في أن يلبسوا تاج الملك ، بما يجري في عروقهم من دم إلهي .

وقال الأستاذ برّون : إن نظرية الحق الإلهي لم تعتق كما اعتنقت في فارس في عهد الملوك الساسانية <sup>(٢)</sup> .

وقال دوزي : يظهر في فرقة الشيعة الفارق بين الجنس العربي الذي يجب الحرية ، والجنس الفارسي الذي اعتاد الخضوع كالعبيد ، لقد كان انتخاب خليفة للنبي أمراً غير معهود ولا مفهوم ، لأن الفرس لم يعرفوا غير الوراثة في الحكم ، لهذا اعتقدوا أن النبي إذ لم يترك وارثاً فإن علياً هو الذي كان يجب أن يخلفه ، وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية في أبناء علي ، وصار الخلفاء في نظرهم غاصبين للحكم ، لا تجب طاعتهم ، وقوى هذا الاعتقاد كراهيتهم للحكومة وللسيطرة العربية ، وحسدكم لسادتهم ولثرواتهم ، ثم إنهم اعتادوا أن يروا في ملوكهم أحفاداً منحدريين من الآلهة الدنيا ، فنقلوا هذا التوقير الوثني إلى علي وذريته . . .

ويتحدث مِرَّيما يشبه هذا ، ويزيد عليه أن الفرس كانوا قد تأثروا بآراء هندية قبل الإسلام بزمان طويل ، فقالوا إلى القول بأن الشاهنشاه هو تجسّد لروح الله التي تنتقل في أصلاب الملوك من الآباء إلى الأبناء <sup>(٣)</sup> .

وإذاً فقد كان التشيع ملائماً للفرس ، مجارياً لعقيدتهم ، موافقاً لعواطفهم . ولكن ليس معنى هذا أن الشيعة فرقة فارسية ، كما ذهب دوزي <sup>(٤)</sup> ، لأن هذا

(١) قوم من فرسان الفرس نزلوا البصرة ، والأحامرة نزلوا الكوفة .

(٢) فجر الإسلام ١١١ .

(٣) الخوارج والشيعة ٢٤٠ ولهوزن .



معناه أن المذهب فارسي النشأة ، وأنه نبع من الفرس أنفسهم ، على حين أن الوقائع تكشف عن نشأة التشيع بين العرب الخاص ، وانتقاله منهم إلى الموالي . ثم توالت ألحان على هؤلاء وأولئك ، فوثقت ما بينهم من وحدة المذهب ، فقد كان بعض المسلمين من بني هاشم وغيرهم يؤثرون أن يتولى الخلافة على بن أبي طالب بعد رسول الله ، ثم تحمس لهذا الرأي العرب الذين بالعراق .

وحق الفرقة الكيسانية التي نشأت بأخرة ، واشتهر زعيمها المختار بن أبي عبيد بالخرقة والأضاليل ، حتى هذه الفرقة كان بينها كثير من العرب الخالص ، فأول سادن لكرسیه هو موسى بن أبي موسى الأشعري ، ثم تلاه حوشب البرسمي ، والكرسي نفسه كان في حوزة البمينين ، وكان عبدالله بن نوف الممداني ينافس زعيمه المختار في التكهن والتبويه ، وكان أحد أعمام أعشى همدان ممن صدق بأن المختار يوحى إليه .

فإذا مارجعنا إلى الشعر المناهض لدعوة المختار ومخرقة ، وجدنا ذكرا لأحياء من العرب كانت تلتف به وتصدق دعاويه ، كشبام وشاكر ونهْد وخارف .

قال المتوكل اللثي (١) :

أبلغ أبا إسحاق إن جئت به      أنى بكرسيكم كافر  
تنزؤ شبام حول أعواده      وتخل الوحي له شاكر

وقال أعشى همدان (٢) :

وأقسم ما كرسيكم بسكينة      وإن كان قد لفّت عليه اللفائف  
وأن ليس كالتابوت فيما وإن سعت      شبام حوالبه ونهْد وخارف

لهذا كان جولد تسيهر على حق في ذهابه إلى أن التشيع عربي النشأة (٣) .

(١) و (٢) الطبري ٦ / ١٤١ .

(٣) المتيقنة والشربعة في الإسلام ١٦٩ جولد تسيهر .

٤ — وكان شعور الموالي يتخلفهم عن العرب في المكانة الاجتماعية والوضع السياسي من بواعث تشيعهم ، وبخاصة في الكوفة ، وسأزيد هذا إيضاحا في دراستي للشعبوية في هذا العصر .

٥ — ثم إن جنوح العراق بعامة إلى عليّ وبنيه من بعده ، وثوراتهم المتكررة على الدولة الأموية ، إن هي إلا أصداء للعداء القديم الذي كان بين العراق والشام ، فالتاريخ يحدثنا أن الحيرة كانت إمارة عربية موالية للفرس ، وكثيرا ما حاربت معهم الروم وأعوانهم من الغساسنة ، وكانت غسان إمارة عربية موالية للروم ، وكثيرا ما حاربت الفرس وعرب الحيرة مناصرة للروم ، ولم يكن هذا فحسب ، بل إن المناذرة ملوك الحيرة والغساسنة ملوك الشام طالما حارب بعضهم بعضا .

ثم جاء الإسلام فصب ماء على هذه النار المشتعلة ، وانصرف هؤلاء هؤلاء إلى الذود عن دينهم ، وإلى الفتح ، وحسب الناظرون أن النار قد خمدت ، فلما هبت عليها ريح من الصراع الناشب بين علي ومعاوية سرعان ما استعادت لهيبها ، وسرعان ما أُرِئَتْ وقودها ، فأبت الشام أن تخضع لعلی فتكون تبعية للعراق ، وأبت العراق أن تباع معاوية فتصير تابعة للشام ، وثمرت العراق لنصرة عليّ ، وجَدَّتْ الشام في تعزيز معاوية .

وليس أدل على أن مناوأة العراق للأمويين مظهر من مظاهر العداء القديم والعداء الجديد معا ، من أن سكان العراق كانوا طوال العصر الأموي يستجيبون لكل من يقودهم إلى الثورة على الخلافة الأموية .

فعلوا ذلك منضمين إلى علي ، ثم إلى ابنه الحسين ، ثم كانوا جنودا في ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وفي حرب مصعب بن الزبير لعبد الملك ، وفي خروج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج وعبد الملك ، وكذلك ثاروا على هشام ابن عبد الملك منضمين إلى يزيد بن علي زين العابدين بن الحسين ، فلما قتل ونش الأمويون قبره ، وأخرجوا جثته وصلبوها وأحرقوها وذرّوا رمادها في نهر الفرات ، حنق الشيعة ، والتفوا حول ابنه يحيى ، وأغروه بالثورة في عهد الوليد بن يزيد ،

فقتل كما قتل أبوه ، وأحرق ، ثم ناروا على الدولة مناصرين ليزيد بن المهلب .

٦ — ولقد أُرثَ هذا كله أن أكثر سكان العراق كانوا من العدنانية ، وبخاصة قيس ومضر وتميم ، على حين أن أكثر سكان الشام من القحطانية ، وبين هؤلاء وأولئك صراع قديم ، وإذا كان قد توارى في صدر الإسلام فإنه لم يلبث أن استيقظ في عصر بني أمية ، كما سنأبين في دراسة العصبية القبلية .

## — ٤ —

### أهم ثوراتهم وأعمالهم

اتفق ثلاثة من الخوارج على إراحة المسلمين من رؤساء الفرقة والصراع : على ومعاوية وعمرو ، بقتلهم في يوم واحد حينما يخرجون لصلاة الصبح .

أما عمرو فقد تكفل بقتله عمرو بن بكر التميمي ، لكنه لم يظفر به ، لأن عمرو ابن العاص تخلف عن صلاة الصبح في ذلك اليوم لعدة نزلت به ، وأتاب عنه في الصلاة صاحب شرطته خارجة العدوي ، وظنه القاتل عمراً فقتله ، واقتص منه عمرو فقتله .

وأما معاوية فقد انتدب لقتله الحجاج بن عبد الله الصريمي التميمي ، لكنه أخفق ، لأنه ضرب معاوية وهو دارع ، وقتل جزاء على جنايته .

وأما علي فقد تكفل بقتله عبد الرحمن بن ملجم الحنظلي حليف مراد ، فنجح حيث أخفق أصحابه ، ضرب علياً بسيفه وعلى ينادي للصلاة ، فكان جزاء الغتال أن مزق شر ممزق ، وأحرق بالنار .

١ — فلما قتل على راجت الدعوة لابنه الحسن ، وبايعه أهل الكوفة ، وقضى بالخلافة ستة أشهر . وجعل يستعد لقتال معاوية على كره منه ، لأنه لم يكن يريد قتال أحد ، على حين أن معاوية كان أمضى منه عزيمة ، وأشد ميلاً إلى الحرب ، فسبقه إلى الخروج بجيشه (١) .

(١) الكامل لابن الأثير ١٧٥/٣ والبداية والنهاية ١٤/٨

ولهذا يرى بروكلمان أن الحسن لم يكن الزعيم الذي تنتظره الدولة ، لأنه رفض أن يقود جيشه في الهجوم على معاوية<sup>(١)</sup> . ثم سار معاوية إليه ، فوجد الحسن أن أهل العراق قد خذلوه ، وأيقن أنه لا طاقة له بمعاوية وجنده ، فتصالح مع معاوية ( ٤٠ هـ ٦٦٠ م ) ، على أن يتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وعلى أن يختار المسلمون من يشاءون بعد موت معاوية ، ورفض ما عرضه عليه معاوية أن يخلفه بعد موته .

ولقد أراد بهذا التصالح أن يحقق دماء المسلمين ، لكن أصحابه لم يرتضوا التصالح ، فكانوا يقنونون له : يا عار المؤمنين ، فيرد عليهم بقوله : العار خير من النار . وقال له رجل : السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين ، فقال : لست بمذل المؤمنين ، ولكني كرهت أن أقتلكم على الملك<sup>(٢)</sup> .

وحينئذ توارى التشيع من الكوفة حيناً ، وانضم أهلها إلى معاوية ، وغادرها الحسن إلى المدينة ، وعاش بها حتى مات ( ٤٨ هـ ٦٦٨ م ) .

٢ — لكن التشيع لم يلبث أن عاد ، لأن معاوية أباح سب علي على منابر الكوفة عقب كل خطبة<sup>(٣)</sup> ، فهاج الشيعة ، فقبض زياد والي الكوفة على كبرائهم ( ٥١ هـ ) وأرسلهم إلى معاوية ، فقتل منهم ثمانية ، فيهم حُجْر بن عدي ، وعفا عن ستة تبرأوا من علي<sup>(٤)</sup> .

وكانت هذه القسوة سبباً في ضعف الشيعة أيام معاوية ، وقصر التشيع على ميدان النظر والعقيدة ، لا على ميدان العمل والثورة .

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ١٤٥/٢

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٩٢ والجابري ٩٢/٦ واليعقوبي ٢٥٥/٢ ومروج الذهب ٥٠/٢ .

(٣) أباح سبه خلفاء بني أمية إلا عمر بن عبد العزيز . ولقد استنكرها الصحابة ، ونهوا معاوية وخلفاءه عنها ، وكتبت أم سلمة زوجة الرسول إلى معاوية تقول إنكم تلعنون الله ورسوله على منابرهم ، لأنكم تلعنون علياً ومن أحبه ، وأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبه .

(٤) تاريخ الطبري ١٤١/٦ — ١٦١



٣ — فلما تولى يزيد بن معاوية الخلافة أرسل إلى عامله بالمدينة أن يأخذ له البيعة من كبار الصحابة في الحجاز ، فرفض عبد الله بن الزبير ، وفر إلى مكة .  
وكذلك فعل الحسين بن علي ، ورأسلته الشيعة من الكوفة ، فبعثوا إليه كتباً عدة يطالبونه فيها أن يشخص إليهم .

فبعث ابن عمه مسلم بن عقيل ، ليتعرف حقيقة أمرهم ، فالتفوا حوله ، وعاهدوه على النصرة ، فأرسل إلى الحسين يستدعيه (١) .

وكان عبيد الله بن زياد قد تولى الكوفة مضافة إلى البصرة ، فاشتد في معاملة الشيعة ، وقسا عليهم ، فتخلى كثير منهم عن مسلم ، وقضى عبيد الله بن زياد على ثورة الشيعة التي قادها مسلم ، وصلبه بعد مقتله ، فكان أول مصلوب من بني هاشم (٢) .  
وبهذا أراد أن يقوض دعائم الحزب العلوي معتمداً على الإرهاب الشديد ، إذ كان يقتل أو يسجن من يتشكك في ولائه لبني أمية ، وكان يعتمد على المال في استمالة الأنصار والخصوم على السواء ، ونجحت عطايه في تأليف قلوب كثير من العلويين ، ولهذا صدق الفرزدق في قوله للحسين لا سأله عن أحوال الكوفة : قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء (٣) .

خرج الحسين إلى الكوفة ، ولم يستمع إلى تحذير المخذرين ، ولم يكن قد علم بقتل مسلم وتخلي أهل الكوفة عنه ، فلقيته جنود عبيد الله عند كربلاء ، بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص ، فأعلمه الحسين أنه ما قدم يبتغي حرباً ، وإنما استدعاه أهل الكوفة ، وعرض عليه أن يدخل بينه وبين أي ثغر من ثغور المسلمين ، أو يتركه ليعود إلى مكة ، أو يدعه ليسير إلى دمشق ، فبقي يزيد بن معاوية .

ولكن عبيد الله بن زياد رفض هذا كله ، وبعث إلى قائده عمر ألا يقبل من الحسين إلا البيعة ليزيد والخضوع له .

فقال الحسين : أما هذه فدونها الموت ، واضطر إلى أن يحارب هو وأهله ، وأن يبلوا أروع البلاء على قلة عددهم وكثرة خصومهم ، فقتلوا جميعاً سنة ٦١ هـ (٦٨٠ م)

(١) الطبري ١٩٤/٦ - ٢١٥

(٢) مروج الذهب ٩/٣

(٣) الأخبار الطوال للدينوري ٢٥٨

ماعداء النسوة وبعض أطفال<sup>(١)</sup> ، فيهم على بن الحسين .

ولقد كان هذا الحادث البشع المنكر مذكياً للتشيع إلى أقصى حد ، وكان عاملاً على وحدة الشيعة وحماستهم لنصرة مذهبهم ، وسبباً في ثوراتهم الجارفة ليشأروا من قتلهم الحسين ، ثم كان من الأسباب التي نشرت التشيع بين الفرس أصهار الحسين<sup>(٢)</sup> ، فناصروا بني العباس في إسقاط بني أمية .

٤ — ولم يلبث عداء الشيعة للأشويين أن استعلن في عهد عبد الملك بن مروان ، فتحركوا بالكوفة سنة ٦٥ هـ وتداولوا أمرهم بينهم ، واجتمعوا على أنهم قد فرطوا في دم الحسين ، وندموا على ما اقترفوا ، وتابوا مما اجترحوا ، فسمعوا التوابين ، وتزعمهم سليمان بن صرد الخزاعي ، وهؤلاء التوابون اجتمعوا بالأنصارية ، ثم انتقلوا منها إلى قبر الحسين فبكوا كثيراً ، وناذوا : يارب إنا قد خذلنا ابن بنت نبينا ، فاغفر لنا ما مضى ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين .

ثم ساروا حتى التقوا في عين الوردية بجيش عبد الملك بن مروان ، يقوده الحصين بن نمير السكوني . فدعاهم القائد قبل الاشتباك أن يبأعوا عبد الملك ، فرفضوا ، وطلبوا منه أربعة مطالب : أن يدفع أهل الشام إليهم عبيد الله بن زياد ليقتلوه ثأراً للحسين ، وأن يخلعوا عبد الملك ، وأن يخرجوا من العراق آل الزبير ، ثم يرد الحكم إلى أهل بيت النبي . فأبى أهل الشام ، وتقاتل الفريقان بضعة أيام أحر قتال ، وقتل سليمان بن صرد ، وقتل من خلفاء على القيادة ، وانهزم التوابون سنة ٦٥ هـ<sup>(٣)</sup> .

٥ — عاد الذين نجوا من القتل إلى الكوفة ، وكان المختار بن أبي عبيد محبوباً ، وكان يكثر من الثناء على التوابين والإعجاب بشهادتهم وشبهوا في سجنه ،

(١) تاريخ الطبري ٧ / ١٩ والذي ارتكب قتل الحسين شمر بن ذي الجوشن التميمي

(٢) كان متزوجاً شاهبانو بنت يزيد جرد ملك الفرس ( الدعوة إلى الإسلام ١٨١

أرنولد ) .

(٣) الطبري ٧ / ٦٦ — ٨٠ وابن الأثير ٤ / ٧٣ ومروج الذهب ٢ / ١١٠ .

ويود لو أطلق ليتزعم التوابين ، ويثار للحسين وللشيعة ، ويثار من الزبيريين الذين حبسوه . وتشفع إلى والى الكوفة من قبل ابن الزبير ، فأطلق سراحه بعد استيثاق شديد ، لكنه بعد خروجه تزعم الدعوة ، والتفت الشيعة حوله ، وآزره محمد بن الحنفية ، وادعى المختار أنه أسيه ووزيره ، فقوى أمره بالكوفة حتى تغلب على والى ابن الزبير وطرده ، وجعل يحسن سياسته للكوفة ويواد أهلها ، ويعطف على الموالي . وفي السنة نفسها بعث جيشاً إلى المدينة لمساعدة ابن الزبير أو للمكر به ، وهو مظهر له أنه يريد مناصرته على جيش عبد الملك الذي قدم إلى مكة ليحاربه ، فنزل جيش المختار رادى القرى ، وتبين لقائد ابن الزبير أنهم يريدون الاستيلاء على المدينة ، فخاربهم وهزمهم .

فلما حبس ابن الزبير محمد بن الحنفية وأهل بيته وبعض أشرف الكوفة — وكان ابن الحنفية قدم إلى مكة للحج — بالبيت الحرام ، وهددهم بالإحراق إن لم يبايعوه ، أرسل ابن الحنفية إلى المختار يطلب النجدة ، فأرسل جنوداً إلى مكة لإنقاذه ، فخافهم ابن الزبير وأطلقه .

وعلم المختار أن عبيد الله بن زياد قادم بجيشه من الشام إلى العراق ، فبعث جيشاً لقيه عند الموصل سنة ٦٦ ، وانتصر جيش المختار نصراً غير حاسم ، ثم التقى الجيشان ثانية بقيادة المختار نفسه عند نهر خازر سنة ٦٧ وكان النصر الحاسم للمختار ، وقتل عبيد الله بن زياد .

وفي الفترة التي بين الموقعتين تأمر عليه أشرف الكوفة ، فخاربهم سنة ٦٦ ، وقتل كثيراً منهم ، وثار للحسين من قاتليه ، واشتفى بخاصة من عمر بن سعد بن أبي وقاص وشمر بن ذى الجوشن ، فهرب كثير من سكان الكوفة إلى مصعب ابن الزبير بالبصرة .

ثم كانت نهايته على يد المهلب قائد جيش مصعب سنة ٦٧ (١) هـ .

٦ — فلما كان عهد هشام بن عبد الملك خرج زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بالكوفة يريد الخلافة ، وكان معه القواد والأشراف ، فلما قامت

(١) الطبرى ٨٠/٧ ، ١١٢ ، ١٤٦ وابن الأثير ٦٩/٤ ومروج الذهب ٩٨/٢ ، ١١٤

الحرب انهزم عنه أصحابه ، وبقى في جمع قليل ، فقاتل بهم أشد قتال وهو يقول متمثلا :

أذل الحياة وعز الممات وكلا أراه طعاما وبيلا  
فإن كان لا بد من واحد فسيرى إلى الموت سيرا جميلا

فقتل وصلب سنة ١٢١ أو ١٢٢ هـ .

وبعد أربع سنوات أو خمس ثار ابنه يحيى في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك بنجراسان ، فقتله قائد الوالى نصر بن سيار ، وصلبه منه ١٢٥ (١)

٧ — على أن الشيعة لم يشنهم عن عقيدتهم ما لقوا من تنكيل ، فما زالوا يدعون إلى مذهبهم ، ويؤلبون الأنصار ، حتى ضعفت الدولة الأموية ، وقامت دولة بنى العباس .

وهنا تلون الصراع بلون جديد ، إذ انقسم الشيعة إلى علويين وعباسيين ، وصار المتشيع هو الذى يقصر الإمامة على نسل على بن أبى طالب ، أما الذى يوالى بنى العباس فليس من الشيعة فى شيء (٢) .

ولقى الشيعة من اضطهاد بنى عمومته مثل الذى لقوه من بنى أمية من قبل ، بل أشد وأقسى ، وتعددت ثوراتهم فى أقاليم شتى .

ففى عهد المنصور خرج محمد (النفيس الزكية) وأخوه إبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على الذى كان أستاذا لأبى حنيفة . خرج إبراهيم بالعراق ، وخرج محمد (النفيس الزكية) بالمدينة سنة ١٤٥ ، وبسبب خروجهما أودى أبو حنيفة بالعراق ، وأودى مالك بالمدينة ، لأن أبا حنيفة كان لا ينهى عن الخروج لمناصرة إبراهيم ، بل كان يحرض عليه أو يوعز به ويذكره . فلما تولى أبو جعفر المنصور ترصد أبا حنيفة ، حتى إذا خمدت الثورة أراد أن يثار منه ، فدعاه إلى القضاء ، فلما رفض نكل به .

(١) الطبرى ٨/٢٦٠ ، ٣٧٧ ، ٣٠١ ، ومروج الذهب ٣/١٨٢

(٢) أعيان الشيعة ١/١٦ — ١٩



وأما مالك فقد أفتى أهل المدينة بأن المستكره لا يمين له ، لأن كثيرا من الثائمين مع محمد النفس الزكية قالوا إن بيعة المنصور أخذت كرها ، فاتخذوا من فتوى مالك ذريعة للانتقاض ، فلما مثل مالك عن خروجهم على المنصور قال: إن الخروج على مثل عمر بن عبدالعزيز لا يجوز ، فإذا كان على غير مثله فدعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم الله من كليهما ، وقد نكل به إلى المدينة بأمر من المنصور ، ثم ادعى المنصور أنه لم يأمره .

ثم قتل محمد ، وحمل رأسه إلى عيسى بن موسى ، فدخل المدينة ، وآمن أهلها على أنفسهم ، وكانت الثورة شهرين وسبعة عشر يوماً (١) .

وهكذا تعددت اثورات باليمن والمدينة والبصرة سنة ١٩٩ في عهد المأمون ، وبالكوفة وطبرستان في أيام المستعين سنة ٢٤٨ ، ٢٥٠ ثم بالكوفة والرى سنة ٢٥٥ في خلافة المعتز بالله .

وكان العباسيون يقسون أشد القسوة في التنكيل بالشوار وتقتيلهم وتحريقهم ، ذكروا أن المنصور أمر فحمل إليه مَنْ في المدينة من عنوين مقيدين بالسلاسل ، فلما وصلوا إليه حبسهم في سجن مظلم لا يتبين فيه ليل ولا نهار ، فإذا مات واحد منهم في السجن تركه معهم ، ثم أمر بهدم السجن عليهم .

وقد ردد شعراء الشيعة سخطهم على بني العباس ، وشهروا بمظالمهم ، كقول الشريف الرضي :

ألا ليس فعلُ الأولين وإن علا      على قُبْحِ فعلِ الآخرين زائد  
وقول أبي فراس الحمداني :

ما نال منهم بفو حرب وإن عظمَتْ      تلك الجرائمُ إلا دون نيلكم

ولكن كيف انتقلت الدعوة من نسل على بن أبي طالب إلى نسل العباس بن عبد المطلب ؟

ذلك أنه بعد موت محمد بن الحنفية ظهرت فرقة الهاشمية التي اعتقدت أنه أوصى إلى ابنه عبدالله المعروف بأبي هاشم .

ثم افترقوا ، فمنهم من ساقها بعده إلى أخيه علي ثم إلى ابنه الحسن بن علي . ومنهم من زعم أن أبا هاشم لما مات بأرض السراة في منصرفه من الشام أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم المعروف بالإمام ، وأوصى إبراهيم إلى أخيه عبد الله الملقب بالسفاح . وأوصى السفاح إلى أخيه عبد الله ابن أبي جعفر الملقب بالنصور ، وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد .

وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة العباسيين ، وكان منهم أبو مسلم الخراساني وسليمان بن كثير وأبو سامة الخلال وغيرهم من شيعة بني العباس<sup>(١)</sup>

### أشهر فرقهم

الإمامية لقب يشمل فرق الشيعة ، لأن الإمامية هم الذين استدلوا على إمامة علي ، ورأوا أنها تنتقل منه بالتعيين ، وأن الإيمان لا يكتمل إلا بمعرفة الإمام . وهم مجمعون على أن الإمامة في علي بن أبي طالب ، ثم في ولديه الحسن والحسين ، ثم انقسموا إلى قسمين :

قسم نقلها من الحسين إلى محمد بن الحنفية ، وهم الكيسانية ، ووقف بعضهم عنده ، وساقها آخرون إلى ابنه أبي هاشم .

ثم افترقت الهاشمية إلى خمس فرق ، رأت إحداها أن الإمامة انتقلت من أبي هاشم إلى بني العباس .

وقسم نقل الإمامة من الحسين إلى ابنه علي زين العابدين ، ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق وهوؤلاء انقسموا قسمين :

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٣٣ .

١ — الإمامية الاثنا عشرية ، وهم الكثرة الغالبة الآن في باكستان وإيران والعراق وسورية ولبنان وغيرها .

٢ — والإمامية الإسماعيلية ، وهم في الهند وباكستان وسورية وجنوبي افريقية ، وكان منهم الفاطميون والقرامطة .

والإمامية الاثنا عشرية والإسماعيلية يتفقون في الأئمة إلى جعفر الصادق .

ثم يختص الاثنا عشرية بالإمامة بعده ابنه موسى الكاظم ومن بعده ، إلى الإمام الثاني عشر ، وربما خصوا باسم الإمامية .

ويذهب بها الإسماعيلية إلى ابنه إسماعيل ، معتمدين على أن ذلك كان بنص من أبيه جعفر . وإذا كان إسماعيل قد مات قبل أبيه فإن إعمال النص الذي قاله الإمام أولى من إهماله ، وهم يعتبرون أقوال الإمام نصوصاً شرعية واجبة الإعمال .

ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المستور ومن بعده .

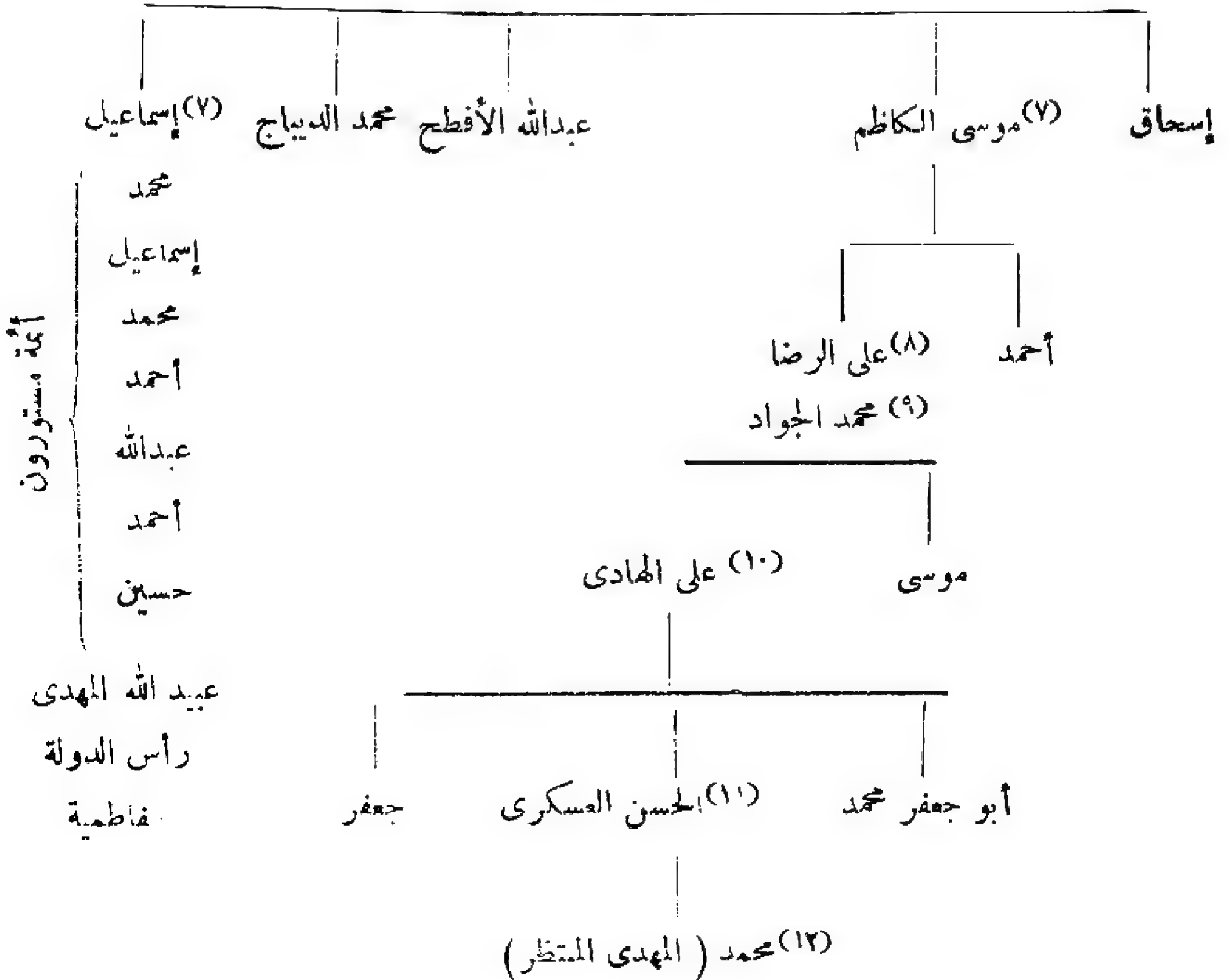
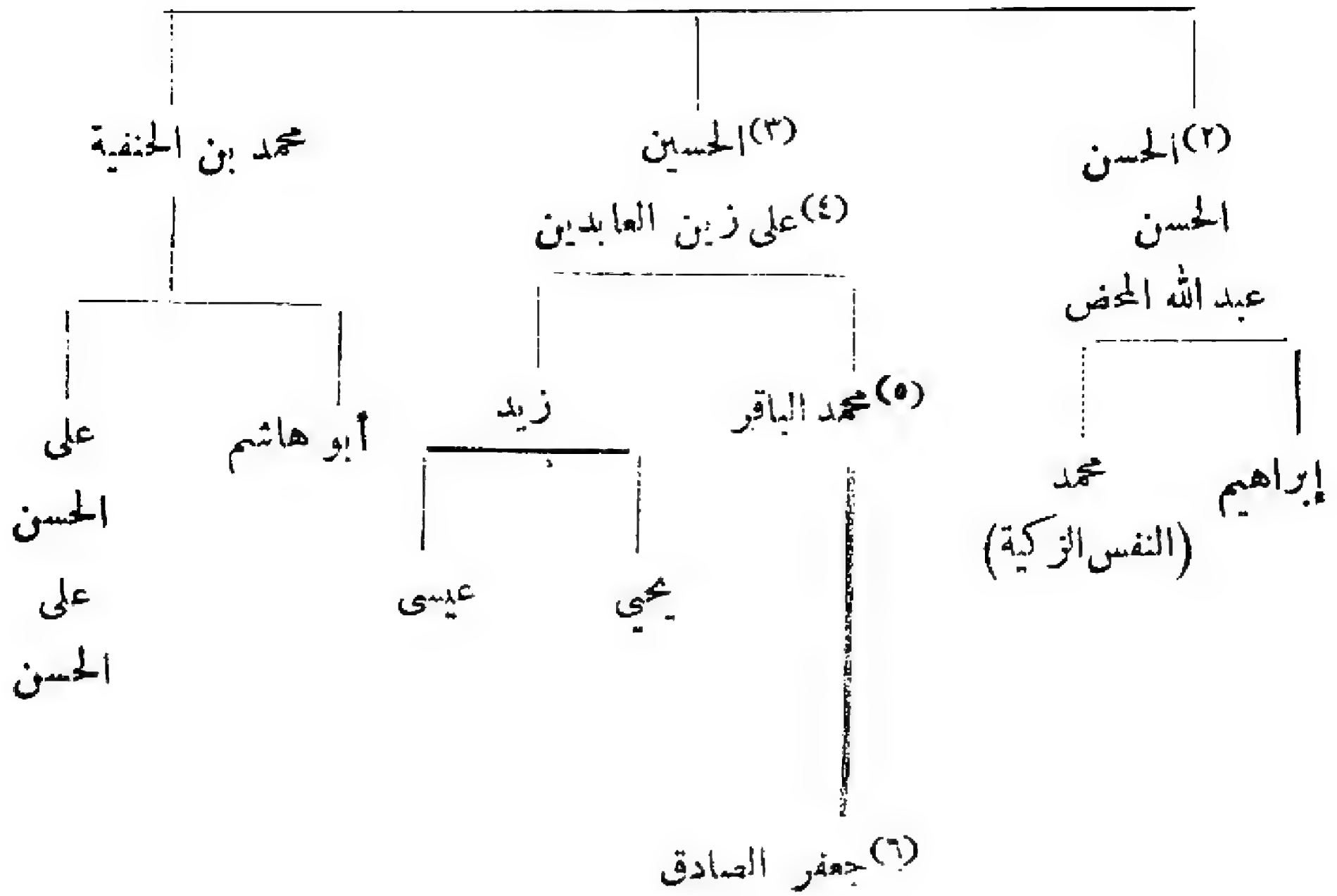
وهؤلاء الإسماعيلية قد سُمُّوا الباطنية ، إما لأنهم كانوا يستخفون من الناس فراراً من الاضطهاد ، وإما لزعمهم أن الإمام مستور إلى أن ظهرت لهم بالمغرب دولة ، ثم انتقلت إلى مصر ، وإما لزعمهم أن للشرعية ظاهراً يعلمه الناس ، وباطناً لا يعلمه إلا الإمام (١) .

والجدول الآتي يوضح تسلسل الأئمة في عقيدة الاثنا عشرية والإسماعيلية .

---

(١) الاثنا عشرية يوافقونهم في أن الإمام منفرد بعلم الباطن

(١) علي



## الكيسانية

١ — أول فرقة يصح أن تسمى بالشيعة هي الكيسانية ، لأن كلمة شيعة كانت تطلق من قبل على أنصار أى شخص وأعدائه ، وكان أنصار على يسمون العلويين أو الهاشميين ، ولكن كلمة شيعة تمحضت في هذا الوقت للدلالة على أنصار أبناء على .

أما كيسان المنسوبة إليه فمختلف فيه <sup>(١)</sup> ، لكن الذى لا خلاف عليه أن المختار ابن أبى عبيد الثقفى تزعم الفرقة سنة ٦٦ هـ بعد مقتل سلفه سليمان بن صرد ، وبعد هزيمة التوابين سنة .

٢ -- فمن المختار ؟ وما حقيقة ؟

أما نسبه فتبقى ، من أسرة كريمة ، قاد أبوه المعركة ضد الفرس عند البويب ( النخيلة ) وقتل .

وكان المختار زوجا لبنت النعمان بن بشير الأنصارى وإلى الكوفة في عهد يزيد ، وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب زوجا لأخته ، ولهذا كان المختار يعتمد عليه في تخليصه من المأزق ، فقد أنقذه من سجن عبيد الله بن زياد ، ومن سجن ولادة عبد الله ابن الزبير بالعراق .

وأما تاريخه فخاف بالدهاء وانتقلب والمطامع والشجاعة ، ذلك أنه بدأ حياته السياسية عثمانى النزعة لعلوى الوجهة <sup>(٢)</sup> ، ويعزز ذلك أنه في سنة ٤٠ هـ بايع الناس الحسن ابن على بالخلافة ، ثم خرج بهم حتى نزل المدائن ، وأقبل معاوية في أهل الشام ، وكان سعد بن مسعود عم المختار عاملا على المدائن حينئذ ، وكان هو وعبد الله ابن عباس يتزعمان البيعة للحسن ، فقال له المختار وهو ما يزال شابا : هل لك في الغنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : تقبض على الحسن ، وترسله إلى معاوية ، لتتال رضاه .

(١) أهو كيسان مولى على بن أبى طالب الذى قتل يوم صفين ؟ أم كيسان تلميذ محمد بن الحنفية ؟ أم كيسان رئيس حرس المختار بن عبيد الثقفى ؟ أم هو المختار نفسه لأنه كان يسمى كيسان ويكنى أبا عمرة وأبا اسحاق ؟ ( المثل والنحل ١/١٣٣ والفرق بين الفرق للبغدادى والخور العين لنشوار الحميرى ١٨٢ ) .

(٢) الطبرى ٩٢/٦



فأبى سعد أن يستجيب لمشورة المختار (١) .

ثم صار من شيعة الحسين بن علي ، لأنه أوى مسلم بن عقيل لما بعثه الحسين إلى الكوفة ، وشاركه في الدعوة إلى الحسين (٢) ، فلما قتل مسلم سجنه عبيد الله بن زياد ، ثم عفا عنه ، ونفاه خارج الكوفة .

وقبيل مقتل الحسين أقبل المختار في جند مسلح لينسروا الحسين ، لكن الحسين قتل قبل أن يبلغوه ، فقبض عليه عبيد الله بن زياد وحبسه ، وضربه بالقضيب حتى شتر عينه ، فشفع له عبد الله بن عمر بكتاب إلى يزيد بن معاوية ، فكتب يزيد إلى عبيد الله أن يطلقه ، فأطلقه ، ولكن نفاه ، فخرج إلى الحجاز ، وانصل بعبد الله ابن الزبير (٣) .

وحينئذ يصير المختار من أنصار ابن الزبير ، ويبايعه ، ويشترط عليه ألا يقضى أمرا دونه ، وأن يكون أول من يدخل عليه ، وأن يوليه أفضل أعماله إذا استقام له الأمر . لكن ابن الزبير يتأني قليلا في الموافقة ، ثم يستجيب ، ووفي كل من الرجلين بما عاهد عليه إلى زمن محدود ، فكان المختار اثرا عند ابن الزبير ، وكان ابن الزبير يستشير ، وقد أبلى المختار في قتال ابن الزبير للحصين بن نمير أحسن بلاء ، وقاتل أشد قتال سنة ٦٥ هـ مع الخوارج الذين قدموا للدفاع عن مكة ولناصر ابن الزبير (٤) .

فلما مات يزيد بن معاوية ، وأعلن ابن الزبير نفسه خليفة طمع المختار أن يوليه العراق ، فلم يجبه إلى ما طلب .

وأغلب الظن أنه تخوف من مطالبه ومن نفوذه هناك ، فاجتال المختار عليه ليعود إلى العراق ، بدعوى جمع الأنصار وتدير الوسائل (٥) .

والحق أنه لم يجد في انضمامه إلى ابن الزبير ما كان يريد من مآرب ، ولم يجد في مكة

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ٢١٤/٥ .

(٢) الطبري ٥٨/٧ .

(٣) يعقوبي ٥/٢ .

(٤) الكامل لابن الأثير ٥٥/٣ و ٧٢/٤ والبداية والنهاية ٢٤٩/٨ ومروج

الذهب ١٩/٣ .

(٥) الطبري ١٣٣/٧ .

مجالاً لزعامته ، فتخلى عن ابن الزبير ، واتجه إلى الكوفة بعد أن طرد التوابون واليهما عبيد الله بن زياد ، واعتزم — كما قال — أن يجمع التوابين على مرّ الحق ، وينفي بهم ركبان الباطل ، ويقتل بهم كل جبار عنيد

فلما قتل سلمان بن صُرَد خلفه في زعامة التوابين ، وهم يثارتهم على واليهم من قبل عبد الله بن الزبير — عبد الله بن يزيد — فسجنه ، ثم أطلقه بعد استيثاق وإيمان ، لكنه تحلل من أيمانه في عهد الوالي الآخر — عبد الله بن مطيع القرشي — وكتب إلى علي بن الحسين يعرض ولاءه ، فرفضه وأمنه ، فكتب إلى محمد بن الحنفية (١) يؤكد ولاءه له ويعده بالنصرة ، فحذر عليّ عمه ، وأشار عليه ابن عباس ألا يجبهه باللعن والتكذيب كما فعل علي ، فقبل محمد بن الحنفية .

حينئذ قوى شأن المختار بالكوفة ، وكثر أنصاره ، وجعل يدعو لمحمد بن الحنفية ، ويزعم أنه أمينه ووزيره (٢) ، واستطاع أن يضم إليه إبراهيم بن الأشتر النخعي ، وأن يحارب الوالي ، ويستولي على الكوفة سنة ٦٦ هـ . وجدّ في تقريب الموالي والعطف عليهم (٣) ، فتكاثروا في حربه كثرة مذهلة ، وكانوا يخلصون له أعظم الإخلاص ، ويشقون به أعظم الثقة .

وهنا مال إلى ابن الزبير مرة ثانية ، أو أراد المكيدة به والخديعة له ، فإنه بعد استيلائه على الكوفة أرسل إلى ابن الزبير يعرض عليه أن يتعاونوا على عدوها المشترك ، جند الشام الذين زحفوا إلى الحجاز حتى بلغوا وادي القرى سنة ٦٦ ، فوافق ابن الزبير ، وأرسل إليه المختار جيشاً من ثلاثة آلاف ، لكن قائد ابن الزبير توجس منهم شراً فقتلهم .

ثم تتبع المختار قاتلي الحسين والتأمرين عليه ، فقتلهم ، وكادت العراق كلها تدين له ، وحارب عبيد الله بن زياد وقتله ، فكان هذا النصر من عوامل قوة الكيسانية وكثرة أشياعهم .

(١) هو محمد بن علي بن أبي طالب ، أمه خولة بنت جعفر الحنفية ، نسبة إلى حنيفة وهم حي من العرب ( القاموس المحيط ) .

(٢) الطبري ٩٧/٢ ،

(٣) الأخبار الطوال ٢٩١ الدينوري

ثم كانت نهايته على يد مصعب بن الزبير ، إذ حاربه قرب الكوفة سنة ٦٧ و قتله ، وقضى على آلاف من أتباعه ، فدانت الكوفة لمصعب . وكان عبد الملك بن مروان قد ترك خصميه يتصارعان ، لتضعف قوتهما ، وليقضى أحدهما على الآخر .

وكان مصعب — بعد قتل المختار — شاور أصحابه في المحصورين من الكيسانية الذين نزلوا على حكمه ، فاختلفوا في أمرهم بين الإطلاق والقتل ، فأمر مصعب بقتلهم ، — وكانوا ستة آلاف — فقال عقبة الأسدي :

قتلتم ستة آلاف ضربا على العهد الموثق مكتفينا  
جعلتم أمة الحبطى جعرا ذلالاً ظهره للواطيننا  
وما كانوا غداة دُعوا فغروا بهدم بأول خائبينا  
وكنتم أمرتهم لو طارعونى بضرب فى الأزقة مضليننا<sup>(١)</sup>

٣ — على أنه لما أدرك بغيته تبين أنه صاحب أباطيل ، وليس صحيح المذهب . وإنما هو يريد الحكم<sup>(١)</sup> . يصفه المبرد بأنه كان خارجيا ، ثم زيريا ، ثم رافضيا<sup>(٢)</sup> .  
ويذكرون عنه ألوانا من الأضاليل ، فيقولون إنه كان يزعم أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بوحى من الله ، وكان يدعى أنه نبي ، فقد كتب إلى أهل البصرة يقول : بلغنى أنكم تكذبونى ، وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبلى ، ولست بخير من كثير منهم<sup>(٣)</sup> .

ويقولون إنه كان يمخرق على الناس بأكاذيب شتى ، منها أنه كان يتركن بأمر ويحتال فيوقعها ، ثم يزعم للناس أن هذا من عند الله ، كقوله : « لتزلزلن من السماء نار دهاء ، فلتحرقن دار أسماء » فعلم بهذا أسماء بن خارجة ، فقال « أو قد سمع بى أبو إسحاق ؟ هو والله مُحَرَّقٌ دارى » . فتركه وترك الدار ، وهرب من الكوفة .

(١) تاريخ الطبرى ١٦١/٧

(٢) الأخبار الطوال للدينوى ٢٩٨

(٣) تهذيب الكامل ٣٦٧/٢ .

(٤) العقد الفريد ٢٦٥/٥ .

وخرج يُشَيِّعُ إبراهيم بن الأشتر وهو ماض لقتال عبيد الله بن زياد ، فقال للناس :  
« إن استقمتم فبنيصر الله ، وإن حصتم خيصة (١) ، فإنى أجد فى محكم الكتاب ،  
وفى اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب ، تأتي فى صور الحمام دُوبِينِ  
السحاب » . وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما بيضا ، وقال لهم : إن رأيتم  
الأمر لنا فدعوها ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها . فلما التقى الجمعان دارت الدائرة  
على أصحاب إبراهيم ، فأرسل أصحاب المختار الطير ، فتصايح الناس : الملائكة الملائكة ،  
قتراجعوا وقتلوا حتى انكشف أصحاب ابن زياد وفنوا (٢) . ومن ضلالاته أنه جوز  
البَدء على الله تعالى (٣) .

وإنما افترى هذا ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث ، إما بوحي ، وإما برسالة من  
قبل الإمام ابن الحنفية ، فإن وافق الحدث ما تكهنت به جعله دليلا على صدق  
دعواه ، وإن خالفه قال : قد بدا لربكم (٤) .

ومن مفترياته أنه اتخذ كرسيًا غطاءه بالديباج ، وكان يضعه فى مقدمة الجيش ،  
ويقول لجنده : قاتلوا عليه ، فهو لكم كالتابوت لبني إسرائيل (٥) . وكان بعض أتباعه  
يعتقد أن الملك يأتيه بالوحي ، ويخبره بالغيب (٦) .

٤ — وإذا كان المختار لم يجد من أول أمره استجابة من الحسن بن على ، لأن الحسن  
أنكر رجعة أبيه ، ولم يجد ترحيباً من بعض أبناء الحسين ، لأنهم أنكروا فكرة

(١) حصم : حذتم .

(٢) ابن الأثير ١٦٩/٢ والطبري ١٣٣/٦ وطبقات الشعراء ٢٧٦

(٣) للبء ثلاث صور : البء فى العلم ، وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، وبءء فى الإرادة ،  
وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبء فى الأمر ، وهو أن يأمر بشيء ثم  
يأمر بخلافه . وهى كلها محالة عليه سبحانه وتعالى .

(٤) الملل والنحل ١/١٣٢ .

(٥) الطبري ١٤٠/٧ والكمال للبزد ١٧٠/٢ والملل والنحل ١/١٣٣ تابوت بني إسرائيل :

كانوا يحتفظون فيه بالتوراة ، وكان منطى لا يرفع غطاؤه إلا فى المناسبات الرسمية .

(٦) مروج الذهب ٩٨/٢

الوصاية<sup>(١)</sup> ، فإن محمد بن الحنفية لم يكن صريح التأييد للمختار ، لأنه كان ضعيف الثقة فيه وفي أهل الكوفة ، إذ خذلوا أباه وأخويه من قبل ، بل برى من المختار ، وتبرأ من ضلالاته<sup>(٢)</sup> .

## دعائم مذهبهم :

تدور أصول المذهب الكيساني<sup>(٣)</sup> حول الإمامة والإمام .

١ — فالإمامة — الخلافة — واجبة على المسلمين ، لا غنى لهم عنها ، لأن الإمام هو القيم على شؤون الناس ، والمنفذ لأحكام الله .

٢ — الإمامة حق على وبنيه ، فكل من ولي الخلافة منذ قامت غاصب جائر .

٣ — محمد بن الحنفية هو الإمام ، وقد عهد إليه أخواه الحسن والحسين بالأسرار وعلم التأويل والباطن الذي لقيناه من أبيهما على ، وعلى لقنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومحمد هذا لم يمت ، وإنما هو حي مقيم يجبل رضوى — بالقرب من المدينة — وسيعود فيملا الأرض عدلاً ، لأنه المهدي المنتظر . ولم يصرفهم عن هذا الزعم أن ابن الحنفية قد مات حقيقة سنة ٨٩ هـ ، وصلى عليه وإلى المدينة أبان بن عثمان بن عفان ، ودفن بالبقيع .

٤ — الإمام ممتاز من البشر ، لأن فيه قبساً إلهياً تنقل من نبي إلى نبي ، وتنقل من محمد صلى الله عليه وسلم إلى علي ، ومن علي إلى ذريته .

وهذا انقبس الإلهي يظهر الإمام من كل إثم ، ويهضمه من الخطأ ، ويفيض على قلبه وعقله معارف ربانية لا يدركها سواه ، لهذا زعموا أن الإمام هو العليم بالشرعية ،

(١) الطبقات

(٢) الملل والنحل ١/١٣٣ .

(٣) الملل والنحل ١/١٣٢ والفرق بين الفرق ٣٦ وتاريخ يعقوبي ٢/١٢٥ والشرعية

والمقيدة في الإسلام لجولد زهر ٢١٧



وأنه المشرع الوحيد ، فليس لأحد من المسلمين أن يجتهد ولا أن يقول برأيه . وإذا ارتكب الإمام خطأ في نظر الناس فإنه بالنسبة إليه مقبول لأن له من علمه وعصمته ما يوضح له السبيل .

٥ — طاعة الناس للإمام مفروضة عليهم ، والدين هو طاعة الإمام ، وهذه الطاعة تبطل ضرورة التمسك بالعبادات من صلاة وصيام

٦ — المؤمنون هم الأئمة ومن ناصرهم ، لأنهم الذين اكتمل إيمانهم ، وما الأئمة إلا على وبنوه .

٧ — ويدينون بالتقية ، كما دان من بعدهم بها .

والتقية هي اتقاء المكروه بالتظاهر بغير ما في النفس ، محافظة على الحياة أو المال أو العرض أو الحطة المرسومة ، كأن يظهر الشيعة طاعتهم للحاكم تقية لا رضا بحكمه ، ويوافقوا خصومه من كفار أو خوارج أو سنية ، فيدينوا بمذهبهم ، ويصلوا صلاتهم ويصوموا صيامهم ، تقية لا عقيدة .

وهي بهذا المعنى أصل من أصول التشيع ، لم يشذ إلا قليل عنه من فرق الشيعة ، لأنها وسيلة من وسائلهم السرية في كتمان العقيدة ، والتعمية على الحكومة ، والتلبس على غيرهم من المسلمين ، وتدير الحطط للثورات حتى تحين الفرص المواتية . ولهم في التقية أخبار شتى ، كقولهم إنه لا دين لمن لا تقية له ، وقولهم إن أبا جعفر سئل عن رجلين من الكوفة أخذوا ، وطلب منهما أن يبرآ من علي ، فبرىء واحد منهما ورفض الآخر ، فأطلق الأول وقتل الثاني ، فقال أبو جعفر : أما الذي برى فرجل فقيه في دينه ، وأما الذي لم يبرأ فرجل تعجل إلى الجنة .

وكأنما لم يقنعوا بدعواهم هذه ، فراحوا يسندونها بتأويل لبعض آيات القرآن الكريم ، وتخرج لأعمال أئمتهم ، فسر بعضهم قوله تعالى : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » بأن المراد صبرهم على التقية ، وبأن أصحاب الكهف كانوا أعظم الناس تقية ، لأنهم كانوا يشهدون الأعياد ويشدون الزناير ، فأعطاهم الله أجرهم مرتين . وفسر بعضهم قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » بأن المقصود بما أنزل إليه خلافة علي .

وأولوا قوله تعالى : « قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله » بأنه يجب على الشيعة أن يكتفوا بولاءه الحق .

وقالوا : إن رضا على بيعة أبي بكر وعمر وعثمان كان تقية ، وإن صلح الحسن مع معاوية كان تقية .

٨ - وقد تحدث الشعر عن هذا المذهب حديثاً سيأتى فى دراسة الشعر .  
أما الآن فأكتفى بقول كثير عزة - شاعر الكيسانية - فى الدعاية لابن الحنفية (١)

هُدَيْتَ يَا مَهْدِيْنَا ابْنَ الْمَهْدِي

أَنْتَ الَّذِي تَرْضَى بِهِ وَتَرْتَجِي

أَنْتَ ابْنُ خَيْرِ النَّاسِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ

أَنْتَ إِمَامُ الْحَقِّ لَسْنَا نَمْتَرِي

ويقول السيد الحميرى (٢) :

وَإِلَّا الْمَوَاشِطُ بِالْخَضَابِ (٣)	إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَذَالٌ
فَقُمُ يَا صَاحِبَ نَبْكِ عَلَى الشَّبَابِ	فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَتِهِ وَأُودِيَ
إِلَى دُنْيَاهُمْ قَبْلَ الْحَسَابِ	إِلَى يَوْمٍ تَتُوبُ النَّاسُ فِيهِ
إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الْإِيَابِ	فَلَيْسَ بِعَائِدٍ مَافَاتٍ مِنْهُ
وَمَا أَنَا فِي النُّشُورِ بِذِي ارْتِيَابِ	أَدِينُ بِأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقِّ
حَيُّوَا مِنْ بَعْدِ دَرَسٍ فِي التَّرَابِ (٤)	كَذَلِكَ اللَّهُ أَخْبَرَ عَنْ أَنَسٍ

(١) ابن الأنبر ١٠٦/٤

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٣٢ .

(٣) القذال : مؤخر الرأس . المواشط : جمع ماشطة وهى التى ترجل الشعر

(٤) درس : فناء .

يشير الحميري إلى ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف<sup>(١)</sup> ، وإلى ما جاء في سورة البقرة من ذكر الرجل الذي مر على قرية خاوية على عروشها ، وعجب من إحياء الله لها بعد موتها ، فأما الله مئة عام ثمبعثه<sup>(٢)</sup> ، وإلى إحياء القليل حين ضرب يبعض البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها<sup>(٣)</sup> .

٩ — وأغلب الظن أن الكيسانية وغيرهم من القلاة تأثروا بمزاعم سبقهم إليها عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أسلم في عهد عثمان مخادعا أو صادقا .

وقد تقدم أنه كان من المؤلبيين على عثمان ، وأنه انتهر القمعة على سياسته ، فجعل يوغر الصدور عليه .

ولابن سبأ هذا آراء متطرفة مضللة :

(١) افترى مذهب الرجعة ، وقال : إني لأعجب ممن يقول برجعة موسى ولا يقول برجعة محمد ، والله تعالى يقول : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » وزاد على هذا أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى ، ثم بنى على زعمه ، وبنى أتباعه من بعده أن عليا سيرجع .

ولقد بنى زعم الرجعة على أساس آخر ، هو أن علياً لم يمت ، ولما علم بقتله قال : لو أتيتمونا بدماغه في سبعين صرة ، وأقمتم على قتله سبعين عدلا ، ما صدقنا موته ، فإنه لا يموت حتى يعود ، فيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جوراً . على إذا حي ، وهو يحيى في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه<sup>(٤)</sup> .

هذه العقيدة في الرجعة أصل من أصول الشيعة ، نقلوها فيما بعد إلى المهدي المنتظر ، كما سأبين بعد . والعجيب أن السيد محسن الأمين العالم الشيعي المعاصر يقول إن في رجعة علي أخبارا عن أئمة أهل البيت ، وإنها لا يمنع منها عقل ولا شرع ،

(١) سورة الكهف ٩ — ٢٦

(٢) سورة البقرة ٢٥٩

(٣) سورة البقرة ٦٧ — ٧٣

(٤) المال والنحل ١/١٥٥ و فرق الشيعة ٣١ والطبري ٥/٩٨

فمن صحت عنده لزمه القول بها ، ويقول إن موافقتها لرأى ابن سبأ لا توجب أن تكون مأخوذة عنه (١) .

(ب) ادعى أن علياً وصى محمد ، وأنه خاتم الأوصياء ، بعد محمد خاتم الأنبياء ، وهذه عقيدة أخرى دان بها أكثر الشيعة . يقول السيد محسن الأمـين إن القول بالوصاية لعل بالإمامة لم يخترعه ابن سبأ ، بل إن كل الذين دعوا إلى إمامة علي بعد وفاة النبي كانوا يرون أن علياً وصى النبي ، وكل الذين حضروا يوم الغدير كانوا يعلمون تلك الوصاية (٢) .

(ج) على أن في كتب المذاهب أخباراً شتى عن ابن سبأ ، لم تسلم من التهويل والتزويد والتكثير ، وربما كان خصوم الشيعة هم الذين روجوا هذه الأخبار ، لينتقصوا من أقدارهم منذ قام لهم حزب متميز .

فهم يذكرون أن ابن سبأ كان يؤله علياً ، وأن علياً أمر بقتله ، ثم استبدل بالقتل نفيه إلى المدائن (٣) .

ولو أن هذا الخبر صحيح لاتخذ خصوم علي سلاحاً بتاراً في القضاء عليه ، وفض أتباعه من حوله ، بل لكان أتباع علي هم أول الخارجين عليه ، المحاربين له .

ويروون أن علياً لما آلت إليه الخلافة جَدَّ في مقاومة السبئية ، وهاله أنهم يؤطهونه (٤) ، فأمر بنار فأوقدت ، وأمر مولاه قنبراً فرماهم فيها ، فجعلوا يقولون وهم يرمون في النار : الآن صح عندنا أنه الله ، يريدون أن الله تعالى هو الذي يعذب الكفار في النار .

ولا شك أن هذه أسطورة ، لكنها مثيرة ، فليس في كتاب من كتب التاريخ الأول شيء من هذا ، وليس في أقوال أنصار علي أو خصومه إشارة إلى هذا الحدث ، ولو أنه كان صحيحاً لأشاد به أنصار علي ، دلالة على صفاء إيمانه ، ولو أنه كان

(١) أعيان الشيعة ٦٨/١

(٢) أعيان الشيعة ٦٨/١

(٣) الملل والنحل ١٥٥/١

(٤) نقد العلم والعلماء ١٠٣ - ١٠٨

شبه صحيح لاتخذه خصوم على معاول لهدم حربه ، لأنه إذا ضال مضل ، فهم لا يعنيه  
أنه حرق الدين الهوى ، بقدر ما يعنيه أنه أله .

ومن عجب أن يوافق على صحة هذا الخبر عالم شيعى كبير ، ثم يعلق عليه بأنه ليس  
من التشيع ، بل هو خروج على الإسلام (١) .

## — ٢ —

### الزيدية

أما هذه الفرقة فمنسوبة إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي .

وكان زيد قد خرج في عهد هشام بن عبد الملك ، يريد الخلافة ، وانضم اليه  
كثير من أهل الكوفة ، وتبعوه إلى المدينة ، فخاربه جيش هشام وقتله (٢) .

ومذهب هؤلاء أقرب إلى الاعتدال من الكيسانية ، وآراؤهم متأثرة بآراء  
المعتزلة ، لأن زعيمهم زيد بن علي كان تلميذاً لواصل بن عطاء ، فتأثر بآرائه ،  
وتأثر أتباعه به (٣) .

### دعائم مذهبهم :

١ — يحضرون الخلافة في بني علي من فاطمة ، ولكن لا عن طريق الوصية ،  
بل عن طريق اختيار ذوى رأى من الأمة ، ويرون أنه يصلح لها كل فاطمى عالم  
شجاع سخي زاهد ، متى خرج طالباً لها ، سواء أكان من نسل الحسن أم من نسل  
الحسين ، وهم متفقون على هذا التسلسل :

---

(١) أعيان الشيعة ١ / ٦٨

(٢) مروج الذهب ٢ / ١٨٢ والطبرى ٨ / ٢٧٦

(٣) الملل والنحل ١ / ١٣٨



- ١ — الحسين بن علي .
  - ٢ — علي زين العابدين بن الحسين
  - ٣ — زيد بن علي ( صاحب المذهب )
  - ٤ — يحيى بن زيد
  - ٥ — محمد بن عبد الله بن الحسن
- ابن الحسن بن علي بن أبي طالب  
المسمى بالنفس الزكية .

ثم يفترون الى عدة فرق :

- ١ — الجارودية أتباع أبي الجارود
- ٢ — السليمانية أتباع سليمان بن جرير
- ٣ — الصاحية والبترية أتباع الحسن  
ابن صالح وكثير بن الأبر .

٢ — لم ينكروا خلافة أبي بكر وعمر ، ولم يكفروهما ، لأنه يجوز في نظر رئيسهم زيد بن علي بن الحسين أن يتولى الإمامة مفضول في وجود الأفضل ، وعلى الخلافة أبي بكر مع وجود علي بقوله : كان علي أفضل الصحابة ، ولكن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين الفتنة ، وتطبيب قلوب العامة ، فإن عهد الحروب التي جرت أيام النبوة كان قريبا ، وسيف أمير المؤمنين على لم يجف بعد من دماء المشركين ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي ، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، فاقنضت المصلحة أن يقوم بهذا الأمر من عرفوه باللين والتؤدة والتقدم بالسن والسبق إلى الإسلام والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما سمعت شيعة الكوفة رأيه هذا ، وعرفوا أنه لا يبرأ من أبي بكر وعمر رفضوه ، فسموا رافضة (١) .

ويزيد ابن أبي الحديد هذه العقيدة وضوحاً في قوله إن علياً لو أنكر إمامة من قبله وغضب عليهم لقلنا إنهم من الهالكين ، كما لو غضب عليهم رسول الله ، لأنه ثبت أنه قال له : حربى حربك ، وسلمى سلمك . وقال : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . لكننا رأينا رضى إمامتهم ، وبايعهم ، وصلى خلفهم ، وأنكحهم وأكل من فيئهم ، فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ، ألا ترى أنه لما برىء من معاوية برئنا منه ؟ ولما لعنه لعناه (١) ؟

وهم بهذا لم يذهبوا مذهب الكيسانية والرافضة في تخطئة أبي بكر وعمر ، إذ رفضا أن يعطيا السيدة فاطمة بنت النبي قرية فذلك التي كان النبي قد صالح اليهود على نصفها وكانت خالصة له .

وحجة أبي بكر وعمر قوله النبي : نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ما تركناه صدقة .

لكن الشيعة — عدا الزيدية — لم يصدقوا هذا ، وذهبوا إلى أن النبي يورث ، ليعتمدوا على هذا في مطالبتهم بوراثة الخلافة أيضاً .

٣ — وكذلك لم يتغالوا في تقدير الإمام على مغالاة لا يقرها مسلم عاقل ، كما تفالت بعض فرق الشيعة .

فهو في رأيهم أفضل الخلق في الآخرة ، وأعلام منزلة في الجنة ، وأفضل الخلق في الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب ، وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه فإنه عدو الله سبحانه ، ومخلد في النار مع المنافقين والكفار ، إلا أن يتوب .

ومعنى هذا أنهم لا يجعلون بينه وبين النبي عليه الصلاة والسلام إلا رتبة النبوة ، وهما فيها عداها شريكاً في الفضل (٢) .

٤ — يجوز عندهم خروج إمامين في وقت واحد في قطرين مختلفين ، وطاعة كل منهما واجبة .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤/ ٥٢٠

(٢) شرح نهج البلاغة ٤/ ٥٢٠

٥ — لا يصفون على الإمام خصائص روحية تميزه من البشر ، فليس معصوماً من الخطأ كما زعم الكيسانية ، وإنما يتصف بالعلم والزهد والسخاء والشجاعة (١) .

يقول الكميّ شاعرهم (٢) :

الحماة الكُفّاة في الحرب إن لَقَّبَ ضراماً وقودَها بضرام  
والغيوث الذين إن أحسَّل الناس فأوى حواضن الأيتام  
طالبين هاشميين في العلم م رَّبَّوا من عطية السلام

٦ — لا يدينون برجة مهدي منتظر ، وهم بهذا يخالفون فرق الشيعة

٧ — لا يأخذون بمذهب التقية كما أخذت الكيسانية .

٨ — لا يحلون زواج المتعة .

٩ — يعتقدون أن مرتكب الكبيرة محلد في النار إن لم يتب . وهم يتفقون في هذا مع المعتزلة ، لأن رئيسهم زيد بن علي كان على صلة وثيقة بواصل بن عطاء شيخ المعتزلة .

وكان الكميّ زيدا ، فلم يحمل على أبي بكر وعمر ، بل دان بما دان به زعيم الفرقة زيد ، أن خلافتهم صحيحة .

يقول الكميّ (٣) :

أهوى عليا أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أبي بكر ولا همرا  
ولا أقول — وإن لم يُعطيا فدكاً بنت الرسول ولا ميراثه — كفرا  
الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

(٢) الهاشميات ٢ :

(١) المال والنحل ١ / ١٣٧ .

(٣) الهاشميات ١٥٦ .

وبعد محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ضعف المذهب الزيدي ، وتغلبت عليه المذاهب الشيعية الأخرى ، وغذته بكثير من آرائها ، وصار مذهب الرافضة المشتق من الزيدية لا يجوز إمامة مفضول في وجود الأفضل ، أي ينكرون إمامة أبي بكر وعمر . ولكن المذهب الزيدي القائم الآن باليمن أقرب إلى المذهب القديم .

— ٣ —

## الرافضة

من فرقة الزيدية نشأت فرقة الرافضة ، ذلك بأن أصحاب زيد بن علي الذين بايعوه علموا أن يوسف بن عمر وإلى الكوفة من قبل هشام بن عبد الملك قد بلغه أمره ، وأنه يتعقبه ، فاجتمع رؤساؤهم بزيد ، وقالوا له : رحمك الله ، ما قولك في أبي بكر وعمر ؟ .

قال زيد : رحمهما الله ، وغفر لهما ، ما سمعت أحداً من أهل بيتي يتبرأ منهما ، ولا يقول فيهما إلا خيراً .

قالوا : فلماذا تطالب بدم أهل هذا البيت ، إلا أن وثبوا على سلطانكم ، فزعه من أيديكم ؟ .

قال زيد : إنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين ، وإن القوم استأثروا علينا ، ودفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً ، قد ولوا ، فعدلوا في الناس ، وعملوا بالكتاب والسنة .

قالوا : لم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك ، فلماذا تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك الظالمين ؟ .

قال : إن هؤلاء ليسوا بأولئك ، هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم ، وإنما ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإلى السنن أن تحيا ، وإلى البدع أن تطفأ ، فإن أنتم أجبتهمونا سعدتم ، وإن أنتم أبيتم فليست عليكم بوكيل . ففارقوه ، ونكثوا

بيعه ، وقالوا إن إمامنا منذ اليوم جعفر بن محمد بن الحنفية<sup>(١)</sup> ، وهو أحق بالأمر ، ولا نتبع زيدا ، فليس بإمام ، فسمّاهم زيد الرافضة ، وهم يزعمون أن الذي سماهم الرافضة هو المغيرة حيث فارقه<sup>(٢)</sup>

على أن كلمة رافضة كانت تدل أحيانا على الشيعة عامة ، وعلى كل من جنحوا إلى آل البيت .

يدل على هذا قول الشاعر :

إن كان رَفْضًا حُبُّ آلِ محمدٍ      فليشهد الثَّقَلانِ أني رَافِضِي

دعائم مذهبهم :

١ — يغالون في تقدير علي مغالاة كافرة ، فمنهم طائفة يقال لها الإسحاقية يزعمون أنه الله ، وأنه يظهر في كل وقت ، فهو الحسن في وقت ، وهو الحسين في وقت ، وهو الذي بعث محمداً ، وطائفة أخرى تدعى أنه خير من الأنبياء ، وطائفة يقال لها الغرابية يدعون أنه شريك محمد في النبوة ، وطائفة يقال لها الدمامية يذمون جبريل ، ويزعمون أنه كان مأموراً بالنزول إلى علي فنزل إلى محمد<sup>(٣)</sup> .

وقد سفه آراءهم ابن أبي الحديد ، وأبطل ما نسبوه إلى الإمام علي من الوهية ومعجزات<sup>(٤)</sup>

٢ — يذمون أبا بكر وعمر . وبعضهم يقضى بكفرهما ، وقد طالبوا زيد بن علي بأن يتبرأ منهما ، فامتنع ، فرفضوه إماما لهم . وهم يلعنون أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة ، ويتخذون هذا اللعن قرينة إلى الله<sup>(٥)</sup>

٣ — ذهب بعضهم إلى أن الإمامة في موسى بن جعفر ثم في ابنه علي . . . حتى

(١) كانوا يزعمون أن محمد بن الحنفية هو الإمام ؛ وكان قد مات يومئذ .

(٢) الطبري ٢٧٢/٨ ونقد العلم والعلماء ١٠٣

(٣) الملل والنحل ١/١٥٤ — ١٧٨

(٤) شرح نهج البلاغة ٢/١٧٦

(٥) شرح نهج البلاغة ٤/٤٥٥



تنتهى إلى الإمام الثانى عشر — محمد بن الحسن العسكرى — وهو الإمام المنتظر الذى يزعمون أنه لم يمت ، وأنه سيرجع فى آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً .

وطائفة أخرى هى الجناحية يزعمون أن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ذى الجناحين هو الإمام المنتظر ، وأنه لم يمت .

٤ — لهم آراء دينية يخالفون فيها الإجماع ، منها تحريم الجماعة ، لأنهم يطلبون إماماً معصوماً (١) .

### مذهب الشيعة السياسى

يقوم المذهب الشيعى أو مذاهب الفرق الشيعية على عدة دعائم سياسية دينية ، لا يكادون يختلفون عليها ، أهمها :

#### ١ - أن الإمام واجب التعيين

فهم متفقون على أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة لانتخاب من تراه ، بل هى ركن الدين ، وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز للنبي إغفاله ، ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم (٢) .

#### ٢ - على هو الإمام

ويعتقدون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عين علياً ، معتمدين على نصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم .

فمن الجلية قوله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خم : (٣)

أست أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا بلى . قال : فمن كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . ولهذا قال له عمر : أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة .

(١) نقد العلم والعلماء ١٠٢ — ١٠٨

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٢٧ .

(٣) موضع بين مكة والمدينة على ثلاثة أميال من الجحفة ، روى الشيعة أن النبي نزل به ثم صلى وصلى المسلمون معه ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب وقال : أستم تعلمون الخ وقد كذب بعض العلماء هذه الرواية .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : أفضاكم على . ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله .

ومنها قوله : من يبايعني على روحه ، وهو وصيّي وولي هذا الأمر من بعدى ؟ فلم يبايعه إلا على .

ومن النصوص الخفية عندهم أن رسول الله بعث عليا لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت ، وأنه لم يقدم أحداً عليه ، على حين أنه قدم على أبي بكر وعمر أسامة ابن زيد مرة ، وعمر وبن العاص مرة (١) .

وهذه النصوص للمقولة والمثولة لا يعرفها جهابذة السنة ، ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع ، أو مطعون في طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم (٢) .

وكذلك يقضى فيها عالم كبير من الشيعة الزيدية هو ابن أبي الحديد ، فيقول : والأخبار في هذا كثيرة جداً ، ومن تأملها وأنصف علم أنه لم يكن هناك نص صريح ومقطوع به لا تختلجه الشكوك ، ولا تتطرق إليه الاحتمالات ، كما تزعم الإمامية .

وكل ما قالوه لا أصل له عند أصحابنا — الزيدية — ولا يثبت أحد منهم ، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه ، وإنما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله (٣) .

وقد ذكر السيد محسن الأمين الحسيني العاملي كثيراً من أشباه هذه الأخبار (٤)

(١) الملل والنحل ١/١٤٤ ومقدمة ابن خلدون ٥٢٨

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٢٧

(٣) شرح نهج البلاغة ١/١٣٥

(٤) زاد على الأخبار السابقة :

أ — ظهور معجزات على يديه

ب — أنه أفضل الصحابة فيكون الإمام ، لأن تقديم المفضل على الفاضل قبيح

ج — هو المقصود بقوله تعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » لأنها نزلت في شأنه لما تصدق بخاتمه وهو في الصلاة إذ أعطاه سائلاً وهو راكع في صلاة تطوع

د — قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ودلت الأخبار الكثيرة على أن المراد بأهل البيت على وفاطمة والحسن والحسين ، فهم إذا معصومون ، لأن الذنب رجس ، وقد طهرهم الله من كل رجس وذنوب ، ولا ينافي ذلك أن ما قبلها وما بعدها في نساء النبي

( م ه — الأدب السياسي )

ثم إنهم رَوَوْا أشعاراً منذ موقعة الجمل تذكر وصاية علي ، بعضها لأنصاره ، وبعضها لخصومه .

فمن شعر شيعته قول رجل من الأزد :

هذا عليٌّ وهو الوصي آخاه يوم النجوة النبي  
وقال : هذا بعدى الولي وعاه واعٍ ونسي الشقي  
وقول زحر بن قيس الجعفي :

أضربكم حتى تقرّوا لعلي خير قریش كلها بعد النبي  
من زانه الله وسماه الوصي إن الوليَّ حافظُ ظهر الولي  
ومن شعر خصومه قول شاب من بني ضَبَّة ، خرج من عسكر عائشة  
وهو يقول :

نحن بني ضَبَّة أعداء علي ذاك الذي يُعرفُ قدماً بالوصي  
وفارس الخليل علي عهد النبي ما أنا عن فضل عليٍّ بالعبي  
لكنني أنعي ابن عفان التقي إن الوليَّ طالبُ ثار الولي<sup>(١)</sup>

وهذه أشعار تبدو عليها صمة الوضع ، لأن مضمونها واحد ، وبحرها واحد ، ورويها مقصود فيه أن يكون متسقاً مع كلمة ( الوصي ) . ثم إن الأبيات الأخيرة لا تمثل مشاعر خصم من خصوم الإمام علي . وهل يعقل أن أحد أتباع طلحة والزبير والسيدة عائشة يدين بأن علياً يعرف بالوصي منذ زمن بعيد ، ويعلن إشادته بشجاعة علي وفضله ، ثم يتهمة بقتل عثمان أو التآمر عليه ؟

== ه — أحاديث كثيرة منها قول النبي صلى الله عليه وسلم : الأئمة من قریش . ومنها : يكون بعدى اثنا عشر خليفة كلهم من قریش . ومنها : النجوم أمان لأهل الأرض من الفرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف .

ومنها : أنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ( أعيان الشيعة ٣/ ٢٢ — ٧١ )

(١) أعيان الشيعة ٨/ ٣

وإذا كان عليٌ وصياً منذ عهد بعيد ، وهم يعلمون ذلك كما يعلمه ، فلماذا لم يستدل على استحقاقه الخلافة بما يعلم ويعلمون ؟

هكذا كانت الإمامة في رأى الشيعة حقاً لعلى ولأبنائه وحدهم ، لا يستحقها غيرهم ، ولا تتجاوزهم إلا لتقية مستحقها ، وظلم غاصبها .

### ٣ — العصمة :

الأئمة معصومون منزهون عن ارتكاب الكبائر والصغائر ، ولا يجوز عليهم الخطأ ، لأنهم ممتازون من البشر ، متفردون بأسرار الشريعة . وإذا كان الزيدية يخالفون في وجوب العصمة للإمام ، فإنهم يعتقدون أن علياً كان معصوماً دون غيره من الصحابة ، ويكتفون بأن يتصف الإمام بالعلم والزهد والسخاء والشجاعة .

والسبب في هذه العقيدة عند الإمامية جميعاً أن الإمام مبلغ الشريعة إلى الأمة بعد النبي ، وحافظ لها من الزيادة والنقص ، وأنه يوحى إليه ، فهو مصيب دائماً ، ولو جاز الخطأ على الإمام كان محتاجاً إلى هاد يهديه ، وليس من المعقول أن يؤتمن على حفظ الشريعة إلا إذا كان معصوماً (١) .

### ٤ — الإمامة واجبة :

لاغنى عن الإمامة للمسلمين ، فهي واجبة عليهم ، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية (٢) .

### ٥ — الرجعة :

المراد بها عودة الإمام إلى الظهور بعد اختفائه ، أو إلى الحياة بعد موته . وقد سبق أن الذى ابتدع هذه العقيدة عبد الله بن سبأ ، وروج لها بقوله : إني لأعجب ممن يقول برجة عيسى ولا يقول برجة محمد ، والله تعالى يقول : « إن الذى

(١) أعيان الشيعة ٣ / ٢٢ وأصل الشيعة وأصولها ٢٩ للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء

والشافى ٤٠ للشريف المرتضى

(٢) أعيان الشيعة ٣ / ٧١

فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، وبني على هذا أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى ، ثم زعم وزعم أتباعه من بعده أن علياً سيرجع .

ومن مزاعمه أن علياً لم يمت ، حتى إنه لما علم بقتله أنكره ، وأكده أنه لن يموت حتى يعود فيملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً ، فهو ما يزال حياً ، يجيء في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه (١) .

وهي عقيدة يهودية سببها أن الله تعالى أمات عزيراً مئة عام ثم بعثه ، وعقيدة نصرانية إذ زعمت النصارى أن المسيح بعد صلبه حي بعد ثلاثة أيام ، وقام وصعد إلى السماء ، وسيعود مرة أخرى للقضاء بين الأحياء والموتى (٢) .

والشيعة في هذا شعب شتى :

فالرافضة على أن آخر إمام ينصبونه لا يموت ، بل يبقى حياً حتى يرجع فيملأ الأرض عدلاً ، ويسمون الواقفية ، لوقوفهم عند إمام لا يتجاوزونه .

ومن الكيسانية فريق وقفوا عند محمد بن الحنفية ، وقالوا بعودته بعد موته ، بل زعم بعضهم أنه حي في جبل رَضْوَى ، ووقف فريق من الزيدية عند يحيى بن زيد ، وقالوا برجعه ، وذهب فريق آخر منهم إلى أنه فاطمي اسمه محمد يولد في مستقبل الزمان ؛ ليقتل السفيناني الذي يدين به بنو أمية ، ويقتل أشياعه (٣) .

والباقرية قالوا برجعة الباقر أبي جعفر محمد بن علي بن الحسن ، ومنهم من وقف عند ابنه أبي عبد الله جعفر الصادق ، ومنهم من وقف على موسى الكاظم .

وأما الإسماعيلية فقد وقفوا عند محمد بن إسماعيل ، وقالوا برجعه . ووقف الاثنا عشرية عند إمامهم الثاني عشر المهدي المنتظر ، وقالوا إنه اختفى في سرداب بالحيرة .

وزعم بعض القائلين بالرجعة أن الأئمة السابقين وخصومهم يرجعون جميعاً زمن المهدي ، لينال كل جزاءه الدنيوي ، ثم يموتون ويبعثون ويحاسبون .

(١) الملل والنحل ١ / ١٥٥ وتاريخ الطبري ٥ / ٩٨ و فرق الشيعة ٢١

(٢) الملل والنحل ١ / ٢٠١

(٣) شرح نهج البلاغة ٢ / ١٧٩



ولكن المعتدلة من الشيعة ينكرون الرجعة ، وزعماءهم ينكرون مذهب  
إليه الغلاة (١) ، والمعتدلة من الزيدية ينكرون المهدي المنتظر .

## ٦ — التَّقِيَّة :

هي إظهار غير مافي النفس ، محافظة على الحياة أو المال أو العرض ، والشيعة -  
ماعدا الزيدية - يدينون بها ، لأنها إحدى وسائلهم في كتمان العقيدة ؛ والنجاة من  
الاضطهاد ، والتعمية على الحكام والناس ، حتى تحين الفرصة المواتية للثورة .

وهم يستدلون على جوازها بأدلة ، منها أن أئمتهم قالوا : لا دين لمن لا تقية له ،  
وأن عليا سكت عن أبي بكر وعمر وعثمان تقية ، وأن الحسن صالح معاوية تقية (٢)  
ومن هنا جعلوا للكلام ظاهرا يفهمه الناس ، وباطنا لا يعلمه إلا الخاصة .

والذي يتقفي آراء الشيعة ، ولا سيما الغلاة منهم ، يتبين له أن التشيع قد اختلط  
بكثير من النظريات الفلسفية ، لأن العراق كان حصن الشيعة ، وكان ملتقى ثقافات  
شتى وحضارات متنوعة ، من علوم الفرس والكلدان إلى فلسفة الهنود واليونان ؛  
إلى أخلاط من الزرادشتية والمناوية والمزدكية .

يضاف إلى هذا أن التشيع الخارج على الإسلام كان وسيلة إلى حرب الإسلام  
وتضليل المسلمين وكيد العرب . يقول ابن حزم (٣) :

والأصل في خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من  
سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة النظر في أنفسهم ، حتى إنهم كانوا  
يسمون أنفسهم الأحرار ، ويعدون جميع الناس عبيدا لهم .

فلما امتدحوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكانت العرب أقل الأمم  
عند الفرس خطرا ، تعاضموا الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام  
بالمحاربة في أوقات كثيرة ، وفي كل ذلك كان يظهر الله الحق .

فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة آل البيت ، واستشناع  
ظلم على رضى الله عنه ، حتى أخرجوهم عن الإسلام . . .

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٣٠

(٢) راجع ما سبق في مذهب الكيسانية .

(٣) الفصل ١١٥/٢ .

## ٧ - المَهْدِيَّة

هذه العقيدة عاصرت الشيعة منذ فجرهم الأول ، وجعلت تتحشى مع فرقهم كلها على مر العصور ، إلا المعتدلين من الزيدية .

ذلك لأن الشيعة أقاموا العقيدة في المهدي المنتظر دعامة من دعائم مذهبهم ، وكان لها أثر عظيم في تشريعهم وفي ثوراتهم وأديبهم .

ولم تقتصر هذه العقيدة على الشيعة ، بل تجاوزتهم إلى غيرهم ، إذ انتقلت إلى بعض المسلمين الآخرين ، ودان بها أو بما يشبهها بعض الأمويين ، ثم نازعهم في احتضانها بنو العباس .

يقول السيد محسن العاملی : المسلمون جميعا على خروج المهدي في آخر الزمان ، وعلى أنه من ولد علي وفاطمة ، وأن اسمه كاسم النبي ، وهذا الاعتقاد أساس في ملة الإسلام ومتواتراته وضرورياته ، حتى إن بعض الأخبار تكفر من ينكره .

ثم يعقب على هذا بأن المسلمين مختلفون في أن المهدي وَلَدٌ أو أنه سيولد ، وبذكر أن الشيعة مجمعون على أنه قد ولد ، ووافقهم جماعة من أهل السنة ، ولكن أكثر أهل السنة على أنه لم يولد بعد ، ولكنه سيولد<sup>(١)</sup> . ويرى الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء أن المهدي حي ، وقد تجاوز عمره ألف سنة ، ويرد على المخالفين بأن عيسى وإدريس حيان في السماء ، وإلياس والحضر حيان على الأرض<sup>(٢)</sup> .

فما هي ؟ وكيف نشأت ؟ وكيف تنقلت وتطورت ؟ وإلى أي مدى بلغ سلطانها الديني والسياسي والعلمي في نفوس معتقديها ؟ وما وجه الحق فيها ؟ وماذا كان لها من نتائج ؟

نسألهما وتنقلهما :

١ - بدأت هذه العقيدة عند الشيعة منذ عهد مبكر ، ثم لم تلبث أن تنقلت وتطورت .

(١) أعيان الشيعة ٤/ ٣١٤

(٢) أصل الشيعة وأصولها ١٣٨ .

١ — فقد دعا عبد الله بن سبأ إلى الرجعة ، وقال : إني لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ، ولا يقول برجعة محمد ، والله تعالى يقول : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » ، بل ذهب ابن سبأ إلى أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى .

وإذ كان يزعم أن علياً وصي محمد ؛ زعم أن علياً سيرجع ، وزعم أنه حتى لم يمت ، حتى إنه قال لما علم بقتله : والله لو أتيتمونا بدماعه في سبعين صرة وأقمتم على قتله سبعين شاهداً عدلاً ، ما صدقنا موته ، فإنه لا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً ، فهو حتى ، وهو الذي يجيء في السحاب ، والرعد صوته ، ويجيء في البرق تبسمه (١) .

ب — ثم جاءت الكيسانية (٢) — إحدى فرق الشيعة — فادعت أن محمد ابن الحنفية هو الإمام ، وهو المهدي الذي ينشر العدل على الأرض ، وزعمت أنه حتى مقيم بجبل رَضْوَى ؛ ولم يضعف من زعمهم هذا أن ابن الحنفية قد مات سنة ٨١ هـ وصلى عليه وإلى المدينة — أبان بن عثمان بن عفان — ودفن بالبقيع . وزعمهم هذا بَيِّنٌ في قول شاعرهم كثير :

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء

.....

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدّمها اللواء

تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

ح — وفي مطلع القرن الثاني زعم جابر الجعفي (٣) ما زعمه ابن سبأ أن علياً سيرجع ، وأنه هو الدابة المذكورة في قوله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » .

( د ) فلما كان القرن الثالث زعمت الإمامية — إحدى فرق الشيعة — أن الأئمة — على وبنوه من فاطمة وحدها — سيعودون ، وسيعود معهم خصومهم ، حينما يظهر المهدي (٤)

(١) الملل والنحل ١/١٥٥ و فرق الشيعة ٢١ وتاريخ الطبري ٥/٩٨

(٢) راجع ما تقدم في فرق الشيعة .

(٣) كذاب ، وصفه أبو حنيفة بأنه أكذب من رآهم (٤) تفسير الألوسي ٦/٣١٦

لكنهم اختلفوا في تعيين المهدي كما سبق ، وحسبنا أن نذكر عقيدة أشهر فرقة منهم وهم الاثنا عشرية (١) ، فهم يدينون بأن محمد بن الحسن العسكري هو المهدي المنتظر ، وهو الذي سيعيد إلى الشيعة حقهم ومجدهم ، ويعيد إلى الناس السلام .

٢ — ومن عجب أن هذه العقيدة لم تقتصر على الشيعة ، بل تجاوزتهم إلى بعض بني أمية ، فزعم بعضهم أن لهم مهديا ، لكنهم لم يسموه المهدي ، بل سموه السفياي ، وراجت الدعوة له . ولعل خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من دعا إلى هذا ، ليجمع الناس حوله بعد أن غلبه مروان بن الحكم على الملك وتزوج أمه (٢) .

وقد أحس الشيعة بما في دعوى الأمويين من خطر على دعواهم ، فزعموا أن المهدي والسفياي سيلتقيان ، وسيبايع الناس المهدي بمكة بين الركن والمقام ، ثم يدعوه إلى قتال السفياي عدو الله وعدوه ، فيسارعون إلى طاعته ، ويخرجون معه إلى الشام لقتال عروة بن محمد السفياي ومن معه من كلب (٣) .

٣ — ويظهر أن بني مروان خشوا العقيدة في المهدي ، لأنه من الشيعة وسعيد الحكم إليهم ، وتخوفوا العقيدة في السفياي ، لأنه من بني أمية ، وسيرجع الحكم إليهم ، فجعل بعض شعرائهم يدعون أن القائم بالحكم هو المهدي الذي ينتظره الناس ، ليقتضوا بالواقع على الأمل في مهدي أو سفياي .

نجد هذا في مدح الشعراء لبعض خلفائهم ، كقول الفرزدق في مدح سليمان بن عبد الملك إنه المهدي المذكور في التوراة ، الذي بشرت به القس (٤) :

أنت الذي نعت الكتاب لنا في ناطق التوراة والزُّبر  
كم كان من قسٍّ يُخبرنا بخلافة المهدي أو حَبْر

(١) سمووا بذلك لأن الأئمة في رأيهم اثنا عشر : علي والحسن والحسين وعلي زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق ثم موسى الكاظم ابنه عند بعضهم أو إسماعيل ابنه الآخر عند بعضهم أو محمد ابنه عند بعضهم ، ثم يتفقون من الإمام الثامن وهو أبو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم ، ثم أبو جعفر محمد الجواد بن علي الرضا ، ثم علي الهادي بن محمد الجواد ، ثم أبو محمد الحسن العسكري بن الهادي ثم محمد المهدي المنتظر بن العسكري وقد اختلف سنة ٢٦٠ هـ بسر داب في سامرا .

(٢) الأغاني ٨٨/١٦ والنجوم الزاهرة ٢٢١/١ .

(٣) ضحى الإسلام ٢٣٩/٣ عن مختصر تذكرة القرطبي ١٥٩ .

(٤) ديوان الفرزدق ٣٢٧ .

ونجده في مدح جرير لسليمان نفسه :

سليمان المبارك قد علمتم هو المهديُّ قد وضح السبيل  
وكذلك زعم غيرهما من الشعراء (١) .

ثم نجده في بعض حروبهم مع دعاة العباسيين ، ذكر الطبري في حوادث سنة ١٣٢ هـ أنه قد اجتمع أناس من قِدْسَرِينَ وحمص وتَدْمُرُ وألوف آخرون ، على رأسهم أبو محمد ابن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وقالوا هو السفياي الذي كان يذكر ، وكانت موقعة شديدة انهزم فيها أبو محمد وأتباعه ، وقتل ، وأرسل برأسه إلى أبي جعفر المنصور (٢) .

٤ — هذا المهدي الذي للشيعة ، وهذا المهدي أو السفياي الذي لبني أمية ، يقابلهما مهدي آخر لبني العباس ، لأن العباسيين أرادوا أن يبدلوا الأمل في نفوس أتباعهم كما بثه سابقوهم ، وأرادوا أن يظاهروا حكمهم بدعوى تقويه كما ظاهر سابقوهم حكمهم وقووه ، فوضعت لهم أحاديث تنبئ عن مهدي يظهر منهم .

٥ — فإذا ما تركنا الشيعة وبني أمية وبني مروان وبني العباس ، وجدنا كثيراً من غيرهم يتذرعون بدعوى المهديّة لتحقيق مآرب لهم .

١ — وحسبنا أن نذكر الحارث بن سُرَيْج أحد زعماء المرجئة ، فقد ثار على الأمويين في بلاد ما وراء النهر ، لأنهم اشتطوا في جباية الضرائب من الناس ، وادعى أنه المهدي الذي بعثه الله لإنصاف المظلومين ، وتحريرهم من العسف الأموي ، وأقام دعوته على الرجوع إلى القرآن والسنة ، وانتخاب حكومة يرضاها أكثر الناس ، وسرعان ما استولى على المدن التي على شواطئ نهر سَيْحُون ، إلى أن أجبرته جيوش أسد بن عبد الله القَسْرِيّ وإلى خراسان على الارتداد إلى ما وراء النهر سنة ١١٨ هـ . ثم عفا عنه الوليد الثاني ، لكنه عاد إلى التمرد ، فانضم إلى الثمانية وطرده وإلى خراسان نصر بن ميار — وهو الذي كان قد توسط له عند الخليفة ليعفو عنه —

(١) راجع ما سيأتى في الشعر الأموي

(٢) تاريخ الطبري ٩/١٣٨ .



من مَرَّو حاضرة خراسان ، ثم اختلف مع اليمانية ومات سنة ١٢٨هـ (١)

ب — زعم أنصار أبي مسلم الخراساني — بعد أن قتله أبو جعفر المنصور — أنه لم يمت ، وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً ، بل إن بعضهم زعموا أن روح الله قد حل في أبي مسلم ، وأن الذي قتله المنصور كان شيطاناً تصور للناس في صورة أبي مسلم ، وهؤلاء يعرفون في مَرَّو وهَرَاة بالبَرِّ كوكبة (٢)

ج — ذكر ابن خلدون أن بعض ذوى الأطماع والتلبيس على الناس قد انتحلوا شخصية المهدي ، ليؤهوا على الناس ، ويبلغوا مآربهم .

في أول المائة الثامنة ظهر رجل من منتحلي التصوف ، يعرف بالتَّوَيَّزِيَّ — نسبة إلى مدينة تُوَزَّر — وادعى أنه الفاطمي المنتظر ، وتبعه كثير من أهل السوس وعظم أمره ، وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم ، فدمسوا عليه من قتله .

د — وذكر أنه في آخر المائة السابعة ظهر رجل يعرف بالعباس ، وادعى أنه الفاطمي ، وتبعه الدهماء من غمارة ، ودخل مدينة فاس عنوة ، وحرق أسواقها ، ثم قتل غيلة ، ولم يتم أمره .

ه — وذكر أنه كان في رباط العباد بجبل تِلْمَسَان رجل من أهل البيت متبوع معظم ، أصله من كربلاء ، جاء هو وأتباعه من موطنهم لطلب هذا الأمر ، وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب ، فلما عاين دولة بنى مَرِّين قال لأصحابه : ارجعوا فقد أزرى بنا الغلط ، وليس هذا الوقت وقتنا .

ويدل هذا القول من الرجل على أنه مستبصر في أن الأمر لا يتم إلا بالعصية المكافئة لأهل الوقت ، فلما علم أنه غريب في ذلك الوطن ، ولا شوكة له ، وأن عصبية بنى مَرِّين لا يقاومها أحد من أهل المغرب ، استكان ورجع إلى الحق ، وأقصر عن مطامعه (٣) .

(١) تاريخ الإسلام السياسي ١٢/٢

(٢) فرق الشيعة ٤٢

(٣) مقدمة ابن خلدون ٧٥٦

( و ) في القرآن التاسع عشر ظهر في السودان محمد أحمد ، واشتهر بالورع والتقوى والزهد ، ثم بدأ دعوته الدينية الإصلاحية ، ثم اتجه إلى السياسة ومناوأة الأتراك والمصريين ، وأثار السودانيين على الحكم المصري ، وصادفت دعوته ميلا في نفوس أتباعه ، فاعتقدوا أنه المهدي المنتظر ، وروج هو لهذه الدعوة . كتب هنزل hanzol قنصل النمسا في الخرطوم إلى حكومته سنة ١٨٨١ بأن الفقيه محمد أحمد قد أعلن على الملأ في جزيرة آبا أنه المهدي المنتظر المكلف من قبل المولى بتأسيس دولة إسلامية مترامية الأطراف ، تتخذ مكة المكرمة عاصمة لها (١) .

### الغاية منها :

فما الذي زين لهؤلاء جميعا أن يروجوا لهذه الدعوى ؟ وكيف توافقت دعوى الخصوم من شيعة وأمويين وعباسيين ؟ ولماذا قبلها المسلمون ، وما زال بعضهم يدين بها إلى اليوم ؟

١ — أما الشيعة فقد بشوا دعواهم بعد مقتل علي وصلاح الحسن مع معاوية ، ومقتل الحسين ، وتحقيقهم أن الخلافة بعيدة المنال ، وإن كان ابن سبأ قد بدأ القول في هذا بعد مقتل علي مباشرة . وهدفهم من هذه الدعوى أن يباعدوا بين أتباعهم واليأس من عودة الخلافة إليهم ، لتعيش الدعاية إلى التشيع قوية لا تضعف ، حارة لا تفر ، فإنه ليس أدعى إلى الخذلان وتفرق الأعوان من اليأس ، وإذ كانوا في حرب دائمة مع بني أمية ، وكانوا لا يفتأون ينشرون التشيع مجاهرين تارة ومتسترين بالتقية تارة ، فلا مندوحة لهم عن هدف يعلقون أنظار الشيعة به ، وهذا الهدف هو الثقة في رجعة إمام منهم ، يقوض ملك بني أمية ، ويثأر منهم ، ويكفل للشيعة ما حرّموه من سلام وأمن ورغد وسلطان . ولهذا تذرّعوا بالجلد ، وحشوا أعوانهم على الصبر ، وأباحوا لهم التقية ، وصوروا الإمام تصويرا يرفعه عن مستوى البشرية .

٢ — وأما دعاة السفليانية من بني أمية فهم ساخطون ؛ لأن الحكم زایلهم إلى بني مروان ، وهم يأملون أن يعود إليهم ، ويبشون هذا الأمل في نفوس أنصارهم مثلما فعل الشيعة .

٣ — ويظهر أن بعض الروائية أرادوا أن يحاربوا الأمليين : أمل الشيعة وأمل الأمويين بحقيقة واقعة ، لا بأمل يرتجى ، فزعم بعض مادحيهم أن الخليفة القائم هو المهدي الذي كان ينتظره المسلمون ، سواء أكان مهدي الشيعة أم سفياني بني أمية .

٤ — لكن العباسيين في ترويجهم لدعوى المهديّة كانوا يزعمون أنه منهم ، لا من شيعة علي ؛ ليصرفوا الناس عن مناصرة العلويين ، وعن الأمل في أن يثول الحكم إليهم ، بعد أن انتقل من أيدي الأمويين إلى بني العباس .

٥ — أما ذبوع الدعوى بين طوائف المسلمين الذين لا ينتمون إلى حزب من هذه الأحزاب ، فراجع إلى أنهم سرعان ما صدقوا الأحاديث النبوية التي راجت ، منبهة بمهدي عادل يعيد إلى الأرض السلام ، في وقت كانوا يشعرون فيه بوطأة الحكم ، ومظالم الحكم ، ويضعون فيه من شرور الناس وآثامهم ، فيعللون أنفسهم بإمام عادل يلتزم حدود الله ، وينصر دينه ، ويكفل للناس وسائل الطمأنينة والأمن والعدل والسلام والخير .

وراجع أيضا إلى أن بعض ذوى المطامع واستغلال الشعب مؤهوا على الناس ، وأوهموهم بصحة العقيدة ، ليلتفوا حولهم إذا كانوا من الدعاة إلى شخص معين ، وليؤازروهم في ثورتهم إذا كانوا من الثأرين الطامعين أو المصلحين كما رأينا في ثورات بعضهم .

### تأثيرها :

تفاقت هذه العقيدة ، وكانت لها آثار في المجتمع الإسلامي ، في عصور شتى .

فكم من فتن وثورات وحروب أشعلها ذوو الأطماع ، بدعوى المهديّة ، خربت المدن ، وأزهقت الأرواح ، وسفكت الدماء ، وأفقدت الأمنيين أمنهم ، كثورة الحارث بن سريّج في عهد بني أمية ، إلى أن مات سنة ١٢٨ هـ ، وثورة سبأذ ، وثورة الراوندية أيام المنصور ، بعد قتل أبي مسلم ، وثورة المقنّع الحراساني في عهد المهدي ، وثورة التّوّيزري ثم العباس بالمغرب ، وثورة محمد بن أحمد بالسودان .

وكم من خرافات تبوّأت في نفوس الشعوب منزلة العقائد ، فحنت عليهم ، وباعدت ما بينهم وبين الدين .

وكم من تنظيم صوفي قائم على تخيل عالم روحاني فيه أبدال (١) وأقطاب ؛ محل فيه القطب محل الإمام أو المهدي « فالقطب هو رئيس المملكة الروحية ؛ وهو الذي يدبر الأمر في كل عصر ، وهو عماد السماء ، ولولاه لوقعت على الأرض . وله اثنا عشر نقيبا في كل زمان ، هم وحدهم العلماء بخفايا النفوس ، وهم وحدهم العلماء بالشرائع » (٢) .

### بطلانها :

أغلب الظن أن هذه الدعوى ليست في حاجة إلى تفنيدها وإبطالها ؛ لأنها تنافي العقل والمنطق والواقع .

وهل من العقول أن نصدق بأن شخصا قد مات سيبعث قبل يوم البعث ليحارب ويحكم ويقتص ويعدل بين الناس ؟

ولماذا انقضت الأزمان التي حددت لظهوره ولم يظهر في أحدها ؟ ثم انقضت أحقاب بعد ذلك ، ولا أثر لمهدي واحد من هؤلاء المهديين جميعا ؟

لكننا لا نكتفي بهذا ، ونرجح أن بعض الذين يصدقون الدعوى لا يكتفون ، فلنأخذ أنفسنا بالتدليل على بطلان الدعوى في رفق وأناة وحيدة ، لأننا طلاب حقيقة ، ولسنا من أهل التعصب أو الكلف بالمخالفة .

١ - هذه المزاعم الباطلة أصداء لعقائد يهودية ونصرانية وفارسية . يتبين هذا من تعقب الدعوى منذ ولدها ، فلم ننس بعد أن الدعوى وليدة ابن سبأ اليهودي الذي أسلم أو تظاهر بالإسلام

فهو بزعمه أن عليا وصي النبي صلى الله عليه وسلم يجاري زعمه في اليهودية أن يوشع بن نون وصي موسى ، ويريد أن يقيم الحكم على أساس من نظرية الحق

(١) الأبدال قوم يقيم الله بهم الأرض ، وهم سبعون : أربعون بالشام ، وثلاثون بغيرها لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من الناس ( القاموس المحيط مادة بدل ) .

(٢) ضحى الإسلام ٢٤٥/٣

الإلهي التي نقلها عن الفرس . ذلك أنه يريد أن يكون عليّ هو الخليفة بعد النبي بوصاية منه وتعيين ، لأنه حينئذ يستمد الحكم من النبي ، وإذا كان النبي مبعوثاً من الله ، ومستمداً حكمه من الله ، فإن حكم عليّ امتداد لحكم النبي ، فهو إذاً مستمد من الله .

وقد كان ابن سبأ على صلة بالفرس ، إذ أنه يماني ، والفرس حكموا اليمن ، وخالطوا أهلها إلى صدر الإسلام .

ثم إنه يزعمه أن علياً لم يمّت ، وأنه سيرجع ، يشبه اليهود الذين يزعمون أن النبي إلياس ( إيليا ) رفع إلى السماء ، وأنه سيعود إلى الأرض آخر الزمن ، ليملأها عدلاً وخيراً<sup>(١)</sup> ، كما يزعمون أن النبي أخنوخ رفع إلى السماء حياً<sup>(٢)</sup> .

وهو بدعواه أن في عليّ قبساً إلهياً يشبه النصاري الذين يقولون باتحاد اللاهوت والناموس .

وليس أدل على تأثر مزاعم الشيعة بعقائد مسيحية من أن بعض الرافضة<sup>(٣)</sup> زعموا أن علياً هو الله ، وأنه يظهر في كل وقت ، فهو الحسن آنا ، وهو الحسين آنا ، وهو الذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> .

وهذا الباطل قريب الشبه من ضلال بعض النصاري في قولهم إن المسيح هو الله .

٢ — وجد دعاة المهديّة جميعاً أن الدعوى لاتذيع ولا تروج ولا تصل إلى أعماق النفوس إذا لم يساندها الدين ، فوضعوا لهم أحاديث ، بل تأول بعضهم آيات من القرآن الكريم .

وهذه الأحاديث التي رويت في شأن المهدي لم يرد منها شيء في صحيح البخاري أو صحيح مسلم ، وإنما خرجها جماعة ، منهم الترمذي وأبو داود والبزار وابن ماجه

(١) سفر التكوين ٢٤/٥ وسفر الملوك الثاني ١/٢ .

(٢) كان أخنوخ قبل مولد المسيح بثلاثة آلاف وثلاثمائة واثنين وثمانين سنة .

(٣) فرقة سميت بذلك لأنهم طالبوا زيد بن علي زين العابدين بن الحسن بالترؤس من

أبي بكر وعمر لأنهما في زعم بعضهم غاصبان حق عليّ وفي زعم بعضهم كافران ، فأبى فرفضوه

( نقد العلم والعلماء ١٠٢ ) . (٤) نقد العلم والعلماء ١٠٢ — ١٠٨ .



والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي ، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود . . . . .

وقد ذكر ابن خلدون هذه الأحاديث كلها ، ونقل تجريح العلماء لروايتها في تفصيل وتوضيح<sup>(١)</sup> ، سواء أزعمت أن المهدي من نسل علي أم من نسل العباس ، وسواء اقتصر على التبشير بالمهدي أم بشرت بنصرة قوم من الشرق له ؛ معهم رايات سود يوطئون له .

ثم ذكر أن المتصوفة المتقدمين لم يكونوا يخوضون في شيء من هذا ، أما المتأخرون كابن العربي الحاتمي ( ٥٦٠ - ٦٣٨ هـ ) وعبد الحق بن سبعين ( ٦١٣ - ٦٦٧ هـ ) وغيرهما فإنهم قد تكهنوا بظهور المهدي في زمن معين ، لكن الزمن انقضى ولم يظهر المهدي ، « وبعضهم عين الرجل والوقت والمكان بأدلة واهية ، وتحكمات مختلفة ، وانقضى الزمان ولا أثر لشيء من ذلك ، فرجعوا إلى تجديد رأي آخر منتحل ، كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخيلية وأحكام نجومية »<sup>(٢)</sup> .

٣ - يبدو التناقض والاضطراب في الأحاديث الكثيرة التي رويت<sup>(٣)</sup> في شأن المهدي .

فهو في بعضها اسمه محمد ، وفي بعضها اسمه محمد بن عبدالله ، وفي بعضها اسمه الحارث ، وفي بعضها غير معين الاسم . وقد عرفنا أن كثيرا ممن ثاروا زاعمين أنهم المهديون مُسمَّون بهذه الأسماء .

وهو من ولد فاطمة ، أو من بني العباس ، أو من أهل المدينة غير معين النسب ، أو من أمة محمد بلا تعيين . وفي التاريخ ثورات قادها أشخاص من هؤلاء جميعا . وبعض الأحاديث تصفه بأنه أَجَلِي<sup>(٤)</sup> الجبهة ، أقي الأنف ، وبعضها يشبهه بالنبي في الخلق لافي الخلق ، وبعضها لا يصفه .

(١) مقدمة ابن خلدون ٧٢٥ - ٧٤٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٧٤٧ - ٧٥٥ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ٧٢٥ - ٧٤٦ (٤) واسمها .

أما مكان ظهوره فبيت المقدس تارة ، ومكة تارة ، وما وراء النهر تارة ، وفي أكثر الأحاديث لا تعيين لمكان ظهوره .

وأما أنصاره فهم من الشام والعراق معاً ، أو من الشام وحده ، أو من المشرق معهم رايات سود ، وفي أحد الأحاديث أن علي مقدّمته رجلاً يقال له منصور .

ولا شك أن مرجع هذا التناقض والاضطراب إلى الوضع والاختلاق ، لأن كل حزب روج لأن يكون المهدي منه بأحاديث وضعها أو وضعت له .

ويكفي أن نذكر هذا الحديث الذي لا يمكن أن يفهم منه أيكون المهدي من نسل علي أم من نسل العباس :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والأنصار ، وكان علي ابن أبي طالب عن يساره ، والعباس عن يمينه ، وتلاحى العباس ورجل من الأنصار ، فأغلق الأنصاري للعباس ، فأخذ النبي بيد العباس ويده علي ، وقال : « سيخرج من صلب هذا فتي يملأ الأرض جوراً وظلماً ، وسيخرج من صلب هذا فتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً . فإذا رأيتم ذلك فعليكم بالفتي التميمي ، فإنه يقبل من قبل المشرق ، وهو صاحب راية المهدي » .

لكن العباسيين انتبظوا من هذا الحديث الموضوع لهم أنهم أصحاب الفتي الذي يملأ الأرض عدلاً ، لأنهم أصحاب الرايات السود التي أقبلت من المشرق .

ج — اختلف الشيعة في تعيين المهدي المنتظر اختلافاً جسيماً ، وتمسكت كل فرقة بشخص معين ، وهذا الاختلاف الجسيم كفيل بإبطال الدعوى ونقضها .

ذلك أن بعضهم يرى أنه علي بن أبي طالب .

وبعضهم يرى أنه ابنه محمد المشهور بابن الحنفية .

وآخرون يعتقدون أنه يحيى بن زيد .

وفريق يذهب إلى أنه محمد بن إسماعيل .

وأكثرهم على أنه محمد بن الحسن العسكري . ويقولون إنه اختفى في سرداب  
بسامرا ، وسيخرج آخر الزمان فيملاً الأرض عدلاً . وهم ينتظرونه إلى الآن .  
ويقفون كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب السرداب ، وقد قدموا مركبا ، فيهتفون  
باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى  
الليلة التالية (١)

وقد أنكر السيد محسن العاملي العالم الشيعي المعاصر ما ينسب إلى الشيعة من  
اعتقادهم أن المهدي حي في سرداب بسامرا ، وأنهم يقصدون السرداب كل يوم  
جمعة ، وينادونه : يامولانا اخرج إلينا . وقال إن هذه شبهة نشأت من زيارتهم  
للسرداب ، وتبركهم به ، لأنه سرداب الدار التي كان يسكنها الإمام علي بن محمد  
الهادي وابنه الحسن العسكري وابنه الإمام المهدي ، وعقب علي هذا بقوله : إنه  
زعم لم نسمع به ، ولم يسمع به سامع (٢) .

لكنه ذكر في كتابه قبل ذلك بنحو مئة صفحة أن المهدي القائم اسمه محمد ابن  
الحسن العسكري ، وأكثر الشيعة يفتون بحرمة التصريح باسمه حتى يخرج ، وقال  
إنه ولد سنة ٢٥٥ هـ في خلافة المعتد ، وإن الشيعة يقولون إنه أوتى الحكمة وفصل  
الخطاب ، وجعله الله آية للعالمين ، كما آتى الحكمة يحيى وهو صبي ، وجعله إماما  
في طفولته ، كما جعل عيسى بن مريم نبيا في المهد ، وإنهم يدينون بأنه حي لم يموت ،  
وعمره إلى يومنا هذا ( سنة ١٣٥٥ هـ حين ألف الكتاب ) ألف سنة ومائة سنة ،  
وثلاثة أشهر ، وستة وعشرون يوما (٣) .

ثم ذكر أيضا أن الشيعة يدينون بأنه يحضر موسم الحج في كل سنة ، فيرى  
الناس ويعرفهم ، وهم يرونه ولا يعرفونه .

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٣١ .

(٢) أعيان الشيعة ٤ / ٤٢١ .

(٣) المرجع السابق ٤ / ٣٢٨ .

وكان السبب في هذه الغيبة الخوف عليه من سلطان زمانه ، ثم اتصلت غيبته  
لحكمة يعلمها الله (١)

ولست أدري كيف يعترف بأن المهدي حي ، ويحج في كل سنة ، وأن عمره  
تجاوز أحد عشر قرناً ، ثم ينفي بعد ذلك ما نسب إلى الشيعة من اعتقادهم أنه حي  
في السرداب ؟

٥ — على أن الزيدية لم يصدقوا الرجعة ، ولم يعتقدوا في مهدي منتظر ، بل  
أنكروا هذا وفندوا الأحاديث المروجة له ، ورووا عن أهل البيت أخباراً تبطل  
الدعوى .

ولا شك أنهم حكموا عقولهم ، لأنهم متأثرون بالمعتزلة في تفكيرهم ، كما سبق في  
دراسة مذهبهم .

٦ — ثم إن التاريخ يحدثنا بظهور مثل هذه العقيدة قبل الشيعة وبعدهم في  
عدة شعوب ، حينما كانت هزيمة وتعلق بأمل أو وهم ، أو حينما كان قهر واضطهاد  
واستراحة إلى الأمانى ، أو حينما يلجأ الحكام إلى خداع الجماهير .

١ — فقد زعم اليهود أن النبي أخنوخ رفع حياً إلى السماء ، وزعموا أن النبي  
إلياس رفع إلى السماء ، وسيعود إلى الأرض ، ليملاؤها عدلاً .

ب — وزعم المسيحيون من الإسبان — لما فتح العرب بلادهم — أن  
ملكهم لذريق — ردرىك — لم يقتل ، وإنما ذهب إلى مكان بعيد في المحيط ،  
وسيعود بعد أن تبرأ جراحه ؛ ليخلص الإسبان من الفاتحين العتاة .

ج — وكذلك زعم أنصار أبي مسلم الخراساني ، كما قدمنا .

د — وحكى المعري في رسالة الغفران نقلاً عن بعض محدثيه أن للقرامطة  
بالأحساء بيتاً يزعمون أن إمامهم سيخرج منه ، وأنهم يقيمون على باب هذا

البيت فرسا مسرجا ملجما ، ويقولون للعامة الأغرار : هذا الفرس ليركبه المهدي متى ظهر ، وغرضهم من ذلك خداع وتعليل ، وتوصل إلى الملكة وتضليل .

٧ — إذا فالعقيدة باطلة ، لأن الأحاديث المروجة لها موضوعة ، ولأن الشيعة أنفسهم اختلفوا في تعيين إمامهم المنتظر ، ثم اختلف غيرهم من أدعياء المهدي في تعيين هذا الإمام ، ثم ظهر كثير من الثوار متحليين شخصية المهدي في عصور عدة .

على أن العقيدة قديمة في اليهودية قبل أن تتبناها الشيعة ، وهي إلى ذلك كله وهم تعلق به كثير من الناس في ظروف خاصة كما سبق .

---



## الفصل الثالث

### الخوارج

- ١ -

بعد مقتل عثمان بن عفان بايعت جمهرة المسلمين على بن أبي طالب ، وكان في المبايعين طلحة والزبير .

ولكن معاوية - والى الشام - رفض أن يبايعه ، ولم يجرؤ على المطالبة بالخلافة ، فتذرع بأنه يطالب بدم عثمان ، وادعى أن في جند على بعض قاتليه ، وأن تخلف على عن نصرته شجع الثوار عليه . ثم انضم طلحة والزبير إلى هذا الرأي ، وآزرتهم السيدة عائشة ، وكانت موقعة الجمل بالقرب من البصرة ( ٦٥٥ هـ ) وانتصر على ، وقتل طلحة والزبير ، وأعيدت السيدة عائشة إلى المدينة في رعاية وتوقير .

ثم كانت الحرب بين على ومعاوية ، وكاد على ينتصر في موقعة صفين ( ٦٥٦ هـ ) ، وهم معاوية نفسه بالفرار ، لكن جند معاوية رفعوا المصاحف ، ونادى مناديتهم : الله الله في العرب ، الله الله في الإسلام ، كتاب الله بيننا وبينكم . فانخدع بعض الكبار من أصحاب على ، ودعوه إلى الرضا بما يعرض أهل الشام ، فأبى ، وبين لهم أنهم كائدون لا مخلصون ، وأنهم قد تحايلوا لما أيقنوا الهزيمة ، لأنهم ليسوا أصحاب دين ولا قرآن .

لكن هؤلاء الرؤساء من أصحاب على أصروا على أن يستجيب لما طلب أهل الشام ، وإلا تخلوا عنه .

ونظر على فوجد كثيراً من أصحابه قد جنحوا إلى السلم ، وكادوا يلقون

سلاحهم ، ووجد غير قليل من أصحابه لم ينخدعوا بحيلة أهل الشام ، ولم ينجحوا إلى السلم ، فاضطر إلى قبول التحكيم ، استجابة للكثرة ، وإبقاء على وحدة جيشه .

ومن عجب أن هؤلاء الذين اضطروا علياً إلى وقف القتال ، والرضا بالتحكيم ، لم يدعوه حراً في اختيار من ينوب عنه ، فقد كان على يريد أن يكون عبد الله بن عباس أو الأشتر النخعي هو النائب عنه في مجلس التحكيم ، لكن هؤلاء أصرّوا على أن يكون أبو موسى الأشعري هو نائبه . ولم يكن الحكمان متكافئين ، فمندوب معاوية داهية من دهاة العرب ، ومندوب علي تقي ورع لا طاقة له بالخداع .

ولقد يسترعى الانتباه أن أبا موسى يعني ، وأنه كان والياً لعلی على الكوفة قبل موقعة الجمل ، وخذل أهل الكوفة عن المسارعة لنجدة علي ونصرته ، فعمله على .

ويسترعى الانتباه أيضاً أن الأشعث بن قيس الكندي واليمينيّ الذين معه كانوا أشد القوم إصراراً على اختيار أبي موسى .

وللأشعث هذا ماض جدير بالنظر ، فإنه أسلم في عهد النبي ، ثم ارتد مع المرتدين ، ثم تاب في عهد أبي بكر ، وولاه عثمان ولاية في فارس ، فلما قتل عثمان وتولى على عزله ، ثم قرّبه ووثق به وولاه الكوفة ، فلما كانت موقعة صفين ورفع المصاحف كان الأشعث أول الداعين إلى قبول التحكيم .

اجتمع الحكمان : عمرو بن العاص وأبو موسى في أذرح ، وتداولوا في الأمر ، ثم اتفقا على أن يخلصا المسلمين من هذا الصراع ، بتنحية علي ومعاوية معاً ، وترك الأمر شوري للمسلمين ، ليختاروا من يشاءون .

غير أن أبا موسى كان مخدوعاً ، لأنه أعلن خلع علي ومعاوية ، ثم أعلن عمرو بعده تثبيت معاوية وخلع علي (١) .

(١) راجع التفصيل والآراء المختلفة في التحكيم بتاريخ الطبري ومروج الذهب وتاريخ =

وحينئذ عاد على إلى العراق ، وعاد معاوية إلى الشام .

لكن جند على عادوا وكثير منهم مصرون على التحلل من بيعته ، ساخطون على التحكيم الذي رضى به « فما برحوا معسكرهم بصفين ، حتى فشا فيهم التحكيم . ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ، ويتشائمون ويتضاربون بالسياط ، يقول الخوارج : يا أعداء الله ، أدهنتم في أمر الله عز وجل ، وحكمتهم ، ويقول الآخرون : فارقتم إمامنا ، وفارقتم جماعتنا<sup>(١)</sup> » .

فلما سمع على قولهم : لاحكم إلا الله ، قال : كلمة عادلة يراد بها جور ، إنما يقولون لا إمارة ، ولا بدس إمارة برة أو فاجرة<sup>(٢)</sup> .

دخل على الكوفة ، وانفصل عنه مخالفوه من الذين كانوا أعوانه إلى حروراء<sup>(٣)</sup> وكانوا اثني عشر ألفاً ، تنادوا بأن أميرهم على القتال شبيب بن ربعي ، وأميرهم على الصلاة عبد الله بن الكواء الشكري ، وتنادوا بأن الأمر شوري ، وبأن البيعة لله عز وجل ، وعليهم أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر . وهؤلاء هم الذين يسمون الخوارج<sup>(٤)</sup> .

== البعقوبي والفخري والأخبار الطوال للدينوري .

وستجد المؤرخين يكادون يتفقون على أن عمرو بن العاص خدع أبا موسى خديعة انتهت بخلع على وتثبيت معاوية .

هم يذكرون في تفصيل طويل أن الحكمين قد اتفقا على خلع على ومعاوية ، وأن يجعل الأمر بعد ذلك شوري ، ليختار المسلمون رجلاً آخر يصلح للخلافة ، وقدم عمرو أبا موسى ليعلم هذا الرأي ، فقال إني قد خلعت علياً ومعاوية معاً ، فقام عمرو فقال لمن هذا قد خلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ( الطبري ٦ / ٢٨ ودروج الذهب ٢ / ٣٣ ) .

(٢) تهذيب الكامل ١ / ٧٣

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٣٥

(٤) سمووا بالخوارج لأنهم خرجوا على الإمام على بعد

(٣) ضاحية بالكوفة

أن بايعوه ، أو لأنهم خرجوا إلى المدائن ، أو خرجوا على الجماعة ، أو لأنهم خرجوا من ==

ثم ناظرهم على ، فثاب إليه بعضهم ، وبعث إليهم عبد الله بن عباس فناظرهم ، فأصروا على رأيهم أن يتوب على من كفره بقبول التحكيم ، لينضموا إليه (١) .

فلما اشتد تهورهم ، وقتلوا صحابياً وزوجته ، ثم قتلوا رسول على إليهم ليستوضح أمرهم ، نازلهم على في موقعة النهروان سنة ٣٧ هـ وهزمهم ، ثم حاربهم في عدة مواقع وتغلب عليهم .

وانتهى بهم الأمر إلى أن اجتمع ثلاثة منهم - عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي - بمكة ، وتعاهدوا على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ، وإراحة العباد منهم .

وقدم ابن ملجم إلى الكوفة ، وقتل علياً (٢) ؛ ولم يتمكن صاحبا من قتل معاوية وعمرو .

### — ٣ —

وإنه ليسترعى النظر أن المذهب نشأ نشأة عربية خالصة ، وأن الدين أقاموه ونهضوا به في أول الأمر لم يكن فيهم أحد من قريش أو ثقيف أو الأنصار أو من مضر عامة ، بل كان رجال الأزارقة والنجدات والإباضية عرباً خلصاً من بدو الصحراء ومواليهم من قبائل ربيعة مثل تميم وبكر ، ومن القبائل اليمنية من الأزد وهمدان .

---

== ديارهم مجاهدين في سبيل الله ، من قوله تعالى . « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » وسموا الحرورية نسبة إلى حروراء ، موئلهم بعد التحكيم .

وسموا الشراة — وهذا هو الاسم الأخير عندهم — لأنهم باعوا حياتهم في سبيل الله ، من قوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » أي يبيعها ويفدى بها دينه . وسموا المحكمة ، لأن أحدهم - عروة بن أدية التميمي - صاح في وجه الأشعث لما جاء يتلو عليهم كتاب التحكيم بقوله : لاحكم إلا الله ، فأين قتلانا بأشعث ؟

( ١ ) نقد العلم والعلماء لابن الجوزي ٩٧ .

( ٢ ) نقد العلم والعلماء ١٠٠

ويكفي أن نذكر منهم نافع بن الأزرق الحنفي ، ونجدة بن عامر الحنفي ، وقطري  
ابن الفجاءة المازني ، وعبد الله بن وهب الراسبي الأزدي ، ومعدان الإيادي ، وعمران  
ابن حطان البكري ، وشيث بن ربعي ، وعبد الله بن الكواء اليشكري ، وشوذب  
( بسطام ) اليشكري ، والضعاك بن قيس الشيباني ، وأبا حمزة ( المختار بن عوف )  
الأزدي ، وشبيب بن يزيد الشيباني .

وكان كثير من هؤلاء من المجاهدين القدماء الذين شاركوا في فتح فارس ،  
ومن القراء الذين كانوا في جند على ، ومن أصحاب الحماسة الدينية .

ثم انضم إليهم كثير من الموالى<sup>(١)</sup> ، إعجابا بمذهبهم السياسي الذي يسوى بين  
المسلمين من عرب وعجم في الترشيح للخلافة ومناصب الحكم والمكانة الاجتماعية .

ولعل السبب في قيام المذهب على سيوف ربيعة والقبائل اليمنية أن على بن أبي  
طالب ومعاوية مضر يان .

وقد انفردت قريش المضرية بالخلافة منذ أعلن أبو بكر يوم السقيفة أنها حق  
لقريش وحدها ، والعداء بين ربيعة ومضر ، وبين مضر واليمن ، قديم مستحكم منذ  
العصر الجاهلي ، فلما جاء الإسلام أطفأ شعلته ، لكن جذوتها بقيت تحت الرماد ،  
ثم اشتعلت ثانية في آخر عهد عثمان بن عفان .

وقد حكم الخوارج بكفر على ومعاوية ومن ناصرهما بعد التحكيم ؛ لأنهم حكموا  
بغير ما في كتاب الله ، إذ عدلوا عن تحكيم الله إلى تحكيم الناس .

أما حكم الله في معاوية وأعدوانه فبيّن من قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين  
اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغي  
حتى تفيء إلى أمر الله » وقد بغى معاوية ، فلا يصح إلقاء السلاح حتى يفيء

---

(١) امتلأت البصرة بآلاف من الفرس الذين أسلموا كموالى بني تميم وأنصار أبي مریم  
الذي ثار على معاوية سنة ٤٢ وأنصار عبد الله بن الماحوز ، وكانوا من أجناس شتى ، حتى  
سمّاهم المهلب عبيدا .



إلى أمر الله . وأما حكم الله في على فواضح من الآية ، لأنه حكم الناس ، ورضى بإلقاء السلاح .

وقد أفصحوا عن هذا في محاورتهم عبد الله بن عباس ، حينما أرسله إليهم على لينظرهم ، إذ دار بينه وبينهم هذا الحوار (١) .

ابن عباس : ما الذى تقمتم على أمير المؤمنين ؟

الخوارج : قد كان للمؤمنين أميرا ، فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان ، فليتب بعد إقراره بالكفر نعد له .

ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر .

الخوارج : إنه قد حكم .

ابن عباس : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد ، فقال : « يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟

الخوارج : لقد حكم عليه ، فلم يرض .

ابن عباس : الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما .

الخوارج : بعضهم لبعض - لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هذا من اقوم الدين قال الله فيهم : « بل هم قوم خصمون » وقال : « وتندر به قوماً لداً » .

وهم أشد بغضة لمعاوية ، لأنه سطا على الخلافة ، واحتكر أموال المسلمين وعبث بها ، ولأنه صاحب مظهر ملكي ، إذ اتخذ القصور والحجباب والحراس ، ومظاهر الملك البيزنطي .

أما التحكيم فخريرته على معاوية وعلى معا .

(١) تهذيب الكامل ٧٦/١ وتقد العلم والعلماء ٩٧ .

وأما ثوراتهم وحروبهم في العهد الأموي فكثيرة :

١ — بدأ القتال بينهم وبين معاوية منذ سنة ٤١ هـ إذ نزلوا النخيلة بالقرب من الكوفة ، فأرسل إليهم جيشاً من الشام ، فانتصروا عليه ، فاستشار معاوية أهل الكوفة لقتالهم ، فأتحنوا في الخوارج وانتصروا عليهم ، ثم بعث إليهم معاوية جنداً قتلوهم جميعاً .

ثم نزل الكوفة جمع منهم ، وكان واليها المغيرة بن شعبة من قبل معاوية ، ولم يكن المغيرة صارماً في معاملتهم ، فلما تواعدوا على الثورة سنة ٤٣ هـ ندب المغيرة أهل الكوفة لقتالهم ، فشقوا ، فجمع لقتالهم جيشاً من الشيعة ، وكان النصر له ، وبهذا ضرب المغيرة خصمى معاوية بهما ببعض .

ثم ولي معاوية على البصرة زياداً سنة ٤٥ هـ وأضاف إليه الكوفة سنة ٥١ هـ ، فأخذهم زياد بما في جهده من قسوة وصرامة .

فلما تولى البصرة عبيد الله بن زياد ، حسبوه أسمح من أبيه وألين ، فبدؤوا يظهرن سنة ٥٨ هـ فقتل جماعة منهم ، وكان في القتل عروة بن أدية أحد زعمائهم<sup>(١)</sup> .

غضب لمقتل عروة أخوه أبو بلال مرداس بن أدية ، وخرج إلى الأهواز في أربعين رجلاً من الخوارج ، فبعث إليهم ابن زياد ألفي رجل ، على رأسهم ابن حصن التميمي ، فهزمت الخوارج في ( آسك ) ، فقال شاعرهم عيسى بن فاتك الجبلي :

ألفاً مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بأسك أربعونا ؟  
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصروننا

(١) أقبل عروة على عبيد الله بن زياد — وقد جلس في رهان له ينظر الخيل — فقال له: خمس كن في الأمم قبلنا قد صرن فينا ، قال تعالى : [ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ] فلما سمع عبيد الله ذلك ترك رهانه ، وأضر الشر لعروة ، فهرب ، فقبض عليه وقتل .

لكن ابن زياد لم يصبر على الهزيمة ، فبعث إلى مرداس ثلاثة آلاف ، فأوقعوا به وقتلوه ، وقتلوا كثيراً من أعوانه سنة ٦١ هـ ، وكان مقتل مرداس فاجعة موجهة لم تقتصر على الخوارج .

وذلك أن أصحاب المذاهب تنازعوه لزهده وبصيرته وصحة عبادته وتدينه وبلاغته .

فقد ادعته المعتزلة ، وزعمت أنه خرج منكراً جور السلطان ، داعياً إلى الحق . واحتجبت بأنه رد على زياد إذ قال في خطبته : « والله لأخذن المحسن منكم بالمسيء ، والمحاضر بالغائب ، والصحيح بالسقيم ، والمطيع بالعاصي » . فقال له مرداس : ما هكذا ذكر الله عز وجل عن نبيه إبراهيم عليه السلام في قوله : « وإبراهيم الذي وفى ، ألا تزرُ وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

وادعته الشيعة ، وزعمت أنه كتب إلى الحسين بن علي : إني لست أرى رأى الخوارج ، وما أنا إلا على دين أبيك<sup>(١)</sup> .

٢ - رحل الخوارج بعد هذه الواقعة إلى مكة ، لينضموا إلى عبد الله بن الزبير ، استجابة لزعيمهم نافع بن الأزرق ، إذ قال لهم : « إن الله قد أنزل عليكم الكتاب ، وفرض عليكم الجهاد ، واحتج عليكم . وقد جرد أهل الظلم فيكم السيوف ، فأخرجوا بنا إلى هذا الذي قد ثار بمكة ، فإن كان على رأينا جاهدنا معه ، وإن لم يكن على رأينا دافعناه عن البيت »<sup>(٢)</sup> .

وفي مكة انضموا إلى ابن الزبير ، ورحب بهم ، فقاتلوا معه وهو محاصر ، فلما عاد جيش الشام ، ثم تبينوا أنه ليس على مذهبهم انفضوا من حوله ، ورحل بعضهم إلى البصرة ، وبعضهم إلى اليمامة<sup>(٣)</sup> .

(١) الكامل للمبرد ٢١٤/٣

(٢) الطبري ٥٥/٢

(٣) الكامل لابن الأثير ٨٠/٤

٣ — أما الذين قصدوا اليمامة فهم النجدات أتباع نجدة بن عامر الحنفي ، وقدراجت هناك وبالبحرين دعوتهم ، وهم الذين أرسل جيشا لمحاربتهم سنة ٦٩ هـ مصعب ابن الزبير ، فهزمهم ، فانتقلوا إلى صنعاء ، وبثوا باليمن آراءهم ، وكاد سلطانهم يعم الجزيرة كلها . ثم انشق النجدات على زعيمهم نجدة فقتلوه سنة ٧٢ هـ ، وأرسل إليهم الحجاج قائدا قضى عليهم .

٤ — وأما الذين قصدوا البصرة فكانوا في زعامة نافع بن الأزرق ، وقدقوت شوكتهم ، وأخرجوا من السجن إخوانهم الذين حبسهم عبيد الله بن زياد حينما ثار عليه أهل البصرة بعد موت يزيد بن معاوية ، وتفاقم الحركة الزيرية في الحجاز .

ثم استولى نافع على الأهواز ، وجي خراجها ، فكثرت أتباعه ، وذعر منه أهل البصرة فقاتلوه ، وكانت بين الفريقين وقعة دولاب التي قتل فيها نافع ، خلفه عبيد الله ابن الماحوز ، وصارت الحرب سجالا بين الأزارقة والجيش الأموي بالبصرة إلى أن انهزم البصريون سنة ٦٥ هـ ٦٨٤ م فلما تكفل المهلب بن أبي صفرة بحربهم غلبهم ، سنة ٦٦ ، فأنحازوا إلى كرمان وأصفهان .

ولم يزل يطاردهم هو ومن بعده حتى تجمعوا في سابور ، فهزمهم قائد الأمويين ، لكنهم ما لبثوا أن استرجعوا قوتهم ، وقتلوا الأطفال والنساء ، وجبوا الخراج .

فطلب أهل العراق من واليهم - مصعب بن الزبير - أن يندب المهلب بن أبي صفرة لقتالهم ثانية ، فقاتلهم - وهم في زعامة قطري بن الفجاءة - قتالا دام ثمانية أشهر<sup>(١)</sup> لم يكتب فيه نصر حاسم لأيهما ، وكان عبد الملك قد قتل مصعبا ، ودانت له العراق .

ثم ولي عبد الملك الحجاج على العراق سنة ٧٥ هـ فأعاد المهلب إلى حرب الأزارقة ومده بالجيش ، فطاردهم حتى دب أسهم بينهم ، وانقسموا سنة ٧٧ هـ إلى فريقين : فريق بقي مع قطري ، وفريق انتقل إلى عبد ربه الصغير فضعف الفريقان .

هزم المهلب عبد ربه وقتله وقضى على أتباعه سنة ٧٧ هـ ، وارتحل قطري إلى طبرستان ، فلحق به جيش الشام فقضى عليه<sup>(٢)</sup> سنة ٧٨ . وبهذا تثلث قوة الأزارقة

(١) ابن الأثير ٤/ ١٨٨

(٢) ابن الأثير ٤/ ١٨٢ — ١٨٣

هـ — أما الصُفَرِيَّة فقد تزعمهم صالح بن مُسَرِّح أول الأمر، ثم خلفه آخرون ، فأرسل الحجاج لمحاربتهم عدة جيوش منذ سنة ٧٦ هـ لكنهم هزموها ، وغنموا سلاحها ومالها ، فعظم شأنهم وزحفوا نحو الكرخ ، ثم دخلوا بغداد ، وساروا نحو الأنبار ، وارتفعوا نحو أذريجان ، فترك الحجاج شبيباً هناك — شبيب بن يزيد الشيباني زعيم الصفريّة — وخرج إلى البصرة ، فهاجم الصفريّة الكوفة ودخلوها وقتلوا كثيراً من أهلها ، ثم أخرجهم الحجاج منها ، وحاربهم جيش من جيوشه قرب الحيرة فانتصروا مرات .

فلما هال الحجاج ما فعلوه نازلهم بنفسه في جيش من أهل الشام ، وانتصر عليهم ، وقتل غزاة زوجة شبيب ، وقتل أمه ، وفر شبيب .

فبعث الحجاج وراءه جيشاً يطارده ، فانتصر عليه ، ثم غرق شبيب في دجيل الأهواز سنة ٧٧ أو ٧٨ هـ ففرق أصحابه ، وحمل عليهم جند الشام فأفنوهم .

غرق شبيب بعد أن حمل على جيوش الدولة أكثر من ثلاثين حملة ، لكن غرقه والتنكيل بأصحابه لم يقض على الصفريّة .

فقد خفت صوتهم في عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز استعلن صوتهم بقيادة زعيمهم شوذب ، فأخذهم عمر بالرفق والمحاجة ، إشاراً للسلام ، وحقناً لدماء المسلمين ، وكاد ينجح . وفي عهده نصبوا أنفسهم حماة للضعفاء والمضطهدين بالعراق والجزيرة ، وناصروا المظلومين على الطغاة ، حتى إنهم بعثوا بسلاح إلى البربر بشمال إفريقيا ليعاونوهم في ثورتهم على حكامهم الأمويين .

ثم تزعم شوذب ثورتهم بالعراق سنة ١٠٠ هـ على الخليفة عمر بن عبد العزيز ، في ثمانين فارساً أكثرهم من ربيعة ، وهزموا واليه على العراق ، فبعث إليهم جيشاً من أهل الشام يقوده مسامة بن عبد الملك ، فانتصر عليهم ، وقتل شوذبا سنة ١٠١ هـ (١)

فلما كان عهد مروان بن محمد راجت دعوة أبي مسلم الخراساني ، واستشرى خطر الصفريّة بزعماء الضحّاك بن قيس الشيباني ، ومكن لهم في الأمر أن الأمويين منقسمون على أنفسهم ، حتى إن سليمان بن هشام انضم إلى الضحّاك بعد وفاة أبيه هشام ، ودعا أهل الموصل الضحّاك إلى بلدهم ، فدخله وطرده عامل مروان . وكذلك انضم إليه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز — كان والياً على العراق وعزله مروان — حينما زحف على الكوفة سنة ١٢٧ هـ ٧٤٤ م . وعظم شأن الضحّاك بالكوفة ، وكثر أتباعه ، حتى قيل إنهم تجاوزوا مئة ألف ، فسار إلى الموصل ثم إلى نصيبين ، فحاصره عبد الله بن مروان — ثم لحق به مروان نفسه ، وهزمه وقتله عند ماردين سنة ١٢٨ هـ (١) — فباع أتباعه الحيرى فقتل في العام نفسه (٢) .

٦ — في هذا الوقت كانت فرقة جديدة توشك أن تظهر ، وكان زعيمها عبد الله بن يحيى السكندی — الذي سمي طالب الحق — فلما كثر أتباعه أعلن دعوته بمحضر موت ، واستولى على اليمن ، وانضم إليه أبو حمزة — المختار بن عوف الأزدي — وكان أبو حمزة كثيراً ما يشخص إلى مكة في موسم الحج ، ليشير المسلمين على مروان بن محمد ، فدخلها بعد انقضاء الحج من غير قتال . ولما اتجه إلى المدينة خرج إليه أهلها فقاتلهم بقدّيد ، وقتل منهم ألفين ونيّفاً ، وانتصرت الإباضية ، ودخل أبو حمزة المدينة سنة ١٣٠ هـ ٧٤٧ م واستمال أهلها ، وأحسن معاملتهم . وأقبل جيش الشام ، فخرج أبو حمزة للقاءه في وادي القرى ، فهزم أبو حمزة ، وقتل كثير من أتباعه سنة ١٣٠ ، وهرب هو إلى مكة ، فتعقبه الجيش الأموي وقبض عليه وصلبه ، وصلب زعماء الخوارج الذين معه . ثم سار الجيش إلى اليمن ، وهزم طالب الحق وقتله ، وقتل كثيراً من أشياعه سنة ١٣٠ (٣) .

وبهذا استراحت الدولة الأموية من ثوراتهم ، وثورات فرق أخرى ، لكن الدولة لم تعمر إلا قليلاً ، لأن الدولة العباسية كانت توشك أن تولد .

(١) ابن الأثير ١٣٥/٥ — ١٤١

(٢) الطبري ٦٧/٩

(٣) ابن الأثير ١٤١/٥ والطبري ٩٥/٩ ، ١٠٧ ، ١٠٩ وشرح نهج البلاغة ١/٦٠

والأغانى ٩٩/٢٠ .



ولم يكن للخوارج في العصر العباسي إلهيات ضعيفة بعمان ، إذ كانوا قد  
انعزلوا هناك ، واستقلوا نحو مئة سنة ، حتى قضى عليهم بنو العباس  
سنة ١٧٢ هـ ٧٨٨ م .

### أشهر فرقهم

بقي الخوارج حزبا واحدا لم يتصدع إلى فرق حتى سنة ٦٥ هـ إذ اتجهوا إلى مكة  
بزعامة نافع بن الأزرق ، ليناصروا عبد الله بن الزبير إذا وجدوه يدين بمذهبهم .  
فلما ناقشوه وحاوروا ابن عباس ، تبينوا أن ابن الزبير يخالفهم في آرائهم ، فانفضوا عنه .  
وحينئذ بدأوا يفتشقون ، فشخص بعضهم إلى الإمامة ، وهم النجدات أتباع نجدة  
ابن عامر الحنفي ، واتجه الباقون إلى البصرة ، وهم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ،  
ثم تشعبوا جميعا إلى عشرين فرقة ، لكل منها آراؤها .

### - ١ -

## الأزارقة

هم أتباع نافع بن الأزرق من بني حنيفة ، المكنى بأبي راشد ، وكان فقيها مقدما  
في فقه الخوارج . أكثرهم من تميم ، ثم انضم إليهم كثير من الموالى ، وصاروا مثل  
العرب حماسة في الدفاع عن مذهبهم ، وكانوا يكثرون فيعوضون ما ينقصه القتل  
من الأزارقة .

وانتهت زعامتهم أخيراً إلى قطري بن الفجاءة ، ثم انقسموا عليه ، فبقي فريق  
معه ، وتخلي عنه فريق إلى عبد ربه الصغير .

كان نفوذهم بالقرب من البصرة وبفارس وكرمان .

وهذه الفرقة أكثر فرقهم عدداً ، وأعظمها قوة ، ولهم تعاليم شتى <sup>(١)</sup> :

(١) الكامل ٣/٢٨٤ والملل والنحل ١/١٠٩ ، ١٢٢ والفرق بين الفرق ٦٢ ومروج

٤١/٢ - ١٩١ ونقد العلم والعلماء ١٠٠ وشرح نهج البلاغة ١/٣٨١ .

## دعائم مذهبهم :

١ — أنهم كفروا عليا والمسلمين جميعاً ، ما عدا الأزارقة .  
٢ — لم يلبوا دعوة غيرهم للصلاة ، ولم يستحلوا ذبائحهم ، ولم يتزوجوا منهم .  
أو يتزوجوهم ، ولم يرثوهم أو يورثوهم ، ولم يقبلوا شهادتهم ، ورأوا أن علم الدين لا يؤخذ عنهم .

٣ — غلوا في الحكم على مخالفيهم ، فقصوا بتكفيرهم ، وزعموا أن بلاد المسلمين دار حرب ، فاستحلوا قتالهم ، لأنهم مثل كفار العرب عباد الأوثان ، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، وبهذا استحلوا قتل شيوخهم ونسائهم ، واستحلوا قتل الأطفال ؛ لأنهم مشركون كآبائهم مخلدون في النار .

وكانت غلظتهم على مخالفيهم من المسلمين أشد من غلظتهم على الكفار . روى أن واصل بن عطاء المعتزلي وقع في أيديهم ، فادعى أنه مشرك مستجير ، لأن هذه الدعوى تنجيه أكثر من إسلامه المخالف لمذهبهم (١) .

وهذا شاعر من شعرائهم — سيرة بن الجعد — يصف مخالفيهم بالكفر ويلعنهم في قوله (٢) :

فن مُبلغ الحجاج أن سميره      قلّ كل دين غير دين الخوارج  
رأى الناس — إلا من رأى مثل رأيه —

ملاعين تراكين قصـد الخارج

٤ — لم يجزوا التقية في فعل أو قول ، ولم يجزوها في الانضمام إليهم رهبة منهم ، لا إيماناً بصحة مذهبهم . وهم يستدلون على تحريم التقية بقوله تعالى : « قلنا كتب عليهم القتال إذا فريق منهم ينحشون الناس كخشيّة الله أو أشد خشية » وبأنه تعالى وصف المتخرجين منها بأنهم يحبون الله والله يحبهم ، ووصفهم بالثبات في جهادهم ، والصراحة في قولهم وفعلهم ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه

(١) تهذيب الكامل ١/٨٣ .

(٢) مروج الذهب ٢/٣٩ كان سيرة قد اتصل بالحجاج وسامره ثم عاد إلى مذهبه الخارجي .

فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » (١)  
٥ — كفروا إخوانهم القاعدين عن القتال وهم قادرون عليه ، واستحلوا قتلهم .

٦ — كفروا مرتكب الكبيرة ، ومرتكب الصغيرة أحياناً ، وذهبوا إلى أنه مغلد في النار .

٧ — أسقطوا الحد عن الزاني المحصن ؛ لأنه لم يرد في القرآن نص عليه ، وأسقطوا الحد عن قاذف الرجل المحصن ، وأقاموه على قاذف المحصنة .

٨ — حكموا بقطع يد السارق في القليل والكثير .

٩ — ذهبوا إلى أن الفرائض الدينية كالصلاة والصيام والفضائل الحلقية كالصدق والعدل ، جزء من الإيمان ، لأن الإيمان ليس محصوراً في التوحيد وتصديق الرسالة . فالذي يدين بالوحدانية ، ويدين برسالة محمد ، ثم لا يقوم بالفرائض الدينية ، أو يرتكب الكبائر ، كافر .

١٠ — وإذا كفروا مرتكب الكبيرة ، وكذلك مرتكب الصغيرة ، فإنهم أوجبوا الخروج على أئمتهم إذا ما ارتكبوا هفوة .

وبعد

فالأزارقة أشد طوائف الخوارج قسوة على مخالفيهم ، وبغضاً لهم ، وأشدهم على أنفسهم أيضاً .

فلا عجب في أن كرههم المسلمون ، وحاربهم المهلب في خلافة عبد الله بن الزبير ، لما نديه لحربهم مصعب بن الزبير ولي العراق ، ثم حاربهم في ولاية الحجاج على العراق ، حتى قضى عليهم (١)

(١) سورة المائدة ٥٤ .

(٢) تهذيب الكامل ١٨٢/١ والملل والنحل ١٠٩/١ والفرق بين الفرق ٦٢  
( م ٧ — الأدب السياسي )

## النُّجَدَات

هم أتباع نجدة بن عامر الحنفي ، كانوا في أول أمرهم بالجمامة والبحرين وحضرموت .

وكان نجدة من الأزارقة ، ثم خالف نافع بن الأزرق سنة ٦٦ في عدة مسائل ، وكتب إلى نافع كتاباً<sup>(١)</sup> ملخصه :

١ — ليس المتخلفون عن الجهاد لنصرة الحزب كفاراً كما ذهب نافع ، لأن الله عذرهم وصماهم أحسن الأسماء في قوله : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوهم الله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل » .

ولأن الله فضل المجاهدين على القاعدين غير أولى الضرر ، من غير أن يحكم عليهم بالكفر في قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .

٢ — ولهذا يحل الزواج منهم وإلهم ، ويحل ميراثهم ، وذبايحهم ، وتقبل شهادتهم .

٣ — لا يحل الغدر بالأمانة ، لقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

٤ — ولا يحل قتال الأطفال ، لقوله تعالى : « لا تزر وازرة وزرَ أخرى » ونهى الرسول عن قتلهم .

---

(١) شرح نهج البلاغة ١ / ٣٨٢ والملل والنحل ١ / ١١٢ .

هـ — التقية جائزة ، لقوله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة » ولأنه سمى صاحبها مؤمناً في قوله : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون بكم لئيمانه أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ » .

لكن نافع بن الأزرق لم يرجع عن رأيه<sup>(١)</sup> ، فانفصل منه نجدة ، وسار إلى اليمامة مع أتباعه . فاختره للزعامة الفريق الذي كان يتزعمه أبو طالوت البكري ، وخلصوا أبا طالوت . وأقام نجدة بالبحرين مدة ، حتى قدم مصعب بن الزبير إلى الكوفة سنة ٦٩ هـ فبعث إليه جيشاً هزمه ، فاتجه إلى صنعاء ، وراجت دعوته باليمن . ثم اختلف معه أتباعه بزعامة أبي فديك فقتلوه سنة ٧٢ هـ . وأمرؤا عليهم أبا فديك ، فصاروا يسمون فديكيّة . وحاربوا أهل البصرة ، وانتصروا عليهم انتصاراً مبيناً ، ولكن جيش عبد الملك بن مروان الذي قاده عمر بن عبد الله بن مكرم قائد الحجاج استطاع أن يهزم الفديكية سنة ٧٣ هـ ، وأن يقتل أبا فديك ، ويحصر جيشه بالمشقر ، ويضطره إلى التسليم . وكانت هذه نهاية النجيدات باليمامة والبحرين

على أن عطية بن عطية بن الأسود الحنفي برى من أبي فديك ، وبرى أبو فديك منه قبل هذه الموقعة . وبعدها لحق عطية بأرض سجستان ، وسمى أصحابه العَطَوِيَّة ، ومنهم عبد الكريم بن عَجْرَد زعيم العجاردة<sup>(٢)</sup> .

دعائم مذهبهم :

للنجيدات تعاليم منها<sup>(٣)</sup> :

- ١ — إذا اخطأ المجتهد فاستعمل حراماً أو حرم حلالاً ، فهو معذور .
- ٢ — تحريم دماء المسلمين ، وتحريم اغتصاب أموالهم ، إلا في حرب .
- ٣ — جواز التقية قولاً وفعلاً .

(١) راجع رسالتي نجدة ونافع في باب الرسائل من هذا الكتاب .

(٢) لاختلاف بين العجاردة والنجيدات ، إلا أنهم اختلفوا فرقا ، منها الميمونية الذين أحلوا نكاح البنات وبنات أولاد الإخوة والأخوات ، بدعوى أن القرآن لم يحرمهن . وحكى عنهم أنهم أنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن ، لأنها في زعمهم قصة لغراء (الملل والنحل ١/١١٦)

(٣) الملل والنحل ١/١١٠ والفرق بين الفرق ٦٨ ومروج الذهب ٢/١٩١

- ٤ — إباحة التخلف عن القتال للقادر عليه ، وإن كان الجهاد أفضل .
- ٥ — إباحة دماء أهل العهد والذمة وأموالهم في حال التقية .
- ٦ — إسقاط الحد عن شارب الخمر .
- ٧ — ارتكاب الذنب الصغير أو الكبير مع الإصرار عليه يعد كفرًا ، وارتكاب الكبيرة مع عدم الإصرار لا يخرج من الإيمان .
- ٨ — أجمعوا على أنه لا حاجة إلى إمام قط ، بل على الناس أن يتناصفوا فيما بينهم ، فإن وجدوا أن صلاح أمورهم لا يتم إلا بإمام فأقاموه جاز .
- وهم في هذا يتفقون مع بعض المعتزلة كابن الأصم ، لأن العقل والشرع لا يوجبان إقامة إمام ، مادامت أحكام الشريعة نافذة ، فإذا اتفقت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى فلا حاجة إلى إمام .
- والذى حملهم على هذا رأى هو الفرار من الملك وما ينشأ عنه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا (١) .

### — ٣ —

## الإباضية

هم أتباع عبد الله بن إباض التميمي الذي عاش في عصر معاوية ، وكان عبد الله من أتباع نافع الأزرق ، ثم خالفه في مسائل .

أما نفوذهم فكان باليمن وحضرموت ، إذ تزعمهم عبد الله بن يحيى الكندي ، وبايعه بالخلافة أبو حمزة سنة ١٢٨ هـ كما سبق في ثورات الخوارج .

دعائم مذهبهم (٢) .

١ — لم يغالوا في عداؤهم مخالفينهم كما غالى الأزارقة ؛ فمخالفوهم في نظرهم كفار غير مشركين ، ودارهم دار إسلام لا دار كفر ، لهذا لم يحلوا قتالهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجج وإعلان الحرب . فإذا قاتلوهم وغنموا منهم ردوا كل شيء إلا المال

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٢٠ .

(٢) الفرق بين الفرق ٨٢ . (٣) الأغاني ٩٨/٢٠ . (٤) الأغاني ١٠٥/٣٠ .



والسلاح ، فهم يشبهون في هذا فرقة النجدية . ومعنى هذا ان أموال مخالفهم محرمة عليهم في غير الحرب ، وأن قتلهم حرام .

٢ — أباحوا الزواج من مخالفهم ، وأباحوا أن يرثوهم ، وجوزوا قبول شهادتهم .

٣ — مرتكب الكبيرة في مذهبهم موحد لا مؤمن ، فهو كافر بالنعمة لا بالملة ، أى أنه كافر كفر نعمة لا كفر شرك . جاء في خطبة عبد الله بن يحيى باليمن بعد أن استولى عليها : من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شك في أنه كافر فهو كافر (١) . وكرر أبو حمزة هذا في خطبة له بالمدينة (٢) .

٤ — والإباضية بشمالى إفريقية وعمان يتفقون في كثير من آرائهم مع المعتزلة ، كقولهم بخلق القرآن ، وتأويلهم بعض الكلمات القرآنية تأويلا مجازيا مثل الميزان والصراط والامتناء على الدين ، وقولهم بعدم المغفرة لمرتكب الكبيرة إلا إذا تاب قبل الموت ، وتأيد العذاب للمشركين ولمرتكبى الكبائر من المسلمين إذا لم يتوبوا ، والقول بأن صفات الله ليست زائدة على ذاته .

ويخالفون للمعتزلة في القول بأن مرتكب الكبيرة بمنزلة بين المنزلتين ، فلا هو مؤمن ولا هو كافر ، لأنهم خوارج يدينون بتكفير مرتكب الكبيرة .

وكذلك يخالفونهم في القول بالقدر وحرية العبد في أفعاله ، لأن المعتزلة يرون أن العبد حر ، والإباضية يرون أن حرية محدودة بالكسب أو الاكتساب كما يقول الأشاعرة ، فالعباد اكتسبوا أفعالهم وعملوها ، ولم يجبرهم الله عليها أو يضطرهم إليها .

وما زالت بقايا منهم بالجزائر وطرابلس وعمان وزنجبار إلى اليوم .

---

(١) الأغاني ٩٨/٢٠ .

(٢) الأغاني ١٠٥/٢٠ .

## الصُّفْرِيَّةُ

هم أتباع زياد بن الأصفر ، ولذلك يسمون صُفْرِيَّةً أَوْ زِيَادِيَّةً (١)

وقيل إنهم سموا صفرية ، لأن ألوانهم كانت مصفرة ، وفي هذا يقول ابن عاصم اللثي - وكان خارجياً ثم صار مرجئاً - :

فارقت نجدة والذين تَزَرَّقُوا وابن الزبير وشيعة الكذاب (٢)

والصُّفْرُ الأذان الذين تخيروا دينا بلا ثقة ولا بكتاب (٣)

ثم تزعمهم شبيب بن يزيد ، ثم شوذَّب (بسطام اليشكري) ثم الضحاك بن قيس الشيباني .

وكانت لهم ثورات عدة سبقت في حروب الخوارج .

كان زياد بن الأصفر كسابقه نجدة وعبد الله بن إباح من أتباع نافع ، ثم اختلف معه ، فانفصل بأتباعه ، واستقل بمذهبه .

ذلك أن نافع بن الأزرق كتب إلى عبد الله بن إباح وإلى عبد الله بن صفار كتاباً يعلن فيه مذهبه القائم على الحكم بالشرك على من لم يخرجوا معه ، وما ينشأ عن هذا الحكم من تحريم ولايتهم ، ووجوب قتالهم ، الخ

فلما قرأ عبد الله بن إباح الكتاب قال : قاتله الله ، أى رأى رأى ؟ صدق نافع ، لو كان القوم مشركين كان أصوب الناس رأياً وحكماً فيما يشير به ، وكانت سيرته كسيرة النبي صلى الله عليه وسلم في المشركين ، ولكنه قد كذب فيما يقول ، إن القوم كفار بالنعم والأحكام وهم برآء من الشرك ، ولا يحل لنا إلاماؤهم ، وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام .

فقال له ابن صفار : برىء الله منك فقد قصرت ، وبرىء الله من ابن الأزرق

(١) الملل والنحل ١/١٢٣

(٢) تزرعوا: صاروا من الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق . الكذاب: المختار بن عبيد الله الثقفي .

(٣) الكامل للمبرد ٣/٣٩٢

فقد غلا ، برى\* الله منكما جميعا . فقال ابن إباض : فبرى\* الله منك ومنه .  
وتفرق القوم<sup>(١)</sup>

### دعائم مذهبهم :

قام مذهبهم على عدة أصول ، منها : (٢)

١ - لا يحكمون بكفر إخوانهم القاعدين عن القتال مع قدرتهم عليه ، فهم في هذا  
الرأى مثل النجيدات .

٢ - أجازوا التقية قولا لا فعلا ، فهم في هذا وسط بين الأزارقة والنجيدات .

٣ - لم يقضوا بكفران أطفال المشركين ، ولهذا لم يبيعوا قتلهم ، فهم في هذا كالنجيدات  
والإباضية ، ومخالفون للأزارقة

٤ - الكبائر في رأيهم نوعان : نوع يُمَحَدُّ مرتكبه كالسرقة والزنا والقذف ، ونوع  
لاحد فيه ، لعظم قدره ، مثل ترك الصلاة ، والفرار من الزحف .

أما النوع الأول فمرتكبه ليس كافرا ولا مشركا ، وإنما يسمى باسم الجريمة التي  
ارتكبها ، يسمى سارقا أو زانيا أو قاذفا .

وأما النوع الثاني فإن مرتكبه كافر مخلد في النار

---

(١) تاريخ الطبرى ٥٧/٧ .

(٢) الكامل للمبرد ٢٩١/٣ والملل والنحل ١٢٣/١ .

## مذهب الخوارج السياسى

للخوارج مذهب سياسى أعلنوه ، واستمسكوا به ، ودافعوا عنه ، منذ انشقوا على الإمام على .

وقد جاهدوا فى تحقيق هذا المذهب بأعز ما يملكون ، بدمائهم وأرواحهم وأموالهم ، وقاموا بالثورات الكثيرة التى أضعفتهم ، وزعزعت أركان الدولة الحاكمة نصف قرن .

وهذا المذهب السياسى قائم على عدة أصول :

١ - الخلافة حق لكل مسلم كفء يجتمع فيه العلم والعدل والزهد<sup>(١)</sup> ؛ فليس يشترط فى الخليفة أن يكون عربيا كما تذهب الأحزاب كلها ؛ لا يشترط أن يكون قرشيا كما يرى الزيريون ، ولا من بنى هاشم كما يقول الشيعة ، ولا من بنى أمية كما يدعى الأمويون .

بل هم يفضلون أن يكون غ-ير قرشى؛ ليسهل عزله أو قتله إذا انحرف ، لضعف عصبية .

وقد طبقوا مذهبهم قولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسي ، وهو غير قرشى ، وعزلوا بعض رؤسائهم ، وقتلوا بعضهم .

٢ - الخليفة ينتخبه المسلمون انتخابا حرا .

وهم برأيهم فى اختيار الخليفة يمثلون الديمقراطية التحررة ، ويمثلون التطور السريع مع الأحداث ، ذلك بأنهم كانوا فى أول الأمر ينادون بأن الخلافة حق لكل عربى حر ، فلما انضم إليهم كثير من المسلمين الأعاجم استغنوا عن العروبة والحرية بالإسلام والعدل ، ونادوا بأن الخلافة حق لكل مسلم عادل ، سواء أ كان حرا أم عبدا .

٣ — تتفق فرقتهم على رأيين :

١ — الاعتراف بصحة البيعة لأبي بكر وعمر ، والثناء على أعمالهما ، والاعتراف بخلافة عثمان في السنوات الست الأولى من حكمه ، والتبرؤ منه في السنوات الباقية ، والإقرار بصحة البيعة لعلي ، والرضا بخلافته إلى أن قبل التحكيم . أما بعد التحكيم فيحكمون عليه بالكفر<sup>(١)</sup> ، كما حكموا على عثمان بعد سنواته الأولى ، وعلى معاوية ومن بعده ، وعلى طلحة والزبير وعائشة وعمرو بن العاص والسيدة عائشة ، وكانوا يعادون من يخالفهم في هذه الفكرة ويعتبدونه خارجا على الدين .

ب — إذا جار السلطان وجب عزله ، فإن امتنع جاز قتله .

ومن خرج على الإمام العادل وجب قتاله ، وليس من حق الإمام الذي اختاره المسلمون أن ينزل عن الإمامة<sup>(٢)</sup> .

## مذهبهم الديني

كانت الصبغة العامة للخوارج سياسية إلى خلافة عبد الملك بن مروان ، ثم خلط بعضهم بالمذهب السياسي مذهباً دينياً متطرفاً ، كما سنبين في حديثنا عن فرقهم ، على أنهم جميعاً يتفقون في عدة أسس :

- ١ — الدين عقيدة وعمل ، فمن لم يقيم بما يوجبه عليه الدين من صلاة وصيام وحج وزكاة وغيرها ، أو لم ينته عما نهى عنه الدين ، فليس مؤمناً ، بل هو كافر أو ملحد . ولم يخالف في هذا الأصل إلا النجدات ، لأنهم جعلوا الإصرار على الذنوب ولو صغيرة هو المنافي للإيمان ، أما ارتكاب الكبائر من غير إصرار فلا ينافي الإيمان .
- ٢ — وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدفاع عن المحرمات .
- ٣ — البراءة من الكاذب ، ومن مرتكب المعصية الظاهرة ، لأنه كافر مخلد في النار .

(١) لا تفرقة عندهم بين المعصية والكفر ، إذ أن المخالفة الجزئية مثل المخالفة الكلية . لهذا كفروا أهل الجمل وصفين والحكمين ومعاوية وأعوانه .  
(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ٥٥ والملل والنحل ١/١٠٧ .

٤ — كفروا مرتكب الكبيرة ، محتجين بآيات كثيرة ، منها « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » فجعل تارك الحج كافرا . وبقوله تعالى : « إنه لا يئأس من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون » لأن الفاسق لفسقه وإصراره عليه يئأس من رحمة الله ، فكان كافرا . وبقوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » لأن كل مرتكب للذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله . وهكذا تأولوا آيات كثيرة (١) .

٥ — الاستمسك بالقرآن الكريم ، والعمل بأحكامه ، والخشية الشديدة من عذاب الآخرة ، فهم أهل عبادة وصيام وصلاة وورع .

٦ — كثيراً ما تأولوا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ليبرروا مذهبهم ، كما تأولوا (إن الحكم إلا لله) بأن المراد لا حكومة إلا لله ، أى لا حاجة إلى إمام . وقد سمعهم على يقولون هذه العبارة فقال : كلمة حق يراد بها باطل .

ومن البديهي أنه لا بد للناس من حاكم يسوس شئونهم ، ويرعى صالحهم ، ويحميهم من العدو ، يأخذ للضعيف من القوى .

٧ — وهم جميعا يتصفون بسذاجة آرائهم ، وغلبة البداوة على تعاليمهم .

## أخلاقهم

قامت أخلاقهم العامة على دعائتين : التقوى والشجاعة .

### تقواهم :

أما تقواهم فتجلى في شهرتهم بالعبادة ، وإطالة السجود ، والزهد في متاع الدنيا ، والعكوف على تلاوة القرآن الكريم ، والتأثر بوعدته ووعيدته . والأمثلة على هذا كثيرة .

١ — وجه إليهم على بن أبي طالب عبد الله بن عباس ، فرحبوا به ، وأكرموه ، « فرأى منهم جباها قرحةً لطول السجود ، وأيديا كثيفات الإبل ، عليهم قمص مرحةضة ، وهم مشمرون » (٢) .

(١) شرح نهج البلاغة ٣٠٧/٢

(٢) تهذيب الكامل ٧٧/١ قرحة : مجروحة : ثفات الإبل : ركبها . مرحةضة : نظيفة مفسولة .



٢ — مثل مولى عروة بن أدية عن صفته بعد أن قتل ، فقال : ما أتيت به بطعام في نهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط (١) .

٣ — قال عيسى بن فاتك الخطبي في رثاء مرداس بن أدية وداود بن شبة ومن قتل معهما :

ألا في الله لا في الناس شالت بداود وإخوته الجذوعُ  
مضوا قتلا وتمزيقا وصلبا تحوم عليهم طير وقوع  
إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع  
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

٤ — لما حبس مرداس بن أدية أعجب السجناء بحلاوة منطقه واجتهاده في عبادته ، فعرض عليه أن يتركه كل ليلة لينصرف إلى بيته ، ويعود في آخر الليل ، فكان يفعل ذلك .

ثم ضاق عبيد الله بن زياد بالخوارج ، وأقسم ليقتلن من حبسه منهم . وكان مرداس بمنزله ليلا ، فعلم الخبر . فلما كان السحر تها للرجوع ، فقال له أهله : اتق الله في نفسك ، فإنك إن رجعت قتلت . فقال : إني ما كنت لألقى الله غادراً . فرجع إلى السجن ، وقال له : لقد علمت ما عزم عليه صاحبك . فقال له : أعلمت ورجعت؟ (٢)

٥ — استنفر عبيد الله بن زياد الناس لقتال الخوارج ، واختار عباد بن علقمة المازني المشهور بابن أخضر لقيادة الجيش بفارس ، فالتقى بهم يوم جمعة .

وقبيل المعركة قال زعيم الخوارج أبو بلال لعباد : اخرج إلى ياعباد ، فإني أريد أن أحاورك .

فخرج إليه . فقال أبو بلال : ما الذي تبغى ؟ قال : أن آخذ بأقفاكم فأردكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد .

قال أبو بلال : أو غير ذلك ؟ قال عباد : ما هو ؟

(١) الكامل للمبرد ١٨١/٣

(٢) المرجع السابق ٢٤٨/٣

قال أبو بلال : أن ترجع ، فإننا لا نخيف سبيلا ، ولا نذعرُ مسلما ، ولا نحارب  
إلا من حاربنا ، ولا نجبي إلا ماحيينا . فقال له عباد : الأمر ما قلت لك .

ثم نشبت المعركة ، ولم يزل القوم يجتلدون حتى جاء وقت صلاة الجمعة . فناداهم  
أبو بلال : يا قوم هذا وقت الصلاة ، فوادعونا حتى نصلى وتصلوا .

قالوا : لك ذلك . فرمى القوم أجمعون أسلحتهم ، وعمدوا للصلاة . فأسرع عباد  
ومن معه ، ومالوا على الحرورية فقتلوهم جميعا ، وهم بين راكم وقائم وساجد  
وقاعد<sup>(١)</sup> ، فقتلوهم ، وأتى برأس بلال

وفي رثائه يقول عمران بن حطان<sup>(٢)</sup> :

لقد زاد الحياة إلى بغضا      وحبًا للخروج أبو بلالِ  
أحاذر أن أموت على فراشي      وأرجو الموت تحت ذرا العوالى  
ولو أنى علمت بأن حَتَفِي      كحَتَفِ أبي بلال لم أبال  
فمن بكُ هم الدنيا فلانى      لها والله رب البيت قالى

سجاعتهم :

الخوارج أعظم الأحزاب شهرة بالبأس والصبر على حر القتال ، وفداء العقيدة  
بالدماء والأرواح والأموال ، لا يثنىهم عن نزال الخصم أنه أكثر منهم عددا ، وأعز  
نقرا ، وطالما انتصر عدد قليل منهم على جيش يزيد على عشرات أمثالهم .

وهم يرون الاستشهاد حلو المذاق ، فيتهافتون على القتال في غير مبالاة .

ولهذا أقلقوا الدولة الأموية زمنا طويلا ، وكلفوها وكلفوا أنفسهم عشرات  
الألوف من الضحايا .

وكانت بطولتهم مبعث تقديرهم ، بغض النظر عن تعصبهم وشططهم .

فهم في رأى نيكلسون يمثلون أعلى درجات الدفاع عن المذهب ، على حين أنهم

(٢) تهذيب الكامل ١/ ١٠٧

(١) الكامل ٣/ ٢٥٤ .

لم يكونوا ذوى مآرب شخصية يريدون الحصول عليها ، كالأحزاب الأخرى (١) .

١ — فمنهم الذى أثر عقيدته على حياته ، وعلى شفاعته أبيه وابنه ، يذكر أن معاوية أرسل إلى زعيمهم حوثة بن وداع بن مسعود الأسدى — بعد هزيمتهم فى النخيلة — أباه ، لعله يرده عن الحرب ، ولعله يرق حينما يكلمه أبوه . فناشده أبوه أن يكف ، وقال له : ألا أجيتك بابنك ، فلعلمك إذا رأيته أن تسكره فراقه ؟ فقال حوثة : أنا إلى طعنة من يد كافر أشوق منى إلى ابنى .

ومنهم الذى طعن ، ونفذ فيه الرمح ، فجعل يسعى إلى قاتله ، والرمح فيه . ويقول : « وعجبتُ إليك ربَّ لترضى » .

وذكروا أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم ، فوجد منه ماشاء علما وفهما ، ثم وجد ماشاء أدبا ، فرغب فيه ، واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فراه مستبصرا محققا ، فزاده فى الاستدعاء ، فقال له : لتفك الأولى عن الثانية ، وقد قلتُ فسمعتُ فاسمع أقل . فقال له : قل . فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له من مذاهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك بعد ذلك — على معرفة — : لتد كاد يوقع فى خاطرى أن اللجنة خلقت لهم ، وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعتُ إلى ما ثبت الله علىَّ من الحجة ، وقرر فى قلبى من الحق .

ثم هدهد عبد الملك بالقتل إن لم يطع ، وإذا بابنه مروان يدخل عليه باكيا ، لأن مؤدبه ضربه ، فشق ذلك على عبد الملك ، فأقبل عليه الخارجى يقول : دعه يَبْك ، فإنه أرحب لشدقه ، وأصح لدماعه ، وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه ، فاستدعى قَبْرَتَهَا .

فتمعجب عبد الملك وقال له : أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ .

فقال الخارجى : ما ينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيء .

فأمر عبد الملك بحبسه ، وصفح عن قتله ، وقال له : لولا أن تفسد بألفاظك أكثر عيقي ما حبستك (٢)

(١) A Literary History of Arabs P. 211

(٢) الكامل للمبرد ٢٢٢/٣

٢ — وكانت نساؤهم مثل رجالهم شجاعة وصلابة ، وكن يشتركن مع الرجال في الزحوف ويتقدمن إلى الحتوف .

وكان ابن زياد شديد الغيظ منهم ، لأن اشتراكهن في الحروب يلهب حماسة الخوارج ، ويزيد شجاعتهن .

لذلك أقسم ابن زياد أن ظفر بخارجية ليجعلنها نكالا وعبرة لغيرها .

من هؤلاء النسوة البلجاء ، كانت تقيّة عالة مجاهدة ، علم أبو بلال أن ابن زياد يعتزم التنكيل بها ، فأخبرها أو نصحتها بأن تهرب ، فقالت في رباطة جأش : إن يأخذني فهو أشقى بي . ثم أخذها ابن زياد فقطع يديها ورجليها ، وصلبها عريانة (١) .

ومنهم أم شبيب بن يزيد الشيباني زعيم الصفرية ، وزوجته غزالة ، وكان لهما شأن في حروب الصفرية عظيم .

٣ — وإنا لنجد في أقوال خصومهم شهادة لهم بالبطولة .

قال البراء بن قبيصة للمهلب : ما رأيت قط أصبر ولا أبأس من القوم الذين يقاتلونك .

وقال للحجاج لما عاد إليه : رأيت قوما لا يعين عليهم إلا الله . وشهد المهلب نفسه بشجاعتهم في قوله : كيف تقاتل قوما هذا طعنهم ؟

فلا عجب في أن كان خصومهم يتوقّون لقاءهم ، ولا عجب في أن انتصروا على الجيش الأموي مرات .

خرج قطري بن الفجاءة في بعض حروبه على فرس أعجف ، ويده عمود من الخشب ، فدعا إلى المبارزة ، فخرج إليه رجل من خصومه ، فخر قطري عن وجهه ، فلما رآه الرجل ولى هاربا ، فقال له قطري : إلى أين ؟ قال الرجل : لا يستحي إنسان أن يفر منك ،

## أفرو صرهم لعقيدتهم

ولقد أخلصوا لعقيدتهم ، بل إنهم تشددوا إلى أقصى حد في إخلاصهم لها ومغالاتهم فيها ، فلم يهادنوا خصمهم مهما تكن قوته ، ولم يجبنوا عن إعلان رأيهم والدفاع عنه مهما تكن تبعته .

وقد شهد لهم بذلك الإمام على نفسه في قوله وهو في آخر أيامه : لا تقتلوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه .

وقال عمر بن عبد العزيز في مناظرته لرسولى شوذب اليشكرى لما خرج عليه : إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها .

## تعصبرهم الممقوت

والذى يتبع أحداثهم وآراءهم ومناقشتهم لخصومهم يتبين أنهم متعصبون أشد التعصب لآرائهم ، مترمضون في تطبيقها على أنفسهم وعلى غيرهم ، ويرى أنهم كثيرا ما ينفرون من الحجة الملزمة لهم ، وأنهم يتناقضون في آرائهم وفي أفعالهم تناقضا يثير الدهشة والعجب :

ولعل ذلك راجع إلى بداوتهم ، وسذاجتهم ، وضيق ثقافتهم ، وقلة مروتهم ، واعتدادهم بأنفسهم إلى حد الغرور ، وتمسكهم بظواهر النصوص ، ولهذا كان الخلاف بينهم كثيرا ، وتعددت فرقهم ، وحاربهم خصومهم بسلاح التفرقة ، فكان المهلب ابن أبي صفرة في محاربته للأزارقة يدس بينهم من يثير الخلاف والشقاق . (١)  
والأمثلة على تعصبرهم المقيت أن على بن أبى طالب خطب فيهم ، فأبطل آراءهم ، لكنهم لم يستجيبوا له .

قال على : فإن أبيتكم إلا أن تزعموا أنى أخطأت وضللت ، فلم تضلون عامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتأخذونهم بخطئى ، وتكفرونهم بذنوبى ؟

سيوفكم على عواتقكم ، تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنبي بمن لم يذنب .

وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم الزاني المحصن ثم صلى عليه ، ثم ورثه أهله ،

وقتل القاتل ، وورث ميراثه أهله .

وقطع يد السارق ، وجلد الزاني غير المحصن ، ثم قسم عليها الفء ، ونكحها المسلمات .

فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذنوبهم ، وأقام حق الله فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله .

وبهذا ناقشهم على بأعمال رسول الله ، لأن العمل لا يقبل تأويلات ، فلا مجال فيه للمناقشة ، والنظر السطحي ، والتفكير المتحيز إلى جانب الهوى ، لأنهم كانوا يتشبثون بظاهر النص .

ولكنهم استبدوا بأرائهم ، ولم يستجيبوا له .

ومن أمثلة ، تناقضهم أنهم أصابوا مسلما ونصرانيا ، فقتلوا المسلم ، وتواصوا بالنصراني ، فقالوا :

احفظوا ذمة نبيكم . فعصموا دم الدمى ، وأهدروا دم المسلم المخالف لهم .

ومنها أنهم لما اتقوا بعبد الله بن خبّاب<sup>(١)</sup> وهموا بقتله ، وثب رجل منهم على رطبة فوضعتها في فمه ، فصاحوا به ، فلفظها تورعا .

---

(١) لديهم وفي عنقه مصحف ، فقالوا له إن الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك ، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهم ما خيرا . قالوا : فما تقول في علي قبل التحكيم وفي عثمان في السنوات الست الأولى؟ فأثنى خيرا . قالوا فما تقول في التحكيم؟ قال إن أعيا أعلم بكتاب الله منكم وأحرص على دينه وأنفذ بصيرة . قالوا إنك لست تتبع الهدى إنما تتبع الرجال على أسمائهم ، ثم قربوه إلى شطى النهر وذبحوه



وعرض لأحدهم خنزير ، فضربه الرجل فقتله ، فقالوا : هذا فساد في الأرض .  
فقال عبد الله بن خباب : ما على منكم بأس إذن ، إني لمسلم . ولكنهم ذبحوه .  
ثم ساموا نصرانيا نخلة له ، فقال : هي لكم ، فقالوا : ما كنا لناخذها إلا بثمان . فقال :  
ما أعجب هذا ؟ أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون مني ثمر نخلة (١) ؟

وقتل عبد الرحمن بن مُأجَمَ عليا ، وبقي مع هذا يذكر الله عز وجل ، فلما هموا  
بقطع لسانه شق ذلك عليه ، وجزع ، فسئل عن ذلك ، فقال : أحببت ألا يزال في  
بذكر الله رطبا .

وسار واصل بن عطاء رئيس المعتزلة في جماعة من أتباعه ، فلقبهم الخوارج ،  
فقال واصل لأصحابه : دعوني وإياهم ، ثم خرج إليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابك ؟ قال  
مشركون مستجيرون ، لنسمع كلام الله ، ونعرف حدوده .

قالوا : قد أجرناكم . قال : فعدونا . فجعلوا يعلمونهم أحكامهم وهو يقول : قد  
قبلنا . ثم قالوا له : امضوا فقد صرتم إخواننا . فقال : ليس ذلك إليكم ، فإن الله  
تعالى يقول : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم  
أبلغه مأمنه » فأبلغونا مأمننا .

فنظر بعضهم إلى بعض ، وقالوا ذلك لهم . وساروا معهم حتى أبلغوهم مأمنهم (٢) .  
ويذكرون أنه كان رجل من العجاردة اسمه شعيب مدينا لآخر اسمه ميمون ،  
فاقتضى ميمون دينه ، فقال شعيب . أعطيك إن شاء الله . قال ميمون : قد شاء الله ذلك  
الساعة . قال شعيب : لو كان قد شاء ذلك لم أستطع أن أعطيك . قال ميمون ،  
قد أمر الله بذلك ، وكل ما أمر به فقد شاءه ، وما لم يشأه لم يأمر به .

فافترق العجاردة بسبب هذا الخلاف في الرأي إلى ميمونية وشعيبية .

وكتبوا إلى رئيسهم عبد الكريم فقال : إنما نقول ما شاء الله كان ، وما لم  
يشأ لم يكن ولا نلحق بالله سوءا .

(١) الكامل للمبرد ٢١٣/٣

(٢) الكامل للمبرد ١٦٤/٣

فادعى كل من الفريقين أن الجواب يؤيده .

وخطب عبد الجبار إلى ثعلب ابنته — وهما من العجاردة — فسأله ثعلب أن يمهرها أربعة آلاف درهم . فأرسل الخاطب إلى أم الفتاة يسألها : هل بلغت وأقرت بالإسلام ؟ فإن كان ذلك لم أبال بمهرها .

فقالت الأم : ابنتي مسلمة ، بلغت أو لم تبلغ . فاختلف الخاطب وأبو الفتاة وأمه ، وتدخل عبد الكريم بن عجرد ، فاختار البراءة من الأطفال ، وبذلك زادهم خلافاً ، وبرىء بعضهم من بعض ، ونشأت فرقة الثعالب (١) .

## الفصل الرابع

### الزبيريون

- ١ -

هذا ثالث الأحزاب القرشية : الأمويين والشيعة والزبيريين .

ترجع نشأته الأولى إلى ما بعد مقتل عثمان ؛ إذ كان الزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله<sup>(١)</sup> قد بايعا على بن أبي طالب ، ثم خرجا من المدينة بدعوى العمرة ، ونقضا بيعتهما ، وكانت السيدة عائشة بمكة ، فانضمت إليهما ، وثاروا على علي بدعوى المطالبة بدم عثمان .

وكان عبد الله بن الزبير من أشد الدعاة إلى حرب علي ، إن لم يكن أشدهم ، فهو الذي ثنى خالته عائشة عن العودة إلى المدينة ، وهو الذي شجع أباه على القتال يوم الجمل<sup>(٢)</sup> .

وأغلب الظن أن عبد الله كان يطمع في الخلافة ، أو على الأقل يطمع في الاستقلال بولاية . وقد كشفت السيدة عائشة عن هذا حينما لحق مروان ابن الحكم بطلحة والزبير وأعاونتهما في طريقهم إلى البصرة ، وقال لهما . علي أيكما أسلم بالإمرة ، وأؤذن بالصلاة ؟ فبعثت إليه عائشة رسولا يقول له : مالك تريد أن تفرق أمرنا ؟ فليصل بالناس ابن أخق . فكان يصلي بهم حتى قدموا البصرة<sup>(٣)</sup> .

(١) من تيم رھط أبي بكر شھد بدرا والمشاھد كلها مع النبی ودافع عن النبی يوم أحد ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين عينهم عمر للشورى .

(٢) ابن الأثير ٣/ ٢٠٦ . (٣) الطبري ٥/ ١٦٩ وابن الأثير ٤/ ٨٨

وقد اعتمد الحزب الزبيرى فى الدعوة إلى عبد الله بن الزبير على عدة أسناد :

١ — الخلافة حق لقريش وحدها ، كما أعلن ذلك أبو بكر يوم السقيفة ، ولكن لا بد من قصرها على الأكفاء ، وعبد الله أ كفاً القرشيين المعاصرين له بعد أن مات معاوية ، بل إنه كان يرى نفسه أ كفاً من معاوية ، لكنه لم يجد فى عهده مبدئاً من الصمت . وكان قد طمع فى الخلافة أيام على ، وكان من المحرضين على حربه ؛ والمشجعين على الاستبسال فى موقعة الجمل ، وهو الذى زين لحاته السيدة عائشة أن تخرج مع أبيه ومع طلحة لمحاربة على ، وقد سبق أنها رشعته للخلافة ، وآثرته على أبيه وعلى طلحة .

٢ — أمره عثمان بن عفان على داره حينما حاصرها الثوار (١) ، وهذا يشعر باستخلافه ، كما أناب رسول الله أبا بكر ليصلى بالناس فى مرضه الأخير ، فاستدل بعض المسلمين من هذا على الإيحاء باستخلافه ، وقالوا إنه أنابه عنه فى دينهم ، أفلا ينبونه عنه فى دنياهم ؟

٣ — عبد الله يمت إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام بعدة صلات ، فأبوه ابن عمه النبى صفيه بنت عبد المطلب ، وابن أخى خديجة أم المؤمنين ، وهو من السابقين إلى الإسلام ، والمشهورين بالبأس والإقدام ، شهد مع النبى بدرأ و سائر الغزوات ، وكان النبى يدعو حواريه فدعاه المسلمون حوارى رسول الله . وهو أحد العشرة الذين بشرهم النبى بالجنة ، وأحد الستة الذين اختارهم عمر لينتخبوا خليفته من بينهم .

وإذا فبعد الله يتصل بالنبى من ناحية عمته صفية ، ومن ناحية خديجة ، وهو إلى ذلك ابن أسماء بنت أبى بكر ، ذات النطاقين ، وأخت عائشة ، وكثيراً ما كانت تدعوه بابنها .

(١) كان فى المدافعين عن عثمان أيام الحصار عبد الله بن عمر والحسن والحسين ومحمد بن طلحة .

ع — اشتهر عبد الله بالتقوى والصالح والعلم ، على حين أن يزيد بن معاوية اشتهر بالخلاعة والمجون .

ه — جمور المسلمين ساخط على بنى أمية ، لأنهم قتلوا الحسين بن علي وآل بيته ، ولأنهم استباحوا المدينة ومكة ، ولأنهم يحكمون المسلمين حكماً استبدادياً عنيفاً ، ثم لأن معاوية حصر الخلافة في بنى أمية ، إذ جعلها وراثية بعد أن كانت شورية ، فبدل نظام الحكم من شورى حر إلى ملكي موروث .

### — ٣ —

كتم عبد الله أمره بعد قتل أبيه وطلحة يوم الجمل ، ولم يجد خيراً له من مصانعة معاوية ، ومشاركته في حركته في حرب أعدائه وفي الفتوح ، وكان معاوية يحاسنه ويفدق عليه .

فلما شرع معاوية يأخذ البيعة لابنه يزيد ، بدت معارضة عبد الله ، إذ رفض أن يبايعه ، كما رفض بعض أشرف الحجاز ، ثم اضطره معاوية إلى البيعة .

ولم يلبث عبد الله أن نقض بيعة يزيد ، ونقضها أنصاره ، بعد موت معاوية (١) ، ثم أعلنها ثورة فعلية بعد مقتل الحسين ، فذهب يدعو إلى نفسه منذ سنة ٦١ هـ ٦٨٠ م ذلك بأنه لما علم بوفاة معاوية تنصل من البيعة ليزيد ، وهرب من المدينة إلى مكة ، ولما وصل إلى مكة قال إنما أنا عائد . ولم يكن يصلي مع الناس ، ولا يفيض معهم ، وإنما يقف هو وأصحابه ناحية ، ثم يفيض بهم وحده ، ويصلي بهم وحده . وعلم يزيد بهذا ، فولى عمرو بن سعيد بن العاص على المدينة ، فنصب عمرو بن سعيد على شرطة المدينة عمرو بن الزبير أخا عبد الله ، وكان مبغضاً لأخيه ، ووجهه إلى مكة لقتال عبد الله ، فانهزم عمرو ، وسجنه عبد الله بسجن غارم بمكة .

ولم يظهر عبد الله الدعوة إلى نفسه جهرة إلا بعد مقتل الحسين ، وكان يبايع الناس سراً ، ويظهر أنه عائد بالبيت ، ويحث أعوانه على التريث . ثم كاتبه أهل المدينة ، وقالوا : أما إذ مات الحسين فليس أحد ينازعك (١) . ، وناقضوا بيعة يزيد ، وأشاعوا عنه أنه لا دين له ، وأنه سكير وصاحب قيان وكلاب صيد وفساق .

ثار أهل المدينة على واليهم — عثمان بن محمد بن أبي سفيان — فطردوه من المدينة ، وطردوا مروان بن الحكم وسائر بني أمية سنة ٦٣ هـ وكانوا نحو ألف رجل ، فخرجوا بنسائهم حتى نزلوا دار مروان بن الحكم ، فحاصروهم الناس حصاراً ضعيفاً ، فأرسل الأمويون كتاباً إلى يزيد ، فلما قرأه تمثل بقول الشاعر :

لقد بدّلوا الحلم الذي من سَجِيَّتِي فبدّأت قومي غلظة بليان

وقال : أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة ؟ أما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ؟ .

وأرسل إلى المدينة جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المرّمي ، وقال له : إن حدث بك حدث فاستخلف على الجيش حصّين بن نمير السكوني . وقال : ادع القوم ثلاثاً ، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم ، فإذا انتصرت عليهم فأبج المدينة ثلاثاً ، فما فيها من مال أو سلاح أو طعام فهو للجند ، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس .

وكان قتال شديد بالحرمّة قرب المدينة آخر ذي الحجة سنة ٦٣ هـ قتل فيه كثير من بني هاشم وسائر قريش ، وكثير من الأنصار ، وكثير جداً من الموالى (٢) ، وانتصر مسلم بن عقبة ، ونهب المدينة ، واستباح جنده نساءها ، وأجبر الناس على البيعة ليزيد على أنهم عبيده ، ومن أبي ضرب عنقه (٣) .

(١) الطبري ١٨٨/٦ — ١٩٤ ، ٢٧٤ .

(٢) من قريش ١٣٠٠ ومن الأنصار ١٤٠٠ أو ١٧٠٠ ومن الموالى ٣٥٠٠ (معجم البلدان مادة حرة) .

(٣) الطبري ٥/٧ — ١٢ ومروج الذهب ٧٨/٣ ومعجم البلدان مادة حرة . وبذكر ياقوت أن ٨٠٠ امرأة حملن وولدن وكان يقال لأبنائهن أولاد الحرة .



بعد وقعة الحرة اتجه مسلم بن عقبة — وقد سموه المُسْرَف بعد إيقاعه بأهل المدينة — إلى مكة ، ليوقع بابن الزبير وأهل مكة ، وكان ذلك في أول سنة ٦٤ هـ فلما انتهى إلى الموضع المعروف بِقُدَيْد مات ، واستخلف على الجيش الحُصَيْن بن نُمَيْر السَّكُونِي ، فسار حتى بلغ مكة ، وطوقها ، وعاز ابن الزبير بالبيت الحرام ، وكان قد سمى نفسه العائد ، وشهر بهذا .

ونصب الحصين المجانيق والعرادات على مكة والمسجد الحرام من الجبال والفجاج ، وتوالت أحجار المجانيق والعرادات على البيت ، ورميت النار واللفط مع الأحجار ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البَيْتَةُ <sup>(١)</sup> . واشتد الأمر على أهل مكة وابن الزبير ، وفي ذلك يقول أبو حرة المدني :

ابن نُمَيْر بئس ما تولى      قد أحرق المقام والمصلى

ودامت الحرب بقية المحرم وصفر كله وثلاثة أيام من ربيع الأول ، وكان جند الشام يرتجزون ويقولون <sup>(٢)</sup> :

خَطَّارَةٌ مِثْلُ الْفَنِيقِ الْمَزِيدِ      نَزَحِي بِهَا أَعْوَادَ هَذَا الْمَسْجِدِ <sup>(٣)</sup>

وكان ذلك قبل موت يزيد بنحو أحد عشر يوما <sup>(٤)</sup> ، فلما مات يزيد ارتد جيشه إلى الشام .

وكان عبيد الله بن زياد قد اشتد في التنكيل بالحوارج ، وتتبعهم قتلا وتشريدا ، فأشار عليهم نافع بن الأزرق أن يرحلوا إلى مكة ، ليجاهدوا جيش بني أمية مناصرين لعبد الله بن الزبير إن كان على رأيهم ، فإن لم يكن على رأيهم دافعوا عن البيت ما استطاعوا ، فقدموا على ابن الزبير ، فسرَّ بمقدمهم . وقدم عليه جماعة

(١) الطبري ١٠٢/٧ وأخبار مكة للأزرقي ٣٧ والمنتقى للفاكهي ١٨ .

(٢) الطبري ١٤/٧ .

(٣) خطارة : مهتزة أو موجهة مرة بعد مرة أو موجهة يمينا وشمالا . الفنيق : الفحل المكرم لا يركب ولا يؤذى لكرامته على أهله . المزبد : القوي الذي يخرج الزبد على شدقه .

(٤) مروج الذهب ٩٥/٢ — ٩٧ .

منهم فيهم نجدة بن عامر الحنفي — وكان لم ينفصل عن نافع بعد — فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة . ثم أرادوا أن يتبينوا دخيلة ابن الزبير ، فجهروا بسبب عثمان والبراءة منه ، فرد عليهم ابن الزبير بأنه وليُّ عثمان ووليُّ أوليائه ، وعدو لأعدائه ، فغضبوا وتفرقوا إلى البصرة واليمامة<sup>(١)</sup> .

ولما مات يزيد خلفه ابنه معاوية ، وبايعه أهل الشام ، لكنه لم يعمر غير أربعين يوماً أو ستين ، أو ثلاثة أشهر<sup>(٢)</sup> .

فلما مات معاوية الثاني تطلع إلى الخلافة الوليد بن عقبة بن أبي سفيان ، لكنه طعن وهو يصلي على معاوية ، فأراد بنو أمية أن يبايعوا عثمان بن عتبة بن أبي سفيان ، فاشتروا عليهم ألا يحارب ولا يباشر قتالا ، فأبوا ذلك عليه ، فسار إلى مكة ، وانضم إلى ابن الزبير .

وحينئذ غرب نجم آل حرب ، وتجاوى الحكم عنهم ، إذ لم يكن فيهم من يروم الخلافة ، أو يتشوف إليها ، أو يرتجيه أحد لها<sup>(٣)</sup> .

## — ٤ —

كادت الخلافة تثول إلى ابن الزبير ، إذ استجابت له الحجاز والعراق واليمن ومصر والشام ماعدا الأردن ، وآزرته قيس وسائر مضر ونزار . ونصب ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري زعيم القيسية والياً على دمشق ، فترجم الجيش الداعي إلى ابن الزبير في الشام .

وبايع ابن الزبير النعمان بن بشير بمحصر ، وزفر بن عبدالله الكلبي بقنسرين . ودلت البوادر على أن النصر يوشك أن يحالف ابن الزبير ، حتى إن مروان ابن الحكم زعيم بني أمية همَّ بأن يبايعه ، لولا أن منعه عبيد الله بن زياد<sup>(٤)</sup> .

نهض مروان بالحفاظ على تراث معاوية ، وصبر ، واستمال إليه الأعوان من القبائل اليمنية ومن قبيلة كلب ، وكان زعيمها حسان بن كندل الكلبي صهر

(١) الطبرى ١٣/٧ ، ٥٥

(٢) الطبرى ٧ / ١٧ .

(٣) مروج الذهب ٢ / ٩٨

(٤) الطبرى ٧ / ٣٤ والعقد الفريد ٣ / ١٤٥ ،

معاوية وعامله ، ثم عامل ابنه يزيد . ولقي جيش مروان جيش ابن الزبير في مرج راهط ( ٦٤ - ٦٥ هـ ٦٨٤ م ) فقتل الضعك ، وانهزم جيش ابن الزبير (١) ، فخلصت الشام لمروان ، ثم خلصت له مصر .

فلما خلف عبد الملك أباه حارب مصعب بن الزبير بالعراق وقتله ، ودخل الكوفة ، وولى عليها .

ثم بعث الحجاج إلى عبدالله بن الزبير (٢) ، فحاصر مكة ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة ، وضرب الكعبة بالمنجنيقات ، فاحترقت (٣) ( ٧٣ هـ ٦٩١ م ) فاضطر المكيون إلى طلب الأمان ، وتغلى عن ابن الزبير كثير من أقاربه وأنصاره ، ولم يبق معه إلا قلة من الأوفياء ، لكنه ثبت في بطولة ، واستبسل حتى قتل سنة ٧٣ هـ ، وصلبه الحجاج بمكة .

## - ٥ -

وعندئذ تخلص الأمويون من صراعه ، وخلا ميدان الهاشمين من منافسهم ، واستراح الخوارج من أحد الأحزاب المناوئة لهم ، إذ أنهم لا يرون حصر الخلافة في قريش .

وأغلب الظن أن ابن الزبير لم يظفر بالأمويين لأسباب ، أهمها حرصه على المال وبخله بالعطاء على طلاب العطاء ، وانصرافه عن تأليف القلوب بالهبات (٤) ، على حين أن بني أمية كانوا أسخياء ، وكانوا يصطنعون الناس بالأموال ويشترون التأييد من القبائل والأفراد (٥) ، كما سأوضح هذا فيما بعد .

ثم إن العلويين لم يناصروه ، فقد امتنع محمد بن الحنفية عن مبايعته ، لأنه كان موالياً ليزيد بن معاوية ، أو كان يقف من الثائرين عليه موقفاً سلبياً ، فخصوم يزيد

(١) الطبرى ٣٦/٧ . (٢) مروج الذهب ١٠٦/٢ ، ١٢٥ ، ١٤٧ ، والطبرى

٢٠٢/٧ وابن الأثير ١٤٨/٤ والأخبار الطوال للدينورى ٣٠٤

(٣) كان ابن الزبير قد عاذ بالكعبة وسمى نفسه العائد . وخصومه يسمونه المحل لأنه أحل

القتال في البيت الحرام (٤) مروج الذهب ٩٩/٢ .

(٥) مروج الذهب ١٠٦/٢

يتهمونه بالخر وترك الصلاة ، وابن الحنفية يشهد أنه عاشره فلم يعرف فيه ما يتهمونه به ، ويقول إنه رآه مواظبا على الصلاة ، متحررا للخير ، كثير السؤال عن الفقه والسنة .

وكان ابن الحنفية في الوقت نفسه غير مقبل على عبدالله بن الزبير ، فعرض عليه أهل المدينة أن يولوه عليهم ، فلم يقبل ، ثم غادر المدينة ، فرأى ابن الزبير أن ينتقم منه في ابنه الحسن ، فحبسه في سجن غارم ، وعزم على قتله ، ففر من السجن حتى وصل إلى أبيه في منى (١) .

كذلك أضعفته فرقة الكيسانية بزعامة المختار بن أبي عبيد ، وأقلقت أخاه مصعبا بالكوفة ، وترك عبدالملك بن مروان خصميه يتقاتلان ، ليضعفاهما ، أو يقضى أحدهما على الآخر ، ثم يفرغ عبدالملك للقوى فيقضى عليه .

---

(١) مروج الذهب ٢٣/٣ .

## الفصل الخامس

### المرجئة

- ١ -

نشأ هذا الحزب بعد منتصف القرن الأول للهجرة ، فهو أحدث نشأة من الشيعة والخوارج .

وهو حزب مغاير في رأيه لهؤلاء وهؤلاء ، يعتمد على رأى محايد في الحكم على المتنازعين من المسلمين بعد مقتل عثمان .

ويظهر أن رجاله الأولين كانوا من الغزاة الذين عادوا إلى المدينة إثر مقتل عثمان ، فوجدوهم يتقاتلون ، فهالهم ما وجدوا ، فأثروا العزلة ، ولاذوا بالحيدة . يدل على هذا قول ابن عساكر : « إنهم قدموا المدينة ، وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف ، فقالوا : تركناكم وأمركم واحد ليس بينكم اختلاف ، وقد منا عليكم وأنتم مختلفون ، فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوما ، وكان أولى بالعدل وأصحابه ، وبعضكم يقول كان على أولى بالحق وأصحابه ، كلكم ثقة عندنا مُصَدِّق ، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ولا نشهد عليهما ، ونرجى أمرهما إلى الله ، حتى يكون هو الذي يحكم بينهما » (١) .

ويذكر الطبري أن أهل البصرة كانوا فرقا : فرقة مع طلحة والزبير ، وفرقة مع علي ، وفرقة لا ترى القتال مع أحد من الفريقين . وجاءت عائشة رضي الله عنها ، حتى نزلت في مسجد الجُدَّان في الأزد ، وكان القتال في ساحتهم ، ورأس الأزد

---

(\*) المرجئة أربعة أصناف : مرجئة الخوارج ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الغالصة ، والمراد هنا الغالصة ( الملل والنحل ١ / ١٢٥ ) .

(١) تاريخ الشام لابن عساكر ١ .

صَبْرَةُ بن شَيْبَانَ ، فقال له كعب بن سور : إن الجموع إذا تراءوا لم تستطع ، وإنما هي بحور تدفق ، فأطعني ولا تشهدهم ، واعتزل بقومك ، فإنني أخاف ألا يكون صلح ، فلم يقطع صبرة (١) .

ويذكر أبو الفرج أن خُرَيْمًا والد الشاعر أيمن كان ممن اعتزلوا حرب الجمل وصَفَيْنَ وما بعدها من الأحداث فلم يحضرها (٢) .

ويقول النووي إن القضايا كانت مشتبهة ، حتى إن جماعة من الصعابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ، ولم يقاتلوا ، ولم يتيقنوا الصواب (٣) .

وسأذكر أمثلة أخرى لهذا الاعتزال في دراسة المعتزلة .

وهذا يدل على أن المرجئة حزب سياسي محايد ، لاهو مع عليّ ولا مع بني أمية المطالبين بدم عثمان ، ولا يصوب أو يخطيء فريقا من الفريقين .

هذا كان المرجئة بسالمون الخوارج والشيعة وبني أمية ، لأنهم ليسوا مع الخوارج في تكفير عليّ وعثمان ومعاوية وغيرهم من أهل صفين ، وليسوا مع الشيعة في تكفير أبي بكر وعمر وعثمان وبني أمية ، لأنهم انتزعوا الخلافة من عليّ ، وليسوا مع بني أمية في قتالهم للخوارج والشيعة وتكفيرهم .

— ٢ —

أما تسميتهم بالمرجئة فراجعة إلى سبب من ثلاثة :

١ - أنهم لزموا الحيدة ، ولم يقضوا على شي من أواخر جى أو أوى بالخطأ ، وأرجأوا أمر هؤلاء إلى الله ، يقضى فيهم بما يعلم .

فالإرجاء هنا هو التأخير ، كما في قوله تعالى : « قالوا أرْجِهْ وأَخَاهُ » أى أمْهِلْهُ .

٢ - أو لأنهم لم يقضوا على صرتكب الكبيرة بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار ، وإنما أخروا الحكم عليه إلى يوم القيامة ، فهم بهذا يعطونه الرجاء

(١) تاريخ الطبرى ٢٠١/٥ . (٢) الأغاني ٥/٢١ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١١/١٨ .



في المغفرة ، لأنهم ذهبوا إلى أنه لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، فهم يرجون لكل مسلم مغفرة من الله (١) .

٣ — أو لأنهم يقولون إن الإيمان تصديق فحسب ، أو تصديق بالقلب وباللسان ، ولا حاجة إلى الأعمال ، فكأنهم قدموا القول وأرجأوا العمل أى أخروه ، فإن المؤمنين إن لم يصلوا ولم يصوموا نجحوا إيمانهم ، أو لأنهم يعتقدون أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي (٢) .

٤ — أو هم سموا بذلك لأنهم أرجأوا أى أخرأوا علما عن الدرجة الأولى إلى الرابعة ، فهم على نقيض الشيعة (٣) .

وقد رجح نيكلسون الرأي الثانى ، وهو إرجاء الحكم على مرتكب الكبيرة إلى يوم القيامة (٤) .

لكن الذى أستنبطه من نشأتهم ومن قصيدة شاعرهم ثابت بن قُطَنة القى سأذكرها أن رأى الأول والثانى متداخلان ، لأنهما راجعان إلى إرجاء الحكم على المتنازعين من أصحاب على وأصحاب طلحة والزبير ومعاوية ، أو إرجاء الحكم على مرتكب الكبيرة ، بل هما تفصيل لرأى واحد ، وإذا فلا موجب لترجيح أحدهما على الآخر .

والذى أطمئن إليه أن اسمهم مشتق من الإرجاء بالمعنى الذى وضعته فى رأى الأول والثانى والثالث ، أما رأى الرابع فلا أراه مصدرا لهذه التسمية .

### — ٣ —

كانت نظرة المرجئة إلى الإمامة والإمام ، أو إلى الخلافة والخليفة وسطا بين الخوارج والشيعة .

(١) الملل والنحل ١/١٢٥ ونقد العلم والعلماء ١٠٢ .

(٢) لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس مادة رجأ .

(٣) الملل والنحل ١/١٢٥ .

(٤) Literay History of the Arabs. P. 220

فقد نظر الخوارج إلى الخلافة على أنها منصب سياسي دنيوي لا منصب ديني ،  
حق إن إحدى فرقهم — النجدية — رأت أنه لا حاجة إلى حاكم إذا ضبط الناس  
أمورهم ، وتناصفوا وعاشوا في سلام ، فإذا احتاجوا إلى حاكم وجب أن ينتخب من  
ذوى الكفاءة ، بغير نظر إلى جنسه أو نسبه .

والخوارج كلهم يربطون بين الإيمان والعمل الصالح ، ويرون أنهما وحدة  
لا تنقسم ، ومرتكب الكبيرة في رأيهم كافر مخلد في النار . وبنوا على هذا أن  
بنى أمية مرتكبون للكبائر ، كفار ، يجب قتالهم وخلعهم .

أما الشيعة فذهبوا إلى أن الإمامة منصب ديني متوارث ، يعين فيه الإمام من  
يخلفه ، وقالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي ، وعلي لأوصى لابنه وهكذا ، والإمام  
في رأيهم معصوم من الخطأ ، وهو وحده مصدر التشريع ، ولا تجوز مخالفته ،  
ولا يجوز عزله ، وطاعته ركن من أركان الدين .

جاء المرجئة خالفوا الخوارج والشيعة ، إذ فصلوا العقيدة الدينية عن الرأي  
السياسي ، فلم يدينوا بالتوراة على الساسة والحكام الذين يخالفونهم في مذهبهم ، لأن  
كل من أعلن إسلامه مسلم ، ولا يخرج من إيمانه أنه عاص أو مرتكب للكبائر ،  
وهم ينفرون من المعاصي ، لكنهم لا يقضون على العصاة بدخول الجنة أو النار ،  
بل يرجئون الحكم في ذلك إلى الله ، يفعل بهم ما يشاء يوم القيامة .

## — ٤ —

هذه الصبغة العامة لنشأة المرجئة توحى بأنهم حزب سياسي ، يسالم الجميع ،  
ويقف منهم موقف الحيطة ، فهم لم ينحازوا إلى فريق من المسلمين المتنازعين دون فريق ،  
لم يؤيدوا بنى أمية ، ولم يقضوا بتكفيرهم أو يشوروا عليهم كما فعل الخوارج والشيعة ،  
لأن بنى أمية في نظرهم مسلمون ، يحاسبهم الله على أعمالهم يوم القيامة ، ومعنى هذا  
أن حكومتهم شرعية ، وأنهم أولو أمر ، طاعتهم واجبة .

كذلك سألوا الشيعة والخوارج والمعتزلة والزيريين ، ولم يكفروا أحدا منهم ،

لأنهم وبني أمية إما على حق ، وإما أن كلا منهم اجتهد أو تأول فأخطأ ، وخطأ المجتهد لا ينقص إيمانه .

على أن كثيرا من كبرائهم قد نهضوا سياسيا ودينيا لمحاربة بني أمية ، وتقويض ملكهم ، فسعيد بن جبّير ثار على عبد الملك وعلى الحجاج وقتل شهيدا . وغيلان ابن مروان صلب ومُثل به في عهد هشام<sup>(١)</sup> . والحارث بن سريج خرج على هشام وواليه بخراسان . وكثير من الذين ناصرُوا يزيد بن المهلب في ثورته على يزيد ابن عبد الملك كانوا من المرجئة .

وأبو حنيفة كان مؤيدا لزيد بن علي في ثورته ، وامتنع امتحانا قاسيا في عهد الأمويين<sup>(٢)</sup> ، وهو في رأى أبي الحسن الأشعري من المرجئة<sup>(٣)</sup> .

لهذا حمل نصر بن سيار على المرجئة ، واتهمهم بالكفر والشرك ، في قوله<sup>(٤)</sup> :

فامنع جهادك من لم يرجُ آخرةً      وكن عدوا لقوم لا يصلُّونا  
واقتل مواليتهم منا وناصرهم      حينما تكفّرهم والغنمُ حينما  
والعائنين علينا ديننا وهمُ      شر العباد إذا خابرتهم ديننا  
والقائلين سبيلُ الله بُغيتنا      لبعْدَ ما نكَبُّوا عما يقولونا  
فاقتلهمُ غَضَبًا لله منتصرا      منهم به ودع المرتاب مفتونا

(١) سرح اليمون ١٦٧ .

(٢) كان غسان الكوفي زعيم إحدى فرق المرجئة يحكي عن أبي حنيفة مثل مذهبه ، ويعده من المرجئة ، ولعله كذب عليه ، أو لأن أبا حنيفة وأصحابه كانوا يسمون مرجئة السنة . على أن كثيرا من أصحاب المقالات عدوا أبا حنيفة من جملة المرجئة ، ولعل السبب في هذا أنه كان يقول إن الإيمان هو التصديق بالقلب ، وهو لا يزيد ولا ينقص ، فظنوا أنه يؤخر العمل عن الإيمان ، وهم واهمون في هذا ، لأنه لم يكن يفق بترك العمل ، أو لعل السبب أنه كان يخالف المعتزلة ، وكان المعتزلة يلقبون من خالفهم في القدر مرجئا ، وكذلك الوعيدية من الخوارج ، فلا يبعد أن اللقب لزمه من أحد الفريقين ( الملل والنحل ١/ ١٢٧ ) .

(٣) مقالات الإسلاميين ١٣٨ للأشعري .

(٤) الطبري ٢٢٣/٨ .

إرجاؤكم لزكم والشرك في قرنٍ فأنتم أهل إشراك ومرجونا  
لا يُبعد الله في الأجداث غيركم إذ كان دينكم بالشرك مقرونا  
ألقى به الله رعبا في نحوركم والله يقضى لنا الحسنى ويُعطينا

- ٥ -

تطور الحزب بعد قليل من نشأته ، فجعل يبحث في مسائل دينية توافق مذهبه  
السياسي ، وقد نشأ هذا كله من انفرادهم بتعريف الإيمان ، وبما يترتب على هذا  
التعريف من آثار .

فالإيمان في رأى كثير منهم هو التصديق بالقلب وحده ، أى معرفة المؤمن لله  
بقلبه ، ولا عبرة لنطقه بالشهادتين بلسانه ، ولا عبرة لقيامه بالعبادات البدنية والمالية  
من صلاة وصوم وزكاة وحج ، لأن الإقرار باللسان وقيام بالعبادات ليسا أصليين من  
أصول الإيمان ، وإنما الأصل هو التصديق بالقلب . وإذا فلا يضير المؤمن أن يظهر  
الشرك أو اليهودية أو النصرانية بلسانه ، ولا يضيره أن يعبد الوثن أو الصليب وهو  
في دار الإسلام<sup>(١)</sup> . وفي رأى بعضهم أن الإيمان ركنان : التصديق بالقلب ، والإقرار  
باللسان ، ولا بد من اجتماعهما معاً ، فالذى يصدق بقلبه ويكذب بلسانه أو يعلن  
الإيمان بلسانه ، ويكذب بقلبه ، ليس مؤمناً .

ومعنى هذا أن المرجئة الذين حصروا الإيمان في التصديق بالقلب ،  
والذين حصروه في التصديق القابى وفي الإقرار الالسانى ، لا يعتبرون العمل ركناً  
من الإيمان .

وهم بهذا ينفردون عن الفرق الأخرى ، لأنها ترى الإيمان قائماً على الأركان  
الثلاثة : التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، وأداء العبادات . فالخوارج  
يكفرون مرتكب الكبيرة ، ويقضون بتخليده في النار . والمعتزلة يضعونه في منزلة

(١) الملل والنحل ١/ ١٢٥ والفصل ٤/ ٢٠٤ وهذا رأى جهنم بن صفوان أحد زعمائهم .

بين الكفر والإيمان ، ويذهبون إلى تخليده في النار . أما المرجئة فيقولون إنه مؤمن لكنه فاسق ، وبعضهم يقول إنه ليس فاسقاً بإطلاق ، بل هو فاسق في الكبيرة التي ارتكبها .

وترتب على تعريف المرجئة للإرجاء قولهم إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأن الإيمان سواء أكان تصديقاً قلبياً أم قلبياً ولسانياً ليس موضعاً لزيادة أو نقصان . وخصومهم يخالفونهم في هذا ، لأن الأعمال في رأيهم جزء من الإيمان ، وهي تزيد وتنقص .

وترتب على هذا أيضاً أن المؤمن الذي يرتكب كبيرة لا يقضى المرجئة بتخليده في النار ، على حين أن الخوارج والمعتزلة يقضون بتخليده . وإذا كان هؤلاء قد استدلوا بقوله تعالى : « ومن يعص الله ورسوله ، ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها » . وبقوله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » فإن المرجئة تأولوا الآية الأولى بأن الذي يعصى الله ورسوله ويكون مؤمناً فإنه تعدى بعض حدود الله ، أما الذي يتعدى حدوده كلها فهو الكافر ، وهو المعنى في الآية ، وتأولوا الآية الثانية بأن المراد بها من يقتل مؤمناً بسبب إيمانه ولا يقتل مؤمناً لإيمانه إلا كافر ، وإذا فالكفار هم المخلدون في النار ، أما المؤمنون العصاة فما أن ينالوا عفو الله ، وإما أن يعذبهم على قدر ذنوبهم ، ثم يدخلهم الجنة ، وأهل السنة يوافقونهم على هذا .

وذهب المرجئة إلى أن الله لا يخلف وعده ، لكنه قد يخلف وعيده ، لأن الثواب فضل من الله ، لا بد أن يفي به ، وإلا كان خلف الوعد نقصاً . أما العقاب فعدل ، والله أن يعفو أو يخفف العقوبة ، وليس في هذا الخلف نقص ، وهم بهذا يخالفون المعتزلة .

تأثر المرجئة فيما بعد ببعض الآراء المسيحية والإغريقية المعترجة بالفلسفة اليونانية .

وجعل تأثيرهم في التفكير الإسلامى يعظم ، ويظهر فى ألوان شتى .

ولعل من أبرز هذه الألوان أنهم أصول المعتزلة ، وآراؤهم من أسس الاعتزال .

وسنجد فى دراسة المعتزلة أنهم توقفوا عن الحكم على المتحاربين فى موقعة الجمل وصفين ، كما توقف المرجئة ، وأن معبد الجهنى وغيلان الدمشقى والجعد ابن درهم قد سبقوا إلى القول بالقدر والاختيار ، ثم حاكى معبدًا واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وهما مؤسسا الاعتزال . ثم طالعت المعتزلة مثل أبى الهذيل العلاف والنظام ومعمار والجاحظ كتب الفلاسفة فى زمن المأمون ، واستخرجوا منها ما خلطوه بأوضاع الشرع ، وتشعبت مباحثهم وتعددت آراؤهم وحينئذ سميت مباحثهم بعلم الكلام<sup>(١)</sup> .

ولقد كان للمرجئة والمعتزلة آثار بعيدة المدى فى التفكير ، واتساع آفاقه ، وتشعب مجاله .

## - ٧ -

وقد دان بعض الأدباء بمذهب المرجئة ، وتبين هذا فى إلتاجهم ، بالقدر الذى تسمح به طبيعة الأدب .

من هؤلاء أبو عاصم الليثى ، كان خارجيا ، ثم صار مرجئا ، وهو الذى يقول<sup>(٢)</sup> .

فَارَقْتُ نَجْدَةَ وَالَّذِينَ تَزَرَّقُوا      وَابْنَ الزُّبَيْرِ وَشِيعَةَ الْكَذَابِ  
وَالصُّفْرَ الْأَذَانَ الَّذِينَ تَخَيَّرُوا      دِينًا بِلاَ ثِقَةٍ وَلَا يَكْتَابُ<sup>(٣)</sup>

(١) نقد العلم والعداء ١٠٢ والفرق بين الفرق ١٠٩ .

(٢) تهذيب الكامل ١٢٢/١ . (٣) نجدة : زعيم فرقة النجدات إحدى فرق الخوارج :

تزرقوا : إدانوا بمذهب الأزارقة وهم من الخوارج زعيمهم نافع بن الأزرق . ابن الزبير : عبدالله بن الزبير زعيم الحزب الزبيرى . الكذاب : المختار بن أبى عبدالله الثقفى زعيم الكيسانية إحدى فرق الشيعة . الصفر الأذان : بتخفيف الهمزة هم الصفرية أتباع زياد بن الأصفر إحدى فرق الخوارج .



ومنهم ثابت بن قُطْنَة ، وهو الذي كشف عن مذهبهم في قصيدة ، منها قوله <sup>(١)</sup> :

نَرْجِي الأُمُور إِذَا كَانَتْ مُشَبَّهَةً	وَنَصْدُقُ الْقَوْلَ فِيمَنْ جَارَ أَوْ عَنَدَا
المُسلِمُونَ عَلَى الإِسْلَامِ كُلِّهِمْ	وَالْمُشْرِكُونَ اسْتَوَوْا فِي دِينِهِمْ قَدَدَا
وَلَا أَرَى أَنْ ذَنْبًا بِالْغُفِّ أَحَدَا	مِ الْنَاسِ شَرًّا إِذَا مَا وَحَّدُوا الصِّدَادَا
لَا نَسْفِكُ الدَّمَ إِلَّا أَنْ يَرَادَ بِنَا	سَفَكَ الدَّمَاءَ طَرِيقًا وَاحِدًا جَدَدَا
مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ لَهُ	أَجْرَ التَّقَى إِذَا وَفَّى الْحِسَابَ غَدَا
وَمَا قَضَى اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَلَيْسَ لَهُ	رَدٌّ وَمَا يَقْضِي مِنْ شَيْءٍ يَكُنْ رَشْدَا
كُلُّ الْخَوَارِجِ مُخْطِئٌ فِي مَقَالَتِهِ	وَلَوْ تَعَبَدَ فِيمَا قَالَ وَاجْتَهَدَا
أَمَّا عَلِيٌّ وَعُمَانُ فَإِنَّهُمَا	عَبْدَانِ لَمْ يَشْرَكَ بِاللَّهِ مُذْ عَبَدَا
وَكَانَ بَيْنَهُمَا شَفْءٌ وَقَدْ شَهِدَا	شَقَّ الْعَصَا ، وَبَعَيْنَ اللَّهِ مَا شَهِدَا
يَجْزِي عَلِيًّا وَعُمَانًا بِسَمِيحِهِمَا	وَأَسْتَ أَدْرِي بِحَقِّ آيَةٍ وَرَدَا
اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَخْضُرَانِ بِهِ	وَكُلُّ عَبْدٍ سِلْقَى اللَّهِ مُنْفَرَدَا

والآيات صريحة في أنه إذا التبست الأمور واشتبهت وكفرت كل طائفة خصمها فإننا نرجى أمرهم جميعاً إلى الله يقضى بينهم يوم القيامة بما يعلمه . أما إذا كانت الأمور واضحة في أعمال لا شبهة فيها فإننا نجهر برأينا صريحاً ، ونحكم بالصواب أو بالخطأ ، ونحن لا نقضى على مسلم بالكفر مهما يكن ذنبه عظيماً ، لأن الذنب لا يذهب بالإيمان ، ولا نقاتل أحداً من المسلمين ، إلا دفاعاً عن أنفسنا . ولسنا مع الخوارج في تكفير علي وعثمان ، لأنهما مسلمان لم يشركا بالله منذ أسلما ، ولأن النزاع الذي كان بينهما لم ينتقص من إيمانهما ، والله أعلم بحقيقة أمرهما ، وسيجزي كلا منهما على عمله جزاء وفاقاً .

# لفضل السَّيَّادِ

## المعتزلة

- ١ -

طائفة دينية كالمرجئة ، غلب صبغها الديني على طابعها السياسي ، نشأت في العراق ، ثم ذاعت تعاليمها هناك وفي دمشق .

وهي في نشأتها وفي تطورها امتداد لفرقة المرجئة ، وثمره من ثمرات الاتصال بالثقافة الأجنبية .

ولقد يتبين تأثرهم بالمرجئة من مشابهمهم لهم في التوقف عن الحكم على أحد الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين ، ومن قولهم إن مرتكب الكبيرة ليس كافرا . ثم إن بعض المرجئة كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم قد سبقوا المعتزلة إلى القول بالقدر ، ودان بهذا الرأي واصل بن عطاء وعمرو ابن عبَّيد ، وهما مؤسسا فرقة المعتزلة .

أما تأثرهم بالمذاهب الأجنبية فيتبين من ضروب الخلاف والجدل الذي كان محتدا بين طوائف النصارى في الأقاليم التي فتحها المسلمون : الشام والعراق ومصر وشمال إفريقيا والأندلس ، كان النصارى يتجادلون في طبيعة المسيح ، ويتجادلون في رجوعه قبل القيامة أيرجع أم لا ؟ ويختلفون في البعث أ يكون بالأجسام والأرواح معاً أم بالأرواح وحدها ؟ ويتعاجون في صفات الله أهى زائدة على ذاته أم هى ذاته ؟ ويختلفون في أعمال الناس أجبرية هى أم اختيارية ؟

وفي خضم هذا الجدل كانت الفلسفة اليونانية تموج ، ويتقوى بها المتجادلون ، وكان كثير من رجال الدين فلاسفة ، كالأب أوغسطينوس ( ٢٥٤-٣٤٠ م ) وكانت الإسكندرية ملاذ النصرانية المُفلسِّفة أو الفلسفة المنصَّرة .

وكانت الفلسفة اليونانية ذات سلطان على التفكير الراقى فى الشرق قبل أن يستهل الإسلام ، وبخاصة فلسفة أفلوطين<sup>(١)</sup> (٢٠٥ — ٢٧٠ م) . وهو الذى يطلق العرب على فلسفته ( مذهب الإسكنداريين ) ويسميه الشهرستاني الشيخ اليونانى . وقد تنوع مذهبه وتفرع بالإسكندرية والشام وأثينا .

فلما جاء جوستنيان ناصر المسيحية ، وأغلق مدراس الفلسفة فى أثينا ، واضطهد الفلاسفة ، ففر بعضهم إلى فارس ، فاستقبلهم كسرى أنو شروان ، وأكرمهم ، فصاروا يعلمون فلسفتهم الأفلاطونية الحديثة ، وبعضهم تنصر وصبغ نصرانيته بفلسفته على أن السريان كانوا ينشرون الأفلاطونية الحديثة فى العراق وما حوله ، وينقلون من اليونانية إلى السريانية ، وكانت لهم مراكز علمية بالرها ونصيبين وحرّان . ومن هؤلاء ابن ديسان ( بارديسان المتوفى سنة ٢٢٢ م ) وكان ينكر بعث الأجسام ، ويدعو إلى آراء تأثر ببعضها الرافضة . ومن هؤلاء السريان من ألف فى القضاء والقدر . ولقد عاشت مدارسهم إلى العهد الأموى ، واشتهر منهم فى العصر الأموى يعقوب الرهاوى ( ٢٠ — ٥٩٠ — ٦٤٠ — ٧٠٨ م ) الذى أباح لرجال الدين النصارى أن يعلموا أولاد المسلمين . ومعنى هذا أن بعض المسلمين كانوا يشتاقون إلى دراسة الفلسفة على أساتذة من السريان ، وأن هؤلاء ترددوا فى تعليمهم . كان من أثر هذا كله أن تطورت العقلية العربية ، وأن ظهرت ألوان جديدة من الثقافة ، تحمل طابع العرب وطابع الإسلام وطابع الفلسفة .

فلا عجب فى أن يشتهر خالد بن يزيد بن معاوية بالتأليف فى الطب والكيمياء ، لأنه درس على مريانوس الراهب<sup>(٢)</sup> ، وقد بقى من مؤلفاته كتاب الحرارة ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته إلى ابنه ، وقد رآها كلها ابن النديم<sup>(٣)</sup> .

(١) ولد بأسيوط وتعلم بالإسكندرية ، وأخذ من مؤسس المذهب ( أمنيوس ) وذهب إلى فارس ليتعرف علوم الهند وفارس ، وسافر إلى رومة ، وعاش من ٢٠٥ — ٢٦٩ م وقد بنى مذهبه على فلسفة أفلاطون وأرسطو والرواقيين ، وامتاز بروحانيته .

(٢) وفيات الأعيان ١ / ٢٤٦ .

(٣) الفهرست ٣٥٤ .

وليس من شك في أن بعض المسلمين ممن حملوا لواء التفكير في هذا العصر كانوا على صلة وثيقة أو شبه وثيقة بهذه الثقافات والمجاذلات ، وليس من شك في أن بعض هؤلاء جادلوا بعض النصارى واليهود ، يدل على هذا أن يحيى الدمشقي النصراني (توفي سنة ١٣١ هـ ٧٤٨ م) ألف رسالة في الردود على المسلمين ، جارية على هذا المنهج : إذا قال لك العربي كذا فأجبه بكذا .

وأغلب الظن أن كثيرا من آرائه<sup>(١)</sup>، في حوارهِ الذي ألقاه دفاعاً عن المسيحية ، وفي مذهبه في القدر وحرية الإرادة ، قد تسربت إلى المسلمين ، والتاريخ يحدثنا أن بعض مناقشاتهِ كانت تدور في مجلس الخليفة .

وإذاً فقد تسربت تيارات عدة من النصرانية والفلسفة ومن الفلسفة النصرانية ، ومن اليهودية ، إلى المسلمين الباحثين والمدافعين عن مذاهبهم ، والمدافعين عن الإسلام وهذا هو التعليل الذي « يجب أن يفسر به التشابه البين الذي نلاحظه في مظاهر المسيحية البيزنطية الأساسية والتعاليم الإسلامية .

إن البحث في كنه الله وصفاته هو أول شيء له المقام الأول في كتابات كل من آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين عند العرب . فأقدم علماء المسلمين يشغلون أنفسهم : إلى حد كبير بالأبحاث التي تدور حول القضاء والقدر والإرادة ، مثلهم في ذلك مثل آباء الكنيسة الشرقية »<sup>(٢)</sup> .

ويفصل فون كريم رأيهِ بعد ذلك في الصلات والمشابهات بين الكنيسة الشرقية الإغريقية في الشام وبين المرجئة والقدرية .

أما في العراق فإن التشابه قوى بين آراء المعتزلة التي غرس الحسن البصري غراسها الأول وبين آراء النساطرة الدينية المتأثرة بالفلسفة الإغريقية ، لهذا يقول

(١) كان فصيحاً حتى سمي بصاحب اللسان الذهبي . وكان يكتب باليونانية ويتكلم بالأرامية والعربية . وكان نديماً ليزيد بن معاوية ، ثم خلف والده سرجون في الإشراف على شئون المال الحكومية لدمشق ، وظل بوظيفته إلى عهد هشام بن عبد الملك ، ثم اعتزل العمل الحكومي وانصرف إلى الزهد في دير القديس سائنا على مقربة من بيت المقدس . ( تاريخ العرب ٣١٤/٣ حتى ) .

(٢) الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ٦٦ .

دى بور : « هناك دلائل متفرقة على أن طائفة من المسلمين الأوائل الذين قالوا بالاختيار تتلمذوا لأساتذة مسيحيين »<sup>(١)</sup>.

ولقد يعزز هذا ما قيل من أن أول من تكلم في القدر نصراني من العراق ، أسلم ، ثم عاد إلى نصرانيته ، وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقي<sup>(٢)</sup> ، وهما من المرجئة . ويذكر الإمام مسلم رواية تنتهى إلى يحيى بن يعمر تدل على أن أول من قال بالقدر في البصرة معبد الجهنى<sup>(٣)</sup> .

ويروى أن الجعد بن درهم مولى بنى الحكم أول من تكلم في خلق القرآن بدمشق ، ثم طلب فهرب حتى نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان ، ويقال إن الجعد أخذ آراءه عن أبان بن ميمان ، وأبان كان تلميذا لطالوت ، وطالوت كانت تلميذا لخنزة لييد بن الأعصم اليهودى ، وكان طالوت يقول بخلق التوراة ، وكان زنديقا<sup>(٤)</sup> ، وهو أول من صنف في ذلك . ثم أظهر الجعد بن درهم هذه الآراء ، فقتله خالد القسرى بالكوفة في عهد هشام بن عبد الملك ، كما قتل في عهده غيلان الدمشقي ، لأنه كان قدريا<sup>(٥)</sup> ، وقد كان الجعد هذا من المرجئة ، وهم كما أسلفنا أسس الاعتزال .

## — ٢ —

تعددت الأقوال في سبب تسميتهم بالعتزلة .

١ — ولعل أكثر الأقوال شهرة أن هذه التسمية ألصقتها بهم غيرهم ، وكان سبب ذلك أن واصل بن عطاء الغزال خالف أستاذه الحسن البصرى في وصف

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام . دى بور . ترجمة ابن ريدة ٤٩ .

(٢) هو غيلان القدرى . شرح العيون لابن نباتة ١٦٦ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الإيمان .

(٤) ابن الأثير ٢٦/٧ .

(٥) ابن الأثير ١٩٦/١٩٧ ، وشرح العيون ١٦٨ .



مرتكب الكبيرة ، إذ كان الحسن يرى أنه منافق<sup>(١)</sup> ، أما واصل فذهب إلى أنه ليس مؤمناً مطلقاً ، وليس كافراً مطلقاً ، بل هو في منزلة بين منزلتين<sup>(٢)</sup> ، وتابعه على رأيه عمرو بن عبّيد<sup>(٣)</sup> .

وهنا لك روايات أخرى تنسب الاتصال إلى عمرو بن عبّيد لا إلى واصل<sup>(٤)</sup>

على أن الروايات لم تتفق على الذي سماهم ، فهو تارة الحسن البصري كما تقدم ، وتارة قتادة حينما مر بعمرو بن عبّيد بن باب فقال : ماهذه المعتزلة<sup>(٥)</sup> ؟

٢ — والذي يبدو من هذا الاختلاف أن استقلال واصل أو عمرو عن أستاذهما الحسن البصري لم يكن هو السبب في التسمية ، وإنما ترجع التسمية إلى سبب أقدم من هذا وأقوى .

فهم الذين سموا أنفسهم أو سماهم غيرهم بهذا الاسم ، إذ زعموا أنهم اعتزلوا فتى الضلالة في نظرهم ، يريدون أهل السنة أو الجماعة والخواارج الذين يستعرضون الناس قتلاً<sup>(٦)</sup> .

(١) هو في رأى المرجئة مؤمن ، وفي رأى الأزارقة كافر .

(٢) دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت في زمننا جماعة يكفرون أصحاب الكبار هم وعبيدة الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبار والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، هم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك ؟ فتفكر الحسن ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافراً مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمى هو وأصحابه معتزلة .

(٣) الملل والنحل ١/٢٠٥ والمعارف لابن قتيبة والأعلاق النفيسة لابن رسته ووفيات الأعيان في ترجمة قتادة وتاج العروس مادة عزل .

(٤) عيون الأخبار ٢٤٣ والأعلاق النفيسة ٢٢٠ والأنساب للسمعاني ٥٣٦ وشرح

المقامات الشريشي ١/٣٨٥ .

(٥) لسان العرب وتاج العروس مادة عزل .

(٦) لسان العرب وتاج العروس مادة عزل .



ويظهر من تتبع بعض الأحداث التاريخية أن هذه النزعة إلى الحيدة كانت مبكرة ، كما سبق في المرجئة . يدل على ذلك أن أبا الفدا ذكر في مبايعة على سنة ٣٥ أسماء بعض الذين لم يبايعوه ، وهم في الوقت نفسه لم يكونوا من أنصار عثمان ، وعقب على هذا بقوله إن هؤلاء هم المعتزلة ، لا اعتزالهم بيعة على (١) .

وذكر أبو الفرج أن والد الشاعر أئمن بن خريم كان ممن اعتزلوا حرب الجمل وصفين وما بعدها من الأحداث ، فلم يحضرها (٢) .

وكان سعد بن أبي وقاص من الذين اعتزلوا الصراع بين علي وطلحة والزبير ، وقال لا أقاتل حتى تأتونني بسيف يستطيع أن يعقل وينطق ويصر ، ليخبرني أن هذا أصاب وأن ذلك أخطأ .

وذكر أبو الفرج (٣) أن أئمن بن خريم اعتزل النزاع الذي نشب بين عمرو بن سعيد وعبد العزيز بن مروان ، وشاركه في الاعتزال رجل من قومه يقال له ابن كوز ، فعاتب المتنازعان أئمن ، فقال أبياتا منها :

فإني تارك لها جميعا ومعتزل كما اعتزل ابن كوز

وأئمن هذا هو القائل في الدعوة إلى الفرار من القتال ، والمسارة إلى نيل المال إذا كان عطاء (٤) :

إن للفتنة ميّطاً عاجلاً فرؤيد الميّط منها تعتدل (٥)

فإذا كان عطاء فانهز وإذا كان قتال فاهزل

إنما يؤقدها فرسانها حطب النار فدعها تشتمل

وذكر الطبري كثيرا كلمة اعتزال ومعتزل دالة على الحياد في الخصومة الناشبة بين علي وخصومه منها :

(١) الأخبار ١/١٧١ .

(٢) الأغاني ٥/٢١ .

(٣) الأغاني ٦/٢١ .

(٤) العقد المفريد ١/١١٠ .

(٥) الميّط : الجور والشدة والقوة .

(١) قبل موقعة الجمل قال جارية بن قدامة السعدي لطلحة والزبير : أما أنت يا زبير فخواري رسول الله . وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أمكما معكما — يريد السيدة عائشة — فهل جئتما بنسائكما ؟ قالا : لا . قال : فما أنا منكما في شيء ، واعتزل (١) .

(ب) ثم أقبل الأحنف من عند علي ، فسئل عن رأيه في النزاع القائم ، فقال : الاعتزال ، واتبعته بنو سعد ، فاعتزل بهم إلى وادع السباع . ونادى الأحنف : يا يزيد اعتزلوا هذا الأمر ، فنادى المنجاب بن راشد : يا للرباب لا تعتزلوا ، واشهدوا هذا الأمر (٢) :

(ج) وكان زياد بن أبي سفيان ممن اعتزل ، ولم يشهد معركة الجمل (٣) .

(د) افرق أهل مصر فرقا في أول ولاية قيس بن سعد على مصر من قبل علي بن أبي طالب ، « فرقة دخلت في الجماعة وكانوا مع سعد ، وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربت ، وفرقة قالوا نحن مع علي ما لم يقدر إخواننا ، وهم في ذلك مع الجماعة . وكتب قيس إلى أمير المؤمنين بذلك » (٤) .

(هـ) ولما اتجه طلحة والزبير وعائشة من مكة إلى البصرة ، لإثارة الناس على علي خرج معهم المغيرة وسعيد بن العاص مرحلة من مكة ، فقال سعيد للمغيرة : ما الرأي ؟ قال : الرأي — والله — الاعتزال ، فإنهم ما يفلح أمرهم ، فاعتزلا ورجعا إلى مكة (٥) .

(و) كتب قيس بن سعد وإلى علي مصر ، يقول له بعد موقعة الجمل : إن قبلي رجلا معتزلا ، قد سألتني أن كف عنهم ، وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فتري ويروا رأيهم ، فقد رأيت أن أ كف عنهم ، وألا أتعجل حربهم ، وأن أتألفهم فيما بين ذلك (٦) .

(٢) الطبري ٢٠١/٥

(٤) تاريخ الطبري ١٦١/٥

(٦) الطبري ٢٣٠/٥

(١) الطبري ١٧٦/٥

(٣) الطبري ٢٢٤/٥

(٥) الطبري ١٦٧/٥

( ز ) وقوله في حوادث سنة ٣٧ إن جماعة من المسلمين شكوا في أمر القتال الدائر بين علي ومعاوية ، فرأوا أن يستأنوا ويتثبتوا حتى تجتمع الأمة ، فاعتزلوا .  
( ح ) وقوله . كان علي بن الحسين قد اعتزل المدينة لما خلع أهلها يزيد بن معاوية ، وحاصروا من فيها من بنى أمية بدار مروان بن الحكم ، اعتزلها كراهية أن يشهد شيئا من أمرهم <sup>١</sup>

٣ — كان لهذه الكلمة إذا معنى سياسى خاص هو الابتعاد عن الصراع الناشب بين علي وخصومه ، والاستمساك بالحيدة العملية والقولية في هذا الصراع ، فلا هم يناصرون فريقا على فريق ، ولا هم يبدون رأيا في الحكم على المريقين المتحاربين ، وهذا المعنى السياسى أسبق من المعنى الدينى الذى نشأ بعد ذلك ، لما خالف واصل أو عمرو أهل السنة والخوارج في وصف مرتكب الكبيرة .

لهذا أرجح أن التسمية التى أطلقت على واصل وعمرو وغيرهما أو التى أطلقوها على أنفسهم ، امتداد للتسمية السياسية السابقة ، لأن الشبه قوى بين المعتزلة الأولين والمعتزلة اللاحقين ؛ فالأولون محايدون في النزاع القائم بين المسلمين المتقاتلين على الخلافة ، واللاحقون محايدون في حكمهم على مرتكب الكبيرة ، إذ وقفوا موقفا وسطا بين رأى أهل السنة ورأى الخوارج ، فكأنهم خلفاء للذين سبقوهم بمائة عام وهم في حديثهم يشبهون أستاذهم الأول الحسن البصرى ، فقد سأله رجل عن رأيه في الفتن التى كانت بين المسلمين ، فقال له الحسن : لاتكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، قال الرجل : ولا مع أمير المؤمنين ؟ قال الحسن : ولا مع أمير المؤمنين .

— ٣ —

١ — وهم يسمون أنفسهم أهل العدل ، لأنهم يقولون بحرية الإنسان في اختيار أعماله ، فيثيبه الله عليها أو يعاقبه عادلا ، فلا جبر ولا اضطرار (٢) .

(١) الطبرى ٧/٧ .

(٢) كان معبد الجهنى وغيلان الدمشقى من أول الذين قالوا بحرية الإرادة . وكان معبد كما ذكر الذهبى في ميزان الاعتدال تابعا صدوقا لكنه سن سنة سيئة فكان أول من تسكلم في القدر . قتله الحجاج صبرا لخروجه مع ابن الأشعث . فهو إذا من الساسة الخارجين على الحجاج ، وإن كان بعض المؤرخين يذكر أنه قتله لزندقته . وقال ابن نباتة : قيل إن أول

٢ — ويسمون أنفسهم أهل التوحيد ، لأنهم تفوا الصفات القديمة عن الله تعالى ، وقالوا هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته ، لا يعلم وقدره وحياة ، هي صفات قديمة ومعان قائمة به ، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لمشاركته في الألوهية (١) .

٣ — وأطلق عليهم خصومهم أحيانا القدرية ، لأنهم وافقوا القدرية — وكانوا قبلهم — في القول بحرية العبد واختياره وقدرته وأطلقوا عليهم أحيانا الجهمية ، لأنهم وافقوا الجهمية في القول بنفي الصفات وبخلق القرآن ، وإن خالفهم في الحرية والاختيار (٢) .

على أن المعتزلة يبرأون من تسميتهم قدرية أو جهمية ، ويردون على التسمية الأولى بأنهم ينفون القدر ، وغيرهم يثبتونه ، فهم أولى بأن ينسبوا إليه .

ويتبرأ بشر بن الصنم أحد زعمائهم من الجهمية بقوله :

نفقيهمُ عنا ولسنا منهم ولا همُ منّا ولا نرضاهمُ  
إمامهمُ جهنّمُ وما لهم وصحب عمرو<sup>(٣)</sup> ذي التقى والعلم

— ٤ —

أما الأسس العامة لمذهبهم فقائمة على عدة أصول : العدل ، والتوحيد ، والوعد والوعيد ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

== من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر ، أخذ عنه معبد الجهني وغيلان الدمشقي ( سرح العيون ١٦٦ ) وأما غيلان فابن مولى عثمان بن عفان ، كان يسكن دمشق ، وكان مفوها ، ثم أكثر الناس الواقعة فيه والسعاية به بسبب رأيه في القدر حتى أحفظوا عليه هشام بن عبد الملك ، فأمر بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه .

(١) المل والنحل ٤٩/٢ .

(٢) الجهمية أتباع جهنم بن صفوان ، كان يقول بالجبر ويجرد الإنسان من الاختيار والقدرة ، ويقول إن الإنسان يثاب أو يعاقب على أعماله جبرا . وكان جهنم من موالى خراسان أقام بالكوفة ، ودعا إلى مذهبه ، وكان وزيراً للحارث بن سريج ، فلما خرج الحارث على

بنى أمية حاربوه وهزموه وأسروا جهنما وقتلوه

(٣) عمرو بن عبدة أحد الرؤساء الأولين للمعتزلة

والتوقف عن الحكم على أحد الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين (١) .  
ولهم آراء شتى ، منها أن العقل قادر على معرفة الحسن والقبيح ، وإن لم يرد  
بها شرع ، لأن في الشيء صفة ذاتية تجعله حسنا أو قبيحا .

— ٥ —

قد يتبادر إلى الذهن أن المعتزلة فرقة دينية صرف ، لا صلة لها بالسياسة ، على  
حين أن النظر الفاحص ينبئ عن صلة بالسياسة وثيقة .

١ - فهم يخالفون المرجئة والخوارج والأزارقة في الحكم على مرتكب  
الكبيرة . إذ قال الخوارج إن الصلاة والصيام والصدق والعدل جزء من الإيمان ،  
فالذي يعتقد بالوحدانية وبالرسالة ، ولا يؤدي الفرائض الدينية ، أو يرتكب كبيرة ،  
كافر . بل إن نافع بن الأزرق كفر المسلمين ما عدا الأزارقة ، وعدم كالمشركين  
لا تحمل ذبايحهم ، ولا الزواج منهم ، ورأى أنهم مثل كفار العرب ، لا يقبل منهم  
إلا الإسلام أو السيف . ولهذا حارب الخوارج بنو أمية ، لأنهم مرتكبون للكبائر ،  
كفار . ولم يعترفوا بخلافتهم ، ولم يطيعوا أمرهم .

أما المرجئة فإنهم قصرُوا الإيمان على الاعتقاد بالقلب ، وذهبوا إلى أن القيام  
بفرائض الدين من صلاة وصيام ليس جزءا من الإيمان ، فالذي يرتكب كبيرة

(١) بجل التوحيد أن الله منزّه عن المثل ، فهو القديم الأزلي وما سواء محدث وليست  
له صفات أزلية منعصلة عنه ، لأن القول بها تعدد .

ومجل العدل أن الله منزّه عن الفساد وعن خالف أفعال العباد ، وإنعام يفعلون أفعالهم  
بالقدرة التي خلقها الله فيهم ، ولم أمرهم إلا بما أراد ، ولم ينههم إلا عما كره ، ولو شاء  
لأجبرهم على طاعته ومنعهم من معصيته لأنه القادر

ومعنى الوعد والوعيد أن الله صادق وعده ووعدته ، فقد وعد المتقين الجنة ، وأوعد المشركين  
العصاة النار ، وهو لا يخاف وعده ، فمن جأ ففعله استحق الثواب ، ومن خسر ففعله  
استحق العقاب . والمسلم العاصي إذا مات قبل التوبة يجلد في النار ، ولا تنفع فيه شفاعته .  
وأما أصحاب الجمل وصفير وعثمان وقتلوه وخاذلوه ، فأحد الفريقين مخطيء لا محالة ، لكنه  
غير معلوم .

وأما المنزلة بين المنزلتين فمعناها أن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر لكنه يجلد في النار . وأما  
وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمعناه أن الواجب على المسلمين أن يأمرُوا بالمعروف  
وينهوا عن المنكر على قدر طاقتهم بالسيف فمادونه ، لا فرق بين مجاهدة الكافر ومجاهدة الفاسق  
(الملل والنحل ٤٨/١ ومروج الذهب ٢ / ١٩٠) .



لا يخرج عن إيمانه ، بل إن المعاصي لا تضر مع الإيمان ، كما أن الطاعة لا تنفع مع الكفران ، ولهذا قالوا إن عليا و عثمان و طلحة و الزبير و معاوية و أنبا عهم و الخارجين عليهم ليسوا كفارا . ومعنى هذا أن خلفاء بنى أمية مؤمنون ، وليس ينقص من إيمانهم أنهم يرتكبون الكبائر ، وإذا فهم لا يوافقون الخوارج في محاربتهم للأمويين يدعوى أنهم كفرة .

وأما أهل السنة فلم يروا ذلك ، فالفاسق في رأيهم عضو في الجماعة الإسلامية ، له مالها وعليه ما عليها ، وأصحاب الجمل و صفين مسلمون ؛ إلا أن عليا كان على الحق ، وكان خصومه على الباطل ، فهم ثأرون لا كفار

وأما المعتزلة فكان رأيهم وسطا بين هؤلاء وأولئك . إذ قالوا إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر « لأن الإيمان خصال خير ، إذا اجتمعت سمى المرء مؤمنا ، وهو اسم مدح ، ومرتكب الكبيرة - الفاسق - لم يستكمل خصال الخير ، ولا استحق اسم المدح ، فلا يسمى مؤمنا ، وليس بكافر مطلق ، لأن الشهادة و سائر أعمال الخير موجودة فيه ، لا وجه لإنكارها » (١) لكنه مخلد في النار . فهم يتفقون مع الخوارج في تأييد عذاب العاصي ، لهذا يقول إسحاق بن سويدى القدرى

برئت من الخوارج لست منهم من الغرال ضهم وابن باب (٢)  
فيسمهم خوارج .

وربما رأى أن القضية لا تستحق هذا كله ، لكنها بعد التروية تبدو خطيرة ، لأنها وثيقة الصلة بالحياة السياسية والحياة الاجتماعية . ذلك أن حكم الخوارج على مرتكب الكبيرة بالكفر يقتضى الحكم عليه بأنه خارج على الأمة الإسلامية ، فدمه هدر ، وماله مباح ، وزواجه بالوثمنة باطل ، وشهادته مردودة . وإذا كان خلفاء بنى أمية وولاتهم عصاة لله في نظر الخوارج ، فهم كفار يحجب على المسلمين

(١) الملل والنحل ٥٢/١ .

(٢) الكامل المبرد ١٣٣/٢ والفرق للبغدادى ٩٩ والبيان والتبيين ١١/١ الغرال

كنية واصل وابن باب كنية عمرو بن عبيد



أن يشوروا عليهم ، ويخلموهم . ويتصل بهذا حكمهم بالكفر على طاعة والزير وعائشة ومعاوية ، لأنهم حاربوا عليا وهو على حق ، لكنه كفر بعد التحكيم .

أما أهل السنة فلم يذهبوا إلى هذا ، ولم يدعوا إلى الثورة على بنى أمية ، فالفرقان المتحاربان كانا مؤمنين ، وإن كان عليّ محقا وخصومه مبطلين ، فهم ثوار لكنهم غير كفار وغير فسقة ، لهذا تقبل شهادة كل منهما إن كان صادقا .

على حين أن واصل بن عطاء توسط ، فقال إن أحد الفريقين فاسق ، لكنه غير معين ، لهذا لم يجوز قبول شهادة عليّ وطلحة والزير على باقة بقل ، وجوز أن يكون علي وعثمان مخطئين<sup>(١)</sup> ، وتبرا هو وأكثر المعتزلة من معاوية وعمرو ابن العاص ؛ لأنهما فاسقان<sup>(٢)</sup> .

أما زميله عمرو بن عبيد فقد سبّ أبا هريرة ، وطعن في روايته ، واتهم معاوية وعمرو بن العاص بالحيانة ، وأنهما سرقا مال النبي ، وخالف واصل في توقفه عن الحكم على أصحاب الجمل ، فقال بفسقهم جميعا ، وأبطل شهادة علي وعثمان وطلحة والزير لو أن أحدهم كان شهد عنده على شرك نعل أو سواك ، أما معاوية فقد فسقه كما فسقه واصل<sup>(٣)</sup> .

ثم إن المعتزلة اتفقوا — إلا قليلا منهم — على أن بيعة أبي بكر صحيحة ، لأنها كانت بالاختيار لا بالتعيين من النبي صلى الله عليه وسلم . واختلفوا في المفاضلة بين أبي بكر وعليّ ، ونحاجوا في ذلك ، وكان ابن كيسان الأصم يخطئ عليا في كثير من أفعاله ، ويصوب معاوية في بعض أعماله<sup>(٤)</sup> .

٢ — أما رأيهم في الإمامة والإمام فإن أكثرهم على أنه لا مندوحة للمسلمين عن حاكم يسوسهم ، وينفذ فيهم أحكام الله ، ويقيم حدوده ، وينصف المظلوم الخ .

وقليل منهم كأبي بكر الأصم وهشام القسوطي يوافقون النجدية من الخوارج في أن الإمامة ليست واجبة في الشرع ، بل هي حق للناس تابع لحالتهم ، فإن

(٢) المنية والأمل لابن المرتضى ٦ .

(١) الملل والنحل ٥٢/١

(٣) تاريخ بغداد ١٢ / ١٦٦ - ١٨٨ :

(٤) المنية والأمل ٣٣ .

أنصف بعضهم بعضاً ، وتعاونوا على البر والتقوى ، استغفوا عن الإمام ، وإلا ولوا عليهم إماماً .

وهم مختلفون في طريقة اختيار الإمام ، فبعضهم يوافق أهل السنة والخوارج في تفويض الانتخاب إلى الشعب ؛ ليختار من يحكمه ، وينفذ فيه أحكام الله ، سواء أكان قرشياً أم غير قرشي ؛ لأن الإمام لا يشترط فيه إلا الإسلام والعدل والكفاءة . وبعضهم يوافق الرافضة في وجوب أن يكون الإمام من ذرية علي ، وآخرون يشترطون أن يكون من قریش ، عملاً بالحديث « الأئمة من قریش » . وقد رد الآخرون على هؤلاء بأن الحديث غير متواتر ، لأنه لو كان متواتراً ما نازع الأنصار المهاجرين يوم السقيفة ، وما تمنى عمر بن الخطاب أن يكون سالم مولى حذيفة حياً ليعهد إليه بالخلافة من بعده .

٣ — ولم يقتصروا على الآراء القولية ، بل شاركوا في التنديد بخلافة الوليد بن يزيد وتهتكه ، وآزر بعضهم — وفيهم زعيمهم عمرو بن عبيد — يزيد بن الوليد في ثورته على ابن عمه الوليد ، فخلعه وقتله ، وكان يزيد على مذهبهم <sup>(١)</sup> .

وكذلك أيدوا الزيدية في ثورة زيد بن علي زين العابدين على هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ هـ .

٤ — على أن الدولة الأموية لم تقاومهم كما قاومت الشيعة والخوارج ، لأنهم كانوا أقرب إلى مسالمتها من هؤلاء ، ولأنها وجدت في مذهبهم السياسي مصلحة لها ، إذ هم في الأعم الأغلب لا يعيزون للشيعة وللأمويين ، وبحسب الأمويين منهم أن يجرحوا عليها كما يجرحونهم ، لأنهم بهذا يضعفون من الهيبة التي للشيعة . ولعل رضا بني أمية عن مذهبهم وعن آرائهم كان الباعث لبعض خلفائهم المتأخرين على اعتناق الاعتزال ، كيزيد بن أنوليد ومروان بن محمد ، حتى إن مروان هذا لقب بالجمدي لأنه سمع من الجعد بن درهم إذ كان صريه وخاله ، وقد أخذ عنه مروان مذهبهم في الجبر وغيره <sup>(٢)</sup> .

(١) مروج الذهب ٢/١٩٣ .

(٢) سرح العيون ١٨٥ كان الجعد أستاذاً أيضاً لجهم بن صفوان الذي قتل سنة ١٢٨ هـ .

ولقد كان المعتزلة آثار بعيدة المدى والعمق في الأدب والعلم والفكر ، فهم الذين حملوا مشاعل الفكر الحر والبحث الدقيق والدرس العميق لمسائل كثيرة جديدة في الإلهيات وغيرها .

وهم أساتذة المناظرة ، وجهابذة البلاغة والخطابة ، والرواد الأولون لمزج الفلسفة اليونانية بالدين ، في دفاعهم عن الإسلام ، وفي التدليل على آرائهم . وهم أصحاب الإنتاج الغزير المتنوع في شتى ضروب المعرفة والثقافة .

فلترجىء الحديث عن هذا كله إلى فرصة أخرى ، لأن صلته بالسياسة في عصرنا الذي ندرسه وفي العصر العباسي أبعد من صلته بالفلسفة والعلوم والآداب .

# الباب الثاني

## الشجر

### فصل الأول

#### شجر الخرب الأموي

- ١ -

#### في الاحتجاج لبني أمية وبني مروان

تردد في الشعر المناصر لبني أمية وبني مروان وولاتهم أنهم خلفاء الله على الناس ، وأنهم سيوفه المسلولة لحماية الدين ونصرتهم ، وأنهم ينهجون في حكمهم نهج النبي صلى الله عليه وسلم ونهج سابقيه من الرسل ، ولهذا ينصرهم الله على خصومهم .

١ - حارثة بن بدر يمدح زيادا بأنه إمام عدل واستقامة وحزم ، ويقول إنه ينتصر بتأييد من الله ، وإنه لا يجوز على حدود الله إذا جارت الرعية ، وإنه جاء في زمن كثر خبثه ، وظهرت شروره ، لكنه - وهو سيف الله - رد إلى الدين سلطانه بحزمه ومضائه .

قال حارثة (١) :

ألا مَنْ مُبْلَغٌ غنى زيادا فنعم أخو الخليفة والأمير

فأنت إمام مَعْدِلَةٌ وَقَصْدٌ وحزم حين تمحضرك الأمور  
أخوك خليفة الله ابنُ حرب وأنت وزيره نعم الوزير  
بأمر الله منصورٌ مُعَانٌ إذا جار الرعية لا تجور  
يَدِرُّ على يدك لما أرادوا من الدنيا لهم حَابٌ غزير  
وكنْتَ حياً وجئت على زمان خبيثٍ ظاهرٍ فيه شرور<sup>(١)</sup>  
فلما قام سيفُ الله فيهم زيادٌ قام أبلجٌ مستفير  
قوى لا من الحداث غرٌّ ولا جَزَعٌ ولا فانٍ كبير<sup>(٢)</sup>

٢ — ومدح العَجَّاج<sup>(٣)</sup> يزيد بن معاوية بأنه يقتفى أثر موسى ومحمد عليهما السلام ، وبأنه سيف الله الباتر ، فهو إذاً حريص على الدين لا يحيد عن تعاليمه :

إن زُلْزِلَ الأَقْوَامُ لم تُزَلْزَلِ عن دين موسى والرسول المرسل  
وكنْتَ سيفَ الله لم يُفَلَلِ يَفْرَعُ أحياناً وحيناً يَخْتَلِي<sup>(٤)</sup>

٣ — وهذا النزوع واضح في مدائح جرير لبني أمية ولولا تهم ، فهو يصف عبد الملك بأنه ركن الدين ، والحفيظ على أحكام الشرع ، ولولاه ما اجتمع المسلمون في صلواتهم بالمساجد في الجمع ، ثم يصفه بأنه أمين الله ، والمبارك الذي يهدي به الله عباده ، ويقول إن أوامره ميمونة مطاعة ، وإن الله فضل بني أمية على غيرهم من أهل البدع ، يريد الأحزاب المعادية لبني أمية . قال<sup>(٥)</sup> :

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرؤه ما قام للناس أحكام ولا جُمعُ  
أنت الأمينُ أمينُ الله لا سرفٌ فيما وُلِّيتَ ولا هيابةٌ ورِعٌ<sup>(٦)</sup>

(١) حياً : مطر وخير .

(٢) الحداث : جمع حدث وهو الفتى .

(٣) شعراء النصرانية بعد الإسلام ٢٣٤ .

(٤) لم يقل : لم يتثلم . يختلى : يقطع ويحز . يفرع : يعلو رموس الناس .

(٥) ديوان جرير ٣٥٥ . (٦) سرف : متجاوز الحد . ورع : جبان .

أنت المبارك يَهْدِي اللهُ شَيْمَتَهُ      إذا تفرقت الأهواء والشُّيْع  
فكل أمر على يَمْنٍ أمرت به      فينا مطاعٌ ومهما قلتَ يُسْتَمَع  
يا آل مروان إن الله فضلكم      فضلا عظيم على مَنْ دِينُهُ الْبِدْع

٤ — مدح العجاج الوليد بن عبد الملك<sup>(١)</sup> — وكان يكنى بأبي العباس —  
بأنه رأس الدين وابن رأسه ، وقال إن الله قد علم بأنه أولى إنسان بالملك :

رأس قوام الدين وابن رأسه      خليفةٌ ساس بغير فُجْس<sup>(٢)</sup>  
في قِنْسٍ مجدّات كل قِنْسٍ      ملكه الله بغير تَحْسٍ<sup>(٣)</sup>  
قد علم القدُّوس ربُّ القدُّوس      أن أبا العباس أولى نفس  
بمعدن الملك كريم الكِرْسِ      فروعه وأصله المرُسى<sup>(٤)</sup>

٥ — ودعا عدى بن الرقاع للوليد<sup>(٥)</sup> بن عبد الملك ، أن يصلى الله عليه ،  
ودعا المسلمين أن يصلوا عليه في صلواتهم وجمعهم ، لأنه أمير المؤمنين الذي وحد  
الله الأمة على يديه ، ولأنه ملازمهم وراعيهم ، ولن يستقيم أمرهم إذا  
رعاهم غيره :

صلى الذي الصلوات الطيبات له      والمؤمنون إذا جمَّعوا الجُمُعا  
على الذي سبق الأقوام ضاحيةً      بالأجر والحمد حتى صاحباهمعا  
هو الذي جَمَعَ الرحمنُ أُمَّتَهُ      على يديه ، وكانوا قبله شِيَمَا  
عُدْنَا بَدَى العرش أن نحيا ونفقدَه      وأن نكون لراعٍ بعهده تَبَعَا  
إن الوليد أمير المؤمنين له      ملكٌ عليه أعان الله فارتفعَا

٦ — احتج الفرزدق لبني أمية بأنهم الخلفاء الذين اختارهم الله ، وكأنما

(١) شعراء البصريين بعد الإسلام ٢٣٥ .

(٢) فُجْس : كبر وغطرسة . (٣) قِنْس : ذروة .

(٤) الكرس : الأصل . المرسي : الثابت المتأصل .

(٥) الأغاني ١ / ٢٩٧ .



لم يجد في هذا الاحتجاج ما يقنع ، فقال إنهم ورثة عثمان ، الأولياء بالحكم بعده ،  
وندد بابن الزبير ، ووصفه بالفساد والمكر والتخريب والكذب والعدو .  
قال في مدح عبد الملك (١) :

فالأرض لله ولأهلها خليفته	وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به	كذاب مكة من مكر وتخريب
راموا الخلافة في غدر فأخطأهم	منها صدور وفازوا بالمراقيب
والناس في فتنة عمياء قد تركت	أشرافهم بين مقتول وتخريب
دعوا ليستغلف الرحمان خيرهم	والله يسمع دعوى كل مكروب
فأصبح الله ولي الأمر خيرهم	بعد اختلاف وصدع غير مشعوب
تراث عثمان كانوا الأولياء به	سربال ملك عليهم غير مسلوب

٧ — وفي مدحة الفرزدق ليزيد بن عبد الملك (٢) تضخيم لدعوى أن الله  
اصطفى بني أمية للحكم ، حتى إنه ليزعم أنه لو كان بعد النبي عليه الصلاة والسلام  
نبي ، لكان يزيد هو النبي ، ويناديه بأنه خليل الله :

ولو كان بعد المصطفى من عباده	نبي لهم منهم لأمر العزائم
لكنت الذي يختاره الله بعده	لحل الأمانات الثقال العظام
ورثتم - خليل الله - كل خزانة	وكل كتاب بالنبوة قائم
وحبلك حبل الله من يمتصم به	إذا ناله يأخذ به حبل سالم

٨ — حتى الأخطل النصراني (٣) لهج بأن بني أمية أحق المسلمين بالخلافة ،  
وأن الله اصطفاهم لها ، فهم خلفاؤه على الأرض ، وهم العصم التي يستمسك  
بها المسلمون فيجتمع أمرهم :

(١) الديوان ٢٥/١ . (٢) ديوان الفرزدق ٢٩٨ .

(٣) ديوان الأخطل ١٧٢ .

تَمَّتْ جُدُودُهُمْ وَاللَّهُ فَضْلُهُمْ      وَجَدُّ قَوْمٍ سَوَاهُمْ خَامِلٌ نَكَدُ  
وَيَوْمَ صِفِّينَ وَالْأَبْصَارِ خَاشِمَةٌ      أَمْدُهُمْ - إِذْ دَعَوْا مِنْ رَبِّهِمْ مَدَدُ  
وَأَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتٍ لَا يُوَازِنُهُمْ      بَيْتٌ إِذَا عُدَّتْ الْأَحْسَابُ وَالْعَدَدُ .

٩ - ويقول في مدح عبد الملك (١) :

إِلَى إِمَامٍ تَفَادَيْتُ فَوَاضِلُهُ      أَظْفَرَهُ اللَّهُ فَلَيْهِنَا لَهُ الظُّفَرُ  
الْخَائِضِ الْغَمْرِ وَالْمَيْمُونِ طَائِرُهُ      خَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ (٢)  
وَالْمُسْتَمِرُّ بِهِ أَمْرُ الْجَمِيعِ فَمَا      يَفْتَرُهُ بَعْدَ تَوْكِيدٍ لَهُ غَرَرُ (٣)  
أَعْطَاهُمُ اللَّهُ جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ      لَا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدُ مُحْتَقَرُ

فهو يصفه بالكرم وسعد الطالع والشجاعة وتوحيد الأمة ، ثم يمدح بني أمية كلهم .

١٠ - وأحيانا يحتجون لهم بأنهم الذين ثاروا لعثمان ، إذ هبَّ معاوية يطالب بدمه ، ويحارب عليا ، بدعوى أنه قصر في حماية عثمان ، وقصر في القصاص من قاتليه .

قال الأخطل :

وَيَوْمَ صِفِّينَ وَالْأَبْصَارِ خَاشِمَةٌ      أَمْدُهُمْ إِذَا دَعَوْا مِنْ رَبِّهِمْ مَدَدُ  
عَلَى الْأَلَى قَتَلُوا عَثْمَانَ مَظْلَمَةً      لَمْ يَنْهَمِ نَشْدُ عَنْهُ وَقَدْ نُشِدُوا  
فَتَمَّ قَرَّتْ عَيُونُ الثَّائِرِينَ بِهِ      وَأَدْرَكُوا كُلَّ تَبَلٍ عِنْدَهُ قَوْدُ  
فَلَمْ تَزَلْ فَيَلِقُ خَضِرَاءَ تَحْطِمُهُمْ

تَنْعَى ابْنَ عَفَانَ حَتَّى أَفْرَخَ الصَّيْدُ (٤)

(١) الديوان ٩٨ . (٢) الخائض الغمر : المراد أنه ركاب للشدائد .

(٣) غرر : هلاك ، أى أنه في أمان من الانتقاض عليه بعد البيعة له .

(٤) ديوان الأخطل ١٧٤ نشد : طالب . نشدوا : طلبوا . تبل : ثار . قود : قصاص .

فيلق : المراد كتيبة ضخمة . خضراء : سوداء مما تلبس من حديد . أفرخ الصيد : سكن الكبر ، أى أن القتلة خضعوا وذلوا .

١١ - كثيراً ما كان الشعراء يحتجون لجدارة بنى أمية بالخلافة بما يصفونهم به من كفاية وحزم وكرم وحسب ومهارة ، كقول الأخطل في مدح عبد الملك (١) :

في نَبْعَةٍ من قريش يَعْصِبُونَ بِهَا - ما إن يُوازَى بأعلى نَبْتِها الشجرُ (٢)  
حُشْدٌ على الحق ، عِيَا فَوَانَحْنَا أَنْفُ - إذا أَلَمْتُ بِهِمْ مَكْرُوهَةً صَبَرُوا (٣)  
وإن تَدَجَّتْ على الآفاق مُظْلِمَةٌ - كان لهم تَخْرُجٌ منها وَمُعْتَصِرٌ (٤)  
أعطاهم الله جَدًّا يُنْصَرُونَ به - لا جَدًّا إلا صَفِيرٌ بَعْدُ مُحْتَقِرٌ  
لم بِأَشْرُوا فِيهِ إذْ كانوا مَوَالِيهِ - ولو يكون لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ أَشْرُوا (٥)  
شَمْسُ العداوة حتى يَسْتَقْدَادَ لهم - وأعظم الناس أحلاماً إذا قَدَرُوا (٦)

١٢ - من الدعاية لبنى أمية قول نابغة بنى شيبان في قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز (٧) إنهم معدن الخلافة ، بهم بدأت ، وإليهم انتهت ، والذي يطمح إلى الخلافة من غيرهم ضال مغرور :

مُعْشَرٌ مَعْدِنُ الخلافة فيهم بَدَوُها منهم وفيهم تَحُورُ  
لا يَرُومُنَّ مُلْكَهُمْ آدميٌّ إن من رام ملكهم مغرور

- ٢ -

## في الحملة على خصومهم

كان كل حزب سياسي يزعم أنه حزب الله ، وأن الله ناصر ، وكان يصف خصومه بالكفر والضلال .

- 
- (١) ديوان الأخطل ١٠٤ . (٢) نبع : شجرة جيدة تتخذ منها القسي والسهام .  
يعصبون بها : يحيطون بها ويلزمونها . (٣) عيافو الخنا : كارهون للفحش .  
(٤) تدجت : أظلمت . معتصر : ملجأ . (٥) لم بأشروا : لم يبطروا .  
(٦) شمس العداوة : أشداء فيها : يستقاد لهم : يخضع لهم .  
(٧) شعراء النصرانية بعد الإسلام ١٥٥ .

وهذا صريح في كثير من الشعر الأموي ، وكثير في شعر الأحزاب الأخرى .  
وسنجد في الأمثلة الآتية تكفيراً للشيعة وللخوارج وللزبيريين .

١ — كان كعب بن جُمَيْل التغلبي أموي النزعة ، وقد حارب مع قومه في يوم صفين موالين لمعاوية .

وهو الذي صور حال أهل الشام وأهل العراق بقوله (١) إن كلا منهم ينفض الآخر ، ويحاربه ، وإذا كان أهل العراق يولون علياً إماماً عليهم ، فإن أهل الشام يولون معاوية ، ولن يستجيب أهل الشام لعليّ . ثم قال إنني لا أعيب علياً إلا بأنه ضم إليه الصغار وأهل العصية ، وتهاون مع قتلة عثمان ، فلا هو أظهر رضاه عنهم ، ولا هو أظهر مسخطه عليهم ، ويقول إنه لم يأمر بقتله ، ولم ينه عنه ، وإنه لم يحزن عليه ، ولم يفرح به ، ولكن المعقول أن يكون بعض هذا قد حدث . وإنه في حملته على عليّ لما كر ؛ لأنه قد تأتى إلى انتقاصه في لطف وحسن مدخل .

ذلك بأنه تحدث عن العداوة بين الإقليمين ، وبأن كلا منهما رضى حاكمه ، ثم تطرق من ذلك إلى أنه لا يجب علياً إلا بأشياء ، وهو بهذا يخدع السامع أو القارئ ، إذ يحسب أنها أمور تافهة ، فإذا بها المعاول الهدامة التي كان يقوض بها الأمويون صرح عليّ ، وأهمها اتهامه بالتخريض على قتل عثمان . قال كعب (٢) :

أرى الشام تكره مُلكَ العراق	وأهل العراق لهم كارهينا
وكلاً لصاحبه مُبغضاً	يرى كل ما كان من ذاك ديننا
إذا ما رمونا رميناهم	ودناهم مثل ما يقرضونا
وقالوا : عليّ إمام لنا	فقلنا : رضينا ابن هند رضينا
وقالوا : نرى أن تدينوا له	فقلنا لهم : لا نرى أن نديننا

(١) تجدد في نماذج الشعر الشيعي قصيدة للنجاشي ينفض بها قصيدة كعب .

(٢) تهذيب الكامل ١ / ٤٠ .

ومن دون ذلك خَرَطَ القتَّادَ      وضربَ وطعنَ يُقرُّ العيونَا  
وكلَّ يُسرَ بما عنده      يرى غثَّ ما في يديه سمينا  
وما في علىَّ لمستعْتَبِ      مقالٌ سوى ضمه المحدثينا  
وإشاره اليومَ أهلَ الذنوبِ      ورفع القصاص عن القاتلينا  
إذا سيل عنه زوى وجهه      وغمى الجواب عن السائلينا  
فليس براضٍ ولا ساخط      ولا في النُّهاة ولا الآمرينا  
ولا هو ساءٍ ولا سرَّه      ولا بد من بعض ذا أن يكونا

٢ — طلب يزيد بن معاوية — وهو وليُّ الهمد — من الأخطل أن يهجو  
الأنصار ، لأنهم ضالعون مع عليٍّ ، فاستجاب الأخطل ، وبدأ هجاءه بدم اليهود ،  
كأنما يريد أن يقرن بهم الأنصار ؛ لأنهم كانوا يساكنونهم بالمدينة ، وكثيراً ما كان  
بعض اليهود يحالف بعض الأنصار . ثم عاب الأنصار بأنهم أهل زرع وفلاحة ،  
فهم كاليهود في هذا ، وحقر من شأنهم بأنهم ليسوا أهل مجد ولا مكارم ، وادعى  
أنهم جبناء عند اللقاء . لأنهم من نسل الزراع الحقراء . ثم نسب المجد كله إلى قريش ،  
واللوم كله إلى الأنصار في كناية سافرة واخزة :

قال الأخطل (١) :

لئن الإله من اليهود عصابةً      بالجزع بين صُلَيْصِيلٍ وصِرار<sup>(٢)</sup>  
قوم إذا هَدَرَ العَصِيرَ رأيتهم      حُخْرًا عيونهم من المِسْطَار<sup>(٣)</sup>  
خلوا المكارم لستمُ من أهلها      ونخذوا مساحيكم بنى النجار<sup>(٤)</sup>  
إن الفوارس يعلمون ظهوركم      أولادَ كلِّ مُقْبِحٍ أكار<sup>(٥)</sup>  
ذهبت قريش بالمكارم كلها      واللوم تحت عمام الأنصار

(١) طبقات الشعراء ٣٩٧ . (٢) أما كن قريبة من المدينة .

(٣) المِسْطَار : الحمر الصارعة لشاربها .

(٤) مساحيكم : جمع مسحاة وهي الفأس ونحوها . (٥) أكار : حراث .

٣ — كان كعب بن جابر الأزدي في جند يزيد المحاربين للحسين بن علي ، فلما رجع بعد مقتل الحسين ثارت امرأته أو أخته في وجهه ، وقالت له : أَعَنْتَ علي ابن فاطمة ، وقتلت سيد القراء<sup>(١)</sup> ، لقد أتيت أمراً عظيماً ، والله لا أكلمك كلمة أبداً .

فجبه كعب امرأته أو أخته بأنه فعل أقصى ما يؤاها من قتال للحسين وحزبه ، وقال إنه كان علي بيده من أمره ، ويقين بصواب ما فعل ، وإنه حارب بسيفه ورمحه فرقة ليست على دينه ، وكان راضياً عما فعل قانعاً بنصره لمعاوية . ثم جعل ينصف جيش الحسين إذ شهد له بالبطولة ، وقال إنه لم يشهد مثلهم في استماتتهم في ماضيه وحاضره ، ولم ير أشباهها لهم في المقارعة والمجادة وحماية الدمار ، وإنهم صبروا علي ما نزل بهم من ضربات السيوف وطعنات الرماح ، ورءوسهم عارية بغير خوذات ، وجاهدوا وجالدوا إلى نهاية ما استطاعوا ، ولكن لم ينفعهم جهادهم ، وهو بهذا أنصف خصومه إذ أشاد ببطولتهم . ثم وجه رسالة إلى قائد يزيد — عبيد الله بن زياد — بأنه سامع للخليفة مطيع ، وأنه قتل سيد القراء بريراً<sup>(١)</sup> ، وخَلَصَ منه رَضِيَّ بن منقذ .

قال كعب (٢) :

سَلِي تُخْبِرِي عَنِّي وَأَنْتِ ذَمِيمَةٌ	غَدَاةَ حُسَيْنٍ وَالرَّمَاحُ شَوَارِعُ
أَلَمْ آتِ أَقْصَى مَا كَرِهْتَ وَلَمْ يُخْلِ	عَلَى غَدَاةِ الرَّوْعِ مَا أَنَا صَانِعُ <sup>(٣)</sup>
مَعِيَ يَزْنِي <sup>(٤)</sup> لَمْ تَخْنَهْ كَعُوبِهِ	وَأَبْيَضُ نَخْشُوبِ الْغِرَارِينِ قَاطِعُ <sup>(٤)</sup>
فَجَرَدَتْهُ فِي عَصَبَةٍ لَيْسَ دِينُهُمْ	بَدِينِي وَإِنِّي بَابُنْ حَرْبٍ لِقَانِعُ <sup>(٥)</sup>

(١) هو برير بن حضير القاري الذي كان يقرئ الناس في المسجد .

(٢) الطبري ٢٤٧/٦ (٣) لم يخل علي : لم يشبهه ولم يشك من أخال الشيء .

إذا أشكل واشتبه . الروع : الحرب .

(٥) يزني : رمح مذروب إلى ذي وزن أحد ملوك حمير . الكعوب : ما بين الأنابيب .

أبيض : سيف . نخشوب الغرارين : مشحوذ الحديد مصقولهما .

(٥) عصبه : جماعة وفرقة والمراد أعوان الحسين بن علي . ابن حرب : معاوية .



ولم ترَ عيني مثْلَهُم في زمانهم ولا قبلهم في الناس إذا أنا يافع<sup>(١)</sup>  
أشدَّ قِراعا بالسيوف لدى الوغى ألا كلُّ مَنْ يَحْمِي الدِّمارَ مُقَارِع<sup>(٢)</sup>  
وقد صبروا للطعن والضرب حُسْرًا وقد نازلوا لو أن ذلك نافع  
فأبلغ عبيد الله إما لقيته بأني مطيعٌ للخليفة سامع  
قلتُ بريرًا ثم حَمَلْتُ نعمة أبا مُنْقِذ لما دعا من يماصع<sup>(٣)</sup>

٤ — وكذلك قال أعشى همدان<sup>(٤)</sup> في مدح الحجاج - مضطرا - لما قضى  
على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ، ما يتضح منه أن خلفاء بني أمية وولانهم يحكمون  
بتفويض من الله ، وأن خصومهم فاسقون :

أبي الله إلا أن يُتَمِّم نوره ويُطفئ نور الفاسقين فيخمدوا  
ويظهرَ أهلُ الحق في كل موطن  
ويُعْدِل وقع السيف من كان أضيذا<sup>(٥)</sup>  
وينزل ذلُّ بالعراق وأهله لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا  
وما أحدثوا من بدعة وعظيمة من القول لم تصعد إلى الله مصعدا  
وما نكثوا من ببيعة بعد بيعة إذا ضمِنوها اليوم خاسوا بها غدا<sup>(٦)</sup>  
فلا صدق في قول ولا صبرَ عندهم ولكن فخرًا فيهم وتزَيُّدا  
فكيف رأيت الله فرَّق جمعهم ومزَّقهم عُرْضَ البلاد وشرَّدا ؟

(١) يافع : غلام . (٢) القراع : المضاربة . (٣) يماصع : يقاتل ويجالد .  
أبو منقذ . رضى بن منقذ العبدى كان قد حمل على برير واعتدكا ساعة ؛ وقعد برير  
على صدره ، فقال رضى : أين أهل المصاع والدفاع ؛ فأسرع إليه كعب بن جابر  
( الطبرى ٢٤٧/٦ ) .

(٤) تاريخ الطبرى ٣٢/٨ لكن الحجاج ضرب عنق الشاعر لأنه كان من أنصار ابن الأشعث .  
(٥) أصيد : متكبر . (٦) خاسوا : غدروا .

فقتلهم قَتَلَى ضلالٍ وفتنةً وحبيهمُ أمسى ذليلاً مُطَرِّداً  
جنودُ أميرِ المؤمنين وخيله وسلطانهُ أمسى عزيزاً مُؤَيِّداً  
فيهنى أمير المؤمنين ظهورهُ على أمة كانوا بُفَاةً وحُسِّداً  
وجدنا بنى مروانَ خير أئمة وأفضلَ هَذِي الناسِ حِلماً وسُودُداً  
وخير قريش في قريش أرومةً وأكرمهم إلا النبيُّ محمداً<sup>(١)</sup>  
إذا ما تدبرنا عواقب أمره وجدنا أمير المؤمنين مسنداً  
سيغالبُ قومٌ غالبوا الله جَهْرَةً وإن كایدوه كان أقوى وأكيداً  
كذاك يضل الله من كان قلبه مريضاً ومن وإلى النفاق والحدأ

٥ — أشاد الشعراء بالمهلب بعد قضائه على الخوارج ، ووصفوهم بالكفر ،  
كقول حبيب بن عوف من قواد المهلب<sup>(٢)</sup> :

أبا سميد جزاك الله صالحاً فقد كفيت ولم تعنف على أحد  
داويت بالحلم أهل الجهل فانقمعوا وكنت كالوالد الحاني على الولد

٦ — وقال الطفيل بن عامر بن وائلة<sup>(٣)</sup> — لما هرب قطري بن الفجاءة  
زعيم الأزارقة من المهلب بن أبي صفرة ، وهزم المهلبُ عبد ربه الكبير وقتله —  
قصيدة وصف فيها عبد ربه بالكفر والضلال :

لقد مس منا عبد ربٍّ وجنَّده عقابٌ فأمس سبيهم في المقاسم  
وما قطريُّ الكفر إلا نعمة طريد يدوى ليله غير نائم  
إذا فرَّ منا هارباً كان وجهه طريقاً سوى قصدِ الهدى والمعالم

(١) أرومة : أصل .

(٢) تهذيب الكامل ٢١٥/١

(٣) الطبري ٢٧٤/٨ .

فليس يُمنّجيه الفرار وإن جرّت به الفلك في لُجٍّ من البحر دائم  
٧ — وقال كعب الأشقرى (١) لما انتصر المهلب على الأزارقة في كِرمَان ،  
مدح المهلب ، ويشيد بنصره ، ويصف الأزارقة بالكفر والحيدة عن الحق وابتداع  
دين جديد يغيّر الأديان السماوية كلها :

واستسلم الناس إذ حل العدو بهم	فما لأمرهم وزدّ ولا صدر
كنا نُهوّن قبل اليوم شأنهم	حتى تفاقم أمرٌ كان يُختقر
لولا المهلب للجيش الذي وردوا	أنهار كرمَان — بعد الله — ما صدروا
إنا اعتصمنا بحبل الله إذ جحدوا	بالمحكّمات ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا	دينا يخالف ما جاءت به النذر

فهو يهّم الخوارج بالضلال ، وأنهم على دين يغيّر الإسلام ، لأنهم كفروا  
بالمحكّمات ، وهي المرادة في قوله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه  
آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ  
فيتبعون ما تشابه منه ؛ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله .  
والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يدكرُ إلا أولو  
الألباب » .

٨ — كان أعشى بن ربيعة الشيباني — عبدالله بن خازجة بن حبيب — مرواني  
المذهب ، شديد التعصب لبني أمية ، تردد على خلفائهم ومدحهم ونال صلاتهم ،  
ولاسيما عبد الملك بن مروان وسليمان بن عبد الملك (٢) .

دخل على عبد الملك وهو يتردد في الخروج لمحاربة ابن الزبير ولا يجده .  
فقال : يا أمير المؤمنين مالي أراك متلوّماً ينهضك الحزم ، ويقعدك العزم ، وتهم  
بالإقدام ، وتجنح إلى الإجماع ، انقذ لنصرتك ، وأمض رأيك ، وتوجه إلى  
عدوك ، فجذك مقبل ، وجذده مذبر ، وأصحابه له ماقتون ، ونحن لك

محبون ، وكلتهم متفرقة ، وكلمتنا عليك مجتمعة . والله ما تؤتى من ضعف جنان ،  
ولا قلة أعوان ، ولا يثبطك عنه ناصح ، ولا يحرضك عليه غاش . وقد  
قلت في ذلك أبياتا . فقال عبد الملك : هاتهما ، فإنك تنطق بلسان ودود وقلب  
ناصح . فقال (١) :

آل الزُّبَيْر من الخلافة كالتى      عَجَل النَّجَاجُ بِحَمَلِهَا فَأَحَالَهَا (٢)  
أو كالضعاف من الحولة حُمِلَتْ      مالا تُطِيقُ فَضِيَعَتُ أَحْمَالِهَا  
قوموا إليهم لا تنـاموا عنهم      كم لَلْغُوَاةِ أَطْلَمَ إِمَاهِهَا  
إن الخلافة فيكم لا فيهم      ما زِلْتُمْ أَكَاهَا وَثِمَالَهَا (٣)  
أمسوا على الخيرات قَفْلا مُغْتَنَما      فَانْهَضْ بِيَمْنِكَ فَافْتَحْ أَقْفَالَهَا

فضحك عبد الملك وقال : صدقت يا أبا عبدالله ، إن أبا خُبَيْبٍ - كنية عبد الله  
ابن الزبير - لقفل دون كل خير ، ولا تتأخر عن مناجزته إن شاء الله ، ونستعين  
الله عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . وأمر له بصلاة سنية .

فهو لا يرى ابن الزبير أهلا للخلافة وبحرض عبد الملك على قتاله ،  
ويؤكد أن الخلافة حق للأُمويين لا للزبيريين ، ويصف ابن الزبير بأنه  
غاو مضل .

٩ — وقال عَدَى بن الرَّقَّاع العاملى (٤) لما سار عبد الملك لقتال مصعب ، بن الزبير  
إن مصعبا منافق ، وإن عبد الملك مؤيد بنصر الله :

لعمري لقد أَصْحَرَتْ خَيْلُنَا      بِأَكْنَفِ دَجَلَةٍ لِلْمُصَّعَّبِ (٥)

(١) الأغاني ١٦/١٦٣ .

(٢) أحالها : صيرها حائلا أى لم تلقح سنة أو سنتين ، أو سنوات

(٣) ثمالها : الثمال الغياث الذى يقوم بأمر قومه .

(٤) الطبرى ٧/١٨١ ومروح الذهب ٢/١٢١ .

(٥) أصحرت : برزت .

يَهْزُونَ كُلَّ طَوِيلٍ الْقَفَا مُعْتَدِلِ الْفَصْلِ وَالثَّغْلَبِ<sup>(١)</sup>  
 إِذَا مَا مَنَافِقُ أَهْلِ الْعَسَا قِ عَوْنِ ثَمَّتَ لَمْ يُعْتَبِ  
 دَلَفْنَا إِلَيْهِ لَدَى مَوْقِفٍ قَلِيلٍ التَّفَقُّدِ لِلْغُيْبِ  
 فَقَدْ مَنَّا وَاضِحٌ وَجْهَهُ كَرِيمُ الضَّرَائِبِ وَالْمَنْصِبِ<sup>(٢)</sup>  
 أُعِينَ بِنَا وَنُصِرْنَا بِهِ وَمَنْ يَنْصُرَ اللَّهَ لَمْ يُفْلَبْ

١٠ — لما انتصر جيش مروان بن الحكم في مرج راهط سنة ٦٤ هـ على جيش عبد الله بن الزبير وأعوانه من قيس وغيرهم ، وقتل من قيس عدداً كثيراً تفجع زفر بن الحارث<sup>(٣)</sup> ، وتوعد كلبا وغيرها .

فرد عليه جَوْاسُ بْنُ الْقُعْطَلِ السَّكَبِيُّ بقوله :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَبَقْتَ وَقِيعةَ رَاهِطٍ عَلَى زُفَرٍ دَاءٍ مِنَ الدَّاءِ بَاقِيَا  
 مُقِيَا نَوَى بَيْنِ الضَّلُوعِ تَحَلُّهُ وَبَيْنَ الْحَشَا أَعْيَا الطَّبِيبِ الْمَدَاوِيَا  
 تُبَكِّي عَلَى قَتْلِي سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ  
 وَذُبْيَانَ مَعْدُورَا وَتُبَكِّي الْبَوَاكِيَا  
 دَعَا بِسِلَاحٍ ثُمَّ أَحْجَمَ إِذَا رَأَى  
 سَيْوْفَ جَنَابٍ وَالطَّوَالَ الْمَذَاكِِيَا<sup>(٤)</sup>  
 عَلَيْهَا كَأَسَدُ الْغَابِ فَتَيَّانَ نَجْدَةٍ  
 إِذَا شَرَعُوا نَحْوَ الطَّعَانِ الْعَوَالِيَا<sup>(٥)</sup>

(١) الثغلب : طرف الرمح الداخل في جبة السنان .

(٢) الضرائب : المراد الأصول . قدمنا : تقدمنا .

(٣) الطبرى ٤١/٦ ومروج الذهب ١٠٧/٢ .

(٤) الطوال المذاكى : الخيل الطويلة التى مضى على قروحها سنة أو سنتان .

(٥) العوالى : الرماح .

ورد عليه عمرو بن مِخْلَةَ السَّكَبِيُّ بقوله :

بَكَى زُفْرُ الْقَيْسَى مِنْ هُلْكَ قَوْمِهِ      بِمَبْرَةِ عَيْنٍ مَا يَجِفُّ سُجُومُهَا <sup>(١)</sup>  
يُبَكِّي شَيْءٌ قَتَلَ أَصِيبَتَ بَرَاهِطِ      تُجْلِبُهَا هَامُ الْقَفَارِ وَبُومُهَا <sup>(٢)</sup>  
يُبَكِّيهِمْ حَرَّانَ تَجْرَى دَمُوعُهُ      يُرَجِّي نَزَارًا أَنْ تَثُوبَ حُلُومُهَا  
فَتُ كَدَاؤُ شِ ذَلِيلًا مَهْضُمًا      بِحَسْرَةِ نَفْسٍ لَا تَنَامُ هُمُومُهَا

١٢ — وَقَالَ نَابِغَةُ بَنِي شَيْبَانَ فِي مَدْحِ عَبْدِ الْمَلِكِ <sup>(٣)</sup> ، وَالْحَمْلَةُ هَلِي

آلِ الزَّيْرِ :

أَزَحْتَ عَنَا آلَ الزَّيْرِ وَلَوْ      كَانُوا هُمُ الْمَالِكِينَ مَا صَلَحُوا  
آلَ أَبِي الْعَاصِ آلُ مَأْثَرَةٍ      غُرٌّ عِتَاقٌ بِالْخَيْرِ قَدْ نَفَّحُوا  
خَيْرَ قَرِيشٍ وَهُمْ أَفْضَلُهَا      فِي الْجِدِّ جِدٌّ وَإِنْ هُمْ مَزَّحُوا  
أَمَّا قَرِيشٌ فَأَنْتَ وَارِثُهَا      تَكْفٌ مِنْ غَرَبِهِمْ إِذَا طَمَعُوا <sup>(٤)</sup>

٣

فِي وَلايَةِ الْمَرْهَدِ

جَارَى الشَّعْرَاءُ السِّيَامَةَ فِي ثَقْلِبِهَا وَدَهَائِمِهَا ، فَأَيَّدُوا الْخَلِيفَةَ فِي اسْتِخْلَافِ مَنْ يَلِيهِ ، وَفِي ثَقْلِ الْبَيْعَةِ مِنْ وَلِيٍّ إِلَى آخِرٍ .

(١) سُجُومُهَا : سِيلَانُ دَمْعِهَا .

(٢) الْهَامُ : جَمْعُ هَامَةٍ وَهِيَ طَائِرٌ مِنْ طَيْرِ اللَّيْلِ .

(٣) الْأَغَانِي ١٠٦/٧ .

(٤) غَرَبِهِمْ : حَدَثُهُمْ وَنَشَاطُهُمْ .



١ — لما أراد معاوية البيعة لابنه يزيد تهيب ، وخاف ألا يرضاه الناس ، لأن فيهم من هو خير منه ، وبلغه في ذلك كلام كرهه من سعيد بن العاص ومروان ابن الحكم وعبد الله بن عامر ، فأوعز هو أو ابنه يزيد إلى مسكين الدارمي أن ينتهز اجتماعهم عند معاوية هم وأشراف بني أمية ، ويذكر بيعة يزيد ويؤيدها . فلما اجتمعوا في مجلس معاوية سنة ٥٦ هـ دخل مسكين الدارمي على معاوية ويزيد عن يمينه وبني أمية حواله وأشراف الناس في مجلسه ، وقال (١) :

إن أدع مسكيناً فاني ابن معشر من الناس أئحى عنهم وأذود

.....

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟  
 بني خلفاء الله مهلاً فإنما يُبَوِّئُهَا الرحمن حيث يريد  
 إذا المنبر الغربي خلاء ربه فإن أمير المؤمنين يزيد  
 على الطائر الميمون والجد صاعد لكل أناس طائر وجدود  
 فلا زلت أعلى الناس كعباً ولا تنزل وفود تُساميها إليك وفود  
 ولا زال بيت الملك فوقك طالبا تُشيد أطناب له وهود  
 قدور ابن حرب كالجوابي وتحتها أئاف كأمثال الرئال ركود (٢)

فقال معاوية : ننظر فيما قلت يا مسكين ، ونستخير الله . ولم يعارض أحد من الحاضرين . ثم وصل معاوية ويزيد مسكيناً وأجزلا الصلة .

٢ — كذلك أراد عبد الملك أن يأخذ البيعة لابنه الوليد ، ويخلع من ولاية العهد أخاه عبد العزيز بن مروان ، فاستعان بالشعر كما استعان معاوية من قبل ، فأشار على نابتة بني شيبان أن يدعو لما يريد عبد الملك ، فقال من قصيدة (٣) :

(١) الأغاني ٧١/٨ .

(٢) الجوابي : جمع جابية وهي الخوض العظيم . الأئاف : جمع أئفية وهي حجر الموقد .

(٣) الأغاني ١٠٦/٧ .

الرئال : جمع رأل وهو ولد النعامة .

(م ١١ — الأدب السياسي)

لَا بُنْكَ أُولَى بِمَلِكٍ وَالِدِهِ وَنَجْمٌ مِّنْ قَدِّ عَصَاكَ مُطَّرَحٌ  
دَاوُدُ عَدْلٌ فَاحْكُم بِسُنَّتِهِ ثُمَّ ابْنُ حَرْبٍ فَإِنَّهُمْ نَصَحُوا

فقال عبد العزيز : لقد أدخل ابن النصرانية نفسه مدخلا ضيقا ، فأوردها  
مورداً خطراً ، والله على لئن ظفرتُ به لأخضبن قدمه بدمه .

٣ — استعان الوليد بن الملك بالشعر في محاولة البيعة لابنه عبد العزيز ، وخلع  
أخيه سليمان ، كما استعان أبوه من قبل ، ولكنه مات قبل أن تتم البيعة .

وفي هذا يقول جرير (١) :

إلى عبد العزيز سَمَتْ عِيُونَ الرِّعَاءِ إِذْ تُخَيِّرَتْ الرِّعَاءُ  
إِلَيْهِ دَعَتْ دَوَاعِيهِ إِذَا مَا عَمَادُ الْمَلِكِ خَرَتْ وَالسَّمَاءُ  
وَقَالَ أُولُو الْحُكُومَةِ مِنْ قَرِيشٍ عَلَيْنَا الْبَيْعُ إِذْ بَلَغَ الْفَلَاءُ  
رَأَوْا عَبْدَ الْعَزِيزِ وَلِيَّ عَهْدٍ وَمَا ظَلَمُوا بِذَلِكَ وَلَا أَسَاءُوا  
فَزَحَلَفَهَا بِأَرْفَلِهَا إِلَيْهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَشَاءُ (٢)  
فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ مَدُّوا إِلَيْهِ أَكْفَهُمْ وَقَدْ بَرَحَ الْخُلَفَاءُ  
وَلَوْ قَدْ بَايَعُوهُ وَلِيَّ عَهْدٍ لَقَامَ الْوِزْنَ وَاعْتَدَلَ الْبُغَاءُ

٤ — وقال جرير في هذه البيعة (٣) :

إِذَا قِيلَ أَيْ النَّاسُ خَيْرُ خَلِيفَةٍ أَشَارَتْ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَصَابِعُ  
رَأَوْهُ أَحَقَّ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِهَا وَمَا ظَلَمُوا إِنْ بَايَعُوهُ وَسَارَعُوا

٥ — وأيد جرير سليمان في الترويج لولاية ابنه أيوب بدلا من أخيه يزيد (٤)

(١) ديوان جرير ٨ والنقائض ٣٥١ .

(٢) زحلقها : ادفعها . أرفلها : كلها .

(٣) الديوان ٣٥٧ .

(٤) الديوان ٣٤ .

## في المهديّة

عرفنا من دراستنا للشيعة أنهم يعتقدون في رجعة المهدي المنتظر ، ليملاّ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وأنهم يدينون بالرجعة منذبث عبد الله بن سبأ زعمه أن علياً لم يمّت ، وأنه سيرجع ، ويكذبون موت بعض أئمّتهم ، وينتظرون عودتهم .

وعرفنا أن عقيدة الرجعة لم تنحصر في دوائر الشيعة ، بل تعدتهم إلى كثير من المسلمين ، حتى لقد راجت الفكرة عند كثير من أهل السنة ، وروج لدعوى مقابلة لها خالد بن يزيد ، إذ ادعى أن السفياّني سيظهر ويرد الحكم إلى البيت السفياّني ، لما سطا على الخلافة مروان بن الحكم ، فانتقلت الخلافة إلى البيت المرواني .

ولعل من الأسباب في ذبوع العقيدة المهديّة بين طوائف المسلمين أنهم استراحوا إليها ، لأنها تعزّيهم عما ينزل بهم من مظالم الحكم ومعاطب الفرقة والثورات التي لا تخمد نارها .

وقد تأثر بعض شعراء البيت الأموي بعقيدة المهديّة التي كانت من معالم الشيعة في أول الأمر ، فوصف بعضهم الخليفة الأموي بأنه المهدي المنتظر ، وعزا إليه صفات روحية مثل التي عزاها الشيعة إلى أئمّتهم

وقد يكون مرد هذا إلى أنه نوع من مقابلة الدعوى بمثلها ، فإذا كان شعراء الشيعة أو دعاة السفياّنية يتوقعون مجيء إمام منهم يملأ الأرض عدلاً ، فإن شعراء البيت المرواني الأموي لا يتوقعون مجيئه فحسب ، بل يقررون أنه هو الخليفة القائم ، وبهذا يوقعون اليأس في قلوب الشيعة وقلوب الذين يميلون إلى عقيدتهم في رجعة الإمام ، ويؤثسون دعاة السفياّنية ، فتضعف قوة هؤلاء وهؤلاء ، وتفتقر حماسهم ، وتهدأ ثوراتهم .

١ — من ذلك قول الفرزدق<sup>(١)</sup> في سليمان بن عبد الملك إنه المهدي الذي ذكرته التوراة ، وبشرت به القسس ، وإن خلافته خير ونعمة وعزة للإسلام والمسلمين :

أنت الذي نعت الكتاب لنا في ناطق التوراة والزبور  
كم كان من قسٍ يُخبرنا بخلافة المهدي أو خبر<sup>(٢)</sup>  
جعل الإله لنا خلافة — براء القروح وعصمة الجبر  
كم حل عنا عدلُ سُنَّته من مغرمٍ ثقلٍ ومن إصر<sup>(٣)</sup>

٢ — وقول جرير<sup>(٤)</sup> في سليمان أيضا يصفه بالعدل ، وبأنه المهدي الذي يجبر من الظلم ، وينفذ الشريعة :

سليمانُ المباركُ قد علم هو المهديُّ قد وضح السبيل  
أجرت من المظالم كل نفسٍ وأدبت الذي عهدَ الرسول  
صفت لك بيعةً بثبات عهد فوزنُ للعدل أصبح لا يميل

٣ — ولما أراد سليمان أن يعهد إلى ابنه أيوب بدلا من أخيه يزيد أيد جرير<sup>(٥)</sup> الفكرة ، ووصف سليمان وابنه بأنهما إمامان ، يستمدان الحكم من الله ، فهما خيلفتاه في الأرض كما يعرف أهل الزبور وأهل التوراة :

إن الإمام الذي تُرجى نوافله بعد الإمام وليُّ العهد أيوبُ  
الله أعطاكم من علمه بكم حُكما وما بعد حكم الله تنقيب  
أنت الخليفة للرحمن يعرفه أهلُ الزبور وفي التوراة مكتوب  
كونوا كيوسف لما جاء إخوته واستمعروا قال : ما في اليوم تريب  
الله فضله والله وفقه — توفيق يوسف إذ وصاه يعقوب

(١) ديوان الفرزدق ٣٢٧ .

(٢) خبر : عالم أو صالح .

(٣) إصر : ذنب .

(٤) الديوان ٤٣٢

(٥) الديوان ٣٤ .

٤ — وفي مدح جرير<sup>(١)</sup> لهشام بن عبد الملك تكرير للفسكرة نفسها ، فقد وصف هشاماً بأنه المهدي الذي يعتصم به الناس ، ويستمطرون ، وبأنه مؤيد من الله ، وبأن المسلمين أطاعوه راضين لأنه إمامهم ، وقد تباشروا بحكمه ، لأنه عزه للدين وتنفيذاً لتعاليمه :

إلى المهدي نزع إن فرعنا ونستقي بفرضته الفـماما  
وحبلُ الله تمصمكم قواه فلا نخشى لعروته انقصاما  
رضينا بالخليفة حين كنا له تبعاً وكان لنا إماما  
تباشرت البلاد لكم بحكم أقام لنا الفرائض واستقاما

— ٥ —

## مع الولاية

أقام بنو أمية في الأمصار والأقاليم ولاية من قبلهم ، ينوبون عنهم في الحكم ، ويقود بعضهم الجيوش في الفتح ، وإخماد الثورات .

وقد عظمت مكانة بعضهم ، حتى قصدهم الشعراء ، فمدحوهم ، ونالوا جوائزهم . وأعجب الشعراء بالقواد الذين أرسوا قواعد الملك ، وحموه من الصدع بانتصارهم على الثأرين ، وبتوغلهم في الفتح .

١ — مدح حارثة بن بدر زيادا بأنه نعم أخو الخليفة ووزيره ، لأنه حاكم عادل حازم ماهر في تصريف الأمور ، وقال إنه مؤيد بنصر الله ، وبأنه يلتزم حدود الله ، وإن حكمه خير على الناس ؛ لأنهم ينعمون في عهده بالثراء والأمن والمساواة . ثم وصفه بأنه كالطر الذي ينزل على الأرض العطشى فيحييها ، وقال إنه تولى الحكم في زمن فسد ناسه ، وتفاقت شرورهم ، فاستطاع أن يقر الأمن والعدل بسيفه . وصماه سيف الله ، ووصفه بأنه قوى ماض مجرب مبرأ من طيش الفتیان ومن ضعف الشيوخ :

قال حارثة (١) :

ألا من مُبلغٌ عني زيادا      فنعم أخو الخليفة والأمير  
فأنت إمام مَقْدِلَةٍ وقَصْد      وحزم حين تحضرك الأمور  
أخوك خليفةُ الله ابن حرب      وأنت وزيره نعم الوزير  
تصيب على الهوى منه ويأتي      محبتك ما يَجُنُّ لنا الضمير  
بأمر الله منصور مُعانٌ      إذا جار الرعية لا تجور  
يَدِرُّ على يدك لما أرادوا      من الدنيا لهم حَلَبٌ غزير  
وتَقْسِمُ بالسَّوءِ فلا غنى      لضميرٍ يشتكيك ولا فقير  
وكنت حياً وجئت على زمان      خبيثٍ ، ظاهرٌ فيه شرور  
تقاسمت الرجالُ به هواها      فما تُخفي صفائنها للصدور  
وخاف الحاضرون ، وكلُّ بادٍ      يقيم على الخفاة أويسير  
فلما قام سيف الله فيهم      زيادٌ قام أبلجٌ مستنير  
قوى لا من الحِذْنانِ غِرٌّ      ولا جَزِعٌ ولا فانٍ كبير<sup>(٢)</sup>

٢ — مدح الخطيئة والى المدينة لمعاوية سعيد بن العاص بهذه القصيدة ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، ثم أنشده قصيدة أخرى فأعطاه عشرة آلاف أخرى . وكان سعيد سيذا ماجدا كريما ، يقصده الشعراء وطلاب العطاء<sup>(٢)</sup> . والخطيئة في مدحه لسعيد يذكرنا بمدائح الشعراء الجاهليين للأُمراء والأشراف ، لأنه لم يعرض في مدحه لأية فضيلة مما أكسبه الإسلام للناس ، أو مما يوجبه الإسلام على الولاة والحكام :

لعمرى لقد أمسى على الأرض سائسٌ      بصيرٌ بما ضرَّ العدوَّ أريبٌ

(١) الطبري ١٢٦/٦ (٢) الحدثنان : جمع حدث وهو الفتى .

(٢) الأغانى ٣٩/١٦ .



جَرَى عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَرْءَ صَدْرَهُ وَلِلْفَاحِشَاتِ الْمُنْدِرِيَّاتِ هَيُوبٌ<sup>(١)</sup>  
 سَعِيدٌ وَمَا يَفْعَلُ سَعِيدٌ فَإِنَّهُ نَجِيبٌ<sup>(٢)</sup> فَلَاهُ فِي الرِّبَاطِ نَجِيبٌ<sup>(٢)</sup>  
 سَعِيدٌ فَلَا تَفَرُّرُكَ خَفِةٌ لِحْمِهِ تَخَدَّدَ عَنْهُ اللَّحْمُ وَهُوَ صَلِيبٌ  
 إِذَا خَافَ إِصْعَادًا مِنَ الْأَمْرِ صَدْرُهُ عَلَاهُ فَبَاتَ الْأَمْرُ وَهُوَ رَكُوبٌ  
 إِذَا غَابَ عَنْهَا غَابَ عَنْهَا رَبِيعُنَا وَنُسُقِيَ الْغَمَامَ الْفَرْحَ حِينَ يَثُوبُ  
 فَتَنَمُ الْفَتَى تَعَشُّوْا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ إِذَا الرِّيحُ هَبَّتْ وَالْمَسْكَنُ جَدِيبٌ<sup>(٣)</sup>

٣ — كَانَ الْعَدِيلُ بْنُ الْفَرَّخِ قَدْ هَجَا الْحِجَابَ ، وَمَدَحَ يُزَيْدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ ،  
 فَلَجَّ الْحِجَابَ فِي طَلَبِهِ ، فَتَوَسَّطَ الْعَدِيلُ بِيَكْرَ بْنَ وَائِلٍ ، فَشَفَعُوا فِيهِ ، فَمَدَحَ الْحِجَابَ  
 بِأَنَّهُ اسْتَلَّ سَيْفَهُ لِنَصْرَةِ الْحَقِّ وَحِمَايَتِهِ ، وَأَهَابَ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ أَنْ يَهْبُوا لِنَصْرَتِهِ  
 عَلَى الثَّوَارِ ، وَقَالَ إِنَّ الْحِجَابَ جَبَّارٌ عَلَى أَهْلِ الْفِتَنِ ، يَقْظُ لِمُؤَامِرَاتِ الثَّائِرِينَ ، فَهُمْ  
 فِي رَهْبَةٍ وَاضْطِرَابٍ ، كَأَنَّ بَيْنَ ضُلُوعِ كُلِّ مِنْهُمْ قِطَاعَةً تَحَاوِلُ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ حَبَالَتِهَا ،  
 لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ عَيْنَهُ سَاهِيَةٌ يَقْظَةُ يَرْقُبُهُمْ بِهَا ، كَالصَّقْرِ الَّذِي يَرْقُبُ الطَّيْرَ وَهُوَ  
 عَلَى نَشْرٍ :

دَعُّوا الْجَبِينَ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ فَإِنَّمَا يُهَانُ وَيُسَيَّى كُلُّ مَنْ لَا يِقَاتِلُ  
 لَقَدْ جَرَّدَ الْحِجَابَ لِلْحَقِّ سَيْفَهُ أَلَا فَاسْتَقِيمُوا ، لَا يَمِيلُنَّ مَائِلٌ  
 وَخَافُوهُ ، حَتَّى الْقَوْمَ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ  
 كَنَزُوا الْقِطَاعَ ضُمَّتْ عَلَيْهِ الْحَبَائِلُ<sup>(٤)</sup>  
 وَأَصْبَحَ كَالْبَازِي يُقَابُ طَرَفَهُ عَلَى مَرْقَبٍ وَالطَّيْرُ مِنْهُ رَوَاحِلُ<sup>(٥)</sup>

(١) يَكْرَهُ صَدْرَهُ : يَكْرَهُ لِقَاءَهُ وَمُوَاجَهَتَهُ .

(٢) نَجِيبٌ : كَرِيمٌ حَسِيبٌ . فَلَاهُ : فَطْمَهُ وَالْمَرَادُ اخْتَارَهُ وَرَبَاهُ .

(٣) تَعَشُّوْا إِلَى نَارِهِ : تَقْصِدُهَا فِي اللَّيْلِ مِنْ بَعِيدٍ .

(٤) نَزَرُ الْقِطَاعَ : وَثَبَهَا وَقَفَّزَهَا . الْحَبَائِلُ : الشَّبَاكُ .

(٥) الْبَازِي : الصَّقْرُ .

٤ — وقال أيضاً :

فلو كنتُ في سَلَمَى أَجَا وشِمْابِهَا	لَسَكَانَ الْحِجَاكِ عَلَى دَلِيلٍ <sup>(١)</sup>
بَنَى قِبَةَ الْإِسْلَامِ حَتَّى كَأَنَّمَا	هَدَى النَّاسَ مِنْ بَعْدِ الضَّلَالِ رَسُولٌ
إِذَا جَارَ حُكْمُ النَّاسِ أَلْجَأَ حُكْمَهُ	إِلَى اللَّهِ، قَاضٍ بِالْكِتَابِ عَقُولَ <sup>(٢)</sup>
خَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيْفُهُ	لِكُلِّ إِمَامٍ صَاحِبٌ وَخَلِيلٌ
بِهِ نَصَرَ اللَّهُ الْخُلَيفَةَ مِنْهُمْ	وَتَبَّتْ مُلُوكًا كَادَ عَنْهُ يَزُولُ
فَأَنْتَ كَسَيْفِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ خَالِدٌ	تَصُولُ بِعَوْنِ اللَّهِ حِينَ تَصُولُ
إِذَا مَا أَتَتْ بَابَ ابْنِ يُوسُفَ نَاقَتِي	أَتَتْ خَيْرَ مَنَزُولٍ بِهِ وَنَزِيلِ
وَمَا خَفْتُ شَيْئًا غَيْرَ رَبِّي وَحْدَهُ	إِذَا مَا أَتَتْ حَيَاتِ النَّفْسِ كَيْفَ أَقُولُ
تَرَى الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ أَصْبَحَا	عَلَى طَاعَةِ الْحِجَاكِ حِينَ يَصُولُ

لقد كان الشاعر فيما مضى يستهين بسهولة الحجاج ، لأن يده لن تناله كما قال .  
أما الآن بعد أن ضاقت به الأرض ، ونبا به كل مهرب ، فإنه مستسلم إلى أن  
الحجاج لن يفلت من يده هارب ، ويقول إنه لو فر إلى نجد واختبأ في الجبل  
لكان للحجاج عليه دليل ، ثم يمدحه بفضائل شتى .

• — قال جرير في مدح الحجاج<sup>(٣)</sup> إنه أحمد نار المنافقين ، وأقر العدل ،  
ومنع الرشا ، وقضى على اللصوص ، وآمن الحجاج في طرقاتهم :

مَنْ سَدَّ مَطْلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْكُمْ	أَمْ مِنْ يَصُولُ كَهَوْلَةِ الْحِجَاكِ ؟
إِنْ ابْنُ يُوسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا	مَاضِيَ الْبَصِيرَةِ وَاضِحُ الْمَنَاجِ
مَاضٍ عَلَى الْغَمَرَاتِ يُمَضِي هَمَّهُ	وَاللَّيْلُ مُخْتَلِفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي <sup>(٤)</sup>

(١) سلمى أجَا : سلمى جبلاطية في نجد .

(٢) الجأ حكمه إلى الله : استنده إليه وأستنده من أحكامه . عقول : كثير التعقل .

(٣) ديوان جرير ٩٠ (٤) الغمرات : الشدائد . داج : مظلم .

مَنَعَ الرِّشَا وَأَرَاكُمْ سُبُلَ الْهُدَى  
وَالْأَصْرَ نَكَّالَهُ عَنْ الْإِدْلَاجِ<sup>(١)</sup>  
وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مَنَافِقٍ وَلَقَدْ مَنَعْتَ حَقَائِبَ الْحُجَّاجِ<sup>(٢)</sup>

٦ — وكذلك مدح الفرزدق<sup>(٣)</sup> الحجاج بمثل ما مدحه به جرير :  
وَلَمْ أَرَ كَالْحُجَّاجِ عَوْنًا عَلَى التُّقَى وَلَا طَالِبًا يَوْمًا طَرِيدَةً تَابِلِ<sup>(٤)</sup>  
بَسِيفٍ بِهِ اللَّهُ تَضْرِبُ مَنْ عَصَى  
عَلَى قَهَرِ الْأَعْنَاقِ فَوْقَ الْكَوَاهِلِ<sup>(٥)</sup>  
شَفِيتَ مِنَ الدَّاءِ الْعِرَاقَ فَلَمْ تَدَعْ بِهِ رِبِيَّةً بَعْدَ اصْطِفَاقِ الزَّلَازِلِ<sup>(٦)</sup>  
وَكُنَّا بِأَرْضِ يَابَنْ يَوْسَفَ لَمْ يَكُنْ يَبَالِي بِهَا مَا يَرْتَشِي كُلُّ عَامِلٍ  
وَمَا تُبْتَفَى الْحَاجَاتُ عِنْدَكَ بِالرِّشَا  
وَلَا تَقْتَضَى إِلَّا بِمَا فِي الرِّسَائِلِ  
وَمَا النَّاسُ إِلَّا فِي سَبِيلَيْنِ مِنْهُمَا سَبِيلٌ لِحَقٍّ أَوْ سَبِيلٌ لِبَاطِلٍ

٧ — لازم أيمن بن مُخَرِّم عبد العزيز بن مروان والى مصر مدة ، ثم دخل  
يوما نصيب ، فأنشد عبد العزيز قصيدة امتدحه بها ، فأعجبه ، فأقبل على أيمن  
فقال : كيف ترى شعر مولاي هذا ؟ قال أيمن : هو أشعر أهل جلدته . قال  
عبد العزيز : هو أشعر منك . فاستأذنه أيمن ، وانصرف إلى بشر بن مروان ،  
ومدحه بقوله<sup>(٧)</sup> :

رَكِبْتُ مِنَ الْمُقَطَّمِ فِي جِمَادَى إِلَى بَشْرِ بْنِ مَرْوَانَ الْبَرِيدَا

(٢) منعت ... : حيت أموالهم من السلب .

(٤) طريدة تابل : هاربا من ثار .

(٦) اصطفاق الزلازل : اضطرابه الفتن .

(١) الإدلاج : السرى .

(٣) ديوان الفرزدق ٦٩٥ .

(٥) القصر : الأعناق .

(٧) الأغاني ٨/٢١ .

ولو أعطاك بشر ألف ألف رأى حقا عليه أن يزيدا  
أمير المؤمنين أقم ببشر عهود الدين إن له عهودا  
ودع بشرا يقوّمهم ويحدث لأهل الزئير إسلاما جديدا

٨ — أشاد الشعراء بالقواد الفاتحين منذ عهد معاوية إلى أن تواكل المسلمون  
عن الفتح ، فنوهوا بمهارتهم وشجاعتهم وحسن بلائهم ، وتباهوا بالنصر وسعة  
الملك ، ووصفوا بعض ما شاهدوا في البلاد المفتوحة ، فإذا كانت هزيمة حزنوا ،  
وإذا ما دبت فرقة بين العرب الفاتحين دعوهم إلى الوثام ، وحذروهم جرائر الانقسام.  
وفي كتب التاريخ ولا سيما الطبرى كثير من الأمثلة .

منها قول الأشقرى في فتح سمرقند على يد قتيبة بن مسلم الباهلى :

كل يوم يحوى قتيبة نهبا      ويزيد الأموال مالا جديدا  
باهلى قد ألبس التاج حتى      شاب منه مفارق كن سودا  
دوخ السغد بالكائب حتى      ترك السغد بالمرء قمودا  
كلما حلّ بلدة أو أتاها      تركت خيله بها أخذودا

## على الولاية

هنالك ضرب آخر من الشعر ، لا يشيد بولاية بنى أمية ، وإنما يحمل عليهم ،  
ويقبّح سياستهم ، وبعضه شكوى للخليفة منهم ومن جورهم .

١ — فالعدّيل بن الفرّخ هجا الحجاج ، واستهان بوعيده ، في قوله (١) :  
أخوف بالحجاج حتى كأنما      يُحرّك عظم في الفؤاد مهيض (٢)

(١) الأغاني ١١/٢٠ وتهذيب الكامل ١/١٧٨ .

(٢) مهيض : مكسور .

وَدُونَ يَدِ الْحِجَاجِ مَنْ أَنْ تَفَالَى بِسَاطِ الْأَيْدِي النَّاعِمَاتِ هَرِيضِ<sup>(١)</sup>  
مَهَامِهِ أَشْهَاءُ كَأَنَّ مَرَابِهَا  
مُلَاءَ بِأَيْدِي الْفَاسِلَاتِ رَحِيضِ<sup>(٢)</sup>

٢ - وحمل عليه في قصيدة مدح بهار يزيد بن المهلب<sup>(٣)</sup> :

لَنْ أَرْتَجِ الْحِجَاجَ بِالْبُخْلِ بَابِهِ  
فَبَابُ الْفَتَى الْأَزْدِيِّ بِالْعُرْفِ يُفْتَحُ  
وَأَيْسَ كَعِلْجٍ مِنْ ثَمُودَ بِكَفِّهِ  
مَنْ الْجُودَ وَالْمَعْرُوفَ حَزْمٌ مُطَرَّحُ<sup>(٤)</sup>

لكن هذا الشاعر آثر السلامة ، فاستشفع إلى الحجاج بيكر بن وائل ،  
ومدحه كما سبق .

٣ - وهناك شعراء آخرون لم يكونوا من أصحاب المذاهب والأحزاب ،  
هجموا الحجاج وهربوا منه ، مثل مالك بن الرُّبَيْبِ اللَّازِنِي الْقَائِلُ<sup>(٥)</sup> :

إِنْ تَنْصَفُونَا يَا لَ مَرْوَانَ نَقْتَرِبَ إِلَيْكُمْ وَإِلَّا فَأَذْنُوا بِيَعَادِ  
فَإِنْ لَنَا عَنْكُمْ مَزَاحًا وَمَرْحَلًا بَعِيسٍ إِلَى رِيحِ الْفَلَاةِ صَوَادِي  
فَفِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْمَذَلَّةِ مَذْهَبٌ وَكُلُّ بِلَادٍ أَوْ طِنَتْ كِبْلَادِي  
فَمَاذَا تَرَى الْحِجَاجَ يَبْلُغُ جَهْدَهُ إِذَا نَحْنُ جَاوِزْنَا حَفِيرَ زِيَادٍ؟  
فَلَوْلَا بَنُو مَرْوَانَ كَانَ ابْنُ يَوْسَفَ كَمَا كَانَ عُبْدًا مِنْ عُبَيْدِ إِيَادٍ

(١) الناعجات : النوق البيض السريعة .

(٢) مهامه : صحارى . رحيز : مفسول .

(٣) الأغاني ٢٠ / ١١ (٤) الفتى الأزدي : يزيد بن المهلب . العالج : العير والحرار

وحمار الوحش السمين والكافر من العجم . من ثمود : راجع ترجمة الحجاج في هذا الكتاب  
لتعلم أن في نسبه أقوالا منها أنه من قبيلة ثمود .

(٥) تهذيب الكامل ١ / ١٨١

زَمانَ هو العبد المقرُّ بذلة يراوح صبيان القرى وينادى<sup>(١)</sup>

٤ — والراعى يشكو بلسان قومه بنى نعيم إلى عبد الملك بن مروان من جياة الصدقات ، فى قصيدة<sup>(٢)</sup> ، منها :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة تشكو إليك مَضَلَّةً وعويلاً  
أخليفةَ الرحمان إنا معشر حُنفاء نسجد بكرةً وأصيلاً  
عُربٌ نرى لله فى أموالنا حق الزكاة مُنزَلاً تنزيلاً  
إن السَّماة عصوك يوم أمرتهم وأتوا دواهى لو علمتَ وغُولاً<sup>(٣)</sup>  
أخذوا العريفَ فقَطَمُوا حيزومه بالأصْبَحِيَّةِ قائماً مغلُولاً<sup>(٤)</sup>  
إن الذين أمرتهم أن يعدلوا لم يفعلوا مما أمرت فتيلاً<sup>(٥)</sup>  
فادفع مظالم عيَّلتَ أبناءنا عنا وأنقِذْ شِلُونَا المأكُولاً<sup>(٦)</sup>

٥ — قال كعب بن معدان الأشقرى لعمر بن عبد العزيز ، يحضه على ردع الظلمة من عماله<sup>(٧)</sup> :

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما عُمالُ أرضك بالبلاد ذئاب  
لن يستجيبوا لاذى تدعو له حتى تُجلِّدَ بالسيوف رقاب<sup>(٨)</sup>  
بأَكفٍ مُنْصَلَتَيْنِ أهل بصائر فى وقعهن مَزاجِرٌ وعِقاب<sup>(٩)</sup>

(١) يراوح صبيان القرى : لأنه كان هو وأخوه أو أبوه معلمين بالطائف و راجع ترجمته .

(٢) جهرة أشعار العرب للقرشى ٣٥٥ . (٣) الفول : الهلكة والداهية .

(٤) العريف : شيخ القبيلة . حيزومه : وسطه . الأصبحية : جمع أصبحى وهو السوط نسبة إلى ذى أصبح وهو ملك يمنى .

(٥) الفتيل : خيط فى شق الزواة والمراد أنفه شىء .

(٦) عيَّلت : أجاعت . شلوا : عضوا . (٧) البيان والتبيين ٣ / ٣٥٨ .

(٨) تجلِّد : تضرب وأصل الجلد والتجليد ضرب الجلد .

(٩) متصلتين : ما ضين فى الأمور . أهل بصائر : البصائر : جمع بصيرة ومن معانيها الثَّأر وكل ما يلبس من السلاح . وقعهن : الضمير عائد على السيوف .



٦ — وقال له شاعر آخر (١) :

إن الدين بَعَثَتْ في أقطارها      نَبَذُوا كِتَابَكَ واستَحِلُّوا المَحْرَمُ  
طَلَسُ الثِيَابِ على منابر أرضنا      كلُّ يَجُورُ وكلهم يَتَظَلَمُ (٢)  
وأردت أن يَلِيَ الأمانة منهم      عَدْلٌ ، وهيئات الأُمِينِ المسلم

## خواص شعر الأمويين

— ١ —

### السياسة الدبلوماسية

أما موضوع هذا الشعر ومجالاته فهو السياسة بمعناها الكامل .

فقد تناول الشعراء في قصائدهم ما يتصل بالصراع الناشب بين الأمويين وخصومهم ، وتناولوا أيضا ما يتصل بالسياسة الأموية نفسها .

ونستطيع أن نجمل المظاهر السياسية في عدة ضروب :

١ — حاول كثير من شعرائهم أن يضيفوا على خلائقهم هالة من الدين ، فلهجوا بأنهم الحكام الذين اختارهم الله لخلائقته على المسلمين ، وأيدهم بنصره ؛ لأنهم أفضل العرب وأجدرها بالحكم .

ووصفهم آخرون بأنهم يقتفون في حكمهم سنن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبأنهم القوام على حماية الإسلام ، وأيدهم آخرون بأنهم ورثة عثمان .

تجد هذا في قول المعجاج يمدح يزيد بن معاوية :

إن زُلِزِلَ الأَقْوَامُ لم تُزَلِّزْ      عن دين موسى والرسول المرسل  
وكنت سيف الله لم يُقَالْ      يفرع أحيانا وحيفا يختلي

(١) البيان والتبيين ٣ / ٣٥٩ .

(٢) طلس الثياب : ثيابهم مغبرة ، يريد أنها قد ذرة كناية عن عدم العفة . يتظلم : يظلم .

وفي قول جرير :

يا آل مروان إن الله فضلكم فضلا عظيما على من دينه البدع

وهو يريد بأهل البدع منافسي بني أمية من شيعة وخوارج وزبيريين .

وفي قول الأحوص يمدح الوليد بن عبد الملك :

تخير رب العباد خلقه وليا وكان الله بالناس أعلما

وفي قول الأخطل :

وأنتم أهل بيت لا يوازنهم بيت إذا عدت الأحساب والعدد

وبالغ الفرزدق فزعم أن الله اصطفاهم للخلافة ، وأنه لو كان بعد النبي نبي لكان يزيد هو النبي ، ودعاه بأنه خليل الله :

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبي لهم منهم لأمر العزائم

لكن الذي يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظام

ورثتم - خليل الله - كل خزانة وكل كتاب بالنبوة قائم

٢ - وحملوا على خصومهم جميعا ، وكفروهم ، لأنهم - في رأيهم -

عصاة للحكام المختارين ، منشقون على الجماعة ، مقوضون للوحدة .

فأعشى همدان في مدحه للحجاج يصف ابن الأشعث بالكفر :

أبي الله إلا أن يتم نوره ويعطى نور الفاسقين فيخمدوا

وينزل ذل بالعراق وأهله لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا

فقتلهم قتلى ضلال وفتنة وحيثهم أمسى ذليلا مطردا

والطفيل بن عامر يصف الخوارج بالكفر في قوله :

وما قطري الكفر إلا نعمة طريد يدوي ليله غير نائم

وكعب الأشقرى يقول فيهم :

إنا اعتصمنا بحبل الله إذ جحدوا بالمحكّمات ولم نكفر كما كفروا  
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا ديننا يخالف ما جاءت به النذر

وأعشى ربيعة يصف الزيريين بأنهم غواة :

قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتم إمهالها

ويصفهم عدى بن الرقاع بالنفاق :

إذا ما منافق أهل العرا ق عوتب ثمت لم يعتب

والفرزدق يقول إن ابن الزير كذاب :

بعد الفساد الذي قد كان قام به كذاب مكة من مكر وتخریب

وكعب بن جابر الأزدي يقول إن الحسين وأتباعه على دين غير دين الشاعر  
وبني أمية :

معي يزني لم تخذه كعوبه وأبيض مخشوب الغرار بن قاطع

فجذته في عصابة ليس دينهم بدني وإني بابن حرب لقانع

٣ — وشارك بعضهم في السياسة الأموية نفسها ، فناصر أميرا على أمير ،

وعضد الخليفة في تنحية العهد عن ولي إلى آخر ، كما ترى في ترويح مسكين الدارمي

ليعة يزيد ، وفي تأييد نابغة بني شيان لعبد الملك إذ أراد خلع أخيه وتولية ابنه ،

وفي مؤازرة جرير للوليد بن عبد الملك في خلع أخيه وتولية ابنه .

٤ — وفي شعر بعضهم ادعاء بأن الخليفة الأموي هو المهدي المنتظر الذي جاء

لينشر راية العدل والسلام بين الناس ، إما لأنهم قد تأثروا بعقيدة الشيعة كما تأثر

بها كثير من المسلمين ، وإما لأنهم يردون على دعوى الشيعة بمثلها ، ويؤثسونهم

ويؤثسون من تأثروا بهم من رجعة إمام شيعي ، ليضعفوا حماسهم ، ويقوضوا أملهم ،

ويستريحوا من ثوراتهم .

وقد سبقت أمثلة من ذلك للفرزدق وجرير .

٥ — على أن شعراء السياسة جالوا في ميدان آخر يتصل بالولاء و قواد ،

فتارة يمدحونهم ويخيلون بهم ، كما سبق في مدحة حارثة بن بدر لزياد ، وفي مدح كعب الأشقرى لقتيبة بن مسلم ، وفي مدح جرير للحجاج<sup>(١)</sup> .

وتارة يشكون منهم إلى الخلفاء ، أو يحملون عليهم ويهجونهم ، كما سبق في هجاء العدّيل بن الفرخ ومالك بن الرّيب للحجاج ، وفي نصح كعب بن معدان الأشقرى لعمر بن عبد العزيز أن يتدارك عماله الجائرين .

وفي ديوان الفرزدق هجاء مقذع لزياد والحجاج وغيرها .

## - ٢ -

### غلبة المظهر السياسى على الدينى

ليس في احتجاجهم تدليل على استعقاق بنى أمية للخلافة معتمدًا على الدين أو المنطق ، كالذى نجد في شعر الشيعة بخاصة .

لهذا جعلوا يشيدون بأن الله اختارهم وآزرهم ، وجعلوا يصفونهم بأنهم حراس على الدين ، وبأنهم أفضل قريش .

وهذه دعاوى خطاية ، لاسند لها من الدين نفسه ، ولا من المنطق .

ثم أكثروا من وصف الخلفاء وولاتهم وقوادهم بالمقدرة على سياسة الرعية ، والبراعة في تدبير شئون الملك ، والقضاء على الفتن والثورات ، ووصفهم بالشجاعة والكرم ، وأشادوا بمظاهر عظمتهم ومجدهم في الجاهلية والإسلام .

وإذا فالطابع العام لشعرهم يغلب فيه المظهر الملكى السياسى على المظهر الدينى .

ولعل السبب في هذا أن بنى أمية لم يقيموا ملكهم على أساس دينى يستمدون منه حقهم في الحكم ، كما فعل الشيعة والحوارج والزيريون .

---

(١) ديوان جرير ١٦ ، ٨٩ ، ١٢٠ ، ٣٩٧ ، ٣٤٩ .

أما الشيعة فقد اعتمدوا على أن الرسول أوصى لعلي أن يخلفه وهم ورثة علي .  
وأما الحوارج فقد احتجوا بأن الإسلام دين المساواة ، فلا يصح أن تنحصر  
الخلافة في قريش .

وأما الزيريون فقد ثاروا على معاوية ويزيد وعبد الملك ، لأن معاوية خالف  
الدين ، فعهد إلى ابنه ، وصير الخلافة كسروية أو قيصرية ، واستأثر بغير المسلمين ،  
وآثر به أهله ، على حين أن ابن الزير أولى بالخلافة من يزيد .

ويظهر أن ذلك كان أحد الأسباب في أن خلفاء بني أمية - ماعدا عمر بن عبدالعزيز -  
أولوا الشئون السياسية والحربية والإدارية همهم ، ولم يحفلوا كثيرا بعلماء الدين .

نعم إنهم تركوا رجال الدين أحراراً في تدريسهم وفي فتاواهم ، وتركوا القضاة  
أحراراً في أحكامهم وفي قضاياهم ، لكنهم قلما قرَّبوا العلماء إليهم ، ووثقوا صلتهم  
بهم ، كما فعلوا مع الزهري ، حتى ليخيل إلى الدارس أن هناك سلطتين منفصلتين ،  
سلطة سياسية حاكمة توليها الخلفاء وولاتهم ، وسلطة دينية نهض بها العلماء  
والقضاة

ولقد يزداد هذا وضوحاً إذا ما خطونا إلى العصر العباسي ، ووازننا بين الحالين ،  
ذلك أن العباسيين أقاموا ملكهم على أساس ديني ، وصبغوا خلافتهم صبغة دينية ،  
فكان اتصال الخلفاء برجال الدين وثيقاً ، فقد قرب أبو جعفر المنصور علماء الدين  
وأكرمهم ووصلهم ، وحمل المهدي على الزنادقة وجداً في تعقبهم والتسكيل بهم ،  
وإصطفى الرشيد أبا يوسف للاستشارة بآرائه ، وأجهد المأمون نفسه في مناصرة  
المعتزلة في القول بخلق القرآن ، واشتهر بمناقشاته للعلماء ومناظرتهم .

ومن هنا اصطبغت سياستهم بالدين ، وظهر أثرهم قويا في التشريع « فنظام  
الري ، ونظام الضرائب ، وحفر الترع ، وجباية الأموال ، ونظام الدواوين ،  
كلها مسائل دينية يؤلف فيها أبو يوسف القاضي كتابه الخراج ، وبُستَفَتِي  
فيها الفقهاء ، ويجهدون فيها اجتهادا دينيا . وهكذا كل مادق من الأمور وعظم  
( م ١٢ — الأدب السياسي )

مرجعه فتوى المفتين وقضاء رجال الدين . وهذا من غير شك يجعل مهمة الفقهاء شاقة واسعة النطاق « (١) .

— ٣ —

أصراء دينية :

صاغ بعض شعرائهم مدائحهم وحملاتهم على الخصوم بألوان دينية (٢) . ولهذا وصفوا الخلفاء والولاة بأنهم القائمون على صياغة الإسلام ، ورعاية مصالح الشعب ، وتحقيق العدل والمساواة بين الناس ، والسهر على الأمن ، والضرب على أيدي المفسدين والتأثرين واللصوص والمرتشين ، ومدحهم بالتقوى وتلاوة القرآن والحفاظ على سنة الرسول ، والزهد في متع الحياة .

ووصفوا خصومهم بالكفر والنفاق والضلال والكذب والإفساد في الأرض ، وهذا كله تجديد مبعثه الإسلام :

نجد هذا في مدح حارثة بن بدر لزياد :

فأنت إمام ممدلة وقصدٍ وحزم حين تحضرك الأمور  
بأمر الله منصور ممدل ————— إن إذا جار الرعية لا تجور  
وفي مدح العجاج ليزيد بن معاوية :

إن زلزل الأقوام لم تزَلْزَلِ عن دين موسى والرسول المرسل  
وفي مدح جرير للمهاجر بن عبد الله (٣) .

ولقد حكمت فكان حكمك مقنعا وخُلِقْتَ زَيْنَ منابر ومساجدٍ  
وإذا الخصوم تبادروا أبوابه لم يَدَسَنَّ غائبهم لخصم شاهد

(٢) راجع النماذج .

(١) ضحى الإسلام ١٦٣/٣

(٢) ديوان جرير ١٢٥ .



والمعتدون إذا رأوك تَخَشَّعُوا      يَخْشَوْنَ صَوْلَةَ ذِي لُبُودٍ حَارِدٍ  
ترك العصاة أذلةً في دينه      والمعتدين وكلَّ لصٍ ماردٍ  
مستبصرٌ فيها على دين الهدى      أبشِرْ بمنزلة المقيم الخالد

في هذه الأبيات مدح بفضائل إسلامية ، فالحاكم الممدوح عادل أرضي بعدله  
الناس ، خطيب يزين المنابر ، إمام صالح يؤم المسلمين في المساجد ، أو يجلس فيها  
للفصل وقضاء الحاجات ، وهو قاض منصف لا يقضى لشاهد على غائب ، وحاكم  
حازم مرهوب من الثوار وأهل الفتن ، طالما ضرب على أيديهم ، فاستقر الأمن ،  
واطمأن الشعب ، وهو يسير في حكمه على نهج الدين ويأخذ نفسه بتعاليمه .

وفي مدحه لعبد الملك :

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه      ما قام للناس أحكام ولا جُمعُ  
أنت الأمين أمين الله لا سرفٌ      فيما ولّيت ولا هيابةٌ ورِعُ

وفي مدحه لهشام بن عبد الملك :

رضينا بالخلافة حين كنا      له تبعاً وكان لنا إماما  
تباشرت البلاد لكم بحكم      أقام لنا الفرائض واستقاما

وفي مدحه للحجاج :

منع الرشا وأراكم سبيل الهدى      والاصْ نَكَلُهُ من الإدلاج  
ولقد كسرت سنان كل منافق      ولقد منعت حقائق الحجاج

وفي مدحه لعمر بن عبد العزيز (١) :

أنت المبارك والمهدى سيرته      تعصى الهوى وتقوم ، الليل بالشور  
أصبحت المنبر المعمور مجلسه      زينا وزين قباب الملك والحجر

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدر  
فلن تزال لهذا الدين ماعمروا منكم عمارة مُلك واضح الغرر

وتجده في مدح الفرزدق لسليمان بن عبد الملك :

جعل الإله لنا خلافته رُء القُروح وعِصمة الجُبر  
كم حلّ عنا عدل سنته من مغرم ثقلٍ ومن إضر

وفي مدحه للحجاج :

ولم أركلحجاج عوناً على التقي ولا طالباً يوماً طريدةً تابل<sup>(١)</sup>

والذي يظهر من هذا ونظائره أن المديح لم يعد مقصوراً على الكرم والشجاعة  
والنجدة والبأس ، وإنما امتد إلى فضائل أخرى يدعو إليها الإسلام ويرتضيها .

فلولا الإسلام ما أشاد المادحون بهذه الصفات ، ولولا الإسلام ما مدح كثير  
همر بن عبد العزيز بأنه ورع ، تتعرض له الدنيا بمفاتها فيزهد فيها ويحتويها ،  
لأنه يؤثر الآخرة عليها ، ويشتري ما يبقى بما يفنى .

قال كثير<sup>(٢)</sup> :

وصدقت بالفعل المقال مع الذي أتيت فأمسى راضياً كل مسلم  
وقد لبست لبس الهلوك ثيابها تراهي لك الدنيا بكفٍ ومهم<sup>(٣)</sup>  
وتومض أحياناً بين مريضة وتبسم عن مثل الجمان المنظم<sup>(٤)</sup>  
فأعرضت عنها مشمراً كأنما سقتك مدوفاً من حمام وعلقم<sup>(٥)</sup>  
تركت الذي يفنى وإن كان مونيماً وآثرت ما يبقى برأى مصمم

(١) طريدة تابل : هارباً من ثار . (٢) ديوان كثير ١٧٣/٢ .

(٣) الهلوك : التهلكة على الرجل تريد أن تفتنه .

(٤) عين مريضة : عين ساحرة فائرة آسرة . الجمان : الفضة .

(٥) مدرفاً : مزيجاً مخلوطاً . حمام : سم .

### النفعية والاضطرار :

غلبت النفعية على شعرائهم ، فكان أكثرهم من طلاب المال ، والمتطلعين إلى الشهرة ، وإلى شرف الاتصال بالخلفاء والحكامين ، وكان بعضهم من الراهبين الذين يريدون الاعتذار عن مناصرتهم لأحزاب أخرى .

لهذا لا نجد إلا قلة من الشعراء الذين يصح أن نصفهم بالوفاء الخالص لبني أمية ، كأبي العباس الأعمى مولى بني الدَّيْل - فارسي من أذربيجان - فقد أبدع في مدحهم أحياء وراثهم وتفجع عليهم أمواتا ، ولم يقبل عطاء من الخليفة العباسي المنصور ، وقال إن مروان بن محمد أغنانى عن السؤال بعده (١) .

ومن الخالصين لبني أمية أبو صخر الهذلي ، فقد مدح عبد الملك بن مروان وأخاه عبد العزيز ، ولما وفد مع قومه على عبد الله بن الزبير أعطاهم وحرمه عطاءه ، لأنه أموى النزعة ، فرد عليه الشاعر مفضلا بني أمية ، فسجنه ابن الزبير ، ثم شفعت فيه هذيل ، فأطلقه (١) .

أما طلاب المال فقد جهر بعضهم بالطلب كجبر .

من ذلك قوله لعبد الملك (٢) :

أغثنى يا فـداك أبى وأمى      بسبب منك إنك ذو ارتياح  
سأشكر إن رددت هل ريشى      وأنبئت القـوادم فى جناحى

وقوله لعمر بن عبد العزيز (٤) :

إنى لآملُ منك خيرا عاجلا      والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجل

(١) الأغاني ٥٩/١٥ .

(٢) الأغاني ٦٥/٥ .

(٣) الديوان ٩٨ .

(٤) الديوان ٤١٥ .

والله أنزل في الكتاب فريضةً لابن السبيل وللفقير المائل  
وكذلك الفرزدق جهر بطلب المال ، في مدحته (١) لهشام بن عبد الملك ، لكنه  
ألبس هذا الطلب دعوى ، هي أنه سيأخذ المال ليفرقه على الأقارب والأباعد ، لأنهم  
يرون أن لهم على الخليفة حقا واجب الأداء :

ومن أين أخشى الفقر بعد الذي التقى بكفيك من معروف ما أنا طالبة  
فإن ذنوبا من سيجالك مالي - ياضي فأفرغ لي ذنوبا أنا هب  
أنا هب الأذنين والأبعد الذي أتاك به من أبعد الأرض جالبه  
وما منهم - إلا يرى أن حقه عليك له يابن الخلائف واجبه  
وكذلك طلب من الوليد بن يزيد (٢) ، ومن الوليد بن عبد الملك (٣) .

وشكر بعضهم بعد العطاء ، كقول بكير بن الأخنيس في آل  
المهلب (٤) :

نزلت على آل المهلب شساتيا فقيرا بعيد الدار في سنة تحل  
فما زال بي إطفائهم وافتقادهم وإكرامهم حتى حسبتهم أهلي  
وقد أشاد بخلفاء بني أمية وبولاتهم وقوادهم شعراء كانت لهم نخلة سياسية  
أخرى عرفوا بها .  
بعضهم شيعي ، وبعضهم خارجي ، وبعضهم زيري .

١ — فن الشيعة الكميث (٥) ، وهو شاعر الشيعة المقدم ، وصاحب  
ديوان (الهاشميات) .

---

(١) الديوان ١٠٠/١  
(٢) الديوان ٧/١  
(٣) الديوان ٨٩/١  
(٤) البيان والتبيين ٣/٢٣٣ .  
(٥) راجع ترجمة في هذا الكتاب .

ومنهم أيمن بن خريم ، مدح والى مصر عبد العزيز بن مروان — من قبل أبيه مروان بن الحكم ثم من قبل أخيه عبد الملك — وغادره إلى العراق ، فمدح بشر بن مروان ، وكذلك مدح عبد الملك ، وعمه يحيى بن الحكم .

ومنهم كثير عزة ، كان على تشيعه مداحا لخلقاء بني أمية ، وكان يطربهم مدحاً .

ومنهم الفرزدق ، مدح عبد الملك وأخاه بشرا ، ومدح سعيد بن العاص وغيرهم من بني أمية .

٢ — ومن شعراء الخوارج عبد الله بن الحجاج .

٣ — ومن الزبيريين إسماعيل بن يسار ، وعبد الله بن قيس الرقييات (١) ، فقد كان زبيرى الهوى ، خرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك ، فلما قتل مصعب جعل عبد الملك يطلبه حتى قبض عليه ، ثم آمنه . وهو القائل في مدح بني أمية (٢) :

ما نَقَمُوا من بنى أمية إلا أنهم يَحْلُمُونَ إن غَضِبُوا  
وأنهم معذِنُ الملوك ولا تَصْلُحُ إلا عليهم العرب (٣)

فكيف مدح هؤلاء الشعراء بني أمية ؟

هل كان مذهبهم السياسى عميق الأثر فى نفوسهم ؟ ثم كان ثناؤهم على بني أمية •  
صدى لعاطفة صادقة ؟

إن الجمع بين العاطفتين — حب بني أمية وبغضهم — غير مستطاع .

وإذاً فلا بد من تعليل آخر لهذه الظاهرة ، ولعلنا لا نعدو الحق إذا مذهبنا إلى أن بعض هؤلاء قد اضطروا إلى مدح بني أمية ، لتسلم لهم حياتهم المهددة ، ويقضوا بقية عمرهم فى أمن واستقرار ، وبعضهم كان طامعاً فى العطاء وفى الزُّلْفَى .

فالكثير متشيع عميق الإيمان بمذهبه ، لكنه اضطُر إلى مدح عبد الملك ،

(١) راجع ترجمته فى هذا الكتاب .

(٢) البيان والتبيين ٣/٣٦١ . (٣) معذِنُ الملوك : أصلهم .

بعد ماجده في طلبه للقضاء عليه . وما من شك في أنه صادق في حبه للشيعه ومناصرته لهم ، ومتكلف في مدحه بنى أمية .

أما الشعراء الآخرون من الشيعة ، فكانوا مدفوعين بالطمع ، أو مؤثرين للتقية ، والتقية أساس من أسس المذهب الشيعي تجيز المراءاة .

وهذا الاضطراب الذي عللت به مدح الكميت لبني أمية ينطبق على ابن قيس الرقيات .

على أنني أضيف إلى الاضطراب وإلى الطمع تعليلاً آخر ، ينطبق على بعض الشعراء الحزبيين ، هو أنهم لم يكونوا قد أشربوا مذاهبهم السياسية كما أشرب الكميت مذهب الشيعة الزيدية ، أو كما اعتنق ابن قيس الرقيات مذهبه الزيرى ، أو كما استمسك عمران بن حطان بمذهب الخوارج ، فقد آثر عمران أن يفر مختفياً على أن يشيد بنى أمية ولو مضطراً ، وهو الذي مر على الفرزدق يوماً ، فقال :

أيها المادحُ العبادَ ليعطىَ إن الله ما بأيدي العباد

— ٥ —

### المبالغة والإفراط :

لهذا كله اتسم شعرهم السياسي بالافتتان في العبارة والخيال ، واتسم بالمبالغة في المدح ، لأن أكثرهم استوحوا عقولهم لا عواطفهم ، ولأنهم أرادوا أن يلوّنوا صفات المدح التي سبقهم بها المادحون منذ الجاهلية ، فجاءت الألوان في كثير من الأحيان خارجة على المألوف في الصدق أو القرب من الصدق .

ثم إن كثيراً منهم كانوا يتبارون في إرضاء الخلفاء ، ويتنافسون في نيل عطاياهم ، وكان التفضيل لأجودهم مدحا ، وأعظمهم إشادة ، وهذا جرهم إلى التزيد والتحويل والتجويد .



ولعل عبد الملك كان يحس بما نحسه الآن ، إذ قال لجماعة من الشعراء (١) :  
تشبهونا مرة بالأسد الأبحر ، ومرة بالجيل الوعر ، ومرة بالبحر الأجاج ، ألا قلتم  
فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم :

نهاركم مكابدةٌ وصومٌ      وإيلكم صلاةٌ واقتراء  
وليتكم بالقرآن وبالنزكى      فأسرع فيكم ذاك البلاء  
أجعلكم وأقواما سواءً      وبينكم وبينهم الهواء ؟  
وهم أرضٌ لأرجلكم وأنتم      لأرؤسهم وأعينهم سماء

وأرجح أن عبد الملك أعجب بما في أبيات أيمن هذه ، وبما في أبياته التي لم  
أذكرها ، من صدق في القول ، ووصف للحال الواقعة ، إذ كان الشيعة كما  
وصفهم أيمن .

وذُكر بمجلسه زهير وهرم ، فقال : ما يضر من مدح أن يمدح بمثل قول زهير  
على مكثيريهم حقٌ من يعترِيهمُ      وعند المُقِلِّين السباحة والبذل  
على أن شعراء الحزب الأموي لم يقصروا شعرهم على السياسة ، بل لم يقتصر شاعر  
منهم على السياسة ، لأنهم تناولوا جميعا فنونا شتى ، على حين أن كثيرا من شعراء  
الخوارج وقفوا شعرهم على نصره مذهبهم ، وما يتصل به ، ولم يتعدوه إلى غيره من  
فنون الشعر .

## لفصل الثاني

### شعر الشيعة

- ١ -

### حب آل البيت

تعبد الشيعة بحب آل البيت ، وتمكن هذا الحب من قلوبهم ، فصار كأنه ركن من أركان الإسلام ، لأنهم اعتقدوا أن حب علي وآل علي مظهر من مظاهر حبهم لله تعالى ولنبيه عليه الصلاة والسلام .

١ - هذا أبو الأسود الدؤلي يعلن حبه للرسول ولعمره عباس وحمزة ولابن عمه علي ، ويعمل لهذا الحب بأنه تابع لحبه لله ، وهو حب متأصل في نفسه منذ شرح الله صدره للإسلام ؛ ما انحرف يوما وما فتر ، وما اعوج وما نقص ، وإنه لمطمئن النفس إلى أنه سيبعث يوم القيامة على هذا الحب . ثم يعرج على بعض العثمانية الذين كانوا يلومونه في حبه لعلي ، فيصفهم بالسماجة والحسة ، ويرد عليهم بأن أحب الناس كلهم إليه هم أبناء عم النبي وأقاربه ، وبأنه ثابت على حبه لهم ، موقن بصوابه في اختياره ، على أنه إذا كان حبه لآل البيت رشادا في نظر لأئمة فقد هدى إلى هذا الرشاد وأصابه ، وإذا كان ضلالا في نظرهم فإنه صواب ورشاد في نظره .

١ - قال أبو الأسود الدؤلي (١) :

أحب محمدا حبا شديدا      وعباسا وحمزة والوصي<sup>(٢)</sup>

(١) تهذيب الكامل ٢٩/١ .

(٢) الوصي : علي بن أبي طالب .

أحبهمُ لحب الله حتى أجىء إذا بُعثتُ على هَوِيًّا  
 هوى أُعطيتُهُ منذ استدارت رحي الإسلام لم يعدلُ سَوِيًّا<sup>(١)</sup>  
 يقول الأردلون بنو قُشَيْرٍ<sup>(٢)</sup> طَوَالَ الدهر ، ما تنسى علوها ؟  
 بنو عم النبي وأقربوه أحبُّ الناس كلهمُ إليا  
 فإن يك حبهم رَشَدًا أصبهُ ولست بمخطيء إن كان غَيًّا

٢ — وهذا حرب بن المنذر بن الجارود ، يقنع من دنياه باليسير القليل من الطعام الذي يقيم أوده ، ويقنع من أخراه بكفن من الكتان ، وحسبه من دنياه وأخراه أنه يحب أقارب النبي ، استجابة للآية الكريمة : « قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » .

قال حرب بن المنذر بن الجارود<sup>(٣)</sup> :

فحسبي من الدنيا كفافٌ يُقيمني وأثواب كَثَّانٍ أزورها قبرى<sup>(٤)</sup>  
 وحبي ذوى قُرْبَى النبي محمد فما سألنا إلا المودة من أجر<sup>(٥)</sup>

٣ — قال كثير بن كثير<sup>(٦)</sup> السهمي — شاعر محدث كان يتشيع —

لما سمع عمال خالد القسري يلعنون عليا والحسن والحسين على المنابر :

لعن الله من يسبُّ عليا وحسيننا من سوقة وإمام  
 أيسبُّ المطَّيِّبوت جدودا والكرام الأخوال والأعمام<sup>(٧)</sup>  
 يأمن الظبي والحمام ولا يأمن آل الرسول عند المقام<sup>(٨)</sup>

(١) لم يعدل : لم ينحرف . السوى : السواء الذي سوى الله خلقه .

(٢) بنو قشير : كانوا عثمانية وكان أبو الأسود نازلا فيهم ، وكانوا يرمونه بالليل .

(٣) البيان والتبيين ٣/ ٣٦٥ . (٤) كفاف : قوت على قدر الحاجة .

(٥) سألنا : سألنا التخفيف والهمز بمعنى واحد .

(٦) ديوان كثير بن كثير ١/ ٢٦٦ طبعة الجزائر ونسب قريش ٤٠٧ والتهذيب ٨/ ٤٢٦

ومعجم الشعراء للعرزباني ٣٤٨ والمؤتلف والمختلف ١٦٩ والحيوان للجاحظ ٣/ ١٩٤ وفي البيان والتبيين ٣/ ٣٥٩ أن القائل عبد الله بن كثير السهمي .

(٧) المطَّيِّبون : المطهرون . (٨) المقام : الحرم كله أو الحجر الذي قام عليه

إبراهيم عند بناء البيت ، وهو أسود وأكبر من الحجر الأسود .

طُبِّتَ بَيْتَا وَطَابَ أَهْلُكَ أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ وَالْإِسْلَامِ  
رَحْمَةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِمْ كُلَّمَا قَامَ قَامُوا بِالسَّلَامِ

٤ — فلما عابوه بذلك الرأى قال (١) :

إِنْ أَمْرًا أَمَسَتْ مَعَايِبُهُ حُبُّ النَّبِيِّ لَغَيْرُ ذِي ذَنْبٍ  
وَبْنَى أَبِي حَسَنٍ وَوَالِدِهِمْ مِنْ طَابَ فِي الْأَرْحَامِ وَالصُّلْبِ  
أَيْعَدُ ذَنْبًا أَنْ أَحِبَّهُمْ بَلْ حُبُّهُمْ كَفَّارَةُ الذَّنْبِ

٥ — مدح الحزین الکنانی — عمرو بن عبید بن وهیب — علی بن الحسین

بقوله (٢) :

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَاتِهِ      وَالْبَيْتَ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ  
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ      هَذَا التَّقَى النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ  
إِذَا رَأَتْهُ قَرِيشٌ قَالَ قَائِلُهَا      إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهَى الْكَرَمُ  
وَأَيْسُ قَوْلِكَ مَنْ هَذَا بِضَائِرِهِ      الْمَرْبُ تَعْرِفُ مِنْ أَنْكَرَتِ وَالْعَجَمُ  
يُغْضَى حَيَاءٌ وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ      فَلَا يَكَلِّمْ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ  
بِكَفِّهِ خَيْرَانِ رِيحِهِ عَبِيقُ      مِنْ كَفِّ أَرْوَعٍ فِي عَرْنِينِهِ شَمَمُ  
يَسْكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ      رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ  
يَنْشَقُّ ثَوْبُ الدَّجَا عَنْ نَوْرِ غُرَّتِهِ      كَالشَّمْسِ تَفْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظُّلَمُ

(٢) وتروى القصيدة لداود بن سلم

(١) البيان والتبيين ٣/ ٣٦٠ .

في قثم بن عبد الله بن العباس وتروى للحزین الکنانی (عمرو بن عبید) في مدح عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وتنسب للعین المنقري في مدح علي بن الحسين (زهر الآداب ١/ ٦٥ والأغاني ١٩/ ٤٠) ويقال إن هشام بن عبد الملك كان يطوف بالبيت ، فأراد أن يستلم الحجر فلم يقدر ، فنصب له منبر جلس عليه . وبينما هو كذلك أقبل علي بن الحسين فطاف ، فتنحى له الناس هيبه وإجلالا ، فغاظ ذلك هشاما فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذي أكرمه الناس وعظموه ؟ فقال هشام : لا أعرفه . لئلا يعظم في نفوس أهل الشام . فقال الفرزشق — وكان حاضرا — هذه القصيدة .

من معشر حبهـم دين وبفضهـم كُفِرُ وقربهـم مُنْجَى ومُعْتَصَم  
 إن عُدَّ أهْلُ التَّقَى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم  
 ٦ - كان السيد الحميري (إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري)  
 متشيعاً على مذهب الكيسانية ، يقول بإمامة محمد بن الحنفية ، ويسب  
 السلف ، ولولا ما في شعره من سبهم ما تقدمه أحد من طبقة (١) ، وقد أدرك  
 الدولتين الأموية والعباسية . يقول (٢) :

إني امرؤ حميرى غير مؤنسب  
 جدى رعين وأخوالى ذوو يزن (٣)  
 ثم الولاء الذى أرجو النجاة به يوم القيامة لهادى أبى الحسن

- ٢ -

## فى رثائهم ورثاء أنصارهم

فَقَدْ الأَحْبَابُ فاجعة تنوء النقوس بالآلامها ، فيجىء رثاؤهم ملتاع الزفرات ،  
 ملتهب العبرات .

وكذلك كان رثاء الشيعة لأئمتهم وقادتهم وأنصارهم ؛ لأنه صدر عن حب  
 ووفاء ، وكثيراً ما صدر عن الحب والوفاء والتفجع على انقتلى ، والحزن على الحق  
 المهضوم ، والنقمة على الغاصب المعتدى .

١ - رثى أبو الأسود الدؤلى على بن أبى طالب بقوله (٤) :

ألا أبلغ معاوية بن حرب فلا قرّت عيون الشامقين  
 أنى شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً أجمعيناً ؟

(١) الأغاني ٧ / ٢ (٢) البيان والتبيين ٣ / ٣٦٠ .

(٣) مؤنسب : بفتح الشين ليس صريح النسب . رعين : ذورعين ملك من ملوك  
 اليمن ، ورعين حصن له . ذو يزن : المراد أبناء ذى يزن والد سيف أحد ملوكهم ، وهو  
 الذى استنقذ اليمن من حكم الحبش بمعاونة جيش كسرى أنو شروان .

(٤) مروج الذهب ٢ / ٤٤ .

فقلتم خير من ركب المطايا وذلّاهما ومن ركب السفينا  
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والمهينا  
إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت النور فوق الناظرينا  
لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرهم حسبا ودينا

٣ — كان حُجْر بن عَدِيٍّ من شيعة عليّ الأوفياء ، شهد معه موقعة الجمل وصفين والنهروان ، ولام الحسن في صلحه لمعاوية . فلما كان الأمر لمعاوية بإبعده حُجْر فيمن بإبعده ، ولكن حبه لعلي لم ينقص ، ومضى في حياته كما كان مؤمنا تقياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وكان ينكر على بني أمية شتمهم لعلي وأصحابه ، ويجهر بهذا ، ويحاول أن يرد المغيرة بن شعبه والى الكوفة لمعاوية عن هذا السب ، وكان المغيرة لا يؤاخذ .

فلما مات الحسن وقام الحسين بالحجاز ، تزعم حجر معارضة بني أمية ، واستمر في نهيه للمغيرة عن شتم عليّ ، لكن المغيرة لم يؤاخذ .

وإذ تولى زياد الكوفة لم يكتم حجر أمره ، بل جعل يعارضه فيما يرى من انحراف عن الدين ، فقبض عليه زياد وعلى ثلاثة عشر من أتباعه ، واضطر زياد بعض أهل الكوفة على أن يشهدوا بأن حجرا وصحبه قد خلعوا طاعة معاوية وتأهبوا لحربه ، وذكر في كتاب الشهادة أسماء نفر لم يشهدوا ، وأرسل حجرا وصحبه إلى معاوية ، فأمر بالآلا يدخلوا دمشق ، وحبسوا بمرج عذراء ، ثم عفا عن خمسة منهم ، وعرض على الثمانية أن يبرأوا من عليّ فأبوا ، فأخذ رجال معاوية يقتلونهم ، فطلب اثنان أن يحملوا إلى معاوية ، ويرى أحدهما من عليّ فلم يقتل ، وأما الآخر فأسمع معاوية ما يكره لنفسه ولعثمان ، فردّه إلى زياد فدفنه حيا .

وكان لمقتل حجر وصحبه رنات أسي في نفوس المسلمين ، حتى إن السيدة عائشة كادت تخرج لتقود الثورة لولا خشيتها أن تتجدد كارثة الجمل .

رثت هند بنت زيد بن مخزّمه — وكانت تتشع — حجر بن عدى ،  
أورثته ابنته فقالت (١) :

(١) الطبري ١٥٧/٦ ومروج الذهب ٤/٢ والأغانى ١٠/١٦ .



ترفع أيها القمر المنير      تبضّر هل ترى حُجُرا يسير ؟  
يسير إلى معاوية بن حرب      ليقتله كما زعم الأمير<sup>(١)</sup>  
ويصلبه على بابي دمشق      وتأكل من محاسنه الطيور  
تَجَبَّرَتِ الجبابر بعد حُجُر      وطاب لها الخورنق والسدير  
وأصبحت البلاد لها محولا      كأن لم يُجْهِها مزن مطير  
ألا يا حُجُرُ حُجُرَ بني عديَّ      تَلانَّتِ السلامة والسرور  
أخاف عليك ما أزدى عديّا      وشيخا في دمشق له زئير<sup>(٢)</sup>  
يرى قتل الخيار عليه حقّا      له من شر أمته وزير  
ألا يا ليت حجرا مات موتا      ولم يُنَحَرَ كما نحر البعير  
فإن تهلك فكل زعيم قوم      من الدنيا إلى هلك يصير

٣ - وقال يرثيه عبد الله بن خليفة الطائي<sup>(٣)</sup> - وكان من أنصاره ،  
وقد طلبه زياد بن أبيه :

فدع عنك تذكار الشباب وفقدّه      وأسأره<sup>(٤)</sup> إذ بان منك فأقصرا  
وبك على الخللان لما تُخَرَّموا      ولم يجدوا عن منهل الموت مصدرا  
وما كنت أهوى بعدهم مُتَعَلِّلا      بشيء من الدنيا ولا أن أعمرا  
أقول ولا الله أنسى أذكاهم      سجيس الليالي أو أموت فأقبرا<sup>(٥)</sup>  
على أهل عذراء السلام مضاعفا      من الله وليشق الفمام الكنهورا<sup>(٦)</sup>

(١) الأمير : زياد والى الكوفة . (٢) الشيخ : معاوية .  
(٣) الطبري ١٥٨/٦ : (٤) أسأره : جمع سؤر والمراد بقايا .  
(٥) سجيس الليالي : أبدا . اذكاهم : تذكرهم .  
(٦) الكنهور : السحاب المتراكم .

ولاقى بها حُجْرٌ من الله رحمة

فقد كان أرضى الله حُجْرٌ وأَعْذَرَا

ولا زال تَهْطَالُ مِلْثٌ وِدِيَّةٌ على قبر حُجْرٍ أو ينادى فيُخْشَرَا

فيا حُجْرُ مَنْ لِلخَيْلِ تُذْمَى نُحُورُهَا وَالْمَلِكِ الْمُغْزَى إِذَا مَا تَفَشَّمَرَا<sup>(١)</sup>

وَمَنْ صَادَعٌ بِالْحَقِّ بَعْدَكَ نَاطِقٌ بِتَقْوَى ، وَمَنْ إِنْ قِيلَ بِالْجَوْرِ غَيْرَا؟

فَنِعِمَّ أَخُو الْإِسْلَامِ كُنْتَ وَإِنِّي لِأَطْمَعُ أَنْ تَوْتِيَ الْخُلُودَ وَتُخْبِرَا

وَقَدْ كُنْتَ تُعْطِي السِّيفَ فِي الْحَرْبِ حَقَّهُ

وَتَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَتُنْكِرُ مَنَكِرَا

٤ — قال عُبَيْدَةُ السَّكَنْدِيُّ يَعْبُرُ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ نَخْلِيهِ عَنْ حَجْرِ ابْنِ عَدَى<sup>(٢)</sup>

أَسْلَمْتَ عَمَكَ لَمْ تَقَاتِلْ دُونَهُ فَرَقًا ، وَلَوْلَا أَنْتَ كَانَ مِنْعِمَا

وَقَتَلْتَ وَافِدَ آلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَسَلَبْتَ أَسْيَافَا لَهُ وَدَرُوعَا

لَوْ كُنْتَ مِنْ أَسَدٍ عَرَفْتَ كِرَامَتِي وَرَأَيْتَ لِي بَيْتَ الْحُبَابِ شَفِيعَا

٥ — قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَحْمَرِ يَرْنَى الْحُسَيْنَ وَيَحْضُ عَلَى الثَّأْرِ لَهُ<sup>(٣)</sup> :

صَحُوتُ وَقَدْ صَحَّوْا الصُّبَا وَالْمَوَادِيَا وَقُلْتُ لِأَصْحَابِي : أَجِيبُوا الْمَنَادِيَا

وَقُولُوا لَهُ إِذَا قَامَ يَدْعُو إِلَى الْهَدْيِ وَقَبْلُ الدَّعَا : لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ دَاعِيَا

أَلَا وَانْعَ خَيْرَ النَّاسِ جَدًّا وَوَالِدَا حُسَيْنَا لِأَهْلِ الدِّينِ إِنْ كُنْتَ نَاعِيَا

وَأَضْحَى حُسَيْنٌ لِلرَّمَاكِ دَرِيئَةً وَغُودَرُ مَسْلُوبٍ بِالْهَدْيِ الطَّفُّ ثَاوِيَا<sup>(٤)</sup>

(١) المغزى : الحامل على حربه والثورة عليه . تفشمر : ظلم

(٢) الطبرى ١٦٠/٦ : (٣) مروج الذهب ١١٠/٢ :

(٤) دريئة : هدف . الطف : موضع قرب الكوفة

فيا ليتني إذ ذاك كنتُ شهيدتهُ فصاربتُ عنه الشانئين الأعاديا  
سقى الله قبرا ضمنَ المجد والتقى بغربية الطّف الغام الفواديا  
فيا أمةً تاهت وضلت سفاهةً أنيبوا فأرضوا الواحد المتعاليا

٦ — قال عبيد الله بن الحرّ وقد رأى مصارع القوم بكر بلاء : (١) .

يقول أمير<sup>(٢)</sup> غادرٌ حقٌ غادر  
فيا ندّمي ألا أكون نصرته  
وإني لأني لم أكن من حُحاته  
سقى الله أرواح الذين تآزروا  
وقفتُ على أجدائهم وتجاّهم  
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى  
تأسّوا على نصر ابن بنت نبيهم  
فإن يُقتلوا فكل نفسٍ تقيّة  
وما إن رأى الرامون أفضل منهم  
أتقتلهم ظلما وترجو وداونا  
لعمري لقد راغمتونا بقتلهم  
أهمُّ مرارا أن أسير بجحفل  
فكُفّوا وإلا ذُتْكم في كتائب

ألا كنتِ قاتلت الشهيد ابن فاطمة  
ألا كلُّ نفسٍ لا تُسدّد نادمه<sup>(٣)</sup>  
لذو حسرة ما إن تفارقُ لازمه  
على نصره سُقيّا من الغيث دائمه  
فكاد الحشاينفضُ والعين صاحبه  
مراعا إلى الهيّاجحاة حضارمه<sup>(٤)</sup>  
بأسيا فهم آسادٌ غيلٍ ضراغمه  
على الأرض قد أضحت لذلك واجهه  
لدى الموت ساداتٍ وزُهرًا قماقه<sup>(٥)</sup>  
فدع خُطةً ليست لنا بملاءمه  
فكم ناغم منا عليكم وناقمه<sup>(٦)</sup>  
إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه<sup>(٧)</sup>  
أشدّ عليكم من زحوف الديالمه<sup>(٨)</sup>

(١) الطبري ٢٧٠/٦ ومروج الذهب ٢٣٣/٢ . (٢) يريد عبد الله بن زياد :

(٣) لا تُسدّد : لا تسلك الصواب والسداد : (٤) مصاليت : جمع منصلت وهو

الماضي في الأمور . حضارمة : جمع حضرم وهو السيد الجواد

(٥) قماقة : جمع قماق وهو السيد (٦) راغمتونا : طاديتونا

(٧) جحفل : جيش كبير (٨) الديالمه : الديلم

## الاحتجاج للشيعة

١ - سلك الكميت في الاحتجاج لهم مسلك المعتزلة في تفكيرهم وتدليلهم على آرائهم ، معتمدا على القرآن الكريم وعلى القياس المنطقي .

فهو إذ يدعو إلى البيت الهاشمي ، يذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام خير بنى هاشم ، وأن أقرب الناس إليه - وهم بنو هاشم - أحق بوراثته ، ويدلل على هذا الحق بآيات من القرآن الكريم ، ومن نظام التوريث في الإسلام .

ثم يعلن أن بنى أمية اغتصبوا هذا الحق ، وصاروا يتوارثونه ، وهذا منكر يجب على المسلمين رده ، لأن بنى أمية معتدون على حق غيرهم ، مستحقون لعذاب الله .

على أن بنى أمية يناقضون أنفسهم ، لأنهم إذ يزعمون أن النبي لا يورث . يدعون أنهم ورثة الخلافة .

ثم يذهب في تفنيد زعمهم مذهبا عقليا آخر ، إذ يقول إن النبي لو لم يورث لكانت الخلافة حقا مشاعا للمسلمين جميعا ، لا حُكْرَةً لقريش ، ولصار من حق القبائل العربية المختلفة أن تطالب بها من شريفها إلى وضعها ، ولكان الأنصار أولى الناس بها ، لأنهم هم الذين آووا ونصروا .

لكن هذا لم يحدث ، وإذا فالخلافة منصب موروث ، وبنو هاشم هم المستحقون لها .

قال الكميت (١) :

بِحَاثَتِكُمْ غَضَبًا تَجُوزُ أُمُورَهُمْ  
وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيَمَ آيَةً  
وَفِي غَيْرِهَا آيَا وَأَيَا تَقَابَعْتُ  
وَقَالُوا وَرِثْنَاهَا أَبَانَا وَأَمْنَا  
يُرُونَ لَهُمْ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا  
وَلَكِنْ مَوَارِيثُ ابْنِ أَمْنَةَ الَّذِي  
وَتُسْتَخْلَفُ الْأَمْوَاتُ غَيْرُكَ كُلَّهُمْ  
يَقُولُونَ : لَمْ يُوْرَثْ وَلَوْلَا تَرَاثُهُ  
وَعَكْتُ وَنَحْمُ وَالسَّكُونُ وَحَمِيرُ  
وَلَا تَنْشَلَتْ عُضْوِينَ مِنْهَا يُحَابِرُ  
وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ فِيهَا أَذَلَّةً  
هَمْ شَهِدُوا بِدِرَا وَخَيْرَ بَعْدَهَا  
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلَحْ لِحَى سَوَاهِمُ

فَلَمْ أَرْ غَضَبًا مِثْلَهُ يُتَفَضَّبُ  
تَأَوَّلَهَا مِنَّا تَقَى وَمُعْرَبُ  
لَكُمْ نَصَبٌ فِيهَا لِذِي الشُّكِّ مُنْصَبٌ<sup>(١)</sup>  
وَمَا وَرِثْتَهُمْ ذَاكَ أُمَّ وَلَا أَبُ  
سَفَاهَا وَحَقُّ الْهَاشِمِيِّينَ أَوْجِبُ  
بِهِ دَانَ شَرْقِيٌّ لَكُمْ وَمُعْرَبُ  
وَنَعْتَبُ لَوْ كُنَّا عَلَى الْحَقِّ نَعْتَبُ  
لَقَدْ شَرِكْتَ فِيهِ بِكَيْلٍ وَأَرْحَبُ<sup>(٢)</sup>  
وَكَنْدَةُ وَالْحَيَانُ : بَكَرٌ وَتَغْلِبُ<sup>(٣)</sup>  
وَكَانَ لَعَبْدِ الْقَيْسِ عَضُوٌّ مُؤْرَبُ<sup>(٤)</sup>  
وَلَا غُيَّيَا عَمَّا إِذَا النَّاسُ غُيِبُ  
وَيَوْمَ حُنَيْنٍ وَالدَّمَاءُ تَصَبَّبُ  
فَإِنْ ذَوَى الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ

وَقَدْ جَرَى عَلَى طَرِيقَتِهِ مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ<sup>(٥)</sup>

(١) نصب منصب : جهد متعب .

(٢) بكيل وأرحب : من همدان من كهلان النحطانية .

(٣) أسماء قبائل يعنمية ونزارية .

(٤) انتشلت : نالت وأخذت . يحابر : بطن من مراد من كهلان . عبد القيس : من

جديلة من أسد ربيعة . مؤرب : كامل .

(٥) في العصر العباسي احتج مروان بن أبي حفصة بمثل هذا الدليل في تأييده العباسيين على العلويين ، إذا استمد برهانه من نظام الوراثة في الإسلام ، فقال إن بني البنات لا يرثون كوراثة الأعمام ، يريد أن أولاد فاطمة الزهراء بنت الرسول وزوجة علي لا يرثون كالعباس ابن عبد المطلب عم رسول الله ، وإذا فالعباسيون هم الأولون بالخلافة . قال مروان في مدحة للمهدي لما عقد البيعة لابنه الهادي .

٢ - وقال في نقض مذهب الخوارج : (١)

إني أدين بما دان الوصي به يوم النخيلة من قتل المحلينا (٢)  
وبالذي دان يوم النهر دنت به وشاركت كفته كفى بصفينا  
تلك الدماء معاً يارب في عفتي ومثلها فاسقني آمين آمين

٣ - مدح أيمن بن خريم (٣) بنى هاشم بأنهم عباد يقضون نهارهم في جهاد  
وفي صوم ، ويقضون ليلهم في صلاة ودراسة للقرآن الكريم ، وقال إن التزامهم  
أحكام القرآن ، وحرصهم على تطهير أنفسهم من الآثام ، باعدا بينهم وبين الخداع  
والدهاء واستحلال الحرام وتأريث الفتنة والقتال ، وكل ما من شأنه أن يوطد  
سلطانهم ، فكان هذا هو السبب في ضياع حقهم ، ونزول الكوارث بهم . ثم  
عجب من أن يسوى أحد بينهم وبين بنى أمية ، لأن بنى أمية في الخضيض ، وهؤلاء  
في الأوج :

نهاركم مكابدة وصوم	وليلكم صلاة واقتراء
وليتم بالقران وبالتزكى	فأسرع فيكم ذاك البلاء
أجعلكم وأقواما سواء	وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم	لأرؤسهم وأعينهم صماء

= يابن الذي ورث النبي محمداً دوت الأقارب من ذوى الأرحام  
الوحى بين البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام  
ماللنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام  
أتى يكون — وليس ذاك بكائن — لبنى البنات وراثة الأعمام  
لكن شاعر العلويين محمد بن يحيى التغلبي رد على مروان يبرهان مثل برهانه فقال إن بنى  
البنات يرثون كالأعمام ، لأن البنت ذات نصيب في تركة أبيها يصل أحيانا إلى النصف ، وفي  
بعض الأحيان لا يرث العم معها :

لم لا يكون — وإن ذاك لكائن — لبنى البنات وراثة الأعمام  
للبنات نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

(الأغاني ٩/٩٤)

(١) تهذيب الكامل ٨٦/١ .

(٢) المحلين : المراد الخوارج لأنهم خرجوا من عهد كانوا عليه أو أحلوا ما حرم عليهم  
أو لأنه يحمل قتالهم . يوم النخيلة : موقعة بينهم وبين علي بعد موقعة النهروان .

(٣) الأغاني ٦/٢١



## حملة على خصومهم

لم يكن بد من الحملة على خصوم الشيعة ، واتهامهم بالجور والاعتصاب والظلم والحيدة عن الدين .

وفي شعر الشيعة حملات على طلحة والزبير ؛ لأنهما خدعا عليا ، ونكثا بعهدهما ، وحملات على بني أمية وبني مروان ؛ لأنهم عادون على حق الشيعة ، وحملات على عبد الله بن الزبير ؛ لأنه بعد مقتل الحسين جعل يدعو إلى نفسه ، ويناهض الشيعة وبخاصة الكيسانية أنصار محمد بن الحنفية .

١ — سجل الشئى نقض طلحة والزبير لعهدهما مع علي ، إذ قال يحرضه على أن يسير إلى الشام ليقضى على معاوية بعد أن فرع من موقعة الجمل<sup>(١)</sup> :

قل لهذا الإمام قد خبَّت الحر ب وتمت بذلك النعماء  
وفرغنا من حرب من نكث العهد ، وبالشام حية صماء<sup>(٢)</sup>  
تنفث السم ، ما لمن نهشت — ٤ — فارمها قبل أن تعض — شفاء

٢ — في موقعة الجمل قام عمار بن ياسر بين الصفيين ، فقال : أيها الناس ، ما أنصفتم نبيكم ، حيث كففتن نساءكم ، وأبرزتم عقيلة النبي للسيوف . وكانت عائشة على جمل في هودج ، فدنا عمار منها ونادى : إلى ماذا تدعينى ؟ قالت : إلى الطلب بدم عثمان . فقال لها : قتل الله في هذا اليوم الباغي ، والطالب بغير الحق . ثم قال : أيها الناس ، إنكم تعلمون أينما المالى في قتل عثمان ، وأنشد<sup>(٣)</sup>

---

(١) الأخبار الطوال للدينورى ١٥٣

(٢) من نكث العهد : طلحة والزبير . حية الشام : معاوية . بدم موقعة الجمل هلك طلحة والزبير

(٣) مروج الذهب ٩/٢

فمنك البكاء ومنك العويل ومنك الرياح ومنك المطر  
وأنت أمرت بقتل الإمام وقتلته عندنا من أمر

٣ — في موقعة صفين قال عمار بن ياسر : أيها الناس ، هل من رائح إلى الله  
تحت العوالي ؟ والذي نفسي بيده لنقاتلنكم على تأويله ، كما قاتلناكم على تنزيله ،  
وتقدم وهو يقول : (١)

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله  
ضرباً يزيل الهام عن مقليله ويذهل الخليل عن خليله  
أو يرجع الحق إلى سبيله

٤ — قال أئمن بن خريم بن فاتك الأسدي في لوم أبي موسى الأشعري على  
خديته بخيلة عمرو بن العاص :

لو كان للقوم رأى يعظمون به عند الخطوب رموكم بآبن عباس  
لكن رموكم بوغد من ذوى يمين لم يدر ماضرب أخماس بأسداس  
٥ — قال ابن عباس :

أبا موسى بليت وكنت شيخاً قريب العفو مخزون اللسان  
وما عمرو صفاتك يا بن قيس فيالله من شيء — فح يمانى  
فأمسيت العشيّة ذا اعتذار ضعيف الركن منكوب العنان  
تمعض الكف من ندم وماذا يرد عليك عضك بالبنان ؟

٦ — كانت في هذا العصر منذ بدايته نقائص سياسية بين شعراء الأحزاب ،  
متفقة في الوزن والقافية .

وقد تقدمت في الشعر الأموي قصيدة كعب بن جعيل التغلبي في الدعاية لبني  
أمية والحملة على علي أيام النزاع بين علي ومعاوية .

فلما قرأ على القصيدة قال للنجاشي : أجب ، فقال النجاشي قصيدة ينقض بها قصيدة كعب ، وينذر معاوية بأن أهل العراق والحجاز مؤيدون لعلي ، ولن يطيقهم معاوية ، ووصف شجاعتهم ، وذكره ببسالتهم يوم الجمل ، وقد أقسموا ليزيقن أهل الشام هزيمة مرة تشيب نواصي الشبان ، وتهلع منها الحبالى ، فتضع كل ذات حمل حملها .

ثم عبر عن رضا العراقيين والحجازيين بتولية علي ، وبأن يكون العراق مقر الحكم الإسلامى ، واستنكر أن يسوى معاوية بعلي .  
قال النجاشي (١) :

دَعْنُ يَامُعَاوِيَّ مَالَن يَكُونَا	فَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ مَا تَحْذَرُونَا
أَنَا كُمْ عَلِيٌّ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ	وَأَهْلَ الْحِجَازِ فَمَا تَصْنَعُونَا ؟
عَلَى كُلِّ جَرْدَاءٍ خَيْفَانَةٌ	وَأَشْعَثَ نَهْدٌ ، تَسْرُّ الْعَيُونَا (٢)
عَلَيْهَا فَوَارِسُ نَحْسَبُهُمْ	كَأَسَدِ الْعَرِينِ حَمِينَ الْعَرِينَا
يَرُونَ الطَّمَانَ خِلَالَ الْعِجَاجِ	وَضَرَبَ الْقَوَانِسِ فِي النَّقْعِ دِينَا
هُمْ هَزَمُوا الْجَمْعَ جَمَعَ الزُّبَيْرِ	وَطَلْحَةَ وَالْمُعَشَرَ النَّا كَثِينَا
وَقَالُوا : يَمِينَا عَلَى حَلْفَةٍ	أَنْهَدَى إِلَى الشَّامِ حَرْبَا زَبُونَا
تُشِيبُ الْفَوَاصِي قَبْلَ الْمُشِيبِ	وَتُلْقَى الْخَوَامِلُ مِنْهَا الْجَنِينَا
فَإِنْ يَكْرَهُ الْقَوْمُ مُلْكَ الْعِرَاقِ	فَقَدْ مَارَ رَضِينَا الَّذِي تَكْرَهُونَا
فَقُولُوا لَكُكُوبِ أَخِي وَائِلِ	وَمَنْ جَعَلَ الْفَتْحُ يَوْمًا سَمِينَا
جَعَلْتُمْ عَلِيًّا وَأَشْيَاعَهُ	نَظِيرَ ابْنِ هَنْدٍ أَمَا تَسْتَحُونَا ؟

(١) تهذيب الكامل ١ / ٤٠ .

(٢) جرداء : قصيرة الشعر سبابة . خيفانة : جرادة والمراد الفرس الضامرة السبابة .

نهد : فرس حسن جسيم مشرف بمثلى .

٧ — قال يزيد بن مفرغ الحميري لما استلحق معاوية زيادا بأبي سفيان (١) :

ألا أبلغ معاوية بن حرب      مغلغلةً عن الرجل اليماني (٢)  
أتغضب أن يقال أبوك عَفٌّ      وترضى أن يقال أبوك زانى ؟  
فأشهد أن رِحمك من زياد      كرحم الفيل من ولد الأتان (٣)

٨ — قال خالد النجاري في هذا (٤) :

إن زيادا ونافعا وأبا      بكرةً عندي من أعجب العجب  
إن رجالا ثلاثة خلِقُوا      من رحم أتي مخالفو النسب (٥)  
ذا قرشي فيما يقول وذا      مولى ، وذا ابن عمه عربي

٩ — حمل عبد الله بن هشام السلولي على بيعة معاوية لا بنه يزيد في قوله (٦) :

فإن تأتوا برملة أو بهند      نباعها أميرةً مؤمنينا (٧)  
إذا مات كسرى قام كسرى      نمدُّ ثلاثة متناسينا  
فيا لهفا لو أن لنا ألُفًا      ولكن لا نُصود كما عنينا  
إذا لضرِبتم حتى تعودوا      بمكة تلعقون بها السخيفا  
خشينا الفيظ حتى لو شربنا      دماء بنى أمية ما رويننا  
لقد ضاعت رعيكم وأنتم      تصيدون الأرانب غافليننا

١٠ — قال الكمي في الحملة على بني أمية :

(١) الطبري ٦ / ١٧٧ . (٢) رسالة مغلغلة : محولة من بلد إلى بلد ، ذائعة .

(٣) الرحم : القرابة . وهو يشير بقرابة الفيل من الحمار إلى خرافة كانت معروفة ، فقد زعموا أن الحمار والفيل اجتماعا في مرعى ، فطرد الفيل الحمار ، فقال له : لماذا تطردني مع اعتباك الرحم بيني وبينك ؟ قال الفيل : من أين هذا الرحم ؟ قال الحمار : من أن في ... شيئا من خرطومك . فقبل الفيل هذه القرابة ، فسار بها المثل ، فقبل كرحم الفيل من الحمار .

(٤) مروج الذهب ٢ / ٥٧ (٥) الرحم بكسر الراء وفتحها بيت الولد .

(٦) مروج الذهب ٢ / ٧٠ (٧) رملة وهند : بنتا معاوية .

قتل لبني أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا<sup>(١)</sup>  
 ألا أفـ لدهر كنت فيه هـانا طائما لكم مطيعا<sup>(٢)</sup>  
 أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من مجوركم أجيما  
 ويلعن فذ أمته جهارا إذا سأس البرية والخليعا<sup>(٣)</sup>  
 بمرضي السياسة هاشمي يكون حيا لأمنه ربيعا<sup>(٤)</sup>  
 وليثا في المشاهد غير نكس لتقويم البرية مستطيعا<sup>(٥)</sup>  
 يقيم أمورها ويذب عنها ويترك جدبها أبدا مريعا<sup>(٦)</sup>

١١ — كثيرا ما كان السكيت يمزج مدحه للهاشميين بحملته على الأمويين فيصف الشيعة بالعدل ، ويصف بني أمية بالجور ، ويصف الشيعة بحسن السياسة وكما لها ، ويصف الأمويين بأنهم ساسة جبارون ، ينظرون إلى الشعب نظرة الراعي الفاشم لضانة وإبله ، لا يبتغي منها إلا النفع لنفسه ، فهو يشرب لبنها ، ويأكل لحمها ، ويجز صوفها ، ومع ذلك يعذف عليها ، ويكثر من صياحه الزاجر ، كقوله (٧) .

القريبين من ندى والبعيد  
 راجعي الوزن كاملي العدل في السيـ  
 ساسة لا كمن يرى رعية الناـ من سواء ورعية الأنعام<sup>(٩)</sup>  
 لا كعبد المليك أو كوليـ أو سليمان بعد أو كهشام  
 رأيه فيهم كراي ذوى الثلثة في الثأجات جئح الظلام<sup>(١٠)</sup>

(١) المهند : السيف . القطيع : السوط .  
 (٢) الهدان : الجبان .  
 (٣) الفذ : الفرد وهو أول القдах والمراد معاوية أول خلفاء الأمويين . الخليع : المراد الوليد بن عبد الملك .  
 (٤) حيا : مطرا وخيرا .  
 (٥) نكس : جبان .  
 (٦) المريع : الخصب .  
 (٧) الهاشميات ٣  
 (٨) الطب : الخير .  
 (٩) الأنعام : الإبل والشاء .  
 (١٠) الثلة : جماعة الفم . الثأجات : جمع ثأجة وهي الصائحة من الغنم .

جَزُّ ذِي الصَّوْفِ وَانْتِقَالُ لَدَى الْمُخَذَّةِ ، وَانْعَقُّ وَدَعْدَعًا بِالْبِهَامِ<sup>(١)</sup>  
فَهُمُ الْأَرَأْفُونَ بِالنَّاسِ فِي الرَّأْفَةِ وَالْأَحْلَمُونَ فِي الْأَحْلَامِ  
أَخَذُوا الْقَهْدَ وَاسْتَقَامُوا عَلَيْهِ حِينَ مَالَتْ زَوَامِلُ الْآثَامِ<sup>(٢)</sup>

١٢ — وقال السكيت حينما عزل هشام بن عبد الملك عاصم بن عبد الله عن خراسان ، وضمها إلى خالد القسري<sup>(٣)</sup> سنة ١١٦ هـ ، فولاهما خالد أخاه أسد ابن عبد الله :

أَلَا أَبْلِغُ جَمَاعَةَ أَهْلِ مَرَوْ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَأْيٍ وَبُعْدٍ  
رِسَالَةَ نَاصِحٍ يُهْدِي سَلَامًا وَيَأْمُرُ فِي الذِّى رَكَبُوا بِجَدٍّ  
وَأَبْلَغُ حَارِثًا عَنَّا اعْتِذَارًا إِلَيْهِ بِأَنْ مَنْ قَبْلِي يَجْهَدُ<sup>(٤)</sup>  
وَلَوْلَا ذَاكَ قَدْ زَارْتِكَ خَيْلُ مِنَ الْمِصْرَيْنِ بِالْفَرَسَانِ تَرْدِي<sup>(٥)</sup>  
فَلَا تَهِنُوا وَلَا تَرْضُوا بِخَنَفٍ وَلَا يَفِرُّكُمْ أَسَدٌ بَعْدَ<sup>(٦)</sup>  
وَكُونُوا كَالْبَغَايَا إِنْ خُدِعْتُمْ وَإِنْ أَقْرَرْتُمْ ضِيًّا لَوْعَدٍ  
وِإِلَّا فَارْفَمُوا الرَّايَاتِ سُودًا عَلَى أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالْتِمَدَى  
فَكَيْفَ وَأَنْتُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا رَمَاكُمْ خَالِدٌ بِشَبِيهِ قَرْدٍ<sup>(٧)</sup> ؟

١٣ — حمل كثير عزة على عبد الله بن الزبير لما حبس محمد بن الحنفية وبعض شيعته في سجن عارم بمكة ، حينما راجت الدعوة له في العراق بزعمامة المختارين أبي عبيد ، ولما علم أن جيشا من أنصار ابن الحنفية يستعد للهجوم على السجن وإطلاق

(١) ذو الخة : الذى بعظمه . مخ كناية عن سمته . انق : صح بها وازجرها ، ددع بالغم : دعاها . البهام : أولاد اللضآن والمعز .

(٢) زوامل الآثام : الزاملة التى يحمل عليها من الإبل وغيرها ، والمراد بعميل زوامل الآثام ثقلها وكثرتها (٣) الطبرى ٨ / ٢٢٢

(٤) الحارث بن سريح والى خراسان ، خلم وولى مكانه عاصم بن عبد الله .

(٥) تردى : تسرع (٦) أسد بن عبد الله أخو خالد .

(٧) شبيه قرد : المراد أسد بن عبد الله الوالى .



السجناء ، أمر بأن يملأ السجن حطباً وتضرم فيه النار ، وما كادت النار تشتعل حتى وصل نفر من أنصار ابن الحنفية فاستنقذوه ومن معه .

قال كثير في حملته :

فمن يرَ هذا الشيخَ بالخيِّف من مِنِّي      من الناس يعلمُ أنه غير ظالم  
سَميُّ النبي المصطفى وابنُ عمه      وفكاك أغلال ونفّاع غارم  
أبى فهو لا يشرى هُدًى بضلالة      ولا يتقى في الله لومةَ لائم  
ونحن بحمد الله نكلو كتابه      حلولا بهذا الخفيفِ خفيفِ المحارم  
بحيث الحمامُ آدينُ الرُّوعِ ما كن      وحيث العدو كالصديق المسالم  
فما فرَح الدنيا بيباقٍ لأهله      ولا شدة البلوى بضربة لازم  
تُخبِّر من لا قيتَ أنكَ عائد      بل العائد المظلوم في سجن عارم<sup>(١)</sup>

١٤ — في عهد هشام بن عبد الملك ، استعد زين بن علي بن الحسين للثورة بالكوفة ، وكان واليها يومئذ يوسف بن عمر الثقفي ، فقتل زيدا سنة ١٢٢ هـ ثم نبش قبره ، وصلبه بالكُفَّاسة ، وبعث برأسه إلى هشام ، فأمر به فنصب على باب دمشق ، ثم أرسل به إلى المدينة ، وبقي الجسد مصلوبا حتى مات هشام ، ثم أمر الوليد فأزل وأحرق .

ولما وصل رأس زيد إلى المدينة سنة ١٢٣ هـ قام بحمالة شاعر من شعراء الأنصار ، فقال<sup>(٢)</sup> :

ألا يا ناقضَ الميثا      ق أبشرُ بالذي ساكا<sup>(٣)</sup>  
نقضتَ العهدَ والميثا      ق قِدمًا كان قد حاكا<sup>(٤)</sup>  
لقد أخلف إبليسُ الـذي      قد كان منّا كا

(١) عائد: كان ابن الزبير يسمى العائد ، لأنه عاد بالبيت أيام ثار علي يزيد بن معاوية

(٣) سا كا : ساءك .

(٢) الطبري ٢٧١/٨ — ٢٧٨

(٤) حاك : تردد أي الغدر .

ف قيل له ويلك ، أتقول هذا لثلى زيد ؟ فقال : إن الأمير غضبان ، فأردت أن أرضيه .

فرد عليه شاعر من الزبديّة بقوله :

ألا يا شاعر السوء لقد أصبحت أفاكا  
أنشتم ابن رسول الله وترضى من تولاكا ؟  
ألا صبيحك الله بخزى ثم مساكا  
ويوم الحشر لا شك بأن النار مثواكا

١٥ — قال السيد الحميرى (١) فى لعن خراش بن حوشب الشيبانى ، وهو فيما قيل كان من جند يوسف بن عمر ، وهو الذى نبش قبر زيد بن على بن الحسين وصلبه بالسكناسة ، بعد هزيمته فى ثورته التى ثارها على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ :

بت ليلي مسهدا ساهر الطرف مقصدا  
ولقد قلت قولة وأطلت التبلدا  
لعن الله حوشبا وخراشا ومريدا  
ويزيذا فإنه كان أعنى وأعدا  
ألف ألف وألف ألف من اللعن سرمدنا  
إنهم حاربوا الإله وآذوا محمدا  
شركوا فى دم المطهّر زيدا تعندا  
ثم عالوه فوق جذع صريعا مجردا  
يا خراش بن حوشب أنت أشقى الورى غدا

(١) شاعر أدرك الدولتين ، عاش فى الأموية ٢٧ عاما .

١٦ — وما زالت الحملات على بنى أمية تتوالى ، حتى بعد زوال دولتهم وقيام دولة بنى العباس ، ولعل من أشدها قاله دُعَيْل بن علي الخزاعي — ولد سنة ١٤٨ هـ — في قصيدته التائية الملائمة التي قصد بها أبا علي بن موسى الرضا بخراسان ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وخلع عليه بردة من ثيابه ، سامها أهل قم بثلاثين ألف درهم ، فلم يبعها ، فقطعوا عليه الطريق ليأخذوها ، فقال لهم : إنها تراد لله عز وجل ، وهي محرمة عليكم . فدفعوا له ثلاثين ألف درهم ، فحلف ألا يبيعها إلا إذا أعطوه بعضها ليكون في كفنه ، فأعطوه كُماً واحدا منها ، فكان في كفنه .

من قصيدته قوله (١) :

مدارسُ آيات خَلَّتْ من تلاوة	ومنزَلُ وحيٍ مقفر العَرَصاتِ
لآل رسول الله بالْخَيْفِ من منى	وبالركن والتعريف والجبرات
ديار عليٍّ والحسين وجعفر	وحمزة والسجاد ذى الثَّنَاتِ (٢)
قفنا نسأل الدار التي خَفَّ أهلها	متى عَهْدُهَا بالصوم والصلوات ؟
وأين الأولى شَطَّتْ بهم غربة النوى	أفانينَ في الآفاق مفترقات ؟
همُ أهل ميراث النبي إذا اعتزوا	وهمُ خيرُ قاداتٍ وخيرُ حُماة
وما الناس إلا حامدٌ ومكذَّبٌ	ومضطفَنٌ ذو إحنةٍ وتِرات
ملاَمَك في أهل النبي فإنهم	أحبَّاي ما عاشوا وأهلُ ثِقَاتِي
فيارب زدني من يقيني بصيرة	وزد حبَّهم يارب في حسناتي
أحبُّ قَصِي الرُّحْم من أجل حبكم	وأهجر فيكم أمرتي وبناتي
ألم ترأني من ثلاثين حِجَّةً	أرواح وأغدو دائم الحشرات ؟

(١) معجم الأدباء ١١ / ١٠٣ والأغاني ١٨ / ٢٩ .

(٢) الثَّنَات : جمع ثَنَة وهي من الإنسان الركبة ومجتمع الساق والفتخ ، يريد أن ركبته تأثرت بالسجود الكثير ، والمراد بهذا الوصف علي بن عبد الله العباسي لكثرة سجوده .

أرى فيهم في غـيرهم متقسّما وأيديهم من فيهم صفرات<sup>(١)</sup>  
قال رسول الله نُحِفُ جُـسُومُهُم وآل زياد حُفَلِ القَصَرات<sup>(٢)</sup>  
بنات زياد في القصور مصونة وآل رسول الله في الفلوات

— ٥ —

## رجعة الإمام

منذ نشر ابن سبأ دعواه في أن عليا لم يمت ، وأنه سيعود إلى الأرض ليملاؤها  
عدلا ، تأصلت هذه العقيدة في نفوس الشيعة ، ونقلت فرقة الكيسانية عقيدة  
الرجعة إلى محمد بن الحنفية ، فأنكروا موته ، وزعموا أنه يقيم بجبل رَضْوَى  
بالقرب من ينبع ، وأنه سيعود من هذا المكان لينشر ظلال العدل والخير على  
الناس .

ثم قالت جماعة منهم — الاثنا عشرية — إن الإمامة في موسى بن جعفر ، ثم  
في ابنه علي ، إلى أن تصل إلى محمد بن الحسن العسكري ( المتوفى ٢٦٤ ٨٧٨ م )  
وهو الإمام الثاني عشر ، الإمام المنتظر ، وهم يزعمون أنه اختفى بسرداب المسجد  
الجامع في سامرا ، وأنه حي لم يمت ، وسيرجع في آخر الزمان ، فيملا الأرض  
عدلا<sup>(٣)</sup> .

وقال آخرون إن الإمام المنتظر هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر  
ذي الجناحين<sup>(٤)</sup> .

وقد سبق في دراسة المذهب الشيعي أن مزاعم الشيعة صدى لعقائد يهودية  
ومسيحية<sup>(٥)</sup> .

---

(١) الولء : الخراج والغنائم . صفرات : خاليات .

(٢) القصرات : جمع قصرة وهي أصل العنق .

(٣) نقد العلم والعلماء ١٠٣ والفرق بين الفرق ٦٠

(٤) نقد العلم والعلماء ١٠٣ (٥) راجع ما تقدم في دراسة الشيعة .

وما من شك في أن الاضطهاد الذي حاق بالشيعه قد أُرث هذه المزايم ، لأن وراءها أملا يريحهم ، وعزاء عما يلقون من حرمان وإعنات ، وتخففا من أثقال العسف السياسى ، وآلام الحزن والحروب والثورات ، فقد كان الحكم استبداديا ، وكان البيت الأموى منقسما ، وكان العداء مشتعلا بين المضرية والحنفية ، والثورات تزلزل الولايات ، والشيعه والخوارج يثورون ماسنحت لهم الفرص .

١ — كان كثير الشاعر كيسانى المذهب ، يقول إن محمد بن الحنفية هو المهدي الذي سيجلا الأرض عدلا ، بعد ماملت جورا ، ومن شعره في هذا المذهب قوله في الفخر بحفاوة ابن الحنفية به ، وثناؤه عليه ، وسؤاله عن حاله وحال أولاده :

أقر الله عيني إذ دعاني أمينُ الله يَلطُفُ في السؤالِ  
وأثنى في هواي على خيرا وسأله عن بني وكيف حالِ  
وكيف ذكرتُ حالَ أبي خبيبٍ وزلَّةَ فعله عند السؤالِ (١) ؟  
هو المهديُّ خبرناه كعب أخو الأخبار في الحقب الخوالى (٢)

٢ — وقال كثير في أحقية على وبنيه بالخلافة ، وأن ابن الحنفية سيعود (٣) .

ألا إن الأئمة من قریش علی والثلاثة من بنیه  
فسيبسطُ سببُ إيمانٍ وبرٍ وسبسطُ لا يذوق الموت حتى  
تغيب لا يرى فيهم زمانا ولا إن الحق أربعة سواه  
همُ الأسباطُ ليس بهم خفاء وسبسطُ غيبته كزبلاء  
يقود الخليل يتبعها اللواء (٤)  
يرضوى عنده غسل وماء

(١) أبو خبيب : كنية عبد الله بن الزبير .

(٢) كعب الأخبار : يهودى أسلم . سئل كثير : هل لقيت كعبا ؟ وهل خبرك بهذا ؟ فقال : لا . قيل له : فكيف قلت خبرنا كعب ؟ قال : بالثوهم ( الأغاني ١٦/٩ )

(٣) الأغاني ١٤/٩ وديوان كثير ١٨٥/١ والممل والنحل ١٢٣/١ ومروج الذهب ١٠١ ٢ وعيون الأخبار ١٤٤/٢ .

(٤) المراد بسبط الإيمان والبر الحسن بن على ، وبسبط كربلاء الحسين ، وبالسبط الحى محمد ابن على المعروف بابن الحنفية .

٣ — كان السيد الحميري<sup>(١)</sup> — إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري — يدين بأن ابن الحنفية لم يمت ، وأنه حي مقيم في جبل رَضْوَى بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، وسيعود بعد غيبته فيملا الأرض عدلاً وخيراً<sup>(٢)</sup> .

يقول في هذا<sup>(٣)</sup> :

أَطَلْتُ بِذَلِكَ الْجَبَلِ الْمُقَامَا	أَلَا قُلْ لِلْوَصِيِّ فَدَتِكَ نَفْسِي
وَأَهْدِ لَهُ بِمَنْزِلِهِ السَّلَامَا	أَلَا حَيُّ الْمَقِيمِ بِشَعْبِ رَضْوَى
وَسَمُوكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا	أَضُرُّ بِمَعْشَرِ وَالْوَكِّ مَنَا
مَغِيبُكَ <sup>(٤)</sup> عَنْهُمْ سَبْعِينَ عَامَا	وَعَادُوا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طَرَا
تَرَا جَعَهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَا	لَقَدْ أَمْسَى بِمُورِقِ شَعْبِ رَضْوَى
وَلَا وَارَتْ لَهُ أَرْضٌ عَظَامَا <sup>(٥)</sup>	وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةَ طَعْمَ مَوْتِ
وَأَنْدِيَةً تُحَدِّثُهُ كِرَامَا	وَأِنْ لَهُ بِهِ لِمَقِيلٍ صِدْقِ
بِهِ ، وَلَهْدِيهِ نَلْتَمِسُ التَّمَامَا	هَدَانَا اللَّهُ إِذْ جُرْتَمَ لِأَمْرِ
تَرَوْا رَايَاتِنَا تَتَرَى نِظَامَا <sup>(٦)</sup>	تَمَامَ مَوَدَّةِ الْمَهْدَى حَتَّى

٤ — ويقول في هذا<sup>(٧)</sup> .

حَلَفْتُ بِرَبِّ مَكَّةَ وَالْمَصَلَّى وَبَيْتِ طَاهِرِ الْأَرْكَانِ فَرَدِ

(١) ولد السيد الحميري سنة ١٠٥ وتوفي سنة ١٧٣ فأدرك الدولة الأموية والعباسية، وعاش في الدولة الأموية ٢٧ عاماً ولم يتنكر لمذهبه في الدولتين ، لهذا أستدل بشعره في العصر الأموي .  
 (٢) الملل النحل ١/١٣٤ (٣) مروج الذهب ٢/١٠١ والملل والنحل ١/١٩٦  
 (٤) مغيبك فاعل أضر (٥) خولة : أم محمد بن الحنفية :  
 (٦) نسب الدكتور طه حسين هذه القصيدة إلى كثيرهزة ( حديث الأربعاء ١/٢٧١ )  
 والصحيح أنها للسيد الحميري ، لأن البيت الرابع يذكر أن ابن الحنفية تغيب سبعين عاماً ، ومعلوم أن وفاته كانت سنة ٨١ هـ وإذا فإن قائل القصيدة كان يعيش سنة ١٥١ هـ ، ولا يمكن أن يكون هو كثير ، لأنه مات سنة ١٠٥ هـ ، أما السيد فقد مات سنة ١٧٣ .  
 (٧) الأغاني ٤/٧ .



يَطُوفُ بِهِ الْحَبِيبُ وَكُلَّ عَامٍ  
لَقَدْ كَانَ ابْنُ خَوْلَةٍ غَيْرَ شَكٍّ  
فَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ فِيمَا  
سِوَى ذِي الْوَحْيِ أَحْمَدُ أَوْ عَلِيٌّ  
وَمِنْ ذَا يَا ابْنَ خَوْلَةٍ إِذْ رَمَتْنِي  
يُذَبِّبُ عَنْكُمْ وَيَسُدُّ مِمَّا  
وَمَالِي أَنْ أَمْرٌ بِهِ وَلَكِنْ  
فَأَدْرَكَ دَوْلَةً لَكَ لَسْتُ فِيهَا  
هَلْ قَوْمٌ بَغَوْا فِيكُمْ عَلَيْنَا  
لَتَقُلْ بَنَّا عَلَيْهِمْ حَيْثُ كَانُوا

يَحِلُّ لَدَيْهِ وَفَدٌّ بَعْدَ وَفْدٍ  
صَفَاءَ وَلَا يَتَى وَخُلُوصَ وَدَى  
أَمِيرٌ وَمَا أَبُوحُ بِهِ وَأُبْدَى  
وَلَا أَزْكَى وَأَطْيَبُ مِنْهُ عِنْدِي  
بِأَسْمَاءِ الْمَنِيَةِ حِينَ وَعْدِي  
تَتَلَمَّ مِنْ حَصُونِكُمْ كَسَدِي ؟  
أَوْمَلُ أَنْ يُؤَخَّرَ يَوْمُ فَقْدِي  
بِحَبَّارٍ فَتَوْصَفَ بِالْتَّعَدِي  
لَتُعْدِي مِنْهُمْ يَا خَيْرُ مُعَدٍ  
بَغَوْرٍ مِنْ تَهَامَةٍ أَوْ بَنَجَدٍ

ه — وما زالت العقيدة ذات سلطان على الشيعة في العصر العباسي ، لأننا نجدها في شعر كثير من الشعراء ، مثل دَعْبِلِ الْخَزَاعِي ، فإنه في إحدى قصائده رثى لحال الشيعة ، وندد ببني أمية وبزياد ، ثم صَبَّرَ نفسه بأنه ينتظر المهدي الذي يرد إلى الشيعة حقهم ، ويسعد الناس بحكمه العادل ، قال (١) :

فَلَوْلَا الَّذِي أَرْجُوهُ فِي الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ  
خُرُوجُ إِمَامٍ لَا مَحَالَةَ خَارِجٌ  
يُمَيِّزُ فِيمَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ  
فِيَا نَفْسُ طَيِّبِي ثُمَّ يَا نَفْسُ أَبْشُرِي  
فَإِنْ قَرَّبَ الرَّحْمَنُ مِنْ تِلْكَ مُدَّتِي  
شَفِيتُ وَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِي رِزِيَّةً

لَقَطَعْتُ قَلْبِي إِثْرَهُمْ حَسْرَاتِي  
يَقُومُ هَلْ اسْمُ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتِ  
وَيَجْزِي عَلَى النِّعَمَاءِ وَالنَّقَمَاتِ  
فَنَفِيرٌ بَعِيدٌ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ  
وَأَخَرٌ مِنْ عَمْرِي لَطُولُ حَيَاتِي  
وَرَوَّيْتُ مِنْهُمْ مُنْصَلِي وَقَنَاتِي (٢)

(١) معجم الأدباء ١١ / ١٠٩ .

(٢) منهم : من بني أمية . منصلي : سيفي . قناتي : رحمتي .

٦ — وصف الحارث بن عبد الله بن الحُشْرِج الجعدي<sup>(١)</sup> أحوال المسلمين التي جعلتهم يركنون إلى الأمل في مهدي ينقذهم من كربهم ، فقال إن الفتنة صارت عامة شاملة ، تجد آثارها بخراسان وبالعراق وبالشام ، وتجد أمارات الأسي هناك وهناك ، حتى صار المسلمون يخطبون في ظلمات بعضها فوق بعض ، وحتى استوى في الفتنة السفيه والعاقل ، والعالم والجاهل ، وغدا الناس في ضلالة وعماية ومعاطب مقدرة لهم :

أبيت أرعى النجوم مُرتفقا	إذا استقلت تجرى أوائلها <sup>(٢)</sup>
من فتنة أصبحت مُجَلَّة	قد عم أهل الصلاة شاملها <sup>(٣)</sup>
مَنْ بخراسان والعراق وَمَنْ	بالشام كلُّ شجاء شاغلها <sup>(٤)</sup>
فالناس منها في لون مُظلمة	دهاء ملتجة غياطلها <sup>(٥)</sup>
يُمسِي السفيه الذي يُعَنف بالجه	ل سوء فيها وعاكلها
والناس في كربة يسكاد لها	تذيد أولادها حوالمها
يَفدون منها في كل مُبهمَة	عمياء تُمنى لهم غوائلها <sup>(٦)</sup>
لا ينظرُ الناسُ منها في عواقبها	إلا التي لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حُب	لى طرقت قوابلها <sup>(٧)</sup>
فجاء فيما أزرى بوجهته	فيها خطوبٌ حمرٌ زلازلها <sup>(٨)</sup>

(١) الطبري ٣٨/٩ .

(٢) مرتفقا : واقفا ثابتا أو متكئا على مرفق .

(٣) مجللة : عامة . شاملها : مايعم منها .

(٤) شجاء : أحزنه .

(٥) دهاء : سوداء . الغياطل : جمع غيطة وهي الظلمة المترامية ، ملتجة الغياطل

سوادها كثيف متداخل متتابع كأنه موج .

(٦) تمنى لهم : تقدر لهم ويبتلون بها . الغوائل : المهالك .

(٧) البكر ولد الناقة : طرقت : عسر خروج ولدها . القوابل : اللاتي يتلقين المولود

(٨) جاء : اسم فاعل من جاء . أزرى : عاب . الزلازل : البلاء .

## خواص شعرهم

— ١ —

السياسة الدنيوية :

دار شعرهم حول نصرة مذهبهم ، فجاء سياسيا وثيق الصلة بالحزب  
وآلامه وآماله .

١ — فهم يشيّدون بحبهم لآل البيت ، ويجدون في هذا الحب سعادة ومشوبة ،  
ولا يزيدهم اللوم إلا تماديا ، كما رأيت في قول عبدالله بن كُثَيب :

أَيْعَدُّ ذَنْبًا أَنْ أَحِبَّهُمْ بَلْ حُبُّهُمْ كَفَّارَةُ الذَّنْبِ

وفي قول أبي الأسود الدؤلي :

أَحِبَّهُمْ لِحُبِّ اللَّهِ حَتَّى أَجِءَ إِذَا بَعَثَ عَلَى هَوَايَا

فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رَشْدًا أَصِيبُهُ وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غِيَا

٢ — ويتفجعون على موتاهم وقتلاهم ، ويرثون أنصارهم ، كما سبق في رثاء  
أبي الأسود الدؤلي لعلي بن أبي طالب ، ورثاء عبدالله بن الأحمر للحسين ، ورثاء  
هند بنت زيد لجُحَير بن عَدِي .

٣ — احتجوا للشيعه ، فدللوا على أن الخلافة حقهم وحدهم بأدلة دينية  
وعقلية ، كما رأيت في احتجاج الكميث .

ولا شك أن الكميث زعيمهم في هذا الضرب من المقال ، فهو الذي مهد  
لشعرائهم طريق الحاجة ، وفتح لهم أبوابها ، وجهر بما كان يختلج في نفوس كثير  
من الشيعة ، كقوله :

يقولون : لم يورث ، ولولا تراثه لقد شَرِكت فيه بَكِيلٌ وأَرْحَبُ

ولا تَنَشَلَتْ عُضْوَيْنِ مِنْهُ يُجَابِرُ وكان لعبد القيس عضو مؤرَّب

فإن هي لم تصلح لحي سواهم إذا فذو القُربى أحقُّ وأقرب<sup>(١)</sup>

ومعنى هذا بالقياس المنطقي أن بنى أمية يدعون أن النبي لا يورث ، فكيف استأثروا هم بالخلافة ؟ إن الخلافة إذاً حق لكل عربي مسلم ، فمن حق قبائل قحطان وقبائل عدنان أن تطالب بنصيبها منها .

والنتيجة المنطقية لهذا أن النبي يورث .

فإذا كانت وراثته هي الحق الذي لا محيد عنه ، فليس الأمويون هم الورثة ، وإنما العلويون هم الورثة ، لأنهم أقرب إليه .

وقد كان عماد هذا الحجاج القرآن الكريم وأحكام الإسلام ، ثم العقل والمنطق ، والجري في مضمار المعتزلة في تفكيرهم وتدليلهم . أما الاستدلال المنطقي فقد عرفته وأما الاستدلال القرآني فمأخوذ من قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . وقوله : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » وقوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » .

وهذا بين في نصوص الشعر الشيعي التي سلفت .

فلما آل الحكم إلى بنى العباس ، وانقسم بنو هاشم إلى علويين وعباسيين ، لم يعدم العباسيون من يحتج لهم ، ويرد على العلويين .

فهذا مروان بن أبي حفصة ، يحتج للعباسيين بأنهم عصبة النبي ، فهم ورثته ، وليس لأبناء فاطمة أن يرثوه ، يقول في مدح المهدي :

يا ابن الذي ورث النبي محمداً دون الأرقاب من ذوى الأرحام

الوحي بين بنى البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام

(١) الهاشميات ٤٢ بكيل وأرحب : حيان من همدان وهي كهلانية قحطانية . يحابر : قبيلة من مراد وهي كهلانية . عبد القيس : من جديلة من أسد ربيعة وهي عدنانية . مؤرب : تام .

أنى يكون — وليس ذاك بكائن — لبنى البنات وراثه الأعمام<sup>(١)</sup>  
ما للنساء مع الرجال فريضة<sup>٢</sup> نزلت بذلك سورة الأنعام  
ولغيره من الناصرين للعباسيين شعر كثير فى هذا المعنى .

وقد رد شعراء الشيعة على مروان ، كقول أحدهم :  
لم لا يكون — وإن ذاك لكائن — لبنى البنات وراثه الأعمام ؟  
للبنات نصف<sup>٣</sup> كامل من ماله والعم متروك<sup>٤</sup> بغير سهم  
ما للطلاق وللأثرث وإنما صلى للطلاق مخافة الصمصام<sup>(٢)</sup>

على أن وقع بيت مروان :

أنى يكون — وليس ذاك بكائن — لبنى البنات وراثه الأعمام

كان شديدا على الشيعة ، فلعنوه وأبغضوه ، ولم يجد أحدهم وهو صالح بن عطية  
الأضجيم شفاء نفسه إلا فى قتله ، فلزمه ، وجعل يلاطفه ويبره ، ويدون أشعاره ،  
حتى أنس به مروان ، وأنس به بنو حفصة جميعا ، ولم يزل يطلب غرّة من مروان ،  
حتى مرض ، وخلا البيت لهما ، فوثب عليه ، واعتصر عنقه حتى قتله .

٤ — وفى شهرهم حملات على بنى أمية بخاصة ، لأنهم خصومهم الذين انتزعوا  
حقهم ، وقسوا عليهم ، كما ترى فى حملة الشقي<sup>٥</sup> على طلحة والزبير ، وفى سحق  
أيمن بن خريم على أبى موسى الأشعرى بعد أن خدعه عمرو ، وفى تهكم  
يزيد بن مفرغ بمعاوية لما استلحق زيادا بأبى سفيان ، وفى سخريه عبد الله  
بن هشام بمعاوية لما بايع لابنه يزيد ، ثم فى الحملات المثيرة التى حملها الكميث  
على بنى أمية .

كذلك حملوا على الزبيريين ، كما تجد فى حملة كثير على عبد الله بن الزبير لما  
سجن ابن الحنفية بسجن عارم .

(١) وراثه الأعمام : وراثه مثل وراثه الأعمام .

(٢) هذا الرد قائم على أن البنت ترث نصف ثروة أبيها على حين أن أخاه لا يرثه  
فى حالات عدة ، وفى البيت الأخير تنديد بالعباس ، لأنه كان قد أسر مع المشركين يوم بدر  
ثم اقتدى نفسه .

هـ — جهروا بعقيدتهم في رجعة الإمام المنتظر ، لينشر على الناس لواء الأمن والسلام والعدل ، وليخلص المسلمين من مظالم بني أمية ، ويرد إلى الشيعة حقهم للسلوب ، كما رأيت في شعر كثير والسيد الحميري .

— ٢ —

### غلبة السياسة على شعرهم :

يغلب على شعرهم طابعهم المذهبي ، وهذا بَيِّن في شعرهم السياسي ، وبين أيضاً في مدائحهم وأهاجيمهم ومراثيمهم ومناجاتهم لله ، لأن أكثر هذا المدح والهجاء . والرثاء يصل بهم إلى غرضهم المنشود ، وهو الدفاع عن حق الشيعة للسلوب .

ولم نحكم على شعرهم كله بأنه سياسي مذهبي ، لأن بعض شعرائهم قرضوا الشعر في أغراض أخرى .

فالسكيت اضطر إلى مدح بني أمية ، حفاظاً على دمه كما يتبين من ترجمته .

وأيمن بن خُرَيْم الأسدي مدح الأمويين ، واتصل بعبد الملك بن مروان ، وشخص إلى مصر ومدح واليها عبد العزيز بن مروان ، ثم تركه مفضياً إلى الكوفة ، حيث مدح واليها بشر بن مروان (١) .

وكثيرٌ عزة اشتهر بالغزل ، وكان يمدح بني أمية ، وهو على مذهبه الشيعي الكيساني (٢) . يناصر محمد بن الحنفية ، ويدين بالرجعة ، فكيف جمع ولائه لخصمين ؟

(١) الشعر والشعراء ٢١٤ والأغاني ١١/٢١ .

(٢) الأغاني ٣٦/٨ — ٣١ والشعر والشعراء ٤٨٠ — ٤٩٩ .



أما إخلاصه لمذهبه الشيعة فلا جدال فيه ، لأن الشيعة كانوا يثقون بولائه لهم .  
ويظهر أن محمد بن الحنفية أراد أن يستوثق من إخلاصه فقال له : تزعم أنك من  
شيعةنا ، وتمدح آل مروان ؟ فقال : إنما أسخر منهم ، وأجعلهم حيات وعقارب  
وأخذ أموالهم .

وأما مدحه لبني أمية وبني مروان فقد كان نقاقا وخدعة ورغبة في عطايتهم ،  
ولم يكونوا يجهلون ذلك ، وإنما كانوا يحتملونه منه ، لأنه كان بارعا في مدحهم ،  
جليلا في أعينهم ، لطيف المداخل إلى نفوسهم (١) .

ثم إنه كان يشيد بقريش وببني هاشم وبني أمية ، ويتجافى عن الزيريين ويهجوهم  
ويحمل عليهم ، فيرضى الشيعة ، لأنه يحمل على الزيريين خصوصهم ، ويرضى بني أمية ،  
لأنه ثار على الزيريين أعدائهم .

وهو بتشيعه لا يعضب الأمويين ، لأنه يمدحهم ، وينال عطاءهم ورحبائهم ، ولا  
يشهر بهم كما يفعل غيره من شعراء الشيعة .

وهو يمدحه للأمويين لايستخط الشيعة ؛ لأنهم واثقون من حبه لهم ، ومظمثون  
إلى أنه على مذهبهم فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين الناس . وإنما يمدح بني أمية  
تقية من ناحية ، وجريا وراء الكسب من ناحية ، وزعماء الشيعة أنفسهم كانوا  
يصانعون بني أمية إذا ما وجدوا المصانعة أولى وأجدى .

وأما السيد الحميري (٢) فقد كان متشيعا صادقا في تشيعه غالبا فيه على مذهب  
الكيسانية ، وكان يحب آل البيت حبا فيه إخلاص وفيه سذاجة ، ما في  
ذلك شك .

ثم لم يحيد في العصر العباسي عن تشيعه ، أو يستره كله أو بعضه ، بل إنه كان  
يعلن حبه ، ويجهر به ، ويذيع الدعوة لآل علي .

وكان في الوقت نفسه مداحا لبني العباس ، ينال عطاياهم ، وينعم بأقرب منهم ؛

(١) الأغاني ٤/٩ .

(٢) من مخضرمي الدولتين ، عاش في الأموية ٢٧ عاما .

ولا يجد في تقريرهم له إنكاراً لتشيعة ، أو محاولة لصرفه عنه .

وليس بعسير تعليل ذلك ، فإن السيد الحميري كان مخلصاً لآل علي ، وكان مخلصاً لآل العباس معاً ، لكن إخلاصه للعلويين كان أعمق وأقوى وأشد . كان علوي المذهب أيام بني أمية ، وكان يضيق أشد الضيق ، ويألم أشد الألم ، مما يلقي الشيعة من نكال بني أمية ، ويتشوف إلى زوال ملكهم ، والقصاص منهم ، ويتلهف على أن يرث الشيعة سلطان بني أمية ، لأنه حقهم الشرعي المقتضب . فلما أдал الله من بني أمية ، وخلفهم بنو العباس لا بنو علي ، أنكر كثير من الشيعة هذا المصير ، وانصرفوا عن الدولة الجديدة ، وتربصوا بها وثاروا عليها ، ولم ينكر كثير منهم هذا المصير ، بل ارتضوه واطمأنوا إليه وأخلصوا له ، لأنه حقق ما كانوا يأملون ، إذ تقوض صرح بني أمية ، وقام صرح بني هاشم .

وقد كان السيد الحميري من هؤلاء الراضين الذين اطمأنوا وأخلصوا لبني العباس ، فلم ينقم منهم أنهم استأثروا بالخلافة دون بني عليّ الذين كان يهواهم ، وما زال عليّ هوأه إياهم ، ولم يبتهج بهم لأنهم غلبوا بني عليّ على الخلافة ، واختصوا بها نفوسهم ، وإنما استبشر بقيام دولتهم ، لأنهم من بني هاشم ، وقد فازوا على بني أمية ، وما علىّ والعباس إلا فرعان من هاشم ، بل فرعان قريبان أشد القرب ، وأبناء هذا وأبناء ذاك يتنازعون في أيهم أعظم قرابة من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأيهم أحق بوراثته ، أعمه العباس أم ابن عمه وزوج ابنته عليّ ؟ فأيهم غلب على الملك ، وفاز على بني أمية كان جديراً بأن يرضى به السيد الحميري ويخلص له .

ولقد يعزز هذا أنه كان شديد الحنق على أبي بكر وعمر وعثمان ، طالما لهج بثلهم والانتقاص من قدرهم ، ولم يدع منقصة إلا وصم بها السلف الصالح من خيار الأمة ، حتى أبغضه كثير من الناس ، ونفروا من رواية شعره ، وكان هذا سبباً في تأخيره عن منزله الأدبية « ولولا ما في شعره من سب السلف ما تقدمه أحد من طبقته » (١) .

فلماذا حمل على أبي بكر وعمر وعثمان ؟ لم يحمل عليهم إلا لأنهم تولوا الخلافة وليسوا من بني هاشم ، ولو أنهم كانوا من بني هاشم ما حمل عليهم أو لكان رأيهم أقرب إلى اللين والعتاب .

على أن هذا التعليل لا يتنافى مع رغبته في عطاء بني العباس ، فلو أن الأمر قد صار إلى بني علي ، لكان له من أموالهم نصيب ، ولصار المال الذي يناله منهم غير صالح لأن يعطى به وحده إقباله على مدحهم والدعاية لهم ، لأنه من شيعتهم والسلطان ليس لهم ، ومن شيعتهم وليس في يده من أموالهم شيء .

### — ٣ —

#### مرارة العاطفة :

شعرهم حار ملتهب لأنه تعبير عن عواطف قوية صادقة ، وتنفيس عن نفوس مهتاجة ثائرة .

فهم غضاب ساخطون ، لأن بني أمية سلبوهم حقهم ، وغصبوهم مكانهم ، فصوروا غضبهم في شعر حانق على الأمويين .

وهم حزناء كثيرو البكاء مما حل بهم من اضطهاد وعسف وتنكيل وتقتيل ، شديدو الحسرات على حقهم المفضوب ، وملوكهم المسلوب . لهذا برعوا في تصوير منازل بهم من نكبات وأهوال ، وبرعوا في الموازنة بين حالهم — وهم أصحاب الحق الشرعى — وحال بني أمية وولاتهم — وهم غاصبون للحكم — ليستثيروا بذلك العزائم إلى الثورة .

وهم يحبون آل البيت أقوى الحب وأصدق ، لا يبتغون من حبهم مالا ولا جاها ولا عرضاً من أعراض الدنيا ، وإنما يجدون فيه زلفى إلى الله ، وأملأ في ثوابه ، ويصبرون على ما ينزل بهم من شدائد ومظالم عقابا لهم على هذا الحب ، فلم يزدتهم اضطهاد بني أمية إلا تماديا في حبهم لآل البيت وتشيعا لهم .

وعن هذا الولاء الخالص صدرت مدائحهم لزعمائهم من آل البيت ، كما رأيت في نماذج شعرهم .

## ملزمة الأسلوب للبائع :

يختلف أسلوبهم باختلاف البواعث .

فإذا حملوا على بنى أمية جاء أسلوبهم قويامهتاجا ، لأنه يصور حنقهم وغضبهم وثورة نفوسهم ، كما تجدد في حملات الكميت وفي قصيدة عبد الله بن هشام السلولى .

وإذا جنحوا إلى المحاجة والتدليل على استحقاق الشيعة للخلافة ، أو التبشير برجعة الإمام ، كان أسلوبهم هادئا ، كما نجد في نماذج الكميت وكثير السيد الحميرى .

وإذا صوروا نكباتهم ، وبكوا آلامهم . وتحسروا على حقهم المسلوب ، جاء أسلوبهم حزينا باكيا ، كما تجد في قصيدة الحارث بن عبد الله الجعدى .

وإذا مدحوا آل البيت جاء مدحهم جزلا نفعا متدفقا ، كقول الكميت (١) :

بل هوأى الذى أجنُّ وأبْدَى لبنى هاشم فُروع الأُنام (٢)

القريبين من نَدَى والبعيدين من الجور فى عُرَى الأحكام (٣)

والمصيبين بابَ ما أخطأ الناس ومُرَمِّى قواعدِ الإسلام

والحماة الكفافة فى الحرب إن لـفَّ ضِرَامٌ وقودَه بضرام (٤)

والغيوث الذين إن أمحل الفاسُ فمأوى حواضن الأيتام (٥)

(١) الهاشميات .

(٢) أجن : أستر وأضر . فروع الأُنام : أعلى الناس .

(٣) ندى . كرم . عرى الأحكام : شئون الحكم ومقابضه .

(٤) الضرام : الوقود المشتعل .

(٥) الغيوث : جمع غيث وهو المطر والمراد هنا الكرماء . أمحل الناس : أجذبوا واحتاجوا .

حواضن الأيتام : المراد النساء الأيتام اللاتي يربين أبناءهن يتامى .

## بين شعرهم وشعر الأمويين :

وإذا ما وازنا بين شعرهم وشعر الأمويين انتهينا إلى عدة نتائج :

١ — شعر الأمويين يمثل القوة والاعتداد بالسلطان والإشادة بمظاهر العظمة ،  
على حين أن كثيرا من شعر الشيعة يمثل الحزن على ما فاتهم من حق ، ويصور  
الحسرة على سلطانهم المغضوب ، والوجعة من النكبات النازلة بهم .

٢ — شعراء الشيعة أكثر إخلاصا لمذهبهم من شعراء بني أمية ؛ لأن  
الأكثرين من الشيعة حبسوا إلتاجهم على السياسة ، ولم يتنقلوا من حزب إلى  
حزب ، وقليل منهم تناولوا فنونا أخرى غير السياسة ، بينما كان شعراء بني أمية  
يتناولون مع السياسة فنونا أخرى ، وكان كثير منهم طالب عطاء أو راجى سلامة ،  
أو دخلا على الأموية من حزب آخر .

ومن هنا نجد العواطف في شعر الشيعة أصدق وأحر من العواطف في شعر الأمويين .

٣ — شعراء الشيعة يحتجون لحقهم في الخلافة بآيات من القرآن الكريم  
ومن القياس المنطقي ، أما شعراء الأمويين فلم يفعلوا ذلك ، لأن الدولة لم تقم على  
أساس ديني أو حق شرعي .

## الفصل الثالث

### شِعْر الخوارج

- ١ -

#### شجاعتهم وتقواهم

١ - لما قتل عبيد الله بن زياد عُرْوَة بن أَدِيَّة . وجعل يشكّل بالخوارج ،  
وينحالف أحكام الإسلام ، خرج أخوه أبو بلال مرداس بن أَدِيَّة في أربعين من  
أصحابه ، كراهية للإقامة بالبصرة ، واتجهوا إلى الأهواز ، وتعاهدوا على الدعوة  
إلى العدل والإصلاح ، ألا يبدأوا أحداً بقتال ، وألا يقاتلوا إلا إذا قوتلوا . فأرسل  
ابن زياد في إثرهم أسلم بن زُرْعَة بن حصن التميمي في ألفين من الجند ، فلاحقوا  
بهم عند آسك ، وقاتلوهم ، فشدّ أبو بلال وصحبه عليهم شدة المستميت ، حتى  
هزموهم ، ورجع أسلم إلى البصرة كسيفاً ، وعنفه ابن زياد ، وغيره الناس ،  
فقال عيسى بن فاتك في قصيدة له (١) :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا إلى الجُرد العِتاق مَسُومِينَا (٢)  
فلما استجمعوا حملوا عليهم فظل ذوو الجعائل يُقَتِّلُونَا (٣)  
بقية يومهم حتى أتاهم سوادُ الليل فيه يراو غونا  
يقول بصيرهم لما أتاهم بأن القوم ولوا هاربينا  
ألفاً مؤمن فيما زعمتم وبهزمهم بآسك أربعونا (٤)

(١) الطبري ١٧٤/٦ وتهذيب الكامل ١٠٥/١

(٢) الجرد العِتاق : الحيل الجياد الكريمة . مسومين : معلمين ، دلالة على بأسهم وعدم

مبالاتهم . (٣) ذوو الجعائل : جنود بني أمية المأجورون .

(٤) آسك : موضع بهمدان كانت الواقعة فيه .



كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنون  
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرون

٢- وصفهم الطرماح بأنهم يقومون الليل ، ويكثرون من الحنين إلى  
الجنة ، ويكثرون الأنين خوفا من النار ، حتى لتكاد قلوبهم تنطلق من صدورهم ،  
ثم قال إنهم تهافتوا على الحرب ففنوا ، وإنهم حراس على مذهبهم ، ومطمئنون  
به إلى حسن عاقبتهم وعظيم ثوابهم .

قال الطرماح (١) :

لله دَرُّ الشُّرَاةِ إِيَّاهُمْ إِذَا الْكَرَى مَالٌ بِالطَّلَا أَرَقُوا (٢)  
يُرَجِّعُونَ الْخَنِينَ آوَةً وَإِنْ عَالَ سَاعَةً بِهِمْ شَهَقُوا  
خَوْفًا تَبَيَّتِ الْقُلُوبُ وَاجِفَةً تَكَادُ عَنْهَا الصُّدُورُ تَنْفَلِقُ  
كَيْفَ أَرْجَى الْحَيَاةَ بَعْدَهُمْ وَقَدْ قَضَى مُؤْنِسِيٌّ فَانْطَلَقُوا  
قَوْمٌ شِحَاحٌ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ بِالْفُوزِ مِمَّا يُخَافُ قَدْ وَثِقُوا

٣ - وقال الطرماح في الخوف من عذاب النار :

لَقَدْ شَقِيبُ شَقَاءٍ لَا انْقِطَاعَ لَهُ إِنْ لَمْ أَفْزِ فَوْزَةً تُنَجِّي مِنَ النَّارِ  
وَالنَّارُ لَمْ يَنْبَجْ مِنْ رَوْعَاتِهَا أَحَدٌ إِلَّا الْمُنِيبَ بِقَلْبِ الْخَلَّاصِ الشَّارِي

٤ - من وصف عمرو بن الحصين مولى تميم ، لتقوى الخوارج  
وشجاعتهم :

مَتَأَوُّهُونَ كَأَنَّ جَرَّ غَضًّا لِلْخَوْفِ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ يَسْرَى  
تَلْقَامُ الْأَ كَأَنَّهُمْ لَخُشُوعِهِمْ صَدَّرُوا عَنِ الْحَشْرِ (٣)

(٢) ديوان الطرماح ١٥٧ والأغاني ١٥٢/١٠ .

(٢) الكرى النوم : الطلا : الأعناق جمع طلية وطلاة .

(٣) ألا : من أل يثل أى أن وحن ورفع صوته بالدعا .

وهم مساعرو في الوغى رُجِحٌ وخيارٌ من يمشي على العفر<sup>(١)</sup>  
حتى وفوا لله حيث لقوا بهودٍ لا كذبٍ ولا غدرٍ

• — يتشوق الطرماح<sup>(٢)</sup> إلى أن يموت في ميدان الجهاد مع إخوانه المجاهدين الذين ألف بينهم هدى الله ، ويصفهم بالتقوى والشجاعة والاستهانة بالدنيا المليئة بالشر ، والرغبة في الآخرة الحافلة بالخير ، ويرسم صورة مشيرة للميتة التي يودها الشراة ، ويودها الطرماح لنفسه : أن يقتل بسيف الأعداء ، وتترك جثته في العراء ، فتنهشها النسور ، وتبعثر عظامه في الصحراء ، كما تبعثر قبضة الكلاء في خلاء عاصف :

أذا العرش إن حانت وفاتي فلا تكن  
على شرجعٍ يُعلَى بخضر المطارف<sup>(٣)</sup>  
والكن أحن يومى سعيدا بمصبة  
بصابون في فجع من الأرض خائف  
عصائب من شتى يؤلف بينهم  
هدى الله ، نزالون عند المواقف  
فوارس من شديبان ألف بينهم  
تقى الله نزالون عند التراحف  
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى  
وصاروا إلى موعود مافي المصاحف  
فأقتل قمصاً ثم يرُمى بأعظمى

كضغث الخلا بين الرياح العواصف<sup>(٤)</sup>  
ويصبح لحي بين طير مقيله<sup>(٥)</sup> دؤين السماء في نسور عواكف<sup>(٥)</sup>  
٦ — صورة قطري بن الفجاءة شجاعته في قوله<sup>(٦)</sup> :

(١) مساعر : جمع مسعر وهو الشجاع . رجح : المراد أنهم أهل رزاة . العفر : التراب .

(٢) ديوان الطرماح ١٥٥ والأغاني ١٥٢/١٠ .

(٣) شرجع : نعش . خضر المطارف : ما يغطي به النعش من أغصان خضر .

(٤) النعص : الموت السريع ، أو موت الرجل بضربة في مكانه . ضغث الخلا : قبضة

الكلاء . (٥) مقيله : مكانه ظهرا .

(٦) شرح حماسه أبي تمام للتبريزي ٥٠/١ .

أقول لها وقد طارت شَماعا من الأبطال ويحك لن تراعى<sup>(١)</sup>  
 فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تطاعى  
 فصبراً فى مجال الموت صبرا فما ثَبِيلُ الخلود بمستطاع  
 ولا ثوب البقاء بثوب عِزٍّ فَيُطَوَى عن أخى الخنوع اليراع<sup>(٢)</sup>  
 سبيلُ الموت غايةُ كل حَيٍّ وداعيه لأهل الأرض داعى  
 ومن لا يُمْتَبِطُ يَسَام وَيَهْرَم وتسلمه المنونُ إلى انقطاع<sup>(٣)</sup>  
 وما للمرء خيرٌ فى حياة إذا ما عُدَّ من سَقَط المتاع

— ٢ —

## حُضْ عَلَى الثَّوْرَةِ

١ — حبس المفيرة بن شعبة جماعة من الخوارج سنة ٤٣ هـ هو حُضْ أَهْلَ الْمَصْرِ عَلَى  
 نَفِيٍّ مِنْ بَقِيٍّ مِنْهُمْ ، فَقَالَ مَعَاذُ بَنِي جَوْشَنِ الْخَارِجِيِّ<sup>(٤)</sup> :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئٍ شَرَى نفسه لله أن يترجلاً  
 أقمم بدار الخـاطئين جهالةً وكل امرئٍ منكم يصاد ليُقْتَلَ  
 فشدوا على القوم العُداءَ فإنما إقامتكم للذبح رأيا مُضِلًّا  
 ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التى إذا ذُكِرَتْ كانت أَبْرَ وأعدلا  
 فياليتنى فيكم على ظهر ساج

شديد القصيرى دارعا ليس أعزلا<sup>(٥)</sup>

(١) شماعا : متفرقا . لن تراعى : لن تفرعى .

(٢) أخو الخنوع . الذليل . اليراع : الجبان .

(٣) يمتبط : يموت من غير علة

(٤) الطبرى ١٠٧/٦ .

(٥) القصيرى : أسفل الأضلاع أو آخر ضلع فى الجنب .

وضعت ليس بدلا من غير كما فى الأصل ليسلم البيت من الإقواء .

وبالينى فيكم أعادى عدوكم فيسقينى كأس المنية أولا  
يمز على أن تخافوا وتطردوا ولما أجرد في المحلين منصلا<sup>(١)</sup>  
ولما يفرق جمعهم كل ماجد إذا قلت قد وتلى وأذبر أقبالا  
مشيحا بنصل السيف في خمس الوغى

يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا  
وعز على أن تضاموا وتنقصوا وأصبح ذا بث أسيرا مكبلا  
ولو أنى فيكم وقد قصدوا لكم أثرت إذا بين الفريقين قسطالا<sup>(٢)</sup>  
فيارب جمع قد فلات وغارة شهدت وقرن قد تركت مجدك<sup>(٣)</sup>  
٢ — قال أبو بلال مرادس بن أدية<sup>(٤)</sup>.

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى  
ومن خاض في تلك الحروب المهالكا<sup>(٥)</sup>  
أحب بقاء إذا رجى سلامة  
وقد قتلوا زيد بن حصن وما لكا  
فيارب سلم نبقى وبصيرتى  
وهب لى التقى حتى ألقى أولكا  
٣ — قال عمران بن حطان فى رثاء أبى بلال مرادس لما قتل هو وبعض الصفرية<sup>(٦)</sup>.

(١) المحلين : المراد بنو أمية لأنهم اتهموا كوا الحرمات وأحلوا ما حرم الله ، أو لأنهم  
يحل قتالهم فى رأى الخوارج لأنهم لا عهد لهم ولا حرمة :  
(٢) القسطل : الغبار .  
(٣) فلك : هزمت . قرن : مثيل . مجدلا : المراد صريحا .  
(٤) الكامل للمبرد ٣ / ٢٥٠ .  
(٥) ابن دهمبة عبد الله بن دهمب الراسبي الذى كان زعيم الخوارج .  
(٦) الكامل للمبرد ٣ / ١٦٨

٣ — قال عمران بن حطان في رثاء أبي بلال مرداس لما قتل هو وبعض الصفرية (١) :

لقد زاد الحياة إلى بُغضاً وحبا للخروج أبو بلال  
أحاذرُ أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرا العوالي  
ولو أني علمت بأن حَتْفِي كحَتْف أبي بلال لم أبال  
فمن يك همه الدنيا فإني لها والله رب البيت قالي

٤ — قال الرُّهَيْن المُرَادِي (٢) :

يانفس قد طال في الدنيا سراوغي لا تأمننْ لصرف الدهر تنفيسا  
إني لبائعُ ما يَفْنَى لباقيَةٍ إن لم يَعْقُنِي رجاء العيش تريبصا (٣)  
واسأل الله بَيْعَ النفس محتسبا حتى ألاقى في الفردوس حُرْقوصا  
وابن المنيع ومرداسا وإخوته إذ فارقوا زهرة الدنيا مخاميصا (٤)

٥ — كتب قطري بن الفجاءة المازني إلى أبي خالد القناني ، وكان من قعدة الخوارج (٥) :

أبا خالد إنفِرْ فليستَ بخالد وما جعل الرحمن عذرا لقاعد  
أتزعم أن الخارجى على الهدى وأنت مقيم بين لص وجاحد ؟  
فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحياة إلى حبا بنات إنهن من الضعاف

(١) الكامل للمبرد ١٦٨/٣

(١) الكامل للمبرد ٢٦٢/٣ .

(٢) التريبص : الإمهال :

(٣) حرقوص : هو ذو الشدية .

(٤) مخاميص : جمع مخماس وهو الضامر البطن

(٥) الكامل للمبرد ١٦٧/٣ .

أحاذر أن يرَيْنَ الفقر بعدى      وأن يشرِبَ رَنَقًا بعد صاف  
وأن يَعْرِينَ إن كُسى الجوارى      فتنبو العين عن كرم عجاف  
ولولا ذاك قد سوَّمت مهرى      وفي الرحمن للضعفاء كاف

— ٣ —

## رثاء القتلى

١ — قال عمران بن حطان في رثاء أبي بلال مرادس بن أدية<sup>(١)</sup> :

يا عين بكى لمرداسٍ ومصرعه      ياربَّ مرداسٍ اجعلنى كمرداس  
تركتنى هائما أبكى لمرزئتى      فى منزل موحشٍ من بعد إيناس  
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه      ما الناس بعدك يا مرداس بالناس  
إما شربت بكأس دار أولها      على القرون فذاقوا جرعة الكاس  
فكل من لم يذُقها شاربٌ عجلاً      منها بأنفاسٍ وزدٍ بعد أنفاس

٢ — وقال عيسى بن قاتك الحبطى في رثاء مرداس ومن قتلوا معه<sup>(٢)</sup> :

ألا فى الله لافى الناس شالت      بداود وإخوته الجذوعُ  
مَضَوْا قَتَلًا وتمزيقا وصلبا      تحوم عليهم طير وقوع  
إذا ما الليل أظلم كابدوه      فيسفر عنهم وهم ركوع  
أطال الخوف نومهم فقاموا      وأهل الأمن فى الدنيا هجوع

(١) الكامل للمبرد ٣/١٦٨ .

(٢) المرجع السابق ٣/٢٥٥ .



٣ — لما قتل مسلمة بن عبد الملك شوذبا الخارجي (بسطام البشكري)  
وصحبه سنة ١٠١ هـ رثاهم حسان بن جعدة بقوله<sup>(١)</sup>:

يا عين أذري دموعاً منك تسجاًما      وابكى صحابة بسطام وبسطاماً  
فلن ترى أبداً ما عشت مثلهم      أنقى وأكمل في الأحلام أحلاماً  
بسيهم قد ناسوا عند شدتهم      ولم يريدوا عن الأعداء إحجاماً  
حتى مضوا للذي كانوا له خرجوا      فأورثونا منارات وأعلاماً  
إني لأعلم أن قد أنزلوا غرقاً      من الجنان ونالوا ثم خداماً  
أسقى الإله بلاداً كان مصرعهم      فيها سحابة من الوسمي سجّاماً

٤ — قتل عبد الله بن الماحوز في موقعة سلى وسلبرى<sup>(٢)</sup> بين المهلب  
والخوارج ، فقال خارجي في رثائه<sup>(٣)</sup> :

بسلى وسلبرى مصارع فتية      كرام وعقرى من كميّت ومن ورد<sup>(٤)</sup>  
وقال آخر :

بسلى وسلبرى جحاجم فتية      كرام وصرعى لم توسد خدودها<sup>(٥)</sup>  
وقال ثالث :

فإن تلك قتلى يوم بسلى تتابعت      فكم غادرت أسيافنا من قمام  
غداة نكر المشرفيّة فيهم      بسولاف يوم المازق المتلاحم<sup>(٦)</sup>

(١) تاريخ الطبرى ١٤٤/٨ .

(٢) موضع بالأهواز بالقرب من جند يسابور . (٣) شرح نهج البلاغة ٣٨٧/١

(٤) كميّت : فرس في لونه سواد إلى حمرة . ورد : أحمر

(٥) لم توسد خدودها : لم يألّفوا الفراش

(٦) المشرفيّة : السيوف . سولاف : موقعة بين الخوارج وخصومهم

## تكفير مخالفهم

١ — من اتهم الخوارج لمخالفهم بالكفر والإلحاد قول أم عمران بن الحارث الراسبي في رثائه لما قتل (١) :

الله أيد عمراننا وطهره      وكان عمران يدعو الله في السَّعَرِ  
يدعوه سرا وإعلانا ليرزقه      شهادةً بيدي ملحادةٍ غُدر (٢)  
ولى صحابته عن حرٍّ مَلْجَمَةٍ      وشدَّ عمران كالضُرْغامَةِ الهَمِيرِ (٣)

٢ — ومن اتهمهم لخصومهم بالكفر قول قطري بن الفجاءة في يوم دولا ب (٤) :

لعمرك إني في الحياة لزاهد      وفي العيش مالم ألق أم حكيم  
.....

فلو شهدتنا يوم داك وخيلنا      تبيح من الكفار كلَّ حريم  
رأت فتيةً باعوا الإله نفوسهم      بجنات عَذْنٍ عنده ونعيم

## ألم من الفرقة

دبت عقارب الخلاف بين الأزارقة ، نخلع بعضهم قطري بن الفجاءة ،  
وولوا عبد ربه الصغير ، وجعل المهلب يقاتلها ، فقال الصلت بن مرة أوزيد  
ابن جندب (٥) :

(١) تهذيب الكامل ١/١٣٠ .

(٢) ملحادة : مقال في كفره .

(٣) حرملة : معركة شديدة حامية . الضرغامه : الأسد . الهمير : القتال .

(٤) تهذيب الكامل ١/١٣٠ والأغاني ٦/٥ يوم دولا ب : موقعة بخارج البصرة بين

نافع بن الأزرق وأتباعه من الخوارج وبين البصريين .

(٥) تهذيب الكامل ١/٢٠٦ وفي البيان والتبيين ١/٤٢ نسبة الايات لزيد بن

قل للمُجَلِّين قد قرَّت عيونكم بفرقة القوم والبغضاء والهرب<sup>(١)</sup>  
 كنا أناسا على دين فقيرنا طول الجدل وخلط الجسد باللعب  
 ما كان أغنى رجلا ضل سعيهم عن الجدل وأغناهم عن الخطب  
 إني لأهونكم في الأرض مضطربا مالى سوى فرسى والرمح من نشب

## خواص شعرهم

— ١ —

### السياسة الرئيسة :

مجال هذا الشعر وميدانه السياسة ، فقد جال شعراؤهم في فلكها ، ولم يتجاوزوه .

١ — ففيه دعوة إلى مذهبهم ، واحتجاج له ، ودفاع عنه ، ونقض لمذهب خصومهم .

٢ — وفيه تصوير صادق لشجاعتهم وبطولتهم واستنابتهم بلقاء الأبطال ، كقول عمرو بن الحصين<sup>(٢)</sup>

وهم مساعرو في الوغى رُجِحَ وخيارُ من يمشى على العفر  
 وقول الطرمّاح<sup>(٣)</sup> :

عصائبُ من شتى يؤلّف بينهم هُدَى الله ، نَزَّالون عند المواقف  
 فوارسُ من شيبان ألف بينهم تُقَى الله ، نَزَّالون عند التّزاحف

(١) المحلون: المراد هنا المهلب وبنو أمية ، أو الفرقة المنشقة على الأزارقة ، لأنهم استحلوا الحرم ، وكان الخوارج يطلقون هذا الوصف على خصومهم ويطلقه عليهم خصومهم . الهرب: لأن قطريا هرب لما قتل المهلب بن أبي صفرة زعيم الخوارج الآخر عبدربه .  
 (٢) النموذج ٤ من نماذج الشجاعة . (٣) النموذج ٥

وقوله في تمنى الموت بميدان الجهاد كما مات إخوانه :

ولكن أحن يومى سميدا بعصبة      يصابون في فنج من الأرض خائف  
فأقتل قمصاً ثم يرعى بأعظمى      كضيفت الخلابين الرياح المعواصف  
ويصيح لحي بين طير مقيله      دوين السماء في نسور عوا كف

٣ — وفيه تصوير لتقواهم وصلاتهم وزهدهم ، كما رأيت في قصيدة عيسى بن فاتك ، وفي قول عمرو بن الحصين (١) :

متأوهون كأن جمر غصاً      للخوف بين ضلوعهم يسرى  
تلقاهم ألا كأنهم      لخشوعهم صدروا عن الحشر

٤ — وهم يحضون على الثورة ، وإسقاط خصومهم ، كما سبق في قصيدة معاذ بن جوين ، كقوله :

فشدوا على القوم العداة فإنما      إقامتكم للذبح رأيا مضللاً

٥ — وفي شعرهم وصف لمخالفيهم بالكفر والإلحاد ، كما تجد في قول أم عمران ابن الحارث (٢) ، وفي قول قطري بن الفجاءة (٣) .

٦ — وكثيراً ما رثوا قتلاهم ، وتفجعوا على فقدهم ، وأشادوا بتقواهم وشجاعتهم ، وودوا ليلحقون بهم .

## — ٢ —

### جزالة الأسلوب وقوته :

يتسم أسلوبهم بالجزالة والقوة ، ففيه من صلابتهم وحماستهم واندفاعهم ووضوحهم .

وهذا هو المتوقع من حزب بدوي ، لم تفسده الحضارة ، ولم يضعفه الترف ، وهو إلى ذلك صاحب مذهب متميز في الحكومة والحاكم يفاير مذهب الأمويين .

(١) نموذج ٤ من الشجاعة . (٢) نموذج ١ من التكفير . (٣) نموذج ٢ .

والشيعة والزبيريين ، لم يقتصر في الدعوة إليه على القول ، وإنما دعا إليه وصانه بالسيف واللسان معاً ، فجاء تعبير الشعراء عن مذهبهم ودعايتهم له صدى لعاطفة صادقة .  
ثم إن الخوارج كانوا أعظم الأحزاب السياسية إقبالا على حفظ القرآن الكريم ، ومدارسته والتأثر به .

سأل الحجاج سبرة بن الجعد — من الخوارج — : هل قرأت القرآن ؟  
فقال سبرة : حفظته في صدري<sup>(١)</sup> . وكان نافع بن الأزرق مقدما في فقه الخوارج ، وبينه وبين عبد الله بن عباس مسائل كثيرة<sup>(٢)</sup> .

وكان الرُّهَين المرادى الشاعر الخارجي الذي لا يرى العقود عن الحرب ، وكان عمران بن حطان شاعر الصفرية ورئيسهم وخطيبهم ، عليمين بالشعر والفقه ، ولهما مسائل كثيرة في العلم بالقرآن والآثار والسير والسنن والغريب<sup>(٣)</sup> .

وكانت غزالة زوجة شيب الخارجي قد نذرت إن دخلت الكوفة لتصلين بالمسجد ركعتين ، تقرأ فيهما سورة البقرة وآل عمران<sup>(٤)</sup> .

وذكر أبو الفرج أن عبيدة بن هلال الخارجي كان إذا تهادن الفريقان — في حرب المهلب والخوارج — ينادى جماعة المهلب ، فيخرج إليه فتيان من العسكر ، فيقول لهم : أيما أحب إليكم ، أقرأ عليكم القرآن أم أنشدكم الشعر فيقولون : أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك ، ولكن تنشدنا . .

فيقول لهم : يافسقة ، قد والله علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن .  
ثم لا يزال ينشدهم حتى يملوا .

(١) مروج الذهب ١٣٨/٢ .

(٢) السكامل للمبرد ٢٨٤/٣ وشرح نهج البلاغة ٣٨١/١ .

(٣) السكامل للمبرد ٢٦٢/٣ .

(٤) مروج الذهب ١٤٠/٢ شيب الخارجي حارب الحجاج وانتصر عليه ، ودخل الكوفة ، فتحصن منه الحجاج بدار الإمارة بالكوفة . ثم بعث إليه عبد الملك مددا من الشام فانتصر الحجاج وقتل أم شيب وزوجته غزالة ، ثم قتل شيب بعد ذلك .

### حرارة العاطفة وصدقها :

شعرهم حار ملتهب متدفق ، يُشيع حرارة الإيمان بالمذهب وفداء العقيدة ، والاستهانة بالحياة المهضومة ، والإصرار إلى الموت في ميدان الجهاد ، لأن الغاية التي يصبون إليها أن يُعلوا كلمة الله ، ويذودوا عن محارمه وحماه ، ويمكنوا للإسلام .

ثم كان من عوامل هذه الحرارة أن شعراءهم كانوا من أساطين الدعاة إلى مذهبهم ، وكان بعضهم من أرباب السيف ، فجاء شعرهم حاراً قوياً ، على حين أنا نجد كثيراً من شعراء المذاهب الأخرى بعضهم من المؤيدين المخلصين الذين يقنعون بموقف التأيد ، وبعضهم من المتكسبين أو الراهبين الذين يجارون ويمالئون ، فليس لشعرهم من القوة ما لشعر الخوارج .

وقد أحس خصومهم بقوة بيانهم ، وتغلغل قولهم إلى القلوب ، وشهدوا لهم بذلك ، وتخوفوا من تأثيرهم على الناس .

شفع بعض المسلمين في الخوارج الذين حبسهم عبيد الله بن زياد ، فأبى ، وقال : **إِنِّي أَقْمَعُ النِّفَاقَ قَبْلَ أَنْ يَنْجُمَ** ، إن كلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع<sup>(١)</sup> .

وقد سبق في شعرهم أن بعضهم يدين بأنه لعين ، معذب في النار ، إن لم ينافح عن عقيدته بدمه وروحه .

وتبين في شجاعتهم أنهم كانوا يتهافون على القتال في حماسة وبطولة وشوق إلى الاستشهاد .

حتى لقد تغالى الأزارقة ، فاستحلوا قتال المسلمين الذين يخالفونهم في العقيدة ، لأنهم في رأيهم كفار ضلوا سبيل الهدى ، إما لاستشارهم بالحكم على نظام لا يقره

(١) الكامل للمبرد ٣/ ٢٤٨ :



الإسلام ، وإما لأنهم يساندون الفاصبين للخلافة ، ويمكنون لهم ، وإما لأنهم راضون بهؤلاء الحكام ، مستكينون لا يغيرون ما يرونه من منكراتهم .

فكان هؤلاء جميعا عداة الأزارقة ، وكان الأزارقة وغيرهم من الخوارج لا يدينون بالخلافة الأموية ولا بالخلافة الزيرية ولا بالشيعة ، حتى لقب شاعرهم نافع بن الأزرق بأمير المؤمنين ، في رثائه له يوم دولاب (١) :

والموت حتم لا محالة واقع من لا يصبغه نهارا يطرق  
فلئن أمير المؤمنين أصابه ريب المنون ، فمن يصبه يعلق

لهذا لم يتذبذبوا معهما اضطروا ، على حين أن شعراء المذاهب الأخرى لم يحبسوا قلمهم على مذهبهم ، فالكثير من شعراء الشيعة اضطروا إلى مدح بني أمية أخذا بالتقية ، وابن قيس الرقيات شاعر الزيريين اضطروا إلى مدح عبد الملك وبني أمية ليسلم من القتل ، وكثير من شعراء الأحزاب الأخرى كانوا يتعاطون فنونا غير السياسة .

ولقد يحيد الخارجى عن مذهبه ، ثم لا يلبث أن يرجع إليه ، على ما فى الحال الأولى من نعيم وسلامة ، وعلى ما فى الثانية من شقاء وتهلكة .

لقى الحجاج رجلا أعجبه ، فاستدعاه إلى قصره ، وسأله عن اسمه ، فعرف أنه سميرة بن الجعد ، فأنخذه صميرا .

وكان سميرة على رأى الخوارج ، فعلم قطرى بن الفجاءة بمكان سميرة من الحجاج ، وكان قطرى حينئذ يقاتل المهلب ، فكتب ، إلى سميرة بأبيات ، منها (٢) :

لشأن ما بين ابن جعد وبيننا إذا نحن رحنا فى الحديد المظاهر  
بجاهد فرسان المهلب ، كلنا صبور على وقع السيوف البوائر  
وراح يجر الخرز عند أميره أمير بتقوى ربه غير أمر  
أبا الجعد أين العلم والحلم والنفى وميراث آباء كرام العناصر ؟

(١) تهذيب الكامل ١/١٣١ .

(٢) مروح الذهب ٢/١٣٨ .

ألم تر أن الموت — لاشك — نازل ولا بد من بعث الألى في المقابر ؟  
 حفاة عراة والترابُ لديهم فإن الذى قد نلتَ يَفْنَى وإيما  
 فراجع أبا جعد ولا تكُ مُغضبا وتُبُ توبة تُهْدِي إليك شهادة  
 وسِرْ نحونا تلقَ الجهاد غنيمة هى الغاية القصوى الرغيبُ ثوابها  
 إذا نال فى الدنيا الغنى كل تاجر

فلما قرأ كتابه بكى وركب فرسه وأخذ سلاحه ، ولحق بقطرى ، وطلبه  
 الحجاج فلم يقدر عليه ، ولم يرعه إلا كتاب قطرى ، وفى أسفله أبيات من مبرة  
 إلى الحجاج :

فمن مُبْلَغُ الحجاج أن سميره رأى الناس إلا من رأى مثل دينه  
 فأقبلت نحو الله بالله واثقا إلى عصبة أما النهار فإنهم  
 وأما إذا ما الليل جن فإنهم قلى كل دين غير دين الخوارج ؟  
 ملاعين ترأ كين قصداً الخارج وما كرهتى غيرُ الإله بفارج  
 هم الأسدُ أسدُ الغيلِ عند التهايج قيام بأنواح النساء النواشج

### فلوه من العصبية :

ليس فى شعرهم أثر العصبية الجنسية أو القبلية ؛ لأن مذهبهم السياسى وحد  
 بينهم وطبعهم بطابعه ، فهدفهم إسلامى خالص لا إشار فيه للعرب على غيرهم ، ولا  
 تفضيل لقبيلة على قبيلة .

لهذا كان بنو تميم — من مضر — والأزد — من اليمن — يحاربون إخوانهم المناصرين  
 لبنى أمية ، ويهجونهم ، وكان عمر بن الحصين — الفارسى — عربياً خارجياً فى شعره ،  
 لا أثر فى قوله لجنسه ، ولا أثر لجنسه فى مذهبه السياسى .

أما شعراء الأحزاب الأخرى ، فلم يسلم شعرهم من عصبية جنسية أو قبلية ، فالنزعة القرشية ظاهرة في شعر ابن قيس الرقيات ، والنزعة الفارسية واضحة في شعر ابن يسار ، وهما شيعيان .

والنزوع القبلي بَيِّن في كثير من شعراء الحزب الأموي ، حتى إن بعضهم كان يؤثر قبيلته على الصالح الحكومي ، وكان آخرون يستجيبون لمنفعتهم الشخصية فتتطفي على نزعتهم الحزبية .

فالقطامي<sup>١</sup> الشاعر التغلبي النصراني أشاد بقومه ، ثم لما أسرته قيس في حرب بينها وبين تغلب ، وأطلقه زفر بن الحارث ، وأعطاه مائة ناقة ، جعل يمدحه ، ويندد بما بين قيس وتغلب من ثارات وإحن ، ويتلهف على أن يظلهما السلام برايته<sup>(١)</sup> .

والأخطل شاعر تغلب كان عني أمويته حفيًا بقومه ، فلما أوقع بهم الجحاف القيسي هبَّ يشكو إلى عبد الملك ، ويحرضه على الثأر من قيس ، ويتوعده بتخلي قبيلة تغلب عن مؤازرة بني أمية<sup>(٢)</sup> .

والراعي كان حريصاً على مصالح قيس قومه ، ولما قسا عليهم جابي الخراج ، مدح عبد الملك بن مروان ، ورجاه أن يرأف بهم<sup>(٣)</sup> وكان الفرزدق أحرص على سلامة تميم ومنافعهم من حرصه على المصلحة السياسية الأموية<sup>(٤)</sup> .

وكان جرير يشيد بقبيلة قيس خصوم قومة تميم ، متأثراً بعطاياهم ، متناسياً أنهم خصوم الدولة التي يمدح خلفاءها ، مع إغداق الخلفاء والولاة عليه ، وقد عبره الفرزدق أنه تخلى عن قومه وناصر أعداءهم<sup>(٥)</sup> .

(١) الشعر والشعراء ٢٧٧ والأغاني ٢١ / ١١٨ .

(٢) الشعر والشعراء ١٨٩ والأغاني ٧ / ١٦٩ .

(٣) الأغاني ٢٠ / ١٦٨ والشعر والشعراء ١٥٦ .

(٤) الأغاني ٩ / ٣٢٤ والشعر والشعراء ١٨٣ .

(٥) الشعر والشعراء ١٧٩ والأغاني ٨ / ٣ .

### وهرة الموضوع :

الطابع العام لشعرهم الحماسة ، ووحدة الموضوع ، وهذا بعض ما يميزهم من معاصريهم ؛ إذ كان النظام السائد في أكثر القصيد محاكاة الجاهليين في تعدد الموضوعات ، والبدء بالغزل أو بكاء الأطلال ووصف الرحلة .

على أن قليلا من قصائدهم مستهل بالغزل أو بالحديث إلى المرأة ، لكنه حديث سريع إلى الزوجة ، وحديث ينتهى إلى البهاة بالجهاد ، والحرص على الاستشهاد ، كقول قطرى في يوم دولاب (١) :

لعمرك إني في الحياة لزاهد وفي العيش ما لم ألق أمَّ حكيم  
من الخفرات البيض لم يُرَ مثلها شفاء لذي بئث ولا لسقيم  
.....

وقول يزيد بن حُبَّاء من الأزارقة (٢) :

دعى اللوم إن العيش ليس بدائم ولا تمَّجِّلُ باللوم يا أمَّ عاصم  
وقول قطرى (٣) :

فيا كبدا من غير جوع ولا ظما ووا كبدا من وجد أم حكيم

### تساير شعرهم :

جاء شعرهم متشابهاً إلى حد كبير في موضوعه ومعانيه وأسلوبه . لأنهم جميعاً يستقون من ينبوع واحد ، ويتغنون بعاطفة واحدة ، ويقصدون إلى غرض واحد ، ولأن ثقافتهم قائمة على اللغة ومدارسة القرآن الكريم ، ومن هنا نسب شعر بعضهم إلى بعض ، واختلف القدماء في نسبة القصيدة الواحدة إلى عمران بن حِطَّان أو قطرى ابن الفجاءة أو خالد القناني أو عيسى الحبَّطى (٤) .

(١) تهذيب الكامل ١ / ١٣٠ .

(٢) تهذيب الكامل ١ / ١٩١ .

(٣) تهذيب الكامل ١ / ٢٠٨ .

(٤) تهذيب الكامل .

قله ما وصلنا منه :

ثم إن شعرهم قليل ، وإنتاجهم تغلب فيه المقطعات ، لأن الشعر لم يكن عندهم فنا تمارسه طائفة خاصة تنقطع لإنتاجه أو تكاد ، وتتنافس في تجويده والبراعة فيه ، وإنما كان تعبيرا عن المشاعر في أحوال خاصة .  
هذا إلى أن حياتهم القائمة على الجهاد والحرب والعبادة لم تفسح لهم من الوقت ما يكفل الإكثار من القصائد وإطالتها .  
فهم من هذه الناحية أشبه بالصعاليك في العصر الجاهلي (١) .

تأثرهم بالقرآن الكريم :

في شعرهم ملامح دالة على تفهمهم القرآن الكريم واستمدادهم منه ، كقول عيسى بن فاتك :

هم الفئة قليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا  
إشارة إلى قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين (٢) » . وإلى قوله تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون (٣) » :

وقد علمنا من دراسة مذهبهم أنهم يدينون بالمساواة بين المسلمين ، فلا تفاضل بالأحساب والأنساب والقراية من رسول الله ، وإنما التفاضل بالتقوى والصلاح .

(١) راجع الحياة العربية من الشعر الجاهلي للمؤلف ٢٩٤ — ٣٠٦ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٩ .

(٣) سورة الأنفال ٥٦ .

لهذا رفضوا دعوى قريش أنها أحق بالحكم .

وفي هذا يقول عمران بن حطان :

ونحن بنو الإسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر<sup>(١)</sup>  
وهذا معنى الآية الكريمة : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »<sup>(٢)</sup>

## - ٩ -

### بين شعرهم وشعر الأمويين :

فإذا ما وازنا بين شعر الخوارج وشعر الحزب الأموي تبين لنا :

١ - أن الخوارج أصدق عاطفة ، وأشد حرارة ، وأعظم ثباتاً على مذهبهم

٢ - وأنهم جروا على وحدة القصيدة ، أما شعراء الأمويين فإنهم عددوا

موضوعات القصيدة ، ولم يخرجوا على النظام القديم .

٣ - وأنهم قصروا شعرهم على مذهبهم وما يتصل بحياتهم من حروب وثورات ،

على حين أن شعراء بني أمية لم يقصروا شعرهم على السياسة .

٤ - الخوارج أعظم تأثراً بالقرآن الكريم من شعراء الأمويين ، لأنهم عكفوا

على تلاوته وحفظه وفهمه .

٥ - ليس في شعرهم نزوع قبلي أو تعصب جنسي ، لأنهم جميعاً أشربوا عقيدة

واحدة سوت بينهم على تعدد قبائلهم واختلاف جنسهم ، أما شعراء الأمويين فكانوا

أصحاب عصبية جنسية وقبلية واضحة المعالم

٦ - وقد كان شعر الخوارج قليلاً ، والمقطعات فيه أكثر من القصائد ، على

حين أن شعر الأمويين كثير غزير ، تغلب فيه القصائد على للمقطعات .

---

(١) تهذيب الكامل ١/ ١٨٤ . (٢) سورة الحجرات ١٣ .



### بين شعرهم وشعر الشيعة :

والموزانة بين شعرهم وشعر الشيعة تفضي إلى أن شعراء الشيعة يتفقون وشعراء الخوارج في الحملة على بني أمية ، لأنهم عادون على الخلافة ، وهي في نظر الشيعة حق بني هاشم ، وفي نظر الخوارج حق المسلمين .

لكنهم يخالفون شعراء الشيعة في عدة أمور :

- ١ — شعراء الشيعة لم يقصروا شعرهم على مذهبهم كما فعل شعراء الخوارج .
- ٢ — ولم ينافح شعراء الشيعة عن عقيدتهم بدمائهم وسلاحهم كما فعل شعراء الخوارج .

وحسبنا للتدليل على هذا أن ثلاثة من شعرائهم نككوا عن الحرب لما جدت بهم الحرب .

فكثير كان في جند مصعب بن الزبير لما خرج للقاء عبد الملك ، فرآه عبد الملك يمشي مطرقاً كأنه حزين ، فدعاه واستحلفه بأبي تراب — على بن أبي طالب — أن يصدقّه إذا نبأ بما في نفسه ، خلف له كثير أن يصدقّه . فقال له عبد الملك تقول في نفسك : رجالان من قريش يلقي أحدهما الآخر لحربه فيقتله ، والقاتل والمقتول في النار ، ولست آمن أن يصيبني سهم فيقتلني ، فأدخل النار معهم . قال كثير : ما أخطأت يا أمير المؤمنين . قال عبد الملك : فعد من قريب . وأمر له بجائزة ، فعاد كثير .

ولم يختلف أيمن بن خريم عن كثير في إشاره سلامة نفسه على المناخة عن مذهبه ، فهو القاتل في تجنب القتال واعتزال المتقاتلين ، والمساورة إلى المال إذا كان عطاء :

إن لفقنة مَيِّطاً يِيننا فرُوَيْدَ المِيطِ منها تَمْدِلُ (١)  
فإذا كان عطاء فازتْهم وإذا كان قتال فاعتزل (٢)  
إنما يُسْمِرها جاهلها حطب النار فدعها تشتعل

ولما قال له عبد الملك : خذ هذا المال ، وانطلق فقاتل ابن الزبير ، أبى ، وقال :

ولستُ بقاتلٍ رجلاً يُصَلِّي على سلطان آخر من قريش  
له سلطانُه وعلى وزيرى معاذ الله من سفه وطيش  
أقتلُ مسلماً وأعيش حياً فليس بناقى ما دمتُ عيشى

وأيمن بتجنبه القتال دفاعاً عن مذهبه يشبه أباه ، فقد اعتزل أبوه حرب الجمل وصفين وما تلاها .

كذلك فعل الكميت حينما ثار زيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك ، وكتب إلى الكميت ليثور معه ، وذكره بقوله :

ما أبالى إذا حُفِظَتَ أبا القا سم فيهم ملامة اللوام  
فهمُ شيمتى وقسمى من الأمة ع حَسْبى من سائر الأقسام  
إن أمت لا أمت ونفسى نفسا ن من الشك فى عى أو تعامى

فلم ينشط الكميت للخروج ، ولم يتأهب لحمل السلاح نصرة لزعيجه ، بل كتب إليه يقول :

تجود لكم نفسى بما دون وثبة تظل لها الفرّ بان حولى تَحْجِل

٣ — لم يحكف شعراء الشيعة على العبادة ، ولم ينهمكوا فى الورع والزهادة ، ولم يزدروا الدنيا وما تنخدع به من مال ، كما كان شعراء الخوارج يفعلون .

(١) الميط: الشدة والقوة

(٢) ارتهم : اطلب .

ج — شعر الشيعة لم يتسم أكثره بالقوة والحرارة التي اتسم بها شعر الخوارج ، ولعل السبب في هذا أن الشيعة كانوا يدينون بالتقية والمداراة إن لم تكن الفرص مواتية للإعلان عن مذهبهم والدعاوة له ، على حين أن الخوارج وخاصة الأزارقة كانوا يدينون بالصراحة والمجازفة ، ولا يجيزون التقية مهما يكن من أمر .

وقد كان لهذا أثره في إنتاج الشعراء من شيعة وخوارج ، وفي جهرهم أو كتمانهم ما يدور بنفوسهم .

هـ — على أن شعراء الشيعة كانوا أكثر إنتاجا ، كالكثير والكثير والسيد الحميري .

ولعل سبب هذا أن الخوارج شغلوا بالحروب أكثر مما شغل الشيعة ، وأن كثيرا من شعر الخوارج عني عليه الإهمال والنسيان ، فلم يصل إلينا .

## الفصل الرابع

### شعر الزبير بن

- ١ -

### إشادة بهم

١ - من مدح ابن قيس الرقيات لمصعب بن الزبير (١) :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلمات

ملكة ملك قوة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

يتقى الله في الأمور وقد أفلح من كان همه الانقاء

٢ - اشتدت الحاجة ، بالناطقة الجعدى فقصد ابن الزبير ومدحه (٢) بأنه من

طراز أبي بكر وعمر وعثمان ، وبأنه موثل المحتاجين ، ومسوِّبين الناس :

حكيت لنا الصديق لما وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح مُعَدِم

وسوَّيت بين الناس في العدل فاستووا فساد صباحا حالاً اللون مظلم

أتاك أبو ليلى يشقُّ به الدجى دجى الليل جَوَّابُ الفلاة عَثَمٌ (٣)

لترفع معه جانباً ذَعَذَعَتْ به صروفُ الليالى والزمان المصمم (٤)

(١) ديوان قيس بن الرقيات ١٧٦ . (٢) تهذيب الكامل ٢٢٥/١ :

(٣) عثم : جل بحكم الخلق شديد .

(٤) ذَعَذَعَتْ : أذهبت ماله وغرقت حاله . المصمم : المؤذى القاطع .

فقال له ابن الزبير . هوّن عليك أبا ليلى ، فأيسرُ وسائلك عندنا الشعر ، أما صفوة أموالنا فابنى أسد ، وأما عَفْوَتُهَا<sup>(١)</sup> فَلآل الصَّدِيق ، ولك في بيت المال حقان : حق بصحبتك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقٌ بحقك في المسلمين . ثم أمر له بسبع قلائص وراحلة قوية ، وأن توقر له حبا وتمرا .

٣ — قصد أبو وَجْزَة الأسلمى المعروف بالسَّعْدَى عبد الله بن الزبير فأعطاه ستين وسقا ، فمدحه ، وعرض بإبراهيم بن هشام والى المدينة لهشام بن عبد الملك وكان قد وفد عليه أبو زيد الأسلمى مادحا فضربه بالسياط ، لأنه قال في مدحه « يا بن هشام يا أخا الكرام » فقال له : كَأَنى لست منهم . قال في مدح عبد الله بن الزبير :

راحت رَواحاً قُلُوصى وهى حامدةٌ      آلَ الزبير ولم تعدل بهم أحداً<sup>(٢)</sup>  
راحت يستين وسقا فى حقيبتها      ما حَمَلَتْ حَمَلها الأذى ولا السَّداً<sup>(٣)</sup>  
ما إن رأيت قلوفا قبلها حَمَلَتْ      ستين وسقا ولا جابت بها بلداً  
ذاك القَرى لا قَرى قوم رأيتهم      يقرّون ضيفهم الملوية الجُداً<sup>(٤)</sup>

## الاحتجاج لهم

١ — من مدح ابن قيس الرقيات لعبد الله بن الزبير .  
وابن أسماء خير مسح الرؤى      كن فعلاً وخيرهم بنيانا

(١) العفو : ماتبقى وزاد (٢) القلوص : الناقب الشابة

(٣) الوسق . ستون صاعاً أو حن بصير : السدد : الحبل الكامل المعتاد

(٤) القرى : الكرم . الملوية : المراد السياط . الجدد : الحديدة الصنة

وإذا قيل مَنْ هِجَانُ قَرِيشٍ كُنتِ أَنْتِ الْفَتَى وَأَنْتِ الْهَيجَانُ<sup>(١)</sup>

فهو يصفه بأنه خير الأتقياء فعلاً ومجداً ، وبأنه أعظم قريش حسبا وشرفا ، ولاشك أنه يقصد معاصريه ، ويفضله عليهم بأعماله ونسبه ، فهو إذاً أجدر بالخلافة .

٢ — وهو يردد هذه المعاني ونظائرها في كثير من قصائده ، كقوله إنك يا عبد الله سليل الأشراف الذين كانوا يعمرّون مكة ، وبخاصة أعظم أماكنها وإنك من صميم قريش ومن معدنها الخَيْرُ الوَفَى\* ، وأنت اليوم أرفعها شأنًا ، وأعدلها حكمًا وقضاءً ، وأعلمها بما آلت إليه حالها من فرقة وعداء ، وأسدها من هذا الداء الذي أصابها ، وأنت أشرف معاصريك من قريش نسبا ، وخيرهم سياسة وحكما :

أَنْتِ ابْنُ مُعْتَلَجِ الْبَطَا حِ كُدَيْيَا فَكَدَايَا<sup>(٢)</sup>

فَالْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ فَالْمُسْتَنِّ مِنْ بَطْحَائِيَا<sup>(٣)</sup>

فَمَحَلُّ أَعْلَاهَا إِلَى عِرْقَاتِهَا فِخْرَاتِهَا

مِنْ سِرِّهَا فِيهَا وَمَعْدَنُ بَرِّهَا وَوَفَاتِهَا

أَوْفَى قَرِيشٍ بِالْعِلَالِ فِي حَكْمِهَا وَقَضَائِهَا

وَلَأَنْتِ أَعْلَمُهَا بِهَا وَأَصَحُّهَا مِنْ دَائِهَا

وَأَتَمُّهَا نَسَبًا إِذَا نُسِبَتْ إِلَى آبَائِهَا

إِنْ الْبِلَادُ سِوَى بِلَادِكَ ضَاقَ عَرْضُ فُضَائِهَا

فَاجْمَعِ بَنِيَّ إِلَى بَنِيكَ فَأَنْتِ خَيْرُ رُعَايَا<sup>(٤)</sup>

نُشْهِدُكَ مِنَّا مَشْهُدًا ضَنْكَكَ عَلَى أَعْدَائِهَا

(١) الهجَانُ : الحسب الرفيع .

(٢) كُدَى : جبل بأسفل مكة وكدَاءُ جبل بأعلى مكة . مُعْتَلَجُ الْبَطَا : ملتقاها والمراد

أنه سليل الأشراف الذين كانوا يقيمون ببطاح مكة .

(٣) الْمُسْتَنِّ : المطروق المسلوك . الْبَطْحَاءُ : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٤) الرُّعَاءُ بضم الراء وكسرهما جمع راع وهو من يلى أمور القوم .



تحن الفوارس من قريش يوم جد لقائها

— ٣ —

## حملة على خصومهم

من أمويين وخوارج وكيسانية

١ — لما قتل إبراهيم بن الأشتر عبيد الله بن زياد ، ابتهج سراقه بن مرداس البارقي ، وقال<sup>(١)</sup> :

أناكم غلام من عرانيين مذحج جري على الأعداء غير نكول<sup>(٢)</sup>  
 فيابن زياد بو بأعظم مالك وذق حد ماضي الشفرتين صقيل<sup>(٣)</sup>  
 ضربناك بالعصب الحسام بحدة إذا ما أبأنا قاتلا بقتيل<sup>(٤)</sup>  
 جزى الله خيرا شرطة الله إنهم شفوا من عبيد الله أمس غليل

٢ — حزن زفر بن الحارث الكلبي<sup>(٥)</sup> على هزيمة جيش ابن الزبير في حرج راهط سنة ٦٤ هـ وكان زفر وقومه والقيسية في جيش ابن الزبير ، وكانت كلب بزعامة حسان بن مالك السكبي حاكم الأردن في جيش مروان بن الحكم فقال :

أربني سلاحى لا أبالك إننى أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا  
 أتانى عن مروان بالغيب أنه مقيد دمي أوقاطع من لسانيا<sup>(٦)</sup>

(١) الطبرى ١٤٦/٦ .

(٢) عرانيين مذحج : أشرفها وأعلامها . نكول : جبان .

(٣) بو بأعظم مالك : مت فداء له . ماضى الشفرتين صقيل : سيف حاد مصقول .

(٤) العصب : القاطع . أبأنا : نأرنا وعاقبنا .

(٥) الطبرى ٤١/٦ ومروج الذهب ١٠٧/٢ .

(٦) مقيد دمي : مهدرله .

ففي العيس مَنجاةٌ وفي الأرض مَهْرَبٌ      إذا نحن رَفَعْنَا لَهَنَ المَنايا<sup>(١)</sup>  
 فلا تحسبوني إن تَفِيبتُ غافلاً      ولا تفرحوا إن جثتكم بلقائيا  
 فقد يَنبُتُ المرعى على دِمَنِ الثرى      وتبقى حَزَازَاتُ النفوسِ كما هيا<sup>(٢)</sup>  
 أتذهب كَلْبٌ لم تَنَلْهَا رماحنا      وتُتْرَكُ قَتلى رَاهِطٍ هي ما هيا ؟  
 لعمرى لقد أَبَقْتُ وقيمة رَاهِطٍ      لحَسَّانٍ صَدَعَا بَيْنَنَا مَتْنائيا  
 أبعد ابنِ عَمْرِو وابنِ مَعْنٍ تَتَابِعا      ومقتل هَمَّامٍ أَمْنِيَّ الأمانيا ؟  
 فلم تُرَمْنِي نَبْوةٌ قبل هذه      فِرَارِي وتركي صاحبي وراثيا<sup>(٣)</sup>  
 عَشِيَّةَ أعدو بالقران فلا أرى      من الناس إلا مَنْ عَلَى ولا ليا<sup>(٤)</sup>  
 أيذهب يومٌ واحدٌ إن أسأته      بصالح أياحي وحُسنِ بلائيا ؟  
 فلا صَلَحَ حتى تَنحِطَ الخيل بالقنا      وتثار من نسوان كلب نسايا<sup>(٥)</sup>  
 ألا ليت شعري هل تصيبن غارتى      تَنُوحًا وحيي طييء من شفايا ؟

٣ — قال زفر بن الحارث في الموقعة نفسها<sup>(٦)</sup> :

أفي الله أما بَحْدَلُ وابنِ بَحْدَلٍ      فيحيا وأما ابن الزبير فيُقْتَلُ<sup>(٧)</sup> ؟  
 كذبتُم — ويبت الله — لا تقتلونه      ولما يكن يوم أغرٍ مُحَجَّلٍ<sup>(٨)</sup>

(١) العيس : النوق أو البيض المخالطة بشقرة . المثنى : المراد هنا الأرسان .

(٢) دمن الثرى : أماكن الأنعام وحظائرها .

(٣) نبوة : رجعة عن الحرب وفرار .

(٤) القران : اسم فرسه . (٥) تنحط : تن من الثقل . (٦) الطبرى ٢/٦ : ٤٢

(٧) بحدل : أبو ميسون الكلبي زوجة معاوية .

(٨) يوم أغر محجل : المراد نصر عظيم عليكم .

ولما يكن المشرقية فوقكم  
شُعاعٌ كقرن الشمس حين ترجل<sup>(١)</sup>

٤ — من الدعبة إلى الثورة على بنى أمية قول ابن قيس الرقيات<sup>(٢)</sup> :

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء<sup>(٣)</sup> ؟  
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن بُراها المعيلة المذراء<sup>(٤)</sup>  
أنا عنكم بنى أمية مزور وأنتم في نفسى الأعـداء  
إن قتلى بالطف قد أوجعتنى كان منكم — لن قتلتهم — شفاء

٥ — من حملاتهم على فرقة الكيسانية التي تزعمها المختار بن أبي عبيد الثقفي<sup>(٥)</sup>  
تسكيب شعرائهم لدعواه أنه يوحى إليه ، وأنه كان يمحرق على أتباعه ، إذ اتخذ  
كرسياً غطاءه بالديباج ، وكان يضعه في مقدمة الجيش ، ويقول لجنده : قاتلوا عليه ،  
فهو لكم كالتابوت لبني إسرائيل ، وكان يرسل فوق جيشه حمامات أيضا حين القتال ،  
ويزعم لهم أنها ملائكة منزلة من السماء<sup>(٦)</sup>

قال سراقه البارقي<sup>(٧)</sup> :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى رأيت البلق دُهْمًا مصمتات<sup>(٨)</sup>  
أرى عيني ما لم تبصره كلانا عالم بالترهات<sup>(٩)</sup>

(١) المشرقية : السيوف . شعاع : ضوء . قرن الشمس : شعاعها . ترجل : تترجل وترتفع

(٢) الأغاني ٧٨/٥ . (٣) شعواء : كبيرة متفرقة .

(٤) البرى : البرة الخلخال جمعها برة ، والمراد أن الحرائر يبدن سيقانهن ليظن أنهن

إماء فلايسين . (٥) راجع ماتقدم عن هذه الفرقة في فرق الشيعة .

(٦) الطبري ١٤٠/٦

(٧) الطبري ١٧٣/٧ وطبقات الكامل الشعراء ٣٧٦ للمبرد ١٦٩/٢ .

(٨) أبو إسحاق : كنية المختار . البلق : جمع أبلق وهو الفرس فيه سواد وبياض وتحجيل

إلى الفخذين . دهم : جمع أدهم وهو الفرس الشديد السواد ، وأدهم مصمت : أسود خالص  
لا يخالطه لون آخر . رأيت : علمت .

(٩) الترهات : لأناطيل .

إذا قالوا أقول لهم : كذبتهم وإن حَرَجُوا لَبِستُ لهم أداني<sup>(١)</sup>  
كفرتُ بوحيتكم وجعلتُ نَذْرًا على قتالكم حتى المات

فهو يتهكم بالمختار ، ويقول إني أعلم أن البلق غير الدهم ، فالبلق فيها سواد  
وبياض ، والدهم سود خالصة السواد .

لكني كذبت على وعلم الناس ، وقلت إنها دهم ، لأنني أحققك ، وأجاري  
دعاواك الباطلة .

٦ — وقال المتوكل الليثي<sup>(٢)</sup> في تكذيب كرسی المختار :

أبلغ أبا إسحاق إن جئتُه أني بكرسيكم كافرُ  
تنزو شِمامٌ حول أعواده وتحمل الوحي له شاكر<sup>(٣)</sup>  
محمرّة أعينهم حوله كأنهن الحِصص الحادر<sup>(٤)</sup>

٧ — وقال أعشى همدان في الكرسي<sup>(٥)</sup> :

شهدتُ عليكم أنكم سبئية وأنى بكم ياشُرطة الشُّرك عارفُ  
وأقسم ما كرسيُّكم بسكينة وإن كان قد لُفَّت عليه اللفائف  
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سَعَتْ شِمام حواليه ونَهْدٌ وخارِف<sup>(٦)</sup>  
وأنى امرؤ أحببتُ آل محمد وتابعتُ وخيّا ضُمْنته المصاحف  
وتابعتُ عبد الله لما تابعت عليه قريش شَمَطُها والظطارف<sup>(٧)</sup>

٨ — ندد ابن قيس الرقيات بالقبائل التي نخلت عن نصره مصعب بن الزبير ،  
وخذلته حتى قتله عبد الملك<sup>(٨)</sup> :

(١) حرجوا : حاروا

(٣) شِمام : حى . شاكر : حى

(٥) الطبرى ١٤١/٦

(٢) الطبرى ١٤١/٦

(٤) الحادر : النافخ المورم

(٦) أسماء لأحياء من العرب

(٧) الشمط : جمع أشمط وهو الذى غلب بياض رأسه على سوادها ، والمراد الكبراء .

(٨) الطبرى ١٨٧/٧

الظطارف : جمع غطريف وهو السيد الشريف السخى .

لقد أورث المِصرَيْنِ خِزْيَا وذلةً      قَتِيلٌ بَدِيرُ الجَائِلِيقِ مَقِيمٌ<sup>(١)</sup>  
 فما نَصَحَتْ لَهِ بَكَرُ بْنُ وَائِلٍ      وَلَا صَبَرَتْ عِنْدَ اللِّقَاءِ تَمِيمٌ  
 ولو كان بَكَرِيًّا تَعَطَّفَ حَوْلَهُ      كَتَائِبُ يَفْلِي خَمِيْهَا وَيَدُومُ  
 وَلَكِنَّهُ ضَاعَ الذَّمَامُ وَلَمْ يَكُنْ      بِهَا مُضَرِيٌّ يَوْمَ ذَاكَ كَرِيمٌ  
 جَزَى اللَّهُ كُوفِيًّا هُنَاكَ مَلَامَةً      وَبَصْرِيَّيْهِمْ إِنْ الْمَلِيمُ مُلِيمٌ  
 وَإِنْ بَنِي الْعَلَاتِ أَخْلَوْا ظَهْرَنَا      وَنَحْنُ صَرِيحٌ بَيْنَهُمْ وَصَمِيمٌ  
 فَإِنْ نَفَنَ لَا يُبْقُوا أَوْلَاكَ بَعْدَنَا      لَذِي حُرْمَةٍ فِي الْمَسَامِينِ حَرِيمٌ<sup>(٢)</sup>

## خواص شعرهم

— ١ —

### السياسة الدريعية :

جال الشعراء الزيريون في ميدان السياسة ، داعين إلى مذهبهم ، مناخين عنه ،  
 منوهين بعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ، وكثيراً ما حملوا على خصومهم .

١ — فتارة يشيدون بعبد الله ، ويفاخرون بعِدالته في حكمه ، وبتقواه  
 وصلاحه ، ورعايته للفقراء والضعفاء ، ومشابته لأبي بكر وعمر ، ويثنون على  
 كرمه ، كما ترى في النماذج التي تقدمت من شعر ابن قيس الرقيات والنابعة  
 الجعدى ، وأبي وجزة

٢ — وتارة يحتجون لعبد الله بن الزبير وجدارته بالخلافة ، فيتحدثون عن شرف  
 نسبه وعراقة حسبه ، ويفضلونه على معاصريه من قريش جميعاً في النسب والعلم  
 والكفاءة ، كما ترى في احتجاج ابن قيس الرقيات .

(١) المصران : البصرة والكوفة . دير الجائليق : المكان الذي قتل فيه مصعب على نهر

اسمه الدجيل .

(٢) هكذا ( حريم ) وصوابها ( حريما ) .

٣ — ولقد يحملون على خصومهم ؛ ويتهمونهم بالكفر ، ويتوعدونهم ، ويتداعون إلى الانقضاء عليهم .

لهذا استبشر سُراقَةُ البارقى بمقتل عبيد الله بن زياد ، وتفجع زفر بن الحارث على هزيمة جيش الزبيريين في مرج راهط ، وأنذر بنى أمية وأعوانهم بأنه لا صلح حتى يذيقوهم هزيمة مثلاً ويثأروا منهم ، وذكر حسان وقبيلة كلب وتنوخ وطيء بنخاسة ، وتهمكم ببعثد السكبي صهر معاوية ، وتوعد هؤلاء جميعاً بغارة شعواء .

وكذلك أنذرهم ابن قيس الرقيات بغارة طاحنة تذهل الأب عن بنيه ، وترغم الحرائر على أن يتظاهرن بأنهن إماء حتى لا يُسَبَّيْن .

ولقد حمل الشعراء على فرقة الكيسانية ، وسخروا من زعيمها المختار ومن ضلالاته ، كما رأيت في الأمثلة لسراقَةُ البارقى والمتوكل الليثي وأعشى همدان .

## — ٢ —

### قصة إنتاجهم :

نلاحظ أن هذا الحزب لم يكن له شعراء كثير ، كما كان للأُمويين والشيعة والخوارج ، وكان إنتاج هؤلاء الشعراء القلة غير كثير .

١ — ولعل من أسباب هذا أن الحزب كان قصير العمر ، لم يُعْمَرْ تعمير هذه الأحزاب ، فكان الزمن القصير الذي عاش فيه الحزب غير كفيل بتأصيل نظريته السياسية وتميزها وجريانها في نفوس الشعراء ، حتى يدينوا بها ، وينافخوا دونها .

٢ — ثم إن عبد الله بن الزبير لم يكن يصدق على الشعراء مثلاً كان يصدق بنو أمية ، ولم يكن يصطنع القبائل والأشراف بالهبات كما كانوا يفعلون ، إذ كان حريصاً على مال المسلمين حرصاً أذاع عنه البخل الشديد .

يدل على هذا أن أخاه مصعباً لما قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي وفد عليه



ومعه وجوه أهل العراق ، فقال : يا أمير المؤمنين ، جئتك بوجوه أهل العراق ، لم أدع بها لهم نظيرا ، لتعطيهم من هذا المال . فقال له : جئتني بعميد أهل العراق لأعطيهم من مال الله ، والله لا فعلت (١) .

وقد وفد عليه أبو صخر الهذلي في جماعة من قومه ليقبضوا عطاءهم ، فأعطاهم وحرمه ، لأنه أموى الهوى .

فقال له أبو صخر : علام تمنعني حقالي ؟ وأنا امرؤ مسلم ، ما أحدثت في الإسلام حدثا ، ولا أخرجت من طاعة يدا . قال : عليك بنى أمية ، فأطلب عندهم عطاءك .

فجعل أبو صخر يثني عليهم ويفضلهم على ابن الزبير وهو في مجلسه ، فشمته ابن الزبير وسجنه ، ثم شفعت فيه هذيل وبعض قريش ، فأطلقه بعد سنة ، وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبدا .

فلما ولي عبد الملك أمر له بما فاتته من العطاء ، وبمثله صلة من ماله ، وكساه وحمله (٢) .

ومن حوادث بخله أن الشاعر عبد الله بن الزبير (على وزن أمير) الأسدي وفد عليه . فقال (٣) : يا أمير المؤمنين إن بيني وبينك رحما من قبل فلانة . فقال ابن الزبير : نعم ، هذا كما ذكرت ، وإن فكرت في هذا أصبت ، الناس بأسرهم يرجعون إلى أب واحد وإلى أم واحدة . فقال : يا أمير المؤمنين إن تفققت نفدت . قال : ما كنت ضمانت لأهلك أنها تكفيك إلى أن ترجع إليهم . قال : يا أمير المؤمنين ، ناقتي قد نقبت . قال : أنجد (٤) بها تبرد خفها ، وارفعها بسبت (٥) ، واخفضها بهلب (٦) ، وسر عليها البردين (٧) . قال : يا أمير

(١) العقد الفريد ٢٠٩/١ (٢) الأغاني ٩٤/٢١ .

(٣) تاريخ الخلفاء ٢١٣ للسيوطي . (٤) أنجد بها : عد بها إلى بلدك نجد .

(٥) السبت : الجلد المدبوغ ، والمراد هنا السوط ، أي إذا أردت منها السرعة فاضربها بسوط .

(٦) الهلب : الشعر أو شعر الذنب والمراد هنا إذا أردت منها سيرا بطيئا فلا تستعمل غير هذا الشعر الذي لا يضطرها إلى السرعة .

(٧) البردان : الغداة والعشي .

للمؤمنين ، إنما جئتكم مستعملا ، ولم آتكم مستوصفا ، لعن الله ناقة حملتني إليك .  
فقال ابن الزبير : إن<sup>(١)</sup> وراكبها ، نخرج الأسدى يقول :

أرى الحاجات عند أبي خبيب<sup>(٢)</sup> نكدن ، ولا أمية في البلاد  
من الأعياص<sup>(٣)</sup> أو من آل حرب<sup>(٤)</sup> أغر كفرة الفرس الجـواد  
وقلت لصخبتي : أدنوا ركابي . أفاق بطن مكة في سواد  
ومالي حين أقطع ذات عرق<sup>(٥)</sup> إلى ابن الكاهلية<sup>(٦)</sup> من معاد

ويتندر مولاه أبو حرة ييخله ، فيقول :

إن الموالى أمست وهى عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا  
ماذا علينا وماذا كان يرزونا أى الملك على ما حولنا غلبا ؟  
ويقول أيضا بعد أن فارقه ، أو القائل أبو العباس الأعمى<sup>(٧)</sup> :

ما زال في سورة الأعراف يقرؤها حتى فؤادى مثل الخز في اللين  
لو كان بطنك شبرا قد شبعته وقد أفضلت فضلا كثيرا للمساكين  
إن امرأ كنت مولاه فضعنى يرجو الفلاح لعمري حق مغبون

وهو بهذا يتهكم من قول ابن الزبير : إنما بطنى شبر ، فما عسى أن يسمع ذلك  
من الدنيا ؟ وأنا العائد بالبيت ، والمستجير بالرب يريد أنه تأثر على بنى أمية  
لصالح الأمة لا لمطامعه<sup>(٨)</sup>

كذلك يتهكم به الضعاك بن فيروز الديلمى :

(١) إن : نعم . (٢) أبو خبيب : كنية عبد الله بن الزبير .

(٣) الأعياص : أولاد أمية بن عبد شمس وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص .

(٤) آل حرب : ابن أمية .

(٥) ذات عرق : ميقات العراقيين بالبادية .

(٦) ابن الكاهلية : عبد الله بن الزبير ، لأن أحد أجداده لأبيه كاهل وهو ابن أسد بن

خزيمة ، فهو يعيه هنا من جهة جداته لأبيه .

(٧) الأغاني ٢٢/١ دار الكتب . (٨) الأغاني ٢١/١ .

تُخَبِّرُنَا أَنْ سَوْفَ تَكْفِيكَ قَبْضَةٌ      وَبَطْنُكَ شَبْرٌ أَوْ أَقْلٌ مِنْ الشَّبْرِ  
وَأَنْتَ إِذَا مَا نِلْتَ شَيْئًا قَضَمْتَهُ      كَمَا قَضَمْتَ نَارُ الْقَضَا حَطَبَ السَّدْرِ  
فَلَوْ كُنْتَ تُجْزَى أَوْ تُبَدِّتُ بِنِعْمَةٍ      قَرِيبًا ، لَرَدَّتْكَ الْمَطُوفُ عَلَى عَمْرٍو

فهو يتهكم ببخله ، وبأنه أقام أخاه عمرا يباب المسجد الحرام مجرداً من ثيابه ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات ، إذ كان عمرو منحرفاً عنه ، وكان قد أرسله الوليد بن عتبة بن أبي سفيان — وإلى المدينة من قبل يزيد بن معاوية إلى مكة — على رأس جيش ليحارب عبد الله بن الزبير ، فلما التقى الجمعان انهزم رجال عمرو وأسلموا ، فظفر به أخوه (١) .

٣ — على أن ابن الزبير مع حرصه على الخلافة ، ومع بخله ، لم يحسن الوسيلة في اصطناع كثير من أقاربه الأذنين ، ولم يستطع أن يستغل الشيعة .

وقد عرفت ما كان من مولاه أبي هريرة ، ومن أخيه عمرو ، وعرفت رده أشراف العراق الذين قدموا عليه مع أخيه مصعب .

أما إخفافه في استرضاء الشيعة فيكفي منه ثلاثة أحداث .

أولها أنه بعد موت معاوية بن يزيد ، واضطراب الملك الأموي ، بايع أهل العراق عبد الله بن الزبير ، فاستعمل على الكوفة عبد الله بن مطيع العدوي ، فجاء المختار بن أبي عبيد الثقفي إلى ابن الزبير ، وأشار عليه بأن ينتصر بشيعة بني هاشم بالكوفة ، فوكل إليه الأمر ، وجعل المختار يظهر الحنين والجزع ويحث على التآمر لقتلهم ، فمالت الشيعة إليه ، فسار إلى قصر الإمارة ، وطرده عبد الله بن مطيع ، وغلب على الكوفة ، وابتنى لنفسه داراً واتخذ فيها بستاناً ، وأنفق عليهما من بيت المال نفقات عظيمة ، وفرق الأموال على الناس ، وكتب إلى ابن الزبير يخبره .

بأنه عزل ابن مطيع لعجزه ، ويطلب منه أن يقره على ما أنفق ، فأبى ابن الزبير ،  
نخلع المختار طاعته ، وجمع يبعته ، ومال بقوته إلى مؤازرة محمد بن الحنفية (١) .  
وإذا كان ابن الزبير مُحَقَّقاً في رفضه ما طلب المختار ، وفي غضه لأنه عزل واليه ،  
فإنه قد أخطأ من أول الأمر إذ جعل في الكوفة رجلين ، وال رضى من قبله ،  
والآخر شبه رضى ، ثم أخطأ إذ لم يصبر على المختار حتى يتمكن منه .

أما الآخر فإنه حبس الحسن بن محمد بن الحنفية في سجن عارم ، وهو سجن  
موحش مظلم ، وكان يريد قتله ، لكن الحسن هرب حتى أتى إلى منى ، وبها  
أبوه ، وهو بهذا أوغر صدر كثير من الشيعة .

وقد ذكر كثيرٌ هذا الحادث في قوله :

تُخَبِّرُ مَنْ لَا قِيَتَ أَنْكَ عَائِدُ      بل العائد المظلوم في سجن عارم  
وَمَنْ يَرِ هَذَا الشَّيْخَ بِانْخِيفَ مِنْ مَنَى      من الناس يعلم أنه غير ظالم  
سَمِئُ نَبِيٍّ اللَّهِ وَابْنُ وَصِيٍّ      وفكأك أغلال وقاضى مفارم  
وَذَكَرَهُ أَبُو حَمْزَةَ الَّذِي كَانَ مَوْلَى لِبْنِ الزَّبِيرِ . فقال :

فِيَا رَاكِبَا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَقَنْ      كبير بنى العوام إن قيل مَنْ تَعْنَى  
تُخَبِّرُ مَنْ لَا قِيَتَ أَنْكَ عَائِدُ      وتكثر قتلا بين زمزم والركن

وأما الثالث فإنه كان قد حصر بِشَعْبِ مَكَّةَ مِنْ فِيهَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَفِيهِمْ  
محمد بن الحنفية ، وجمع حولهم خطبا عظيما ، لوسقطت فيه شرارة من نار لم يسلم  
من الحريق أحد ، وكان يريد بهذا — كما قال أخوه عروة — أن يرهبهم ليبياعوه ،  
فقدم إلى مكة آلاف من فرسان الشيعة الكيسانية ، وباغتوا عبد الله ، فلما رأى  
تتمرهم وعلم حقيقتهم لاذ بأستار الكعبة ، وقال : أنا عائد بالله واستخرج الشيعة  
من الشَّعْبِ بَنِي هَاشِمٍ (٢)

أصداء دينية :

في شعرهم ملامح دينية كثيرة . تتجلى في مظهرين :

١ — وصف عبد الله ومصعب بصفات دينية .

فابن قيس الرقيات يمدح مصعب بن الزبير بأنه نور من الله ، وبأنه  
تقى مفلح .

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء  
يتقى الله في الأمور وقد أفلح من كان همه الاتقاء

والنايعة الجعدى يصف عبد الله بن الزبير بأنه يسير على سنة أبي بكر وعمر  
وعثمان ، وبأنه يسوى بين الناس :

حكيت لنا الصديق لما وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح مقدم  
وسويت بين الناس في العدل فاستووا فعاد صباحا حالك اللون مظلم

ويكرر ابن قيس الرقيات مدح عبد الله بن الزبير بالتقوى كقوله :

وابن أسماء خير من مسح الركن فعالا وخيرهم بنيانا

ولم يستطع مولاه أبو حُرَّة أن يحمده هذه التقوى ، في تهكمه به بعد  
أن فارقه :

ما زال في سورة الأعراف يقرؤها حتى فوادي مثل أنخر في اللين

٢ - تسمية الحزب بأنه حزب الله ، ووصف أتباعه بأنهم شرطة الله . وقد  
سبق أنهم وصموا خصومهم بالكفر ، كما رأينا في حملاتهم على الكيسانيين وزعيمهم  
المختار ، وفي تنديدهم بالأمويين .

أما وصفهم أنفسهم بأنهم حزب الله ، والحراس على دينه ، فواضح في قول  
أعشى همدان :

وأنى امرؤ أحببت آل محمد وتابعت وحيأ ضمنت المصاحف

وقول سراقه البارقي :

جزى الله خيرا شرطة الله لانهم شفوا من عبيد الله أمس غليل.

وقوله لأتباع المختار :

كفرت بوحكمكم وجعلت نذرا على قتالكم حتى المات.

- ٤ -

قوة شعرهم وصرارته :

وإذ كانوا أصحاب عقيدة ، لاطلاب مال — لأن عبد الله بن الزبير لم يكن كثير العطاء — جاء شعرهم قويا متدفقا ، وبخاصة إذا حملوا على خصومهم وتوعدوهم ، أو شتموا فيهم .

اقرأ قول سراقه البارقي لما قتل عبيد الله بن زياد :

فيا بن زياد بؤ بأعظم مالك وذق حذ ماضي الشفرتين صقيل  
ضربناك بالعصب الحسام بمحدة إذا ما أبانا قاتلا بقتيل.

وقول زفر بن الحارث :

فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا وتثار من نسوان كلب نسايا  
وقوله يخاطب الأمويين بعد مرج راهط ، يوثنهم من قتل ابن الزبير :

كذبتكم — وبيت الله — لا تقتلونه ولما يكن يوم أغر محجل  
ولما يكن للمشرقية فوقكم شعاع كقرن الشمس حين ترجل

وقول ابن قيس الرقيات :

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء ؟  
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن براها العقيلة المذرام.



اقرأ هذه النصوص ومثيلاتها تجدد القوة والحرارة والتدفق والوعيد الملتهب .

— • —

## غزل كبيرى .

كان فى أخريات العصر الجاهلى ضرب من الغزل ، تُقدَّم به بعض فصائد الفخر والهجاء ، وهو غزل تمهيدى يصطنعه الشاعر فى شريفة من شريفات خصومه وخصوم قومه ، لاعتن حب وعاطفة ، بل عن تصنع وتكلف وادعاء ، يريد أن يغيظهم ، ويشهر بهم ، وهذا الضرب من الغزل الهجائى هو الذى سمّيته الغزل الكيدى<sup>(١)</sup> .

فلما جاء الإسلام توارى هذا الغزل ، لأنه يتنافى وتعاليم الإسلام .

نم ابتعثه فى العصر الأموى عبد الرحمن بن حسان ، إذ شرب برملة بنت معاوية فى قوله :

رَمَلْ هل تذكرين يوم غَزَا لَ إذ قطعنا مسيرنا بالتمنى ؟  
إذ تقولين : عَمَرَكَ الله هل شئ • وإن جلَّ بِسُليكَ عفى ؟  
أم هل طمعتَ يا بن حسان فى ذا لك كما قد أراك أطمِعتَ منى ؟

وجاء شاعر الزبيريين ابن قيس الرقيات ، فاصطنع الغزل بامرأة الوليد بن عبد الملك ، بنت عبد العزيز بن مروان المعروفة بأم البنين ، فأغضب الوليد وأباه وأباها ، وأحنق بنى أمية ، فأهدر عبد الملك دمه ، وتوعد من يؤويه ، ولم ينجه إلا شفاعته عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ووساطة أم البنين نفسها ، فصفح عنه عبد الملك ، لكنه حرّمه العطاء من بيت المال ، ولعل الشفاعة فيه تذرعت بأنه ذكر فى قصته الغزلية أنها رؤيا حالم .

(١) راجع ( الغزل فى العصر الجاهلى ) ٢٧٣ للمؤلف .

( م ١٧ — الأدب السياسى )

من هذه القصيدة قوله <sup>(١)</sup> :

ألا هزأت بنا قرشيّةً يهترئ موكبها  
 رأت بي شيبه في الرأ من منى ما أغيبها  
 ومثلك قد هتوت بها تمام الحسن أغيبها  
 لها بعل غيور قا عد بالباب يحجبها  
 يراني هكذا أمشي فيوعدها ويضربها  
 ظلت على نمارقها أفديها وأخلبها  
 أحدها فتو من لي فأصدقها وأكذبها  
 فدع هذا ولكن حا جة قد كنت أطلبها  
 إلى أم البنين متى يقرُّ بها مقرُّها ؟  
 أتتني في المنام فقلت : هذا حين أقتبها  
 فلما أن فرحتُ بها ومال على أفديها  
 شربتُ بريقها حتى نهلتُ وبتُ أشربها  
 وبت ضجيفها جذلا ن تعجبني وأعجبها  
 فكانت ليلة في الفوم نسمرها ونلمبها

ثم جعل بعد هذا يمدح مصعب بن الزبير .

وهو بهذا المسلك يحاكي بعض شعراء العصر الجاهلي في غزلهم الكيدي ،  
 لكنه يخالفهم في أمرين : أنه قدم بغزله الكيدي للمدح ، وهم كانوا يقدمون به  
 للفخر والهجاء ، وأنه أبعده غزله عن الحقيقة إذ زعم أنها رؤيا لا حقيقة ، وهم  
 لم يفعلوا ذلك .

وقد حاكي العرجي ابن قيس الرقيات ، فتغزل غزلا كديا في أم محمد بن هشام  
الخزومي والى مكة لهشام بن عبد الملك بقوله (١) :

عُوجِي عَلَيْنَا رَبِّهُ الهُودَجُ      إِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلِ تُخْرِجِي  
إِنِّي أَتَيْتُ لِي يَمَانِيَةً      إِحْدَى بَنِي الْحَارِثِ مِنْ مَذْحِجٍ  
نَلَبْتُ حَوْلًا كَامِلًا كُلَّهُ      مَا نَلْتَقَى إِلَّا عَلَى مَنْهَجٍ  
فِي الْحَجِّ إِنْ حَبَّتْ وَمَاذَا مِنِّي      وَأَهْلُهُ إِنْ هِيَ لَمْ تَحْجِجْ ؟  
وتغزل في زوجة هذا الوالي جَبْرَةَ الخزومية بقوله (٢) :

عُوجِي عَلَيْنَا فَسَلِّمْ جَبْرُ      فِيمَ الصَّدُودِ وَأَنْتُمْ سَفَرُ ؟  
مَا نَلْتَقَى إِلَّا ثَلَاثَ مِنِّي      حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَنَا النَّفَرُ ؟  
الْحَوْلُ بَعْدَ الْحَوْلِ يَتَّبَعُهُ      مَا الدَّهْرُ إِلَّا الْحَوْلُ وَالشَّهْرُ

وكان غزله هذا موعرا لصدر الوالي عليه ، لكنه أمله له حتى جنى جناية ،  
فضربه وحلق رأسه وصب عليه الزيت ، وعرضه على الناس ، وسجنه ولبث في  
سجنه تسع سنوات حتى مات فيه (٣) .

هذا الغزل الكيدي نَهَجَ في العصر الأموي طريقه في العصر الجاهلي ، ولم  
يحدث فيه تطور كبير ، لهذا كان تعبير الأستاذ الدكتور طه حسين دقيقا في قوله :  
« هذا الغزل الهجائي الذي يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ، خليق بالعناية ،  
فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التي استحدثها الشعراء المسلمون » (٤) .

وحينما أصف عبارة الدكتور طه بالدقة فإنني أعني ما تحتمله هذه الكلمة من  
معنى ، لأن ابن قيس الرقيات لم يكن مبتدع هذا الغزل ، ولكنه يوشك أن يكون  
مبتدعه ، إذا نظرنا إلى أنه اصططحه مقدمة لقصائد المذبح ، وقد كان سابقوه يصطنعونه مقدمة  
لقصائد الفخر والهجاء ، ثم إذا راعينا أنه صور في غزله ما زعم أنه حدث في أحلامه ورؤاه ،

(١) الأغاني ١/٤٠٧ (٢) الأغاني ١/٤٠٨ (٣) الأغاني ١/٤٠٦ — ٤١١ .

(٤) حديث الأربعاء ١/٢٤٧ .

على حين أن سابقه قصوا في غزلهم أحياناً زعموا أنها حقائق واقعة ، ليست من الأحلام في شيء .

وهؤلاء السابقون الذين جدد ابن قيس الرقيات مناهجهم هم قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت وكعب بن الأشرف وعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، فإن لهم جميعاً غزلاً كيدياً سبقوا به ابن قيس الرقيات ، فهو إذاً ليس مبتدعه ، ولكنه يكاد يكون مجدد هذا اللون من ألوان الهجاء الذي توارى حيناً ، ثم ظهر لما صنعت الفرصة لظهوره .

## القضيل الخامس

### نضت الشعر

تمثّل الشعر في هذا العصر في ينايع ثلاثة : ينبوع قديم مسته أيدي التعديل مسا رفيقا لم يغير شكله العام ، هو الموضوعات القديمة من مدح ونخر وهجاء ورثاء ووصف ، وينبوع كان في العصر الجاهلي ضيق السعة قريب الفؤر ، وصار في العصر الأموي رحبا متباعد النواحي عميق الفؤر ، وصار مأؤه أعذب وأصفي وأغزر ، هو الغزل العذري (١) .

أما ينبوع الثالث فإنه جديد في العصر الأموي ، وهو على جذته رُي متدفق ، كأنما كان مطمورا منذ عهد قريب ، ولم تسكد الأيدي ترفع ماغظاه من رمال وأحجار حتى انبعس مأؤه يزيل الرمال والأحجار ، أريد بهذا ينبوع الجديد الشعر السياسي .

ولقد ازدهر الشعر كله في العصر الأموي ، لكننا نريد أن نتبين العوامل الفعالة في ازدهار الشعر السياسي بخاصة ، وإن كان بعضها يمتد إلى غيره .

— ١ —

### تعدد الأحزاب

ليس من شك في أن تعدد الأحزاب ، وتصارعها بالسيوف والأقلام والألسنة ، واعتماد كل حزب على شعرائه في الدعاية لنفسه والجملة على خصومه ، كان من أقوى

---

(١) راجع كتابي ( الغزل في العصر الجاهلي ) لتجد الردود على القائلين بنشأة الغزل العذري في الإسلام ، والتدليل على نشأته في الجاهلية .

العوامل في نهضة الشعر بعامة ، وكان أشد هذه العوامل قوة في نهضة الشعر السياسي بخاصة .

فقد كان الخوارج والشيعة والزيريون ثأرين على الحكم الأموي ونظامه ، وكان الأمويون من بني سفيان ومن بني مروان حراسا على الحكم ونظامه .

وكانت هذه الأحزاب السياسية تختلف في الأسس التي قامت عليها ، وتباين في أهدافها ومناهجها ووسائلها ، وكان لكل منها شعراؤه الذين يناخون عنه ، ويلاحون دونه ، ويستلون ألسنتهم وأقلامهم في تقويض خصومه .

فالخوارج يعلنون أن الخلافة حق لكل مسلم كفاء ، سواء أكان عربيا أم عجميا ، وسواء أكان قرشيا أم غير قرشي ، ويجهرون بأن الخليفة لا بد أن يكون مختارا من الشعب ، ويستمسكون بعقيدتهم هذه ، ويفدونها بأرواحهم ، ويجاهدون أعنف الجهاد في تحقيقها ، فيقلقون الدولة الأموية زمنا طويلا بثوراتهم وحروبهم ، ويقلقون ابن الزبير أيضا ، ويضطرونه إلى حربهم .

والشيعة يستمسكون بأن الإمامة حق العلويين وحدهم ، لا ينازعهم فيه منازع ، ويشيرون على بني أمية وعلى ابن الزبير ، ويسترون أمرهم أحيانا بالتقية حتى تسنح الفرصة المواتية للثورة .

والزيريون يلتفون حول عبد الله بن الزبير منذ مات معاوية الأول إلى أن قتل ابن الزبير في عهد عبد الله الملك بن مروان ، ويؤثرون عبد الله على يزيد وابنه وعلى مروان وابنه ، ويحاربون الدولة مرات ، ويحاربون الشيعة والخوارج مرات .

والأمويون يعتمدون على أنهم أحق المسلمين بالخلافة ، لأنهم أولياء عثمان ابن عفان وورثته ، ولأنهم أكفأ القرشيين للحكم ، ويجدّون في محاربة خصومهم ، ويتعقبون الثأرين عليهم ، ليقرروا الأمن حينما خفقت لهم راية .

وقد عاصرت هذه الأحزاب السياسية الخالصة أحزاب دينية أو فرق دينية ، لم تصطبغ بالسياسة كما اصطبغت الأحزاب السياسية ، فلم تؤيد بني أمية تأييد الحريص على بقاء الحكم في أيديهم ، ولم تثر عليهم ثورة الشيعة أو الخوارج أو الزييريين ،



ولم تناصر حزبا من الأحزاب المعارضة مناصرة الأتباع الأوفياء ، ولم تناوئه مناوأة المخالفين الثأرين الأشداء ، وإنما كانت لها في السياسة آراء ، وكان لبعضها أحيانا نصيب ضئيل من المشاركة في ثورات ، ولكن هذا لم يخرجها عن طابعها المذهبي الذي إلى طابع سياسي عملي ، أريد بهؤلاء المرجئة والجبرية المعتزلة .

أما المرجئة فإنهم لزموا الحيدة في الصراع السياسي ، ووقفوا من المنصارعين جميعا بنجوة ؛ لأنهم لم يستيقنوا أي الأحزاب على الحق وأيها على الباطل ، فكل منها يزعم الحق لنفسه ، وينسب الباطل إلى غيره ، ويدلل على صوابه وخطأ سواه .

وأما الجبرية فقد ذهبوا إلى أن كل شيء بقضاء وقدر ، ولا مفر مما قضى الله وقدر ، وفي دعواهم هذه تأييد ضمني لبني أمية ، لأنها توحى بأن حكمهم مقدور ، فليس يصح للمسلمين أن يقاوموهم أو يعصوهم .

وأما المعتزلة أو القدرية فإنهم يُقَنِّدُونَ هذا الرأي ، وينسبون إلى العباد الاختيار والحرية والإرادة ، فكأنهم لا يعضدون بني أمية ، ولا يقدعون بالمسلمين عن مجاهدتهم أو مجاهدة غيرهم من الحكام الظالمين .

قال عطاء بن يسار ومعبد الجهني للحسن البصري - أستاذ واصل وعمرو ابن عبيد قبل أن يعتزلا مجلسه - : إن هؤلاء الملوك - يعنيان بني أمية - على قضاء من الله وقدر . فقال الحسن : كذب أعداء الله (١) .

ولقد كان هذا الخلاف السياسي والمذهبي عظيم التأثير في الأدب ، وينبوعا ثرا للشعر السياسي ، بل إن الأحزاب السياسية وصراعاها الدموي واللساني هو الذي تَجَرَّ هذا الضرب من الشعر ، ولو لم تكن الحزبية والصراع ما كان الشعر السياسي الذي ندرسه .

### تقرير الخطم للشعراء :

ولقد حرص الأيوون على استغلال الشعر ، واجتذاب الشعراء إلى قصورهم ، ليتخذوا منهم ألسنة مناخة عن حكمهم ، داعية إلى تقبله وتأيده ، فصار الشعر السياسي أعلى ضروب الشعر صوتاً في عهدهم ، وتبوأ مكانة في عصرهم لم يتبوأها من بعد .

وكان السبب في هذا أن الحكم كان يدور على محور واحد هو الاحتفاظ بالملك لبني أمية والقبض عليه ، مخافة أن يؤول إلى سواهم ، فلم يجد الخلفاء بدا من إعداد الجيوش ، والاستناد إلى الصبيات ، والإغداق على المنافسين والطامحين ، ولم يجدوا مندوحة عن اصطناع الشعراء ، ليتقووا بشعرهم كما يتقوون بالسلاح ، ولم تكن ثمة صحف يومية يعتمد عليها أصحاب الآراء وأرباب المذاهب في نشر الدعاية لأنفسهم ، وإبطال ما يقوله خصومهم ، بل كان ثمة ما يقوم مقام الصحف ، ويوائم حالة العصر ، ويتغلغل في أعماق النفوس أقوى وأسرع مما تتغلغل مقالات الصحف ، أريد بهذا الخطابة والشعر .

وكان معاوية مؤسس الدولة أسبق الخلفاء إلى انتهاج هذه السياسة ، بل لقد انتهجها قبل أن تثول إليه الخلافة ، إذ اصطفى كعب بن جُعَيْل التغلبي ، وسماه شاعر الشام ، واستعان بشعره في صراعه لعلی ، فاضطر علی أن يلقاه بشاعر من شيعته هو النجاشي شاعر العراق (١) .

ثم أراد معاوية البيعة لابنه يزيد ، فأوعز إلى مسكين الدارمي أن يروج لها ، وأن يرد على معارضيها ، فقال قصيدته التي رد فيها على عبدالله بن عامر ومروان ابن الحكم وسعيد بن العاص ، وهم بعض معارضي البيعة أو التلكئين فيها ، منها قوله :

(١) راجع شعرها في النماذج الأموية والشيعة .

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد؟<sup>(١)</sup>  
وفي عهده طلب ابنه يزيد من شاعر الشام أو شاعر بني أمية — كعب بن  
جُحَيْل — أن يهجو الأنصار ، لأنهم شيعة علي وبنيه — وكان الهجاء حينئذ  
مشتعلا بين شاعر العلويين عبد الرحمن بن حسان وشاعر آخر من شعراء الأمويين  
هو عبد الرحمن بن عبد الحكم — فأبى كعب ، وقال :

أرادني أنت إلى الشرك بعد الإيمان ؟ ودل يزيد على غلام نصراني ، هو الأخطل ،  
فأرسل إليه يزيد ، وأغراه بالأنصار ، فهجاهم<sup>(٢)</sup> . فغضب الأنصار ، وذهب  
النعمان بن بشير إلى معاوية ، وشكا إليه الأخطل ، فتظاهر معاوية بالغضب على  
الأخطل ، لكنه لم يعاقبه ، ولم يمكن النعمان منه .

والناس هم الناس ، يمشون إلى بريق الذهب ، ويسعون إلى الثراء ، ويلوذون  
بصاحب الجاه والسلطان ، ويغشون بأس الحكام .

لهذا تراحموا على قصور بني أمية ، وعلى قصور ولاتهم ، فكان لهم في كل  
مصر شعراء .

وحسبنا أن نذكر من شعرائهم بالجزيرة الأخطل والقطامي واعشى تغلب ،  
وبانثام عدى بن الرقاع العاملي والأخطل ، وبالبحرة جريرا والفرزدق ، وبالكوفة  
عبد الله الأسدي ، وبالمدينة الأحرص ، وبمكة أبا العباس الأعمى .

على أننا نضم إلى هؤلاء شعراء آخرين كالحجاج وحارثة بن بدر ونابغة بن  
شيبان وكعب الأشقرى وكعب بن جعيل التغلبي ومسكين الدارمي .

وانتهج ولاية بني أمية وقوادهم نهجهم ، فشجعوا الشعراء على الإشادة بهم ،  
فرحل الشعراء إليهم ومدحوهم ، ونالوا عطاياهم . فحارثة بن بدر مدح زيادا ،  
وجرير والفرزدق وغيرها مدحوا الحجاج ، وحبيب بن عوف والطفيل بن عامر  
وكعب الأشقرى مدحوا المهلب بن أبي صفرة ، وجميل وكثير وابن قيس

(١) راجع نماذج شعر الأمويين .

(٢) راجع هجاءه في شعر الحزب الأموي .

الرقيات ونَصَيْب وأَيْمَن بن مُخَرَّم رحلوا إلى مصر ومدحوا وإليها عبد العزيز ابن مروان من قبل أخيه عبد الملك ، وجريز والفرزدق وكُثَيِّر وأَعشى بن شيبان ارتحلوا إلى العراق ، ومدحوا بشر بن مروان .

ولعل خير مثال نسوقه للدلالة على مكانة الشعراء عند الخلفاء هو الأخطل . فقد اصطفاه يزيد بن معاوية طوال خلافته ، فسكنا يشربان معا ، ويسافران معا ، وكان يزيد يستدعيه إلى قصوره للمنادمة وسماع الغناء ، بل إن بعض الروايات تذهب إلى أنه رافق يزيد في حجه (١) .

ثم قرَّبه عبد الملك بن مروان ، حتى لقد كان يدخل عليه بغير استئذان ، وعليه جبة خَزْ ، وفي عنقه سلسلة من ذهب ، يتدلى منها صليب من ذهب ، والخر تقطر من لحيته (٢) .

وكان عبد الملك عظيم الإعجاب به ، والمكافأة له ، أنشده قصيدته التي مطلعها :

خَفُّ القَطِينِ فَرَّاحُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا وَأَزَعَجْتَهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرُ

فقال عبد الملك لفلان : خذ يده يا غلام ، وألق عليه من الخلع ما يغمره ، وأحسن جائزته ، ثم قال : إن لكل قوم شاعراً ، وإن شاعر بن أمية الأخطل (٣) .

ويذكر الأصمعي أن عبد الملك كان يتناول وهو ينشده قصيدته الرائية ، وأنه قال له : ويحك يا أخطل أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟

قال الأخطل : أكتفي بقول أمير المؤمنين . ثم أمر بحفنة كانت بين يديه ، فمكث دراهم ، وألقى عليه خلعا ، وخرج معه مولى لعبد الملك يقول للناس : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب .

وقد مدح بنى أمية ، ومدح كبار رجالهم ، كالحجاج ويزيد بن المهلب  
وبشر بن مروان ، وهم جميعا كانوا يقربونه .

كذلك كان أعشى بن تغلب مقربا إلى الوليد بن عبد الملك ، وكان الوليد  
يجزل عطاءه . (١)

### — ٣ —

#### ازدهار الثقافة الأدبية :

كانت الثقافة الأدبية من لغة وشعر وأخبار قد خطت خطوات فسيحة متلاحقة  
في هذا العصر ، إذ كان الشعب يحرص عليها ويعتز بها ، والأمويون يشتدون في صبغ  
دولتهم بالصبغ العربي الخالص ، وكان هؤلاء الحكام وكثير من السراة والكبراء  
والعلماء يعتزون بما خلف العرب من تراث أدبي ولغوي ، ويحتفون بما ينشئ  
معاصروهم من شعر ، وكان كثير منهم أصحاب ذوق ، يطرَبون للقول الرائع ،  
ويقدرُون صاحبه .

وقد تجلّى هذا في مظاهر عدة :

١ - عقد الخلفاء مجالس لاصتماع المديح ، والإغداق على الشعراء ، كما قدمنا .

وعقدوا مجالس للسمر بالشعر ، والإصغاء إلى روايته ونقده ، وكثيرا ما أجزلوا  
الحباء للرواة كما أجزلوه للمادحين ، وكان بعضهم يروى الشعر ، ويستشهد به في  
المناسبات الطارئة استشهاده الحاذق الخبير .

حدث معاوية قال : لقد رأيتني يوم صيفين ، وقد أتيتُ بفرس أغرٍ محجلٍ بعيد  
البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حماني على الإقامة إلا أبيات  
لعمر بن الإطنابة (٢) .

أَبَتْ لِي هَمِّي وَأَبَى بِلَائِي وَأَخَذَى الْحَدَّ بِالْثَمَنِ الرَّيِّحِ

(١) الأغاني ١٠ / ٩٨ .

(٢) العمدة ١ / ١٠ .

وإقحامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح<sup>(١)</sup>  
وقولى كلما جشأت وجاشت<sup>(٢)</sup> مكانك تحمدي أو تستريحى<sup>(٣)</sup>  
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمى بعدد عن عرض صحيح

وقال عبد الملك لولده وأهله : أى بيت ضربته العرب ووصفته أشرف وأعظم ؟  
فأجابوا ، ولم يصبوا ما بنفسه ، فقال لهم : إنه بيت طُفَيْل الذى يقول فيه :

وبيت تهبُّ الريح فى حجراته بأرض فضاء بابه لم يحجب

وسأل جلساءه<sup>(٤)</sup> : أى المناديل أفضل ؟ فقال أحدهم : مناديل مصر كأنها  
غُرْقِيء البيض ، وقال آخر : مناديل اليمن كأنها نَوْرُ الربيع ، فقال : بل مناديل  
عبدِ بن الطبيب حيث يقول :

لما نزلنا نصبنا ظلَّ أخبية وفار للقوم باللحم المراجيل<sup>(٥)</sup>  
وزدَّ وأشقرَّ ما يأنيه طابخه ما غير الغلِّ منه فهو ما كول<sup>(٦)</sup>  
نمت قمنا إلى جردٍ مسومةٍ أعرافهن لأيدينا مناديل<sup>(٦)</sup>  
وذكر يوماً لجلسائه قول نصيب :

أهيمُ بدعد ما حييت فإن أمت أو كَلُّ بدعد من يهيم بها بعدى  
وعابوه جميعاً ، فقال عبد الملك : لو كان إليكم فماذا كنتم قائلين ؟ فقال أحدهم  
كنت أقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فواحرزنا من ذا يهيم بها بعدى

(١) المشيح : الحاد فى الأمر .

(٢) جشأت نفسه وجاشت : اضطربت من الرعب .

(٣) العقد الفريد ١ / ١٢٤ والكامل للمبرد ٢ / ١٤٩ .

(٤) المراجيل : جمع مرجل وهو القدر

(٥) ورد : أحر . أشقر : تلو بياضه حمرة .

(٦) جرد : جمع أجرد أو جرداء وهو الفرس الجيد القصير العمر . مسومة : معلمة .



فقال عبد الملك : ما صنعت شيئا . فقبل له : كيف كنت قائلا في ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قل : كنت أقول :

أهيم بدعد ما حبيت فإن أمت فلا صلحت دعد لدى خلة بعدى

فقالوا : أنت والله أشعر الثلاثة .

وكان بصيراً بما يسمع من مدح ، فقد وفد عليه ذو الرمة ، ومدحه بقصيدة ، لكنه أطال في وصف ناقته ، ولم يذكر عبد الملك إلا في بيتين اثنين ، فقال له عبد الملك . مامدحت بهذه القصيدة إلا ناقتك ، نخذ منها الثواب (١) .

وكان هشام بن عبد الملك شديد الكلف بالشعر ، حتى إنه كان يارق ، فيطلب من الأعراب من يحدثه ، وقد جرى له ليلة بأبي النجم ، فحدثه ، وروى له ، فأعطاه ثلاث مئة دينار كانت هي الباقية من النفقة آنئذ .

وكتب إلى عامله بالعراق أن يدفع إلى حماد الراوية خمس مئة دينار ، ويرحله إلى دمشق ، فلما وصل بعد اثنى عشرة ليلة استدناه ، وقال له : بعث إليك بيت خطر يالى ، ولم أدر قائله . قال حماد : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال :

ودعوا بالصُّبوح يوما فجاءت قينة في يمينها إبريق

فقال حماد : إنه من قصيدة لعدي بن زيد . قال هشام : فأنشدنيها . فأنشده . إياها ، فطرب ، وأجزل عطاءه ، وأعادته إلى العراق .

وقد اجتمع عند مسلمة بن عبد الملك بعض سماره ، وكان فيهم عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر ، فقال مسلمة : أى بيت قاله العرب أو عظم وأحكم ؟ فقال له عبد الله : قول الشاعر :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للهاطل ابعدي

فقال مسلمة : والله ما وعظني شعر قط كما وعظني شعر ابن حطان حيث يقول :

فيوشك يوم أن يقارن ليلة يسوقان حَتَفًا راح نحوك أو غدا

فقال بعض من حضر : أما والله لقد سمعته أجَلُ الموت ثم أفناه ، وما صنع هذا غيره . فقال مسامة : وكيف ذاك ؟ قال إنه قال :

لا يُعجزُ الموتُ شيءَ دون خالقه      والموتُ فانٍ إذا ما ناله الأجلُ  
وكل كرب أمام الموت مُتَضِعٌ      للموت ، والموت فيما بعده جدل

فبكى مسامة حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : ارددها عليّ ، فرددها حتى حفظهما مسامة (١)

وروى أن هشام بن عبد الملك كان يقترح على الشعراء أن يصفوا شيئاً ، وكان يجيز المجيد منهم (٢)

٢ — على أن الخلفاء كانوا حراساً على فصاحة أبنائهم ، فجعلوا ينشئونهم بالبادية ، ثم يعهدون بتربيتهم وتعليمهم إلى طبقة من العلماء هم المؤدبون ، وكان هؤلاء المؤدبون يشقون تلاميذهم باللغة والشعر والتاريخ والأنساب .

وقد أوصى معاوية باتخاذ الشعر وسيلة من وسائل التربية في قوله : « اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فإن فيه مآثر أسلافكم ، ومواضع إرشادكم » (٣)

وأوصى عبد الملك مؤدب ولده بقوله : « أدبهم برواية شعر الأعشى ، فإنه — قاتله الله — ما كانت أعذب بحره ، وأصلب صخره » .

وأشار على مؤدب ولده أن يحفظهم مثل شعر المجير السلولي :

يَبِينُ الجار حين يبين عني      ولم تأنس إلى كلاب جاري  
وتَظَنُّ جارتي من جنب يدي      ولم نُستَر بستر من جداري  
وتَأْمَنُ أن أطلع حين آتى      عليها وهي واضحة الخمار

(٢) الأغاني ٩/٨٠

(١) الأغاني ١٦/١٥١

(٣) العمدة ١/١٠

كذلك هدى آباءى قديما توارثه النجار عن النجار<sup>(١)</sup>  
فهدى هديهم وهم افتلونى كما افتلوا العتيق من المهارى<sup>(٢)</sup>

فهو يؤثر هذا الشعر لأنه يربى مكارم الأخلاق .

وإذ كان الناس كلفين بمحاكاة ملوكهم وكبرائهم ، حرص كثير منهم على  
تثقيف أنفسهم وتثقيف أبنائهم بهذه الثقافة الأدبية ، كما حرص آخرون على تزويد  
أنفسهم وبنيتهم بالشطر الآخر من الثقافة الذائعة حينئذ ، وهى الثقافة الدينية .

فقد كان عقيل بن علفة فى سفر ، ومعه ابنه علفة وجثامة وابنته الجرباء .  
فقال عقيل<sup>(٣)</sup> :

قَصَّتْ وَطَرًا مِنْ دَيْرٍ سَعْدٍ وَطَالَمَا عَلَى عُرْضٍ نَاطَحْنَهُ بِالْجَاجِمِ<sup>(٤)</sup>  
إِذَا هَبَطَتْ أَرْضًا يَمُوتُ غُرَابُهَا بِهَا عَطَشًا أُعْطِينَهُمْ بِالْخَزَائِمِ<sup>(٥)</sup>

ثم قال : أَنْفِذْ يَا عُلْفَةُ . فقال علفة :

فَأَصْبَحْنَا بِالْمَوَاطَةِ يَحْمِلُنْ فَتِيَةً نَشَاوَى مِنَ الْإِدْلَاجِ مِيزِلَ الْعَامِ<sup>(٦)</sup>  
إِذَا عِلْمٌ غَادَرْنَهُ بَتْنُوفَةٍ تَذَارَعُنْ بِالْأَيْدَى لِأَخْرِ طَاسِمِ<sup>(٧)</sup>

ثم قال : أَنْفِذِ يَا جَرْبَاءُ فَقَالَتْ :

كَأَنَّ الْكَرَى سَقَامٌ صَرَّخَدِيَّةٌ عَقَارًا تَمْشَى فِي الْمَطَا وَالْقَوَامِ<sup>(٨)</sup>

(١) النجار : الأصل .

(٢) افتلونى : المراد ربونى . المهارى : جمع مهرى وهو الجمل العتيق نسبة إلى مهرة  
ابن حيدان .

(٣) الأغاني ١١ / ٨٢ والأشربة لابن قتيبة ٥٩ مخطوط .

(٤) على عرض . . . : أى طالما مررنا بالدير ولم نقم :

(٥) أعطينهم بالخزائم : انتادت الإبل لراكبها بالخزائم وهى البراة التى فى جوانب

مناخيرها (٦) الموماة : الصحراء . الإدلاج : سير الليل

(٧) علم : جبل . تنوفة : صحراء لاماء بها ولا أنيس . تذارعن : أسرع . طاسم :

(٨) صرخدية : خر . عقار : خر شديدة التأثير . المطا : الظهر .

فغضب عقيل وهاج ، وقال : والله ما وصفتم هذه الصفة إلا وقد شررتها ، ثم أخذ يضربها ، فصد عنها أخوها .

وكان خلف الأحمر يدرب تلاميذه على قرض الشعر ، فيذكر لهم البيتين ، ثم يغير قافية أولها ، ويطلبهم بتغيير قافية الثاني لتلائم الأول ، ونجد تفصيل هذا في حكاية عنه (١) .

وذكر رؤبة أن السكيت والطرماح كانا يقصدانه ليسألاه عن الغريب فيخبرهما به ، ثم يراه بعد في أشعارهما (٢) .

٣ — كثر رواة الشعر في هذا العصر ، واشتهر منهم أئمة أعلام ، مثل عامر الشَّعْبِيَّ وحماد وأبي عمرو بن العلاء والأصمعي وأبي ضَمَّةَ .

وكان رواة الشعر يحرصون على جمعه وحفظه وتدوينه ، كما يحرص رواة الحديث على جمعه وحفظه وتسجيله ، وكان بعضهم يشافه الأعراب ، ويسجل ما يروى ، وبعضهم يحفظ من مدونات ، وبعضهم يلزم الشعراء ويذيع عنهم ، ويدون ما يروى . وسأذكر في نهضة الكتابة أن محمد بن الحسين كان بمدينة الخديشة وكان جماعاً للكتب ، وأن ابن النديم رأى في مكتبته مقادير من جلود وقراطيس ، بعضها يرجع إلى صدر الإسلام ، وبعضها يرجع إلى العصر الأموي (٣) .

وكذلك كان أبو عمرو بن العلاء قد ملأ حجرة إلى ما يقرب من سقفها ، فلما تنسك أحرقها كلها ، ثم عاد إلى علمه ، فصار يعتمد على ما حفظ (٤) .

ولقد كان بعض هؤلاء الرواة عجباً في كثرة ما يروى ، من هؤلاء حماد ، سأله الوليد بن يزيد : بم استعجقت أن تسمى راوية ؟ فقال : بأن أروى لكل

(١) رسالة الغفران ١٤٦ ونزهة الألباء ٦٩

(٢) الأغاني ١٠ / ١٤٩ .

(٣) الفهرست ٦٦ .

(٤) وفيات الأعيان ٣ / ١٣٦

شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن لا تعرفه ولا سمعت به ، ثم لا ينشد أحد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم من المحدث . فقال له : فكم مقدار ما تحفظه من الشعر ؟ قال : كثير ، أستطيع أن أنشدك على كل حرف من حرف المعجم مئة قصيدة كبيرة ، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام . قال الوليد : سأمتحنك في هذا . ثم أمره بالإنشاد ، فأنشد حتى ضجر الوليد ، فوكل به من يسمعه ، ويستوفي عليه ، فأنشد ألفين وتسع مئة قصيدة من الشعر الجاهلي ، وعلم الوليد بذلك فكافأ بمئة ألف درهم<sup>(١)</sup> .

ومنهم أبو ضَمَضَم ، كان يروى لمئة شاعر كل منهم اسمه عمرو ، على حين أن الأصمعي وخلفاء الأحمر لم يقدر أن يعدوا أكثر من ثلاثين من هؤلاء<sup>(٢)</sup> :

وذكروا أن الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة<sup>(٣)</sup> .

ولست على يقين من صدق هذه الأخبار ، فإنني لا أشك في أنها لم تسلم من التزيد والمبالغة ، لكنها على مبالغاتها ترسم صورة تقريبية لكثرة الرواية وحفظ الرواة وعنايتهم وعناية الناس بما خلف العرب من أشعار .

٤ — كذلك انعقدت مجالس للشعر والغناء به في غير قصور الخلفاء والولاة ، فتأنق بعض الشعراء في شعرهم ، ليرضى النقاد والمتذوقين ، وليحمله الرواة ، ويتغنى به المغنون .

وحسبي أن ألم على عجل بطرف من هذه المجالس ، التي اشتهرت بها بعض النساء الأمويات .

(١) الأغاني ١٥ / ١٦٥ ووفيات الأعيان ١ / ٤٤٨

(٢) الشعر والشعراء ٦ والعقد الفريد ٣ / ١٠٧

(٣) وفيات الأعيان ٢ / ٣٤٤

أما إحداهن فهي عائشة بنت طلحة ، وقد كانت أديبة ناقدة ينشدها الشعراء ،  
أنشدها أبو عمرو قصيدة قيس بن الحداية التي مطلعها :

أجِدُّكَ إِنْ نَعِمَ نَأَتْ أَنْتَ جَارِعٌ      قَدْ اقْتَرَبْتَ لَوْ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ

فاستحسنتها . وكان يحضرتها جماعة من الشعراء ، فقالت لهم : من قدر منكم أن  
يزيد فيها بيتا واحدا يشبهها ويدخل في معناها فله حُلَّتِي هذه ، فلم يقدر أحد منهم  
على ذلك (١) . وقد أسمعها الغريز قصيدة للحارث بن خالد فاستحسنتها ، وأمرت له  
بخمسة آلاف درهم وأثواب ، ثم استزادته من شعر الحارث واستزادته ، وأمرت  
له بخمسة آلاف أخرى ، ثم طلبت منه أن يغنيها في شعر غيره ، فغناها لعمر بن أبي  
ربيعة ، فضحكت ، وأعطته خمسة آلاف ثلاثة (٢) .

وأما الأخرى فسكينة بنت الحسين ، كانت ذات صيت طائر في حب الشعر  
وتذوقه ونقده ، حتى ليصح أن نقول بلغة العصر الحاضر إنها كانت صاحبة ندوة  
أديبة ، وكان يهفو إليها الشعراء ، فيسمعونها ويسمعون رأيها ونقدها .

ولها في ذلك أخبار شتى ، منها أنها أنشدت قول الحارث بن خالد في وصف  
حسان يظفن بالبيت :

فَقَرَعْنَ مِنْ سَبْعٍ وَقَدْ جَهَدَتْ      أَحْشَاؤُهُنَّ مَوَائِلَ الْخُمْرِ

قالت : أحسن عندكم ما قال ؟ قالوا : نعم . فقالت : وما حسنه ؟ فوالله لو طافت  
الإبل سبعا لجهدت أحشاؤها (٣) .

ولما أنشدها الغريز قصيدة عمر بن أبي ربيعة :

أَلِمْتُ بِزَيْنَبَ إِنْ الْبَيْنَ قَدْ أَفِيدَا      قُلُ الثَّوَاءِ لَنْ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا

طلبت أن يغنيها لها ، فلما غناها قالت : أحسنت والله ، وأحسن عمر ، وأمرت  
له بكل بيت ألف درهم ، وقالت : لو زادنا عمر لزدناك (٤) .

(٢) الأغاني ٣/ ٣٢٠ :

(٤) الأغاني ٢/ ٣٧٦ :

(١) الأغاني ١٣/ ٧ .

(٣) الأغاني ٣/ ٣٢٧ :



وزارها بالمدينة الفرزدق ، فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت ، أشعر منك جرير الذى يقول :

بنفسى من تجنبه عزيزٌ على ومن زيارته لِمَامُ  
ومن أُمسى وأصبح لا أراه ويطرقنى إذا هجع النيام

فقال لها : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . ثم عاد إليها من الغد ، فسألته عن أشعر الناس ، فقال : أنا ، فقالت : جرير أشعر منك ، وذكرت بعض شعره ، وكذلك فعلت فى اليوم الثالث (١) .

وهى التى نقدت قصيدة لعمر (٢) .

ولها أخبار أخرى فى النقد وتذوق الشعر (٣) .

وأما الثالثة فامرأة تحدث عنها نصيب ، ولم يذكر اسمها ، وقد ذكر أبو الفرج حديثه مفصلاً (٤) ، وموجزه أن نصيباً وكثيراً والأحوص التقوا يوماً فى العقيق بنسوة بارزات ووصائف ورجال من الموالى ، وكان فيهن امرأة برزة ، استضافت الشعراء الثلاثة ، وأمرت جارية لها أن تغنيهم بيتين من شعر نصيب ، ثم أمرتها أن تغنى أبيتاً أخرى له ، ثم اقترحت عليها أبيتاً آخر من شعره ، ثم أشارت عليها بأبيت من شعره غير هذا كله ، فزُهِىَ نصيب حتى خيل إليه زهوه أنه من قريش ، وأن الخلافة له .

أما كثير والأحوص فقد غضبا ، وغابا المرأة على استخفافها بشعرهما وتقديمها شعر نصيب ، فقالت لها : على معرفة كل ما كان منى ، ثم ذكرت بعض شعرها وعابته ، فخرجتا من المجلس مغضبين ، وأمرت لنصيب بثلاث مئة دينار ليعطيها صاحبه ، فإن قبلاها ، وإلا فهى له . أما الأحوص فقبل نصيبه ، وأما كثير فرفضه ولعن نصيباً والمرأة وجائزتها .

(٣) وفيلت الأعيان ١٣١/٢

(٢) الأغاني ٣٠٧/٢

(١) الأغاني ٥٠/٧

(٤) الأغاني ٣٥٦/١ .

٥ — على أن كثيرا من شعراء العصر كانوا قارئين وكاتبين ، فكان عمر ابن أبي ربيعة يكتب <sup>(١)</sup> وكذلك عدى بن الرقاع <sup>(٢)</sup> وجريز <sup>(٣)</sup> والأحوص <sup>(٤)</sup> وغيرهم .

وكان ذو الرمة يقول لعيسى بن عمر : اكتب شعري فالكتابة أحب إلى من الحفظ <sup>(٥)</sup> .

وكان الكمي لا يكتب فحسب ، بل كان يعلم الكتابة <sup>(٦)</sup> ، وكذلك كان الطرمح <sup>(٧)</sup> .

## — ٤ —

### ازدهار الثقافة الدينية

كان للمسلمين شقٌّ آخر من الثقافة قد تفتحت آفاقه ، وكثر رجاله ، وساعد على نهوض الأدب ، ولوّن الشعر السياسي ببعض ألوانه ، نفى بهذا الشق الثقافة الدينية .

١ — فقد غنى العلماء في هذا العصر بحفظ القرآن الكريم ، وعنوا بتفسيره ، واحتفوا بالحديث وروايته ، وبدأوا يضعون أسس التشريع والفقه ، واشتهر في كل مدينة كبيرة جماعة من الفقهاء والمفسرين والمحدثين <sup>(٨)</sup> .

٢ — وكان هؤلاء الفقهاء كثيرا ما يجادل بعضهم بعضاً ، وكثيرا ما يجادلهم تلاميذهم .

فالشَّعْبِي كان يناظره أصحابه في الفقه <sup>(٩)</sup> ، والزُّهْرِي وقتادة تناظرا في مجلس سليمان بن عبد الملك <sup>(١٠)</sup> ، وابن شبرمة سأل إياس بن معاوية عن نيف وسبعين

(١) الأغاني ١/٢٣٥ (٢) الشعر والشعراء ٣٩٢ (٣) الأغاني ٨/٣٢

(٤) الأغاني ٤/٢٤٧ (٥) الحيوان ١/٤١ (٦) الشعر والشعراء ٣٦٨

(٧) البيان والتبيين ٢/٣٢٣ .

(٨) تجد أسماء كثير منهم في أسباب نهضة الكتابة .

(٩) البيان والتبيين ٢/٣٢٣ (١٠) البيان والتبيين ١/٢٤٣

مسألة كان قد أعدها ، ولم يختلفا إلا في ثلاث أو أربع ، رده فيها إياس إلى رأيه (١) .

٣ — ولم يكن الجدل محصورا في مسائل الفقه ، بل تعداها إلى مسائل تعد من الأصول الأولى لعلم الكلام .

فقد سبق في دراسة المرجئة والجبرية والمعتزلة والشيعة والحوارج أنهم اختلفوا في مسائل كثيرة ، وأن تدليل كل منهم على آرائه ينبىء عن نظر عقلى كان قد نضج ، حتى إن كلامهم كان يحتاج لرأيه بنصوص من القرآن يوجهها التوجيه الذى يراه .

وكأما كان الجدل قرين السلام وأثرا للهدنة ، فقد ذكر الطبرى أن الحوارج في حرب المهلب بن أبي صفرة كانوا يضعون السيوف حيناً بعد حين ، ويجادلون خصومهم ، ويدعونهم إلى مذهبهم .

٤ — وكان الجدل كثيرا ما يحدث بين المسلمين وغيرهم .

فقد تجادل جهم بن صفوان مع بعض السَّمَنِيَّةِ (٢) ، فقالوا له : نكلمك ، فإن غلبناك دخلت في ديننا ، وإن غلبتنا دخلنا في دينك ، ثم قالوا له : ألسنت زعم أن لك إلها ؟ قال : بلى . قالوا : هل رأيت إلهك ؟ قال : لا . قالوا : فهل سمعت كلامه ؟ قال : لا . قالوا : أسمعته له رائحة ؟ قال : لا . . . . . قالوا فما يدريك أنه إله ؟

فقال جهم : أستم تزعمون أن فيكم روحا ؟ قالوا : بلى . قال : فهل رأيتم روحكم ؟ قالوا : لا . قال : فهل سمعتم كلامه ؟ قالوا : لا . قال : فكذلك الله لا يرى له وجه ، ولا يسمع له صوت ، ولا تشم له رائحة ، وهو غائب عن الأبصار ، ولا يكون في مكان دون مكان (٣) .

(١) الطبقات الكبرى ٧ — ٥/٢ .

(٢) طائفة هندية تقول بتناسخ الأرواح

(٣) الرد على الجهمية والزنادقة ١١ لابن حنبل

٥ - ولم يكن الشعراء والخطباء والكتاب في عزلة عن هذا التفكير الفقهى ، ولم يكونوا في عزلة عن ذلك الجدل العقلى ، فإن ثابت بن قُظنة اعتنق مذهب الإرجاء بعد أن سمع جدال المرجئة مع الخوارج في خراسان .

وكان ذو الرمة قدرياً سنياً (١) ، وكان رؤبة جبرياً (٢) وقد اختصما يوماً ، فقال رؤبة : والله ما خص طائر أخوصاً (٣) ، ولا تقر مص سبع قُرْموصاً (٤) إلا بقضاء الله وقدره . فقال ذو الرمة : ما قدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عبايل ضرائك (٥) . فقال رؤبة : أفقدرته أكلها ؟ هذا كذب على الذئب . فقال ذو الرمة : الكذب على الذئب خير من الكذب على رب العالمين (٦) .

وأغلب الظن أن ذا الرمة لم يكن قدرياً فحسب ، بل كان على دراية دقيقة بمذهب القدرية ، يدل على هذا أنه أنشد إسحاق بن سويد :

وعينان قال الله : كونا ، فكانتا فعولان بالأللاب ما تفعل الحمر

فقال له إسحاق : هلا قلت ( فعولين ) ؟ فقال ذو الرمة : لو قلت سبحانه الله والحمد لله ، كان خيراً لك (٧) .

ومعنى هذا أن ذا الرمة لو قال ( كاتتا فعولين ) بالنصب لجعل المنسوب خيراً لكان ، فيكون إذاً جبرياً ، أما رفع الكلمة فيجعلها خبراً للمبتدأ ( عينان ) وهذا يعد المعنى عن الجبر ، لأن العينين إذاً مؤثرتان بطبيعتهما لا بقسر من الله .

كذلك كان جرير يجلس في حلقة ابن سيرين ، والفرزدق يجلس في حلقة الحسن البصرى (٨) .

(١) يقول بحربة العبد وكسبه (٢) يقول بالجبر والاضطرار .

(٣) الأخوص : مجثم الطائر في التراب .

(٤) القرموص والقرماص حفرة ضيقة الرأس واسمة الجوف .

(٥) حلوبة : شاة أو ناقة تحلب . عبايل : جمع عيال ، وهذه جمع عيل وهو الولد الذى يعوله غيره . ضرائك : جمع ضربك وهو السبىء الحال أو الضرير .

(٦) سرح العيون ١٦٧ .

(٧) الأغاني ١٦ / ١٢٢ (٨) العقد الفريد ٣ / ١٦٩

وفي مدائح جرير والفرزدق لبني أمية نزوع ديني كما سبق في دراسة النصوص .  
على أننى أذكرُ ؛ سبق أن زيد بن علي بن الحسين إمام الزيدية كان تلميذاً  
لواصل بن عطاء ، وأن السكيت شاعر الشيعة كان زيدياً .

ويظهر أن الجدل كان يحدث ويشتد بين الطوائف ، ويكاد يبلبل الخواطر ،  
لهذا أنحى زيد بن جندب على الأزارقة باللوم ، لأنهم أكثروا من الجدل فانقسموا  
وضعفوا :

ما كان أغنى رجالاً ضلّ سعيهمُ      عن الجدل وأغناهم عن الخطب  
كنا أناساً على دين ففرقنا      طولُ الجدل وخلطُ الجدل بالعب<sup>(١)</sup>

والسكيت شاعر الزيدية كانت نشأته بالكوفة موئل الشيعة ، فاستقى من  
معارفهم ، حتى صار من فقهاءهم وشعرائهم .

وعمران بن حطان الشاعر الخارجي تلقى الحديث والفقه من عائشة وابن عباس  
وابن عمر وأبي موسى الأشعري ، فكان في أول أمره فقيهاً ومحدثاً ، وكان على  
مذهب الجماعة ، ثم تزوج قريبة له من الخوارج ليصرفها عن مذهبها ، فصرفته هي  
عن مذهبه .

ولقد بينت في خصائص الشعر السياسي لكل حزب ما فيه من أثر قرآني  
أوفقي أو جدلي ، ووضعت في النصوص نفسها هذه الآثار .

### التحريض على التهاجم :

كان كثير من الأمويين وولاتهم يغرون بعض الشعراء ببعض ، ويحضون  
بعضهم على هجاء بعض ، يريدون بهذا أن يثأروا من قبائل غير موالية لهم ،  
أو يضعوا من شأن شعراء لم يناصروهم ، ولعل بعضهم كان يريد اللهو بهذا العبث ،

(١) البيان والتبيين ١/ ٤٢ .

وكان الدهاة منهم يبتغون أن يشغلوا الشعراء بالتهاجي والتفاخر ، ويشغلوا قبائل هؤلاء الشعراء ، ويشغلوا كثيراً من الناس أيضاً بهذا الصراع الأدبي ، وهم يحتالون بذلك لصرف هؤلاء جميعاً إلى الصراع الأدبي ، ليبتعدوا عن المشاركة في السياسة ، ولئلا يفرغوا للثورات .

وربما كان يزيد بن معاوية أسبق بني أمية إلى هذا التحريض ، فهو الذي أراد كعب بن جعيل شاعر الشام على أن يهجو الأنصار ، فأبى ، فحرض الأخطل على هجائهم نكاية في شاعرهم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فقبل .

واشتهر بعد يزيد بتحريض بعض الشعراء على بعض بشر بن مروان .

فقد كان بشر بن مروان والى العراق ذا نجدة وسخاء ، وكان مدحاً ، مدحه جرير والفرزدق والأخطل وكثير وأعشى بنى شيبان ، وهو الذي أغرى بين الأخطل وجرير فتهاجيا (١) .

وذكر أبو الفرج أن الحجاج سأل جريراً عن السبب في ولعه بهجاء الناس ، فاعتذر جرير بأنه يدافع عن نفسه ، لأن الشعراء يهجونه ، وجاء في إجابته أن بشر بن مروان حرض سراقه البارقي على هجائه ، وأنه بعث إلى جرير يحرضه على الرد عليه (٢) .

كذلك لم يكن عبد الملك يكره أن تقع الخصومة بين الشعراء ، فقد دخل جرير على عبد الملك ، والأخطل عنده ، وكانا قد تهاجيا ولم يلتقيا ، فقال جرير للأخطل : من أنت ؟ فقال : أنا الذي منعه نومك ، وهضم قومك . فقال له جرير : ذاك أشقى لك . ثم أقبل جرير على عبد الملك فقال : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فضحك وقال : هذا الأخطل يا أبا حزرّة . فقال جرير : ائذن لي يا أمير المؤمنين في ابن النصرانية . فقال : لا يكون ذلك في مجلسي . فوثب جرير مغضباً ، فقال عبد الملك : قم يا أخطل ، واتبع صاحبك ، فإنما قام غضباً علينا فيك . فتمضى الأخطل ،

(١) الأغاني ١٧٦/٧ وطبقات الشعراء ٤٠٨

(٢) طبقات الشعراء ٤٠٨ والأغاني ٤٢/٧



فقال عبد الملك لحادم له : انظر ماذا يصنعان إذا برز الأخطل (١) .

وقال عبد الملك للعجاج : بلغنى أنك لا تقدر على الهجاء . فقال : يا أمير المؤمنين ، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه تخريب الأخبية قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزا يمنعنا من أن نُظلم ، وإن لنا حلما يمنعنا من أن نُظلم ، فعلام الهجاء (٢) ؟

في هذا التحريض من عبد الملك دليل على أنه كان يريد استغلال العجاج في الهجاء ، لكنه لم يجد عنده ما أراد .

## — ٦ —

### الحرية :

ومهما يكن من عسف بعض الحكام ، وتعقبهم للثوار والداعين إلى الثورة ، أو الناقدين للخلفاء والولاة ، فقد كان كثير من الشعراء يستطيعون أن يجهروا بما في نفوسهم من سخط ومن تحريض .

ذلك أن شعراء الأحزاب المعادية للحكومة إما ثأرون محاربون ، فهم لا يرهبون جريرة المقال ، لأن الذي يشهر سيفه لا يتردد في أن يشهر لسانه ، وإما مؤيدون لأحزاب ينتمون إليها ، وهم في الأعم الأغلب بمأمن من أن تنالهم بسوء أيدي الحكام .

ولقد يجهر بعض الشعراء — الذين لا يعجز الحكام عن القصاص منهم — بما يختلج في أنفسهم ، من تنديد وسخط وهجاء ، فيعلم عليهم بعض الخلفاء ، ليظفثوا ما بهم من مودة ، ولعل هذا الحلم يردهم عن البغضاء ، ولعله يكفي الحاكم وخزات ألسنتهم ، وألسنة مشايعهم من الناس .

وأغلب الظن أن معاوية هو الذي استن هذه الحطة ، وتأثره فيها من بعده .

فقد كان معاوية يحلم على الشعراء حيث لا ينتظر حلم ، لأنه أخذ نفسه بسياسة استئنها في قوله : أنا لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني . ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت كنت إذا شذوها أرختها ، وإذا أرخوها شددتها (١) .

وله في هذا أخبار شتى ، منها أنه سمع بأبن عبد الرحمن بن حسان شبيب بابتته رملة في قوله :

رَمَلَ هَلْ تَذَكِّرِينَ يَوْمَ غَزَالٍ إِذْ قَطَعْنَا مَسِيرَنَا بِالْتَّمَنَّى ؟  
إِذْ تَقُولِينَ : عَمَرَكَ اللَّهُ هَلْ شَيْءٌ وَإِنْ جَلَّ يُسْلِيكَ عَنِّي ؟  
أَمْ هَلْ طَمَعْتَ يَا بَنَ حَسَانَ فِي ذَاكَ كَمَا قَدْ أَرَاكَ أُطِيعْتَ مِنِّي ؟  
فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ . أَيْنَ أَنْتِ مِنْ أُخْتِهَا هِنْدُ (٢) ؟

وأما ابنه يزيد فغضب ، وحرص الأخطل على هجاء الأنصار .

ولما ندد يزيد بن مفرغ بنسب زياد من أبي سفيان في شعر كثير قاله في هجاء زياد وأبنائه ، حبسه عباد بن زياد ، فغضبت اليمانية ، ودخلوا على معاوية وشفعوا في ابن مفرغ ، فبعث إلى عباد يطلب منه إخراج الشاعر من محبسه . ثم قدم ابن مفرغ على معاوية ، فقال له معاوية : اذهب فقد عفوت عن جرمك ، واسكن أي أرض شئت . فلما قدم البصرة دخل على عبيد الله بن زياد واعتذر إليه ، وسأله الصفح والأمان ، فصفح عنه وأمنه (٣) .

ودخل أبو بَرْدَةَ بن أبي موسى الأشعري على معاوية ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن عتبة الأسدى قال فيك :

مُعَاوِيَةَ إِنَّا بَشَرٌ فَأَسْجَحُ فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ  
أَكَلَمَ أَرْضَنَا وَجَرَدَتْ مُوْهَا فَهَلْ مِنْ قَائِمٍ أَوْ مِنْ حَصِيدِ ؟

(١) المقدم الفريد / ١٠ و تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٨٣ :

(٢) الأغاني ١٢ / ٥٩

(٣) الأغاني ١٢ / ١١٩

فهبتنا أمةً هلكت ضياعاً يزيد أميرها وأبو يزيد  
أتطمع بالخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود ؟  
ذروا خول الخلافة واستقيموا وتأمير الأراذل والعبيد

ثم قال أبو بردة : ما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تبعث إليه من يضرب عنقه ؟  
قال معاوية : أفلا خير من ذلك ؟

قال : أبو بردة : وما هو يا أمير المؤمنين ؟

قال معاوية : نجتمع أنا وأنت ونرفع أيدينا إلى السماء ندعو عليه .

وأراد معاوية أن يأكل ميراث عم للفرزدق ، فغضب الفرزدق ، وخاطب  
معاوية في خشونة وتهديد ، وجهر بأن الإسلام هو الذي اضطره وقبيلته إلى  
الخضوع لحكم معاوية ، ولو أن عمله هذا حدث في الجاهلية لكان لهم معه شأن<sup>(١)</sup> .

أبوك وعى يامعاوى أورثا تراثا فيحتازُ التراث أقاربه  
فما بال ميراث الحقات أخذته وميراث حرب جامد لك ذائبه ؟  
فلو كان هذا الأسر في جاهلية علمت من المرء القليل جلائبه  
ولو كان هذا الأسر في غير ملككم لأبديته أو غص بالماء شاربته  
وكم من أب لى يامعاوى لم يكن أبوك الذى من عبد شمس يقاربه

كذلك عفا عبد الملك بن مروان عن ابن قيس الرقيات شاعر الزبيريين ،  
وشريك مصعب في محاربة عبد الملك ، وعفا عن الكهيت شاعر الشيعة بعد أن  
أهدر دمه .

---

(١) الديوان ٤٦ والطبرى ١٨٠/٤ وابن الأثير ٢٢٣/٢ كان الأحنف بن قيس وبشر  
(الحقات) بن يزيد المجاشعي وفدا على معاوية ، فأعطى الأحنف أربعين ألفاً والحقات عشرة  
آلاف ، وكان الأحنف علويًا والحقات عثمانيًا ، فلما صارا بالغوطة متوجهين إلى العراق سأل  
الحقات زميله عن مقدار صلته ، فأخبره فعاد إلى معاوية ، وعاتبه ، فأمره بثلاثين ألفاً  
تمام الأربعين ، لكنه مات بدمشق قبل أن يبرحها ، فرد معاوية المال إلى بيت المال . فأرسل  
الفرزدق هذه الأبيات إلى معاوية أو شخص إليه وألقاها ، فبعث معاوية إلى أهل الحقات  
بالأربعين ألفاً .

وعفا يزيد بن عبد الملك عن الأحوص ، ورده من منفاه ، ومنحه حلالا منية وأدناه .  
وقربه ، وقال له : لو لم تَمُتْ إلينا بحق ولا صهر ولا رحم إلا قولك :

وإني لأستحييكم إذ يقودني إلى غيركم من سائر الناس مطمَعُ  
لكفالك ذلك عندنا (١) .

ويتصل بهذه الحرية وبالتغاضي عن بعض الحملات والعفو عن بعض  
الشعراء المهاجرين ما أسلفت من حملات الشعراء على بعض الولاة ، أو شكايتهم  
إلى الخلفاء ، وتقبيح سياستهم ، فلولا الحرية ما هجوا وما شكوا وما بصروا  
الخلفاء بما يعاني الشعب من سوء الحال ، ولولا جرأة هؤلاء الشعراء ما أقدموا  
على معاداة الولاة .

فقد صفح الحجاج عن العديّل بن الفرخ ، وتناسى هجاءه له ، واستهاته  
بوعيده (٢) ، وعفا عبيد الله بن زياد عن ابن مفرّغ ، وصفح عن هجائه الكثير  
المقذع الذي رماه به (٣) .

---

(١) الأغاني ٥٧/٨ (٢) راجع نصوص الشعر الأموي .

(٣) الأغاني ٦٠/٧ — ٦٨ .

# الباب الثالث

## الخطب

### الفصل الأول

#### خطب أموية

- ١ -

#### خطبة معاوية بالمدينة

خطب معاوية بالمدينة سنة ٤١ هـ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال (١) :

«أما بعد ، فإنني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مَسْرَة بولايتي ، ولكني جالدتكم (٢) بسيفي هذا مجالدة .

ولقد رُضْتُ (٣) لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة (٤) وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفارا شديدا ، وأردتها على سُنَيَات (٥) عثمان ، فأبَت عليّ . فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة : مُؤَاكَلَة حَسَنَة ، ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدونني خيراً لكم ، فإنني خيرٌ لكم ولايةً .

والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن إلا ما يستَشْفِي به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دَبْر (٦) أذني ، وتحت قدمي . وإن لم تجدونني

(١) العقد الفريد ٢/ ١٤٠

(٢) جالدتكم : حاربتكم

(٣) رُضْتُ : مرنت

(٤) أبو بكر

(٥) سنوات حكمه الفصار .

(٦) دبر أذني : وراءها ، أي لم أصنع إليه .

أقوم بحكم كله فاقبلوا منى بعضه ، فإن أنا كم منى خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد <sup>(١)</sup> يثرى ، وإذا قل أغنى .

وإياكم والفتنة ، فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة .

فهو يكشف أهل المدينة بأنه يعلم أنهم يفضونه ، وبأنه تولى الخلافة على كره منهم ، ثم يعلنهم أنه راود نفسه في أن يحكمهم على طريقة أبي بكر وعمر وعثمان ، فأثبت نفسه ذلك ، ولهذا سيسلك في الحكم طريقا جديدا . لم يوضعه إلا بأن فيه منفعة لهم وله .

ثم يلين ويستميل بقوله إنه إن لم يكن خيرهم علما وفضلا ودينا ، فإنه خير من يصلح للخلافة ، ويعددهم أنه لن يحارب من يسأله ، ولن يحفل بالأقويل والشتائم التي ربما يلوكلها بعضهم ، شفاء لما في نفسه من موحدة . وكأنما يشعر أنهم سيتطلعون إلى منافع كثيرة يبتغون منه أن يحققها لهم ، فيقول لهم إن لم أقم بحقوقكم كلها فاقبلوا منى بعضها ، فإن في هذا البعض غنى .

ثم يحذرهم الفتنة وعواقبها .

والخطبة كلها مرسلة موجزة ، فيها لين أكثر مما بها من شدة وتهديد ، وهي مبدوءة بالحمد .

## خطبة معاوية في مبايعة يزيد

أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد ، فطلب أن تفد إليه وفود من الأمصار فوفدت سنة ٥٩ هـ ، وكانت خطب شتى منها خطبة معاوية .

قال معاوية :

« الحمد لله الذي أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيرا ، كما أنعم

(١) جاد: كثر .



علينا كثيرا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمد عبده ورسوله .

أما بعد فإني قد كبر سني ، ووهن عظمي ، وقرب أجلي ، وأوشكت أن أدعى فأجيب . وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيت لكم رضا ، وأنتم عبا هلة (١) قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأي فيهما ، وشديد محبتي لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خيراً يرحمكم الله .

في هذه الخطبة مهد لإعلان البيعة بأسباب توهم أنه لا يتغنى منها إلا صالح الشعب ، لأنه قد ضعف وأحس أن أجله قريب ، ولا يريد أن يترك المسلمين بغير أن يستخلف عليهم ابنه يزيد ، وسبق بالرد على من قد يسأله لماذا لم تدع إلى الحفل الحسن والحسين ؟ فقال إنه يعلم أنهما ولدا على ، ولن تطيب نفسيهما بهذه البيعة ، وليس من الحصافة أن يدعوهما لهذا الشأن ، مع أنه يحبهما ويثق بهما . وختم خطبته بمطالبتهم أن يوافقوا . والخطبة كسباقاتها موجزة مرسلة ، مبدوءة بحمد الله والثناء عليه وبالشهادتين

## خطبة الضحاك بن قيس

خطب الضحاك بن قيس الفهري في مبايعة يزيد فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به . إنا قد بلوْنَا الجماعة والألفة ، فوجدناها أحقنَ للدماء ، وآمن للسُّبُل وخيراً في العاقبة والآجلة ، ولا خير لنا أن نُترك سُدًى ، والأيام عُوْج (٢) رواجع ، والأنفس يُغْدَى عليها وُراح ، والله يقول : « كل يوم هو في شأن » ولسنا ندرى ما يَخْتَلِف به العَصْران (٣) .

(١) عبا هلة . المراد سادة مقرون على سيادتهم

(٢) عوج : جم عائجة وهي الراجعة أى أنها ترجع فتسلب ما أعطت .

(٣) العَصْران : النهار والليل .

وأنت يا أمير المؤمنين ميتٌ كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ،  
فسأل الله تعالى بك المتاع .

وقد رأينا من دعة يزيد أمير المؤمنين ، وحسن مذهبه ، وقصد<sup>(١)</sup> سيرته ،  
وَيُؤْمِنُ نَقِيْبَتِهِ<sup>(٢)</sup> ، مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين ، والشبه بأمر المؤمنين  
في عقله وسياسته وشيعته المرضية ، مادعانا إلى الرضا به في أمورنا ، والقنوع به في  
الولاية علينا . فليؤلَّه أمير المؤمنين — أكرمه الله — عَهْدَهُ ، وليجعلنا لنا ملجأ  
وَمَقَرًا بعده ، نأوى إليه إن كان كَوْنٌ<sup>(٣)</sup> ، فإنه ليس أحد أحقَّ بها منه ، فاعزم  
على ذلك عزمَ الله لك في رشدك ، ووفقك في أمورنا .

في هذه الخطبة تأييد للبيعة وتعليل لضرورتها .

وفيه ثناء على يزيد ، وتزكية لولايته ، واستبشار بحكمه ،

والغالب على جملها القصر ، وعلى أساليبها القوة ، وفيها آية من القرآن الكريم .

## — ٤ —

### خطبة عتبة بالموسم

خطب عتبة بن أبي سفيان بالموسم سنة إحدى وأربعين ، والناس حديثو عهد  
بالفتنة ، فاستفتح ثم قال<sup>(٤)</sup> .

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا الموضع الذي يضاعف الله فيه للمحسن الأجر ،  
وعلى المسيء الوزر ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع دوننا ، ورب متمن  
حَقُّهُ في أمنيته . اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم . وإياكم ولوا فقد أتعبت من  
كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، فاسألوا الله أن يعين كلاً على كل » .

(١) قصد : استقامة (٢) النقية : المشورة والنفس والمقل

(٣) إن حدث حدث . (٤) تهذيب الكامل ١ / ١٧ والبيان والتبيين ٣ / ٢٣٠ .

فهو يوحى إلى الناس بأنهم أحق بالخلافة ، والذي يشرب إليها من غيرهم يعرض حياته للهلاكه ، ثم يحصرهم على الطاعة ، ونبذ التثني .

والخطبة مرسله لا سجع فيها ، وفيها طباق بين محسن ومسيء وأجر ووزر ، وبها كناية في قوله ( لا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ) .

— ٥ —

### خطبة عتبة بمصر

خطب عتبة بن أبي سفيان بمصر<sup>(١)</sup> فقال<sup>(٢)</sup> :

« يا حاملي الأم أنوف ركبت بين أعين ، إني قلت أظفاري عنكم لين مسى لكم ، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم باقيا عليكم . فأما إذ أيتم إلا الطعن على السلطان ، والتنقص للسلف ، فوالله لأفطن بطون الشياطين على ظهوركم ، فإن حسمت أدواءكم ، وإلا فإن السيف من ورائكم ، فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم ، ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم . ولست أبخل بالعقوبة إذا جدتم بالمعصية ، ولا أؤيسكم من مراجعة الحسنى إن صبرتم إلى التي هي أبر وأنقى » .

هي خطبة ترعد بالتهديد والشتم والوعيد ، أشبه بخطبة زياد البتراء وبخطبة الحجاج في الكوفة .

فقد وصم المصريين بأنهم الأم الناس ، وذكرهم بأنه حكمهم باللين ليستقيموا ، فإذا فسادهم يستشرى ، فلا علاج لهم إلا تقطيع الشياطين على ظهورهم ، فإذا نجح اكتفى به ، وإلا فلا مندوحة عن السيف .

ثم وبخهم بأنهم لم يعوا المواعظ ، وهددهم بأنه لن يتردد في عقابهم على

---

(١) تولى مصر سنة ٤٣ هـ بعد وفاة عمرو بن العاص .

(٢) تهذيب ١ / ١٧ .

جرائمهم ، ثم ختم خطبته بدعوتهم إلى الطاعة التي لم ييأس منها .  
وهي حافلة بالطباق الذي تجده بين صلاح وفساد ، وبطون وظهور ، وأبخل  
وجدتم .  
وبها كناية في قوله : يا حاملي الأم أنوف . . ، وقوله : وقلتم أظفاري عنكم  
ليلين مسى لكم .

— ٦ —

### خطبة أخرى لعتبة بمصر

ومن خطبة أخرى قوله (١) :  
يا أهل مصر إياكم أن تكونوا لل سيف حصيدا ، فإن لله فيكم ذبيحا لعنان .  
لاتصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة السنن ،  
فأطأكم لله وطأة لارمق (٢) معها ، حتى تنكروا مني ما كنتم تعرفون ،  
وتستخشنوا ما كنتم تستلينون .

— ٧ —

### خطبة زياد في الميل إلى معاوية

لما بدأ زياد ينجح إلى معاوية (٣) ، أراد أن يُعِدَّ الناس في فارس ليجنحوا  
معه ، فخطب فيهم خطبة مرنة تدل على دهاء وخبرة بنفوس البشر ، مهد بها  
لتحوله في غير تصريح ولا كشف ، وقد وصفها هو نفسه في كتابه إلى معاوية  
بأنها « يعيا بها الخطيب المذرّه ، تركت من حَضَر ، لا أهلَ وِرْدٍ  
ولا صَدَر ، كالمتهيرين بمهمه ضلَّ بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير »  
من الخطبة قوله :

(٢) الرمق : بقية الروح .

(١) العقد الفريد ١٥٩/٢

(٣) كان واليا لعل على فارس ، ثم تولى لمعاوية على البصرة من سنة ٤٥ هـ ثم عليها وعلى

الكوفة سنة ٥١ هـ بعد المغيرة بن شعبه .

أيها الناس : ادفنوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية  
«لكم ، فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم ، فوجدتهم  
كالأضاحي ، في كل عيد يُذبحون .

ولقد أفنى هذان اليومان : يوم الجمل وصفين ما يُنِيفُ على مئة ألف ، كلهم  
يزعم أنه طالب حق ، وتابع إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا  
فالقاتل والمقتول في الجنة .

كلا . . ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم .  
وإني لحائف أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لا يرى بسلامة دينه ؟  
وقد نظرت في أمر الناس ، فوجدت أحمدَ العاقبتين العافية ، وسأعمل  
في أموركم ما يحمدون عاقبته ومغيبته ، فقد حِذْتُ طاعتكم إن شاء الله .

## — ٨ —

### من خطبة زياد بالبصرة

قدم زياد البصرة سنة ٤٥ هـ والفسق بها فاش ، فخطب خطبة براء لم يحمد الله  
فيها ( وقيل بل حمده ) منها (١) :

« أما بعد . فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء والفجر (٢) الموقد لأهله النار  
الباقى عليهم سعيها ، ما يأتى سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حماؤكم ، من الأمور العظام  
ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى منها الكبير ، كأن لم تسمعوا بأى الله ، ولم تقرأوا  
كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب  
الآليم لأهل معصيته في الزمن السرمد (٣) الذى لا يزول .

أتكونون كمن طرقت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار  
الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذى لم

(٢) الفجر : الفجور والتمادى فى المعاصى

(١) الطبرى ١٢٤/٦

(٣) السرمد : الدائم .

تُسَبِّقُوا بِهِ ، مِنْ تَرْكِكُمْ هَذِهِ الْتَوَاضِعِ الْمَنْصُوبَةِ ، وَالضَّعِيفَةِ الْمَسْلُوبَةِ ،  
فِي النَّهَارِ الْمُبَصَّرِ ، وَالْعَدَدُ غَيْرُ قَلِيلٍ ؟

أَلَمْ تَكُنْ مِنْكُمْ نَهْيًا تَمْنَعُ الْفُؤَادَ عَنْ دَلَجِ اللَّيْلِ ، وَغَارَةِ النَّهَارِ ؟  
قَرَّبْتُمْ الْقَرَابَةَ ، وَبَاعَدْتُمْ الدِّينَ ، تَعْتَذِرُونَ بِغَيْرِ الْعَذْرِ ، وَتُفْطِنُونَ عَلَى الْمُخْتَلَسِ ،  
كُلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ يَذُبُّ عَنْ سَفِيهِهِ ، صَنِيعَ مَنْ لَا يَخَافُ عِقَابًا وَلَا يَرْجُو مَعَادًا .  
مَا أَنْتُمْ بِالْحُلَمَاءِ ، وَلَقَدْ اتَّبَعْتُمُ السَّفَهَاءَ ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ مَا تَرُونَ مِنْ قِيَامِكُمْ  
دُونِهِمْ ، حَتَّى انْتَهَكُوا حُرْمَ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ أَطْرَقُوا وَرَاءَكُمْ كَنُوسًا فِي مَكَانِ  
الرَّيْبِ (١) .

حَرَامٌ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ حَتَّى أُسَوِّبَهَا بِالْأَرْضِ هَذُمًا وَإِحْرَاقًا .

إِنِّي رَأَيْتُ آخِرَ هَذَا الْأَمْرِ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِمَا صُلِحَ بِهِ أَوَّلُهُ ، لَيْنٌ فِي غَيْرِ ضَعْفٍ ،  
وَشِدَّةٌ فِي غَيْرِ جَبَرِيَّةٍ وَعَنْفٍ .

وَإِنِّي أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَا خُذَنَّ الْوَلِيَّ بِالْمَوْلَى ، وَالْمَقِيمَ بِالظَّاعِنِ ، وَالْمَقْبِلَ بِالْمُدْبِرِ ،  
وَالصَّحِيحَ مِنْكُمْ بِالسَّقِيمِ ، حَتَّى يَلْقَى الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ فَيَقُولَ : أُنْجِ سَعْدٌ فَقَدْ هَلَكَ  
سُعَيْدٌ (٢) ، أَوْ تَسْتَقِيمَ لِي قَنَاتُكُمْ .

إِنْ كَذَبَ النَّبْرَ بَلَقَاهُ مَشْهُورَةٌ ، فَإِذَا تَعَلَّقْتُمْ عَلَى بَكْذَبَةٍ فَقَدْ حَلَّتْ لَكُمْ  
مَعْصِيَتِي .

وَقَدْ أَحْدَثْتُمْ أَحْدَاثًا لَمْ تَكُنْ ، وَقَدْ غَرَّقَ أَحْدَثُنَا لِكُلِّ ذَنْبٍ عَقُوبَةٌ : فَمَنْ  
غَرَّقَ قَوْمًا غَرَّقْنَاهُ ، وَمَنْ حَرَّقَ عَلَى قَوْمٍ حَرَّقْنَاهُ ، وَمَنْ نَقَبَ بَيْتًا نَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ ، وَمَنْ  
نَبَشَ قَبْرًا دَفَّنَاهُ حَيًّا فِيهِ ، فَكَفُّوا عَنِ أَيْدِيكُمْ وَالسِّنِّكُمْ أَكْفَفَ يَدِي وَأَذَى .  
لَا يَظْهَرُ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ خِلَافٌ مَا عَلَيْهِ عَامَتُكُمْ إِلَّا ضَرْبُ عَنْقِهِ .

وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِحْنٌ ، فَجَعَلْتُ ذَلِكَ دَبْرَ أُذُنِي وَتَحْتَ قَدَمِي ، فَمَنْ  
كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ عَنِ إِسَاءَتِهِ .

(١) أَيْ مَخْدِيثُونَ فِي مَخَابِيءِ الْعَصِيَّةِ وَالْفُسَادِ . (٢) مِثْلُ قَدِيمِ (مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ ١/١٣٣) .



إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا ، ولم أهتِك له سترا ، حتى ييذى لي صفحته ، فإذا فعل لم أناظره .

فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مُبْتَلًى بِقُدُومنا سيُسَرِّ ، ومسرور بقُدُومنا سيبتس .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم زادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفياؤنا بمنّا صحتكم لنا .

واعلموا أني مهما قصرت عنه فإني لا أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانة ، ولا مُجَمِّراً لكم بعشا (١) .

فادعوا الله بالصالح لأمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، متى تَصْلَحُوا يَصْلَحُوا . ولا تُشْرِبُوا قلوبكم بَغْضهم فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم كان شرا لكم . أسأل الله أن يعين كلاً على كل .

وايم الله إن لي فيكم أصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعى .

( ١ ) الراجح أن زيادا لم يبدأ خطبته بالصيغة التقليدية التي جرى عليها الخطباء من قبله ومن بعده ، وهي حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، لهذا أطلقوا عليها البتراء .

ولم يكن باعته على ذلك أنه يتهدد ويتوعد فحسب ، فكم من خطب قيلت في العصر الإسلامي للتهديد والوعيد ، وهي مبدوءة بالحمد والثناء والصلاة على الرسول .

(١) لا أبقية في بلاد الأعماق زمنا طويلا .

وإنما كان الباعث أيضاً على ترك الحمد أن زيادا — كما يبين من خطبه ورسائله — لم يكن من الذين أشربت قلوبهم الدين ، وامتزج بنفوسهم القرآن ، ولم يكن حريصاً على أن يقتفى ماسنه المسلمون من قبله في الافتتاح بما يشعر بالانقياد لله .

على أنه لا يمنع من أن الشذوذ في هذا الافتتاح المفاجىء يوحى للسامعين بالصرامة والغلظة ، ويضاعف رهبتهم من حاكمهم الجديد ، الذى لا يتورع من التكيل والتقتيل .

وإذا فالخطبة موضوع وخاتمة .

( ٢ ) أما الموضوع فينقسم إلى ثلاثة أجزاء .

فى الجزء الأول عرض عام لأخلاق سكان البصرة ومسلكتهم ، من ضلال وفساد ومعصية الله ، واستهانة بما أعد لعباده الطائين من ثواب ، ولعباده العاصين من عقاب ، وكأنما وجد فى هذا التعميم مسارب للشك ، فجعل يخصه بضرب الأمثال ، فهم يتزكون الضعفاء يقهرهم الأقوياء ، ويسلبهم اللصوص ، وهم يسترون العصاة والمختلسين ، ويحمون السفهاء والخارجين على القانون ، وهم يرون أما كن الفسوق تنتشر بينهم ولا يقاومون ولا ينكرون .

وفى الجزء الثانى أعلن منهجه العام الذى سيسلكه فى سياستهم ، وهو منهج قائم على الصرامة فى العقوبة للمخالفين ، لكن زيادا أراد أن تكون عقوبته من نوع جديد ، فلم يقصرها على الطغاة وحدهم الظنة ، بل مدها إلى شركائهم ولو من بعيد ، ومدها إلى من يجوز أن تحوم حولهم الظنة ، أو من يصح أن يتهموا بالرضا عن المجرمين ، والتستر عليهم ، أو المعرفة بهم ، أى أنه مد عقابه إلى الجماعة لا إلى الفرد ، لذلك سيعاقب السيد بما جناه عبده ، وسيعاقب المقيم بجريمة الراحل ، والمقبل بذنب المدبر ، سيأخذ المطيع بجريمة العاصى .

وكانما شعر زياد بأن فى وعيده هذا مسارب للشك . فأعلن أنه لا يرتضى لنفسه فى موقفه هذا أن يكذب ؛ وسيرونه بفعل ما يقول .

وفي منهجه وعد بحماية الرعية وصيانة أموالها .

أما الجزء الثالث من الخطبة فقد تناول عدة أمور :

الأمر الأول ألا يثير الناس نغرة العصية ، وأن يكفوا عن وإيهم ألسنتهم وأيديهم ، ولا يكون هذا إلا بالطاعة ، وأن يجتنبوا موافق الريب والظنون .

الأمر الثاني بيان لما يجب أن يكون بينهم وبينه ، يوصفهم رعية وبوصفه راعياً .

فلهم عليه أن يعدل ، ولهم عليه ألا يحتجب عن صاحب الشكوى وإن طرق بابه ليلاً ، وألا يؤخر أعطياتهم عن أوقاتها ، وألا يدع المحاربين منهم زمناً طويلاً في بلاد الأعداء .

وله عليهم السمع والطاعة ، وقد أراد زياد أن يضيف على الولاية هالة من الدين ، فقال لهم إنه يستمد سلطانه من الله ، وإن الله هو الذي اختار الحكام ليسوسوا رعيته ، ويدودوا عنهم ، وحكام الشعب هم حصونه التي يحتجى بها ، وإذا صلحوا صلح الشعب .

( ٣ ) ثم كانت الخاتمة قصيرة جامعة للفرض العام من الخطبة ، إذ ذكرهم بالعقاب الشديد في صراحة وتأكيد « وإيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ أن يكون من صرعاى » .

( ٤ ) يكثر في هذه الخطبة السجع في جمل قصار ، ويكثر بها التخييل كقوله : أطرقوا كنوساً في مكانس الريب ، وقوله : جعلت ذلك دبر أدنى وتحت قدمى وقوله : لم أكشف له قناعاً . وقوله : هم كهفكم الذي إليه تأوون .

كما يكثر بها الطباق الذي تجده في قوله : الولى والمولى ، والمقيم والظاعن . والمقبل والدبر ، والصحيح والسقيم .

وكذلك مراعاة النظر في قوله : « من غرق قوماً غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه ... » لتكون العقوبة مجانسة للجريمة .

هذا إلى القوة والجزالة والعناية بموسيقى الجمل.

● — والخطبة تنبئ عن اجتراء على عقوبات لم يسنها الدين ، لأن زيادا كما قلنا لم يكن من المتدينين ، ولأنه ينطبق عليه ما قاله علي بن أبي طالب لأنصاره لما رفع جند الشام المصاحف يوم صفين : إن القوم ليسوا أهل قرآن ولا دين . فهو ينذر أهل البصرة بأنواع من العقاب غريبة عجيبة ، كأنما هو المشرع ، أو كأنما هو غير مقيد بأحكام الإسلام ، ذلك أن الإسلام لا يعاقب بالإحراق من حرق دارا كما توعد زياد ، ولا يجزى بالإغراق من غرق ناسا كما هدد زياد ، ولا يجزى دفن المسلم حيا في القبر الذي نبشه كما أوعد زياد ، ولا ينقب قلب الذي ينقب جداراً للسرقة مثلما أنذر زياد ، ولا يأخذ السيد مجرم عبده ولا البريء بالمتهم ، ولا يعاقب على الظنة والشك ، كما تهدد زياد ، وإنما شرع الإسلام عقوبات معينة لهذه الجرائم وأمثالها ، وحرص على العدالة ودرء العقاب بالشبهة . لهذا اعترض على زياد أبو بلال مرداس بن أدية الحارجي ، وقال له : الله تعالى يقول : « وإبراهيم الذي وفى ، ألا تزر وازة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » (١).

(٦) وفي الخطبة ترفع على المحكومين ، وصيغة استبدادية ، وادعاء سلطة سياسية لا يقرها الإسلام ، فهو يعلن لهم أنه سيسوسهم بسلطة من الله خوفاً لها بنى أمية ، وسيدافع عنهم بأموال الدولة التي أعطاهم الله إياها ، وهو يعلم والسامعون يعلمون أن الله لم يخول بنى أمية سلطاناً ، ويعلم ويعلمون أن الله لم يملك بنى أمية أموالاً ، وإنما دعا الإسلام إلى الشورى ، وجعل مال المسلمين للمسلمين ، وما الحاكم إلا خازن أمين على هذا المال ، وتقيم على إنفاقه في وجوه الخير ونفع الشعب .

## خطبة عبد الملك في السخط على أهل العراق

علم عبد الملك بثورة ابن الأشعث (١) على الحجاج وعلى الخليفة ، فخطب في الناس هذه الخطبة (٢) :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قدّرى .

اللهم سلّط عليهم سيوف أهل الشام ، حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك .

## خطبة الحجاج بالكوفة

ولى عبد الملك الحجاج على العراق سنة ٧٥ فلما دخل الكوفة خطب في الناس خطبته المشهورة (٣) .

وقد برع في الموقف التمثيلي الذى مهد به لخطبته .

ذلك بأنه أراد أن يضيف على نفسه هبة إلى هيئته ، وأراد أن يغرب في موقفه الخطابى ، ليهيج شوق الناس إلى تعرف الغامض المحجب ، ولتبتلك انتباههم .

فماذا فعل ؟

---

(١) كان قائدا من قواد الحجاج ، أرسله ليحارب رتبيل ، ثم لأمه الحجاج ، فاعلن خروجه عليه وعلى عبد الملك ، ودعا لنفسه ، وكانت بينهما مواقف تزيد على الثمانين ، آخرها دير الجماجم بالقرب من الكوفة ناحية البصرة ، وقد انتصر عليه الحجاج سنة ٨٣ . وقد سمي المكان دير الجماجم ، لأنه كانت تصنع به الجماجم وهى قداح من الخشب .

(٢) الطبرى ٨ / ١٠ .

(٣) تهذيب الكامل ١ / ١٧٠ وتاريخ الطبرى ٧ / ٢١٠ .

دخل المسجد معتملاً بهامة ، قد غطي بها أكثر وجهه ، وقد تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وصعد المنبر ، وصمت زمناً لا يتكلم . فقال بعض الناس : قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق . وقال أحدهم : ألا أحصيه لكم ؟ فقالوا : أمهل حتى ننظر .

فلما رأى الحجاج عيون الناس شاخصة إليه ، وأيقن أنه هاج فضولهم ، وأثار دهشتهم ، وبلغ منهم ما أراد ، حصر اللثام عن فمه ، ونهض فقال :

أنا ابن جَلَّاءٍ وطلّاعُ الشّنايا متى أضع العمامة تعرفوني<sup>(١)</sup>

ثم قال . يا أهل الكوفة إني لأرى زءوساً قد أينعت وحن قطافها ، وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمام واللّحى . ثم قال :<sup>(٢)</sup>

هذا أوان الشّدّة فاشتدى زيمٌ قد لفّها الليل يسراقٍ حطّم  
ليس براعى لابلٍ ولا غنمٍ ولا بجزاز على ظهرٍ وضمّ<sup>(٣)</sup>  
ثم قال :

قد لفّها الليل بمصايٍ أروعَ خراجٍ من الدّوى  
مهاجرٍ ليس بأعرابي<sup>(٤)</sup>

قد شمّرت عن ساقها فشددوا وجدّت الحرب بكم فجذّوا

(١) البيت لسحيم بن وثيل الرباحي . ابن جلا : المنكشف الأمر ولم يصرف كلمة جلا لأنه أراد الفعل فكاه . الشنايا : جمع ثنية وهي الطريق في الجبل ، يريد أنه جلد يصعد الشنايا مع ارتفاعها وصعوبة السير فيها . العمامة : المغفر والبيضة ، وهي تلبس في الحرب وتوضع في السلم ، وإذا فالعتى : متى أخلم عمامة الحرب ينكشف لكم شخصي ، أو المعنى متى أخلمها تعلموا أنني الشجاع الذي لا ينام على نأره ، لأن الرجل كان إذا قتل له قتيل يلوث على رأسه عمامة ليستر بها رأسه ، ويخرج لطلب الثأر مثلاً حتى يثأر ، فإذا ثأر وضع أدوات حربه وخلص عمامته .

(٢) الشعر لرويشد بن رميذ الغنبري أو للحطيم الفيشي

(٣) زيم : اسم ناقته . الشد : العدو . حطّم : مجتهد لا يبقى من السير شيئاً . وضم : ما يقطع عليه اللحم .

(٤) عصاي : قوى شديد . أروع : شجاع رائم المنظر . الدوى : الغمام الشديدة والصحراء .



والقوس فيها وترٌ عُرْدٌ مثل ذراع البكر أو أشد

لا بد مما ليس منه بد<sup>(١)</sup>

إني والله يا أهل العراق ما يُقَعِّم<sup>(٢)</sup> لي بالشَّنان<sup>(٣)</sup> ، ولا يغمز جانبي  
كتَغْمَاز التَّين . ولقد فُرِرتُ<sup>(٤)</sup> عن ذكاء ، وقُتِّشت عن تجربة . وإن  
أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — نثر كِفَانَتَهُ<sup>(٥)</sup> بين يديه ، فمَجَمَّ<sup>(٦)</sup> عِيدَانَهَا ،  
فوجدني أمرَّها عوداً وأصلبها مَكْسِيراً ، فرماكم بي ، لأنكم طالما أَوْضَعْتُمْ<sup>(٧)</sup>  
في الفتنَةِ ، واضطجعتُمْ في مراقِد الضلال

والله لأخزِمَنَّكُمْ حَزَمَ السَّلَامَةِ<sup>(٨)</sup> ، ولأضرب بكم ضرب غرائب الإبل<sup>(٩)</sup> ،  
فإنكم لكأهل قرية كانت آمة مطمئنة ، يأتها رزقها رَغَدًا<sup>(١٠)</sup> من كل مكان ،  
فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .  
وإني والله ما أقول إلا وقَّيت ، ولا أُمُّ إِلَّا أَمْضَيْت ، ولا أُخْلَقُ<sup>(١١)</sup>  
إِلَّا فَرَيْتُ<sup>(١٢)</sup> .

وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطيائكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع  
المهلب بن أبي صفرة ..

(١) هذا الشعر لا يعرف قائله . وترعرد : صلب . البكر : الفتى من الإبل .

(٢) يصوت .

(٣) الشَّنان : جمع شَن وهو القرية الخلق أو الجلد اليابس إذا قَعَمَ فُرت منه الإبل الصغيرة .

(٤) فُرت : من فر الدابة إذا كشف عن أسنانها ليعرف سننها .

(٥) الكِفَانَةُ : جعبة السهام (٦) عَجَم العِيدَان : عضها للخبرة .

(٧) أَوْضَعْتُمْ : أسرعتُمْ .

(٨) السلم : نوع من الشجر كثير الشوك ، كانوا يعصبون أغصانه ويخبطونها بالعصى ليتساقط  
الورق فتأكله الماشية .

(٩) تضرب بشدة إذا هربت أو خالطت غيرها أو وردت الماء لتشرب .

(١٠) رَغَدًا : طيباً كثيراً (١١) أُخْلَقُ : أقدر وأهم وأعزم .

(١٢) فريت : من فرى الشيء يفريه إذا شقه ، وفرى المزايدة خلقها وصنعها ، وفرى  
الأرض قطعها وسار فيها ، أي نفذت وأنجزت .

وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعسده أخذ عطائه بثلاثة أيام ،  
إلا ضربت عنقه » .

في هذه الخطبة عدة ظواهر :

فهي مبدوءة بالشعر النبوي عن فخر وعن تهديد ، وهي غنية بالخيال ، كما تجد  
في قوله : إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وقوله : ما يقعق لي بالشنان ،  
ولا يغمز جانبي كتغمار التين ، وقوله : نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها . . . ،  
وقوله : والله لأحزم منكم حزم السلامة ...

وفيها اقتباس من القرآن الكريم « كأهل قرية كانت آمنة ... »  
على أنها قصيرة الجمل ، جزلة ، بعضها مرسل وبعضها مسجوع .

## — ١١ —

### خطبة الحجاج بالبصرة

خطب الحجاج بالبصرة بعد خطبته بالكوفة فقال (١) .

« أيها الناس ، من أعياء داؤه ، فعندى داؤه ، ومن استطال أجله فعلى أن  
أعجله ، ومن ثقل عليه رأسه ، وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره ،  
قصرت عليه باقيه إن للشيطان طيفاً (٢) ، وللسلطان سيفاً ، فمن سقمت  
سريرته ، صححت عقوبته ، ومن وضع ذنبه ، رفعه صلبه ، ومن لم تسعه  
العافية ، لم تضق عليه المهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه ، سبق بدنه بسفك دمه (٣) .  
إني أنذركم لا أنظر (٤) ، وأحذركم لا أعذر ، وأتوعدكم لا أعفو .

إنما أفسدكم تزنيق (٥) ولاتكم ، ومن استترخى لبيبه (٦) ساء

(١) صبح الأعشى ١/ ٢٢٠ (٢) طيف : مس .

(٣) البادرة ما يخرج من الفم عن قصد في غضب أو شبهه والمراد أنه يقتل سريراً فيكون  
بدنه أسرع إلى الموت من خروج الكلمة من فمه .

(٤) لا أنظر : لا أمهل . (٥) تزنيق : تسامح وضعف .

(٦) اللب : ما يشد في صدر الدابة لينع استرخاء الرجل .

أدبه . إن الحزم والعزم سلباني سوطي ، وأبدلاني به سيفي . فقائم في يدي ،  
ونجاده في عنقي ، وذبابه<sup>(١)</sup> قلادة لمن عصاني .

والله لا أمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي  
يليه إلا ضربت عنقه » .

وهذه الخطبة كسابقتها في الشدة والتخييل والتعبير ، وتزيد عليها المطابقات  
بين سقمت وصحت ، ووضعته ورفعته ، ولم تسعه العافية ولم تضق عليه الهلكة .  
وسجعها أكثر من سابقتها ، وجملها القصار غالبية عليها .

## — ١٢ —

### خطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب

استطاع عبد الملك بن مروان أن يهزم جيش مصعب بن الزبير ويقتله سنة  
٧١ ، بعد أن وجه عدة جيوش كان يهزمها مصعب ، فلما طال ذلك عليه ،  
واشتد غمه ، أمر الناس فعسكروا ، ودعا بسلاحه فلبسه ، فلما أراد الركوب قامت  
إليه زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فقالت : ياأمير المؤمنين ، لو أقت  
وبعثت إليه لكان الرأي . فقال ما إلى ذلك من سبيل . فلم تزل تمشي معه  
وتكلمه حتى قرب من الباب ، فلما يثست منه رجعت ، فبكت وبكى حشمها معها .  
فلما علا الصوت رجع إليها عبد الملك فقال : وأنت أيضاً ممن يبكي ، قاتل الله  
كثيراً ، كأنه يروى يومنا هذا حيث يقول .

إذا ما أراد الفزؤ لم ثنن همه حصان عليها نظم دُرَيْرِينها<sup>(٢)</sup>  
نهته فلما تر النهى عاقه بكت ، فبكى مما شجاها قطينها<sup>(٣)</sup>

ثم خرج إلى الحر ، فلما قتل مصعباً دخل الكوفة ، فصعد المنبر ، وخطب  
هذه الخطبة<sup>(٤)</sup> .

(١) ذبابه : حده . (٢) حصان : عفيفة . (٣) قطينها : خدمها وأتباعها .

(٤) الأمالي ١/١١ .

حمد الله وأثنى عليه . ثم قال .

أيها الناس ، إن الحرب صعبة مُرَّة ، وإن السلم أَمْنٌ وَمَسَرَّة ، وقد  
زَبَقْنَا الحرب ، وزَبَقْنَاهَا<sup>(١)</sup> ، فَعَرَفْنَاها وأَلْفَنَاهَا ، فَحَنُّ بنوها وهى أُمُّها .

أيها الناس ، فاستقيموا على سُبُلِ الْهُدَى ، ودعوا الأهواء المُرَدِيَّة ، وتجنبوا  
فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون  
أعمالهم .

ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شَرًّا ، وإن زداد بعد الإعذار إليكم  
والحجة عليكم إلا عقوبة . فمن شاء منكم أن يعود بَعْدُ لِمِثْلِها فَلْيَعُدْ ، فإنما مثلى  
ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة :

من يَصُلِّ نَارِي بلا ذنب ولا تَرَةٍ	يَصُلِّ بِنَارٍ كَرِيمٍ غير غَدَّارٍ <sup>(٢)</sup>
أنا النذير لكم منى مجاهرة	كى لا ألام على نهى وإنذار
فإن عصمت مقالى اليوم فاعترفوا	أن سوف تلقون خزيًا ظاهرًا عار
لترجعن أحاديثًا مُلَعَّنَةً	لَهَوَ المَقِيمِ وَلَهَوَ المدلج السارى <sup>(٣)</sup>
من كان فى نفسه حَوَجَاء يطلبها	عندى فإنى له رَهْنٌ بِإِصْحَارٍ <sup>(٤)</sup>
أقيم عَوَجَتَهُ إن كان ذا عِوَج	كما يقومُ قِدَحَ النِّبَةِ البارى
وصاحبُ الوِثْرِ ليس الدهرُ مُدْرِكُهُ	عندى ، وإنى لَدْرَاكٌ لأوتار

هذه الخطبة تمتاز بعدة أمور .

١ — أنه جهر بشناعة الحرب ومرارتها ، وجهر بحلاوة السلم ونعمته ،  
لكنه عقب على هذا بأنه مغرم بالحرب ودود لها مشتاق ، كأنها أمه  
وهو ابنها .

(١) زَبَقْنَا وزَبَقْنَاها : دفعْنَا ودَفَعْنَاها . (٢) تَرَةٍ : نَارٍ (٣) المدلج : السارى ليلًا .

(٤) حَوَجَاء : حاجة . رَهْنٌ بِإِصْحَارٍ : كفيل بِلِقَائِهِ والظهور له

٢ — وكذلك وبخهم في غير تعنيف إذ يطلبون من حكامهم أن يكونوا كأبي بكر وعمر وهم ليسوا كالناس في عهد أبي بكر وعمر .

٣ — ثم في الخطبة سجع ، وتوازن تقصير في الجمل وطباق ، ومقابلات ، واستشهاد بشعر كأنه صبيح لهذا الغرض .

## — ١٣ —

### خطبة عبد الملك بعد قتل عمرو بن سعيد

لما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعد الأشدق بدمشق خطب خطبة قال فيها (١) .

ارموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لمن غير منكم (٢) .  
عظة ، ولا تكونوا أغفالا من حشن الاعتبار ، فتتزل بكم جائحة السطوات (٣) ،  
وتجوس خلالكم بوادئ النقمات (٤) . وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة . وتترككم  
همدارفاتا (٥) . وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتا . فإيادي من قول قائل .  
ورشته جاهل وإنما بيني وبينكم أن أسمع النفوة (٦) . فأصم تصميم الحسام  
المطرور (٧) ، وأصول صيال الحنق الموتور ، وإنما هي الصاخة والمكافئة  
بظبات (٨) السيوف ، وأسننة الرماح ، والمعادة لكم بسوء الصباح . فتأب  
تائب ، وعدل (٩) خائب . والتوب مقبول ، والإحساس مبذول ، لمن عرف  
رشده ، وأبصر حظه .

(١) الطبري ١٧٥/٧ كان مروان قد وعد عمرو بن سعيد بن العاص بالخلافة بعده ، لكن عبد الملك أخذها بعد أبيه في وقت كانت فيه العراق نصيرة لابن الزبير ، وكانت فيها ثورة . فلما خرج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير بالعراق ثار عمرو بن سعيد بدمشق ، فحاصره عبد الملك ثم صالحه على أن يخلفه ، لكنه غدر به وقتله .

(٢) غير : بمعنى بقي هنا (٣) جائحة السطواب . العقابات المستأصلة .

(٤) يوادئ النقمات : العقوبات السريعة .

(٥) همدا : بالياء . رفاتا : ما بقي من الحطام .

(٦) النفوة : الخبر الأول الذي لم يثبت (٧) المطرور : المشعوذ .

(٨) الظبات : جمع ظبة وهي حد السيف (٩) هدل : ضعف

فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم . وليكن أهل الطاعة يداً على أهل الجهل من سفهائكم ، واستديموا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، ونفيس زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والدعة ، وآجل الخزاء والثوبة ، عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونزغته ، وأمدكم بحسن معونه وحفظه .

انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعياتكم ، غـير مقطوعة عنكم ، ولا مكدره عليكم .

١ — في هذه الخطبة حض الناس على الطاعة ، وحذرهم المعصية ، وخوفهم الانتقام ، وصارحهم بأنه شديد في عقوبته ، حتى ليطأ رقابهم فيتركهم حطاماً بالياً .

ثم تقبل منهم توبة التائب ، وإنابة الخدوع ، ودعا أهل الطاعة إلى مراقبة أهل المعصية والضرب على أيديهم واستمالهم بإحسانه وبذله الموعود للطائعين ، وبثواب الله المدخر للذين يخلصون لولى الأمر .

ثم دعا الله أن ينجبهم وساوس الشيطان ، ومضايق الفتنة ، وأن يوفقهم إلى ما فيه خيرهم ، وأرند أن يحقق لهم ما وعد ، فدعاهم إلى أخذ أعطيائهم بعد الخطبة .

٢ — الصيغة العامة للخطبة أن عباراتها المتوعدة تبعث الرهبة ، لما فيها من عنف وقوة وصرامة ، أما عباراتها المستميلة فلينة مغرية بالطاعة والثواب .

٣ — وفي التهديد تخيل يضخم الصور ، ويزيد الرعب ، كقوله « نزل بكم جائحة السطوات ، وتجوس خلالكم بوادى النقامات ، وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة ، وتركم همدأ رفاتا » فالهلاك المستأصل ينزل بهم كالصواعق ، والنكال العاجل يجوس خلال دورهم ليصيد العصاة ، كأنه شرطى أو جاسوس ، والعقوبة الصارمة الثقيلة تدق أعناقهم .

وكذلك قوله إنه يصمم تصميم السيف المشحوذ .

٤ — وأسلوب الخطبة مسجوع حيناً ومزدوج حيناً . وهو في الحالين قصير الجمل



حتى لتكون الجملة كلمتين مثل قوله « فتأب تأب ، وهذل جائب ، والتوب مقبول ، والإحساس مبذول » لأن الخطيب يتوخى التأثير والاستمالة والسيطرة على الأهواء أكثر من توخيه البسط والشرح والتدليل .

## - ١٤ -

### خطبة يزيد بن الوليد

تولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة ، فاستمر فيما كان فيه من لهو وشراب واستهتار باللذات ، وأساء إلى كبراء بني أمية ، فاجتمعوا عليه هم وأكابر المسلمين وقتلوه سنة ١٢٦ وكان زعيمهم يزيد بن بن الوليد بن عبد الملك ، وهو الذي تولى الخلافة بعد الوليد ، ولقب بالناقص ، لأنه نقص عشر أعطيات الجند (١) .

حمدو لله وأثنى عليه ، ثم قال (٢) :

« أيها الناس ، والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما بي إطراء نفسي ، وإني لظلوم لها إن لم يرحمني الله ، ولكن خرجت غضباً لله ودينه ، داعياً إلى الله وإلى سنة نبيه ، لما هُدمت معالم الهدى ، وأطفئ نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد (٣) ، المستحل لكل حرمة والراكب لكل بدعة ، الكافر بيوم الحساب .

وإنه لابن عمي في النسب ، وكفيئي في الحسب . فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ، وسألته ألا يكنني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجنبي من أهل ولايتي ، حتى أراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ، بحوله وقوته ، لا بحولي وقوتي .

(١) الأغاني ١٢٥/٦ وابن الأثير ٢٢٠/٥ واليعقوبي ٤٠١/٢ وحلية الكمي ٩٨

(٢) العقد الفريد ١٤٤/٢ وعيون الأخبار ٢٤٨/٢ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٥٢

(٣) إشارة إلى ما قيل إن الوليد بن يزيد استفتح فألا في المصحف ، فوجد قوله تعالى

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فنصب المصحف هدفاً للشباب ، ورماه حتى مزقه ، وهو يقول .

أتوعد كل جبار عنيد      فهنا أنذاك جبار عنيد

إذا لاقيت ربك يوم حشر      فقل يارب مزقني الوليد

( م ٢٠ — الأدب السياسي )

أيها الناس ، إن لكم على ألا أضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكرى<sup>(١)</sup> نهراً ، ولا أكنز مالا ، ولا أعطيهِ زوجاً ولا ولداً ، ولا أنقله من بلد إلى بلد ، حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة<sup>(٢)</sup> أهله ، فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ، ولا أجركم<sup>(٣)</sup> في بعوثكم ، فأفتنكم وأفتن أهليكم ، ولا أغلق بابي دونكم ، فياً كل قويكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أجلبهم به عن بلادهم ، وأقطع به نسلهم .

ولكم على إدرار العطاء في كل سنة ، والرزق في كل شهر ، حتى يستوى بكم الحال ، فيكون أفضلكم كأدناكم .

فإن أنا وقيت لكم ، فعليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة والمكانة ،<sup>(٤)</sup> وإن لم آف لكم ، فلكم أن تخلعونني إلا أن تستيبوني ، فإن أنا تبت قبلتم مني ، وإن عرفتم أحدا يقوم مقامى ، ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل الذى أعطيتكم ، فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من بايعه ، ودخل في طاعته .

أيها الناس ، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وأقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

١ — فى هذه الخطبة نعمة جديدة يستميل بها يزيد قلوب الناس ، فهو يقسم لهم أنه لم يثر على ابن عمه طمعا فى الملك ، وإنما ثار ليخلصهم من حاكم طاغية فاجر فاسق . وهو لا يمجّد فضل الدين آزره فى ثورته وانتصاره ، ولا يستبد به الغرور ، فينسى أن الله هو الذى نصره ، أو يزعم أنه خير من يصلح للخلافة » وما بى إطراء نفسى ، وإنى لظلوم لها إن لم يرحمنى الله .

٢ — على أنه يعلن لهم منهجه فى الحكم ، وهو منهج يتوخى صالح كل بلد ،

(١) أكرى : أحفر

(٢) خصاصة : فقر

(٣) لا أحببكم فى أرض العدو

(٤) المكانة : المساعدة .

ويحبس خيراته على أهله ، حتى تستكمل مرافقه ، فإن اكتملت نقل من خيراته إلى غيره . ومن هذا المنهج أنه لا يترك الجيوش في البلاد النائية زمنا طويلا ، وأنه لن محتجب عن شعبه ، ولن يرهق أهل الذمة حتى لا يضطروهم إلى الجلاء عن بلادهم ، وأنه سيمنح الناس عطاءهم في عدل ومساواة .

٣ — ثم يجهر بما لم يجهر به أموى من قبل ، وهو أن على الشعب أن يطيعه ما قام بسيامته أحسن قيام ، وللشعب أن ينخلعه إذا قصر ، بعد أن يبصره ويستتيه ، ويبيح للشعب أن ينخلعه ويبيع غيره إذا وجد من هو أكفأ منه .

٤ — والخطبة مرسلة هادئة أقرب ما تكون إلى عهد يقطعه على نفسه حاكم عادل واثق من صلاحيته ورضا الناس عنه .

## خطبة خالد القسرى بمكة

خطب خالد بن عبدالله القسرى (١) بمكة خطبة تهديدية شديدة الشبه بخطبة زياد وخطبة الحجاج ، حض فيها على الطاعة والوحدة ، وحذر من العصية والفتنة ، إذ كان والياً على الحجاز للوليد بن عبد الملك .

قال فيها (٢) :

أيها الناس ، إنكم بأعظم بلاد الله حرمة ، وهي التي اختار الله من البلدان فوضع بها بيته ، ثم كتب على عباده حججه ، من استطاع إليه سبيلا .

أيها الناس ، فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وإياكم والشبهات ، فإنني والله ما أوتى بأحديطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم .

---

(١) ولاء الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩ وتولى العراقين في عهد هشام

(٢) تاريخ الطبرى ٨٠/٨

إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها ، فسلموا وأطيعوا ، ولا تقولوا  
كيت وكيت .

إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاؤه<sup>(١)</sup> . واعلموا أنه بلغني  
أن قوماً من أهل الخلاف يقدّمون عليكم ، ويقيمون في بلادكم ، فإياكم أن تنزلوا  
أحدًا ممن تعلمون أنه زائع عن الجماعة ، فإنّي لا أجد أحدًا منهم في منزل أحد منكم  
إلا هدمت منزله ، فانظروا من تنزلون في منازلكم . وعليكم بالجماعة والطاعة ،  
فإن الفرقة هي البلاء العظيم .

— ١٦ —

### خطبة يوسف بن عمر

لما قتل يوسف بن عمر زيد بن علي سنة ١٢٢ هـ أقبل حتى دخل الكوفة ،  
فصعد المنبر ، وخطب هذه الخطبة<sup>(٢)</sup> :

« يا أهل المدرة الحبيثة ، إني والله ما تقرن بي الصعبة ، ولا يُقَعِّع لي بالشَّان ،  
ولا أخوف بالذنب .

هيات . حُبيت بالساعد الأشد . أبشروا يا أهل الكوفة بالصغار والهوان ،  
لا عطاء لكم عندنا ولا وزن .

ولقد هممت أن أخرب بلادكم ودوركم ، وأحرمكم أموالكم ، أما والله ما علوت  
منبري إلا أسمعكم ما تكرهون عليه ، فإنكم أهل بغى وخلاف ، ما منكم إلا من  
حارب الله ورسوله .

ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لي فيكم ، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم ،  
وسبيت ذراريكم .

(١) إمضاؤه : تنفيذه .

(٢) الطبري ٨ / ٣٧٨

## الفصل الثاني

### خطب شيعية

— ١ —

#### خطبة اعلی بن أبی طالب

قال علی لأنصاره حينما انخدعوا برفع المصاحف وطلبوا تحكيم كتاب الله :  
«أيها الناس إني أحق من أجب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمر بن العاص  
وابن أبی مُعَيْط وابن أبی سَرْح وابن مسلمة، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن،  
إني أعرفُ بهم منكم صحبَتهم صغاراً ورجالا، فكانوا شر صغار وشر رجال.  
وَيَحْكُمُ، إنها كلمة حق يراد بها باطل، إنهم ما رفعوها لأنهم يعرفونها، ويعملون  
بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة. أعيروني سواعدم وجاهكم ساعة  
واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يُقَطَّعَ دابر الذين ظلموا»<sup>(١)</sup>.

— ٢ —

#### خطبة له بعد التحكيم

خطب علی بالكوفة بعد أن بلغه قرار التحكيم فقال<sup>(٢)</sup>.  
«الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله  
وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله.

(١) شرح نهج البلاغة ١/١٨٦.

(٢) شرح نهج البلاغة ١/١٨٢.

أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة ، وتعقب الندامة .  
وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى ، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُون رَأْيِي ، لو كان  
يطاع لقصير أمر<sup>(١)</sup> ، فأبيتم على إباء المخالفين الجفأة ، والمنايذين العصاة ، حتى ارتاب  
الناصر بنصحه ، وَضَنَّ الزُّنْدَ بِقَدْحِهِ<sup>(٢)</sup> ، فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ<sup>(٣)</sup> :

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمَنْعَرَجِ الْأَوَى فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النَّصِيحَ إِلَّا ضَعَعُوا الْغَدَّ

— ٣ —

### من خطبة للحسن بن علي

لما دخل معاوية الكوفة خطب ، ونال من عليّ ومن الحسن ، وكان الحسن  
والحسين جالسين تحت المنبر ، قام الحسن فرد عليه بقوله<sup>(٤)</sup> :

« أَيُّهَا الذَّاكِرُ عَلِيَا ، أَنَا الْحَسَنُ وَأَبِي عَلِي ، وَأَنْتَ مُعَاوِيَةُ ، وَأَبُوكَ صَخْرٌ ،  
وَأُمِّي فَاطِمَةُ ، وَأُمُّكَ هِنْدٌ ، وَجَدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَدُّكَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ،  
وَجَدَّتِي خَدِيجَةُ ، وَجَدَّتُكَ قُتَيْبَةُ .

فَلَمَنْ اللَّهُ ، أَخْلَلْنَا ذِكْرًا ، وَالْأَمْنَا حَسَبًا ، وَشَرَّنا قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، وَأَقْدَمْنَا  
كَفْرًا وَتَفَاقًا . »

هنا يجهر الحسن بأنه أفضل من علي حسباً ، ولا يقنع بالتفضيل في صورته  
العامة ، فيفصل القول .

---

(١) هو قصير صاحب جذيمة الأبرش الذي كانت بينه وبين الزباه قصة مشهورة ، ويضرب  
به المثل في الناصح الذي لا يطاع .

(٢) يريد أن عقله يخل بالرأي الثاقب بعد معاندتهم له

(٣) هو حريد بن الصمة

(٤) شرح نهج البلاغة ١٦/٤ .



ثم يرد على لعن معاوية لعلى ، فيدعو الله أن يلعن الأم الاثنين حسبا ،  
وأقدمها كفرا .

ومعنى هذا أن معاوية هو الملعون .

وأسلوب الخطبة مُرْسَل ، موجز ، قصير الفقرات ، خال من ألوان الخيال .

— ٤ —

## خطبة للحسن بن علي

في ميته إلى صلح معاوية

نزل الحسن بن علي مدينة ساباط ، بعد أن سار معاوية بجيوشه نحو العراق ،  
واستعد الحسن بأعوانه للقائه ، ثم مال الحسن إلى الصلح فقال (١) :

« الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد  
أن محمدا رسول الله ، أرسله بالحق ، وآمنه على الوحي ، صلى الله عليه وآله .

أما بعد ، فوالله إني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومَنِّه وأنا  
أَنْصَحُ خلقه لخلقهِ ، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينة ، ولا مريدا له بسوء  
ولا غائلة (٢) . ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة .  
ألا وإني ناظر لكم خيرا من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمري ، ولا تردوا  
على رأيي ، غفر الله لي ولكم ، وأرشدني وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله .

الخطبة مبدوءة بحمد الله وبالشهادتين ، ومختومة بالدعاء ، وهي كسابقتها خالية  
من الخيال والتأنق .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ / ١٤ .

(٢) غائلة : شر

وإذ كانت تهيدا لإعلان الصلح جاءت موحية به ، في إخبار عام بأن الوحدة خير من الانقسام ، وإن كرهوا ملابسات هذه الوحدة ، وبأن الحسن أعرف بخير حزبه من معرفة الحزب لنفسه ، فعلى أتباعه أن يطيعوه فيما أمر به .

— ٥ —

## خطبة للحسن في تبرير صلحه مع معاوية

استنكر كثير من الشيعة الصلح الذي تم بين الحسن ومعاوية ، فخطب الحسن فيهم بقوله (١) :

« أما بعد ، فإنكم شيعتنا ، وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأبأس مني وأشد شكية ، ولكان رأيي غير ما رأيتم . لكنني أشهد الله وإياكم أني لم أرِدْ بما رأيتم إلا حَقْنَ دمائكم ، وإصلاح ذات بينكم .

فاتقوا الله ، وارضوا بقضاء الله ، وسلموا لأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برئ ، أو يُستراح من فاجر .

مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سيكفي الأمر ، فوالله لو سِرْنَا إليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر ، إن الله لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه .

وأما قولك : « يا مُذِلُّ الْمُؤْمِنِينَ » (٢) فوالله لأن تَذَلُّوا وتُعَافَوْا أحبُّ إلى من أن تعزوا وتقتلوا ، فإن ردَّ الله علينا حقنا في عافية ، قَبِلْنَا وسألنا الله العون على أمره ، وإن صرفه عنا رَضِينَا ، وسألنا الله أن يبارك في صرفه عنا ، فليكن كل رجل منكم حِلْسًا (٣) من أحلاس بيته ، ما دام معاوية حيا . فإن يَهْلِكَ

(١) الإمامة والسياسة ١/ ١٢١ :

(٢) دخل سليمان ابن صرد ، وكان سيد العراق ، فقال للحسن : السلام عليك يا مذل المؤمنين

، ثم خطب ( الإمامة والسياسة ١/ ٢٢٠ )

(٣) حلسا : ملازما ، والجلس في الأصل بساط البيت .

ونحن وأنتم أحياء ، سالنا الله العزيمه على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وألا يكلنا إلى أنفسنا ، فإن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون »

الخطبة تؤكد للباعث على الصلح ، وهو الحرص على دماء الشيعة ، ودعوة للرضا به ، وتبشيس من التشبث بالحرب ، وإن كان الراجح أن تكهن على بنصرة معاوية دخیل على الخطبة .

وفيها اقتباس من القرآن الكريم « لا معقب لحسبكم » ، « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

## — ٦ —

### خطبة للحسين بن علي في أصحابه

خطب الحسين بن علي في أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال (١) :

« أيها الناس ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ، ناكثا بعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل في عبادته بالإثم والعُدوان ، فلم يُغَيِّرْ عليه بفعل ولا قول ، كان حقا على الله أن يَدْخِلْهُ مَدْخَلَهُ .

ألا وإن هؤلاء (٢) قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمان ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنيء (٣) ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا أحق من غيري .

وقد أتتني كتبكم ، وقدِمَت عليَّ رسلكم ببيعتمكم ، أنكم لا تُسلموني (٤)

(١) الطبري ٤٢٩/٦ الحر : هو ابن يزيد التميمي القائد الذي بعثه عبيد الله بن زياد

ليقبض على الحسين . (٢) إشارة إلى ابن أمية (٣) المراد الخراج

(٤) لا تسلموني : لا تخذلوني .

ولا تخذلوني ، فإن تممت على بيعتكم ، تصيبوا رشدكم .

وأنا الحسين بن علي ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم فى أسوة ، وإن لم تفعلوا  
وتقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم ، فلعمرى ما هى لكم بُكر<sup>(١)</sup> .  
لقد فعلتموها أبى وأخى وابن عمى مُسلم<sup>(٢)</sup> . والمغرور من اغتربكم ، فحظكم  
أخطاتم ، ونصيبكم ضيعتم . ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيُفنى  
الله عنكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ذكر سامعيه بالحديث الشريف الداعى إلى الثورة على الحاكم الباغى ، وتطرق  
من هذا إلى الحكم على بنى أمية بأنهم بغاة ، ولم يصرح بالنتيجة التى يريد بها ،  
اعتمادا على أنهم قد أدركوا ما يريد . ثم حذرهم أن يخذلوه كما خذلوا أباه وأخاه  
وابن عمه ، وبين لهم أن خيرهم فى أن يناصروه ، وأنه سيشاركهم فى الحرب .

وفى الخطبة جمل مسجوعة ، واقتباس من القرآن الكريم فى قوله « من نكث  
فإنما ينكث على نفسه » ، وجملها قصيرة .

## — ٧ —

### خطبة عبد الله بن جعفر

لما أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد طلب أن تفد إليه وفود الأمصار ،  
فوفدت ، وألقت خطب ، بعضها يعارض فى صراحة ، وبعضها يؤيد .

من خطب المعارضة خطبة عبد الله بن جعفر بن أبى طالب :

(١) نكر : منكر

(٢) يريد أنهم خذلوا عليا والحسن ، وخذلوا مسلم بن عقيل بن أبى طالب لما بعثه الحسين  
إليهم ليستوثق من صدقهم فى دعوتهم للحسين أن يقدم إليهم ، فاتفقوا عنه لما حاربه جيش  
ابن زياد .

قال بعد الحمد :

« إن هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن ، فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله ، فأولو رسول الله ، وإن أخذ بسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ؟

وايم الله لو ولوه بعد نبهم ، لوضعوا الأمر موضعه ، لحقه صدقه ، ولأطيع الله ، وعصى الشيطان ، وما اختلف في الأمة سيفان : فاتق الله يا معاوية ، فإنك قد صرت راعياً ونحناً رعية ، فانظر لرعيتك ، فإنك مسئول عنها غدا .

وأما ما ذكرت من ابني عمي ، وتركك أن تحضرهما ، فوالله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم ، فقل أودع . وأستغفر الله لي ولكم . »

— ٨ —

### خطبة المسيب بن نجبة الفزازي

لما قتل الحسين بن علي ، اجتمعت الشيعة بالكوفة سنة ٦٥ واتفقوا على أن يجتمعوا بالنخيلة ، ليسيروا إلى الشام مطالبين بدم الحسين .

وكانوا بعد قتل الحسين قد تلاوموا وندموا ، لأنهم هم الذين دعوه وواعدوه أن ينصروه ، ثم خذلوه ، فلزمهم الإثم والعار ، ولم يجدوا لأنفسهم خلاصاً من إثمهم إلا بأن يقتلوا قاتليه ، ويتوبوا مما فرط منهم ، فسموا « التوابين » .

وقد اجتمع رؤساؤهم وبعض أنصارهم المقربين ، فخطب فيهم المسيب هذه الخطبة (١) . يحرضهم على الثأر للحسين .

(١) جمهرة خطب العرب ٢/ ٥٠

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فترغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غدا : « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بلغه . . وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا ، وتقريظ شيعتنا ، حتى بلا الله خيارنا ، فوجدنا كاذبين في موطنين من موطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم . وقد بلغتنا قبل ذلك كته وقدمت علينا رسله ، وأعذر إلينا يسألنا نصره ، عَوْدًا وبدءا ، وعلانية وسرآ ، فبخلنا عنه بأنفسنا ، حتى قتل إلى جانبنا ، لا نحن نصرناه بأيدينا ، ولا جادلنا عنه بالسنتنا ، ولا قويناه بأموالنا ، ولا طلبنا له النصر إلى عشائرنا .

فما عُذِرنا إلى ربنا ، وعند لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؟  
وقد قُتِلَ فينا ولده وحبيبه وذريته ونسله . لا والله ، لا عذر دون أن تقتلوا قاتليه والموالين عليه ، أو تُقْتَلُوا في طلب ذلك ، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك ، وما أنا بعد لقائه لعقوبة بآه . أيها القوم ، ولوا عليكم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه ، وراية تحفون بها .  
أقول قولي هذا وأستعفر الله لي ولكم .

الخطبة كسابقاتها مرسله ، قصيرة الفقرات ، خالية من الخيال .  
وبها آية من القرآن الكريم ، وختامها استغفار للخطيب وللسامعين .

## خطبة ابن مُرَدِّ في التحريض على الثأر لحسين

ثم خطب سليمان بن مُرَدِّ خطبة ، منها قوله :

. . . . .



« ألا فاتهمضوا ، فقد سحق ربكم . ولا ترجعوا إلى الحلائل <sup>(١)</sup> والأبناء حتى يرضى الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تنجزوا من قتله أو تبسروا <sup>(٢)</sup> »

ألا لا تمأبوا الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذلّ ، كونوا كالأولى من بني إسرائيل ، إذ قال لهم نبيهم : « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم » .

فما فعل القوم ؟ جثّوا على الركب والله ، ومدّوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل .

فكيف بكم لو قد دُعيتُم إلى مثل ما دُعِيَ القوم إليه ؟

اشحذوا السيوف ، وركبوا الأسمنة ، وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط <sup>(٣)</sup> الخيل ، حتى تدعّوا وتستنقروا <sup>(٤)</sup> .

هنا آيتان من القرآن الكريم ، وترسل ، وبعد عن التخييل .

## خطبة ابن الحنفية في جمع من الكيسانية

خطب محمد بن عتي بن أبي طالب ، المشهور بابن الحنفية في جمع من أصحاب المختار ابن أبي عبيد <sup>(٤)</sup> .

حمدا لله وأثنى عليه وسلم على النبي ، ثم قال :

« أما بعد ، فأما ما ذكرتم مما خصّنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتيه من يشاء ،

(١) الحلائل : الزوجات (٢) تبسروا : تهلكوا

(٣) جمع ربيط وهو المربوط ، أو اسم للخيل التي تربط في سبيل الله

(٤) الطبري ٩٧/٧ .

والله ذو الفضل العظيم ، فله الحمد . وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بحُسَيْن ، فإن ذلك كان في الذكر الحكيم (١) ، وهي ملحمة كتبت عليه (٢) ، وكرامة أهداها الله له ، رفع بها كان منها درجات قوم عنده ، ووضع بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولا ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدماثنا ، فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

---

(١) أي أن قضاء الله سبق به (٢) ملحمة : موقعة شديدة

## الفصل الثالث

### خطب الخوارج

- ١ -

#### خطبة عبيدة بن هلال

وفدت الخوارج من العراق إلى مكة لمناصرة ابن الزبير — وجيش الشام يحاصره — إن كان على رأيهم ، فإن لم يكن على رأيهم دافعوا عن البيت . فلما مات يزيد بن معاوية وانصرف أهل الشام عن مكة ، أراد الخوارج أن يتبينوا حقيقة ابن الزبير ، فاجتمعوا واجتمع أنصار ابن الزبير ، وخطب عبيدة بن هلال هذه الخطبة (١).

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى عبادة الله وإخلاص الدين ، فدعا إلى ذلك ، فأجاباه المسلمون ، فعمل فيهم بكتاب الله وأمره ، حتى قبضه الله إليه . واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فكلأهما عملاً بالكتاب وسنة رسول الله ، فالحمد لله رب العالمين . ثم إن الناس استخلفوا عثمان بن عفان ، فحمى الأحماء ، وآثر القُرْبَى ، واستعمل الفَقَى ، ورفع الدرّة ، ووضع السوط ، ومزّق الكتاب ، وحقر المسلم ، وضرب منكراً للجور ، وآوى طريد رسول الله ، وضرب السابقين بالفضل ، وسبهم وسرّهم ، ثم أخذ في الله الذي أفاءه عليهم ، فقسمه بين فساق قريش ومُجَانِ العرب ، فسارت إليه

(١) الطبري ٦/٧ هـ كان في الخوارج الوافدين إلى مكة نجدة بن عامر الحنفي

( الطبري ٦/١٤ ) .

طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته ، لا يبالون في الله لومة لائم ، فقتلوه ، فنحن لهم أولياء ، ومن ابن عفان وأوليائه برآء ، فما تقول أنت يا ابن الزبير؟ »

— ٢ —

## خطبة أبي حمزة بالمدينة

بلغ أبا حمزة الشاري <sup>(١)</sup> أن أهل المدينة يعيرون أصحابه لحدائث أسنانهم ، وخفة أحلامهم ، فخطب فيهم خطبة ، منها :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال <sup>(٢)</sup> :

« يا أهل المدينة ، قد بلغتني مقالاتكم لأصحابي ، ولولا معرفتي بضعف رأيكم ، وقلة عقولكم ، لأحسنت أدبكم .

وَيَحْكُم . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتاب ، وَبَيَّنَّ لَهُ فِيهِ الشُّنَنَ ، وَشُرِعَ لَهُ فِيهِ الشَّرَائِعُ ، وَبَيَّنَّ لَهُ فِيهِ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، ولا يحجم إلا عن أمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم ، وقد أدعى الذي عليه ، وعلم المسلمين معالم دينهم ، ولم يدعهم من أمرهم في شبهة .

وَوَلَّى أبا بكر صَلَاتَهُمْ ، فَوَلَاهُ الْمُسْلِمُونَ أَمْرَ دُنْيَاهُمْ حِينَ وُلَاهُ رَسُولُ اللَّهِ أَمْرَ دِينِهِمْ ، فَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَاتَلَ أَهْلَ الرَّدَةِ ، وَشَمَّرَ فِي أَمْرِ اللَّهِ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَالْأُمَّةُ عَنْهُ رَاضُونَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ . ثُمَّ وُلِّيَ بَعْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَسَادَ بِسِيرَةِ صَاحِبِهِ ، وَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَجَنَّدَ الْأَجْفَادَ ، وَمَصَّرَ

(١) هو المختار بن عوف الأزدي أحد زعماء الإباضية ، بايع بالخلافة عبد الله بن يحيى سنة ١٢٨ هـ فوجهه عبد الله إلى مكة فغلب عليها ، ثم غلب على المدينة سنة ١٣٠ هـ .

(٢) الاغاني ١٠٤/٢٠ والبيان والتبيين ٦١/٢ وشرح نهج البلاغة ٤٥٩/١ .

الأمصار ... حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته .

ثم وُلِّي من بعده عثمان بن عفان ، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه — وكان دونهما — ثم سار في الست الأواخر بما أحبط به الأوائل ، واضطرب جبل الدين بعدها ، فطلبها كل امرئ لنفسه ، وسرَّ كل رجل منهم سريرة أبدائها الله عنه ، حتى مضوا على ذلك .

ثم ولي علي بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له مناراً ، ثم مضى لسبيله .

ثم وُلِّي معاوية بن أبي سفيان ، لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن لعينه <sup>(١)</sup> ، وحلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، فسفك الدم الحرام ، واتخذ عباد الله خوفاً ، ومال الله خوفاً ، وبغى دينه عوجاً ودغلاً ، وأحل الفرج الحرام ، وعمل بما يشتهي حتى مضى لسبيله ، فالعنوه لعنه الله .

ثم وُلِّي بعده ابنه يزيد ، يزيد الحمور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد القروذ ، الفاسق في بطنه <sup>(٢)</sup> ، خالف القرآن ، واتبع الكهان ، ونادم القرد ، وعمل بما يشتهي ، حتى مضى على ذلك ، لعنه الله ، وفعل به وفعل .

ثم وُلِّي مروان بن الحكم ، طريد ولعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن لعينه <sup>(٣)</sup> ، فاسق في بطنه وفرجه ، فالعنوه والعنوا آباءه .

ثم تداول بنو مروان بعده ، أهل بيت اللعنة ، طرداء رسول الله ، وقوم من الطلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله

(١) روى أن أبا سفيان كان على جبل ومعاوية يسوقه وعتبة يقوده ، فقال رسول الله اللهم العن الراكب والسائق والقائد . (٢) هنا عبارات مفحشة حذفها

(٣) كان رسول الله قد نفي الحكم وأهله من المدينة ، ولم يمد إليها إلا في عهد عثمان هو وأبناؤه

أَكَلَا ، وَلَعَبُوا بِدِينِ اللَّهِ لَعِبًا ، وَاتَّخَذُوا عِبَادَ اللَّهِ عِيدًا ، يُورَثُ ذَلِكَ الْأَكْبَرُ مِنْهُمْ الْأَصْفَرُ ، فَيَالِهَا أُمَّةٌ مَا أَضْعَفُهَا وَأَضْعَفُهَا !

ثُمَّ مَضُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ سَيِّئِ أَعْمَالِهِمْ ، وَاسْتَخَفَّاهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَالْعَنُوهُمْ كَمَا يَسْتَحَقُّونَ . وَقَدْ وُلِيَ مِنْهُمْ عُمَرُ ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَبْلَ أَنْ يَكْدَ ، وَعَجَزَ عَنِ الَّذِي أَظْهَرَهُ ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ . ( وَلَمْ يَذْكُرْهُ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ ) .

ثُمَّ وُلِيَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، غُلَامٌ ضَعِيفٌ سَفِيهٌ غَيْرُ مَأْمُونٍ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ ، لَمْ يَبْلُغْ أَشَدَّهُ ، وَلَمْ يَوْسُرْ رَشْدَهُ ... ( وَاسْتَمَرَّ فِي تَجْرِيعِهِ وَالْحَمَلَةِ عَلَى أَخْلَاقِهِ ) وَعَادَ إِلَى الْحَمَلَةِ الْجَارِحَةِ عَلَى بَنِي أُمَيَّةٍ . ثُمَّ قَالَ :

وَأَمَّا إِخْوَانُنَا مِنْ هَذِهِ الشَّيْعَةِ — وَلَيْسُوا بِإِخْوَانِنَا فِي الدِّينِ — فَإِنَّهَا فِرْقَةٌ تَظَاهَرَتْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَأَعْلَنَتْ الْفَرِيَّةَ عَلَى اللَّهِ ، لَا يَرْجِعُونَ إِلَى نَظَرٍ نَافِذٍ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَا عَقْلٍ بَالِغٍ فِي الْفَقْهِ ، وَلَا تَفْتِيشٍ عَنْ حَقِيقَةِ الصَّوَابِ . قَدْ قَلَدُوا أُمُورَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَجَعَلُوا دِينَهُمُ الْعَصْبِيَّةَ لِحِزْبٍ لَزَمُوهُ ، وَأَطَاعُوهُ فِي حَمِيصٍ مَا يَقُولُهُ لَهُمْ ، غَيَا كَانَ أَوْ رَشْدًا ، ضَلَالَةً أَوْ هُدًى ، يَنْتَظِرُونَ الدَّوْلَ فِي رَجْعَةِ الْمَوْتَى ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ قَبْلَ السَّاعَةِ ، وَيَدْعُونَ عِلْمَ الْغَيْبِ لِلْخَلْقِ .

فَأَيُّ هَؤُلَاءِ الْفِرْقِ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ تَتَّبِعُونَ ؟ أَمْ بِأَيِّ مَذَاهِبِهِمْ تَعْتَقِدُونَ ؟

وَقَدْ بَلَغْنِي أَنَّكُمْ تَنْتَقِصُونَ أَصْحَابِي . قُلْتُمْ : هُمْ شَبَابٌ أَحْدَاثٌ ، وَأَعْرَابٌ جَفَاءَةٌ . وَيَحْكُمُ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ، وَهَلْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ الْمَذْكُورُونَ فِي الْحَجْرِ إِلَّا شَبَابًا أَحْدَاثًا ؟

أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَعَالِمٌ بِتَتَابُعِكُمْ فِيمَا يَضُرُّكُمْ فِي مَعَادِكُمْ ، وَلَوْلَا اشْتِغَالِي بِغَيْرِكُمْ عَنْكُمْ . مَا تَرَكْتُ الْأَخْذَ فَوْقَ أَيْدِكُمْ .

شَبَابٌ وَاللَّهِ مَكْتَهَلُونَ <sup>(١)</sup> فِي شَبَابِهِمْ ، غَضِيضَةٌ عَنِ الشَّرِّ أَعْيُنُهُمْ ، ثَقِيلَةٌ عَنِ

(١) مَكْتَهَلُونَ : بَلَغُوا مَبْلَغَ الْكُهُولِ فِي عَقْلِهِمْ .



الباطل أرجلهم ، أنضاء (١) عبادة ، وأطلاح (٢) سهر ، باعوا أنفسهم تموت غدا ،  
بأنفس لا تموت أبدا .

قد نظر الله إليهم في جوف الليل ، منعنية أصلابهم على أجزاء القرآن ،  
كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار  
شهِق شهقة ، كأن زفير جهنم بين أذنيه .

قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال<sup>(٣)</sup>  
الليل بكلال النهار ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة  
الصيام ، مستقلون لذلك في جنب الله ، موفون بعهده الله ، منجزون  
لوعده الله .

حتى إذا رأوا سهام العدو قد فُوقَتْ<sup>(٤)</sup> ، ورماحهم وقد أُشْرِقَتْ<sup>(٥)</sup> ،  
وسيوفهم وقد انتَضَيْتْ<sup>(٦)</sup> ، وبرقت الكتية ، ورعدت بصواعق الموت ،  
استخفوا بوعيد الكتية لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتية ،  
ولقوا شبا<sup>(٧)</sup> الأُسنة ، وشائك السهام ، وظَبَات<sup>(٨)</sup> السيوف بنحورهم ووجوههم  
وصدورهم ، فمضى الشاب منهم قدما ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه<sup>(٩)</sup> ،  
اختَضَبَتْ محاسن وجهه بالدماء ، وعفر جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير  
السماء ، وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى<sup>(١٠)</sup> لهم وحسن مأب .

فكم من عين في منقار طائر ، طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف  
الله . وكم من يد قد أبينت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها  
راكعا وساجدا . وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق<sup>(١١)</sup> ، قد فُلِقَ بعمد

(١) أنضاء جمع نضو وهو المهزول (٢) أطلاح : جمع طالخ وهو المهزول .

(٣) كلال الليل : جهده وتعبه (٤) فوقت : أعدت للرمى .

(٥) أشرعت : سددت (٦) انتضيت : أخرجت من أغمارها

(٧) شبا . جمع شباة وهي حد السنان .

(٨) ظبات : جمع ظبة وهي حد السيف .

(٩) المراد أنه لشجاعته يقدم وهو على حصانه فينزلق إلى الأمام حتى تتصل رجلاه

وتختلفا . (١٠) طوبى لهم : الخيم لهم (١١) عتيق : كريم .

الحديد . ثم بكى وقال : آه آه على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ، وأدخل أرواحهم الجنان .

١ — بدأ الخطبة بحمد الله ، على الطريقة التي كانت سائدة في الإسلام .

ثم جهر بالموضوع في إيجاز ، وهدد بالعقاب .

ثم عرض لأعمال رسول الله وخلفائه من بعده ، تمهيدا للعملة على بنى أمية .

وجعل يعدد مساوىء معاوية وابنه يزيد وبنى أمية .

ثم انتقل إلى الشيعة ، فندد بهم وبضلالهم ، ثم عاد إلى الموضوع في تفصيل ، فدافع عن أنصاره من الشباب بعدة أدلة :

( أ ) كان أعجاب رسول الله من الشباب .

( ب ) وهؤلاء الذين يعيهم أهل المدينة شباب ، لسكن لهم عقول الرجال .

( ج ) وهم أتقياء أعفاء عباد عاكفون على تفهم القرآن ، والشوق إلى ثواب الله . وفصل القول في وصف عبادتهم وحبهم لله .

( د ) وهم شجعان مغاوير ، يشترون رضوان الله بحياتهم ، لا يبالون بالسلامة في لقاء أعدائهم أعداء الدين .

( هـ ) ثم رسم صورةا مثيرة لقتلهم من العباد .

( و ) وختم الخطبة بالتأوه لفقدهم وبالنداء لهم .

( ز ) ولم ينس أن يكرر التهديد في نصف الخطبة ، ويعتذر بأنه مشغول بغيرهم .

٢ — أما الخطبة فتعتمد على قصر الجمل ، والموازنة بينها بالسجع أو الازدواج ، والخيال المثير المستميل ، والكناية المشخصة للمعاني ، والتصوير البارع في الامة والأسلوب الجزل المختار .

انظر الحيال في مثل قوله : « شفق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه »  
و « برقت الكنية » .

وانظر الكناية في مثل قوله : « أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم  
وجباههم » و « لقوا شبا الأسنة بنحورهم » و « اختلفت رجلاه على  
عنق فرسه » .

وانظر براعة تصويره في مثل قوله : « فكم من عين في منقار طائر ، طالما  
بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله » .

٣ — وهي كلها دافقة بالعاطفة الحارة ، متدفقة التعبير في قوة وتأثير .

٤ — وتأثيرها بالقرآن الكريم واضح في بعض معانيها ، وفي بعض عباراتها ،  
كقوله : طوبى لهم وحسن مآب ، وقوله : نبذوه وراء ظهورهم .

٥ — أما السب والشتم والتجريح فقد ذكرت أقله ، وحذفت أكثره ، لأن  
فيه خشا .

## خطبة حيان بن ظبيان في الحضر على الجهاد

خطب حَيَّان بن ظَبْيَان في جمع من الخوارج سنة ٥٨ هـ ، فحمد الله وأثنى  
عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإن الله عز وجل كتب علينا الجهاد ، فمننا من قَضَى نَحْبَهُ ،  
ومننا من ينتظر ، وأولئك الأبرار الفائزون بفضلهم ، ومن يكن منا ينتظر فهو  
من سلفنا القاضين نَحْبَهُم ، السابقين بإحسان . فمن كان منكم يريد الله وثوابه ،  
فليسلك سبيل أصحابه وإخوانه ، يؤته الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ،  
والله مع المحسنين »

الخطبة موجزة ، متأثرة بالقرآن الكريم في معانيها وفي بعض تعابيرها ، مثل :  
كتب علينا الجهاد ، منا من قضى نحبه ومنا من ينتظر ، يؤته الله ثواب الدنيا  
وحسن ثواب الآخرة ، والله مع المحسنين .

— ٤ —

## خطبة عبد ربه الصغير في الحضر على الجهاد

خطب عبد ربه الصغير في أصحابه ليلة الواقعة التي دارت بينه وبين المهلب (١) ،  
وقتل فيها عبد ربه ، فقال : (٢)

« يا معشر المهاجرين ، إن قَطَرِيَا وعبيدة (٣) هربا ، طلبَ البقاء ،  
ولا سبيلَ إليه .

فَالْقُوا عَدُوَكُمْ ، فَإِنْ غَلَبَكُمْ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَلَا يُغْلِبَنَّكُمْ عَلَى الْمَوْتِ . .  
فَتَلْقُوا الرِّمَاحَ بَنَحُورِكُمْ ، وَالسُّيُوفَ بِوُجُوهِكُمْ ، وَهَبُّوا أَنْفُسَكُمْ لَهِ فِي الدُّنْيَا  
يَهَبُّهَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ » .

— ٥ —

## خطبة صالح بن مسرح في الحضر على الجهاد

خطب صالح بن مُسَرَّح في جمع من الصُّفَرِيَّة خطبة (٤) منها :

(١) تصدع الأزارقة ، نخلع نصفهم قطري بن الفجاءة ، وولوا عبد ربه الصغير ،  
ونشبت الحرب بينه وبين المهلب . أما قطري فقد ارتحل بأتباعه إلى طبرستان ، وبعث الحجاج  
وراءه جيشا بقيادة سفيان بن الأبرد ، ففرق عن قطري أصحابه ، وقتل سنة ٧٨ هـ ومقتله  
انتهت حروب الأزارقة .

(٢) شرح نهج البلاغة ١/٤٠٥

(٣) عبيدة بن هلال اليشكري من زعماء الأزارقة .

(٤) شرح نهج البلاغة ١/٤٠٩ والطبري ٧/٢١٧ .

« الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الدين كفروا بربهم يعدلون .

• • • • •

ألا إن من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، فعلهم الكتاب والحكمة ، وزكاهم وطهرهم ، وفقهم في دينهم ، وكان بالمؤمنين رءوفا رحما .

ثم ولى الأمر من بعده التقي الصديق ، على الرضا من المسلمين ، فاقبضى بهديده ، واستن بسنته ، حتى لحق بالله ، رحمه الله .

واستخلف عمر ، فولاه الله أمر هذه الرعية ، فعمل بكتاب الله ، وأحيا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يخف في الحق لومة لائم ، حتى لحق به ، رحمة الله عليه .

وولى من بعده عثمان ، فاستأثر بالفى ، وعطل الحدود ، وجار فى الحكم ، واستذل المؤمن ، وعزز المجرم ، فسار إليه المسلمون فقتلوه ، فبرىء الله منه ورسوله وصالح المؤمنين .

وولى أمر الناس من بعده على بن أبى طالب ، فلم ينشب أن حكم فى أمر الله الرجال ، وشك فى أهل الضلال ، وركن وأذهن ، فنحن من على وأشياءه براء .

فتيسروا — رحمكم الله — لجهاد هذه الأحزاب المتحيزة ، وأئمة الضلال الظلمة ، وللاخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، وللحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة .

ولا تجزعوا من القتل فى الله ، فإن القتل أيسر من الموت ، والموت نازل بكم ، ففرق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم .

جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين ، الذين يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ  
يَعْدِلُونَ .

هذه الخطبة تشبه خطبة أبي حمزة في عرض الحكم منذ النبي صلى الله  
عليه وسلم .

والطابع القرآني بارز فيها ، ففاحتها آيات من القرآن الكريم ، وفي ختامها  
آية منه ، وفيها بين الفاتحة والخاتمة آيات أو معان كقوله : « بعث فيهم رسولا  
من أنفسهم ، فعلمهم الكتاب والحكمة وزكاهم وطهرهم ، وكان بالمومنين  
رءوفارحما » .

وفي الخطبة براءة من عثمان وعلى ، ودعوة إلى مجاهدة بني أمية والشيعة ،  
وتسميتهم أئمة الضلال . وعباراتها كلها قصيرة ، قليل منها مسجوع .

## — ٦ —

### خطبة سليمان بن صرد

« في سنة ٦٥ هـ اتفق كثير من الشيعة على الخروج للمطالبة بدم الحسين ،  
وسموا التوابين ، لأنهم ندموا على خذلانه ، وكان يتزعمهم سليمان بن صرد ،  
وعسكروا بالنخيلة قرب الكوفة ، وخطب فيهم سليمان ، فقال بعد أن حمد الله ،  
وأثنى عليه (١) .

« أما بعد ، أيها الناس فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون . وإن  
للدنيا تجارا وللآخرة تجارا . فأما تاجر الآخرة فساع إليها ، متنصب بتطلبتها ،  
لا يشتري بها ثمنا ، لا يُرى إلا قائما وقاعدا وراكعا وساجدا ، لا يطلب ذهبها  
ولا فضة ولا دنيا ولا لذة . وأما تاجر الدنيا فمكبٌّ عليها ، راتع فيها ، لا يتغنى



بها بدلا . فعليكم — يرحمكم الله في وجهكم هذا — بطول الصلاة في جوف الليل ،  
وبذكر الله كثيرا على كل حال ، وتقربوا إلى الله جل ذكره بكل خير قدرتم عليه ،  
حتى تلقوا هذا العدو والمحلل القاسط (١) فتجاهدوه ، فإنكم لن تتوصلوا إلى ربكم  
بشيء هو أعظم عنده ثوابا من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سنام العمل ، جعلنا الله  
وأيامكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على الأواء . وإنا مدللون الليلة  
من منزلنا هذا إن شاء الله .

— ٧ —

### خطبة عبد الله بن يحيى

خطب عبد الله بن يحيى زعيم الإباضية لما استولى على اليمن سنة ١٢٩ هـ ،  
فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ووعظ وذكر وحذر ، ثم قال (٢) :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما . الإسلام  
ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا . رضيانا بالحلال حلالا ،  
لا نبغى به بدلا ، ولا نشترى به ثمنا قليلا ، وحرمنا الحرام ، ونبذناه وراء  
ظهورنا . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وإلى الله المشتكى ، وعليه المعول . من زنى  
فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شك  
في أنه كافر فهو كافر .

ندعوكم إلى فرائض بينات ، وآيات محكمات ، وآثار مقتدى بها ، ونشهد  
أن الله صادق فيما وعد ، عدل فيما حكم ، وندعو إلى توحيد الرب ، واليقين بالوعد

---

(١) يريد عبيد الله بن زياد لأنه استحل قتل الحسين .

(٢) الأغاني ٩٩/٢٠ .

والوعد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والعداوة لأعداء الله .

أيها الناس ، إن من رحمة الله أن جعل في كل فترة بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون على الألم في جنب الله تعالى ، يُقتلون على الحق في سالف الدهور شهداء ، فما نسيتهم ربهم ، وما كان ربك نسيًّا .

أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فأبوا الله بلاء حسنا في أمره وذِكْرِهِ .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

## الفصل الرابع

### خطب الزبير بن

- ١ -

خطبة عبد الله بن الزبير في معارضة البيعة ليزيد

استقدم معاوية وفوداً من الأمصار إلى الشام ، لسمع رأيهم في البيعة لابنه يزيد ، لكن المعارضين بالحجاز لم يقدموا إلى الشام ، فوفد معاوية إلى الحجاز ليثنيهم عن رأيهم ، فلم يفلح .

وكان فيهم عبد الله بن الزبير ، فخطب هذه الخطبة (١) :

حمداً لله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذه الخلافة لقريش خاصة ، فاتق الله يا معاوية ، وأَنْصِفْ من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله ابن جعفر ذي الجناحين ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عبد الله ابن الزبير ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خلف حسننا وحسيننا ، وأنت تعلم من هما .

فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

هذه الخطبة أشبه بحديث موجز لاتأنيق فيه ولا إعداد له .

(١) البيان والتبيين ١/١٦٣ والأمل ٢/٧٣ وذيل الأمل ١٧٧ والعقد

وفكرتها العامة رفض البيعة ليزيد ، لأن في الأحياء من قریش من هم أولى منه وأكفاً .

— ٢ —

## خطبة عبدالله بن الزبير لما قتل الحسين

خطب عبدالله بن الزبير في أهل مكة لما قتل الحسين ، فعاب أهل العراق والكوفة بخاصة .

قال (١) بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد وآله :

«إن أهل العراق غدُرُفُجُرٌ إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق ، وإنهم دعوا حسينا لينصروه ، ويؤلوه عليهم ، فلما قدم عليهم ثاروا إليه ، فقالوا له : إما أن تضع يدك في أيدينا ، فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلما ، فيمضي فيك حكمه ، وإما أن تحارب .

فراى والله أنه — وأصحابه قليل في كثير ، وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحدا — مقتول ، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة .

فرحم الله حسينا ، وأخزى قاتل حسين .

لعمري لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان في مثله واعظ وناه عنهم ، ولكنه ما حُم (٢) نازل ، وإذا أراد الله أمرا لن يدفع .

أبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ، ونصدق قولهم ، ونقبل لهم عهدا ؟ لا . ولا نراهم لذلك أهلا .

أما والله لقد قتلوه ، طويلا بالليل قيامه ، كثيرا في النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل .

أما والله ما كان يُبدّل بالقرآن الفناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الخداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس في حلق الذكر أثر كُض في تَطْلَاب الصيد <sup>(١)</sup> . فسوف يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ .

كانت هذه الخطبة بعد مقتل الحسين ، وقبل أن يدعو ابن الزبير إلى نفسه جهراً <sup>(٢)</sup> .

العاطفة في هذه الخطبة جياشة ، سواء في السخط على أهل العراق أم في رثاء الحسين ، أم في الحملة على يزيد بن معاوية . وفي عباراتها قوة وتوازن وموسيقى وقليل من السجع ، وخاتمتها آية من القرآن الكريم .

### — ٣ —

## خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب

قتل عبد الملك بن مروان مصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ وانتهى خبر مقتله إلى أخيه عبد الله بن الزبير ، فخطب فقال <sup>(٣)</sup> :

« الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، ومليك الدنيا والآخرة ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .  
أما بعد . فإنه لم يعز الله من كان الباطل معه ، وإن كان معه الأنام طراً <sup>(٤)</sup> ، ولم يُذل من كان الحق معه ، وإن كان مفرداً ضعيفاً .

ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق ، بلد الغدر والشقاق ، فساءنا وسرنا .  
أتانا أن مصعباً قتل رحمة الله عليه ومغفرته ، فأما الذي أحزننا من ذلك ، فإن لفراق الحميم لذعة ولوعة يجدها جميعه عند المصيبة ، ثم يرعوى من بعد ذو الرأي والدين إلى جميل الصبر وكريم العزاء .

(١) هذا كله تمرّض يزيد بن معاوية

(٢) تاريخ الطبري ٧ / ١٩ وتهذيب السكامل ١ / ١٨ ومروج الذهب ٢ / ١٢٣ .

(٣) طراً : جميعاً .

وأما الذي سرنا منه ، فإننا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله في ذلك الخيرة إن شاء الله تعالى .

أُسْلِمَهُ الطَّغَامُ<sup>(١)</sup> الصَّمُّ الْآذَانُ ، أهل العراق ، إسلامَ النِّعَمِ المَخْطُومَةِ<sup>(٢)</sup> ، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه ، فإن يُقتَلَ فقد قتل أبوه وأخوه<sup>(٣)</sup> ، وكانوا الخيار الصالحين .

إنا والله لآنموت حَتَفَ آثَانَا<sup>(٤)</sup> ، ولكن قَعَصًا<sup>(٥)</sup> بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان .

والله ما قُتِلَ منهم رجل في زَحَفٍ في جاهلية ولا سلام قط

ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيدُ مُلْكُهُ ، فإن تُقبِلَ الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر البطر<sup>(٦)</sup> ، وإن تدبر عني لم أبك عليها بكاء الخرق<sup>(٧)</sup> المهين . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .  
١ — افتتح الخطبة بحمد الله .

ثم عرض بعد الملك بن مروان ، وبين أن قوته وكثرة أتباعه لن تكفل له نصر الله ، وأن ضعفه هو وقلة أتباعه لن تحرمه تأييد الله .

ثم عبر عن حزنه وسروره بمصرع أخيه . أما حزنه فمن لوعة الفراق ، لكنه صبور ، وأما سروره فلأنه استشهد في سبيل الله .

وذم أهل العراق الذين خذلوه .

(١) الطغام : الأوغاد . (٢) المخطومة : التي في أنوافها حبال لتقاد بها .

(٣) أبوه الزبير بن العوام ، اعتزل أصحاب الجمل ، فقتله عمرو بن جرموز . عمه : عبد الرحمن بن العوام ، استشهد يوم اليرموك . أخوه : المنذر بن الزبير قتله جيش يزيد ابن معاوية بمكة .

(٤) مات حنف أنفه : أي على فراشه من غير قتل ولا ضرب ولا حرق ولا غرق ، وخص الألف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه مع نفسه ، أولأنهم كانوا يتخيلون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، والجريح من جرحه .

(٥) قعصا : ضربا أو رميا عمت في سرعة .

(٦) الأشر البطر : المغرور المتكبر . (٧) الخرق : المدهوش المبهوت .



وعزى نفسه وفاخر بأن أباه وعمه وأخاه استشهدوا من قبل ، وبأن أبناء الزبير لا يموتون إلا في ميادين الجهاد ، على حين أن بنى أمية يموتون حتف أنوفهم . وأعلن أن الحياة عارية مردودة ، وأن الدوام لله ، وهو لهذا لا يكثر بالخلافة ، فإن جاءت إليه قبلها في تواضع ، وإن تخلت عنه لم ييخع نفسه .

ثم ختم الخطبة بالاستغفار لنفسه وللسامعين .

٢ - الخطبة قوية ، تستمد قوتها من عدة أسباب .

(١) قصر الجمل .

(ب) موسيقاها وتوازن فقراتها ، فنجد السجع غير المتكلف في مثل « خبر من العراق ، بلد العدر والشقاق » ونجد الازدواج في مثل : « أسلمه الطغام ، الصم الآذان » .

(ج) المقابلة المضخمة للمكرة في مثل : « لم يعز من كان الباطل معه ، وإن كان معه الأنام طرا ، ولم يذل من كان الحق معه ، وإن كان مفرداً ضعيفاً » .

٣ - وهي خطبة قصيرة ، لكنها مع قصرها وافية بالغرض منها .

٤ - بدأها بآيات من القرآن الكريم ، وختمها بالدعاء لنفسه وللسامعين .

## خطبة لابن الزبير في الخوارج

رد ابن الزبير على الخوارج الذين كانوا قد وفدوا إلى مكة لمناصرته إن كان على رأيهم ، بعد أن خطب خطيبهم عبدة بن هلال ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (١) « أما بعد . فقد فهمت الذى ذكرت ، وذكرت به النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو كما قلت وفوق ما وصفته . وفهمت ما ذكرت به أبا بكر وعمر ، وقد وفقّت وأصبت . وقد فهمت الذى ذكرت به عثمان بن عفان رحمة الله عليه ، وإني

(١) الطبرى ٥٦/٧ .

لأعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره منى . كنت معه حيث  
نقم القوم عليه واستعقبوه ، فلم يدع شيئاً استعقبه القوم فيه إلا أعتبهم منه . ثم إنهم  
رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه فيهم يأمر فيه بقتلهم ، فقال لهم : ما كتبت ،  
فإن شتمت فها تواتوا بينتكم ، فإن لم تكن حلفت لكم ، فوالله ما جاءوه بيينة ، ولا  
استعلفوه ، بل وثبوا عليه فقتلوه . وقد سمعت ما عتبه به ، فليس كذلك ، بل  
هو لكم خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضر أنى ولى لابن عفان فى الدنيا  
والآخرة ، وولى أوليائه ، وعدو أعدائه »

— ٦ —

## خطبة ابن مطيع العدوى بالكوفة

قدم عبد الله بن مطيع العدوى الكوفة سنة ٦٥ هـ واليا من قبل عبد الله  
ابن الزبير ، فخطب فيهم هذه الخطبة (١)

حمد الله وأثنى عليه ؛ ثم قال

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى على مصركم وشركم ،  
وأمرنى بحباية قبيئكم ، وألا أحمل فضل فيئكم (٢) عنكم إلا برضا منكم ،  
ووصية عمر بن الخطاب التى أوصى بها عند وفاته (٣) ، وبسيرة عثمان بن عفان التى  
سار بها فى المسلمين .

فاتقوا الله واستقيموا ، ولا تختلفوا وخذوا على أيدي سفهائكم ، وإلا  
تفعلوا فلوموا أنفسكم ، ولا تلومونى ، فوالله لأوقعن بالسقيم العاصى ، ولأقيم  
درء (٤) الأصغر (٥) المرتاب » .

(٢) النى : الخراج ، وفضله : زيادته .

(٤) الدرء : الميل والاعوجاج .

(١) الطبرى ٩٥/٧

(٣) كان قد أوصى بذلك

(٥) الأصغر : المتكبر .

## خطبة أخرى لابن مطيع في الحضر على الجهاد

حمل المختار وأصحابه على جند عبد الله بن مطيع وإلى الكوفة من قبل ابن الزبير، فكشفوهم وهزموهم سنة ٥٦٦ هـ، فخرج عبد الله بن مطيع فخطب في الناس (١). حمد الله وأثنى عليه، ثم قال .

«أيها الناس، إن أعجب العجب عجزكم عن عصبة منكم، وقليل عددها، خبيث دينها، ضالة مضلة، اخرجوا إليهم، فامنعوا منهم حريمكم، وقاتلوهم عن مضركم. وامنعوا منهم فيثكم، وإلا ليشارككنكم في فيثكم من لا حق له فيه. والله لقد بلغني أن فيهم خمس مئة رجل من محرريكم، عليهم أمير منهم، وإنما ذهب عزم وسلطانكم، وتغير دينكم حين يكثرون.»

(١) الطبري ١٠٦/٧ .

# الباب الخامس

## خصائص الخطابة

لا تسكاد الخطابة في حزب تختلف عن الخطابة في آخر ، لهذا رأيت أن أوضح خصائصها جملة ، مستنبطة من النماذج التي أسلفتها ، وأن أزيد الدراسة وضوحاً بأمثلة شتى من كل حزب .

— ١ —

### الإعداد

ثم خطب كثيرة عن العناية بإعدادها . والثاني في صوغها ، والتدبر في ترتيب أجزائها ، وتنسيق أفكارها ، والتأنق في أسلوبها .

وقد كان ذلك قبل العصر الأموي ؛ فإن عمر بن الخطاب تحدث عن يوم السقيفة بقوله : كنت قد زوّرت — أعددت — كلاماً لأقوله ، فقال لي أبو بكر : على رسلك ، وتكلم هو ، فلم يترك شيئاً مما كنت أريد أن أقوله (١) .  
وكان عمر يشعر بأن لخطبة النكاح بخاصة مشقة ، يقول : « ما يتصعدني كلام كما تتصعدني خطبة النكاح » (٢) .

---

(١) الطبري ٣/٢٠٠

(٢) للبيان والتبيين ١/١١٧ ، ١٣٤ تصعده الأمر وتساعد به : شق عليه .  
ذكر الجاحظ أنه يعرض للخطيب في خطب الإملاك من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر ( ١/١٣٤ ) وقال : سئل ابن المقفع عن قول عمر ، فقال : ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ، ونظر الهداق من قرب في أجواف الهداق ، ولأنه إذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء ، فإذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية . ثم ذكر الجاحظ رأياً آخر هو أن آخرين أولوا قول عمر بأن خطيب الإملاك لا يجد بداً من تزكية =

وروى أن عثمان بن عفان صعد المنبر ، فأرتج عليه ، فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتيكم الخطب على وجهها ، وتعلمون إن شاء الله » (١) .

ومعنى هذا أن الشيخين كانا يعدان خطبهما ، وأن عثمان لم يكن قد استعد ، ولكنه سيستعد فيما بعد لثل هذا الموقف ، ليخطب الناس بكلام ذي قيمة .

وما زال الإعداد طابع كثير من الخطب في العصر الأموي ، فقد روى أن الخوارج طلبوا من عبد الله بن وهب الراسبي - يوم ولوه رياستهم - أن يخطب فيهم ، فقال : وما أنا والرأي الفهليل ، والكلام القضيبي (٢) .

وتواردت الأخبار بأن واصل بن عطاء كان يخطب ، فيتجنب الرأى في كلامه ، لأنه كان ألتع (٣) . فهل كان يتجنبها بغير إعداد وتفكير وتدبر ؟

وقيل لعبد الملك بن مروان : « عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين » . قال : « وكيف لا يعجل علي » ، وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين ، يعنى خطبة الجمعة ، وغيرها مما يعرض من الأمور (٤) .

وقال الكميت بن زيد - وكان خطيباً - إن للخطبة صعداء ، وهى على ذى اللب أزقى (٥) . ويلق الجاحظ على هذا بقوله . ولم أر الكميت أفصح عن هذا المعنى ، ولا تخلص إلى خاصته ، وإنما يجترئ على الخطبة الفرج الجاهل الماضى ، الذى لا يثنى شىء ، أو المطبوع الحاذق الواثق بغزارته واقتداره (٦) .

== الخاطب ، فلهل عمر كره أن يمدحه بما ليس فيه ، فىكون قد قال زورا . ورد على هذا بأنه يجوز إذا كان الخطيب موقوفا على الخطابة ، فأما عمر وأشباهه من الأئمة الراشدين فلم يكونوا ليتكلفوا ذلك إلا فىمن يستحق المدح ( ١١٧/١ ) .

وتمليل ابن المقفع أصوب ، وأزيد عليه أن خطبة الزواج لا تثير عاطفة الخطيب عادة كما تثيرها المواقف الأخرى ، فىشعر بضيق المقام ، وندرة الأفكار .

(١) البيان والتبيين ١/٣٤٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٠٥ (٣) المرجع السابق ١/١٤ .

(٤) المرجع السابق ١/١٣٥ .

(٥) الصعداء : بالفتح المشقة . أرمى : أربى وأزيد .

(٦) البيان والتبيين ١/١٣٤ .

وإن آثار الإعداد لواقعة في كثير من خطب العصر ، كخطب الحجاج وزياد وعبد الملك وأبي حمزة الخارجي ، لأن هذه الخطب موحدة الموضوع ، مرتبة الأفكار ، جيدة الأسلوب ، متوازنة الجمل ، معتمدة على أنواع من الخيال ، بها سجع مقصود لكنه غير مستكره ولا متكلف ، وبعضها يشتمل على مقدمة تمهد للموضوع ، ينتقل منها الخطيب إلى الموضوع نفسه ، ولقد يمزج بعرض الموضوع تدليله على رأيه ، وتقنيده لدعوى خصمه ، ثم ينتهي الخطبة بعبارات يلخص بها موضوعه ، أو يستميل السامعين ويستثيرهم ، كما نجد في خطبة الحجاج بالكوفة ، وخطبة أبي حمزة بالمدينة .

ولم يكن من المصادفة أن تجيء هذه المراحل ، بل هي ثمرة الإعداد والاستعداد .

## — ٢ —

### الافتتاح

أما افتتاحها فقد كان صورة من افتتاحها في صدر الإسلام ، في الأعم الأكثر .

١ — فأكثرها مبدوء بحمد الله ، والثناء عليه ، والصلاة والسلام على رسوله (١) .

٢ — وبعضها مبدوء بالتهديد والوعيد ، لتنبيه عن غضب الخطيب ، وترهب السامعين بشديد عقابه ، أو تبدأ بالشتم والتوبيخ (٢) ، لأن المقام مقام تقرير وتأنيب

(١) من خطب الأمويين ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٩ ، ١٢ ، ١٤

ومن الشيعة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٨

ومن الخوارج ١ ، ٢ ، ٣

ومن الزبيريين ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥

(٢) انظر في خطب الأمويين ٥ ، ٨



٣ — وقد تبدأ بشعر خشن ينبىء عن صرامة وغلظة (١) .

٤ — وقد تبدأ بالموضوع مباشرة (٢) .

لكن السمة الغالبة كانت كما سبق الاستفتاح بالحمد والثناء وبالشهادتين والصلاة والسلام على رسول الله ، حتى إنهم سمو الخطبة التي لا تبدأ بالحمد بترأء .

### — ٣ —

## الأجزاء

بعض الخطب مبنية كلها على عرض الموضوع .

وبعضها مقسمة إلى مقدمة وعرض وخاتمة .

١ — أما المقدمة فواضحة في :

(١) بعض خطب الأمويين ، كخطبة معاوية (٣) ، إذ مهد لتولية ابنه يزيد من بعده ، بأنه كبرت منه ، وضعف جسمه ، وقرب أجله ، ثم انتقل إلى الموضوع ، فقال إنه يريد أن يعهد لابنه يزيد .

ومثل خطبة الضحاك بن قيس (٤) في تأييد هذه البيعة ، إذ بين خير الوحدة والألفة وضرورة الوالى ، ثم انتقل إلى تأييد بيعة يزيد .

ومثل خطبة الحجاج (٥) إذ قدم بشعر يبعث الخوف منه .

وخطبة عبد الملك (٦) بعد قتل مصعب ، إذ قدم ببيان نعمة الأمن والسلام ونقمة الحرب والفتنة .

(ب) بعض خطب الشيعة ، مثل خطبة الحسن بن علي (٧) في الرد على

---

(١) انظر من خطب الأمويين ١٠

(٢) انظر من خطب الشيعة ٧ ، ٣

(٣) الخطبة ٢

(٤) الخطبة ٣

(٥) الخطبة ١٠

(٦) الخطبة ١٢

(٧) الخطبة ٥

أصحابه الذين استنكروا صلحة مع معاوية ، إذ قدم للخطبة بأنهم شيعة وأهل مودته . ثم انتقل إلى تبرير الصلح .

ومثل خطبة الحسين <sup>(١)</sup> في حضه على الثورة على بني أمية ، إذ قدم بالحديث الشريف الذي يحض على تغيير الحاكم الجائر

(ح) بعض خطب الخوارج ، مثل خطبة أبي حمزة <sup>(٢)</sup> في الدفاع عن أنصاره الشباب ، فقد مهد للموضوع بعرض عام لسياسة النبي عليه الصلاة والسلام وسياسة خلفائه ، ثم انتقل إلى الحملة على معاوية ويزيد ، فلما فرغ دافع عن حربه .

ومثل خطبة صالح بن مسريح <sup>(٣)</sup> في حث أصحابه على الجهاد ، إذ قدم بعرض عام ، كما فعل أبو حمزة ، ثم جعل يحض على الجهاد .

(د) بعض خطب الزبيريين مثل خطبة عبد الرحمن بن الزبير <sup>(٤)</sup> بعد مقتل الحسين ، إذ مهد بدم أهل العراق وأهل الكوفة بخاصة ، لأنهم خذلوا الحسين ، ثم انتقل إلى رثائه والإشادة به .

ومثل خطبته <sup>(٥)</sup> بعد قتل أخيه مصعب ، إذ قدم بمقدمة بين فيها أن الأمر كله لله وبين أن نصره الباطل موقوتة ، ونصرة الحق آتية .

٢. — وأما الخاتمة فمحققة في بعض الخطب .

(١) فمن خطب الأمويين خطبة معاوية بالمدينة <sup>(٦)</sup> ، إذ ختمها بعبارة ملخصة للموضوع ، مخوفة من الفتنة .

ومثل خطبة زياد <sup>(٧)</sup> ، فقد ختمها بالتهديد المرعب « وايم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى » .

ومثل خطبة الحجاج <sup>(٨)</sup> بالكوفة ، فقد ختمها بتهديد جامع .

(٢) الخطبة ٢

(٥) الخطبة ٣

(٨) الخطبة ١٠

(١) الخطبة ٦

(٣) الخطبة ٥

(٦) الخطبة ٩

(٤) الخطبة ٢

(٧) الخطبة ٨

(ب) ومن خطب الخوارج خطبة أبي حمزة (١) إذ دعا في نهايتها للقتلى من أصحابه، وخطبة صالح بن مسرّح<sup>(٢)</sup> فقد دعا في آخرها لنفسه ولسامعيه بالهدى .  
(ج) ومن خطب الشيعة خطبة الحسن بن علي (٣) ، فقد ختمها بدعاء الله أن يرشده هو وشيعته إلى الحق والخير .

(د) ومن خطب الزبير بن عبد الله بن الزبير (٤) في رثاء الحسين إذ ختمها بموازنة بين ممو أخلاق الحسين وضعة أخلاق يزيد ، وبآية قرآنية مناسبة للموضوع . وخطبته بعد مقتل مصعب (٥) ، إذ ختمها بأنه ليس متهاكاً على الدنيا فإن تقبل لا يأثر ، وإن تدبر لا يذل .

٣ — على أن الخاتمة قد تنحى منحى آخر .

(١) فتارة تكون باستغفار الخطيب لنفسه وللسامعين (٦) .

(ب) وتارة تكون بالدعاء للسامعين (٧) أو لغيرهم (٨) . أو للخليفة (٩) .

(ج) وحيناً تختم الخطبة بآية من القرآن الكريم (١٠) .

(د) وربما جاء الختام شعراً (١١) .

(هـ) وقد يكون بغير هذا كله (١٢) .

— ٤ —

## العنف والتهديد

تزخر الخطابة السياسية في هذا العصر بشن الحملات على الخصوم ، والتهجم

(١) الخطبة ٢ (٢) الخطبة ٥ (٣) الخطبة ٤

(٤) الخطبة ٢ (٥) الخطبة ٣

(٦) أنظر من خطب الأمويين ١٤ ومن الشيعة ٥ ، ٦ ، ٨ ومن الزبيريين ٣ .

(٧) أنظر من الأمويين ٢ ، ومن الشيعة ٢ (٨) الخوارج ٢ والأمويون ٤

(٩) الأمويون ٣ (١٠) الشيعة ٥ ، ٦ ، والخوارج ٣ ، ٥ والزبيرون ٢

(١١) الأمويون ١٢ والشيعة ٢ .

(١٢) الأمويون ١ ، ٥ ، ٧ ، ١٣ والشيعة ٩ والخوارج ١ والزبيرون ١ ، ٥

عليهم ، وسبهم واتهامهم بالضللال والكفر والفجور ، وتوعدهم بعقاب الله ، وتهديدهم بالثورة أو بالانتقام المردى .

وقد كان الشائع أن هذه الظاهرة مقصورة على خطباء الحزب الأموى ، إذ أنهم اعتمدوا على قوارص الحكم في إرهاب الشائرين ، وزجر من تسول له نفسه أن يحدث فتنة ، أو يتمرد على الحكم

لكن الواقع أن في خطب الأحزاب الأخرى سبا وتهديدا ، كما سترى :  
١ — فمن ذلك في خطب الأمويين قول معاوية بالمدينة عام الجماعة : « والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكنى جاللتكم بسيفي هذا مجالدة<sup>(١)</sup> » ، وقول عتبة بن أبي سفيان بمصر : « يا حاملى الأم أنوفر كُتِبَتْ بين أعين ، والله لأقطعن بطون الشياطين على ظهوركم ، فإن حسمت أدواءكم ، وإلا فإن السيف من ورائكم »<sup>(٢)</sup> .

قول خالد القسرى بمكة : « والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته فى الحرم »<sup>(٣)</sup> .

وقد بلغ زياد والحجاج أقصى حد فى الوعيد والشتم بخطبهما فى البصرة والكوفة<sup>(٤)</sup> ،

٢ — ومنه فى خطب الشيعة قول الحسن فى رده على معاوية بمسمع منه : « لعن الله أحملا ذكرا ، والأمنا حسبا ، وشرنا قديما وحديثا ، وأقدمنا كفرا ونفاقا »<sup>(٥)</sup> .

وقوله فى بنى أمية : « إن هؤلاء لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنفء ، وأحلوا حرام الله ، وحرموا حلاله »<sup>(٦)</sup> .

(٢) الخطبة ٥

(٤) الخطبة ٨ ، ١٠ ، ١١

(٦) الخطبة ٦

(١) الخطبة ١

(٣) الخطبة ١٥

(٥) الخطبة ٣

٣ — ومنه في خطب الخوارج قول أبي حمزة في وصف سياسة معاوية ويزيد :  
« ثم ولي معاوية لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن لعينه <sup>(١)</sup> ، وجائف  
من الأعراب ، وبقية من الأحزاب <sup>(٢)</sup> ، فسفك الدم الحرام ، واتخذ عباد الله  
خولا <sup>(٣)</sup> ، ومال الله دولا <sup>(٤)</sup> ، وبغى دينه عوجا ودغلا <sup>(٥)</sup> ... ثم ولي بعده  
يزيد ، يزيد الخمر ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد  
القرود ، الفاسق في بطنه ... يخالف القرآن ، وعمل بما يشتهي » <sup>(٦)</sup> .

وقوله في وصف الشيعة : وأما إخواننا من هذه الشيعة — وليسوا بإخواننا  
في الدين — فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت للفريّة على الله ، لا يرجعون  
إلى نظر نافذ في القرآن ، ولا عقل بالغ في الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب ...  
قاتلهم الله أنى يؤفكون » <sup>(٧)</sup> .

وهو في هذه الخطبة يهدد أهل المدينة بقوله : « والله لولا اشتغالي بغيركم  
عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم » .

وقول صالح بن مسرّح في حض الخوارج على الثورة : « تيسروا رحمكم الله  
لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة ، وأئمة الضلال الظلمة ، وللمخرج من دار الفناء إلى  
دار البقاء <sup>(٨)</sup> » .

٤ — أما الزبيريون ، فمن سبهم قول عبد الله بن الزبير « إن أهل العراق  
غدر فُجّر إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق » <sup>(٩)</sup> .  
وتعريض ابن الزبير يزيد بن معاوية في رثاء للحسين : « أما والله ما كان  
يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحذاء ، ولا بالصيام شرب الحرام ،  
ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في تطلّاب الصيد » <sup>(١٠)</sup> .

(١) روى أن رسول الله رأى أبا سفيان على جبل ومعاوية بسوفه وعتبة يقوده فقال :  
اللهم لعن الراكب والسائق والقائد .

(٢) الأحزاب التي هاجت المدينة في غزوة الخندق .

(٣) خولا : عبيدا (٤) دولا : دائرا بين أقاربه . (٥) دغلا : فسادا .

(٦) الخطبة ٢ . (٧) الخطبة ٢ (٨) الخطبة ٥

(٩) الخطبة ٢ (١٠) الخطبة ٢

وقول عبد الله بن مطيع والى ابن الزبير على الكوفة يصف الشيعة أنصار المختار بن عبيد بأنهم « عصابة خبت دينها ضالة مضلة » (١) .

وتهديده أهل الكوفة حينما ولى عليها من قبل ابن الزبير بقوله : « والله لأوقعن بالسقيم العاصي ، ولأقيمن درء الأصعر المرتاب » (٢) .

— ٥ —

## التخييل والتصوير

وهي تتميز بمشابهة الشعر في إبراز الأفكار وتوضيحها وتجسيمها في قوالب من التخييل ، ومن التضاد .

١ — كالتشبيه : في قول أبي حمزة الشاري « وإذا مر أحدهم بآية من ذكر النار شفق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه » (٣) .

وفي قول زياد : « نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان ، فوجدتهم كالأضاحي ، في كل عيد يذبحون » (٤) .

وفي قول الحجاج : « والله لأحزمنكم حزم السلّمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل » (٥) .

وفي قول عبد الملك : « نحن بنو الحرب وهي أمنا » (٦) .

وقول عبد الملك أيضاً : « فأصمم تصميم الحسام المطرور » (٧) ، وأصول صيال الخنيق الموتور » (٨) .

وقول علي بن أبي طالب : « أبيت على إباء المخالفين الجفاة » . وقوله : « فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن » (٩) .

وقول عبد الله بن الزبير : « أسلمه الطّغام ، الصّمّ الآذان ، إسلام النّعم الخطّمة » (١٠) .

(١) الخطبة ٥ (٢) الخطبة ٦ (٣) الخطبة ٣ من الحوارج

(٤) الخطبة ٧ من الأمويين : (٥) الخطبة ١٠ من الأمويين

(٦) الخطبة ١٢ من الأمويين (٧) المشحوذ

(٨) الخطبة ١٢ من الأمويين . (٩) الخطبة ٢ من الشيعة

(١٠) الخطبة ٣ من الزبيريين .



٢ — ومثل الاستعارة :

في قول الحسين : « إن نقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتي من أعضائكم ، فلعمري ما هي لكم بُنْكر »<sup>(١)</sup> .

وفي قول أبي حمزة : « برقت الكتبية ، ورعدت بصواعق الموت »<sup>(٢)</sup> .

وفي قول الحجاج : « إني لأرى رءوسا قد أينعت ، وحن قطفها ، وإني لصاحبها »<sup>(٣)</sup> .

وقول عبد الملك : « وقد زينتنا الحر وزبناها ، فعرفناها وألفناها »<sup>(٤)</sup> .

٣ — ومثل الكناية :

في قول أبي حمزة : « شباب... ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، باعوا أنفسهم بموت غدا بأنفس لا تموت أبدا... أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم »<sup>(٥)</sup> .

وفي قول الحسين : « ليكن كل رجل منكم حليسا من أحلاس بيته »<sup>(٦)</sup> .

وقول ابن الزبير : إنا والله لآنموت حتف آنافنا »<sup>(٧)</sup> .

وقول عبد الله بن مطيع واليه على الكوفة : « خذوا على أيدي سفهاءكم »<sup>(٨)</sup> .

وقول معاوية : « إن لم يكن إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له

دبر أذني ، وتحت قدمي »<sup>(٩)</sup> .

وقول عتبة بن أبي سفيان : « لا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع دوننا »<sup>(١٠)</sup> .

وقول الحجاج : « إني والله ما يقعق لي بالشذان ، ولا يغمز جانبي كتفماز

التين »<sup>(١١)</sup> .

- 
- |                             |                             |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (١) الخطبة ٦ من الشيعة .    | (٢) الخطبة ٢ من الحوارح     |
| (٣) الخطبة ١٠ من الأمويين   | (٤) الخطبة ١٢ من الأمويين   |
| (٥) الخطبة ٢ من الحوارح .   | (٦) الخطبة ٥ من الشيعة .    |
| (٧) الخطبة ٣ من الزبيريين . | (٨) الخطبة ٤ من الزبيريين . |
| (٩) الخطبة ١ من الأمويين    | (١٠) الخطبة ٤ من الأمويين   |
| (١١) الخطبة ١٠ من الأمويين  |                             |

٤ - وقد يلجأ الخطيب إلى ضرب من التصوير المثير ، يريد به أن يصل إلى أعماق النفوس ، إذ يعرض صورتين مثيرتين ليست إحداها جزاء على الأخرى . أو يعقد صلة حتمية بين عمليتين ، أحدهما يرغب فيه بعض الناس ، والآخر يخشاه جميع الناس .

من الضرب الأول قول أبي حمزة : « فكم من عين في منقار طائر ، طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله . وكم من يد قد أيدت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق قد فُلق بعَمد الحديد <sup>(١)</sup> »

فهو يستثير السامعين ويستدر عطفهم وحسراتهم على هؤلاء العُباد الشجعان الذين كان جزاءهم القتلُ وتمزيقُ الأشلاء .

ومن الضرب الثانى قول زياد : « فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه <sup>(٢)</sup> »

فبعض الناس الذين يشكو منهم زياد يحبون أن يغرقوا غيرهم ، ويحرقوا دورهم ، ويسرقوهم أحياء وأمواتاً ، ولكن الناس جميعاً يخافون هذا العقاب الرادع الذى جعله زياد من جنس الجريمة ليكون ملائماً لها .

٥ - وكذلك يحىء الطباق والمقابلة ، فيزداد المعنى وضوحاً ، وتزداد الصورة جلاءً ورسوخاً .

مثل قول معاوية : « والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولكنى جالدهتكم بسيفى هذا مجالدة . . والله لا أحمل السيف على من لا سيف له <sup>(٣)</sup> » .

وقول أخيه عتبة : « ولينا هذا الموضع الذى يضاعف الله فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسىء الوزر <sup>(٤)</sup> » .

(٢) الخطبة ٨ من الأمويين .

(٤) الخطبة ٤ .

(١) الخطبة ٢ من الحوارج .

(٣) الخطبة ١ من الأمويين .

وقوله : « ولست أبخل بالعقوبة ، إذا جدتم بالمعصية <sup>(١)</sup> » .

وقول زياد : « والله لآخذنَّ الوليَّ بالمولى ، والمقيم بالطاعن ، والمقبل بالمدير ، والصحيح منكم بالسقيم .. رب مبتئس بقدومنا سيُسَّرَ ، ومسرور بقدومنا سيبتئس <sup>(٢)</sup> » .

وقول الحجاج : « من أعياه دأؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله ، فعلى أن أعجله . ومن استطال ماضى عمره ، قصرت عليه باقيه ، ومن وضعه ذنبه ، رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عنه الهلكة <sup>(٣)</sup> » .

وقول أبى حمزة : « شباب مكتهلون فى شبابهم ، باعوا أنفسهم بموت غذا ، بأنفس لا تموت أبدا ... استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة <sup>(٤)</sup> » .

وقول الحسن : « ألا إن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة <sup>(٥)</sup> » .

وقول الحسين : « لأن تَذِلُّوا وتُعَاَفُوا ، أحبُّ إلى من أن تعزوا وتُقتلوا <sup>(٦)</sup> » .

وقول ابن الزبير بعد قتل الحسين : « رأى والله أنه هو وأصحابه قليل فى كثير .. ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله حسيناً ، وأخزى قاتل حسين <sup>(٧)</sup> » .

وقوله : « لم يُعز الله من كان الباطل معه ، وإن كان معه الأنام طراً ، ولم يذل من كان الحق معه ، وإن كان مفرداً ضعيفاً ... فإن تقبل الدنيا على لم أخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عني لم أبك عليها بكاء الخرق المهين <sup>(٨)</sup> » .

(٢) الخطبة ٨ من الأمويين .

(٤) الخطبة ١ من الحوارج .

(٦) الخطبة ٥

(٨) الخطبة ٣

(١) الخطبة ٥

(٣) الخطبة ١١ من الأمويين .

(٥) الخطبة ٤ من الشيعة

(٧) الخطبة ٢ من الزبيريين

## التعبير

وأما التعبير فيقسم بعدة مميزات :

١ — قوة العبارة وجزالتها ، لأنها تعبر عن مشاعر مهتاجة ، وتنفوس ثائرة حارقة مثل قولى على بن أبى طالب : « أبيتم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضمن الزند بقدحه (١) » .  
وكقول زياد : « وايم الله ، إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعى » (٢) .

وقول الحجاج : « إن أمير المؤمنين ثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها مكسيرا ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أو ضغتم فى الفتنة ، واضطجتم فى مراقد الضلال » (٣)

وقول عبد الملك بعد قتل مصعب بن الزبير : « إن الحرب صعبة مُرّة ، وإن السلم أَمْنٌ ومَسَرّة ، وقد زبنتنا الحرب وزبناها ، فمرفناها وألفناها ، فنحن بنوها ، وهى أمنا » (٤) .

وقول أبى حمزة الشارى فى وصف أصحابه : « شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، باعوا أنفسهم بموت عدا ، بأنفس لا تموت أبدا » (٥) .

وقول عبد الله بن الزبير : « إنا والله لانموت حَتَفَ آنافنا ، ولكن قَعَصًا بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط » (٦) .

وقول سليمان بن صُرَد : « ألا فانهضوا ، فقد سَخِطَ ربكم ، ولا ترجعوا إلى

(١) الخطبة ٢ من الشيعة (٢) الخطبة ٨ من خطب الأمويين .

(٣) الخطبة ١٠ من خطب الأمويين . (٤) الخطبة ١٢ من خطب الأمويين .

(٥) الخطبة ٢ من خطب الحوارج . (٦) الخطبة ٣ من خطب الزبيريين .

الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضيا دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا » (١) .

٢ — قصر الجمل ، ليشتد وقعها ، ويتلاحق تأثيرها ، كما تجد في قول عبد الملك : « إن الحرب صعبة مرة . . . » .

وفي قول زياد : « قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتُفَطُّون على المختلس . ما أنتم بالعلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء . . . » .

وقول أبي حمزة الشاري : « حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فوقت ، ورماحهم وقد أشرعت ، وسيوفهم وقد انتضيت ، وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة » .

وقول الحسن لمعاوية : « أنا الحسن ، وأبي علي ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأمي فاطمة ، وأمك هند ، وجدى رسول الله ، وجدك عُتْبَةُ بن ربيعة . . . » (٢)

٣ — العناية بالوَقْع والرنين ، سواء أ جاء عن طريق مسجع غير مستكره ، أم عن طريق الازدواج ، أم من تقسيم العبارة إلى جمل متوازنة القدر والطول . تجد هذا واضحا في قول الحجاج : « إن للشيطان طيفا ، وللسلطان سيفاً ، فمن سقمت سربرته ، صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه ، رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عنه الهلكة » (٣) .

وفي قول الحسن : « الزموا يوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برٌّ ، أو يستراح من فاجر » (٤) .

وقول الحسين : « إن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمان ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنبي » (٥) .

(٢) الخطبة ٣ من الشيعة .

(٤) الخطبة ٥ من الشيعة .

(١) الخطبة ٩ من خطب الشيعة .

(٣) الخطبة ١١ من الأمويين .

(٥) الخطبة ٦ من الشيعة .

وقول عبد ربه الصغير : « تلقوا الرماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهبوا أنفسكم لله في الدنيا ، يهبها لكم في الآخرة (١) . »

وقول عبد الله بن الزبير بعد مقتل الحسين « لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا في النهار صيامه ، والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله المحداء ، ولا بالصيام شرب الحرام (٢) . »

٤ — يغلب على خطب العصر الأموي الإيجاز المعتدل ، ويقل فيها التوسط القريب من الطول ، وتندر فيها الخطب المسهية المطولة .

وهي في هذه الظاهرة امتداد للخطابة في صدر الإسلام ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب خطبة من صلاة العصر إلى أن جنعت الشمس للغيب ، ورويت له خطب قصار شتى .

وروى أن عمر خطب بعد أن بويع بالخلافة فقال بعد الحمد : « إنما مثل الأمة كمثل جمل أنف (٣) اتبع قائده ، فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فو رب الكعبة لأحملنكم على الطريق . »

وروى أن خطبته كانت : « أيها الناس ، إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندي من القوى ، حتى آخذ الحق منه . »

كذلك تقل الخطب الطوال في العصر الأموي ، ولعل أطول الخطب السياسية التي وصلت إلينا خطبة أبي حمزة الشاري التي خطبها بالمدينة دفاعا عن الشباب من حزبته . وهي في نحو ٩٣ سطرا .

وتقل أيضا الخطب الموجزة المتناهية في القصر ، كخطبة الحسن في رده على معاوية لما نال منه ومن آبيه ، فهي في أربعة أسطر (٤) ، وخطبة المختار

(١) الخطبة ٤ من الخوارج .

(٢) الخطبة ٢ من الزيديين

(٣) منقاد بأنف من الزجر والضرب .

(٤) الخطبة ٣ من الشيعة



ابن أبي عبيد وهو يشيع ابن الأشتر لقتال ابن زياد ، فهي في ثلاثة أسطر (١) ،  
وخطبة ابن الزبير بعد خطبته الأولى لما قتل أخوه مصعب ، فهي في سطرين (٢) ،  
وخطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق ، فهي في سطر واحد (٣) ، وخطبة عبد الملك  
لما علم بثورة ابن الأشعث (٤) ، فهي في سطرين .

أما الكثرة الغالبة فهي من النوع الوسط بين الإيجاز والطول ، كما ترى  
في النماذج .

— ٧ —

## التأثر بالقرآن الكريم

### (١) الاقتباس

تتميز الخطابة في هذا العصر بكثرة الاقتباس من القرآن الكريم ، والمهارة  
في وضع الآيات بالمواضع الملائمة لها من الخطبة ، حتى ليحسب الذي لا يحفظ  
القرآن أن الكلام كله للخطيب .

وإنما عمد الخطباء إلى الاقتباس ، لأنهم متذوقون لبلاغة القرآن ، فهم يجدون  
في هذه الآيات تعبيراً صادقاً عما يريدون أن يقولوا ، ثم لأنهم يعرفون استجابة  
سامعيهم للبلاغة ، فيضيفون إلى بلاغتهم هم وإلى تأثيرهم الخطابي أعظم ذخيرة من  
البلاغة ومن سلطان الدين .

يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل  
وفي الكلام يوم الجمع آى من القرآن ، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار  
والرقة وسلس الموقع .

(٢) البيان والتبيين ٤٧/٢

(٤) الطبرى ١٠/٨

(م ٢٣ — الأدب السياسي)

(١) الكامل ٢٦٩/٣

(٣) البيان والتبيين ٤٧/٢

قال الهيثم بن عديّ : قال عمران بن حطان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد — أو عند ابن زياد — فأعجب بها الناس ، وشهد بها عمي وأبي ، ثم إني مررت ببعض المجالس ، فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفقي أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن» (١)

على أن الاقتباس من القرآن الكريم كان الطابع الغالب في الخطب الدينية والوعظية ، ولهذا سموا خطبة الوعظ أو الدين إذ خلت من القرآن الكريم شَوْهَاء .

أما الخطب السياسية فقد غلب فيها الاستشهاد بالشعر ، كما سنرى :

والأمثلة على الاقتباس كثيرة .

١ — فمن خطب الخوارج قول أبي حمزة في تزكية القتلى من أصحابه .

« فطُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَا بَ (٢) » . من قوله تعالى : « الذين آمنوا وعملوا

الصالحات طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَا بَ (٣) »

وقول حَيَّان بن ظَبْيَان : « فَمِنَّا مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَظِرُ (٤) » .

من قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٥) » .

وقول صالح بن مُسَرِّح : « الذين يهدون بالحق وبه يعدلون (٦) » . من قوله

تعالى : « ومن خلقنا أمةً يَهدُون بالحق ، وبه يعدلون (٧) »

٢ — ومن خطب الشيعة قول على : « ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا (٨) » ،

وقول الحسين : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه (٩) » . وهذه بنصها من القرآن

الكريم (١٠) .

- 
- |   |  |
|---|--|
| (١) البيان والتبيين ١ / ١١٨   | (٢) الخطبة ٢   |
| (٣) سورة الرعد ٢٩   | (٤) الخطبة ٣   |
| (٥) سورة الأحزاب ٢٣   | (٦) الخطبة ٥   |
| (٧) سورة الأعراف ١٨١  | (٨) الخطبة ١ من الشيعة وهنا اقتباس من الآية ٥٥ من سورة الأنعام |
| (٩) الخطبة ٦ من الشيعة وسورة الأنعام ٤٥ (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) |  |
| (١٠) سورة الفتح ١٠  |  |

وقول المسيب الفزاري<sup>(١)</sup> : « أولم نُعمِّرْكم مايتذكر فيه من تذكركم وجاءكم النذير » . وهذه آية من القرآن الكريم<sup>(٢)</sup> .

وقول محمد بن الحنفية<sup>(٣)</sup> : « وكان أمر الله مفعولا ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » وهي آية من القرآن الكريم<sup>(٤)</sup> .

وقول سليمان بن صرد<sup>(٥)</sup> : « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم »

وهذه الجملة قرآنية كلها<sup>(٦)</sup> . كذلك قوله في الخطبة نفسها : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل »<sup>(٧)</sup> .

٣ - ومن خطب الزيريين قول عبد الله بن الزبير<sup>(٨)</sup> : « فسوف يلقون غيًّا » . وهو قرآن كريم<sup>(٩)</sup> . وقوله بعد مقتل أخيه مصعب<sup>(١٠)</sup> : « له الخلق والأمر » يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء » وهذا من القرآن الكريم<sup>(١١)</sup> .

٤ - ومن خطب الأمويين قول الحجاج<sup>(١٢)</sup> : « فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » وهذا قرآن كريم<sup>(١٣)</sup> .

وقوله في خطبة أخرى : « بل أنتم يا أهل الشام كما قال سبحانه وتعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون » ، وإن جندنا لهم الغالبون »<sup>(١٤)</sup> .

وقول الضحاك بن قيس الفهري<sup>(١٥)</sup> : « كل يوم هو في شأن » . وقول

- 
- |   |                                   |                         |
|---|-----------------------------------|-------------------------|
| (١) الخطبة ٦                                | (٢) سورة قاطر ٣٧                  | (٣) الخطبة ١٠ من الشيعة |
| (٤) سورة الأحزاب ٣٧                         | (٥) الخطبة ٧                      | (٦) سورة البقرة ٥٤      |
| (٧) سورة الأنفال ٦٠                         | (٨) الخطبة ٢                      | (٩) سورة مريم ٥٩        |
| (١٠) الخطبة ٣                               | (١١) سورة الأعراف ٥٤ وآل عمران ٢٦ |                         |
| (١٢) الخطبة ١٠                              | (١٣) سورة النحل ١١٢               |                         |
| (١٤) شرح نهج البلاغة ١/١١٥ وسورة الصفات ١٧١ |                                   |                         |
| (١٥) الخطبة ٣ وسورة الرحمن ١٩               |                                   |                         |

عتبة بن أبي سفيان وإلى مصر<sup>(١)</sup> : «خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، واذمّ الباطل وأنتم تأثونه ، كالخمار يحمل أسفاراً ، أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها . من قوله تعالى . « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الخمار يحمل أسفاراً »<sup>(٢)</sup> .

### خطبة كلها قرآنية :

وربما جاءت الخطبة كلها من القرآن الكريم ، كخطبة مصعب بن الزبير حينما بعثه عبد الله بن الزبير والياً على البصرة سنة ٦٧ هـ .  
حمد الله وأثنى عليه ثم قال .

« بسم الله الرحمن الرحيم . طسم تلك آيات الكتات المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون كعلا في الأرض ، وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستخفي نسائهم ، إنه كان من المفسدين ( وأشار بيده نحو الشام ) .

ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ( وأشار بيده نحو الحجاز )  
ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ( وأشار بيده نحو العراق ) .

فهو في هذه الخطبة يعتمد على القرآن وحده<sup>(٤)</sup> . ويجيد اختيار الآيات المعبرة عما في نفسه .

فقد شبه بني أمية بفرعون في الطغيان والاعتداء على حق الحياة ، وتكهن بأن الزبيريين الذين ينسكل بهم بنو أمية هم الذين سينزعون الملك منهم ويرثونهم ، وبأن العراق سيكون مقر ملكهم ، وبأن بني أمية سيصطلون من نار الزبيريين ما كانوا يخشونه

(١) عيون الأخبار ٢/٢٣٩ والعقد الفريد ٢/١٦٠ .

(٢) سورة الجمعة ٥ .

(٤) سورة القصص ١ — ٥ .

(٣) تاريخ الطبري ٧/١٤٦ .

## (ب) استمداد المعاني

ولقد كان بعض الخطباء يستمدون من القرآن الكريم بعض المعاني ، يجرؤونها على ألسنتهم عامدين ؛ ليفخموا بها أقوالهم ، ويجتذّبوا نفوس سامعيهم ، أو غير عامدين أن يقتبسوا هذه المعاني ، وإنما جرت على ألسنتهم ؛ لأنهم حفاظ قد فهموا ما حفظوا .

١ — من هذا في خطب الشيعة قول الحسين في رده على الذين استنكروا صلحه لمعاوية<sup>(١)</sup> : « إن الله لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه » .

ففي هذه الجملة نلمح معنى قوله تعالى : « والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب »<sup>(٢)</sup> . وقوله تعالى : « حق يقضى الله أمراً كان مفعولاً »<sup>(٣)</sup> .

وهو يقول في الخطبة نفسها : « سألنا الله ألا يكلنا إلى أنفسنا » .

وهذه الجملة تذكرنا بقوله تعالى : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعفُ عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »<sup>(٤)</sup> .

٢ — ومنه في خطب الخوارج قول أبي حمزة في وصف أصحابه<sup>(٥)</sup> : « باعوا أنفسهم بموت غدا بأنفس لا تموت أبداً » .

وهذا يذكرنا بقوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله »<sup>(٦)</sup> ، وبقوله : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء ، عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله »<sup>(٧)</sup> .

(٢) سورة الرعد ٣١

(٤) سورة البقرة ٢٨٦

(٦) سورة البقرة ٢٠٧

(١) الخطبة ٥

(٣) سورة الأنفال ٤٢

(٥) الخطبة ٢

(٧) سورة آل عمران ١٦٩ .

وقوله في الخطبة نفسها . « كلما مر أحدكم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شقق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه » .

وهنا نلمح قوله تعالى : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمان خروا سُجَّدًا وَبُكِيًّا » (١) وقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً ، تتشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلتين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » (٢) .

وقول صالح بن مُسَرِّح (٣) : « وولى من بعده عثمان ، فبرىء الله منه ورسوله وصالح المؤمنين » .

وهذا قريب من قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » (٤) ، وقوله تعالى : « وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » (٥) .

٣ — ومن هذا في خطب الزبيرين قول عبد الله بن الزبير في رثاء الحسين (٦) « أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه ، كثيراً بالنهار صيامه » .

وهذا قريب من قوله تعالى : « يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً » (٧) .

وقوله في رثاء أخيه مصعب (٨) : « فإن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه » .

فهو شبيه بقوله تعالى : « وإن يكذبوك فقد كُذِّبَتْ رسل من قبلك ، وإلى الله ترجع الأمور » (٩) .

### وهنا ظاهر تارة تسريع عبارته إلى نظار :

الظاهرة الأولى أنه يكثر الاقتباس في خطب الخوارج والشيعة والزبيرين ، ويقل في خطب الأمويين ، ما عدا الحجاج لأنه كان يحفظ القرآن ويعلمه .

فهل كان السبب في ذلك أن الأمويين خلفاء وولاة وقوادا أقل حفظاً للقرآن كله أو بعضه من الشيعة والخوارج والزبيرين ؟

---

(١) سورة مريم ٥٨	(٢) سورة الزمر ٢٣	(٣) الخطبة ٤
(٤) سورة براءة ١	(٥) سورة التحريم ٤	(٦) الخطبة ٢
(٧) سورة المزمّل ١	(٨) الخطبة ٣	(٩) سورة فاطر ٤



أو كان سبب ذلك أن بني أمية لم يقيموا ملكهم على أساس دين يعتمدون عليه في استحقاق الخلافة ، على حين أن الأحزاب الأخرى أقامت دعواها على أسس دينية ؟ .

وأما الظاهرة الثانية فهي أن الاقتباس من القرآن الكريم كان في العصر الأموي أكثر من صدر الإسلام . فلماذا ؟

لعل من أسباب ذلك أن القرآن الكريم لم يكن في صدر الإسلام يحفظ كما حفظ في العصر الأموي ، لأن المعروف أن الرجل كان في صدر الإسلام يحفظ الآيات ليتلوها في الصلاة ، وقل في ذلك العصر من حفظ سورة أو عدة سور طوال ، يدل على هذا قول أنس بن مالك : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا أما في العهد الأموي ، فقد انتشر القرآن ، وكثر حفظه ، إذ كان عثمان قد كتب المصاحف ، ووزعها في الأمصار ، وجاء بنو أمية فنشروا منها نسخا كثيرة ، فسهل على المسلمين أن يقرءوا ، وأن يحفظوا .

ثم إن الجهاد شغل المسلمين في صدر الإسلام ، فلما كان العهد الأموي هدأت الفتوح ، وفرغ كثير من المسلمين لتلقي العلم ، فكان ابن عباس بمكة ، وزيد ابن ثابت بالمدينة ، وغيرهما في الأمصار ، يعلمون الناس ، ويفسرون لهم القرآن .

وقد كان للوعاظ الذين رتبهم معاوية ومن بعده — ليعظوا الناس في المساجد ، ويقصوا عليهم — أثر آخر في حفظ القرآن والحديث الشريف

وشيء آخر ، أن المسلمين في صدر الإسلام لم تكن الفرص متاحة لهم ليتشربوا معاني القرآن ، ويمهروا في الاقتباس منه ، لأن العهد قصير من ناحية ، ولأن الدفاع عن النفس والعقيدة مشغله من ناحية ثانية ، ولأن تشرب القرآن يحتاج إلى وقت من ناحية ثالثة .

## الاستشهاد بالشعر

نلاحظ أن الخطباء أكثروا من الاستشهاد بالشعر ، أو اقتبسوا من معانيه وعباراته ، إذ كان الشعر من ثقافتهم الأصلية ، وكان تأثيره في نفوس الناس بعيد المدى ، ثم إن الشعر والخطابة معاً يتشابهان في الاستمالة ، وتأيد الدعاوى . نجد هذا في خطب الأحزاب كلها .

نجد في خطبة علي بن أبي طالب<sup>(١)</sup> ، وفي خطبة الحجاج بالكوفة إذ استشهد بشعر رؤيشد العنبري وسُحيم الرياحي<sup>(٢)</sup> ، وفي خطبة عبد الملك بن مروان إذ استشهد في خطبته بعد قتل مصعب بشعر قيس بن رفاعة<sup>(٣)</sup> ، كذلك استشهد عبدالله بن الزبير في خطبته بمكة والحجاج يحاصره بهذين البيتين<sup>(٤)</sup> .

أبي لا بن سلمى أنه غير خالد      مُلاقٍ المنايا أيَّ صرف تيمُّما  
فلستُ بمبتاع الحياة يُسبِّة      ولا مُرتقى من خشية الموت سُلمًا

ثم استلم الحجر ، فتكاثروا عليه ، فحمل عليهم وهو يقول :  
قد سن أصحابك ضرب الأعناق      وقامت الحرب بنا على ساق  
فأصابه حجر ، فصك جبينه ، فأدماه فقال :

ولسنا على الأعقاب تدعى كلومنا      ولاكن على أقدامنا تقطر الدما<sup>(٥)</sup>  
ولم يقف استشهادهم بالشعر عند الخطابة ، بل تعداها إلى المحادثة .

(١) من خطب الشيعة ١

(٢) تهذيب الكامل ٧٠/١ (٣) الأمل ١٣/١

(٤) تاريخ الطبري ٢٠٤/٧ ومروج الذهب ١٢٤/٢

(٥) مروج الذهب ١٢٤/٢

ففى وصية يزيد بن المهلب لابنه استشهاد بشعر أبى دُواد الإيادى (١)  
واستنشد عبد الملك أبا العباس الأعمى مديحه فى مصعب ، فاستغفاه ، وقال إنه  
رثاه لأنه كان صديقه ، ولأن هواه أموى . فقال عبد الملك : أنشدنى ما قلت فى الرثاء .  
فأنشده :

رحم الله مصعباً فلقـد ما ت كـريماً ورام أمراً جسيماً  
فقال عبد الملك : أجل ، لقد مات كريماً . ثم تمثل بقول الشاعر :

ولكنه رام الذى لا يرومها من الناس إلا كل حر معمم  
ولما جاء عبيد الله بن زياد برأس مصعب إلى عبد الملك ، تمثل ابن زياد بهذا  
البيت :

نعاطى الملوك الحقّ ما قسّطوا لنا وليس علينا قتـلهم بمحرم (٢)

## - ٩ -

### القياس

فى بعض الخطب منطق وقياس معتمد على الفطرة لا على الدرس والتعلم ؛ لأن  
خطباء العصر لم يكونوا قد اتصلوا بعلوم اليونان وفلسفتهم ومنطقهم ، حتى تبدو فى  
خطبهم مظاهر المنطق المدرس .

جاء فى خطبة للحسن بن على فى أصحابه وفى جند عبيد الله بن زياد الدين  
ذهبوا إليه ليقبضوا عليه (٣) ، ما يؤدى إلى هذا القياس : كل من رأى سلطاناً  
جائراً مخالفاً لأحكام الله وسنة رسوله ، فلم يقاومه بفعل أو قول ، فقد استوجب  
عقاب الله .

(٢) مروج الذهب ٢/١٢٠

(١) بلوغ العرب ٣/١٧٣

(٣) الخطبة رقم ٦ من الشيعة

وبنو أمية جاثرون عصاة مارقون من الدين ، فالثورة عليهم واجبة ، وأنا أول ثائر .

وجاء في خطبة زياد لما شرع يميل إلى معاوية (١) أنه نظر في أمور الناس بعد مقتل عثمان فوجدهم كالأضاحي ، يذبحون في كل عيد ، ووجد أن يوم الجمل وصفين قد فني فيهما خلق كثير جدا ، وأن المتحاربين قد زعم كل منهم أنه صاحب حق وتابع إمام ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة ، لكن الأمر ليس كذلك ، لأن الأمر مشكل . ثم انتهى من ذلك إلى أنه نظر في الأمر ، فوجد السلامة في البعد عن النزاع ، ووعد الناس أن يعمل ما يحمدون عاقبته .

والقياس بين في هذا ، كأنه قل : المتحاربون يوم الجمل وصفين زعموا أنهم على حق ، على حين أن الأمر مشكل ، والذين يواصلون الحرب بعد ذلك شأنهم كشأن هؤلاء ، فالسلامة إذاً في الكف عن الحرب والفتن .

وخطب الحجاج بعد أن قتل عبدالله بن الزبير ، وبعد أن رمى الكعبة سنة ٧٣ هـ ، فجاء مشاعر الناس أول الأمر ، وحاول أن يستميلهم إلى الإصغاء إليه ، فأنشأ على ابن الزبير ، ووصفه بأن من أحبار المسلمين ، ثم عقب على هذا بأنه طمع في الخلافة ، وحارب في سبيلها ، وتمرد على ولي الأمر ، فلم يعد من أحبار الأمة .

ثم برر الهجوم على مكة والبيت الحرام وقتل ابن الزبير بقوله إن ابن الزبير الثائر المتمرد احتذى بالحرم ، لكن احتماه بالحرم لم يحل بين الدولة وعقابه ، فقد كان آدم في الجنة ، ثم عصى ربه الذي خلقه وكرمه ، وأباح له جنته ، فأخرجه منها ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة . قال الحجاج :

« ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة ، حق رغب في الخلافة ، ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستسكن بحرم الله . ولو كان شيء مانعاً للعصاة ، لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة . »

والقياس واضح هنا بين حال ابن الزبير وحال آدم في البدء والنهاية .

(١) رقم ٧ من الأمويين .

# لفضل السّادس

## بواعث ازدهارها

جارت الخطابة الشعر في العصر الأموي ، وعلا شأنها ، إذ تناولت شئون الدولة العامة ، ومثلت السياسة أصدق تمثيل ، وكانت السلاح القوي الذي يعتمد عليه الساسة من الأحزاب المختلفة في الدعاية لأنفسهم ، واستمالة القلوب إليهم ، وتهديد الخارجين عليهم ، والجملة على خصومهم ومناوئتهم .

وقد نظاهرت الخطابة والشعر على تحقيق هذه الغايات ، غير أن الشعر كان من عمل الدعاة والأعوان ، أما الخطابة فكانت من عمل الساسة في أكثر الأحيان .

وكان طبيعياً أن تنهض الخطابة في هذا العصر ، لعدة أسباب ، أهمها :

— ١ —

### الأحزاب السياسية

تعددت الأحزاب السياسية ، وقامت دعاية كل منها على الخطابة ، إذ كان لكل حزب خطباء ، هم ألسنته الناطقة باسمه ، كما تبين من النماذج .

— ٢ —

### الحرية

كانت حرية الرأي والقول مكفولة ، فاستطاع الخطيب أن يجهر برأيه في الناس ، ولم يكن بدٌّ في ذلك العصر من كثرة الخطب ، لتلاحق الأحداث

وكثرتها من ناحية ، ولأن الخطابة وسيلة التأثير في الجماهير من ناحية ثانية ، إذ كانت تقوم مقام الصحافة والإذاعة في عصرنا الحاضر .

وقد سلت للناس حريتهم القولية لعدة أسباب .

السبب الأول أن معاوية مؤسس الدولة أعلن أنه يسوس الناس بالحلم وسعة الصدر والتجاوز عن المساواة القولية ، فهو القائل : « إن لم يكن إلا ما يشتفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبر أذني ، وتحت قدمي<sup>(١)</sup> » :

ولقد أسلفت في الحديث عن الشعر أمثلة من حمله على معارضيه والتهجمين عليه ، وأمثلة من حلم بعض خلفائه .

السبب الثاني أن الأحزاب كانت تنعم بحريتها الكاملة ، لأنها ليست في قبضة الحكومة ، وكيف لا يشعر بالحرية كاملة من يثور على الحكومة ، ويشن عليها الغارات ؟

وإذا كانت الحكومة قد حاربت الأحزاب ، فإن هذه الحروب كانت تؤثر في الخطابة وتفسح أمام الخطباء مجال المقال .

وكثيرا ما كانت الأحزاب في مواطن شتى ، وكثيرا ما كانت بنجوة عن عيون الحكام وسلطانهم .

السبب الثالث أن كثيرا من المنتسبين إلى الأحزاب لم يكن يرهب من إعلان رأيه ، وتجيئه الوالي أو الحاكم ، كما تجدد في خطبة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وفي خطبة عبد الله بن الزبير أمام معاوية حينما أراد البيعة لابنه يزيد .

ولم تكن هذه الشجاعة النفسية مقصورة على الزعماء أو المعتزبين ، فقد شهد أعرابي أمام معاوية بشيء كرهه ، فقال له معاوية كذبت يا أعرابي . فقال الأعرابي : الكاذب والله متزمل في ثيابك .

وحصب بعضهم المغيرة بن شعبة ، وهو يصعد المنبر واليامن قبل معاوية ، وتندد بعضهم بالحجاج لما صعد المنبر ، ومكث برهة لا يتكلم . ثم قال بعضهم له بعد سماع خطبته : إن صدقناك أرضينا الله ، وإن غششناك أغضبنا الله ،

(١) راجع خطبته بالمدينة .



ففضبك أهون علينا من غضب الله . وقال بعضهم لعبد الملك وهو يخطب :  
أتق الله .

— ٣ —

## الحروب والثورات

وكانت الحروب والثورات مذكية للخطابة ، فالقواد الفاتحون ذوو لسن  
يعتمدون عليه في تحميس جنودهم ، والقواد المقاومون للثورات ، وقادة الثورات ،  
كل منهم يتخذ الخطابة من سلاحه ، لهذا نجد كثيرا من الخطب موصولة  
بأحداث سياسية ومواقع حرية .

— ٤ —

## فصاحة العرب

وكان العرب في ذلك العصر ذوي حظ عظيم من المقدرة البيانية ، والبديهة  
المسقة ، والفصاحة المتوارثة ، فالمعروف أن العرب لم تكن سليقتهم في ذلك العصر  
قد فسدت ، والمعروف أنهم كانوا حراسا على لغتهم وأدبهم حفظا ورواية ، وكان  
الخلفاء والأمراء ينشئون أبناءهم في البادية لتكفل لهم التريية فيها منافع ، منها فصاحة  
القول . ولعل معاوية قد سبق إلى هذا إذ بعث ابنه يزيد إلى البادية عند أخواله بني  
كلب . مع أمه ميسون<sup>(١)</sup> .

ولما وجد عبد الملك أن ابنه الوليد يلحن قال : أضرب بالوليد حطبنا ، فلم ترسله  
إلى البادية .

وإذا كان داء اللحن قد دبّ إلى بعض الخطباء ، فإنه كان ضئيلا وقليلًا ، على أنه  
لم يفسد ملكة البيان وتدفق التعبير ، لأنه خطأ إعرابي نادر .

## تقدير الخطباء

وإذ كانت السياسة مشغلة العصر ، وكانت الخطابة من أعظم عدد السياسى ، ارتفع شأن الخطباء ، وزاحموا بمقدرتهم الخطابية أبناء الأشراف والسادة ، فلم تعد المناصب السكبار محبوسة على هؤلاء ، وبحسبنا أن نمثل بالحجاج وزياد . ويظهر أن نزعة العربى إلى الفخار بالسيف واللسان التى كانت فى الجاهلية ، مازالت عظيمة السلطان فى هذا العصر ، يدل على ذلك أن يزيد بن معاوية امتنَّ على زياد بقوله : لقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى عز قريش ، ومن عبَّيد إلى أبى سفيان ، ومن القلم إلى المنابر .

## - ٦ -

## أسباب أخرى

ثم إن الخطابة ازدهرت لأسباب أخرى . منها الجدل المحتدم بين الفرق الدينية ، وكثرة الوفود على الخلفاء والولاة ، وقيام بعض الوعاظ بالخطابة فى المساجد ووعظ الناس منذ نصبهم معاوية لهذا الغرض ، وإقبال البلغاء على القرآن الكريم يحفظون ويدرسون ويتذوقون ، ونماء الثقافة اللغوية والأدبية ، كما سيتبين فى عوامل ازدهار الكتابة ، وحسبى أن أذكر هنا أن خطب النبى وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى كانت مدونة مجموعة فى كتب (١) ، وأن أبا مسمار العسكلى (٢) مدح عامرا بروعة البيان فى خطبه ، وذكر أنه ليس ممن يسطون على خطب غيرهم المدونة فى الورق ، فيلفقون من كل خطبه فقرة ، فتجىء خطبهم كالثوب المرقع :

(١) البيان التبيين ١ / ٢٠١ . (٢) المرجع السابق ١ / ٣٣

لله دَرُّ عامر إذا نطق في حفل إِمْلَاك وفي تلك الحَلَق  
ليس كقوم يُعرَفون بالسَّرَق من خُطَب الناس ومما في الورق  
يُلفَقون القول تلفيق الخِرَق من كل نَصَّاح الذِّفَارَى بالعَرَق  
إذا رمته الخطباء بالحدَق<sup>(١)</sup>

وفي هذه دليل على أن بعض الخطب كانت مدونة ، وكان بعض الخطباء  
يحفظونها أو ينقلون منها .

---

(١) الإِمْلَاك : التزويج وعقد النكاح . الحلق : جمع حلقة وهي الجماعة من الناس :  
السرق : السرقة . الذفاري : بدن الخطيب ، وإنما ذكر خطب الإِمْلَاك لأنهم يذكرون أنه  
يعرض للخطيب فيها من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر .

# الفصل السابع

## الحوار

- ١ -

بين علي ورجلين قبل التحكيم

أتى رجلان [ زُرعة بن البرج الطائي وحررقوص بن زهير السعدي ] إلى علي بن أبي طالب قبل أن يتم التحكيم ، فدخلوا عليه ، وقالوا له :  
الرجلان : لا حكم إلا لله .

علي : لا حكم إلا لله .

حررقوص : تب من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا .

علي : قد أردتكم على ذلك فعصيتموني ، وقد كتبنا بيننا وبينهم كتابا ، وشرطنا شروطاً ، وأعطينا عليها عهدنا ومواثيقنا . وقد قال الله عز وجل ، « وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون » (١) .

حررقوص : ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه

علي : ما هو ذنب ، ولكنه عجزٌ من الرأي ؛ وضعف من الفعل ، وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ، ونهيتكم عنه .

زرعة : أما والله يا علي لنن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله عز وجل قاتلتك ، أطلب بذلك وجه الله ورضوانه

علي : بؤساً لك ، ما أشقاك ، كأى بك قتيلاً تسفى عليك الريح .

برج : وددت أن قد كان ذلك .

على : لو كنت مُحِقًّا كان في الموت على الحق تعزية عن الدنيا . إن الشيطان قد استهواكم ، فاتقوا الله عز وجل ، إنه لا خير لكم في دنيا تقاتلون عليها .  
فخرجوا من عنده مُحَكِّمَان<sup>(١)</sup>

— ٢ —

## بين ابن عباس والخوارج

تداول عبد الله بن عباس — نائباً عن علي بن أبي طالب — مع الخوارج هذا الحوار (٢) :

ابن عباس : ما الذي تقمتم على أمير المؤمنين ؟

الخوارج : قد كان للمؤمنين أميراً ، فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان ، فليتب بعد إقراره بالكفر نعدُّ له .

ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر .  
الخوارج : إنه قد حكم .

ابن عباس : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد ، فقال عز وجل « يحكم به ذوا عدل منكم »<sup>(٣)</sup> فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟

الخوارج : إنه قد حكم عليه فلم يرض .

ابن عباس : إن الحكومة كالإمامة ، ومضى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما .

(١) تاريخ الطبري ٤٠/٦ .

(٢) الكامل للمبرد ١٦٥/٣ .

(٣) سورة المائدة ٩٥ .

الخوارج بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم : « بل هم قوم خصمون »<sup>(١)</sup> وقال عز وجل فيهم : « وتندر به قوما لُدّا »<sup>(٢)</sup>

### — ٣ —

## بين معاوية وابن الزبير

قال معاوية لابن الزبير : تنازعني هذا الأمر كأنك أحق به مني .  
ابن الزبير : لم لا أكون أحق به منك يا معاوية ؟ وقد اتبع أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان ، واتبع الناس أباك على الكفر .  
معاوية : غلطت يا ابن الزبير ، بعث الله ابن عمي نبيا ، فدعا أباك فأجابه ، فما أنت إلا تابع لي ، ضالا كنت أم مهديا .

### — ٤ —

## بين معاوية وابن الزبير

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال<sup>(٣)</sup> .  
يا أمير المؤمنين ؛ لا تدعن مروان يرمي جواهر قريش بمشاقصه<sup>(٤)</sup> ؛  
ويضرب صفاتهم<sup>(٥)</sup> بمعموله . أما والله لو لامك أنك ، لكان أخف على رقابنا  
من فراشة ، وأقل في أنفسنا من خشاشة<sup>(٦)</sup> . وإيم الله لئن ملك أعنة خيل  
تلقاد له ، لتركبن منه طبعا<sup>(٧)</sup> تخافه .

(٢) سورة مريم ٩٧ .

(١) سورة الزخرف ٥٨ .

(٣) العقد الفريد ١١٥/٢ .

(٤) المشاقص : جمع مشقص على وزن منبر وهو النصل الطويل أو سهم فيه نصل طويل يرمى به الوحش .

(٥) الصفاة : الحجر الصلد والمراد أنه يضرب قواهم .

(٦) الخشاشة : الحشرة والعصفور ونحوهما . (٧) الطبق : الحال .



قال معاوية :

إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد طمع فيه مَنْ هو دونه ، وإن يتركه يتركه لمن فوقه . وما أراكم بمفتمين حتى يبعث الله عليكم من لا يعطف عليكم بقرابة ، ولا يذكركم عند مُلّة ، يسومكم خَسَفًا<sup>(١)</sup> ، ويسومكم عَسَفًا<sup>(٢)</sup> .

قال ابن الزبير :

إذا والله يُطْلَقُ عِقال الحرب بكتائب تَمُور<sup>(٣)</sup> كرجل<sup>(٤)</sup> الجراد ، حافاتها الأسل ، لها دوى كدوى الريح ، تنبع غطريفاً<sup>(٥)</sup> من قريش ، لم تكن أمة راعية ثلّة<sup>(٦)</sup> .

فقال معاوية :

أنا ابن هند ، أطلقت عِقال الحرب ، فأكلت ذروة<sup>(٧)</sup> السّنام ، وشربت عُنُوان المَكْرَع<sup>(٨)</sup> ، وليس للآكل بعدى إلا الفِلْذة<sup>(٩)</sup> ، ولا للشارب إلا الرّثق<sup>(١٠)</sup> .

— ٥ —

## بين معاوية والأحنف

تكلم الناس عند معاوية في يزيد ابنه ، حينما أخذ له البيعة ، وسكت الأحنف ابن قيس .

فقال له معاوية : مالك لا تقول يا أبا بجر ؟ .

قال : أخافك إن صدّقتُ ، وأخاف الله إن كذبت .

- 
- (١) يسومكم : يذلكم . (٢) يسومكم عسفا : يظلمكم . (٣) تمور : تضطرب .  
 (٤) رجل الجراد : جماعته . (٥) الفطريف : السيد العظيم .  
 (٦) الثلّة : جماعة الفم . (٧) ذروته : أعلاه ، المراد استمتع بأحسن شيء .  
 (٨) عنوان المكرم : أول ماء المورّد . (٩) الفلذة : القطعة من اللحم والكبد .  
 (١٠) الرثق : الكدر .

## بين معاوية وعقيل

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب : إن عليا قطعك ووصلتك ، ولا يرضى منك إلا أن تلغنه على المنبر . قال : أفعل .

وصعد المنبر وقال : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليا ، فآلعه ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين من لعنت . قال : والله ما زدت حرفا ، ولا نقصت آخر ، والكلام على نية المتكلم .

## بين معاوية وابن الطفيل

قال معاوية لابن الطفيل : أنت من قتلة عثمان ؟

ابن الطفيل . لا ، ولكني ممن حضره ، ولم ينصره .

معاوية : فما منعك أن تنصره ؟

ابن الطفيل : لم ينصره المهاجرون والأنصار ، فلماذا أنصره ؟

معاوية : لقد كان حقه واجبا ، وكان عليهم أن ينصروه .

ابن الطفيل : فما منعك من نصره يا أمير المؤمنين وأنت ابن عمه ؟

معاوية : أو ما طلبي بدمه نصرته له ؟

فضحك ابن الطفيل ، وقال : مثلك ومثل عثمان كما قال الشاعر (١) :

لَأَعْرِفَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْذُبُنِي      وَفِي حَيَاتِي مَا زُوْدَتْنِي زَادَا

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص . الأغاني ١٩/٨٩ .

## بين معاوية وابن عباس

اجتمع جماعة من قريش عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس — وكان كثير التحقير لمعاوية — فقال معاوية (١) :

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كانا صفيين<sup>(٢)</sup> دون الناس ، فحفظت الميت في الحى ، والحى في الميت .

استعملك على يا ابن عباس على البصرة ، واستعمل عبيد الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك على المدينة<sup>(٣)</sup> . فلما كان من الأمر ما كان ، هنأتكم<sup>(٤)</sup> على ما فى أيديكم ، ولم أكشفكم عما وعت غرائركم<sup>(٥)</sup> ، وقلت : آخذ اليوم وأعطى غدا مثله ، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم . ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم ، وقياً أنكم ما أكلتم .

لا يزال يبالغى عنكم ما تبرؤك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذلتكم عمان بالمدينة ، وقتلتكم أنصاره يوم الجمل ؛ وحاربتمونى بصفيين . ولعمري لبنوتيم وعدى<sup>(٦)</sup> أعظم ذنوباً منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسنؤافيكم هذه السنة . فحتى متى أغضى الجفون على القذى ، وأسحب الديول على الأذى ، وأقول : لعل وعسى . ما تقول يا ابن عباس ؟

فقال ابن عباس .

رحم الله أبانا وأباك ، كانا صفيين متفاوضين<sup>(٧)</sup> ، لم يكن لأبى من مال إلا

(٢) صفيين : صديقين

(١) العقد الفريد ٢/ ١١٠ .

(٣) لما خرج على للقاء طلحة والزبير وعائشة أمر على المدينة تمام بن العباس .

(٤) هنأتكم : المراد أقررتكم فى رضا . (٥) الغرائر : جمع غرارة وهى الجوالق .

(٦) بنوتيم : المراد أبو بكر لأنه من تيم بن مرة . بنو عدى : المراد عمر لأنه من

(٧) متفاوضين : متساويين مشتركين .

هدى بن كعب .

مافضل لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي . ولكن من هنا أباك بإخاء أبي أكثر  
من هنا أبي بإخاء أبيك ، نصرَ أبي أباك في الجاهلية ، وحقن دمه في الإسلام <sup>(١)</sup> .  
وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجلا لهواك  
لأنفسك ، منهم ابن الحضرمي على البصرة فقتل ، وبسر بن أرطاة طي اليمن  
فخان ، وحبيب بن مرة على الحجاز فرُدَّ ، والضحاك بن قيس الفهري على  
الكوفة فحُصِب .

ولو طلبت ما عندنا وقيننا أعراضنا ، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي  
يلغنا عنك ، ولو وضع أصغر ذنوبكم إلينا على مئة حسنة لمحقها ، ولو وضع أدنى  
عذرنا إليكم على مئة سيئة لحسناها .

وأما خذلنا هثمان ، فلو لزمنا نصره لنصرناه .

وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه .

وأما حرَبنا إياك بصيفين ، فعلى تركك الحق ، وإدعائك الباطل .

وأما إغراؤك إيانا بتييم وعدى ، فلو أردناها ماغلبونا عليها .

## بين معاوية وسودة

وفدت سودة بنت عمار بن الأشتر الهمدانية على معاوية وهو خليفة ،  
ودار بينهما حوار (٢) منه :

معاوية : كيف أنت يا ابنة الأشتر ؟

سودة : بخير يا أمير المؤمنين .

معاوية : أنت القائلة لأخيك يوم صفين :

(١) يوم فتح مكة شفع العباس عند النبي في أبي سفيان .

(٢) بلاغات الفساء ٣٥ والعقد الفريد ١/١٢٩

شمر كفضل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان ومُلَّتَقَى الأفران  
وانصر عليا والحسين ورهطه واقصِدْ لهند وابنها بهوان  
إن الإمام أخو النبي محمد علم الهدى ومنازة الإيمان  
فقد الجيوش وسِرْ أمام لوائه قُدُماً بأبيض صارم وسِنَان<sup>(١)</sup>  
سودة : إى والله ، ما مثلى من رغب عن الحق ، أو اعتذر بالكذب

. . . . .

مساوية : قولى حاجتك .

• سودة : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيذا ولأمورهم متقلداً ، والله  
سائلك عن أمرنا ... هذا ابنُ أرطاة قدم بلادى ، وقتل رجالى ، وأخذ مالى ،  
ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فإما عزَّئِلْتَهُ عنا فشكرناك ، وإما لا فعرفناك ،  
معاوية : إياى تهديدن بقومك ؟ والله لقد هممت أن أحملك على قَتَبِ  
أشرس (٢) ، فأردك إليه . فأطرقت تفكر ... ثم أمر بأن يكتب لها بإنصافها  
وإنصاف قومها .

### بين عبد الملك وخالد بن يزيد

قال عبد الله بن يزيد بن معاوية لأخيه خالد : يا أخى ، لقد هممت اليوم أن  
أفتك بالوليد بن عبد الملك .

قال خالد : بشئ والله ما هممت به فى ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين .

قال عبد الله : إن خيلى مرت به فعبث بها وأصغرنى .

قال خالد : أنا أكفيك .

(١) قدما : شجاعا . أبيض صارم : سيف قاطم . سنان : رمح .

(٢) . القتب : ما بوضع على السنام ، والمراد هنا البعير . أشرس : غليظ خشن .

ثم دخل خالد على عبد الملك والوليد عندده فقال :

يا أمير المؤمنين ، مرت بالوليد خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد ، فعبث بها وأصغره . وكان عبد الملك مطرقا ، فرفع رأسه وقال : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » (١) .

قال خالد . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » (٢) .

قال عبد الملك : أفي عبد الله تكلمني ؟ والله لقد دخل عليّ فما أقام لسانه لحنا .

خالد : أفعلى الوليد تعمول ؟

عبد الملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان .

خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد .

الوليد : اسكت يا خالد ، فوالله ما تمدد في العير ولا في النفير .

فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين ، ومن في العير والنفير غيري ؟ جدّي

أبو سفيان بن حرب صاحب العير ، وجدّي عتبة بن ربيعة صاحب

النفير (٣) ، ولكن لو قلت : غنيمات وحبيلات والطائف ورحم الله عثمان (٤)

لقلنا صدقت .

## بين ابن الزبير وأمه

لما حاصر الحجاج مكة ، وضيق الحصار ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة

(١) سورة النمل ٣٤ (٢) سورة الإسراء ١٦

(٣) كان أبو سفيان زعيم القافلة القادمة من الشام ، التي ترصدها المسلمون . وكان عتبة

زعيم قريش التي وفدت من مكة لتتخذ القافلة .

(٤) نفي النبي صلى الله عليه وسلم الحکم بن أبي العاص وأهله من المدينة ، لأنه كان

جاره في مكة وكان يؤذيه ، فذهب إلى الطائف ، وشفع فيه عثمان عند النبي فلم يعبده ، ثم

شفع فيه عند أبي بكر فرفض ، ثم عند عمر فزجره . فلما كانت الخلافة لعثمان رده ورد أهله

وأكرمه وأكرم أولاده .



انفض عن عبد الله بن الزبير كثير من أنصاره ، فدخل على أمه أسماء بنت أبي بكر - وقد بلغت مائة سنة - فدار بينهما هذا الحوار (١).

ابن الزبير . يا أمه ، خذني الناس ، حتى ولدي وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني هأردت من الدنيا ، فما رأيك ؟

أسماء : أنت والله يا بني أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلكك نفسك ، وأهلكك من قتل معك ، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن .

فدنا ابن الزبير ، فقبل رأسها ، وقال : هذا والله رأيي ، والذي قتت به داعيا إلى يومى هذا . ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، ومادعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستعمل حرمه ، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتني بصيرة مع بصيرتي ، فانظري يا أمه ، فإنى مقتول من يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمى لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكرك ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يجز في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربى . اللهم إني لا أقول هذا تزكية منى لنفسى ، أنت أعلم بى ، ولكن أقوله تعزية لأمتى لتسلو عني .

أسماء : إني لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا إن تقدمتني ، وإن تقدمتك ففي نفسي أخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك .

ابن الزبير : جزاك يا أمه خيرا ، فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد .

أسماء لا أدعه أبداً ، فمن قُتل على باطل فقد قُتِلَ على حق . اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة ، وبرّه بأبيه وبى . اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين .

— ١٢ —

## بين الحجاج وبشر

ولما قتل المهلب بن أبي صفرة ابن عبد ربه بن الصغتر بكرمان ( زعيم فرقة من الأزارقة انشقت على قطري ) . طلب رجلاً له بيان وعقل ومعرفة ، ليوجه إلى الحجاج برءوس القتلى ، فدلوه على بشر بن مالك الجرشي . فلما دخل بشر على الحجاج دار بينهما هذا الحوار (١) .

الحجاج : ما اسمك ؟

بشر : بشر بن مالك الجرشي .

الحجاج : كيف تركت المهلب ؟

بشر : تركته صالحاً ، نال ما رجا ، وأمن ما خاف .

الحجاج : فكيف فاتكم قطري ؟

بشر : كادنا من حيث كدناه .

الحجاج : أفلا طلبتموه ؟

بشر : كان الحسد أهم علينا من القتل (٢)

الحجاج : أصبتم فكيف كان بنو المهلب ؟

بشر : كانوا أعداء البيات حتى يأمنوا ، وأصحاب الشرج حتى

يردوا (٣) :

(١) مروج الذهب ١٤٨/٢ .

(٢) يريد أنهم هزموه وتركوه حياً حانقاً حاسداً وهذا أقتل له .

(٣) لا ينامون إلا إذا أمّنوا ، ويركبون خيولهم حتى يردوا المعركة .

الحجاج : فأيهم أفضل ؟

بشر : ذاك إلى أبيهم ، أيهم شاء أن يستكفيه أمرا كفاء .

الحجاج : إني أرى لك عقلا ، فقل .

بشر : هم كالحلقة المستوية لا يذرى أين طرَفُها .

الحجاج : أين هم من أبيهم ؟

بشر : فضله عليهم كفضلهم على سائر الناس .

الحجاج : كيف كان الجند ؟

بشر : أرضاهم الحق ، وأشبههم الفضل ، وكانوا مع وال يقاتل بهم

مقاتلة الصعلوك (١) ، ويسوسهم سياسة الملوك ، فله منهم بر الأولاد ، ولهم منه شفقة الوالد .

الحجاج : هل كنت هيأت ما أرى ؟

بشر : لا يعلم الغيب إلا الله .

فالتفت الحجاج إلى عنبسة ، فقال : هـذا الكلام المخلوق ، لا الكلام

المصنوع (٢) .

## — ١٣ —

### بين الحجاج والغضبان

حبس الحجاج الغضبان بن القَبْعَثَرِي ، لأنه كان يظاهر ابن الأشعث ، ثم

بنى خضراء واسط ، وجلس في صحنها يوما ، واستدعى الغضبان ليحاوره ،

فجاء يرسف في قيوده ، ودار بينهما هذا الحوار (٣) :

الحجاج : أراك يا غضبان ممينا .

---

(١) الفتى الشجاع السلاب ، وكان هذا معنى الكلمة ، ثم تطور .

(٢) أى هذا كلام الفطرة والطبع لا كلام الصنعة .

(٣) مروج الذهب ٢/١٤٦

الغضببان : أيها الأمير ، القيد والرَّثْعَةُ<sup>(١)</sup> ، ومن يكن ضيف الأمير يسمن .

الحجاج : كيف ترى قُبَّتِي هذه ؟

الغضببان : أرى قبة ما بنى لأحد مثلها ، إلا أن بها عيباً ، أُمْنِنِي الأمير أخبرته به .

الحجاج : قل ، آمناك .

الغضببان : بَذَيْتَ في غير بلدك ، لغير ولدك ، لا تتمتع به ، ولا تنعم ، فليس لما لا يُتَمَتَّعُ به من طيب ولا لذة .

الحجاج : ردوه ، فإنه صاحب الكلمة الحبيثة<sup>(٢)</sup> .

الغضببان : أصلح الله الأمير ، إن الحديد قد أكل لحمي ، وبري عظمي .  
الحجاج : احموه .

فلما استقل به الرجال قال : الحمد لله الذي سَخَّرَ لنا هذا وما كنا له مُقَرَّنِينَ<sup>(٣)</sup> .  
قال الحجاج : أنزلوه .

فلما استوى على الأرض قال : اللهم أنزلي منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين<sup>(٤)</sup> .  
قال الحجاج : جروه .

فلما جروه قال : باسم الله مجراها ومرساها ، إن ربِّي لغفور رحيم<sup>(٥)</sup> .  
قال الحجاج : أطلقوه .

## بين الحجاج وخارجية

أتى الحجاج بامرأة من الخوارج ، فقال لأصحابه : ما تقولون فيها ؟ قالوا :

(١) الرثعة . السعة والخصب .

(٢) كان الغضببان قد قال لابن الأشعث : تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك ، وخطب بمعاب

الحجاج والبراءة منه . (٣) سورة الزخرف ١٣ .

(٤) سورة المؤمنون ٢٩ . (٥) سورة هود ٤١ .

عاجلها بالقتل . قالت : لقد كان وزراء صاحبك خيراً من ورائك . قال لها :  
ومن صاحبي ؟ قالت : فرعون ، استشارهم في موسى ، فقالوا أرجه وأخاه .

### بين الخوارج وجند المهلب

بعد أن اقتتل الأزارقة والمهلب أشد القتال ثمانية أشهر ، علم الخوارج أن  
مصعب بن الزبير قتل قبل أن يعلم جيش المهلب ، فدار بينهم هذا الحوار (١) :

الخوارج : ألا نخبروننا ما قولكم في مصعب ؟

جند المهلب : إمام هدى .

الخوارج : فهو وليكم في الدنيا والآخرة .

جند المهلب . نعم

الخوارج : وأنتم أولياؤه أحياء وأمواتا .

جند المهلب : نعم نحن أولياؤه أحياء وأمواتا .

الخوارج : فما قولكم في عبد الملك بن مروان ؟

الخوارج : ذلك ابن اللعين ، نحن إلى الله منه براء ، هو عندنا أحل  
دماً منكم .

الخوارج : فأنتم منه براء في الدنيا والآخرة .

جند المهلب : نعم كبراءتنا منكم .

الخوارج : وأنتم له أعداء أحياء وأمواتاً .

جند المهلب : نعم نحن له أعداء كعداوتنا لكم .

---

(١) تاريخ الطبري ١٩١/٧ كان المهلب حينئذ تابعاً لمصعب .

الخوارج : فإن إمامكم مصعباً قد قتله عبد الملك ، ونراكم مستجعلون غدا  
عبد الملك إمامكم ، وأنتم الآن تتبرءون منه وتلعنون أباه .  
جند المهلب : كذبتُم يا أعداء الله .

فلما كان الغد تبين لجند المهلب أن مصعباً قتل ، فبايعوا المهلب لعبد الملك بن مروان ،  
فأنتهم الخوارج .

الخوارج : ما تقولون في مصعب

جند المهلب : يا أعداء الله لا تخبركم ما قولنا فيه .

وكرهوا أن يكذبوا أنفسهم

الخوارج : فقد أخبرتمونا أمس أنه وليكم في الدنيا والآخرة ، وأنكم  
أولياؤه أحياء وأمواتاً ، فأخبرونا ما قولكم في عبد الملك ؟

جند المهلب : ذاك إمامنا وخليفتنا .

ولم يجدوا إذ بايعوه بداً من أن يقولوا هذا القول .

الخوارج : يا أعداء الله ، أنتم أمس تبرءون منه في الدنيا والآخرة ،  
وتزعمون أنكم له أعداء أحياء وأمواتا ، وهو اليوم إمامكم  
وخليفتكم ، وقد قتل إمامكم الذي كنتم تولونه ، فأيهما الحق ؟  
وأيهما المهتدى ؟ وأيها الضال ؟

جند المهلب : يا أعداء الله ، رضينا بذلك إذ كان ولي أمورنا ، ونرضى بهذا كما  
رضينا بذلك .

الخوارج : لا والله ، ولكنكم إخوان الشياطين ، وأولياء الظالمين ،  
وعبيد الدنيا .



## بين زيد بن علي وهشام بن عبد الملك

كان سبب خروج زيد بن علي زين العابدين علي هشام بن عبد الملك أنه دخل على هشام ، فلم يجد موضعا يجلس فيه ، فجلس حيث انتهى به المجلس ، ودار هذا الحوار :

زيد : يا أمير المؤمنين ، ليس أحد يكبر عن تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله .

هشام : اسكت لا أم لك . أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة ، وأنت ابن أمة .  
زيد : يا أمير المؤمنين أن لك جوابا إن أحبيت أجبتك به ، وإن أحبيت أسكت عنه .

هشام : بل أجبت .

زيد : إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات .

وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم إسحاق ، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا ، وجعله للعرب أبا ، فأخرج من صلبه خير البشر محمدا صلى الله عليه وسلم . أفقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي . وقام وهو يقول :

شَرَّده الخوف وأزرى به	كذلك من يكره حرَّ الجلال
مُنْخَرِقُ الكفين يشكو الجوى	تنكته أطراف مرو حداد
قد كان في الموت له راحة	والموت حتم في رقاب العباد
إن يحدث الله له دولة	يترك آثار العدا كالرماد

ومضى إلى الكوفة ، وخرج عنها ؛ ومعه القراء والأشراف ، وقاتل أشد قتال ، وانتهى الأمر بقتله (١) .

(١) مروج الذهب ٣/١٨٢ .

## خواص الحوار

— ١ —

المحاورات نثر شفهي ذاع في العصر الأموي ، نتيجة لكثرة الأحزاب السياسية والمذاهب الدينية واختلاف الآراء ، وتأثرا بالحرية القولية التي كان يشعر بها المختلفون في الرأي أكثر الأحيان ، وثمرات المقدرة اليبانية ، والبديهة المسعفة . وهو يشبه المفاخرات والمنافرات التي كانت في الجاهلية ، من حيث قيامها كلها على الحرية والجرأة وبراعة البيان .

— ٢ —

وهذا النوع من النثر يعتمد على مواتاة البديهة وإسعاف الخاطر أكثر من اعتماده على الروية والتأنق ، لأنه في أكثر حالاته وليد الساعة ، وعفو البديهة ، فلا فرصة فيه للتعبير والتجويد والتنميق .

— ٣ —

أرجع أن بعض الحوار منحول موضوع ، نحله المشايخون لحزب على حزب ، تأييدا لمذهبهم ، ودعاية إليه في مهارة ولباقة ، لأنهم كسوه لباس الواقع ، وساقوه مساق التاريخ ، ليكون تأثيره في النفوس أعظم ، وتأييده للمذهب أقوى وأوضح .

١ — تجد هذا واضحا في حوار دار بين معاوية وعبد الله بن عباس ، (١) إذ تحدث معاوية عن ماض ربط أباه بالعباس ، وتحدث عن مصانفته لعبد الله وأخويه ، ثم لام عبد الله على نكران الجليل ، وأنكر عليه وعلى بني هاشم رضاهم بخلافة أبي بكر وعمر .

ثم رد عليه عبدالله ، ففند دعاواه كلها تفنيداً في تفصيل وترتيب .

والذي يبعث الشك في صحة هذا الحوار أنه أشبه بالخطب في طوله واسترسال قائله وسرد دعاويه ، وأن الرد مرتب ترتيب الكاتب لا ترتيب المحاور .

٢ — تذكر بعض كتب الأدب والتاريخ عددا من النساء وفدن على معاوية ، فعاورهن وحاورنه .

وأرجح أن هذا من اختلاق الشيعة ، لأن هؤلاء الوافدات كلهن يوصفن بحب على ومناصرتة ، ويصررن أمام معاوية على مذهبن ، بل إن بعضهن يجهرن بتفضيل على على معاوية ، وهو يلقي إليهن سمعه ، ثم ينتهى الحوار بعفو معاوية عنهن ، وردهن إلى أوطانهن مكرمات .

وهناك أمر آخر يزيدنى شكاً فى صحة هذا الحوار ، هو أن بعض النساء اللاتى وفدن على معاوية سألهن معاوية عما قلن فى إثارة الناس عليه يوم صفين ، فاعتذرن بأنهن نسين ما قلنه ، وإذا برجل من الجالسين يعلن أنه مازال يحفظ قولهن ، فيطلب منه معاوية أن يذكره ، كأنما قد حفظه وأعده ، فلا تنكر المرأة شيئاً مما نسب إليها ، فكيف يحفظ غيرها ما قالت وتنساه ؟

على أن الشك القوى فى صدق ما روى من هذا الحوار لا يمنع من التمثيل له (١)

## — ٤ —

وأبرز ما يميز المحاورات عدة خواص :

١ — اعتمادها على الإيجاز ، ولقد يجمع بعضها إلى الإيجاز قوة العبارة والمهارة فى التصوير ، كما ترى فى أجوبة بشر للحجاج (٢) . حتى لقد ظن الحجاج أن بشراً قد أعد أجوبته من قبل .

٢ — قلب حجة الخصم حجةً عليه ، كما ترى فى محاوراة معاوية وعبد الله ابن الزبير (٣) ، وفى حوار ابن عباس ومعاوية (٤) ، وفى محاوراة عبد الملك لحاكم ابن يزيد (٥) .

٣ — التعريض ، كما تجد فى قول ابن الطفيل لمساوية : مثلك ومثل عثمان كما قال الشاعر :

لا أعرفنك بعد الموت تنذبنى      وفى حياتى مازودتنى زادا (٦)

(١) رقم ٨      (٢) رقم ١١      (٣) رقم ٢      (٤) رقم ٦

(٥) رقم ٩      (٦) رقم ٥

(م ٢٥ — الأدب السياسى )

وكما تجدد في قول معاوية لعبد الله بن الزبير بعد أن حذره ابن الزبير مروان بن الحكم وطعمه في الخلافة :

إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد طمع فيه من هر دونه (١) .

٤ — حسن التخلص ، كما تخلص الأحنف من معاوية بقوله : أخافك إن صدقت ، وأخاف الله إن كذبت (٢) ، وكما تخلصت المرأة الخارجية من الحجاج (٣) ، وكما تخلص عقيل من لعن أخيه على (٤) .

• — الردُّ بالمثل وبالتمثيل والاستدلال بالأولوية ، كما في رد ابن الطفيل على معاوية ، إذ اعتذر عن تخليه عن نصرة عثمان بأن المهاجرين والأنصار لم ينصروه (٥) .

وكما في محاوراة خالد بن يزيد لعبد الملك (٦) ، ومحاوراة معاوية وعبد الله ابن عباس (٧) .

٦ — قلب الأوضاع قلباً فكهياً ، كما ترى في آخر حوار الغضبان مع الحجاج ، إذ أمر بحمله ، فلما حملوه قال : الحمد لله الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له مُقَرَّنِينَ .

فقال الحجاج : أنزلوه . فلما أنزلوه قال : اللهم أنزلى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين

فقال الحجاج : جُرُّوه . فلما جروه قال : باسم الله مُجَرَّأها ومُرْسأها إن ربي لغفور رحيم (٨) . وهذه كلها آيات قرآنية .

وقد قلب الأوضاع قلباً مبنيًا على التعريض لا على التصريح ، كما في حوار عقيل ومعاوية (٩) إذ أراد معاوية من عقيل أن يلعن علياً ، فلعن عقيل معاوية بطريق خفي .

على أن الحوار الواحد قد يصطبغ بصبغة واحدة من هذه الخواص ، وقد يصطبغ باثنتين أو أكثر ، فحوار عقيل ومعاوية صالح لأن يكون من القلب ، ولأن يكون من حسن التخلص .

(١) رقم ٧	(٢) رقم ٣	(٣) رقم ١٣	(٤) رقم ٤
(٥) رقم ٥	(٦) رقم ٩	(٧) رقم ٦	(٨) رقم ١٢
			(٩) رقم ٤

# الباب الرابع

## الكِنَائَةُ

### الفصل الأول

#### رسائل أموية

- ١ -

#### من معاوية إلى علي

كتب معاوية إلى علي (١)

« أما بعد ، فلو علمنا أن الحرب تَبْلُغُ بنا وبك ما بَلَغَتْ ، لم يَجْتَنِها بعضنا على بعض . وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا ، فقد بقي لنا منها ما نرد به ما مضى ، ونصلح به ما بقي .

وقد كنت سألتك الشام ، على ألا تلزمني لك طاعة ، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس ، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف .

وقد والله رَقَّتْ الأجناد ، وذهبت الرجال . ونحن ابنو عبد مناف ، وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز ، وَيُسْتَرْقَ به حُر . والسلام » .

يحاول معاوية في رسالته هذه أن يترضى عليا ، وأن يستميله ، فيأسف على ما حدث بينهما من حرب ، ويعلم أن الحرب أفنت الرجال ، وأضعفت الأحياء ، ويدعو إلى الصلح وتحكيم ما بقى من عقل : ويكرر ما طلبه من قبل وهو أن يترك له على الشام ، معتمدا على شيئين : أن كلا منهما حريص على سلامة نفسه وسلامة جنده ، وأنهما متكافئان في الحسب فلا فضل لأحدهما على الآخر .

٢ — أسلوب الرسالة مرسل ، موجز ، لا تنميق فيه ولا خيال .

## — ٢ —

### من معاوية إلى زياد

كتب معاوية إلى زياد (١) يحجب إليه أن يناصره ، ويذكره بإنعامه عليه في تعميم لاتخصيص ، وهو ينوى أن يلحق نسبه بأبي سفيان ، ويهدده بأنه لن يستطيع الإفلات من سلطانه ، ويأمره بأن يأخذ البيعة له ، ليحقن دمه ، وإلا انتقم منه شر انتقام .

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن عبيد . أما بعد ، فإنك عبد قد كفرت النعمة ، واستدعيت النقمة . واقد كان الشكر أولى بك من الكفر ، وإن الشجرة لتضرب بعرقها ، وتتفرع من أصلها .

لا أم لك ، بل لأباً لك . فقد هلك وأهلك ، وظننت أنك تخرج من قبضتي ، ولا ينالك سلطاني . هيات ، ما كل ذي لب يصيب رأيه ، ولا كل ذي رأى ينصح في مشورته ، أمس عبدٌ ، واليوم أمير . خِطَّةٌ ما ارتقاها مثلك يا ابن ممية (٢)

(١) كان زياد كاتب الحساب على البصرة لولائها في عهد عمر وعثمان ، وكاتب الخراج على البصرة لعبد الله بن عباس أيام علي . وقد أمر على عبد الله أن يستشير زيادا ويجمع منه . فلما غاضب ابن عباس عليا وترك البصرة حل زياد محله في ضبط أمورها . ولما قتل على انتقل زياد إلى فارس واعتصم بقلعة هناك والتف حوله الناس إليه أن استماله معاوية والحقه بنسب أبي سفيان ( الطبري ٥ / ٢٢٤ )

(٢) سمية : اسم امه .



وإذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأسرع الإجابة ، فإنك  
إن تفعل قدمك حَقَقْتَ ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش (١) ،  
ونلتك بأهون سَعَى

وأقسم قسماً مبروراً ألا أوتى بك إلا في زمارة (٢) ، ثمشى حافياً من أرض فارس  
إلى الشام ، حتى أقبعك في السوق ، وأبيعك عبداً ، وأردك إلى حيث كنت فيه  
وخرجت منه ، والسلام» (٣)

١ — الرسالة ملأى بالسب والتهديد والتعير .

٢ — بها تشبيه ضمني في قوله : « إن الشجرة لتضرب بعرقها ... » وكناية  
في قوله : « اختطفتك بأضعف ريش » .

٣ — أسلوبها مرسل ، جزل ، يمثل عاطفة الغضب ، والعزم على الانتقام .

— ٣ —

## من زياد إلى معاوية

فرد زياد فقال : (٤) :

« أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك يامعاوية ، وفهمت ما فيه ، فوجدتك  
كالفریق ينفطيه الموج فيتنسبُ بالطحلب (٥) ، ويتعلق بأرجل الضفادع ،  
طمعاً في الحياة . إنما يكفر النعم ويستدعي النقم من حاد (٦) الله (٦) ورسوله ،  
وسعى في الأرض فساداً .

فأما سبك لي فلولا حلم ينهاني عنك ، وخوفي أن أدعى سفيهاً ، لأثرتُ  
لك عغازي لا يغسلها الماء . وأما تعبيرك لي بسمية ، فإن كنت ابن سمية فانت  
ابن حمامة (٧) .

(١) أخذتك بأيسر قوة (٢) زمارة : جمع يزمر بك للتشهير .

(٣) شرح نهج البلاغة ٦٨/٤ (٤) شرح نهج البلاغة ٦٨/٤

(٥) الطحلب : خضرة تعلو الماء الأسن (٦) حاد : عصي وعادى

(٧) سمية أم زياد . حمامة : جدة معاوية أم أبيه ، وقالوا إنها كانت بنيا في الجاهلية .

وأما زعمك أنك تختطفني بأضعف ريش ، وتتناولني بأهون سمي ، فهل رأيت بازياً<sup>(١)</sup> يُقرّعه صغير القنابر ؟ أم هل سمعت بذئب أكله خروف ؟ فامض الآن لطبيتك ،<sup>(٢)</sup> واجهد جُهدك ، فلست أنزل إلا بحيث تكره ، ولا أجتهد إلا فيما يسوؤك ، وستعلم أينما الخاضع لصاحبه ، الطالع إليه . والسلام .

١ - هنا ألوان من التهديد يقابل بها زياد تهديد معاوية له ، وفي الرسالة رد على السباب بمثله .

٢ - في الرسالة خيال : تشبيه في قوله : « وجدتكم كالفریق ... » وتشبيه ضمنى في قوله : « هل رأيت بازياً ... » وكناية في قوله : « مخازى لا يغسلها الماء » .

٣ - وفيها اقتباس من القرآن الكريم : « من حاد الله ورسوله ، وسعى في الأرض فساداً »<sup>(٣)</sup> .

٤ - وهي كسابقتهما في الترسل والجزالة وقوة العاطفة .

- ٤ -

## من معاوية إلى زياد

رد معاوية على زياد بهذا الكتاب :

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان ... »

كانك لست أخى ، وليس صخر بن حرب أباك وأبى . وشتان ما بيني وبينك ، أطلب بدم أبى العاص (٤) وأنت تقاتلنى .

(١) البازى : الصقر

(٢) امض لسبيلك

(٣) « لا تعبد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله رسوله » سورة

المجادلة ٢٢ « ويسعون فى الأرض فساداً » سورة المائدة ٦٤ .

(٤) عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية .

ولكن أدركك عرقُ الرخاوة من قِبَلِ النساءِ ، فكنت كشاركةٍ يعضها بالمرء  
ومُلَحِفَةً يعض أخرى جناحها .

وقد رأيت أن أعطف عليك ، ولا أؤاخذك بسوء سعيك ، وأن أصل رحمك ،  
وأبتغي الثواب في أمرك .

فاعلم يا أبا المفيرة أنك لو خُضَّتَ البحر في طاعة القوم ، فتضربَ بالسيف  
حتى ينقطع مَتْنُهُ ، لما ازددت منهم إلا بعدا ، فإن بنى عبد شمس أبغض إلى بنى  
هشام من الشُّفَرَةِ <sup>(١)</sup> إلى الثور الصريع ، وقد أوثق للذبح .

فارجع — رحمك الله — إلى أصلك ، واتصل بقومك ، ولا تكن كالوصول  
يطير بريش غيره ، فقد أصبحت ضال النسب . ولعمري ما فعل بك ذلك  
إلا الأجاج <sup>(٢)</sup> ، فدهه عنك ، فقد أصبحت على يَدَنَةٍ من أمرك ، ووضوح  
من حُجَّتِكَ . فإن أحببت جانبي ووثقت بى ، فأمره بأمره ، وإن كرهت جانبي  
ولم تثق بقولى ، ففعل به جميل . لا على ولا لى والسلام <sup>(٣)</sup> .

١ — وجد معاوية من زياد ، إصرارا على مخالفته ، فتذرع بالمكر والدهاء ،  
وأرسل إليه هذا الكتاب الرقيق المستميل .

وقد استهل الكتاب بتلقيب زياد بابن أبي سفيان ، وكان قد سماه  
في الكتاب السابق بابن عُبَيْدٍ ، ثم استعطفه بهذه الأخوة ، ولأمله لوما خفيفا على  
تخليه عن مشاركة أخيه في المطالبة بدم قريبهما عثمان ، ثم نقره من بنى هاشم ،  
بأنه أخاه معاوية أولى بالنصرة ، وبأنهم لن يقربوه مهما يبذل في مؤازرتهم  
من جهد وتأيد ، وعاد فاجتذبه إلى أن ينضم لأخيه ، ليكون أميرا في مملكته .  
ثم طالبه بأهون ما يأمله منه وهو أن يقف على الحياد إن لم ينضم إلى أخيه .

٢ — الرسالة مرسله ، موجزة ، قصيرة الفقرات ، قوية التأثير ، بارعة  
في الاستمالة .

(١) الشفرة : السكين (٢) اللجاج : التماذى فى العناد (٣) شرح نهج البلاغة ٤/ ٦٩

وبها استشهاد بالشعر : « كتاركة بيضها بالعراء ، وملحفة بيض أخرى جناحها » .

من قول ابن هرمة<sup>(١)</sup> :

وإني وتركي ندى الأكرمين      وقدحى بكفى زناداً شحاحاً<sup>(٢)</sup>  
كتاركة بيضها بالعراء      وملبسة بيض أخرى جناحاً  
وبها تمثيل : « إن بني عبد شمس أبغض إلى بني هاشم من الشفرة إلى الثور . . . »

وبها تشبيه : « لا تكن كالموصل بطير بريش غيره » .

— ٥ —

### من معاوية إلى الحسن

رد معاوية على الحسن بقوله<sup>(٣)</sup> :

« أما بمد ، فقد وصل كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه :  
ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن ، ولم أشمت ولم آس<sup>(٤)</sup> .  
وإن علياً أباك لكما قال أعشى بن قيس بن ثعلبة :

فأنت الجواد وأنت الذي      إذا ما القلوب ملأن الصدورا  
جديرٌ بطمينة يوم اللقا      يضرب منها النساء الفحورا  
وما مزيدٌ من خليج البحر      ريعلوا إلّ كام ويعلوا الجسورا<sup>(٥)</sup>  
بأجود منه بما عنده      فيعطى الألوف ويعطى البدورا<sup>(٦)</sup> »

الذي يسترعى نظرنا في الرسالة قصرها ، والاستشهاد فيها بالشعر ، حتى صار أكثر من الفتر .

(١) الشعر والشعراء ٢٨٩ . (٢) الزناد : جمع زند وهو العود الذي تقدح به النار .

شحاح : جمع شحيج أى بخيل لا يخرج ناراً ، كنى بهذا عن استجدائه البغلاء .

(٣) شرح نهج البلاغة ١١/٤ كان الحسن قد أرسل إلى معاوية لما علم أنه دس عليه رجلين ليتجسسا عليه فأخذا وقتلا ، وتجد كتابه في رسائل الشيعة . (٤) لم آس : لم أحزن .

(٥) مزيد : ما يج يقذف بالزبد : الأكام : جمع أكمة وهي التل .

(٦) البدور : جمع بدرة كيس به ألف درهم أو سبعة آلاف أو عشرة آلاف .

### من عمر بن سعد إلى ابن زياد

أمر عبيد الله بن زياد عمر بن سعد بالسير إلى الحسين بن علي ، فكتب  
عمر إلى عبيد الله .

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فأني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي ، فسألته عما أقدمه ،  
وماذا يطلب ويسأل ، فقال : كتب إلى أهل هذه البلاد ، وأتتني رسلكم ،  
فسألوني القدوم ، ففعلت .

فأما إذ كرهوني فبدا لهم غير ما أتتني به رسلكم فأنا منصرف عنهم .  
فلما قرىء الكتاب على زياد قال :

الآن إذ عَاقَتُ مَخَالِبَنَا بِهِ يَرْجُو النِّجَاةَ وَلَاتَ حِينَ مَفَاصٍ<sup>(١)</sup>

### من ابن زياد إلى عمر بن سعد

كتب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد ردا على كتابه .  
« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وفهمت ما ذكرت ، فاعرض على الحسين  
أن يبائع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه . فإذا فعل ذلك رأينا رأينا ،  
والسلام »<sup>(٢)</sup> .

(١) الطبري ٦/٢٣٤ .

(٢) الطبري ٦/٢٣٤ .

## من عبد الملك إلى أخيه بشر

كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه بشر بن مروان<sup>(١)</sup> :

« أما بعد ، فإنني قد كتبت إلى خالد بن عبد الله ، أمره بالنهوض إلى الخوارج .  
فسرّح إليه خمسة آلاف رجل ، وابتعث عليهم رجلا من قبلك ترضاه .  
فإذا قضوا غزاتهم تلك ، صرّفتهم إلى الرّى<sup>(٢)</sup> ، فقاتلوا عدوهم ، وكانوا  
في مسالحهم<sup>(٣)</sup> ، وجبّوا فيهم ، حتى تأتى أيام عقيبهم<sup>(٤)</sup> ، فتعفيهم ، وتبعث  
آخرين مكانهم »

## من عبد الملك إلى محمد بن الحنفية

رد عبد الملك على محمد بن الحنفية بقوله<sup>(٥)</sup> :

« قد بلغني كتابك بما سألته من الميثاق لك وللعصابة التي معك . فلك عهد الله  
وميثاقه ألا تهاج في سلطاننا غائبا ولا شاهدا ، ولا أحد من أصحابك ما وفوا  
ببذمتهم . فإن أحببت المقام بالحجاز فأقم . فلن ندع صلتك وبرك . وإن  
أحببت المقام عندنا فاشخص إلينا ، فلن ندع مواساتك . ولعمري لئن ألقاناك  
إلى الذهاب في الأرض خائفا ، لقد ظلمناك وقطعنا رحمك . فاخرج إلى الحجاج  
فبايعه ، فإنك أنت الحمود عندنا دينا ورأيا ، وخير من ابن الزبير ،  
وارضى وأتقى » .

(١) الطبري ١٩٣/٧ (٢) الرّى : مدينة بفارس كانت عاصمة بلاد الجبل .

(٣) المسالح : جمع مسلحة وهي الثغر (٤) عقيبهم : من يخلفهم .

(٥) العقد الفريد ٢٦٢/٢ كان محمد بن الحنفية قد كتب إلى عبد الملك يبايعه ويطلب

ميثاقا ، وسيجيء كتابه في رسائل الشيعة .



### من الحجاج إلى قطري بن الفجاءة

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الحجاج بن يوسف إلى قطري بن الفجاءة .  
سلام عليك ، الموحّد الله ، والمصلّى عليه محمد عليه السلام . أما بعد ، فإنك  
كنت أعرابيا بدويا ، تستطعم الكِسرة ، وتَخِفُّ إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول  
ما ليس لك بحق ، واعتزّضت على كتاب الله ، ومرقت من سنة رسول الله صلى الله  
عليه وسلم . فارجع عما أنت عليه بما زين لك ، وادعني ، فقد آن لك (١) » .

### من عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز

كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز :  
« أما بعد ، فإن الناس قد كثروا في الإسلام ، وخفت أن يقل الخراج » .

فكتب إليه عمر :

« فهمت كتابك . والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت  
حرّائين ، نأكل من كسب أيدينا (٢) .  
الرسالتان موجزتان كأنهما برقيتان .

### من مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله

من رسالة مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله ، حينما وجهه إلى محاربة الضعفاك

---

(١) الكامل للبهرد ١/ ١٨٠ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٩٩ .

ابن قيس الشيباني الخارجي ، وقد كتبها عبد الحميد بن يحيى على لسان الخليفة :  
من ذلك أن تدارى أمورك بالقصد ، وتدارى جندك بالإحسان ، وتصون  
سرك بالكنان ، وتداوى حقدك بالإنصاف ، وتذل نفسك بالعدل ،  
وتحصن عيوبك بتقويم أودك<sup>(١)</sup> ، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه  
بالمعجب المردى .

وأنا تـك<sup>(٢)</sup> فوقها الملل وفوت العمل ، ومضاء تـك<sup>(٣)</sup> قدرعها روية  
النظر ، واكنفها بأناة الحلم ، وخلواتك فاحرر منها من الغفلة واعتماد الراحة ،  
وعقوباتك فقصر بها عن الإفراط ، وتعهد بها أهل الاستحقاق ، وعفوك فلا  
تدخلكه تضييع الحقوق . . .

ثم لـكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك ودخلاؤك في سرك أهل الفقه  
والورع من خاصة أهل بيتك .

واعلم أن أقواما سيسرعون إليك بالسعاية ، ويأتونك على وجه النصيحة ،  
ويستميلونك بإظهار الشفقة ، ويستدعونك بالإغراء والشبهة ، ليجعلوك لهم  
ذريعة إلى استئصال العامة ، فلا يصـلن<sup>(٤)</sup> إلى مشافهتك ساع بشبهة ، ولا معروف  
بتهمة . ولا منسوب إلى بدعة ، فيعرضك لإيتاغ<sup>(٥)</sup> دينك ، ويحملك على رعيته  
بما لاحقيقة له عندك .

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك .

واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك ، وربما غشوك ، وربما كانوا لك  
وعليك ، فنصحوا لك ، وغشوا عدوك ، وغشوك ونصحوا عدوك ، وكثيراً  
ما يصدقونك ويصدقونه ، فلا تبذر منك فرط عقوبة إلى أحد منهم ،  
ولا تمجّل بسوء الظن إلى من اتهمته على ذلك . . .<sup>(٦)</sup> »

الرسالة طويلة جداً ، وهى كلها على هذا الفرار ، جمل قصار ، متوازنة ، فى  
بعضها ازدواج .

(١) أودك : عوجك

(٢) الأناة : التأنى

(٣) المضاءة : العزم

(٤) إيتاغ : إفساد

(٥) صبح الأعشى ١٠ / ١٩٥ .

وظاهر في الرسالة العمل والصنعة إلى حد التكلف ، وتوليد المعاني ، والرغبة في الاستقصاء ، وتكرير المعنى الواحد بالترادف .

— ١٣ —

## من نصر إلى مروان

كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد لما أظهر أبو مسلم الدعوة بمرّو :  
« أرى جَدَا إن يُثْن لم يَقُو رَائِضٌ »

عليه ، فبادر قبل أن يُثْنِي الْجَذَعُ<sup>(١)</sup> .

هذا البيت هو الرسالة ، لكنه كاف في تبليغ التحذير الذي يريده نصر .  
لأنه يدعو إلى المبادرة للقضاء على دعوة بني العباس قبل أن تستفحل ، ويمثلها بمرّ أو بعير صغير لم يروض ، فإن كبر عجز الرائض عن ترويضه .

---

(١) وفيات الأعيان ٢٨٢/١ الجذع : الصغير السن . الثني . بعد الجذع ، وأثنى صار ثنيا . الرائض : مذل الدابة ومعلمها السير .

## الفصل الثاني

### رسائل شيعية

- ١ -

#### من علي إلى معاوية

ردّ علي بن أبي طالب على كتاب معاوية الذي بعثه إليه<sup>(١)</sup> يطلب استقلاله بالشام ، والكف عن الحرب بقوله<sup>(٢)</sup> :

« من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان .

أما بعد فقد جاءني كتابك ، تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجرها بعضنا على بعض ، وأنا وإياك نلتبس منها غاية لم نبلغها بعد .

فأما طلبك مني الشام فإني لم أكن أعطيك اليوم ما منعك أمس .

وأما استواؤنا في الخوف والرجاء ، فلست بأَمْضَى على الشك مني على اليقين ، وليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة .

وأما قولك نحن بنو عبد مناف ، فكذلك نحن ، وليس أُمّية كهاشم ، ولا حربٌ كهبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبي طالب ، ولا الطليق كالمهاجر<sup>(٣)</sup> ، ولا المبطل كالحق ، وفي أيدينا فضل النبوة التي قتلنا بها العزيز ، وبعضنا بها الحرّ . والسلام » .

(١) الكتاب رقم ١ من الرسائل الأموية (٢) مروج الذهب ٦١/٢

(٣) الطليق : المراد معاوية لأنه أسلم هو وكثير من مشركي مكة يوم فتحها النبي صلى الله عليه وسلم ، وعفا عنهم ، وقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . المهاجر : المراد علي بن أبي طالب .

١ — رد على مصور<sup>١</sup> لثقتة في نفسه وفي حقه ، وقاطع بأن معاوية لن ينال ما يصبو إليه ، فهو لا يقطعه الشام اليوم وقد منعه إياها أمس ، وهو أقوى وأصبر على الحرب من معاوية ؛ لأنه موقن بحقه وبظفره ، على حين أن معاوية شاك ، وهو لا يسلم بتساويهما في الحسب ، ويفصل القول في هذا .

٢ — الرسالة موجزة ، مرسلة ، مرتبة في ردها على الدعاوى التي أثارها معاوية .

## — ٢ —

### من الحسن إلى معاوية

كتب الحسن بن علي إلى معاوية ، وقد دس<sup>٢</sup> معاوية رجلين بالسكوفة والبصرة ليكتبنا إليه بأخبار الحسن فأخذنا وقتلنا<sup>(١)</sup> :

« أما بعد ، فإنك دسست إلى الرجال ، كأنك تحب اللقاء ، لا أشك في ذلك ، فتوقعه إن شاء الله .

وبلغني أنك شمت<sup>٣</sup> بما لم يشمت به ذوو الحجا<sup>(٢)</sup> ، وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول :

فإنا ومَنْ قد مات منا لسكالذي

يروحُ فيمسي في المبيت ليغتدي<sup>(٣)</sup>

فقل للذي يبغى خلاف الذي مضى

تجهز لأخرى مثلها فكان قد<sup>(٤)</sup>

الرسالة موجزة مرسلة فيها استشهاد بالشعر :

(١) شرح نهج البلاغة ١١/٤

(٢) الحجا : العقل ، أي شمت بموت أبي ولا يشمت عاقل بالموت .

(٣) سنموت كما مات الذين سبقونا . (٤) كأن قد : كأنها قد حلت بك .

### من الحسن إلى معاوية

بعد أن صالح الحسن بن علي معاوية سار إلى المدينة ، فكتب إليه معاوية يدعوهُ إلى قتال الخوارج . فكتب الحسن له (١) :

« لو أثرتُ أن أقاتل أحداً من أهل القبلة لبدأتُ بقتالك ، فإنّي تركتك لصالح الأمة وحَقْنِ دماءها » :

الرسالة مع إيجازها الشديد وافية بالغرض الذي يريده الحسن .

### من محمد بن الحنفية إلى عبد الملك

كتب محمد بن الحنفية إلى عبد الملك بن مروان ، يبّايعه لما قُتل ابن الزبير (٢) :

« إني اعتزلتُ الأمة عند اختلافها ، فقمّدتُ في البلد الحرام الذي من دخله كان آمناً ؛ لأُحرز ديني ، وأمنع دمي ، وتركتُ الناس « قل كلّ يعمل على شاكلته ، فربكم أعلمُ بمن هو أهدى سبيلاً » .

وقد رأيت الناس قد اجتمعوا عليك ، ونحن عصاة من أمتنا ، لا نفارق الجماعة .

وقد بعثت إليك منا رسولا ؛ ليأخذ لنا منك ميثاقاً ، ونحن أحق بذلك منك ، فإن أبيت فأرضُ الله واسمهُ ، والعاقبة للمتقين » (٣) .

في الرسالة اقتباس من القرآن الكريم « قل كل يعمل ... » (٤) و « أرض الله » وهي موجزة مرسلّة لاخيال فيها .

(٢) العقد الفريد ٢/٢٦٢

(٤) سورة النساء ٩٧

(١) الكامل لابن الأثير ٣/١٦٣

(٣) سورة الإمراء ٨٤



### من المختار إلى ابن الحنفية

كتب المختار بن أبي عبيد الثقفي إلى محمد بن الحنفية ، وقد قتل المختار عمر ابن سعد بن أبي وقاص وابنه حفصا ، وبعث برأسيهما إليه (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم

للهدي محمد بن علي من المختار بن أبي عبيد .

سلام عليك يا أيها المهدي ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد ، فإن الله بعثني نعمة على أعدائكم ، فهم بين قتل وأسير وطريد وشريد . فالحمد لله قتل قاتليكم ، ونصر مؤازريكم . وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه . وقد قتلنا من شرك في دم الحسين وأهل بيته — رحمة الله عليهم — كل من قدرنا عليه ، ولن يُعجز الله من بقي ، ولسبب بمنعجيم (٢) عنهم ، حتى لا يلفني أن على أديم الأرض منهم إرمييا (٣) .

فاكتب إلى أيها المهدي برأيك أتبعه ، وأكن عليه . والسلام عليك أيها المهدي ورحمة الله وبركاته » .

الرسالة موجزة ، مرسله ، بها اقتباس من القرآن الكريم .

### من المختار إلى عبد الله بن الزبير

كتب المختار بن أبي عبيد إلى عبد الله بن الزبير حينما قوى أمر المختار

(٢) منجم : مقلع .

(١) تاريخ الطبري ١٢٧/٧

(٣) إرمي : أحد .

بالسكوفة . وراجت هناك دعوته إلى ابن الحنفية<sup>(١)</sup> ، وهو بكتابه هذا يخادع ابن الزبير ، حتى يستكمل الأمر له :

«أما بعد ، فقد عرفت مناصحتي إياك ، وجهدي على أهل عداوتك ، وما كنت أعطيتني — إذا أنا فعلت ذلك — من نفسك . فلما وفيتُ لك ، وقضيتُ الذي كان لك عليّ ، خستَ بي ، ولم تفِ بما عاهدتني عليه<sup>(٢)</sup> ، ورأيتَ مني ما قد رأيت . فإن تُردُّ مراجعتي أراجعتك ، وإن ترد منا صحتي أنصحُ لك .

---

(١) تاريخ الطبري ١٣٢/٧ .

(٢) كان المختار لما خرج من سجن ابن زياد قصد الحجاز وبايع ابن الزبير ، على أن يوليه أفضل ولاية إذا نجحت دعوته ، وأقام مع ابن الزبير حتى ملك يزيد وانتهى حصار مكة . واشترك معه في رد الجند المحاصر لها . فلما بايع أهل العراق ابن الزبير ولي على السكوفة وولى على البصرة ، ولم يول المختار — الطبري ٦١/٧

## الفصل الثالث

### رسائل الخوارج

- ١ -

#### من نجدة إلى نافع

كتب نجدة بن عامر (الخارجي) إلى نافع بن الأزرق (١) (الخارجي) لما صار الخوارج إلى الأهواز (٢) بعد أن نصرُوا ابن الزبير، وقد أمرُوا عليهم نافع ابن الأزرق الحنفي. ثم شجر بينهم الخلاف، فاتفق جماعة منهم بزعامة نجدة، ومضوا إلى اليمامة بنجد :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأخ البرّ ، لا تأخذك في الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم . كذلك كنت أنت وأصحابك . أما تذكر قولك : « لولا أني أعلم أن للإمام العادل مثل أجر جميع رعيته ، ما توليتُ أمر رجلين من المسلمين » . فلما شَرَّيتَ<sup>(٣)</sup> نفسك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصَبْتَ من الحق فِصَّهُ<sup>(٤)</sup> ، وركبتَ مُرَّهُ ، تجرد لك الشيطان ، ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك ، فاستمالك واستهواك ، واستغواك وأغواك ، ففَوَّيتَ ، فأَكْفَرْتَ الذين عذَرهم الله في كتابه من قَعَدَ<sup>(٥)</sup> المسلمين وَضَعَفَتَهُمْ<sup>(٦)</sup> ، فقال — جل ثناؤه ، وقوله

(١) السَّكْمَل المبرد ١٧٧/٢ والعقد الفريد ١١٤/١ .

(٢) كورة بين البصرة وفارس .

(٣) شَرَّيت : بعت ، والخوارج يسمون أنفسهم الشراة ، لقولهم : شربنا أنفسنا في طاعة الله .

(٤) فِصَّهُ . مَفْصَلُهُ .

(٥) القَعْد : اسم جمع قاعد ، والقعدة جمع قاعد .

(٦) الضعفة : جمع ضعيف وضعيف وضعفان وضعوف .

الحق . ووعد الصديق — : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرجٌ إذا نصحوهم الله ورسوله » ثم سماهم أحسن الأسماء . فقال : « ما على المحسنين من سبيل » (١) .

ثم استخلفت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم ، وقال الله عز ذكره : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » (٢) . وقال سبحانه في القعد خيرا ، وفضل الله من جاهد عليهم ، ولا تدفع منزلة أكثر الناس عملا منزلة من هو دونه ، أو ما سمعت قوله عز وجل : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر » (٣) . فجعلهم الله من المؤمنين ، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم .

ورأيت ألا تؤدّي الأمانة إلى من خالفك ، والله يأمر أن تؤدّي الأمانات إلى أهلها ، فاتق الله وانظر لنفسك ، واتق يوما لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، فإن الله عز ذكره بالمرصاد . وحكمه العدل ، وقوله الفصل . والسلام .

١ — الرسالة نوع من الحاجة الدينية المذهبية .

٢ — وإذا كان الدين هو محور الخلاف جاء فيها اقتباس كثير من القرآن الكريم ، واستدلال به ، وبحديث الرسول .

٣ — وهي في استدلالها موجزة وافية بالمقصود منها .

٤ — وفيها تشبيه : « أنت لليتيم كالأب . . . » وكناية في قوله : فلما أصبت من الحق قصه . . . » .

(٢) سورة فاطر ١٨

(١) سورة التوبة ٩١

(٣) أولوا الضرر : المصابون بمعنى أو زمانة وشبههما . وبقية الآية : « والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » سورة النساء ٩٥ القاعدون الأولون هم أصحاب الضرر ، والآخرين ليسوا أصحاب ضرر .

## من نافع إلى نجرة

فرد نافع على نجرة (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد أتاني كتابك تعظي فيه وتذكرني ، وتنصح لي وتزجرني ، وتصنف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أوره من الصواب . وأنا أسأل الله عز وجل أن يجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وعبت على ما أدنت به من إكفار القمء ، وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة ، فسأفسر لك لم ذلك إن شاء الله .

أما هؤلاء القمء ، فليسوا كما ذكرت ، ممن كان بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين ، لا يجدون إلى الهرب سبيلا . ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا . وهؤلاء قد فقهوا في الدين ، وقرأوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح . وقد عرفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم إذ « قالوا كنا مستضعفين في الأرض » فقل لهم : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » (٢) .

وقال « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » (٣) وقال : « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم » (٤) . نقهر بتعذيرهم ، وأنهم كذبوا الله ورسوله . وقال : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » فانظر إلى أسمائهم وسماتهم (٥) .

(١) الكامل للمبرد ١٧٨/٣ والعقد الفريد ٢١٤/١ (٢) سورة النساء ٩٧

(٣) في تخلفهم عن الحرب معه تقصيرا لا غدرا ، في غزوة تبوك . سورة التوبة ٨١

(٤) المتخلفون عن الغزو مستذرين بالجهد والمشقة والأولاد : سورة التوبة ٩٠

(٥) سمات : جمع سمة وهي العلامة . تكملة الآية السابقة

وأما أمر الأطفال فإن نبي الله نوحاً عليه السلام كان أعلم بالله بأنجدة مني ومنك ، فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »<sup>(١)</sup> فسيماهم بالكفر وهم أطفال قبل أن يولدوا ، فكيف كان ذلك في قوم نوح ، ولا نقوله في قومنا ؟ والله يقول : « اكفركم خير من أولئكم . أم لكم براءة في الزُّبر<sup>(٢)</sup> ؟ » وهؤلاء كمشركي العرب ، لا تقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات من خالفنا ، فإن الله عز وجل أحلّ لنا أموالهم كما أحلّ لنا دماءهم . فدماؤهم حلال طلق<sup>(٣)</sup> . وأموالهم فيء للمسلمين .

فاتق الله ، وراجع نفسك ، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة ، ولن يسعك خذلانا ، والقعود عنا ، وترك ما نهجناه لك من طريقتنا ومقاتلتنا . والسلام على من أقر بالحق ، وعمل به .

- ١ — اعتمد نافع في رده على الاستدلال بالقرآن الكريم ، وتوجيه الآيات وفق عقيدته ، كما اعتمد على المنطق والرأى .
- ٢ — في ردوده ترتيب ، وإيجاز واف بالغرض .

## من قطري إلى الحجاج

كتب الحجاج إلى قطري يوبخه ، ويدعوه إلى الطاعة<sup>(٤)</sup>

فرد عليه قطري بقوله<sup>(٥)</sup> .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف .

(١) سورة نوح ٢٦ — ٢٧ ديار : أحد .

(٢) سورة القمر ٤٣ . الزبر : جمع زبور وهو الكتاب .

(٣) طلق : حلال . (٤) راجع الرسالة ١٠ من الأمويين .

(٥) الكامل للمبرد ١٨٠/١



سلام على من اتبع الهدى . ذكرت في كتابك أنى كنت بدوياً أستطعم الكيسرة ،  
وأبذر<sup>(١)</sup> إلى التمرة . وبالله لقد قلت زورا ، بل الله بصّرني من دينه ما أعماك  
عنه ، إذ أنت سائح في الضلالة ، غرق في غمرات الكفر .

وذكرت أن الضرورة طالت بي ، فهلاً برزلى من حزبك مَنْ نال الشُّبع  
واتكأ فاندع<sup>(٢)</sup> ؟

أما والله لئن أبرز الله لي صفحتك ، وأظهر لي صلعتك<sup>(٣)</sup> ، لتفكرن  
شبعك ، ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ليس كتسكير الأمثال .

— ٤ —

من قطري إلى أبي خالد

كتب قطري بن الفجاءة لأبي خالد القناني ، يلومه على قعوده<sup>(٤)</sup> :

أبا خالد يا انفِر<sup>(٥)</sup> فلست بخالد وما جعل الرحمن عذرا لقاعد  
أتزعم أن الخارجى على الهدى وأنت مقيم بين لصٍّ وجاحد ؟

— ٥ —

فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحياة إلى حبا بدأتى ، إنهن من الضعاف  
أحاذر أن يرَيْن الفقر بعمدى وأن يشربن رنقا<sup>(٦)</sup> بعد صافى  
وأن يعرَيْن إن كسى الجوارى فتنبو العين عن كرم عجاف<sup>(٧)</sup>  
ولولا ذاك قد سوّمتُ مهرى وفى الرحمان للضعفاء كاف<sup>(٨)</sup>  
أبانا ، مَنْ إنما إن غبت عنا وصار الحى بمدك فى اختلاف

هذان الكتابان شعر خالص تمثل به الكاتبان ، لأنه يبنى بما يريدان .

(١) أبذر : أسرع .

(٢) اندع : سكن وهداً وتنعم .

(٣) الصلعة بالفتح والضم أيضا موضع الصلح من الرأس .

(٤) السكامل للمبرد ١٢١/٢ . (٥) يا حرف تنبيه . (٦) رنقا : كدرا

(٧) كرم : وصف بالمصدر أى كريمات : عجاف : جمع عجفاء وهى الضعيفة المهزولة

(٨) سوّمت : أرسلت .

## من نافع إلى فوارج البصرة

كتب نافع إلى فوارج البصرة : (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون .

والله إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة ، والدين واحد ، فقيم المقام بين أظهر الكفار ؟ .

ترون الظلم ليلاً ونهاراً ، وقد ندبكم الله إلى الجهاد . فقال :

« وقاتلوا المشركين كافة » (٢) ولم يجعل لكم في التخلف عذا في حال ، فقال :

« انكروا خيفاً وثقالاً » (٣) وإما عذرا الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون

ومن كانت إقامته لذة . ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال : « لا يستوي

القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله » (٤)

فلا تفتروا ، ولا تطمئنوا إلى الدنيا ؛ فإنها غرارة مكآرة لذتها نافذة ، ونعمتها

بائنة ، حُفَّتْ بالشهوات اغترارا ، وأظهرت حَبْرَةً وأضمرت عِبْرَةً (٥) أكل منها

أَكْلَةً نسره ، ولا شارب شُرْبَةً تُوْنِقُهُ (٦) ، إلا دنابها درجة إلى أجله ، وتباعد بها

مسافةً من أمله .

وإنما جعلها الله داراً لمن تزود منها إلى النعيم المقيم والعيش السليم ، فلن

يرضى بها حازم داراً ، ولا حلیم بها قرار .

فاتقوا الله وتزودوا ، فإنه خير الزاد التقوى .

والسلام على من اتبع الهدى .

(١) الكامل للبرد ٣/ ٣٠٩ .

(٢) سورة التوبة ٣٦

(٣) سورة التوبة ٤١

(٤) سورة النساء ٩٥

(٥) حبرة : نعمة وسعة عيش .

(٦) تُوْنِقُهُ : تعجبه .

## الفصل الرابع

### رسائل الزبير بن

- ١ -

من عبد الله بن الزبير إلى معاوية

دخل الزنوج الذين كانوا يعملون في أرض معاوية أرض عبد الله بن الزبير ،  
فكتب إلى معاوية :

« أما بعد ، فإنه يا معاوية إن لم تمنع عبيدك من الدخول في أرضي ، وإلا كان  
لي ولك شأن ،

- ٢ -

من عبد الله بن الزبير إلى معاوية

فلما ترضاه معاوية ، ومنحه أرضه وعبيده ، كتب إليه ابن الزبير :  
« وقفتُ على كتاب أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - فلا عديم الرأي الذي  
أحله من قریش هذا المحل ، والسلام » .

الرسالتان موجزتان أشد الإيجاز ، خاليتان من التخييق والخيال .

- ٣ -

من عبد الله بن الزبير إلى يزيد

كتب عبد الله بن الزبير<sup>(١)</sup> إلى يزيد بن معاوية ، لما عزل عن الحجاز عمرو

ابن سعود بن العاص ، وولى الوليد بن عُتْبَةَ سنة ٦١<sup>(١)</sup> :

« إِنَّكَ بَعَثْتَ إِلَيْنَا رَجُلًا أُخْرَقَ<sup>(٢)</sup> ، لَا يَتَّبِعُهُ لِأَمْرٍ رُشْدٌ ، وَلَا يَرْتَعَوِي<sup>(٣)</sup> بِمِظَّةِ الْحَكِيمِ ، وَلَوْ بَعَثْتَ إِلَيْنَا رَجُلًا سَهْلَ الْخُلُقِ ، لَيَنَّ الْكَتْفَ ، رَجَوْتُ أَنْ يَسْهُلَ مِنَ الْأُمُورِ مَا اسْتَوْعَرَ<sup>(٤)</sup> مِنْهَا ، وَأَنْ يَجْتَمَعَ مَا تَفَرَّقَ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ فِيهِ صَلَاحٌ خَوَاصِّنَا وَعَوَامَّنَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَالسَّلَامُ » .

هذه الرسالة تجمع إلى إيجازها جزالة تعبيرها في ترسل وبعد عن التكلف .

— ٤ —

من عبد الله بن الزبير إلى المختار

رَدَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ عَلَى كِتَابٍ مِنَ الْمُخْتَارِ بَعَثَهُ إِلَيْهِ يَعلن فِيهِ مَوَادِعَتَهُ إِيَّاهُ ، وَهُوَ فِي الْحَقِّ يَكِيدُ لَهُ . فَقَالَ<sup>(٥)</sup> :

«أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى طَاعَتِي ، فَلَسْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَبْعَثَ الْجَيْشَ إِلَى بِلَادِي ، وَتَبَايِعَ لِي النَّاسَ قَبْلَكَ . فَإِذَا أَتَنَى بِبِعْتِكَ صَدَقْتَ مَقَالَتَكَ ، وَكَفَفْتَ جُنُودِي عَنْ بِلَادِكَ . وَعَجَّلْ عَلَى بِنْسَرِيحِ الْجَيْشِ الَّذِي أَنْتَ بَاعِثُهُ ، وَمُرِّمْهُمْ فَلْيَسِيرُوا إِلَى مِنْ بَوَادِي الْقُرَى مِنْ جَنْدِ ابْنِ مَرْوَانَ فَيَقَاتِلُوهُمْ ، وَالسَّلَامُ » .

— ٥ —

من عبد الله بن الزبير إلى ابن عباس

أَخْرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الطَّائِفِ ، فَرَحَّبَ بِهِ أَهْلُ الطَّائِفِ ، وَاسْتَقْبَلُوهُ بِحَفَاوَةٍ ، وَجَعَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَتَهَجَّهُمْ عَلَى ابْنِ الزَّبِيرِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ الزَّبِيرِ<sup>(٦)</sup> :

(١) بعد مقتل الحسين التف أنصار ابن الزبير حوله ، ودعوه إلى إعلان البيعة له ، وكان يبايع الناس سرا . وكان عمرو بن سعيد عاملا على مكة ، وكان مع شدته على حزب ابن الزبير يدارى ويرفق ، فقال الوليد بن عتبة وجماعة من بني أمية ليزيد إن عمرو بن سعيد لو شاء لقبض على ابن الزبير وبعث به إليك ، فعزل يزيد عمرا وولى الوليد .

(٢) أخرق : أحرق (٣) لا يرتعوى : لا يمتثل (٤) ما استوعر : ماصعب

(٥) جمهرة رسائل العرب ١٣٦/٢ .

(٦) جمهرة رسائل العرب ١٤٠/٢ وشرح نهج البلاغة ٤٨٧/٤ .

«أما بعد ، فقد بلغني أنك تجلس بالطائف العَصْرَيْن ، فتُفتِّهِم بالجهل ، تعيب  
أهل العقل والعلم ، وإن حلمي عليك واستدامتي فيثك جرّ آك عليّ . فاكفف  
— لا أبا لفيرك — من غريبك ، واربع على ظلمك ، واعقل إن كان  
لك معقول ، وأكرم نفسك ، فإنك إن تهينها تجدها على الناس أعظم  
هوانا . ألم تسمع قول الشاعر :

فنفسك أكرمها فإنك إن تهين      عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما  
وإني أقسم بالله لئن لم تفته      عما بلغني عنك ، لتجدن جانبي خشنا ، ولتجدني  
إلى ما يردعك عني عجلا ، فإن أشقى      بك شقاؤك على الردى فلا تلم إلا نفسك »

— ٦ —

من مصعب إلى المغيرة ابن المهلب

عزل عبدالله بن الزبير الحارث بن عبد الله ، وولّى أخاه مصعب بن الزبير  
مكانه ، فاستقدم للمهلب ، وولاه الموصل ، وولى المغيرة بن المهلب ، وكتب  
إليه (١) .

«إنك إن لم تكن كأبيك . فإنك كافٍ لما وليتك ، فشمر واتزر ،  
وجد واجتهد » .

— ٧ —

من المهلب إلى الحارث

كان المهلب بن أبي صفرة قد ولى خراسان من قبل عبد الله بن الزبير ،  
ولم يكن قد مضى إلى خراسان ، حينما اشتدت ثورة الأزارقة بالأهواز ، وخشى  
أهل البصرة أن يجتاحوا مصرهم ، فهبوا ليدافعوا عن بلادهم ، وتحاربوا  
في عدة مواقع .

ثم أجمع رأى أهل البصرة على أن يتولى المهلب حرب الأزارقة ، فاعتذر بأن عبد الله بن الزبير ولاء خراسان ، فاحتال عليه أمير البصرة الحارث بن عبد الله ابن أبي ربيعة المعروف بالقباع وهو أخو عمر الشاعر — ووجههاؤها ، بأن كتبوا كتابا على لسان ابن الزبير ، فصدق المهلب ، وشمر لقتال الأزارقة (١) .

فلما دخل الأهواز كتب إلى الحارث أمير البصرة كتابا يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإننا منذ خرجنا نؤم هذا العدو في نعم من الله متصلة علينا ، ونعمة من الله متتابعة عليهم ، نُقَدِّمُ ومُحْجَمُونَ ، ونَحْمِلُ ويرْتَحِلُونَ ، إلى أن حللنا سوق الأهواز ، والحمد لله رب العالمين ، الذي من عنده النصر ، وهو العزيز الحكيم » .

## — ٨ —

### من الحارث إلى المهلب

فرد عليه الحارث (٢) :

« هنيئًا لك أخا الأزْد الشرف في الدنيا ، والذُّخْر في الآخرة إن شاء الله » .

## — ٩ —

### من المهلب إلى الحارث

ثم انتصر المهلب في موقعة سَلَى وسِدْبَرْي (٣) ، بعد حرب طاحنة ، وقتل في الموقعة أمير الأزارقة عُبَيْدُ اللَّهِ بن بشير بن الماحوز .

فكتب المهلب إلى الحارث بعد النصر (٤) :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

(١) الطبري ٨٦/٧ (٢) الكامل للبرد ١٨٩/٢ .

(٣) اسم لموضع بالأهواز بالقرب من جند يسابور .

(٤) الكامل للبرد ١٩٥/٢ وشرح نهج البلاغة ٣٨٨/١ .



أما بعد ، فإننا لقينا الأزارقة المارقة بمحْدَّة وجِد فكَانَتْ فِي النَّاسِ جَوْلَةٌ ،  
ثم ثاب أهل الحِفاظ والصبر بِذِيَّات صادقة ، وأبدان شِدَاد ، وسيوف حِدَاد ،  
فأعقب الله خير عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا دَرِيَّةً<sup>(١)</sup>  
رماحنا ، وضرائب سيوفنا ، وقتل الله أميرهم ابن الماحوز .  
وأرجو أن يكون آخرُ هذه النعمة كأولها ، والسلام .

— ١٠ —

من الحارث إلى المهلب

فرد عليه الحارث :

« قد قرأت كتابك يا أخا الأزد ، فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا  
وعِزَّها ، وذخرك ثواب الآخرة — إن شاء الله — وأجرها .  
ورأيتك أوثق حصون المسلمين ، وهادٍ أركان الشركين ، وأخاه السياسة ،  
وذا الرياسة ، فاستقدم الله بشكره ، يُتِمِّمَ عليك نعمه . والسلام »

---

(١) دريئة : حلقة يتعلم عليها الطعن والرمي . والمراد الهدف .

## الفصل الخامس

### خواص الكتابة

لم تنبت كتابة الرسائل في العصر الأموي على غرة ، ولم يكن ظهورها فجأة ، فقد كتبت رسائل عدة في صدر الإسلام ، وكانت لها عدة خواص ، طبعت كتابة العصر الأموي بطابعها إلى حد بعيد . نحو نصف قرن .

وفي غضون هذه الفترة كانت نوازع التطور تبدو شيئاً فشيئاً ، فلما أشرف العهد على نهايته كانت قد برزت واستعلنت وصارت أساساً لما استجد في العصر العباسي .

فقد كتب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بعض معاصريه من الملوك ، وإلى ولاته على الأقاليم ، وإلى قواد جيوشه .

وكانت رسائله ذات طابع خاص ، إذ كان يبدأها بالسلام ، فيقول للمسلم « سلام عليك » ولغيره « السلام على من اتبع الهدى » ، ثم يُثَنِّي بالتحميد كقوله « أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو » وقد يتركه ، ثم ينتقل إلى الموضوع بقوله « أما بعد » أو بغيرها ، ويختتم الرسالة بالسلام .

وكان يعبر عن نفسه بضمير الإفراد ، وقلما عبّر بضمير الجمع ، كما كان يخاطب المكتوب إليه بالضمير المطابق لحاله إفراداً وتثنية وجمعاً .

ورسائله كلها مرسلة ، موجزة ، لا تكرار فيها ولا إطباب (١)

ثم حاكاه الخلفاء الأربعة ، فظلت الرسائل في صدر الإسلام موسومة بهذا الطابع في بدئها وختامها ، وفي إيجازها وقصر عباراتها على تأدية الغرض من أقرب طريق وأوضحه في غير تألق أو تكلف .

هذا إلى خلوها من عبارات التعظيم ، وألقاب التفخيم ، واكتفاء المرسل بقوله في أول كتابه : من فلان إلى فلان ، سواء أكان المرسل أرفع شأنًا من المرسل إليه أم أقل .

وكان الخليفة أو الوالي يكتب بيده ، أو يملئ على كاتب .

أما في العصر الأموي فقد مضت الكتابة في طريقها إلى التطور ، وتجلى هذا في عدة مظاهر :

## - ١ -

### التجويد :

صار كثير ممن يملون الرسائل على كتابهم ، ومن يكتبون الرسائل بأنفسهم من الكتاب ، يعتمدون التجويد والتنميق والتجويد ، ولا يرتضون ما تسعف به القرائح في غير تبين أو تنقيح . روى أن معاوية كان يملئ كتابًا قال فيه عن رجل : هو أهون علي من ذرة ، أو كلب من كلاب الحررة . ثم قال للكاتب : امح من كلاب الحررة ، واكتب . من الكلاب<sup>(١)</sup> . ويظهر أنه لم يسترح إلى هذه السجعة ، لأن كلاب الحررة ليست أهون عليه من سواها ، فاختصاصها بالذكر يدل على أنه يعتمد السجع ، وإن لم تدع إليه ضرورة في الفكرة ، وهذا لا يلائم البلاغة الفطرية .

وإن التنميق والتجويد والتنقيح وغيرها من ثمرات الإعداد لتجلى في كثير من رسائل العصر التي سبقت .

---

(١) رسائل الجاحظ ١٥٥ .

### اختصاص كتاب بها :

اختص بكتابة الرسائل كتاب وظفتهم الدولة منذ عهد عبد الملك ( ٦٥ — ٨٦ هـ . ٦٨٥ — ٧٠٥ م ) فلم تعد من عمل الخلفاء وإملاهم كما كانت من قبل ، وصار لها ديوان خاص بها يتولاها ، وصار لهؤلاء الكتاب أثر حميد في تطورها ، لأنهم يختصون بها ، ولأن وظائفهم في الديوان مرهونة ببراعتهم فيها ، وتجويدهم إياها .

### غلبة الإيجاز :

بقيت الرسائل موسومة بالإيجاز والترسل في أكثر حالاتها ، اكتفاء بتأدية المعنى بأقصر عبارة ، ومن غير إطباب أو تكرير أو تفصيل .

١ — تجده هذا في رسائل الأمويين ، كرسالة معاوية إلى الحسن<sup>(١)</sup> ، ورسالة عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد<sup>(٢)</sup> ، ورسالة ابن زياد إلى عمر بن سعد<sup>(٣)</sup> ورسالة عبد الملك إلى أخيه بشر<sup>(٤)</sup> ، ورسالة الحجاج إلى قطري<sup>(٥)</sup> ، ورسالة عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز ورد عمر عليه<sup>(٦)</sup> .

٢ — وتجده في رسائل الشيعة ، كرسالة الحسن إلى معاوية<sup>(٧)</sup> ، ورسالة محمد بن الحنفية إلى عبد الملك<sup>(٨)</sup> ؛ ورسالة المختار إلى محمد بن الحنفية<sup>(٩)</sup> .

٣ — وتجده في رسائل الخوارج كرسالة قطري إلى الحجاج<sup>(١٠)</sup> ، ورسالته إلى أبي خالد القناني<sup>(١١)</sup> ، ورد أبي خالد عليه<sup>(١٢)</sup> .

---

(١) رقم ٥	(٢) رقم ٦	(٣) رقم ٧	(٤) رقم ٨	(٥) رقم ١٠
(٦) رقم ١٢، ١١	(٧) رقم ٣، ٢	(٨) رقم ٤	(٩) رقم ٥	
(١٠) رقم ٣	(١١) رقم ٤	(١٢) رقم ٥		

٤ — وتجدده في رسائل الزبيريين ، كرسالتى عبد الله بن الزبير إلى معاوية (١) .  
ورسالة المهلب إلى الحارث ، ورد الحارث عليه ٢ .

### ٥ — التوقيعات :

أوجز الخلفاء أقصر الإيجاز في توقيعاتهم على ما يرفع إليهم من شكوى  
ورغبات ، لبيان رأيهم فيها .

وتميزت توقيعاتهم بالإيجاز ، سواء أكانت اختياراً لآية قرآنية ، أو حديث  
نبوى أو مثل سائر أو حكمة متداولة ، أم كانت كلمة موجزة من إنشاء الموقع نفسه ،  
كما تميزت بأنها في مكان معين من حاشية الرقعة المرفوعة إلى الخليفة ، وبعداد مغاير  
للون الكتاب (٣) .

وقد عرف العرب التوقيع بهذا المعنى وعلى هذه الصورة منذ عهد عمر بن الخطاب

(١)

كتب إليه سعد بن أبي وقاص في بناء يمينه ، فوق في أسفل الكتاب .  
« ابن ما يَكْنُك من الهواجر وأذى المطر » .

ووقع إلى عمرو بن العاص : « كن لرعيك كما تحب أن يكون لك أميرك » :  
ورويت توقيعات عن عثمان ، ومنها توقيعه على شكوى قوم من عامله مروان  
ابن الحكم : « فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون » . ومنها توقيعه على شكاية  
رجل شكاه إليه فقراً : « قد أمرنا لك بما يقيمك ، وليس في مال الله فضل  
للسرف » .

(٢) رقم ٧ ، ٨

(١) رقم ١ ، ٢

(٣) للتوقيع معان كثيرة ، ولعله بهذا المعنى الاصطلاحي مأخوذ من وقعت الإبل أى اطمأنت  
بالأرض بعد الرمي ، لأن الكاتب الموقع يطمئن إلى تصريفه للأمر وقضائه فيه ، أو من وقع  
ظنه على الشيء أى قدره وأنزله ، لأن الموقع يكتب رأيه الذى تدبر فيه ، أو من التوقيع  
وهو الرى القريب والإصابة ، لأن الموقع يفصل فى الأمر من أقرب طريق ، أو من التوقيع  
وهو إصابه المطر بعض الأرض وإخطاؤه بعضها . أو إثبات بعضها دون بعض ، لأن التوقيع  
لحاق شىء . بالكتاب بعد الفراغ منه ( لسان العرب مادة وقع ) .

( م ٢٧ — الأدب السياسى )

ورويت توقيعات عن علي ، كتوقيعه في كتاب لابنه الحسن : « رأى الشيخ خير من جلد الفلام » ، وتوقيعه على كتاب لسلمان الفارسي سأله فيه عن طريقة حساب الناس يوم القيامة : « يحاسبون كما يرزقون » .

( ب )

(ب) وهذه أمثلة من توقيعات الأمويين :

١ — كتب ربيعة بن عسل البربوعي إلى معاوية ، يسأله أن يعينه على بناء داره بالبصرة ، باثني عشر ألف جذع من النخل ، فوقع معاوية على رسالته بقوله : « أدارك في البصرة أم البصرة في دارك ؟ » .  
٢ — وكتب الحسن بن علي إلى معاوية كتابا ، أغلظ فيه ، فوقع معاوية عليه بقوله . « ليت طول حملنا عنك لا يدعو جهل غيرنا إليك » .

٣ — كتب مسلم بن عقبة المرسي إلى يزيد بن معاوية بما فعله بأهل المدينة في وقعة الحرّة ، فوقع في أسفل الكتاب بقوله : « فلا تأس على القوم الفاسقين » .  
٤ — كتب الحجاج إلى عبد الملك يشكو أهل العراق ، فكان توقيعه على الكتاب : « ارفق بهم ، فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ، ومع الخرق ما تحب » .

٥ — كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بقوة عبد الرحمن بن الأشعث ، فوقع على الكتاب بقوله : « بضعفك قوى ، وبخوفك هلم » .

٦ — كتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك يهدده بالخلع ، فوقع سليمان بقرله : « والعاقبة للمتقين » .

٧ — كتب بهض عمال عمر بن عبد العزيز إليه ، يستأذنه في أن يرم مدينة ، فوقع عمر بقوله : « ابنها بالعدل ، ونق طرقها من الظلم » .

٨ — وهذا النحو كثير من الخلفاء والولاة<sup>(١)</sup> .

( ح )

فلما قامت الدولة العباسية تولى خلفاؤها وولاتها التوقيعات بأنفسهم أول الأمر ، كما كان يفعل بنو أمية .



ثم عهدوا بها منذ عهد الرشيد إلى كتاب يشقون بهم ، فصار التوقيع مهنة ، وصار له رجال من ذوى المقدرة البيانية ، يقول ابن خلدون (١) : « ومن خطط الكتابة التوقيع ، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها ، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه ، فإما أن تصدر كذلك ، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ، ويحتاج الموقّع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه

واعلم أن صاحب هذه الحطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فإنه معرض للنظر في أصول العلم ، لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب ، والتخلق بالفضائل ، ومع ما يضطر إليه في التوصل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها .

### هل نقل العرب التوقيعات عن الفرس ؟

ذهب بعض الباحثين إلى أن العرب نقلوا توقيعاتهم عن الفرس ، إذ كان الفرس قد اشتهروا بالتوقيعات ، ولكنى أرى التوقيعات العربية نشأت نشأة عربية خالصة ، معتمداً على دليلين .

١ — أن العرب عرفوا التوقيعات ، ومارسوها في أحسن صورها ، قبل أن يتصلوا بالفرس ويحاكوه . وقد مثلت لتوقيعاتهم — منذ عهد عمر بن الخطاب إلى آخر الدولة الأموية ، إذ كانوا بمعزل عن أدب الفرس وثقافتهم ، وليس هناك فرق بين توقيعاتهم هذه وتوقيعاتهم في العصر العباسي بعد أن امتزجوا بأدب الفرس وثقافتهم .

٢ — ولأن التوقيعات قائمة على ما يلائم الفطرة العربية ، من ميل إلى الإيجاز ، ومقدرة على البيان ، وسرعة خاطر وحضور بديهة ، فليس العرب بحاجة إلى أن يحاكيهم فيها يلائم طباعهم أشد الملاءمة .

## في بعضها طول

في أخريات العصر نُزِعت بعض الرسائل إلى الطول ، على تفاوت في مقدار طولها ، فبعضها متوسط ، وبعضها مطوّل .

١ — أما الرسائل المطولة ، فأقلها بالغ الحد في الطول ، ولعلهما رسالتان ، إحداهما هي التي كتبها عبد الحميد بن يحيى على لسان مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله لما وجهه لمحاربة الضعاك بن قيس الشيباني الخارجي ، فهذه الرسالة بلغت نيفا وخمسة مئة سطر<sup>(١)</sup>

والأخرى هي التي كتبها الوليد بن يزيد بن عبد الملك إلى الأمصار بالبيعة لولديه<sup>(٢)</sup> فهي في مئة وخمسة وعشرين سطرا .

وبقية الرسائل الطوال لا تتجاوز الواحدة سبعين سطرا .

كرسالة هشام بن عبد الملك إلى خالد القسري يلومه فيها على دأته وعدوانه على مولى هشام ووكيله في ضياعه<sup>(٣)</sup> ، فهي في سبعين سطرا .

وكتاب معاوية إلى ابنه يزيد<sup>(٤)</sup> ، في خمسة وثلاثين سطرا .

وكتاب من عبد الملك إلى الحجاج ، في ثمانية وعشرين سطرا ، ورد الحجاج عليه ، في ستة وستين سطرا<sup>(٥)</sup> .

وكتاب من مروان بن محمد إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك<sup>(٦)</sup> ، حينما كان مروان واليا على أرمينية وأذربيجان ، في سبعة وعشرين سطرا .

(١) صبح الأعشى ١٠/١٩٥ وتجد بعضها في النموذج ١٢ من الأمويين .

(٢) تاريخ الطبري ٨/٢٩٤ . (٣) الكامل للمبرد ٢/٢٩٧ .

(٤) صبح الأعشى ٦/٣٨٧ . (٥) العقد الفريد ٣/٨ .

(٦) الطبري ٨/٢٩٣ .

وطى الرغم من أن كتب عمر بن عبد العزيز - إلا قليلا منها - موجزة جدا ،  
فإن رسالته إلى بعض جنوده<sup>(١)</sup> بلغت تسعة وأربعين سطرا .

٢ — وأما المتوسطة فمنها رسالتا معاوية إلى زياد<sup>(٢)</sup> ، ورسالة نجدة بن عامر  
الحنفي إلى نافع بن الأزرق<sup>(٣)</sup> ، ورد نافع عليه<sup>(٤)</sup> .

— ٥ —

### ١٠ اقتباس من القرآن الكريم

تبين في دراسة الخطابة أن الخطباء كانوا يقتبسون من القرآن الكريم .  
وكذلك كان يفعل الكتاب في رسائلهم .

١ — من هذا في رسائل الأمويين قول زياد لمعاوية<sup>(٥)</sup> : « إنما يكفر النعم ،  
ويستدعي النقم » من حاد الله ورسوله ، وسعى في الأرض فسادا .

٢ — وفي رسائل الشيعة قول محمد بن الحنفية : « ففعدت في البلد الحرام الذي  
« من دخله كان آمنا » . وتركت الناس : « قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم  
أعلم بمن هو أهدى سبيلا » فإن أبيت « فأرض الله واسعة » و « العاقبة للمتقين »<sup>(٦)</sup> .

وفي رسالة المختار إلى ابن الحنفية : « وإن يعجز الله من بقى ، ولست بمنعجم  
عنهم حتى لا يبلغنى أن على أديم الأرض منهم إرمييا<sup>(٧)</sup> .

٣ — وفي رسائل الخوارج استدلال نجدة في رسالته لنافع<sup>(٨)</sup> بعدة آيات  
قرآنية ، مثل « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون  
ما ينفقون حرج ، إذا نصحوهم الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل »<sup>(٩)</sup> ومثل :

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٩١ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ .

(٢) رقم ٢ ، ٣ من الأمويين . (٣) رقم ١ من الخوارج (٤) رقم ٢

(٥) رقم ٣ (٦) رقم ٤

(٧) رقم ٥ من قوله تعالى على لسان نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين

ديارا » . سورة نوح ٢٦ . (٨) رقم ١ (٩) سورة التوبة ٩١

« ولا تزر وازرة وزر أخرى <sup>(١)</sup> » ومثل « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم <sup>(٢)</sup> » .

وفي رد نافع عليه <sup>(٣)</sup> عدة آيات ، مثل : « الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه » <sup>(٤)</sup> ومثل « قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها <sup>(٥)</sup> » ومثل « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله <sup>(٦)</sup> » ومثل « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم <sup>(٧)</sup> » .

٤ - وفي وسائل الزبير بين كقول المهلب <sup>(٨)</sup> للحارث بن عبد الله أمير البصرة من قبل ابن الزبير : الحمد لله رب العالمين الذي من عنده النصر ، وهو العزيز الحكيم <sup>(٩)</sup>

## — ٦ —

### التأثر بالشعر

عرفت في دراسة الشعر أن القوم كانوا كلهم به ، وعرفت في دراسة الخطابة أنهم طالما استشهدوا بالشعر ، وتأثروا به .

وقد ظهر هذا الكلف في الرسائل أيضا ، في ثلاثة مظاهر :

#### ١ - رسائل كلها شعر :

بعض الرسائل شعر صرف ، اكتفى به المرسل في تعبيره عما يريد .

١ - من هذا أن معاوية كتب إلى عليّ بأبيات كتب بن جُمَيْل :  
أرى الشام تكره مُلك العراق وأهل العراق له كارهون

---

(١) سورة فاطر ١٨ . (٢) سورة النساء ٩٥ .  
(٣) رقم ٢ . (٤) سورة الزمر ١٤ . (٥) سورة النساء ٩٧ .  
(٦) سورة التوبة ٨١ . (٧) سورة التوبة ٩٠ . (٨) رقم ٤ .  
(٩) من سورة الصفات ١٨٢ ومن سورة المائدة ١١٨ .

وكلُّ صاحبٍ — مُبغضٍ يرى كل ما كان من ذلك ديناً  
وقالوا على إمامنا فقلنا رضيينا ابن هند رضيينا

.....

٢ — فطلب على من النجاشي أن يرد عليه فقال :

دَعَنْ معاويةَ ما لن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا  
أناكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟  
فإن يكره القوم ملك العراق فَقَدْ مَارِضِينَا الَّذِي تَكْرَهُونَا

.....

٣ — وكان سبرة بن الجعد الشيباني خارجياً من أتباع قطري ، ثم اتصل  
بالحجاج فأعجب الحجاج به ، وقربه ، واتخذه سيّره ، ولم يك يطلب شيئاً من  
الحديث إلا وجد عنده علماً منه .

وكان قطري حينئذ يحارب المهلب ، فعلم بمكان سبرة من الحجاج ، فكتب  
إليه بأبيات منها <sup>(٢)</sup> :

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا	إذا نحن رحنا في الحديد المظاهر
نجاهد فرسان المهلب كلنا	صبور على وقع السيوف البواتر
وراح يجر الخزء عند أميره	أمير بتقوى ربه غير أمر
أبا الجعد أين العلم والحلم والنهي	وميراث آباء كرام العناصر ؟
ألم تر أن الموت لاشك نازل	ولابد من بعث الألى في المقابر
حفاة عراة والتراب لديهم	فمن بين ذى ربح وآخر خاسر
فإن الذى قد نلت يَفْنَى وإلما	حياتك في الدنيا كوقعة طائر

فراجع أبا جعد ولاتك مفضبا على ظلمة أغشت جميع النواظر  
وتب توبة تهدي إليك شهادة فإنك ذو ذنب وامت بكافر  
وسر نحونا تلق الجهاد غنيمة تفدك ابتياعا رابحا غير خاسر  
هي الغاية القصوى الرغيب ثوابها إذا نال في الدنيا الفنى كل تاجر

٤ — فلما قرأ سيرة كتاب قطري بكى ، وركب فرسه ، وأخذ سلاحه ،  
ولحق بقطري ، وطلبه الحجاج فلم يدركه ، وكان قد ترك للحجاج كتابا من  
سبعة أبيات <sup>(١)</sup> .

وهذا النوع من الكتب الشعرية كثير ، مثل كتاب البختري بن أبي  
صفرة <sup>(٢)</sup> ، وكتاب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام ، ورد هشام عليه <sup>(٣)</sup> ،  
وكتاب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد <sup>(٤)</sup> ، وكتاب قطري إلى أبي خالد  
القناني ، ورد أبي خالد عليه <sup>(٥)</sup> ، وكتاب من معاوية إلى ابن الزبير ، ورد  
إلى ابن الزبير عليه <sup>(٦)</sup> .

### (ب) رسائل مزيلة بالشعر :

وبعضها كان يذيل بالشعر ، ليكون خاتمة قوية الأثر ، كما كان يحدث في بعض  
الخطب <sup>(٧)</sup> .

### من الكتب المذيلة بالشعر ؟

٨ — كتاب من عبد الملك إلى الحجاج <sup>(٨)</sup> لما أسرف في قتل أسارى دير  
الجماجم ، فقد لأمه عبد الملك على قسوته ، وعلى تبذير الأموال ، وحكم عليه

(١) راجع مروج الذهب ١٣٩/٢ (٢) الأمل ١٣٦/٢  
(٣) ذيل الأمل ٢٢٤ (٤) النموذج رقم ١٣ من الأمويين  
(٥) رقم ٤ ، ٥ من الخوارج (٦) الإمامة والسياسة ١٣٠/١  
(٧) رقم ٥ من الأمويين ورقم ٢ من الشيعة (٨) مروج الذهب ١٣٦/٢



في الخطأ الدية ، وفي العمد القوود ، وبرد الأموال إلى مواضعها ، ثم التصرف فيها بما يراه أمير المؤمنين . . . ثم ذيل الكتاب بهذه الأبيات :

إذا أنت لم تطلب أمورا كرهتها      وتطلب رضائي بالذي أنت طالبه  
وتخشى الذي يخشاه مثلي هاربا      إلى الله منه ، ضيع الدرّ حالبه  
فإن ترّ مني غفلة قرشية      فيا ربما قد غصّ بالماء شاربه  
وإن ترّ مني وثبة أموية      فهذا وهذا كلُّ ذا أنا صاحبه

. . . . .

٢ — ثم رد عليه الحجاج بكتاب ذيله بالشعر<sup>(١)</sup> ، من الوزن والقافية .

٣ — والتذييل بالشعر كثير ، مثل كتاب الوليد بن عبد الملك إلى أخيه سليمان ، ورد سليمان عليه<sup>(٢)</sup> ، وكتاب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد<sup>(٣)</sup> ، وكتاب معاوية إلى الحسن<sup>(٤)</sup> وكتاب الحسن إلى معاوية<sup>(٥)</sup> .

وفي قليل منها استشهاد بالشعر في صلب الكتاب ، كما نجد في رسالة من عبدالله بن الزبير إلى عبدالله بن عباس<sup>(٦)</sup> .

### (ح) معانٍ شعرية :

وفي بعضها نثرٌ للشعر ، واقتباس من معانيه ، كما فعل معاوية في كتابه الثاني لزياد ، إذ قال : « أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء ، فكنت كتاركة بيضها بالعراء ، وملحفة بيض أخرى جناحها »<sup>(٧)</sup> وهو بهذا قد نثر قول ابن هرمة :

وإني بتركي ندى الأكرمين      وقدحى بكفى زنادا شحاحا  
كتاركة بيضها بالعراء      ومُلبسة بيض أخرى جناحا<sup>(٨)</sup>

(٢) مروح الذهب ٢ / ١٥٦

(١) مروح الذهب ٢ / ١٣٧

(٤) رقم ٥

(٣) تاريخ الطبري ٩ / ٩٢ والعقد الفريد ٢ / ٢٩٧

(٨) الشعر والشعراء ٢٨٩

(٧) رقم ٤

(٦) رقم ٥

(٥) رقم ٢

### التهديد

في بعض الرسائل شبه بالخطابة في التهديد ؛ لأنها صادرة عن انفعال تأثر أو غاضب .

ففي رسالة من معاوية إلى زياد قوله : « أقسم ألا أوتى بك إلا في زمارة ، تمشى حافيا من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيمك في السوق ، وأبيعك عبداً<sup>(١)</sup> » .

وفي رسالة من زياد إلى معاوية قوله : « لولا حلم ينهاني عنك ، وخوفي أن أدعى سفيها ، لأثرت لك محازي لا يغسلها الماء . . . فإن كنت ابن سُمَيَّة ، فأنت ابن حمامة<sup>(٢)</sup> » .

وفي رسالة من المختار بن أبي عبيد إلى محمد بن الحنفية قوله بعد انتصاره على عمر بن سعد بن أبي وقاص : « ولست بمنجم عنهم حتى لا يبلغني أن على أديم الأرض منهم إرميا<sup>(٣)</sup> » .

وفي رسالة من عبدالله بن الزبير<sup>(٤)</sup> إلى عبدالله بن عباس ، لما بلغه أنه يقدر فيه ، بعد أن أخرجه من مكة إلى الطائف ، قوله : « أقسم بالله لئن لم تنته عما بلغني عنك ، لتجدن جانبي خشنا ، ولتجدتنى إلى ما يردعك عنى عجلا ، فإن أشقى<sup>(٥)</sup> بك شقاؤك على الردي ، فلا تلم إلا نفسك » .

### المحاجة

يتجلى في الرسائل المتبادلة الحرص على تنفيذ الحجة ، والرد على الخصم بما يفوت عليه غرضه ، في ترتيب للفكرة ، ونقض للدعوى ، كما حدث في الخطابة .

(١) رقم ٢ من الأمويين . زمارة : جماعة تزم . (٢) رقم ٣ .  
(٣) رقم ٥ . (٤) رقم ٥ . (٥) أشقى : أشرف .

نجد هذا واضحاً في كتاب معاوية لزياد<sup>(١)</sup> ، ورد زياد عليه<sup>(٢)</sup> .

وفي كتاب معاوية<sup>(٣)</sup> لعليّ ورد عليّ عليه<sup>(٤)</sup> .

وفي كتاب الحسن إلى معاوية رداً على دعوته الحسن لقتال الخوارج<sup>(٥)</sup> ،

وفي رسالة نجدة<sup>(٦)</sup> إلى نافع ، ورد نافع عليه<sup>(٧)</sup> .

## - ٩ -

### قصر الجمل وتوازنها

تأثرت الكتابة سنن الخطابة في قصر الجمل وتوازنها في الطول ، لتكون أسرع في تأدية الفكرة ، وأقوى في التأثير ، وأبقى في النفس .

١ - من أمثلة ذلك في رسائل الأمويين قول معاوية لعلي : « وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ، وليس لبعضنا على بعض فضل ، يستذل به عزيز ، ويسترق به حر<sup>(٨)</sup> » .

وقول الحجاج لقطرى : « كنت أعرانياً بدويا ، تستطعم الكسرة ، وتخف إلى النمرة ، ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق ، واعتضت على كتاب الله ، ومزقت من سنة رسول الله<sup>(٩)</sup> » .

٢ - ومنه في رسائل الشيعة ، قول علي لمعاوية : « ليس أمة كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبي طالب ، ولا الطليق كالمهاجر ، ولا المبطل كالمحق<sup>(١٠)</sup> » .

وقول ابن الحنفية لعبد الملك : « وقد بعثت إليك منا رسولا ، ليأخذ لنا منك

(١) رقم ٢ (٢) رقم ٣ (٣) رقم ١ من الأمويين .

(٤) رقم ١ من الشيعة (٥) رقم ٣ من الشيعة (٦) رقم ١ من الوارج

(٧) رقم ٢ من الخوارج (٨) رقم ١ (٩) رقم ١٠

(١٠) رقم ١

ميثاقا ، ونحن أحق بذلك منك ، فإن أبيت فأرض الله واسعة ، والعاقبة للمتقين<sup>(١)</sup> .

٣ — ومنه في رسائل الخوارج قول نجدة لنافع : « لما شريت نفسك في طاعة ربك ، ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحق قصه ، وركبت مره ، وتجرد لك الشيطان ، فاستمالك واستهواك ، واستغواك وأغواك ... فإن الله عز ذكره بالمرصاد ، وحكمه العدل ، وقوله الفصل<sup>(٢)</sup> » .

٤ — ومنه في رسائل الزيريين قول عبد الله بن الزبير : « بعثت إلينا رجلا أخرج ، لا يتجه لأمر رشد ، ولا يرعوى لعظة الحكيم ... فانظر في ذلك ، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا<sup>(٣)</sup> » .

وقول المهلب : « نقدم ويحجمون ، ونحل ويرتحلون ، إلى أن حللنا سوق الأهواز ، والحمد لله رب العالمين<sup>(٤)</sup> » .

## — ١٠ —

### الخيال

لم تلتزم الرسائل في هذا العصر التعبير بالألفاظ في مواضعها الحقيقية ، ففي كثير منها مجاز وخیال ، وفي بعضها تمثيل وتصوير .

ولعل هذه النزعة هي الخطوة الأولى إلى مزاحمة الكتابة للشعر في تخيله وتصويره ، ثم جاء العصر العباسي ، فالتسعت الخطا وتلاحقت ، وصار النثر الفنى شعراء منشورا .

١ — تجد هذا في بعض رسائل الأمويين ، كقول معاوية لزياد يسخف توا كاه عن نصرته في الثأر لعثمان : « وإن الشجرة لتضرب بعرقها ، وتتفرع من أصلها » وقوله : « وإلا اختطفتك بأضعف ريش<sup>(٥)</sup> » .

(٣) رقم ١

(٢) رقم ١

(١) رقم ٤

(٥) رقم ٢

(٤) رقم ٧

وقوله في رسالة ثانية لزياد : كنتَ كتاركةً بيضها بالعراء ، ومُلحفةً  
بيض أخرى جناحها ... فاعلم أنك لو خضت البحر في طاعة القوم ، فتضرب  
بالسيف حتى ينقطع متنه ، لما ازددت منهم إلا بعدا ... فإن بني عبد شمس ،  
أبغض إلى بني هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع ، وقد أوثق للذبح<sup>(١)</sup> .

وقول زياد لمعاوية . « وجدتكَ كالغريق يغطيه الموج ، فيتشبث بالطحلب ،  
ويتعلق بأرجل الضفادع ... هل رأيت بازياً يفرعه صغير القنابر ؟ أم هل سمعت  
بذئب أكله خروف<sup>(٢)</sup> ؟ »

٢ - وفي رسائل الخوارج ، كقول نَجْدَةَ لنافع . « إن عهدي بك ،  
وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأخ البر ... فلما أصبت من الحق  
فصه ، وركبت مره ، تَجَرَّدَ لك الشيطان<sup>(٣)</sup> . . . »

وقول قطري للحجاج : « لئن أبرز الله لي صفحتك ، وأظهر لي صلعتك ،  
لتنكرن شعبك ، ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ، ليس كتسكير الأمثال<sup>(٤)</sup> . »

٣ - وفي بعض رسائل الزبيريين ، كقول المهلب بعد انتصاره في إحدى  
المواقع على الأزارقة : « فأعقب الله خير عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ،  
فصاروا دريئة رماحنا ، وضرائب سيوفنا<sup>(٥)</sup> . »

## - ١١ -

### المرحاة إلى أهداب وأسمار

في بعض كتبهم إحالة إلى أخبار أو أشعار ، اعتماداً على كثرة حفظهم ،  
وحفظ من يكتبون إليه .

٢ - فقد كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج لما هزم ابن الأشعث :  
« أما بعد ، فما لك عندي مثل إلا قدح ابن مقبل<sup>(٦)</sup> ؟ فلم يعرف الحجاج ماذا

---

(١) رقم ٤ (٢) رقم ٣ (٣) ١ (٤) رقم ٣  
(٥) رقم ٩ (٦) تميم بن مقبل شاعر مخضرم . قدح : سهم من سهام الميسر .

أراد الخليفة ، فكتب إلى قتيبة بن مسلم الباهلي يقول : إن ابن مقبل من أهلاك ،  
وقد كتب إلى أمير المؤمنين بكذا ، فمرؤفني قدحه .

فكتب إليه قتيبة .

إن هذا القدح فاز تسمين مرة ، لم يخب فيها مرة واحدة ، حتى ضرب  
به المثل ، فقال ابن مقبل ينفعه :

خَرُوجٌ مِنَ الْغُمَى إِذَا سُكَّ سَكَةٌ

بَدَأَ وَالْعَيُونُ الْمُسْتَكْفَةُ تَلْمَحُ<sup>(١)</sup>

مُقَدَّى ، مُؤَدَّى بِالْيَدَيْنِ ، مُنْعَمٌ

خَلِيعٌ قَدَاحٍ فَائِزٌ مُتَمَنِّحٌ<sup>(٢)</sup>

إلى آخر الأبيات<sup>(٣)</sup> .

٢ — وكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بقوة الخوارج مع قطرى ،  
فرد عليه عبد الملك<sup>(٤)</sup> :

أما بعد ، فإني أحمد إليك السيف ، وأوصيك بما أوصى به البكرى زيدا .  
فلم يفهم الحجاج ما عناه عبد الملك ، وجعل عشرة آلاف درهم لمن يدلّه على المراد  
حتى علم أن البكرى قال :

أَقُولُ لَزِيدٍ لَا تَبَرَّ فَإِنَّهُمْ يَرُونَ الْمَنَازِلَ دُونَ قَتْلِكَ أَوْ قَتْلِي

فَإِنْ وَضَعُوا حَرْبًا فَضَعْنَاهَا ، وَإِنْ أَبَوْا فَشَبَّ وَقُودَ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزَلِ

وَإِنْ عَضَّتْ الْحَرْبُ الضَّرُوسَ بَنَابِهِمْ

فَمَرْصُةٌ حَدَّ السَّيْفِ مِثْلَكَ أَوْ مِثْلِي

(١) الغمى : الشدة العظيمة . سك : ضرب . المستكفة : الناظرة .

(٢) مؤدى باليدين : يحمل بهما معا اعتزازا به . خليع : القدح الفائز أولا . متمنح :

مانح معط . (٣) جمهرة الأمثال لأبي هلال ١٩/٢

(٤) مروج الذهب ١٥٩/٢



فقال الحجاج : صدق أمير المؤمنين ، وصدق البكرى .

٣ — وكتب عبد الملك إلى الحجاج<sup>(١)</sup> . « أنت سالم » فلم يعرف ما أراده ، فكتب الحجاج إلى قتيبة يسأله ، فرد عليه بأن سالما كان عبدالرجل ، وكان أثرا عنده ، وكان الناس يسعون به كثيرا ، فقال .

يُدِيرُونِي عَنْ سَالِمٍ وَأَدِيرُهُمْ وَجِلْدَةً مَا بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٍ  
فَأَرَادَ عَبْدُ الْمَلِكِ أَنَّكَ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ سَالِمٍ .

### سجع غير مستكره

في بعض رسائلهم سجع في غير تكلف ظاهر .

١ — من أمثله في رسائل الأمويين قول معاوية لزياد ، « فإنك عبد قد كفر بالنعمة ، واستدعيت النعمة ... فإنك إن تفعل فدمك حقنت ، ونفسك تداركت »<sup>(٢)</sup> .

وقوله في رسالة ثانية له : « كأنك لست أخى ، وليس صخر بن حرب أباك وأبى ... أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء ، فكنت كتاركة ييضها بالعراء »<sup>(٣)</sup> .

وقول الحجاج لقطرى . « كنت أعرابيا بدويا تستطعم الكسرة ، وتخف إلى التمرة »<sup>(٤)</sup> .

٢ — ومنه في رسائل الخوارج قول نجدة لنافع : « عهدى بك وأنت لليتيم ، كالأب الرحيم . لا تأخذك في الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم ... استمالك الشيطان واستهواك ، واستغواك وأغواك »<sup>(٥)</sup> .

وقول قطرى للحجاج : « فهلا برز لى من حزبك من نال الشبع ، وانكا »

(١) مروح الذهب ٢/ ١٢٨ (٢) الرسالة ٢ (٣) رقم ٤

(٤) رقم ١٠ (٥) رقم ١

فاتدع ؟ أما والله لئن أبرز الله صفحتك ، وأظهر لي صلمعتك ، لتسكن شعبك ، ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ، ليس كتسكير الأمثال <sup>(١)</sup> .

٣ — ومنه في رسائل الزبيريين قول المهلب : « ثم تاب أهل الحفاظ والصبر بنياب صادقة ، وأبدان شداد ، وسيوف حداد ... فصاروا دريئة رماحنا ، وضرائب سيوفنا » <sup>(٢)</sup> .

وقول الحارث في الرد عليه : « قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزها ، وذخر لك ثواب الآخرة وأجرها ، ورأيتك أبا السياسة ، وذا الرياسة » <sup>(٣)</sup> .

### — ١٣ —

#### المرسل والمرسل إليه

سبق في التمهيد أن النظام الذي كان متبعاً في صدر الإسلام أن يكتب المرسل بقوله : من فلان إلى فلان ، فإذا كان المتكوب إليه خليفة لم يزد الكاتب على قوله : من فلان إلى أمير المؤمنين فلان .

وقد بقي هذا النظام سائداً في العصر الأموي إلى عهد الوليد بن عبد الملك ( ٨٦ - ٩٦ ) . حيث كانت الدولة قد خطت خطوات فساحاً في مجال التحضر ، وكانت مظاهر الأبهة قد شملت كثيراً من مرافق الحكم ، فأنف الوليد أن يكتب إليه عماله وشعبه ، مقدمين أسماءهم على اسمه ، فصاروا يكتبون إليه مقدمين اسمه على أسمائهم هكذا : إلى أمير المؤمنين الوليد من فلان بن فلان .

ثم عاد النظام القديم في عهدي عمر بن عبد العزيز ويزيد الثاني ( ٩٩ - ١٠٥ ) لكنه مالبث أن توارى ، ورجع الناس إلى نظام الوليد .

وأغلب الظن أن هذه الخواص التي تميزت بها الرسائل في العصر الأموي تنبئ عن تطور وسير إلى الترقى ، فما الأسباب التي دفعت الرسائل إلى هذا الاتجاه ؟ ذلك موضوع الفصل الآتي .

## فصل السادس

### عوامل ازدهانها

مارس العرب كتابة الرسائل في صدر الإسلام ، ثم أكثروا من ممارستها في العصر الأموي ، وقد تضافرت عوامل شتى على النهوض بها ، وعلى تطورها .

— ١ —

#### صبرورها صناعة :

اتسعت الدولة وتعددت شئونها ، وتلاحقت الحاجة إلى كتابة الرسائل السياسية وكان الخلفاء في شغل بشئون الملك ، وتصريف السياسة ، فلم يجدوا من وقتهم ما يسعفهم بأن يتولوا كتابة الرسائل بأنفسهم ، أو يملوها على غيرهم ليكتبها ، كما كان يحدث في صدر الإسلام وفي بدء العهد الأموي ، فوكلوا كتابتها إلى كتاب من العرب أو من الموالي الخاضعين للعربية .

وقد بدأ بهذا عبد الملك بن مروان ، إذ اتخذ سليمان بن سعد كاتباً له على الرسائل .

وما زال بنو أمية يفعلون مثل ما فعل عبد الملك ، حتى صارت الكتابة في آخر عهدهم صناعة متميزة ذات نظم خاصة ، وكثر الكتاب ، وتعددت دواوين الكتابة (١) .

---

(١) لم يكن من الدواوين في صدر الإسلام غير ديوان الجند الذي أنشأه عمر لما اتسعت الفتوح وزاد عدد المقاتلين عن الحصر . وديوان الخراج الذي كان في كل مصر فتحة العرب ، للمحاسبة وليس في هذين الديوانين مجال للبراعة الأدبية .

ثم زاد معاوية ديوان الرسائل وديوان الخاتم ، ليتولى ختم الرسائل المرسلة من الخليفة =  
( م ٢٨ — الأدب السياسي )

ولاشك أن هؤلاء الكتاب الذين عهد إليهم الخلفاء بكتابة الرسائل كانوا من عوامل رقى الكتابة وتطورها .

أما كتاب الرسائل الرسمية فقد تأنقوا فيها ، وجودوها ، وطبعوها بطابع خاص .

وأما كتاب الدواوين فقد طوعوا اللغة ، وغزوا بها ميادين كانت حوى للغات آخر .

ذلك أن ديوان الخراج بالشام كان بالرومية ، إلى أن أمر عبد الملك - أو ابنه هشام أو سليمان - كاتبه سليمان بن سعد بتحويله إلى العربية (١) .

وكان ديوان الخراج بالعراق بالفارسية ، فخاكي الحجاج الخليفة ، فأمر صالح ابن عبد الرحمن مولى بني تميم بتحويله إلى العربية (٢) .

وكان ديوان الخراج بمصر بالقبطية ، فأمر عبد الله بن عبد الملك - والى مصر في خلافة أخيه الوليد - بنقل لغته إلى العربية ، ونهض بهذا ربوع الفزارى .

## — ٢ —

### نمو الثقافة العربية :

نمت الثقافة العربية وتطورت في هذا العصر ، سواء أكانت دينية عمادها القرآن الكريم وتفسيره ، والحديث وروايته ، والفقه والتشريع ، أم أدبية قوامها اللغة والشعر والتاريخ والأخبار والأنساب ، أم علمية دخيلة بواكيرها مسائل في الطب والمنطق والكيمياء والنجوم والمذاهب الدينية .

حتى لا يطلع عليها أحد غير المرساة إليه : وكان سبب إنشائه أن معاوية أحال رجلاً على زياد واليه على العراق بمئة ألف درهم ، فضى الرجل فجعلها مئتين . فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكره ، وقال : ما أحلته إلا بمئة ألف . ثم وضع ديوان الخاتم ، فصارت الكتب تصدر منه محتومة ، لا يعلم أحد بما فيها ، ولا يغير شيئاً مما بها . ( الآداب السلطانية للفخرى ) .

(١) العقد الفريد ٣٢٢/٢ فحج البلدان البلاذرى ١٩٣ ، ٣٠٠ والمأوردى ٣٤٠

(٢) الفهرست ٣٥٢

والفهرست ٣٤٣

١ — نعم ، كثر في هذا العصر حفظة القرآن الكريم ودارسوه وفسروه ،  
وهملوه وشاعت رواية الحديث ، واستنباط الأحكام من القرآن والحديث <sup>(١)</sup> .

وكانت هناك مؤلفات ومدونات فقد أحرق عروة بن الزبير يوم الحرة كتب  
فقه له ، ثم أسف عليها بعد ذلك ، وكان يقول : لأن تكون عندي أحب إلى من  
أن يكون لي مثل أهلي ومالي <sup>(٢)</sup> . وكانت الدفاتر المدونة من علم الزهري كثيرة  
جدا في خزانة الوليد <sup>(٣)</sup> .

وكان ابن شهاب الزهري إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله ، فيشتغل بها  
عن كل شيء من أمور الدنيا ، فقالت له امرأته يوما : والله لهذه الكتب أشد على  
من ثلاث ضرائر <sup>(٤)</sup> .

وكثيرا ما يخطئ المؤرخون لتدوين الحديث ، فيظنون أن لم يدون إلا في  
القرن الثاني .

وحسبنا في نفي هذا الظن أن نضرب عدة أمثلة تكشف عن كلف بعض  
المسلمين بتدوين الحديث من عهد مبكر .

---

(١) اشتهر بالتفسير والفقه عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعروة بن الزبير وعلى  
وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير ، ثم عطاء بن أبي رباح ومجاهد وعكرمة  
وسعيد بن جبير .

واشتهر بالحديث في المدينة سالم ونافع وعروة بن الزبير والزهري وزيد بن ثابت وعبد الله  
ابن عمر وسعيد بن المسيب .

واشتهر بالحديث في مكة عكرمة وعطاء بن أبي رباح وابن أبي مليكة وعبد الله بن عباس  
ومعاذ ومجاهد وطاوس بن كيسان .

واشتهر بالحديث في البصرة الحسن البصري وابن سيرين وأبو موسى الأشعري وأنس  
ابن مالك وقتادة ومالك بن دينار وإلياس بن معاوية .

واشتهر بالحديث في الكوفة عبد الله بن مسعود وعامر بن شراحيل وشريح القاضي  
والشعبي وسعيد بن جبير والنخعي .

واشتهر من محدثي الشام مكحول والأوزاعي ، ومن محدثي اليمن وهب بن منبه وطاوس  
ومن محدثي مصر أبو تميم والصابحي .

(٣) الطبقات ٢/٢/١٣٦

(٢) الطبقات الكبرى ٥/١٣٢

(٤) رفيات الأعيان ٣/٣١٧

فقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص يدون ما يسمع عن رسول الله . حدث مجاهد أنه رأى عند عبد الله صحيفة فسأله عنها ، فقال له : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بيني وبينه فيها أحد (١) .

وكتب هام بن منبه ( ٤٠ - ١٣١ هـ ) عن أبي هريرة كثيرا من الأحاديث النبوية التي رواها أبو هريرة عن رسول الله ، في صحيفة سماها الصحيحة ، وقد عثر عليها أخيرا الدكتور محمد حميد الله في مخطوطتين متماثلتين بدمشق وبرلين (٢) . ومنها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ١٩٨١ حديث .

ولهذه الصحيفة قيمة تاريخية عظيمة ، لأن أبا هريرة توفي سنة ٥٨ أو ٥٩ هـ فهي إذاً مدونة قبل وفاته .

وزيدنا ثقة بها أن الإمام أحمد بن حنبل نقلها في مسنده ، وأن البخاري نقل كثيرا منها في صحيحه ، وأن ابن حجر ذكر أن هام بن منبه سمع من أبي هريرة نحو أربعين حديثا ومائة (٣) ، وبالصحيفة ثمانية وثلاثون حديثا ومئة ، وليس بين تقدير ابن حجر والعدد الحقيقي خلاف .

ثم جاء عمر بن عبد العزيز ، فأراد أن يقف تيار الكذب على رسول الله ، وأن يسجل الصحيح من أحاديثه ، فكتب إلى أبي بكر بن حزم نائبه على المدينة أن يدون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل أن يضيع العلم ويفنى العلماء . فكتب أبو بكر أحاديث كانت عند بعض الناس .

ولم يكتف عمر بهذا ، بل أمر محمد بن مسلم الزهري أن يدون الحديث الصحيح فدونه مراعى شروط الرواية الصحيحة .

وتتابع المدونون بعد ذلك إلى أن ظهرت طبقة الإمام مالك والأوزاعي والثوري وغيرهم .

٢ — أما اللغة والشعر فقد كانت العناية بهما والتنافس في روايتهما وحفظهما لا تقل عن العناية بالحديث ، فكان هناك ، رواة حفاظ يشافهون الأعراب ، ويدونون .

(١) الطبقات ٧/١٨٩

(٢) الطبقات الكبرى ٢/٢/١٣٦ (٣) أقدم تدوين في الحديث النبوي ( صحيفة هام .

(٤) تهذيب التهذيب ١١/٦٧

( ابن منبه )



عنهم ، وهناك رواة حفاظ يلزمون الشعراء وينذعون شعرهم ، وهناك إخباريون يقصون أيام العرب وما قيل فيها من شعر .

ذكر ابن النديم أنه كان بمدينة الحديثه (١) جماع للكتب اسمه محمد بن الحسين له خزانة كتب لم ير ابن النديم لأحد مثلها كثرة ، تحتوي على كتب عربية في النحو واللغة والأدب ، وكان هذا الرجل ضئيلا بكتبه خائفا عليها من بني حمدان ، لكنه أنس بابن النديم ، وأطلعته على نحو ثلاث مئة رطل من جلود وسكك وقراطيس وورق فيها تعليقات عن العرب ، وقصائد من أشعارهم ، وفيها نحو وأخبار وأنساب وعلوم شتى من علوم العرب وغيرهم . . . . وكان في جملتها مصحف بخط خالد ابن أبي الهيثاج صاحب على . . . وأمانات وعمود بخط على وبخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها جملة من خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي ، وخطوط من أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم (٢) .

وذكر الجاحظ أن خطب النبي وأبي بكر وعمر وعثمان وطلح كانت مدونة مجموعة في كتب (٣) .

وذكر أبو الفرج أن عبد الحكيم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي - من رجال العصر الأموي - جعل في بيته أدوات لأهل اللعب ودفاتر فيها من كل علم ، وأباح لزواره أن يقرأوا فيها وأن يلعبوا (٤) .

وكانت الكتب التي دونها أبو عمرو وابن العلاء عن فصحاء العرب قد ملأت حجرة إلى ما يقرب من سقفها ، فلما تنسك أحرقها كلها ، فلما رجع إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية (٥) .

٣ - كذلك اشتهر أناس برواية التاريخ وقص الأخبار ، وعرف هذا منذ مطلع الدولة ، فكان معاوية يجلس إلى ثلث الليل يستمع أخبار العرب وأيامها ، وأخبار

(١) هناك حديثه بالموصل وأخرى بالفرات وثلاثة من قرى غوطة دمشق (معجم البلدان)

(٢) البيان والتبيين ١/٢٠١

(٣) الفهرست ٦٦

(٤) وفيات الأعيان ٣/١٣٦ .

(٥) الأغاني ٤/٥٢

العجم وملوكها ، وسياستها لرعيتهما ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة وحروبها ومكايدها ، وكان يقرأ له ذلك غلمان مرتبون موكلون بقراءة الدفاتر والمحافظة عليها . واشتهر بالتاريخ عُبَيْدُ بْنُ شَرِيَّةٍ — من عرب اليمن — حتى لقد استدعاه معاوية إلى دمشق ليروي له أخبار ملوك العرب القدامى وأحوالهم . وقد ألف عدة كتب منها كتاب الملوك وأخبار الماضين<sup>(١)</sup> ، وقد بقي هذا الكتاب إلى عصر المسعودي ( المتوفى سنة ١٤٦ ) .

وينسب إلى عبيد كتاب في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ، وهو فصل في كتاب التيجان في ملوك حمير ، رواية ابن هشام عن وهب بن منبه<sup>(٢)</sup> .

كذلك اشتهر بالأخبار كعب الأخبار المتوفى سنة ٣٢ هـ أو ٣٤ هـ وهب ابن منبه مؤلف التيجان ، وتميم الداري ويزيد بن مَقْرَعٍ الحميري ، وكان وهب وكعب وغيرهما من اليهود الذين أسلموا حملة لكثير من قصص التلمود إلى العرب .

وكان زياد بن أبيه قد ألف كتابا في علم الأنساب نال فيه من أنساب العرب لما طعنوا في نسبه إلى أبي سفيان<sup>(٣)</sup> .

وكان هناك قصاص العامة يقصون على الناس في المساجد ويعظونهم ، وقد بدأ هذا تميم الداري في عهد عمر ، ومن أعظم هؤلاء مكانة فيما بعد الحسن البصري . وكان الأعاجم الذين أسلموا يحيون تاريخهم ، ويثوثونه بين المسلمين ، ليأهوا بماضيهم المجيد نعمة العرب .

وكان المسلمون قد بدءوا يدونون أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام وما يتصل بغزواته ، ثم يدونون أنباء الفتوح والحروب والمواقع . فقد روى أن وهب بن منبه ( ٣٤ - ١١٠ هـ ) ألف كتابا في المغازي ، وأن عروة بن الزبير ( ٢٣ - ٩٤ ) ألف في سيرة الرسول ، وكذلك أبان بن عثمان بن عفان ( ٢٢ - ١٠٥ ) وروى أن ابن شهاب الزهري ( ٥١ - ١٢٤ ) جمع كتابا في المغازي ، وكذلك موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ .

(١) الفهرست ١٣٨ والأغانى ٤/٨ (٢) مطبوع بالهند . حيدر آباد سنة ١٣٤٧ هـ .

(٢) الفهرست ١٢٧ .

٤ — وذكروا أن صُحَّار بن العياش — من عبد القيس — وضع كتابا في الأمثال أيام معاوية (١)

وروا أن عُبَيْد بن شَرِيَّة الجرمي وضع كتابا آخر في الأمثال بعد صُحَّار ، في منتصف العصر الأموي تقريبا ، وقد رأى ابن النديم هذا الكتاب في نحو خمسين ورقة (٢) ، وكان عبيد قد أدرك الجاهلية (٣) .

ولعل من خير ما يبين عن ثقافة الكتاب في العصر الأموي قول عبد الحميد ابن يحيى في وصاته لهم (٤) : « فتنافسوا يامعشر الكتاب في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض (٥) ، ثم العربية ، فإنها ثقاف السنتكم ، ثم أجيدوا الخط ، فإنه حلية كتابكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم . ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج » .

### — ٣ —

#### الارتصال بالثقافة الأجنبية :

اندفع المسلمون في الأقاليم فاتحين ، في سرعة لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، فتحوا دمشق سنة ١٤ هـ وأكملوا فتح الشام والعراق سنة ١٧ ، وفتحوا مصر سنة ٢٠ ، وملكوا فارس سنة ٣١ وبلغوا سمرقند سنة ٥٦ ، وأخضعوا إسبانيا سنة ٩٣ .

وكانت هذه البلاد عامرة بالحضارة وثقافات شتى ، ففي فارس والعراق آداب وعلوم ، بعضها فارسي وبعضها يوناني ، وفي الشام ومصر فلسفة يونانية ،

(١) الفهرست ٩٠

(٢) الفهرست ٨٩

(٣) البيان والتبيين ١/٣٦١ (٤) صبح الأعشى ١/٨٥ ومقدمة ابن خلدون ٦٢٠

(٥) الفرائض : المراد هنا أحكام الميراث .

وفي إسبانيا ثقافة يهودية ورومانية ، وهنا وهناك آراء دينية ممزوجة بالفلسفة ، وفلسفة ممزوجة بعقائد دينية ، وقد فسح المسلمون صدورهم لهذه الثقافات ، فكان لها أثر عظيم في تطور الكتابة ورقياً .

١ — ولقد اتصل العرب بثقافة الإغريق ، وبآراء الدينية الممزوجة بالفلسفة ، بعد أن فتحوا العراق والشام بزمان غير طويل

ذلك بأنهم لما فتحوا العراق كانت فلسفة الإغريق وعلومهم رائجة هنالك ، وكان هذا التراث من أنفس ما كسبه العرب من هذا الفتح ، وكان من أقوى المؤثرات في عقولهم .

فقد كانت بالهلال الخصيب مدن عدة تنشر تراث الإغريق ، أهمها الرها مجتمع المسيحيين من أهل الشام ، وحرّان مقرّ الصابئة — عبدة النجوم — من الشاميين ، وأنطاكية المستعمرة الإغريقية القديمة ، وجنديسابور .

وكانت هذه المدارس وأشباهها منابع لفلسفة الإغريق وعلومهم ، وينايع للدراسة الدينية الممزوجة بالفلسفة منذ أواخر القرن الثالث الميلادي إلى آخر القرن السابع . ذكر ابن النديم أن سالماً مولى هشام بن عبد الملك كان يحقق اليونانية ، وقد ترجم منها بعض رسائل لأرسطو<sup>(١)</sup> .

٢ — وكان السريان بالشام على صلة وثيقة بثقافة الإغريق ، وكانوا قد ترجموا كثيراً من كتب اليونان إلى لغتهم .

وهؤلاء السريان اتصلوا بالدولة الأموية من عهد مبكر ، ثم تزايد اتصالهم على مر الزمن .

فقا كان يحيى الدمشقي<sup>(٢)</sup> نديماً ليزيد بن معاوية . ( ٦٠ — ٦٤ )

---

(١) الفهرست ١٧١ .

(٢) سوري يتكلم الآرامية ويجيد اليونانية والعربية ، ويكتب بهما ، وكان جده منصور بن سرجيوس سهل للمسلمين فتح دمشق ، وتولى لهم إدارة شئونها المالية . وكان أبو يحيى في هذا المنصب بعد والده منصور .

وقد تولى إدارة الديوان للمالى فى دمشق مدة طويلة ، وألف عدة مؤلفات فى العقيدة المسيحية والدفاع عنها ، وفى التاريخ والفلسفة والخطابة والشعر ، منها كتاب لإرشاد النصارى فى جدالهم مع المسلمين ، ومحاورة بين مسلم ونصرانى فى ألوهية المسيح ، ومحاورة فى حرية الإدارة ، وكانت بعض مناقشاته تحدث فى مجلس الخليفة (١)

وتتلمذ خالد بن يزيد بن معاوية للراهب الرومى مريانس ، وتعلم منه صناعة الطب والكيمياء ، وله ثلاث رسائل فى الصنعة ذكر فى إحداها ما كان بينه وبين مريانس ، وكيف تعلم منه ، والرموز التى أشار إليها (٢)

ويذكر ابن النديم أن خالداً هذا كان يسمى حكيم آل مروان ، وكان فاضلاً ومحباً للعلوم ، وأنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كانوا بمصر وتفصصوا بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى ، وكان هذا أول نقل فى الإسلام (٣)

ثم يذكر أنه كان جواداً ، قيل له : لقد شغلت نفسك بالصنعة ، فقال : ما أطلب بذاك إلا أن أغنى أصحابى وإخوانى ، إني طمعت فى الخلافة فلم أنلها ، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة ، فلا أترك أحداً عرفنى أو عرفته يقف بباب السلطان رغبة أو رهبة . وله فى الصنعة عدة كتب ورسائل ، رأيت منها نحو خمس مئة ورقة . ورأيت من كتبه كتاب الحرات وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة . (٤)

وكان ماسرجويه الطبيب اليهودى الفارسى الأصل قد سكن البصرة فى عهد مروان بن الحكم ، وهو الذى ترجم كتاباً سريانياً فى الطب إلى العربية ، كان قد ألفه باليونانية قسيس مسيحى من الإسكندرية اسمه أهرون .

وكان عبدالله بن عمرو بن العاص مع أبيه بمصر ، وقد قرأ بها كتب دانيال ، وكانت قریش تعد عبدالله عالماً (٥)

(٢) وفيات الأعيان ٤/٢ .

(٤) الفهرست ٥١١ .

(١) تاريخ العرب ٣١٤/٢ حتى .

(٣) الفهرست ٣٥٢ .

(٥) الطبرى ٢٧٥/٦ .

٣ - وما كاد القرن الأول يشارف النهاية حتى كان كثير من الأعاجم من فرس وروم قد تعلموا العربية ، وحذقوها ، وكتبوا بها ، وأضافوا إليها بعض رسوم فارسية ويونانية .

فالتاريخ يحدثنا أن عمر بن عبد العزيز ( ٩٩ - ١٠١ هـ ) أشار على بعض الروم الذين كانوا في قصره - وكانوا يعرفون العربية - أن يترجموا له بعض كتب اليونان ، فترجموا له كتابا في الطب ، وأخرجه للناس ، بعد أن استخار الله أربعين يوما .

ويحدثنا التاريخ أن عبد الحميد بن يحيى كان يعرف الفارسية ، ولعله كان يعرف اليونانية أيضا ، وقد كتب لهشام بن عبد الملك ( ١٠٥ - ١٢٥ ) ، ولروان بن محمد قبل أن يتولى الخلافة ، ثم لزمه لما وليها ( ١٢٧ - ١٣٢ ) ، إلى أن فر إلى مصر ، وسقطت الدولة .

## — ٤ —

### تقدير الكتاب :

على أن العوامل التي تحدثت عنها في نهضة الخطابة والشعر أنهضت الكتابة أيضاً .

ثم إن البلغاء ارتفعوا ببلاغتهم إلى أقدار رفيعة ، وكانت بلاغتهم وسيلة من وسائل مجدهم وغناهم ، وليس مثل هذا الحافز باعث على التجويد واستكمال العدة . ويدل على هذا قول عبد الحميد في وصيته للكتاب (١) : « إن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ، ومن بعد الملوك المكرميين أصنافا ، وإن كانوا في الحقيقة سواء ، وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب رزقهم ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية . بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ،

(١) صبح الأعشى ١/ ٨٥ ومقدمة ابن خلدون ٦٢٠ .



وبنصائحكم ، يُصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمُر بلادهم ، لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم ، فوقعكم من الملوك موقعُ أسماءهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون ... » .

— ٥ —

### الجدل :

وكان المسلمون قد انقسموا أحزابا سياسية وفرقا دينية ، وكان كثير من الموالى قد شايعوا هؤلاء وهؤلاء ، وقد تبين في دراسة الأحزاب وثوراتها أن الجدل بينها كان كثيرا ، حتى لقد كان الخصوم المتحاربون ينتهزون أحيانا هدنة موقوتة فيقبل بعضهم على بعض ، ويجادل بعضهم بعضا ، وكذلك كان الجدل حادا بين الفرق الدينية ، وكان جدال آخر بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى .

ولا شك أن هذا الجدل كان من أسباب نهوض الكتابة والخطابة .

أما الخطابة فقد أسلفت القول فيها ، وفي ظهور نوع جديد منها لم يكن في الجاهلية ، ولم يكن قد تميز ونضج في صدر الإسلام ، وهو الخطابة السياسية . وأما الكتابة فقد أنهضها هذا الجدل ، وزودها بكثير من تقاليد هؤلاء الموالى ورسومهم ومارفهم وثقافتهم وطرائقهم في الحاجة .

— ٦ —

وقد كان في العصر كاتبان لهما أثر حميد في نهضة الكتابة ، وإبراز حصائصها ، وإضافة تقاليد إليها .

أما أحدهما فسالم مولى هشام بن عبد الملك ، وأما الآخر فعبد الحميد بن يحيى  
تلميذ سالم .

ولا شك في أن لسالم وعبد الحميد أثرا في الكتابة الفنية ، لكنهما لم يبتدعاها ،  
ولم يضيفا إلى جوهرها أصولا جديدة ، وإنما توسعا في الخصائص الأصلية  
التي كانت معروفة من قبل ، وأضاف عبد الحميد بخاصة بعض مظاهر شكلية ،  
كما سأوضح في التدليل على عروبة النثر الفني وأصالته .

## لفصل السابع

### النثر الفني عربي المنشأ

رأى بعض المستشرقين أن العرب لم يعرفوا النثر الفني معرفة ذاتية ، وإنما نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان ، كالسيو مرسيه ، فهو يرى أن أول كاتب في اللغة العربية ابن المقفع الفارسي الأصل ، ويذهب إلى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان والأمثال ، ويعتدل ذلك بأنهم كانوا يحيون حياة أولية بدائية ، وهي لا تقتضى نثراً فنياً ، لأن النثر الفني لغة العقل والثقافة ، وإنما يلائمها الشعر ، لأنه لغة العاطفة والخيال (١) .

وقد ذهب الأستاذ الدكتور طه حسين إلى أن الشعر سبق النثر الفني ، وفصل للقال في هذا ، وعلمه في كتابه ( حافظ وشوقي ) (٢) وفي كتابه ( من حديث الشعر والنثر ) (٣) .

أما ظهور النثر الفني عند العرب فإن الأستاذ الدكتور طه حسين يرى أن أول القرن الثاني للهجرة هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذي شهد مظهر هذه الحياة العربية ، وهو نشأة النثر الفني (٤) ، وربما كان من الحق أن أول من أحدث في نفوسنا لذة الكتابة الفنية في العصر الإسلامي في القرن الثاني للهجرة هو عبد الحميد وابن المقفع .

على أن الأستاذ الدكتور طه أ كد أصالة النثر الفني عند العرب ، وأنهم لم يستعبروه من غيرهم

[٢] حافظ وشوقي ٦٣

[٣] المرجع السابق ٣٥

[٤] المرجع السابق ٢٨

[١] النثر الفني في القرن الرابع ٣٣/١ ، ٣٨ ، ٤٣

[٣] من حديث الشعر والنثر ص ٢٢

[٥] المرجع السابق ٤٢

والحق أن النثر الفنى نشأ نشأة عربية خالصة ، كما رأى الأستاذ الدكتور طه حسين فلم ينقله العرب عن اليونان أو الروم أو الفرس أو الهند ، كما نقلوا كثيرا من العلوم والمذاهب والآراء .

لكن هذه الحقيقة قد تحتاج إلى تدليل عليها ، وإثبات لصحتها ، فينبغى أن أناقش ما ذهب إليه الأستاذ المستشرق مرسية من جهل العرب للنثر الفنى إلى أن ظهر عبد الحميد بن يحيى وعبد الله بن المقفع .

وسأتابع فى هذه المناقشة النثر الفنى بقسميه خطابة وكتابة ، منذ الجاهلية إلى عصر عبد الحميد وابن المقفع .

## — ١ —

القرآن الكريم هو المعجزة العظمى فى البيان العربى ، شدة العرب بافتنانه ، فتظامنوا لبلاغته ، سواء فى ذلك من شرح الله صدره للإسلام ، ومن أصر على الكفر والعناد . أما الذين أسلموا فقد آمنوا بأن القرآن مُنزل على النبى من عند الله ، وأما الذين لم يسلموا فقد أيقنوا بأن القرآن طراز من البلاغة لا طاقة لهم بمثله ، لكنه من صنع النبى ، وزعموا أنه أوتى مقدرة خارقة ، فاتهموه بأنه ساحر ، وبأنه شاعر .

وإذ كان القرآن ذروة البيان العربى ، ونزل بلسان عربى مبين<sup>(١)</sup> ، كما يصفه الله تعالى . فإن من الطبيعى أن يكون العرب قبيل الإسلام قد مارسوا النثر الفنى ممارسة أعدتهم لأن يخاطبوا بالقرآن الكريم . فإن الله تعالى يقول . « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، ليبين لهم »<sup>(٢)</sup> . ثم إن الله تعالى تحداهم فى عبارات قارعة محرجة أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذى عرفوه وألفوه ما تحداهم هذا التحدى ، وما سجل عليهم عجزهم بعد طول الإمهال : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »<sup>(٣)</sup> .

(٢) سورة إبراهيم ٤

(١) سورة الشعراء ١٩٢

(٣) سورة الإسراء ٨٨

لكننا بحاجة إلى نصوص نطمئن إليها في معرفة العرب للنثر الفنى قبل الإسلام ،  
لأن الشك يخامر ما روى عنهم من خطب ووصايا ورسائل ، وفقدان هذه النصوص  
التي نطمئن إلى صحتها ليس دليلا على جهالة العرب بالنثر الفنى .

— ٤ —

العرب قوم ذوو لسان وبلاغة ، يحبون البيان والطلاقة والتعبير والرشاقة ،  
ويأمرون بالتبيين والتدبُّت والتحرر من زلل الكلام ومن زلل الرأى (١) .

ولقد وصفهم القرآن الكريم بذلك ، قال تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول » (٢)  
وقال : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه ،  
وهو ألد الخصام » (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم لما سمع بعضهم يتكلم مادحا ثم قادحا ، ومعلا لمدحه وقدحه :  
إن من البيان لسحرا (٤) .

لهذا كانت معجزة النبی من جنس ما تميزوا به ، من بلاغة المنطق ، وروعة  
التعبير ، وساحر البيان .

— ٣ —

كان للعرب فى جاهليتهم أمثال كثيرة ، سلم بعضها من النسيان والإغفال ،  
وبقى إلى أن دون ، وربما كان أقدم مصدر لهذه الأمثال نعرفه اليوم كتاب  
المفضل الضبي المتوفى حوالى ١٧٨ هـ (٥) .

ولسنا نرتاب فى نسبة هذه الأمثال إلى العصر الجاهلى ، كما نرتاب فى الخطب ،  
لأن فى طبيعة الأمثال ما يكفل بقاءها زمنا طويلا ، فعباراتنا قصار يسهل  
حفظها وبقاؤها وتداولها ، والناس كلون بتريدها والاستشهاد بها ، لأنها تمثل

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٩١ و ١٩٧ (٢) سورة محمد ٣٠

(٣) سورة البقرة ٢٠٤ (٤) البيان والتبيين ١/ ٥٣

(٥) أمثال العرب للمفضل الضبي .

تجارب سابقهم وآراءهم وأحكامهم ، ولأشياء مرتبطة بأحداث سابقة كثيرا ما يشهدون لها نظائر ، فسرعان ما يستحضرون التعبير السابق ويرددونه في الحدث الحاضر ، ثم إنها تصور ألوانا من أخلاق البشر وطباعهم كانت صادقة في تصويرها حينما قلت ، وما تزال صادقة في تصويرها حينما يتمثل بها مَرَدُّوها .

ولكن ما علاقة الأمثال بالنثر الفني ؟

في كثير من هذه الأمثال صفات ترتفع بها من اللغة المألوفة في الحياة المعتادة إلى لغة فيها براعة وافتنان .

١ — فهي مرسلة في تعبير مختار المفردات ، محكم الصياغة ، وفي بعضها عناية بالجرس والتوازن والإيقاع ، لهذا نجد فيها سجعاً وتماثلاً في عدد الكلمات ، مثل :  
ادرعوا الليل ، فإنه أخفى لأوليل . اليوم خمر ، وغدا أمر . رب عجلة تهب ريثا ،  
ورب فروقه يذعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا . إن البغات بأرضنا يستنسر .  
تجموع الحرة ولا تأكل بثدييها . عند الصباح يحمد القوم السرى .

٢ — وهي أحيانا تعتمد على مجاز أو كناية أو تشبيه أو استعارة ، مستمدة من البيئة ، لتوحى بالمعنى المراد في ثوب من الخيال ، كقولهم في وصف من ارتكب قبيحا يستحي منه ، ويريد أن يستخفى من الناس : « جاء كخاصى العير » .  
لأن خصاء العير عمل قبيح شاذ إن صح أن يحدث فإنه لا يقوم به إلا حقير . وكقولهم في وصف المغرور بما يتوهم في نفسه من ميزات ومواهب ، أو بما يمتلك من أشياء يظن أنه وحده المالك لها بغير أن يقيس ما عند الناس : « كل نُجُورٍ في انخلا يُسرُّ » لأن الذي يجري فرسه وحيدا في الخلاء ينخدع بسرعه ، ويفرح بعدوه ، لكنه إذا سبق به غيره تبين له بطؤه وضعفه . وكقولهم في مَنْ يتنصل من خلق فيه أو من وصف ثابت له ، فيدعى أنه طارىء عليه ، كأن يكون جباناً ، ويَزعم أنه لم يجبن إلا لمرض نزل به ، أو حقير النشأة ، فيدعى أن الدهر هو الذي أفقده مجده : « قَبْلَ النَّفَاسِ كُنْتُ مُضْفَرَةً » لأن المرأة التي كانت قبل الحمل مهزولة شاحبة ، تزعم بعد الوضع أن نحولها وشحوبها أثر من آثار النفاس .



٣ — ولقد يعتمد المثل على التشخيص ، يضاف به صفات العقلاء على غير العقلاء من شعور وإدراك وفهم وتعقل ورزاة وتهور ، كقولهم فيمن يكتنم السر : « أكتنم من الأرض » ، كأن الأرض إنسان يفهم ويحرص ويدخر ويمنع ، ويفعل ذلك عن روية وتدبر .

وكقولهم في وصف الأحمق : « أحمق من رجلة » لأنها تنبت في مجارى السيل فيقتلعها ، كأنها صاحبة رأى وإرادة واختيار ، وهى التى اختارت لنفسها هذا المكان لتنبت فيه .

#### — ٤ —

احتفى العرب بالخطابة منذ الجاهلية ، وافتخروا ومدحوا بالبراعة فيها ، حتى كانت الخطابة والشعر متساويين فى القدر .

يقول لبيد<sup>(١)</sup> :

ومقام ضيق فرجته بيان ولسان وجدل

ويقول قيس بن عاصم المنقرى فى وصف قومه :

خطباء حين يقوم قائلهم بيض الوجوه مصاقع لسن<sup>(٢)</sup>

ويرى أوس بن حجر فضالة بن كلفة<sup>(٣)</sup> بأنه الخطيب القذ فى مجمع القوم

عند الملوك :

أم من يكون خطيب القوم إن حفلوا عند الملوك أولى كيد وأقوال

ويقول أبو قر دودة الطائى فى رثاء ابن عمارة الطائى<sup>(٤)</sup> بأن قاتليه قد حرموا الناس

(١) البتان والتبيين ٢٦٥/١

(٢) البيان والتبيين ٥٧/١

(٣) المرجع السابق ١٨٠/١

(٤) المرجع السابق ٢٢٣/١

(م ٢٩ — الادب السياسى)

كرمه العظيم ومنطقه الجميل الأخاذ الذي يشبه الثوب الموشى باليمن :  
يَا جَفَنَةً كِإِزَاءِ الْخَوْضِ قَدْ هَدَمُوا

وَمَنْطَقًا مِثْلَ وَشَى الْيُمْنَةِ الْحَبْرَةِ<sup>(١)</sup>

لكنهم لم يكونوا يعدون خطبهم مكتوبة ، لأن الكتابة كانت نادرة ، وإنما كانوا يفكرون في مقالهم ، وَيَحَبِّرُونَهُ وَيَزِينُونَهُ ، ثم يسترسلون . يقول الجاحظ<sup>(٢)</sup> « كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب<sup>(٣)</sup> ، اقتدارا عليه ، وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه . وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ، ومهمات الأمور مَيِّثُوهُ<sup>(٤)</sup> في صدورهم ، وقيده على أنفسهم ، فإذا قوَّمه الثَّغَافُ . . . أبرزوه مُحَكَّكًا مُنْقَحًا ، وَمُصَنَّفًا من الأدناس مُهَذَّبًا . »

أى أنهم كانوا أحيانا يعدون إلى التعبير والتزيين والتنميق ، كما كان يفعل كثير من الشعراء .

ثم ازدادت الخطابة رفعة وقوة في العصر الإسلامي ، كما قدمنا في دراستها .

ولا شك أن كثيرا من الخطب كان يُعَدُّ إعداداً فيه تأنق وتجويد وترتيب ، سواء أكان إعدادا مكتوبا أم غير مكتوب .

يدل على هذا أن عمر بن الخطاب قال إنه كان في يوم السقيفة قد زور — حَبْرًا وَأَعَدَّ — كلاما ليقوله ، لكن أبا بكر استمهله وتكلم ، فلم يدع شيئا مما كان عمر يريد أن يقول<sup>(٥)</sup> . وكان عمر يشعر بأن لخطبة النكاح صداء ومشقة<sup>(٦)</sup> . ورؤى أن عثمان بن عفان صعد المنبر ، فأرتج عليه ، فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، ومستأتيكم الخطب على وجهها ، إن شاء الله<sup>(٧)</sup> . وهذا النص صريح في أن أبا بكر وعمر كانا

(١) إزاء الخوض : إلمصب الدلو فيه . اليمنة : برد يعنى . الحبرة . بكسر الحاء وفتحها وفتح الباء ضرب من برود اليمن منمر موشى ( لسان العرب مادة حبر ) .

(٢) البيان والتبيين ١٤/٢ (٣) المقتضب : المرتجل [٤] ميثوه : ذلوه

[٥] الطبرى ٢٠٠/٢ [٦] البيان والتبيين ١١٧/١

[٧] البيان والتبيين ٣٤٥/١

يعدان خطبهما أو على الأقل بعض خطبهما ، وفي أن عثمان قد فوجيء غير مستعد ، فوعدهم بأنه سيعد خطبه ، لتجيب على النسق الذي يرضاه ويرتضونه .

وروي أن الخوارج طلبوا من عبد الله بن وهب الراسبي — حين ولوه رياستهم — أن يخطب فيهم ، فقال : وما أنا والرأي القَطِير ، والكلام القَضِيب<sup>(١)</sup>

واشتهر واصل بن عطاء بأنه كان يجتنب الرأى في خطبه<sup>(٢)</sup> ، ليخفي لثغته ، ومعنى هذا أنه كان يعدها ويتمهل في إعدادها .

وحسبي هذا القدر ، فقد عرضت للإعداد في خصائص الخطابة .

على أن طابع الإعداد والتأنق يتضح في كثير من خطب العصر الأموي ، كخطبة زياد بالبصرة ، وخطبتي الحجاج بالكوفة والبصرة ، وخطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب ، وخطبة أبي حمزة الشاري بالمدينة ، لأن هذه الخطب ونظائرها موحدة الموضوع ، مرتبة الأفكار ، بارعة التعبير ، متزنة الجمل ، محلاة بسجعيات لطيفة الوقع ، معتمدة على ألوان من الخيال .

ولقد يسترعى الانتباه أن بعض الخطب تبدأ بمقدمة وثيقة الصلة بالموضوع ، ثم يعمقها العرض ، وبه أحيانا تدلول وتفنييد ، ثم تنتهي بخاتمة جامعة للموضوع ، أو مثيرة للسامعين ، وهي بهذه المراحل قد استكملت أجزاء الخطبة كلها ، كما قسمها أرسطو وغيره من المحدثين<sup>(٣)</sup> .

على أنه لا يشترط في الخطبة أن تضم هذه الأجزاء كلها ، لتكون بارعة أو كاملة ، فالمهم الموضوع نفسه ، لكن اشتغال بعض الخطب في العصر الأموي على هذه الأجزاء يؤكد أنها معدة قبل الإلقاء .

(٢) المرجع السابق ١/١٤

(١) المرجع السابق ١/٢٢٥

(٣) راجع كتاب ( فن الخطابة ) للمؤلف :

لم تكن الكتابة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بحاجة إلى تنميق واحتفال خاص ، لأن الغاية منها مقصورة على تبليغ المعنى من أقرب طريق .

فلما كان عهد عمر كثرت رسائله ، وبدأ في بعضها التعبير والاحتفال ، كرسالته إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ، ثم اتضح التنميق أكثر في الرسائل الكثيرة المتبادلة بين علي ومعاوية .

وآل الأمر إلى معاوية ، فأنشأ ديوان الخاتم وديوان الرسائل ، ثم عربت دواوين الخراج في عهد عبد الملك ، فصارت العربية لغة الدواوين كلها ، وكان يليها عرب خلّص ، أو مستعربون حذقوا العربية ، كسالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد بن يحيى .

وكان لهؤلاء الكتاب من عرب ومستعربين فضل عظيم في النهوض بالكتابة الفنية ، لأنهم منقطعون لها ، ولأن بقاءهم في الدواوين موصول بمهارتهم وتجويدهم .

على أن النثر الفني لم يتمثل في الرسائل الديوانية وحدها ، بل تعداها إلى ضرب آخر هو التأليف والتدوين ، كما عرضت لذلك في عوامل ازدهار الشعر والكتابة .

ولقد كان كثير ممن يملون الرسائل أو يكتبونها يتخيرون التعبير وينمقونه قبل ابن المقفع ، ومن هنا جاءت رسائلهم بليغة الصيانة طريفة الخيال ، كما نجد في الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية وبين معاوية وزياد ، وبين الحجاج وقطرى .

ويدل على هذا أيضاً أن معاوية أملى كتاباً قال فيه عن رجل : هو أهون على من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرّة ، ثم قال للكاتب : امح من كلاب الحرّة ، واكتب من الكلاب<sup>(١)</sup> . ولعله كره هذه السجعة ، لأن كلاب الحرّة ليست

أكثر هوانا عليه من غيرها ، فخرصه على ذكرها يدل على أنه يتكلف السجع ويخضع له المعنى ، وهذا ليس من البلاغة الفطرية التي اشتهر العرب بها .

— ٦ —

على أننا نتعمق في التدليل ، ونتبسط في التوضيح ، فنعقد موازنة بين صفات النثر الفني عند عبد الحميد بن يحيى ، وصفاته في الرسائل التي كتبت في عصر بني أمية وبني مروان ، قبل أن يخط عبد الحميد سطرًا ، فماذا نجد ؟

نجد اتفاقًا ونجد تشابهًا في الجوهر ، ولا نجد اختلافًا إلا في الشكل والمظهر .

ولقد يكون هذا الحكم في حاجة إلى تفصيل ، فما تفصيله ؟

نلاحظ أن عبد الحميد كان يطيل آنا ويوجز آنا ، مراعيًا ما يقتضيه المقام ، وما تتطلبه المناسبة ، لكنه لم يكن مبتدع هذا التنوع ، فقد تقدم في نماذج الرسائل وفي دراستها أنها كانت تطول أحيانًا وتقصّر أحيانًا ، مجارة للموضوع أو مراعاة للمقام .

ونجد في رسائل عبد الحميد حفاوة ببسط الأفكار ، وتوليد المعاني ، أو توكيدها بالترادف ، وقد سبقه إلى هذا كثير ممن أملوا رسائل في العصر الأموي ومن كتبوا بأنفسهم .

ولقد يسترعى انتباهنا في نثر عبد الحميد أنه ينجح أحيانًا إلى الخيال يُفوّف به الأفكار ، ولكن هذا ليس بجديد ، لأن في بعض الرسائل التي درسناها ألوانًا من الخيال لا تقل طرافة وجمالًا عن أخيلة عبد الحميد ، إن لم تفقها بهاء وأصالة .

وإذا كان عبد الحميد قد اعتمد على التأنق والتجبير وتعمد التجويد ، لأنه كاتب مختص بالكتابة ، فإن كثيرًا من رسائل العصر أعدها كاتبوها أو مملوها وتأثقوا فيها ، ونمقوها .

ولست أنسى أن عبد الحميد كان يُفصّل جملة ويَقطّعها متساوية الطول

ومتساوية القصر ، ولست أنسى أنه كان يزيناها بقليل من السجع الذى لا استكراه فيه ، وأنه كان يرتب أفكاره فى كثير مما يكتب ، لكنى أذكر أن هذه الصفات كلها فى كثير من النماذج التى قدمتها لدراسة الكتابة فى العصر الأموى .

بقيت بعض مظاهر شكلية تفرد بها عبد الحميد ، كتأنيده فى البدء والختام ، وتنويعهما حسب المقام ، وإطالته فى البدء بنوع خاص بعبارات التعميد والثناء ، ولكن تفرده بهذا لا ينهض دليلا على أنه أول من كتب فى العربية نثرا فنيا ، ولا يصح أن يعمد به أحد لينفى عن العرب معرفتهم للنثر الفنى قبل عبد الحميد ، لأن الحكم ينبغى أن ينصب على الأصل والبنية والجوهر ، لا على الشكل والحاشية والمظهر ، ولأن النثر الفنى ما كان ليفقد ميزة ذات قيمة لو أنه خلا من التأنيق والإطناب فى مطالع الرسائل وخواتمها ، وإنما كان يفقد خواصه الأصيلة لو أنه جاء خلوا من التجويد والتنميق وتوخى الجمال والتأثير .

## — V —

إذا فقد كان النثر الفنى معروفا للعرب قبل عبد الحميد وابن المقفع ، وكان العرب يكتبون رسائل فنية قبل أن يكتب عبد الحميد وابن المقفع ، وجعل هذا النثر الفنى يتطور ويترقى على ألسنة العرب الذين أملاوا ، وعلى أقلام العرب الذين كتبوا ، فلما قاربت الدولة الأموية نهايتها كان هذا النثر قد شارب نضجه ، ثم كان عبد الحميد أول كاتب فى الديوان اشتهر بكتابته وذاع صيته ، وظهرت فى آثار قلمه خواص من سبقوه ، ومظاهر ابتكرها ونسبت إليه ، فصار من الحق — كما ذهب الأستاذ الدكتور طه حسين — أن نثر عبد الحميد وابن المقفع هو أول نثر فنى يحدث فى نفوسنا لذة ، ونجد فى قراءته متعة .

ومعنى هذا أن النثر الفنى فى أدبنا العربى لم يكن يونانى النشأة ، ولا فارسى المولد ، وإنما نشأ عربيا خالص العروبة ، كما نشأ الشعر وكما نشأت الخطابة والحوار والأمثال .

أما الطابع الفارسى واليونانى فقد تبين فى النثر الفنى واضحا بعد ، ذلك حينما اتصل العرب بالفرس واليونان ، ونهلوا من أدب أولئك وعلوم هؤلاء ، ولهذا كانت معالمه فى نثر ابن المقفع ومن بعده أوضح منهما فى نثر عبد الحميد ومعاصريه .



## الباب الخامس

### العصبية القبلية والجنسية

دولة ناشئة انتفعت الملك من برائن الساعين إليه حراسا على الظفر به .  
دولة ناشئة ، لم يطمئن رجالها على سلامة ملكهم طوال عهدهم أو أكثره .  
وكيف يطمئنون ؟ وفي أصقاع المملكة أحزاب قوية تجده في أن تظفر بالملك ،  
ولا تفتأ تشعل الثورات هنا وهناك .

وقد عرفنا أن الدولة تسلحت بالشعر فيما تسلحت ، لتوطد دعائم ملكها ،  
وتستميل الناس إليها .

لكن الحراس على الملك لا يكتفون بسلاح واحد ، ماداموا قادرين على التسلح  
بغيره . وقد تسلح بنو أمية بالسيف ، وباللسان ، وبالقلم ، وبالعطاء ، ولم يفتهم هذا  
كله عن سلاح آخر هو العصبية .

نعم كانت سياسة التفريق والتمزيق سلاحا آخر من أسلحة الأمويين ، استغلوه  
وانتصروا به ، وشغلوا الناس بأنفسهم ، وشغلوهم بالعصبية ، وتقوقوا به ، ثم ارتد  
السلاح عليهم ، فقوض ملكهم الذي شادوه .

وهذه العصبية نوعان : نوع بعثه بنو أمية من مرقدده ، بعد أن استخفى في صدر  
الإسلام ، ونوع جديد لم يعمدوا إلى بعثه وإيقاظه ، وإنما نجم في عصرهم نتيجة  
لبواعث سياسية واجتماعية .

أما النوع الأول فهو العصبية القبلية .

وأما الثاني فهو العصبية الجنسية ، أو الشعوبية .

وسأحدث عن النوعين وأثرهما في الشعر

## الفصل الأول

### العصبية القبلية

#### مظاهرها

بين العرب وقريش :

سلك معاوية ومن بعده سلسلة بعث العصبية من مراقدها ، على حين أن كثيراً من القبائل العدنانية <sup>(١)</sup> والقحطانية <sup>(٢)</sup> كانت متلهفة إلى بعث العصبية ، لتشفى ما بأنفسها من غل ، إذ وجدت المهاجرين من قريش والأنصار من اليمن ، هم الذين سيطروا على شئون الدولة والحكم ، وهم الذين شرفوا بالسبق إلى الإسلام .

ولاشك أن كثيراً من القبائل العربية كانت تنقم من قريش أنها ازدادت مجداً بالنبوة ، وازدادت شرفاً بالخلفاء الأربعة .

وكانت غيرتهم من الأنصار أقل ، لأنهم من الخلفاء كأنهم مستشارون ووزراء ، فليس لهم من السلطان ما يشعل الغيرة منهم كالغيرة من الخلفاء .

وقد استبان معاوية منذ تولى الخلافة أن قريشا في جانب ، وأن العرب كلها من نزارية ويمنية تكاد تكون في جانب آخر .

واستبان أيضاً أن كثيراً من أشرف النزارية ربهين ومضريين يشربون إلى الخلافة ، ولم يخفَ عليه أن القرشيين أشد هؤلاء طمعاً ، وأقواهم أملاً ، وأكثرهم تطلعاً ، وأن بعضهم قد اجتذبوا إليهم الأشياع والأتباع ، فاتجه معاوية

(١) مثل تميم وقيس من مضر ، وبكر وعبد القيس من ربيعة .

(٢) مثل كندة والأزد من اليمن .

إلى استمالة اليمنية ، ليعتمد عليهم وعلى بعض نزارية الشام في تثبيت ملكهم .

وكانت قبيلة كلب — الضاربة بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام — أولى القبائل اليمنية التي استظهر بها معاوية ، واستشارها إلى قتال عليّ وأعوانه من المضرية ، وأراد معاوية أن يوثق صلة الكلبيين به ، ويربط شرفهم بشرفه ، فأصهر إليهم ، إذ تزوج ميسون بنت بحدل أم ابنه يزيد ، ولم يتردد هؤلاء في مناصرته ، لأنهم أصهاره ، ولأن منهم نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان بن عفان فهبوا معه مطالبين بدم عثمان .

ثم جعل يغدق عليهم ، ويختص اليمنيين بالعطاء ، حتى تبين له سوء هذه السياسة ، وفرض لغير اليمنية من بعض ربيعة وقيس وتميم . فقد قدم مسكين الدارمي على معاوية ، وسأله أن يفرض له عطاء . فأبى عليه ، وكان لا يفرض إلا لليمن . فلما وجد اليمن قد عزت وكثرت وتغلبت على عدنان — حتى إن رجلاً يمنياً قال : لقد هممت ألا أدع بالشام أحداً من مضر ، بل هممت ألا أجل حبوتي حتى أخرج كل نزاری بالشام ، وعلم معاوية بهذا — وفرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس ، وفرض لأربعة آلاف من خندف ، وبعث إلى مسكين الدارمي — وهو من خندف — أنه قد فرض لأربعة آلاف من قومه ، وأن عطاءه سيصل إليه وهو في بلاده (١) .

وبهذا صار لمعاوية حزب قوي يظاھره على أنصار علي ، وعلى جمهرة قيس ، وهذا هو معنى انقسام العرب إلى كلبية — أنصار معاوية ومن بعده — وقيسية — أنصار عليّ ثم ابن الزبير — أو إلى يمنية ومضرية .

### بين النزارية واليمنية :

أرخص الإسلام أستاراً على ما كان بين اليمنية والنزارية من بغضاء وشحناء وتنافس ، ولكن هذه الأستار التي كانت مميكة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

لم تلبث أن صارت رقيقة منذ قبض إلى الرفيق الأعلى ، فاشترأت الأنصار إلى الخلافة ، وطمع فيها المهاجرون ، وانجلى مؤتمر السقيفة عن غلبة المهاجرين ونصرة قريش ، وجعلت الستائر تهلhel على من الزمن ، حتى قاربت البلى في عهد عثمان .

وبحسبنا حادث واحد نسوقه ، ففيه الغناء . كان سعيد بن العاص والى الكوفة من قبل عثمان ، وكان بمجلسه سنة ٣٣ هـ صفوة من أهل الكوفة يسمرون عنده ، فقال لهم : إنما سواد الكوفة بستان لقريش ، وكان أكثر هؤلاء الجلساء من الجنية ، فغضبوا ، وغضبت الجنية وغيرهم ، وقالوا له : إنما السواد في أقاءه الله علينا ، وليس لقريش منه أكثر مما لغيرها من المسلمين ، فغضب صاحب شرطته لأنهم أغلظوا في الرد على أميرهم وأميره ، فزجرهم ، فقاموا إلى صاحب الشرطة فضربوه حتى أغمى عليه ، فقام سعيد من مجلسه مغاضبا لهم ، واحتجب عنهم ، وكتب إلى عثمان يخبره خبرهم ، وأنه يخشى أن يفتنوا الناس ، فأشار عليه أن ينفيهم إلى الشام ، وحاول معاوية أن يقنعهم بأن لقريش الفضل على العرب ، فلم يبلغ منهم ما أراد ، فكتب إلى عثمان أنه يتخوف منهم على أهل الشام ، واستغفاه من مقامهم هناك ، فأعفاه ، وأذن له أن يردهم إلى الكوفة .

عادوا إلى الكوفة ، ثم نفاهم منها سعيد إلى الجزيرة (١) .

وكان مقتل عثمان تأريثا لهذه العصبية ، وتوسيعا لما بين التزارية والجنية من فرقة ، إذ انضم أكثر المهاجرين إلى معاوية ، وانضم أكثر الأنصار إلى علي ، حتى قال عمار بن ياسر - وهو يمني - في حرب صفين : أيها الناس ، هل من رآح إلى الله تعالى تحت العوالي ؟ ووجه الخطاب إلى أنصار معاوية ، فقال : والذى نفسى بيده لنقاتلنكم على تأويله ، كما قاتلناكم على تنزيله (٢) ، ومعنى هذا أن الأنصار الذين يؤازرون عليا يقاتلون المهاجرين الذين يناصرون معاوية ، وهم مدفوعون بعقيدة دينية ، هي أنهم على الحق ، وخصومهم على الباطل ، كما قاتلوهم

(١) الطبرى ٨٥/٥ — ٩٠

(٢) مروج الذهب ٢١/٢

من قبل مناصرين للرسول عليه الصلاة والسلام ، حينما كذبت قريش ، وعذبت المسلمين الأولين .

وكان أنصار معاوية من المهاجرين يشعرون بمثل هذا الشعور ، وحسبنا أن عمرو بن العاص كان يحرض معاوية على الأنصار ، وكان يفيض إليه هذا اللقب الكريم الذى شرفهم به القرآن الكريم ، واختصهم به النبي عليه الصلاة والسلام ، وأشار على معاوية أن يلقبهم بلقبهم القديم ( بنو قيلة<sup>(١)</sup> ) . ولم يرفض معاوية اقتراح عمرو ، لأنه صادف هوى من نفسه ، فلما وفد الأنصار على معاوية ، أمر حاجبه سعدا أن يناديهم بالأوس والخزرج أو بأبناء عمرو بن عامر ، فغضب النعمان بن بشير وقال :

ياسعدُ لا تُعِدِّ الدعاء فما لنا      نسبٌ نجيب به سوى الأنصار  
نسبٌ تخيره الإله لقومنا      أثقل به نسباً على الكفار  
إن الذين ثووا بمدر منكم      يوم القليب هم وقود النار

وانصرف ساخطا هو ومن معه ، فبعث إليه معاوية وترضاه ، وقضى حوائجه وحوائج من معه من الأنصار .

فلما ثار عبد الله بن الزبير بمكة في عهد يزيد بن معاوية ، ظاهرته قبائل قيس<sup>(٢)</sup> ، وظهرت يزيد قبائل كلب<sup>(٣)</sup> لأنهم أخواله .

ثم جاء مروان بن الحكم فاستعان الكلبية على القيسية ، فى صراعه لابن الزبير حتى انتصر فى مرج راهط<sup>(٤)</sup> .

[١] قيلة . أم الأوس والخزرج .

(٢) من نزار (٣) من قحطان .

[٤] كان حسان بن مالك رئيس اليمية وسيدها بالشام . فلما أعان مروان على ابن الزبير اشترط عليه ما كان لقومه على معاوية وابنه يزيد ومعاوية بن يزيد ، ومن شروطه : أن يفرض لألفى رجل من اليمية ألفين ألفين ، فإذا مات الرجل قام ابنه أو ابن عمه مكانه ، وأن يكون لهم الأمر والنهى وصدر المجلس ، وأن يستشاروا فى كل أمر ذى بال . فرضى مروان بذلك . [ مروج الذهب ١٠٦/٢ ]

ولابد من أن نلاحظ أن العداء بين الزارية والقحطانية قديم العهد ، حتى  
القد كان لكل منهم شعار حرب يخالف شعار الآخر ، فكان المضر يلبسون  
عمائم حمرا ، ويرفعون ألوية حمرا ، وكان اليمينيون يتخذون عمائم صفرا .

كذلك كان العداء قديما بين القيسية والكلبية ، فإن قبائل قيس — من مضر —  
كانت قد ارتحلت إلى الجزيرة والشام ، فزاحمت بالشام قبائل كلب اليمنية ،  
وزاحمت بالجزيرة قبائل تغلب — من ربيعة — فنشبت بينها وبين كلب وتغلب حروب  
ووقائع . فلما كان العهد الأموي ، واستنصر بنو أمية بكلب وتغلب ، كان من  
الطبيعي أن يناصر خصوم هاتين القبيلتين الحزب الثائر على بني أمية ، فكانت  
قيس موالية لابن الزبير ، ومناصرة له بسيفها .

## نتائج المياسية

### — ١ —

اطمأنت الدولة إلى العصبية القبلية ، ولعلها نظرت إليها نظرة المستعمر  
في العصر الحديث إلى الشعب الذي استعمره ، وقد انقسم إلى شيع وأحزاب ،  
بأسهم بينهم شديد .

لكن هذه الطمأنينة كانت نذيرا بخطر لم يلبث أن استشرى في الدولة ، فهدم  
أركانها ، وعجل بسقوطها .

وإذا كان الأمويون قد استنصروا بالعصبية على خصومهم ، فانهم ما لبثوا  
إلا قليلا حتى استنصر بها بعض الأمويين على بعض .

١ — فقد انحازت اليمنية إلى بني أمية ، بعد موت يزيد بن معاوية ، وآزرت  
ابنه خالد ، وحصرت الخلافة فيه .

غير أن كبراء بني أمية آثروا أن يولوا مروان بن الحكم ، على أن يكون الحكم  
بعده لخالد ، ثم غدر مروان بوعدة ، وورث الحكم بنيه .



٢ — وكان بعض قيس — وقد عرفنا ولائها لابن الزبير — يعضدون أحيانا بنى أمية ، فهم الذين ناصرُوا هشام بن عبد الملك ، وهم الذين نصبوا مروان ابن محمد خليفة بعد قتل يزيد بن الوليد ، لأن أم يزيد قيسية ، لهذا تعصب لهم مروان ، فأوغر الحنية بالشام وغيره .

٣ — وكان الأمويون يقربون قبيلة تغلب ، لأنها ناصرتهم مرات ، ناصرتهم في صفين إذ آذرت معاوية على علي ، وناصرت يزيد بن معاوية في موقعة الحرّة ، وظهرت مروان بن الحكم في موقعة مرج راهط ، لكن تقريب الأمويين لتغلب كان يغضب قبائل قيس وقبائل كلب ، وكان شعراء القبائل الثلاث يتهاجون ويتفاخرون ، ويعبر كل منهم عن موجدة قومه على خصومهم .

٤ — على أن بعض الولاة كانوا بتعصبهم أشد إغضابا للناس من الخلفاء .

وخالد بن عبد القسري<sup>(١)</sup> — والى هشام بن عبد الملك على العراق — مثل في هذا . فقد كان شديد التعصب لقومه الحنية ، يؤثرهم بالمناصب ، وينعى غيرهم من المضرية .

وكان الحنونيون الذين يوليههم خالد ، يحاكونه في تعصبه ، فهاجت المضرية ، وسعت به إلى هشام حتى أوغرت صدره عليه ، فكتب إليه هشام يقول :

« يا بن أم خالد ، قد بلغني أنك تقول : ما ولاية العراق لي بشرف ، فيا بن اللخناء<sup>(٢)</sup> ، كيف لا تكون إمرة العراق لك شرفا ، وأنت من بجيلة<sup>(٣)</sup> القليلة الدليلة ؟

أما والله إني لأظن أن أول من يأتيك صغير من قريش ، يشد يديك إلى عنقك » .

---

(١) تولى الحجاز للوليد بن عبد الملك ولإسليمان أخيه ، ثم تولى المراقين لهشام ، وكان أثيرا عنده ، ثم تغير عليه .

(٢) اللخناء : الأمة القذرة الخبيثة الرائحة .

(٣) بجيلة : قبيلة يعنبة من بطونها قسر .

وكتب إليه رسالة أخرى<sup>(١)</sup> .

ثم عزله ، ووّلى مكانه يوسف بن عمر الثقفي<sup>(٢)</sup> ، وسلطه عليه ، فعذبه وسجنه ، وبقي في السجن حتى مات سنة ١٢٦ هـ في عهد الوليد بن يزيد .

كذلك كان أخوه أسد بن عبد الله القسري — والى هشام على خراسان — يسيء إلى المضريين ، كما فعل خالد بالعراق ، فخنق المضرّيون ، وكرهوا بني أمية .

على أن هشاماً لم يحنق على القسري لتعصبه فحسب ، بل لتعصبه من ناحية ، ولأنه استأثر بفائض الخراج من ناحية ، وكان هذا الفائض يبلغ ١٣٠٠٠٠٠ درهماً ، وكان خالد قد أسرف في إنفاق ثلاثة أمثال ذلك<sup>(٣)</sup>

٥ — اشتعلت العصبية في البوادي والخواضر ، وتفاقم خطرهما ، فلم يقتصر بعض الولاة على التقريب والإيثار ، أو الإبعاد والحرمان ، بل تجاوزوا ذلك إلى سفك الدماء . فكان معن بن زائدة والى اليمن يقتل اليمنية ، تعصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار ، وكان عقبة بن سالم يردُّ على هذا بهمان والبحرين ، فيقتل عبد القيس وغيرهم من ربيعة ، مكيدة لمعن ، وعصبية لليمنيين من قومه<sup>(٤)</sup> .

وجعل كثير من الولاة يفعل مثل ذلك ، فكانت نيران العصبية لا يخبو أوارها في كل صقع ، وإذا خبا فإنه لا يلبث أن يشتعل .

٦ — وبلغ من حدة العصبية بين التزارية واليمنية أن خطّطت الكوفة تخطيطاً قبلها ، إذ قسمت قسمين : شرقي وغربي ، وكان الشرقي خيراً من الغربي ، فضربت القرعة على الشرقي فكان نصيب اليمنية ، ونزلت التزارية بالعربي ، ثم

(١) الكامل للبرد ٢/٢٩٨

(٢) ابن عم الحجاج ولاء هشام اليمن سنة ١٠٦ والعراق سنة ١٢٠ ثم قتل سنة ١٢٢

(٣) الطبري واليعقوبي ٢/٣٨٧ .

(٤) مروج الذهب ٢/١٩٧

خطط كل قسم من القسمين للقبائل اليمنية والنزارية (١) . وكان اليمنيون بالكوفة اثني عشر ألفا ، والنزاریون ثمانية آلاف (٢) ، وكان النزاع بينهم شديدا وعنيفا وكذلك خططت البصرة .

ثم إن العصبية لم تقتصر على أن تكون بين السادة ، بل تعدتهم إلى مواليتهم وأرقائهم ، فكان سُديف — شاهر حجازي من مخضرمي الدولتين — شديد التعصب لبني هاشم ، مظهرا لتعصبه في أيام بني أمية ، يخرج في جماعة من موالى بني هاشم إلى ظاهر مكة ، وشبيب — مولى لبني أمية — يخرج في جماعة من موالى بني أمية ، فيتسابان ، ويذكران المثالب والمعايب ، ثم يتضارب بالسيوف من معهما من سفهاء الفريقين ، ولا يبرحون حتى تكثر الجراح ، ويخرج الوالى إليهم فيفرقهم ، ويعاقب الجناة . ولم تزل العصبية بهم حتى شاعت في العامة والسفلة ، وهم الذين كان يطلق عليهم السُديفية والشيبية ، وظلوا كذلك طول أيام بني أمية (٣) .

وتجاوزت العصبية إلى حمى ما كان لها أن تتجاوز إليه ، روى أن رجلا من الأزد — وهى يمنية — كان يدعو لأبيه وهو يطوف بالبيت ، ف قيل له : ألا تدعو لأهلك ؟ فقال : إنها تيممية (٤) .

٧ — وطبعي ألا يسلم بنو أمية بمسلكهم هذا من إثارة وإغضاب

وهم بإيثارهم للكلية يهيجون القيسية .

وهم بتقريبهم للقيسية أو للتغلبية يحنقون السكبية .

وهم إذا ماتعصبوا لليمنية ، أو تعصب لها ولاتهم ، يغضبون النزارية .

وهم بهذه السياسة التي حسبوها خيرا لهم في أول الأمر ، جرتوا على أنفسهم

(١) تاريخ الطبرى ١٩٢/٤ وخطط الكوفة لماسينيون ١٠ ترجمة المصعب .

(٢) فتوح البلدان ٢٧٦ .

(٣) الأغاني ١٤/١٥٦ .

(٤) الكامل للمبرد ١/١٩٨ .

شرا كثيرا ، فإن العصبية لم تنحصر في إقليم واحد ، بل انتشر شررها في الدولة كلها ، إذ كان في كل بلد حزبان : مضرى ويمنى ، يتداولان النفوذ حسبما كان حال الولاية من شدة ولين ، وتعصب وسماحة ، وبهذا صارت العصبية مرضا في المجتمع ، نجمت عنه قتل وثورات ومنازعات بخراسان وقارس والعراق والشام ومصر وإفريقية والأندلس .

٨ - في هذا المجتمع الممزق الساخط بثّ بنو العباس دعائهم ، فجعلوا يشهرون ببني أمية ، ويدعون لبني العباس ، وجعلوا يستغلون حنق النزارية وحنق البيمية الذين قد تزايد غضبهم على بني أمية ، وعلى مروان بن محمد بصفة خاصة .

وسرعان ما دنت النهاية المحتومة ، وأندز نصر بن سيار وإلى خراسان هشام ابن عبد الملك بقوله<sup>(١)</sup> :

أرى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمَيْضَ نَارٍ	وبوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى	وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئوها تجن حربا	مُشَمَّرَةٌ يشيب لها الفلام
أقول من التمجيب لبيت شعري	ألقاظ أمية أم نيام
فإن بك قومنا أضحوا نياما	فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى	على الإسلام والعرب السلام

وقد تمكن بما تجره العصبية النزارية والبيمية من شرور تحقيق بالعرب من الفرس المتربصين بهم في قوله<sup>(٢)</sup> :

أبلغ ربيعة في سمر وإخوتهم	فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
وليفضبوا الحرب إن القوم قد نصبوا	حربا يحرق في حافاتها الخطب

(١) الأغاني ١١٦/١٥ ومروج الذهب ٢/٢٥٠ والعقد الفريد ٥/٢٤٠

(٢) العقد الفريد ٥/٢٤١ .

ما بالكم تَلْقَحُونَ الحربَ يديكمُ      كأن أهل الحِجَا عن رأيكم عَزُبُ  
وتتركون عَدُوًّا قد أَظْلَمَكمُ      بمن تَأَشَّبَ لادِينٌ ولا حِسْبُ  
قَدْ ما يَدِينُونَ دِينًا ماسِمتُ به      عن الرسول ولم تنزل به السكَبُ  
فمن يكن سائلا عن أصل دينهمُ      فإن دينهمُ أن تُقْتَلَ العربُ

لكن التحذير لم ينع من الأمر شيئا ، إذ كانت دعوة بنى العباس أقوى من الحيلة وأقوى من المقاومة ، وكانت اليمينية قد ضاقت بتعصب مروان بن محمد لقومه من مضر ، فرحبت بالدعوة العباسية ، وآزرتها ، وما هي إلا جولة أو جولات حتى تهدم صرح بنى أمية ، وقام صرح بنى العباس .

### نتائجها الشعرية

تحقق للأُمويين ما أرادوا ، فهبَّت العصبية من مراقدها ، وانطلقت من مرائبها ، فشغلت المجتمع العربي حقبة من الزمن .  
وقد تجلّى تأثيرها الأدبي في عدة مظاهر .

### — ١ —

#### الرهامى :

اشتعلت المهاجاة بين شعراء القبائل المتعادية ، واستمرت النقائض ، وتكاثر الشعراء بالمفاخرات ، وليست دراسة الجانب غير السياسى من موضوعنا ، فبحسبنا أن نجتزئ ببيضة أمثلة متصلة بالسياسة .

١ — هجا كثير من الشعراء خالدا القسرى ، فرد عنه شعراء اليمن وهجوا مضر .

وكانت بعض أعمال خالد من حوافز الشعراء على هجائه ، فإنه إلى تعصبه لليمنية كان رقيق الدين ، ذلك أنه لما كان واليا على الحجاز استهان بيثر زمزم ،  
( م ٣٠ — الأدب السياسى )

وضرب الشَّيْثِي رئيس حجاب الكعبة مئة سوط ، لأنه رفض أن يفتح له بابها .  
ثم ولي العراق فلم يقنع بأن أمه باقية على نصرانيتها ، بل بنى لها كنيسة بجوار  
المسجد ، كان ناقوسها يدق إذا نادى المؤذن للصلاة ، وكان الذين بها يرفعون أصواتهم  
بالقراءة حينما يخطب الخطيب على المنبر .

قال الفرزدق في هجائه (١) :

سلوا خالدا - لا أكرم الله خالدا - متى وليت قسراً قريشا تدينها؟  
أقبل رسول الله أم بعد عهده فتلك قريش قد أغت سميناها  
رجونا هداة - لا هدى الله خالدا - فما أمه بالأم يهذى جنيناها

وقال أيضاً (٢) :

ألا قطع الرحمان ظهر مطية أتتنا تملطى من دمشق بخالد  
وكيف يؤم المسلمين وأمه تدين بأن الله ليس بواحد؟  
بنى بيعة فيها الصليب لأمه ويهديم من كفر منار المساجد

على أن جريرا - وهو مضرى - مدح خالدا ، ونقض هجاءه ، مكابدة  
للفرزدق ، واستجابة للعطاء .

٢ - قال رجل من بني أسد بن خزيمة يمدح يحيى بن حبان أخا النخع ،  
ويفديه باليمانين كلهم ، ثم يريد أن يضيف إليهم ألفاً من المضربين ، لكن عصبته  
لقومه لم تطب بهذا ، وطابت بأبناء قحطان جميعاً :

ألا جعل الله اليمانين كلهم فدى لفتى الفتيان يحيى بن حبان  
ولولا عريق في من عصبية لقلت : وألفاً من ممد بن هذنان  
ولكن نفسى لم تطب بعشيرتى وطابت له نفسى بأبناء قحطان

(١) ديوان الفرزدق ٨٧٤

(٢) لأغاني ١٨/١٩ وديوان الفرزدق ١٨٩ .



٣ — هجا الفرزدق<sup>(١)</sup> — من تميم — الأزد اليمنية .

٤ — فرد عليه الطرماح<sup>(٢)</sup> — طائي يمني — فهجا تمها .

٥ — كان شعر الكميت ذا أثر بعيد في إثارة العصبية بين اليمنية والعُدنانية . ولعل أول ما كان من شعره في هذا قصيدته التي أشاد فيها بمناقب قومه من مضر وريعة وإياد وأنمار أبناء نزار بن معد بن عدنان ، وفضلهم على قحطان ، وصرح بانقحطانيين وعرض بهم ، كقوله<sup>(٣)</sup> :

لنا قمر السماء وكلُّ نجم	تشير إليه أيدي المهتدين
وجدتُ الله إذ سمى نزارا	وأسكنهم بمكة قاطنين
لنا جمل المكارم خالصات	ولناس القفا ولنا الجبين
وما ضربت هجائن من نزار	فوالخ من فحول الأعجميين <sup>(٤)</sup>
وما حملوا الحمير على عتاق	مطهمة فيلقوا مبغطينا <sup>(٥)</sup>
وما ولدت بنات بني نزار	حلائل أسودين وأحمرينا
بني الأعمام أنكحنا الأيامي	وبالآباء سميننا البنية

فهو يتعالى على اليمنية ، ويعيرهم أنهم يزوجون بناتهم للفرس والحبش ، فيجىء بنوهم بعضهم أسود وبعضهم أحمر ، ويصور هذا الزواج الذي يثمر نسلا هجينا بتلقيح الحمير للخيول العتاق ، لا تنتج منه إلا البغال .

٦ — ثم نقض دُعبل بن علي الخزاعي — اليمني — هذه القصيدة وغيرها فيما بعد ، وذكر مناقب اليمن وعظمة ملوكها ، وصرح بالعدنانية وعرض بها كما

(١) ديوان الفرزدق ١٣٢ . (٢) ديوان الطرماح ١٢٩ .

(٣) مروج الذهب ١٩٦/٢ والعقد الفريد ٣/٣٣٣ .

(٤) الهجائن : الحرات الكريعات . فوالخ : جمع فالخ وهو الضارب والمراد هنا الزوج

(٥) عتاق مطهمة : المراد نساء عربيات شريفات . الحمير : الأزواج غير الأكفاء

مبغطين : مهجنين .

فعل الكميت ، من هذا قوله في قصيدة طويلة جدا بلغت أبياتها ستمائة<sup>(١)</sup>

أفئق من ملامك يا ظعينا كفاك اليوم مرة الأربعينا  
ألم تحزنك أحداث الليالى يشين الذوائب والقرونا ؟  
أحز الفراء من سرورات قومي لقد حبيبت عنا يامدينا  
فإن يك آل إسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فاخرينا  
فلا تنس الخنازير اللواتي مسخن مع القروود الخاسئينا  
بأيدة والخليج لهم رسوم وآثار قدمن وما نحينا  
وما طلب الكميت طلاب وتر ولكننا لنصرتنا هجيننا  
لقد علمت نزار أن قومي إلى نصر النبوة فاخرينا

وتتابع فخر النزارية على اليمنية ، وفخر اليمنية على النزارية ، وأدلى كل فريق بمواقفه ، وتحزبت الناس ، وثارَت المصيبة في البدو والحضر<sup>(٢)</sup> .

٧ — تبادل الأخطال شاعر تغلب ، والجحاف شاعر قيس الهجاء<sup>(٣)</sup> ،  
وجرأ قومهما إلى المعارك ، مع أنهما ينتهيان إلى نزار .

## — ٢ —

### ازدهار الشعر السياسي

ازدهر الشعر السياسي ، بل إن بذوره التي كانت منذ الجاهلية وجدت في هذا العصر تربة خصيبة ، وجوا ملائما ، وماء مروييا ، فنبشت ونمت وبسقت ، فصار الشعر السياسي قسم الخطابة في الدعاية الحزبية ، وكثر شعراؤه ، وافتنوا في طرائقهم واحتجاجهم واستدلّاهم ووسائل إثارتهم وتأثيرهم كما سبق في دراسة خواصه العامة .

[١] مروج الذهب ١٩٧/٢ ونشوار المحاضرة ١٧٧/١ .

[٢] مروج الذهب ١٩٧/٢ . [٣] الأغاني ٦٠/١١ .

## تسجيل الشعر للوقائع الجديدة

وصاحب الشعر الوقائع القبلية ، كما كان يصاحبها في الجاهلية .

وهذا كثير ، تجد طرفا منه فيما حدث بين كلب وقيس .

فقد كان العداء شديدا بين كلب أنصار مروان بن الحكم ، وقيس أنصار  
عبد الله بن الزبير ، وقد انتصر مروان على القيسية في مرج راهط ، فبكى زفر  
ابن الحارث الكلبي قتلى المرج ، وتوعد قبيلة كلب :

لعمري لقد أبقت وقيمة راهط	لمروان صدها بيننا متناثيا
أرى سلاحى - لا أبالك - إننى	أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أبعد ابن عمر وابن معن تتابعنا	ومقتل همّام أمني الأمانيا ؟
وتذهب كلب لم تنلها رماحنا	وتترك قتلى راهط هي ماهيا ؟
فلا صلح حتى تنحط <sup>(١)</sup> الخيل بالقفا	وتثار من نسوان كلب نسائيا
فقد يذبت المرعى على دمن الثرى	وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فرد عليه ابن الخلالة السكبي بقصيدة ، منها :

لعمري لقد أبقت وقيمة راهط	على زفر داء من الداء باقيا
تُبَكِّي على قتلى سليم وعامر	وذبيان مغرورا وتُبَكِّي البواكيا

(١) تنحط: تزفر وتصوت من الثقل والإعياء .

## آثار عامة في اللغة والأدب

ونجم عن هذا آثار عدة في اللغة والأخبار والحرص على الرواية والحفظ ، وظهرت هذه الآثار في معارض شتى .

١ — كثر اجتماع العرب في الحج — جامع والأسواق ، مثل الكناسة ( سوق الكوفة ) والمرْبَد ( سوق البصرة ) ليستمعوا ما ينشد من شعر ، ثم يتحدثون بما سمعوا ، ويتناقشون فيما استمعوا ، ويتعرضون لمسائل شتى في اللغة والأدب والنقد . روى أن الكميت شهد الجمعة بمسجد الجامع فأحاط به علماء الكوفة ورواتهم ، فيهم حماد والطرماح ، وجعلوا يسألونه ، حتى إذا فرغوا جعل يسألهم .

٢ — سجل المتهاجون والمتناخرون تاريخاً كان عرضة لأن يهمل وينسى ، وجددوا ذكريات كادت تمحى من الأذهان

٣ — وهم في غرهم وفي هجائهم أصحاب افتتان وتجويد وحفاوة بالتصوير والتصوير ، وتخير للمفردات والأساليب ، وفي كثير من قصائدهم الفاخرة أو الهاجية غزل ووصف واستطراد إلى موضوعات آخر ، وطول متعمد لم يعهد من قبل ، كما أن بها حقائق تاريخية لهذه القبائل في الجاهلية والإسلام .

ولا شك أن الشعر قد ازدهر بهذا ، وكانت له دولة .

وحسبنا أن نردد النظر في دواوين جرير والفرزدق والأخطل وفي نقائضهم لنجد مصداق ذلك كله .

٤ — على أننا لا ننسى ما جنت أهاجيهم ونقائضهم على الأخلاق ، من الإقذاع والإفحاش ، ومن الإشادة بمفاخر ، أو التشنيع بمثالب ، بعضها باطل .

### دائرة بعض الشعراء على الدولة

شعرت القبائل التي ناصرت الدولة بدالتها ، وأحس شعراؤها بأن لهم ولقومهم يداً على الدولة ، وازدهوا بأنهم هم وقومهم مقربون إلى الخلفاء ، فجعلوا يباهون بذلك ، ويعتبون على بعض الخلفاء أنهم قصروا في مثوبة قبائلهم ، أو تهاونوا في الثأر لها من خصومها ، بل لقد هدد بعضهم بالتخلي عن مناصرة الدولة ، وغضب بعضهم لما رأى خصوم قومه مقربين إلى الخليفة ، فخرضه جهراً على إبعادهم والتنكيل بهم .

١ — فالأخطل شاعر تغلب يذهب إلى عبد الملك بن مروان ، فينشد شعراً يستنجزه به الثأر من قيس لقتلى تغلب في يوم البشر<sup>(١)</sup> ، ويهدده بتخلي تغلب عن نصرة بني أمية إن لم ينصروها على قيس :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعول  
فسائل بني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصل ؟  
فإن لم تغيرها قريش بعد لها  
يكن عن قريش مستعاز ومرحل

فغضب عبد الملك وقال : إلى أين يابن النصرانية ؟

فتدارك الأخطل ، وهدأ من ثورته ، وتخلص في لباقة بقوله : إلى النار .  
فتبسم عبد الملك ، وارتضى هذا الاعتذار .

---

(١) كان الأخطل قد عير الجحاف زعيم قيس بهزيمة تغلب لهم في يوم الكحيل فجمع الجحاف جوعه وأغار على تغلب بموضع اسمه البشر ، فقتل منهم كثيراً ، وأسر ، وكان الأخطل في الأسرى ، ثم ظنوه عبداً فأطلقوه .

ولما علم الأخطل أن عبد الملك بن مروان قرب إليه زفر بن الحارث الكلابي  
أحد أنصار ابن الزبير في حرب بني أمية ، دخل على عبد الملك ، وأنشده<sup>(١)</sup> :

وكأس مثل عين الديك صرفٍ      تُذسى الشاربين لها العقولا  
إذا شرب الفتى منها ثلاثا      بغير الماء حاول أن يطولا  
مشى قرشية لا عيب فيها      وأرخی من مآزره الفضولا

.....

فقال له عبد الملك : ما أخرج هذا منك يا أبا مالك إلا شيء في رأسك . قال :  
أجل يا أمير المؤمنين ، حين تجلس عدو الله هذا معك على السرير ، وهو القائل  
بالأمس :

لمرى لقد أبقت وقيمة راهطٍ      لمروان صدعا بيننا متناثيا  
فلا صدح حتى تنحط الخيل بالقنا      وتثار من نسوان كلب نساها<sup>(٢)</sup>  
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى      وتبقى حزازات النفوس كاهيا

فقبض عبد الملك رجله ، ثم ضرب بها صدر زفر ، فقلبه عن السرير ، وقال :  
أذهب الله حزازات تلك الصدور . فقال زفر : أنشدك الله يا أمير المؤمنين والعهد  
الذي أعطيتني . فكان زفر يقول : ما أيقنت بالموت قط إلا تلك الساعة ، حين  
قال الأخطل ما قال .

ثم جعل الأخطل يغري عبد الملك بزفر ، ويؤكد له أن قلبه ملآن بالحقد  
والغل ، والخير لبني أمية أن يقتلوه<sup>(٣)</sup> :

بني أمية إني ناصح لكم      فلا يبين فيكم آمننا زفر  
واتخذوه عدوا إن شاهدته      وما تغيب من أخلاقه دعر<sup>(٤)</sup>

(٢) تنحط : تن : من ثقل ما تحمل .

(٤) دعر : دغل وشر .

(١) الأغاني ٧/ ١٦٨ .

(٣) ديوان الأخطل .



إن الضعيفة تلقاها وإن قدّمت كالعرّ يكمن حيناً ثم يفتش<sup>(١)</sup>

٢ — وجواس بن القعطل الكلبى يلوم بنى أمية ، لأنهم لم يحسنوا مجازاة قومه على نصرتهم للدولة :

صَبَفَتْ أُمِيَّةُ بِالدِّمَاءِ رِمَاحَنَا      وَطَوَتْ أُمِيَّةُ دُونَنا دُنْيَاها  
أُمِيَّ رَبِّ كَتِيبَةٍ مَجْهُولَةٍ      صَيْدِ الْكِمَاءِ عَلَيْكُمْ دَعْوَاهَا<sup>(٢)</sup>  
كُنَّا وَلَاةَ طِعْمَانِهَا وَحِرَابِهَا      حَتَّى تَجَاتَ عَنْكُمْ غَمَاهَا<sup>(٣)</sup>  
فَاللّهُ يَجْزِي — لَا أُمِيَّةُ — سَعِينَا      وَعَلَّا شَدَدْنَا بِالرِّمَاحِ عُرَاهَا  
جَنَّمُ مِنَ الْحِجْزِ الْبَعِيدِ نِيَاهُ      وَالشَّامِ تَنْسَكِرُ كَهْلُهَا وَفَتَاهَا<sup>(٤)</sup>  
إِذْ أَقْبَلْتُ قَيْسَ كَأَنَّ عَيُونَهَا      حَذَقُ الْكِلَابِ وَأَظْهَرَتْ سِيَاهَا

٣ — توعّد الفرزدق بنى أمية بأن ينفذ عنهم ، وبأن يتخلى قومه عن نصرتهم إن لم ينصفوه . ولماذا يقيم على ضيم . وعنده نوق صبر على مشاق السفر ، وهو قدير على أن يقيم فى أى مكان من الأرض يكفل له الحرية ؟ ثم ندد بالحجاج فقال إنه لن يبلغ منى مأربه .

قال الفرزدق<sup>(٥)</sup> :

فَإِنْ تَنْصَفُونَا يَا لَ مَرَوَانَ نَقْتَرِبْ      إِلَيْكُمْ وَإِلَّا فَأَذْنُوا بِيَعَادِ  
فَإِنْ لَنَا عَنْكُمْ مَرَّاحًا وَمَذْهَبًا      بَعِيسَ إِلَى رِيحِ الْقَلَاةِ صَوَادِي<sup>(٦)</sup>  
مُخَيَّسَةً بُزْلٍ تَخَايَلُ فِي الْبُرَى      سَوَارٍ عَلَى طَوْلِ الْقَلَاةِ غَوَادِي<sup>(٧)</sup>

(١) العر : الجرب .

(٢) صيد الكماء : أبطالها ذوو كبروته . عليكم دعواها : معادية لكم جاءت لحربكم .

(٣) غماها : كربها . (٤) الحجز بكسر الحاء وضمة : الأصل والعشيرة والناحية ،

أى جنم من ناحية بعيدة هى الحجاز إلى الشام ، أو بيننا وبينكم قرابة بعيدة لأنكم من نزار ونحن من قحطان . الكهل والفتى : المراد معاوية وبنو أمية لأنهم دخلوا على الشام .

(٥) الديوان ١/١٩٠/١/١٩٠ (٦) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .

(٧) مخيسة : لم تسرح لأنهم محبوسة للتحر أو القسم . بزل : جل بازل وهو الجمل أو

الناقة فى سنته التاسعة حيث يطلع نابيه . البرى : جم برة وهى الحلقة فى أنف البعير .

وفي الأرض عن ذى الجور منأى ومذهب

وكل بلاد أوْطِنْتَ كِبـلادى

وماذا عسى الحجاج يبلغُ جَهْدُهُ إذا نحن خلفنا حفير زياد

٤ — وكذلك أعشى تغلب ، وفد هلى عمر بن عبد العزيز ، ومدحه ، فلم يمهطه

شيئا ، وقال له : ماأرى لك فى بيت المال حقا . فغضب الأعشى ، وعرض بعمره ،  
وامتن على بنى أمية بما سلف من نصر قومه بنى تغلب لهم <sup>(١)</sup> :

لعمري لقد عاش الوليد حياته إمام هُدَى لا مُسْتَرَادٌ ولا نَزْرُ

كأن بنى مروان بعد وليدهم جلاميدٌ لا تَنْدَى ولو بَلَمها القطرُ

وكانوا أناسا يُنْتَحَوْنَ فأصبحوا وأكثُر ما يعطونك النظر الشررُ

وكأئن دفعنا عنكم من عزيمة ولكن أيتم لا وفاء ولا شكر

فإن تكفروا ماقد فعلنا فرما أتيح لكم قسرا بأسيا فنا النصر

— ٦ —

هكذا كانت العصبية القبلية ربعة إلى النعرة الجاهلية ، وعودة إلى النظر القاصر  
والمجال الضيق والأثرة المردية .

وهكذا كان الشعر المتعصب يركض فى ميدان العصبية فيتبعها آنا ، ويسبقها آنا ،  
وهو فى الحالين يؤرث نارها ، وينشر أوارها .

وأغلب الظن أن الشعراء لو عاندوا هذه الدعوى ، وجعلوا يدعون قومهم إلى  
مادعاهم إليه الإسلام من إخاء وصفاء ووحدية وسلام ، لأعرض عنهم كثير من  
الناس أول الأمر ، ثم لبغت دعواتهم قلوب الناس جميعا آخر الأمر ، فلم تنحل  
الروابط ، ولم تتصدع الوحدة ، ولم يذهب جهد كثير من الشعراء ذلك المذهب البغيض .  
ليت القبائل لم تشغل أنفسها بما عفى عليه الإسلام ، وليت الساسة جهدوا  
فى التوحيد لافى التفريق ، وليت الشعراء لم يجاروا نزعة التقويض والتزويق .

ليت ، وهل ينفع شيئا ليت ؟

(١) الأغاني ٩٩/١٠ وشعراء النصرانية ١٢٤ والحاسة البصرية ٨٧/١ .

# الفصل الثاني

## العصبية الجنسية

### أو الشعوبية

— ١ —

### كثرة الموالى

منذ طلائع الفتح الإسلامى إلى أن استقر الملك فى بنى أمية ، كان قد أسلم كثير من الفرس وغيرهم ، وكانت قد نبتت من أبنائهم نابتة أجادت اللغة العربية ، واصطنعتها لسانها الأدبى .

وكان هؤلاء العجم ، والمنحدرون من أصول أعجمية يعيشون مع العرب ، ويخالطونهم ، ويرتبطون بهم برابطة الولاء . وللولاء مظاهر شتى : فقد يكون نتيجة للمعتقد ، إذ يُنسب العتيق إلى سيده الذى اعتقه ، أو إلى قبيلة من اعتقه ، وقد يكون نتيجة لإسلام أعجمى على يد عربى يعاهده على أن يكون مولى له .

وقد يكون ثمرة لإسلام الأعجمى مطلقا ، سواء أكان عبداً لعربى أم لا ، وسواء أسلم على يد عربى والاه أم لا . لهذا دسمى الأعاجم موالى ، لأن بلادهم فتحت عنوة بأيدي العرب ، وكان للعرب استرقاقهم ، فإذا تركوهم أحرارا فكانهم أعتقوهم ، والموالى هم المعتقون<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت كلمة المولى ذات دلالات شتى<sup>(١)</sup> ، فإن العرب أرادوا بها الدلالة على هؤلاء العجم الذين يوالونهم .

هؤلاء الموالى كان عددهم كبيرا ، يدل على هذا أن معاوية أرسل إلى عمر أربعة آلاف من سبى قيسارية وحدها<sup>(٢)</sup> ، وأن عدد القتلى منهم في موقعة الحرّة بلغ ثلاثة آلاف وخمسمئة ، على حين كان قتلى الأنصار نحو ألف وخمسمئة ، وقتلى قریش كذلك<sup>(٣)</sup> . ويدل على ذلك أيضا أن عدد العبيد والإماء الذين خلفهم الزبير بن العوام بلغ ألفا<sup>(٤)</sup> .

وكان الموالى بالكوفة أكثر عددا من العرب ، يقول ولّهوسن wellhausen إن أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالى ، وكان هؤلاء الموالى يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وكان أكثرهم فرسا في جنسهم وفي لغتهم ، جاءوا الكوفة أسرى حرب ، ثم دخلوا في الإسلام ، ثم اعتقهم مالكوهم العرب ، فكانوا موالى لهم ، وبذلك صاروا أحرارا ، ولكنهم ظلوا في حاجة إلى حماية سادتهم ، فهم حاشية العرب ، وأتباعهم في السلم والحرب<sup>(٥)</sup> .

## — ٢ —

### بواعث حنقهم

حنق كثير من هؤلاء الموالى على العرب عامة وعلى بنى أمية خاصة ، وكان الموالى المنتعمون إلى فارس أشدهم حنقا .

١ — أما حنقهم على العرب ، فراجع إلى أنهم قوضوا دولتهم ، واحتلوا بلادهم ،

(١) المولى : الملك والعبد والسيد المعتق والعبدالمعتق والصاحب والقريب والجار والخليف والشريك والتابع الخ ( القاموس المحيط )

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ١٤٢ (٣) معجم البلدان لياقوت كلمة حرة .

(٤) مروج الذهب ١٥٤/٤ (٥) فجر الإسلام ٩٢ .

وصيروهم أتباعاً لهم ، ثم استعلوا عليهم ، وكانت أبرز ضروب الاستعلاء صادرة من بعض الحكام والساسة ، ومن العرب الذين لم ينسلخوا من نعمة الجاهلية ، ومن بعض أشراف القبائل المتحضرة والمتبدية .

ولهذا الاستعلاء مظاهر شتى : منها ترفع العرب عن تزويج بناتهم للذين أسلموا من فرس وروم ، فقد خطب مولى بنتاً من أعراب بني سليم وتزوجها ، فغضب محمد بن بشير الخارجي ، ورأى أن هذا عار لحق بالعرب ، فركب إلى والي المدينة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وشكا إليه ، فأرسل الوالي إلى الزوج ، وفرق بينه وبين زوجته ، ولم يكتف بهذا ، بل ضربه مثنى سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، ولا شك أن محمد بن بشير طاب نفسها بهذا العقاب ، فقال (١) :

قضيت بسنة وحكمت عدلاً ولم ترث الحكومة من بعيد  
وفي المثنين للمولى نكالٌ وفي سلب الحواجب والحدرد  
إذا كافاتهم بينات كسرى فهل يجدُ الموالى من مزيد ؟  
فأى الحق أنصفُ للموالى من اضهار العبيد إلى العبيد ؟

ومن هذه المظاهر احتقار بعض العرب لأبناء الإماء ، حتى لقد جهر بهذا عبد الملك بن مروان على مسمع من ابنه مسleme - وكان ابن أمة - وتمثل بشعر يفض من شأنهم ، فرد عليه مسleme بشعر يعلى من قدرهم (٢)

وكان بنو أمية - والدولة قوية - لا يستخلفونهم ، بدعوى أن العرب لا تخضع لهم (٣) ، فلما ضعفت الدولة وهدأت النعرة تولى بعضهم ، كيزيد بن الوليد وأخيه إبراهيم ومروان بن محمد .

وكان العرب يصفون ابن الأمة من عربى بأنه هجين ، ومعنى هذا أنه -

(١) الأغاني ١٤ / ١٥٠ [٢] راجع (المرأة في الشعر الجاهلي) للمؤلف ١٣٩ -

١٧٦ ، ٥١٨ وحاسة الخالدين ٣٥ مخطوط وريبع الأبرار للزحشري ٣ .

(٣) العقد الفريد ٣ / ٢٩٧ .

مشوب الذنب معيب ، لأن الهجفة هي الكلام الذي يعيب قائله ، والهجين اللثيم ، والعربي المولود من أمة ، أو من أبوه خير من أمه<sup>(١)</sup> .

وبلغ التمصب بِنافع بن جُبَيْر أنه كان إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟

فإذا قالوا قرشي ، قال : واقوماء ، وإذا قالوا عربي ، قال : وابلدتاه ، وإذا قالوا مولى ، قال : هو مال الله ، يأخذ ما يشاء ، ويدع ما يشاء .

وقد قدم نافع هذا مولى ليصلي به ، فسئل عن ذلك ، فقال : أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه .

وكانوا يرون أن الصلاة لا يقطعها إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى .

ونجد في العقد الفريد أمثلة شتى على هذه الشائكة ، كنداء العرب لهم بالأسماء والألقاب ، لا بالكُنى ، وكتنحيثهم إياهم عن محاذاتهم في الصف وهم يمشون ، وتنحيثهم عن الصلاة على الميت إذا وجد عرب يصلون عليه<sup>(٢)</sup> .

٢ — وأما حنقهم على بني أمية بخاصة فمرجه إلى عدة أسباب .

(١) أنهم الحكماء الذين يمثلون العرب العادين على مُلْك الموالى من فرس وروم ، ومبعثه أيضاً أن بني أمية كانوا حراساً على عروبة ملكهم ، فأثروا العرب بالولايات والوظائف ، وقربوا العرب وأبعدوا الموالى .

(ب) ثم إن بعض ولاة بني أمية أساءوا معاملة الموالى ، كالحجاج فإنه أمر ألا يؤم الناس في الصلاة بالكوفة إلا عربي<sup>(٣)</sup> . ونفى النبط من واسط لما نزل هناك ، وكتب إلى عامله بالبصرة يأمره بنفيهم منها ، لأنهم مفسدة للدين والدنيا . فكتب إليه العامل يقول : قد نفيت النبط ، إلا من قرأ منهم القرآن وتفقّه في الدين . فرد عليه الحجاج بقوله : إذا قرأت كتابي هذا قاعدٌ مَنْ

(١) لسان العرب والقاموس المحيط مادة هجن :

(٢) العقد الفريد ٣٦٣/٤ — ٣٦٨ . (٣) العقد الفريد ٢٠٧/١ .



قَبْلَكَ مِنَ الْأَطْبَاءِ ، وَنَمَّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، لِيَقْفُوا هَرَوَقَكَ ، فَإِنْ وَجَدُوا فِيكَ عَرَقًا نَبَطِيًّا قَطَعُوهُ <sup>(١)</sup> .

ولما قبض على سعيد بن جُبَيْر — وكان قد خرج على الحجاج مع عبد الرحمن بن الأشعث — امتنَّ عليه الحجاج بأنه قد كان قريبه مع أنه مولى . قال له الحجاج : أَمَا قَدِمْتَ الْكَوْفَةَ وَلَيْسَ يَوْمُهَا إِلَّا عَرَبِيٌّ فَجَعَلْتَكِ إِمَامًا ؟ قال سعيد : بلى . قال الحجاج : أَمَا وَلَّيْتُكَ الْقَضَاءَ فَضَجَّ أَهْلُ الْكَوْفَةِ ، وَقَالُوا لَا يَصْلَحُ لِلْقَضَاءِ إِلَّا عَرَبِيٌّ ؟ قال سعيد : بلى . قال الحجاج : أَمَا جَعَلْتَكِ مِنْ سُمَّارِي ، وَكُلُّهُمْ مِنْ رَعُوسِ الْعَرَبِ ؟ قال سعيد : بلى . قال الحجاج : فَمَا الَّذِي أَخْرَجَكَ عَلَيَّ <sup>(٢)</sup> ؟

(ح) على أننا لا ننسى باعثًا آخر من بواعث مخطط الموالى ، هو أنهم خشوا على مكانتهم ورزقهم لما عربت دواوين الخراج ، فقد كانت منذ الفتح تكتب في العراق بالفارسية ، وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية .

فلما كان عهد عبد الملك ، كان رئيس ديوان الشام سُرْجُونُ بْنُ مَنْصُورٍ ، وكان قد طال عهده بالديوان ، لأنه تولاه منذ عهد معاوية إلى عهد عبد الملك ، وشعر عبد الملك أن سرجون يدل بمعرفته ، فأشار على سليمان بن سعد — أو أشار ابنه سليمان في إحدى الروايات على سليمان بن سعد — أن يحول لغة الديوان من الرومية إلى العربية ، فنهض سليمان بن سعد بالتعريب . ولما عرف سرجون ما عمله سليمان بن سعد قال لكتاب الروم : اطلبوا رزقكم من غير هذه الصناعة ، فقد قطعها الله عنكم <sup>(٣)</sup> .

وحاكي الحجاج عبد الملك ، فأمر بتحويل ديوان فارس إلى العربية <sup>(٤)</sup> . ولقد ضاق كتاب الفرس بهذا التعريب ، كما ضاق كتاب الروم من قبل ، وخشوا أن ينضب معين رزقهم ، وأن يفقدوا مظهرًا من مظاهر احتياج العرب لهم ،

(٢) الكامل للبهرد ٩٦/٢ .

(٢) محاضرات الأدباء ١ / ٢١٨ .

(٣) فتوح البلدان ١٩٣ ، ٣٠٠ والفهرست ٣٥٣ والعقد الفريد ٢ / ٢٢٢ .

(٤) الفهرست ٣٥٢ .

يدل على ذلك أنهم قالوا لصالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم - وهو الذى عرب الديوان وكان يعرف العربية والفارسية - كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ فقال : أكتب عشرا ونصف عشر . فقالوا له : وماذا تصنع بويده ؟ قال : أكتب أيضا . فقال بعضهم : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية . ثم بذلوا له مئة ألف درهم ، على أن يظهر عجزه عن تعريب الديوان ، فأبى . لهذا قال عبد الحميد بن يحيى : « لله در صالح ! ما أعظم مَننته على الكتاب » . يريد الكتاب العرب .

وأما ديوان مصر فقد كان بالقبطية ، وحول فى عهد الوليد بن عبد الملك ، إذ كان عبد الله بن عبد الملك بن مروان واليا على مصر ، فصرف عن الديوان أنتناش ، وجعل عليه ابن يربوع الفزازى من أهل حمص .

( د ) بقى سبب من أسباب كراهية الموالى للأمويين هو أن كثيرا منهم وبخاصة فى العراق وفارس كانوا متشيعين ، كما سبق فى دراسة الشيعة ، فهم يكرهون بنى أمية ؛ لأنهم مفتصبون للخلافة وهى حق للعالمين ، ولهذا كانوا ينضمون إلى الثورات والثأرين . وقد سلفت محاورة الحجاج لسعيد بن جبير ، وسبق أن الحجاج نفى النبط من واسط ، وأمر بنفهم من البصرة ، وهو بهذا يريد اتقاء شرهم .

وليس من المستبعد أن يكون ذوو الرأى من أبناء الفرس قد تطلعوا أواخر الدولة الأموية إلى إقامة دولة جديدة تدنيهم وترفع من شأنهم .

وقد تنبه إلى ذلك ابن هزم إذ قال : « والأصل فى خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة النظر فى أنفسهم ، حتى إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون جميع الناس عبيدا لهم .

فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا ، تعاظمت الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام فى أوقات كثيرة ، وفى كل ذلك كان يظهر الله الحق ، فأظهر قوم منهم الإسلام .

واستألوا أهل التشيع بإظهار حجة آل البيت ، واستشناع ظلم عليّ رضي الله عنه ، حتى أخرجوهم عن الإسلام . . . . » (١) .

ثم فصل الفكرة ووضحها وعلل لها الأستاذ الدكتور طه حسين في قوله (٢) : « لقد كان الفرس يتخذون التشيع لعلّي وآل بيته لونا سياسيا ، إذ كانوا قد وثقوا بأن من المستحيل أن يسترد الفرس في ذلك الوقت استقلالهم السياسي وحريتهم الدينية ، على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام . فلم يكن لهم بد من أن يصلوا إلى السلطان من الإسلام ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية ، فنصروا الضعيف المضطهد من هذه الأحزاب ، وهو حزب العلويين . وكان هذا الحزب ضعيفا أيام عثمان ، مضطهدا أقبح الاضطهاد طوال أيام بني أمية ، فأيده الفرس وناصروه ، حتى وصلوا به إلى السلطان ، ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان ، لأن ظروفًا سياسية خاصة دعت إلى أن يستأثر بنو العباس بالحكم دون بني علي ، فلان الفرس وصرنوا ، وآزروا بني العباس ، ليصلوا معهم إلى السلطان ، وتشدد منهم في مذهبهم العلوي قوم لقوا في سبيل هذا المذهب منايهم ، ومن هؤلاء أبو مسلم ، ومنهم البرامكة أيضا » .

وقد تقدم في الحديث عن الشيعة أن كثيرا من الفرس كانوا من أعوانهم ، وأن ذلك مردود إلى عدة عوامل ، منها بغضتهم لبني أمية ، وحبهم لبني هاشم ، لأن زوجة الحسين بن علي منهم ، ولأنهم أملوا في أن تثول الخلافة إلى العلويين فيقربوهم .

ثم انتهت الأحداث إلى الغاية التي أُمِّلُوها ، وإن لم تتمحقق الوسيلة ، فإن الخلافة آلت إلى بني العباس لا إلى بني علي ، لكنهم كانوا أعوانهم الخالص بقيادة أبي مسلم الخراساني ، وعرف العباسيون لهم صنيعهم فقربوهم ، وآثروهم بالنفوذ والسلطان .

ولم يكن هذا الأمل الذي راود الموالي بخاف على ساسة العرب ، فهذا نصر ابن سيار يدعو العرب إلى الوحدة ، ويدعو التزاريين واليمانيين إلى الوثام ، ليتقوا

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١١/٢ .

(٢) حديث الأربعاء ٢٢٧/٢ .

الهلاك الذى يبيته العجم لهم ، ويوبخهم على غفلتهم عن أعدائهم من العجم فى قوله: (١)  
 أبلغ ربيعة فى مرؤ وإخوتهم فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب  
 وليغضبوا الحرب إن القوم قد نصبوا حرباً يحرق فى حافاتها الحطب  
 ما بالكم تلقحون الحرب بينكم كأن أهل الحجاج عن رأيكم عزب (٢)  
 وتتركون عدواً قد أظلمكم ممن تأشب ، لادين ولا حسب (٣)  
 قدماً يدينون ديننا ما سمعت به عن الرسول ولم تنزل به الكتب  
 فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم فإن دينهم أن تهلك العرب

— ٣ —

### مظهر العصبية الجنسية :

وإذا فقد حنق الموالى ، لأن الدولة عربية خالصة شديدة الحرص على أن تكون شئونها بأيدي العرب ، وحنقوا أيضاً ، لأن الدولة لا تنظر إليهم نظرتها إلى الأ كفاء ، ولأن العرب صاروا بعد الفتح والنصر يرونهم أقل منهم شأنًا وأدنى منهم أصلاً ومنعديراً .

وكان من الطبيعى أن ينادى الموالى بتحقيق المساواة التى شرعها الإسلام وجعلها دستوراً منذ استهل نوره . ثم ارتفع صوتهم ، فجعل بعضهم يقابل تعالى بمثله ، وجعلوا يباهون بماضى الفرس ، وسعة ملكهم ، وعظمة حضارتهم ، وثراء بلادهم ، وكانوا فى قليل من الأحيان يعرضون بالعرب ، وينددون بهم فى رمز ومواربة .

هذا الصراع الجنسى بين العرب وغيرهم هو الذى نسميه شعوية .

وقد ظهر الصراع فى العصر الأموى مظهرين اثنين :

(١) العقد الفريد ٥/٤١٧

(٢) عزب : جم أعزب وهو البعيد جدا .

(٣) تأشب : جم .

الأول : تفضيل العرب أنفسهم على العجم .

الثاني : تسوية العجم أنفسهم بالعرب ، لأن العرب والعجم جميعاً يرجعون إلى أب واحد وأم واحدة ، ولأن الإسلام أبطل العصبية الجنسية ، قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال صلى الله عليه وسلم : ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى .

أما زاية العجم بالعرب ، وتفضيل أنفسهم عليهم ، فنزعة لم تظهر في عصرنا هذا ، بل ظهرت وكان لها دوى في العصر العباسي ، وألفت فيها رسائل وكتب ، وقيلت فيها قصائد كثيرة (١) .

## نتائجها الشعرية

كانت هناك إذا معارك لسانية ، نشبت بين العرب والعجم ، بدأت وقائعها الأولى في العصر الأيوبي ، ثم اتسعت ميادينها وكثرت وقائعها في العصر العباسي .

وكان من أسلحة هذه المعارك ، ومن نتائجها أيضاً ، هذا الشعر الشعوبي الذي أعرض له .

- ١ -

## تحقير العرب للمموالي

يظهر أن شعراء العرب هم الذين بدءوا بالعدوان ، فجهروا بتحقير الموالى ،

فقد قال محمد بن بشير الخارجي :

---

(١) راجع العقد الفريد وزهر الآداب ومحاضرات الأدباء ورسائل الجاحظ والبيان والتبيين وغيرها .

إذا افتقر المولى سعى لك جاهدا لترضى، وإن نال الفنى عنك أدبرا<sup>(١)</sup>

وهو الذى ركب إلى المدينة ليشكو إلى واليها رجلا من الموالى تزوج امرأة من بنى سليم ، فاستجاب له الوالى ، وأرسل إلى الزوج ، وفرق بينه وبين زوجته ، وضربه مثنى سوط ، وحلق رأسه وحاجبيه ، فرضى ابن بشير ، وقال أياته التى سبقت ، وفى ختامها :

فأى الحق أنصف الموالى من اصهار العبيد إلى العبيد؟

ونزل جرير بقوم من بنى العنبر ، فباعوا له الطعام ، ولم يُضَيِّفُوهُ ، فذمهم ، وفى ذمه لهم زراية بالموالى ، لأنه رأى أن إهمالهم واحتقارهم لا عيب فيه ، فقال<sup>(٢)</sup> :

يا مالكُ بن طريفٍ إن بيعكمُ رِفْدَ القِرَى مُفْسِدٌ للدين والحسب

قالوا : نبيعُكهُ بيعاً ، فقلت لهم يبيعوا الموالى واستحيوا من العرب

وكثيرا ما عرض انفرزدق بالموالى ، وهو يهجو ناسا من غير العرب ، كقوله<sup>(٣)</sup> فى هجاء المهلب إنه نبطى :

ولو رُدَّ المهلب حيث ضُمَّتْ عليه الفافَ أرضُ أبى صُفَّارٍ<sup>(٤)</sup>

إلى أم المهلب حيث أعطت بشدى اللؤم فاه مع الصُّفَّار

تبين أنه نبَطِيٌّ بَحْرِيٌّ وأن له اللثيم من الديار

وقوله فى يزيد بن المهلب وجنده من أهل عمان<sup>(٥)</sup> :

( ١ ) الأغاني ١٤ / ١٥٨ . ( ٢ ) ديوان جرير ٤٩ والكامل ١ / ٧٧٤

( ٣ ) الديوان ١ / ٢٥٤ .

( ٤ ) الفاف : شجر ضخمة يشبه اليزبوت بمظم فى عمان حتى تغيب فيه الإبل . أبو صفارة :

أبوصفارة . ( ٥ ) الديوان ٢ / ٨٠٧



لو أنهم عَرَبٌ أو كان قائدهم مُدَبِّرًا ماغزا العُقْبَانُ بِالرَّحْمِ  
وقوله في هجاء أيوب بن عيسى الضبي (١) :

فلو كنت قَيْسِيًّا إِذَا مَا حَبَسْتَنِي وَلَكِنْ زَنْجِيًّا غَلِيظًا مَسَاغِرُهُ

— ٢ —

### دفاع الموالى عن أنفسهم

فلما مضى من عمر الدولة نصنه أو أكثر ، بدأ نجم الأعاجم يتألق ، وبخاصة منذ عهد هشام بن عبد الملك ( ١٠٥ — ١٢٥ ) .  
وكان لهذا أسباب شتى .

فقد اشتهر بالورع والعلم والسيادة كثير ممن ولدتهم أمهات غير عربيات ، كعلي بن الحسين ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبدالله بن عمر ، والحسن البصرى ، وطى زين العابدين بن الحسين (٢) .

ثم كان بعض الأمراء من بنى أمية أمهاتهم غير عربيات ، مثل يزيد بن الوليد - فأمه فارسية - وأخيه إبراهيم - فأمه أم ولد - ويزيد هو القائل :

أنا ابن كسرى وأبى مروانُ وقيصر جدى وجدى خاقانُ  
وهو الذى ثار على الوليد بن يزيد ، وآزره المعتزلة (٣) .

ومثل مروان بن محمد .

ومن هذه الأسباب أن بنى أمية خففوا من ذرايتهم بالموالى ، لأنهم كثرة يخشى منها على الدولة ، وبخاصة حينما تحقق الأمويون أن الموالى ضالعون مع الشيعة (٤) ، وأن الدعوة الشيعية تنتشر فى خراسان ، إذ رحب بها الفرس ، وروجوا لها .

(١) الأغاني ٢٤/١٩

(٢) المرأة فى الشعر الجاهلى المؤلف فى فصل الزوجة ، وفصل الإمام .

(٤) راجع فصل الشيعة

(٣) مروج الذهب ١٩٣/٢

وكان كثير منهم قد أجادوا الشعر ، كزياد الأعجم مولى عبد القيس ، وأبي العباس الأعمى مولى بني الدَّيْل ، ويزيد بن ضبة مولى ثقيف ، وإسماعيل ابن يسار .

فهل نتوقع من الموالى حينئذ أن يصبروا على إبعادهم وتحقيرهم ؟

لا . لم يطق الموالى صبرا ، فراحوا يباهون بمجد الفرس وعظمتهم ، ويتطلعون إلى استعادة استقلال بلادهم ، ويندد بعضهم بالعرب تنديدا خفيا أو يتهجم عليهم في لحن خاطف .

والأمثلة على هذا كثيرة :

١ — دعا هشام بن عبد الملك إسماعيل بن يسار لينشده ، وكان هشام يتوقع مديحا ، فإذا به يسمع من ابن يسار مباهاة بقومه العجم ، كقوله (١) :

أصلى كريمٌ ومجدى لا يُقاس به      ولى لسان كحدِّ السيف مسمومـ  
أحمى به مجد أقوام ذوى حسَب      من كل قرمٍ بتاج الملك مَعْمُومِـ<sup>(٢)</sup>  
ججاججٍ سادةٍ بُلجٍ مرازيةٍ      جُرْدٍ عِتاقٍ مساميحٍ مطاعيمِـ<sup>(٣)</sup>  
مَنْ مِثْلُ كسرى وسابور الجنودِ مما      والهَرْمُزَانِ لفخر أو لتعظيم ؟  
أشدُّ الكتاب يوم الرُّوع إن زحفوا

وهم أذلُّوا مملوكَ الترك والروم

(١) الأغاني ٤/٤٠٨

(٢) قرم : سيد . معوم : على رأسه عمامة والمراد التاج .

(٣) ججاجج : جمع ججاج وهو السيد . بلج : جمع أبلج وهو المطلق الوجه الهاش . مرازية : جمع مرزبان وهو الرئيس . جرد : جمع أحرد وهو فى الأصل الجواد القصير الشعر ، والمراد هنا السباق إلى العمل العظيم . عتاق : جمع عتيق وهو الحسيب . مساميح : جمع مسماح وهو الكريم . مطاعيم : جمع مطعام وهو الذى يطعم الناس كثيراً .

يَمْشُونَ فِي حَلَقِ الْمَاضِي سَابِقَةً مَشَى الضَّرَاعَةُ الْأَسَدِ اللَّهَامِيمِ<sup>(١)</sup>

هَذَا إِنْ تَسَالَى تُذَنِّبِي بَأَن لَنَا جُرْثُومَةً قَهَرَتْ عِزَّ الْجَرَائِمِ

فغضب هشام وسبه ، وأمر به فألقى في بركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم نقاه إلى الحجاز .

٢ — ولم يكن إسماعيل بن يسار يقنع بهذا الفخر أو بما يماثله ، بل جعل يمزج بفخره تهجماً على العرب ، كقوله<sup>(٢)</sup> :

رُبَّ خَالٍ مُتَوَجِّجٍ لِي وَعَمٍّ مَاجِدٍ مُّجْتَدِي كَرِيمِ النَّصَابِ<sup>(٣)</sup>

إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفُرِّ سِ مِ مُضَاهَاةَ رَفْعِ الْأَنْسَابِ

فأتركى الفخر يا أُمَامَ عَلَيْنَا وَاتْرَكِي الْجُورَ وَانْطِقِي بِالنُّصُوبِ<sup>(٤)</sup>

وَاسْأَلِي إِنْ جَهِلْتِ عَنَّا وَعَنْكُمْ كَيْفَ كُنَّا فِي سَالِفِ الْأَحْقَابِ

إِذْ نُرَبِّي بِنَاتِنَا وَتَدُسُّوْنَ سَفَاهَا بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ

وكان في السامعين أشعب ، فقال له : صدقت والله ، أراد العرب بناتهم لغير ما أردتموهن له .

قال إسماعيل : وما ذاك ؟ قال أشعب : دفن القوم بناتهم خوفاً من العار ، وريتموهن لتتكعوهن .

فضحك القوم ، وخجل إسماعيل ، حتى لو استطاع أن يسيخ في الأرض لفعل<sup>(٥)</sup> .

(١) الماضى : كل سلاح من الحديد، والدرع اللينة. اللهاميم : جمع لهمم وهو الجواد السابق

(٢) الأغاني ٤/١١١ (٣) مجتدى : كريم مقصود . النصاب : الأصل .

(٤) أُمَام : أصله أُمَامَة ، علم على امرأة عربية ، والمراد العرب هنا .

(٥) الأغاني ٤/١٢٠ .

٣ - كذلك كان يزيد بن كُصْبَة يفاخر بالفرس <sup>(١)</sup> ، مثل قوله :

ألم تر أننا لما ولينا أموراً خرقت قوت سَدَدَنَا ؟  
 رأينا الفتق حين وهى عليهم وكم من مثله صدع رقاننا  
 ولينا الناس أزماناً طوالاً وسُتْنَاهُمْ ودُسْنَاهُمْ وَقَدْ نَا  
 ألم تر مَنْ وَلَدْنَا كيف أشيَ وَأَشْبَيْنَا ، وما بهم قَعَدْنَا <sup>(٢)</sup>

وقد أنشد أمام الوليد بن عبد الملك شعراً يفخر فيه بالفرس ، فلم ينكر عليه .

٤ - وهناك آخرون من الموالى ، كانوا مُبْتَلَيْنَ بالعصية لقومهم ،  
 كإبراهيم بن إسماعيل بن يسار <sup>(٣)</sup> .

ثم صار على شاكلتهم كثير من شعراء العصر العباسى ، كبشار وزياد الأعجم .

٥ - وكانت لهم في العصر الأموى وسائل شتى في الانتصاف من العرب ، منها  
 هذا الشعر ، ومنها التعريض والكناية عن العرب بهند وأمامة ، ومنها اختلاق  
 أشعار وأحداث تزرى بالعرب <sup>(٤)</sup> .

### — ٣ —

#### مناصرة بعض الموالى للأحزاب

وما أريد أن تطول بك الحيرة إذ تجد من شعراء الموالى أنصاراً للأحزاب  
 السياسية ، كإسماعيل بن يسار الشاعر الزبيرى ، وعمرو بن الحصين الشاعر  
 الحارجى ، والحسين بن مطير ويزيد بن كُصْبَة من شعراء بنى أمية ، وابن المولى  
 الشاعر الشيعى .

ما أريد أن تطول حيرتك ؛ لأن هؤلاء الشعراء كانوا يوالون هذه الأحزاب  
 ليعتموا بها ، أو لينالوا من برها ، أو ناصرها بعضهم مخلصاً ، لأنها هى الأحزاب

(١) الأغاني ٧/ ٩٥

(٢) الأغاني ٤/ ١٢٦

(٣) أشي : أشيل وولد له ولد كيس

(٤) راجع الفصل الخامس من كتاب ( التيارات المذهبية بين العرب والفرس ) للمؤلف

القائمة التي تصطرع على الحكم ، ولا مندوحة عن حكومة وحاكم ، ولو كان في هذه الأحزاب حزب أجنبي لسارع هؤلاء إلى الدعاوة له وتأييده ، فقد كان أمل كثير منهم أن يعيدوا ملك الفرس وسيطرتهم .

ثم إن هؤلاء الشعراء لم ينقطعوا للمذاهب التي ناصروها ، فإسماعيل بن يسار انتقل من الزبيريين إلى مدح عبد الملك ، ومدح من بعده من الخلفاء .

ولم يكن مخلصا في مدحه ، فقد استأذن على الفخمر بن يزيد بن عبد الملك فحجبه ساعة ، ثم أذن له فدخل باكيا ، فسأله الفخمر : مم تبكي ؟ قال : كيف لا أبكي وأنا على مروانيتي ومروانية أبي أحجب عنك ؟ فاعتذر له الفخمر ، لكنه لم يسكت عن البكاء حتى أعطاه . ولما خرج لحقه رجل وسأله : أخبرني ويلك يا إسماعيل ، أي مروانية كانت لك ولأبيك ؟

قال : بغضنا إياهم ، امرأته طالق إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم ، وإن لم يكن أبوه لما حضره الموت قيل له : قل لا إله إلا الله ، فقال : لعن الله مروان ، تقربا إلى الله تعالى ، وإبدالا له من التوحيد (١) .

## — ٤ —

### مرأة الموالي في العصر العباسي

وهما يكن من أمر هؤلاء الموالي ، فإن صوتهم كان خافتا في العصر الأموي ، أو كان أقرب إلى الخفوت منه إلى القوة ، فلما جاء العصر العباسي انتسح المجال أمامهم ، فقوى صوتهم ودوى ، إذ اطمأنوا إلى حرمتهم المكفولة ، واستمتعوا بنفوذ عظيم في قصور الخلفاء ودواوين الحكومة ، بل كانت الوظائف الكبار مقصورة على الفرس . وإذا كان قليل جدا من الموالي قد تولوا بعض الأعمال العامة

(١) الأغاني ٤/٤٠٩

في عهد بني أمية <sup>(١)</sup> فإن توليتهم في عهد بني العباس صارت القاعدة والأساس ، فأكثر من ولاهم المنصور موال <sup>(٢)</sup> ، وصار المنصور بهذا أول من استعمل مواله وغلماؤه ، وقدمهم على العرب ، ثم حاكاه في صنعه من جاءوا بعده ، حتى كان ذلك من أسباب سقوط بغداد ، وزوال ملك العرب <sup>(٣)</sup> .

والرشيد من هؤلاء الذين حاكوا المنصور ، وقد كان للبرامكة في عهده نفوذ يتحدث به التاريخ ، كذلك كان المأمون يؤثر الفرس جهرة ، ويشكك في ولاء العرب له .

لهذا شَرِقتُ قصور الخلفاء بالموالي من رجال ونساء ، وغص الجيش بهم ، حتى إن الفضل بن يحيى البرمكي اتخذ جنودا من خراسان مماتهم العباسية ، جعل ولاءهم للعباسيين ، بلغ عددهم خمس مئة ألف ، وقدم منهم إلى بغداد عشرون ألفا <sup>(٤)</sup> .

ثم جاء المعتصم فاستخدم الترك ، وآثرهم على الفرس ، فصار العداء بين هؤلاء وهؤلاء ، ثم انتصر الترك على الفرس وعلى العرب جميعا .

إذاً فقد كانت الظروف مواتية لأن يجهر الفرس بتحقيق العرب في العصر العباسي ، ويعيروهم الفقر والجذب وشظف العيش والجهل والفوضى ، ويذكروهم بأنهم كانوا عملاء لكسرى ، أو حراسا على قوافله التجارية التي تقدم إلى بلادهم . نجد هذا في قول الخنزي :  
وناديتُ من مرّو وبلّخ فوارسا  
فيا حسرتا لا دارُ قومي قريبة  
وإن أبي ساسان كسرى بن هرمز  
وخابان لي - لو تعلمين - نسيب

لهم حسبٌ في الأكرمين حسيبُ  
فيكثر منهم ناصري ويعطيبي  
وخابان لي - لو تعلمين - نسيب

(١) تولى رجاء بن حيوة مولى كندة ، وولى عمر بن عبد العزيز مولى على وادى القرى

فغوتب في ذلك . (٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ١٣٩ ، ١٥٣ - ١٥٧

(٣) مروج الذهب ٤٠١/٢ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ١٠٥ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ١١٤/١ . (٥) الشعر والشعراء ٣٥٣



ملكنا رقاب الناس في الشرك كلهم      لنا تابع طوع القياد جنيب  
نسومكم خسفا ونقضي عليكم      بما شاء منا مخطيء ومصيب  
فلما أتى الإسلام وانشرحت له      صدور به نحو الأنام تبيب  
تبيننا رسول الله حتى كأنما      مماء علينا بالرجال تصوب

وقول بشار بن برّد في هجاء عربي<sup>(١)</sup>:

أحين كسيت بعد المرى خزا      ونادمت الكرام على العقار<sup>(٢)</sup>  
تفاخر يابن راعية وراع      بنى الأحرار ، حسبك من خسار  
تريفج بخطبة كسر الموالى      وينسبك المكارم صيد فار<sup>(٣)</sup>  
وكنت إذا ظمئت إلى قراح      شركت الكلب في ولغ الإطار<sup>(٤)</sup>  
وتفادو للقنفاذ تدرىها      ولم تعقل بدراج الديار<sup>(٥)</sup>

وكذلك قال المتوكلي<sup>(٦)</sup> ، وهو من ندماء المتوكل :

قل لبنى هاشم أجمعين      هاموا إلى الخلع قبل الذم  
ملكناكم عنوة بالرما      ح طعنا وضربا بسيف حذم<sup>(٧)</sup>  
وأولاكم الملك آباؤنا      فما إن وقئتم بشكر النعم  
فمودوا إلى أرضكم بالحجاز      لأكل الضباب ورعى الغنم  
فإني سأعلو سرير الملوك      بحد الحسام وحرف القلم

وطبىعى ألا يسكت العرب عن هذا التطاول ، وهم الذين يرون أنفسهم أركى  
أصولا وأشرف محتدا ، فجعلوا يردون على تهجم الفرس بمثله ، وجعل بعضهم  
يكيد لبعض ، إلى أن جاء الترك في عهد المعتصم فقصوا على نفوذ الفرس والعرب جميعا.

(١) الأغاني ٢٤٢/٦ (٢) العقار : الخمر (٣) تريفج : تريد (٤) قراح : ماء صاف

(٥) تدرىها : تختلها وتصيدها . دراج الديار : المراد الدجاج . لم تعقل : لم تعرف .

(٧) حذم : قاطع

(٦) معجم الأدباء ٣٢٣/١

## الباب السادس

### نزاجير موججيرة

#### لبعض الأدباء الساسة

مارس السياسة في هذا العصر كثير من الأدباء ، أهواؤهم شتى ، ومذاهبهم السياسية مختلفة .

وقد تخيرت بعضهم من الأحزاب المختلفة ، لأعرض لهم في إجمال ، عرضاً يكشف عن معالم حياتهم ، وأبرز خصائصهم في أدبهم ، وبخاصة ما يتصل أوثق الاتصال بإنتاجهم السياسي ، لتكتمل بهذا صورة من أدب السياسة في العصر الذي أدرسه .

فإذا تناءيت عن التفصيل ، وتفاضيت عما لا يتصل بالسياسة من قريب ، فإن مرد ذلك إلى الإيجاز من ناحية ، وإلى السياسة من ناحية .

\* الأخطل

( شاعر الدولة )

شاعر الدولة الرسمي ، الذي أ كثر من مدح خلفائها ، والدعاية لها ، والترويج لساتها ، نحو ربع قرن من الزمن .

---

(\*) الأغاني جزء ٨ دار الكتب ومعجم البلدان ٦٣١/١ وطبقات الشعراء لابن سلام ٣٩٧ وديوان الأخطل لأنطون صالحاني .

## معالم حياته

اسمه رِغِيَاث ، واسم أبيه غَوْث ، واسم جده الصَّلْت ، وكنيته أبو مالك ، لكن اللقب الذي غلب عليه حتى لا يعرف إلا به هو الأخطل<sup>(١)</sup> .

والأخطل من قبيلة تغلب ، وهي قبيلة كبيرة من ربيعة .

وأما مولده فلا نعرفه على وجه اليقين ، ولقد رجح ناشر ديوانه الأب أنطون صالحاني أنه ولد حوالي ( ١٩ هـ ٦٤٠ م ) .

كذلك لا نعلم على وجه اليقين أين ولد الأخطل ، وإن كان الراجح أنه ولد في المجال الذي كانت تجول فيه قبيلة تغلب بالجزيرة<sup>(٢)</sup> ، وهناك نشأ وكبر ، وتقلبت به الأحوال ، ثم مات في زمن الوليد بن عبد الملك .

### صلته ببني أمية :

من المفارقات الغريبة أن الذي نبه الأمويين على الأخطل كان يريد به الشر ، فإذا الشر الذي يريده ينقلب خيراً له ، ويزداد هذا الخير مع الزمن ، حتى يصير الأخطل شاعر الدولة الأول .

ذلك أن الأخطل قبل أن ينبغ هجاء شاعراً تغلبياً هو كعب بن جُعَيْل ، فضربه أبوه وقال له : « أَبْغْذُ رَمْتِكَ هَذِهِ تَرِيدُ أَنْ تَقَاوِمَ ابْنَ جُعَيْل ؟ » لكن الأخطل لم يكف ، وما زال يهجو كعباً حتى غلب عليه .

ثم أراد يزيد بن معاوية — في خلافة أبيه — أن يثار من الأنصار ، لأنهم

(١) لف بهذا لأنه لما هجاء كعب بن جعيل شاعر تغلب ، قبل أن ينبغ في الشعر قال له : يا غلام إنك لأخطل اللسان أي هجاء بذي . وكانت زوجة أبيه تلقبه دويل ، وهو الحمار الصغير .

(٢) كانت تغلب تنزل بالجزيرة ، وتمتد ما بين أذربيجان شمالاً وشرقاً ، وحدود الشام غرباً ، والحيرة جنوباً .

(٣) الغدومة : اختلاط الكلام .

كانوا وما زالوا خصوم أيه ، وكانوا وما زالوا أعواناً لعلى وأبناء على ، فندب كعب ابن جعيل لهجائهم ، فامتنع ، وعجب من يزيد أنه يريد على أمر يردده إلى الكفر بعد الإسلام ، فلن يستطيع أن يهجو قوماً آووا رسول الله ونصروه .

غير أن كعباً لم يقف عند حد المَعذرة والرفض ، وإنما أشار على يزيد بأن يندب لما يريد شاعراً نصرانياً يغنى أعظم غناء ، فهجا الأخطل الأنصار ، وأثارهم ، فمضوا إلى معاوية يشكونه ، وطلب النعمان بن بشير من معاوية أن ينكل بالأخطل ، فتظاهر معاوية بالموافقة ، لكن يزيد شفع فيه ، وحماه من العقوبة ، فصار الأخطل منذ هذا الحادث أثيراً عند يزيد ثم عند خلفاء بني أمية .

فهو مقرب إلى يزيد وهو أمير يسامره ويشاربه وبشاركه في أكل الخنايص<sup>(١)</sup> بدار ابن سرجون كاتب المال في عهد معاوية ، ثم ما زال يصطفيه وهو خليفة ، فكانا يشربان معاً ، ويرحلان معاً ، وكان يزيد يستدعيه إلى قصره للمنادمة وسماع الغناء ، وقيل إنه رافقه في حجه<sup>(٢)</sup> . وهو أثير عند عبد الملك ، يدخل عليه بغير إذن ، وفي عنقه سلسلة من ذهب وصليب ، ولحيته تقطر خمرًا ، ويجلس معه مكرماً وهو ثمل ، ويطلق عليه عبد الملك مرة شاعر أمير المؤمنين ، ومرة شاعر بني أمية ، ومرة أشعر العرب<sup>(٣)</sup> .

ولا شك أن الأخطل كان يدل بعزازته على بني أمية ، لأنه من قبيلة تغلب التي ناصرت بني أمية منذ حرب صفين ، وناصرتهم على الزبيريين ، وكانت تغلب بالحجاز وبالشام قد دانت للأخطل — بعد إخامه شاعرها كعب بن جعيل — بالزعامة والتقديم ، فهي تناصر بني أمية الذين يناصرهم شاعر القبيلة المقدم ، وهو يناصر بني أمية الذين تساندتهم قبيلته .

وأغلب الظن أن مدائحهم لم يكن مبعثها الحياء وحده ، وإنما كان مبعثها أيضاً أن لقومه ضلعا في نصرته سياستهم .

(٢) الأغاني ٨/٣٠١

(١) جمع خنوص : ولد الخنزير

(٣) الأغاني ٨/٢٨٧ .

يدل على ذلك أنه لما اعترضه معاوية الثاني بعد مئة يوم من توليه (سنة ٦٤) بايع أهل المدينة عبد الله بن الزبير ، وبايع أهل الشام مروان بن الحكم ، ونشبت الحرب بين الخليفين ، وانتصر مروان في كمرج راهط ، وكانت قبيلة تغلب تناصر مروان ، وكانت قيس تناصر ابن الزبير ، ونجم عن هذا عداً طويل بين القبيلتين ، وحروب كان النصر فيها دولة بينهما ، وشارك الأخطل في هذه الحرب ، وأسر مرة<sup>(١)</sup> .

لهذا دل الأخطل بنفسه وبقومه ، حتى لقد ذهب إلى عبد الملك حانقا ، يثيرة على قيس ليثأر منها لتغلب ، بعد هزيمتها في يوم البش<sup>(٢)</sup> ، ويهدده بالانفصال عن بني أمية إن لم يأخذوا لتغلب ثأرها :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعوّل  
فسائل بني مروان : ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصل  
فإن لم تُغَيِّرْها قريش بعد لها يكن من قريش مُستَحَازَّ ومرّ حل

ولم يخفَ هذا التهديد على عبد الملك ، فغضب وقال : إلى أين يا بن النصرانية ؟ فتدارك الأخطل وهدأ من ثورته قائلاً في حسن تخلص : إلى النار . فتبسم الخليفة ، وكأنما رضى عبد الملك بأن يصرف الأمر عن الجد إلى الفكاهة ، إذ اكتفى بإجابة الأخطل ، وهو يعلم أنها إجابة المتخلص من ورطة ، لا إجابة الصادق فيما يقول .

(١) معجم البلدان ٦٣١/١ . (٢) دخل الجحاف على عبد الملك والأخطل

عنده ، فقال عبد الملك للأخطل : أتعرف من هذا؟ قال لا ، فقال : إنه الجحاف . فأنشد الأخطل .

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر

يندد بوقعة تغلب بقيس وحلفائها يوم الكحيل .

فهاج الجحاف ، وجمع جموعه ، وأغار على تغلب بموضع اسمه البشر ، فقتل منهم خاقا كثيرا ، وأسر رجالا فيهم الأخطل ، وبقربطون الحبالى ، وكان الأخطل يلبس عباءة قدرة ، فظنوه عبدا ، فأطافوه .

وإذا كان يزيد بن معاوية هو الذى حرض الأخطل على هجاء الأنصار ، فإن بنى أمية تفاضوا عن هذا الهجاء ، وتفاضوا عن جهره بمعاداته للإسلام ، لقاء تأييده وتأيد قومه لهم .

فهو القائل فى هجاء حسان بن ثابت والأنصار بإيعاز من يزيد بن معاوية — وهو أمير فى خلافة أبيه — إذ كان والأنصار أعوانا لعلی :

خلوا المكارم لستم من أهلها      وخذوا مساحيكم بنى النجار<sup>(١)</sup>  
إن الفوارس يعرفون ظهوركم      أولاد كل مقبّح أكار<sup>(٢)</sup>  
ذهبت قريش بالمكارم كلها      والاثوم تحت عمام الأنصار

فلما ذهب النعمان بن بشير فى وفد من الأنصار إلى معاوية ، وشكوه له ، هدام بأنه سيعاقبه ، ثم شفع فيه يزيد ابنه فعفا عنه .

وهو القائل لعبد الملك — وكان قد عرض عليه الإسلام — : إن أنت أحللت لى الحمر ، ووضعت عنى صوم رمضان ، أسلمت . فقال عبد الملك : إن أنت أسلمت ، ثم قصرت فى شيء من الإسلام ضربت عنقك .

فقال الأخطل .

ولست بصائم رمضان عُمرى      ولست بآكل لحم الأضاحى  
ولست بزاجر عَنَسًا بُكوراً      إلى بطحاء مكة للنجاح  
ولست بقائم كالغير يدعو      قبيل الصبح : حى على الفلاح  
ولكنى سأشربها شمولاً      وأسجد عند منوالج الصباح

(١) المساحى : جمع مسحاة وهى آلة مثل الفأس لجرف الطين .

(٢) أكار : حراث ، يعيهم بالزراعة .



لكن الأيام كثيراً ما تتقلب ، فلا عجب في أن تجهم الدهر للأخطل في عهد الوليد بن عبد الملك ، لأن الوليد لم يكن متسامحاً مع النصارى ، فهو الذي عرض الإسلام على أحد شيوخ تغلب ، فلما رفض قتله<sup>(١)</sup> ، وهو الذي جعل كنيسة يوحنا بدمشق مسجداً هو الجامع الأموي .

وإذاً فقد نُجِّي الأخطل عن قصر الملك ، وشغل مكائته عدوى بن الرقاع ، العامل ، وصار عدوى شاعر الدولة<sup>(٢)</sup> .

فكان لا بد للأخطل من أن يطمئن من كبريائه ، وأن يجهر بأيدي الأمويين عليه ، بعد أن كان يمن عليهم بنصرة قومه لهم ، فهو في مدحه للوليد يقول :

بنى أمية قد أجذت فواضلكم منكم جيادى ومنكم قبلها نعى  
فإن حلفت لقد أصبحت شاكرها لا أحلف اليوم من هاتا على أئتم

وهكذا أخذ الأخطل يأسف على مكانه المفقود ، ويأسى لما نزل بالنصارى من إبعاد في عهد الوليد<sup>(٣)</sup> .

## دينه

ما زال الأخطل - مثل أكثر قبيلته - على النصرانية ، لم يبدلها ، وكانت القبية كلها يعقوبة .

فهل كان على علم وثيق بالنصرانية ؟

وهل درس الإسلام دراسة واعية ؟

ما أظن هذا ، ولا ذاك .

وإنما أرجح أن الرجل عز عليه أن يفارق دين قومه ، وهو لسانهم الناطق ،

(٢) الأغاني ٣٠٧/٩ :

(١) الأغاني ٩٩/١٠ .

(٣) ديوان الأخطل ٢٣٢ .

وكبيرهم المقدم ، وعز عليه أن يحرم الحمر ، وأن يكلف صوم رمضان ، فقد عرض عليه عبد الملك يوماً أن يسلم ، فقال له : « إن أنت أحلت لي الحمر ، ووضعت عني صوم رمضان ، أسلمت » .

على أنه كان هيابة للقس إلى حد الاستخذاء الذي لا يتفق ومكانته .

فقد شكاه بعض الناس إلى القس « فأخذه بلحيته وضربه بعصاه ، وهو يصيح كما يصيح الفرخ . فقيل له : أين هذا مما كنت فيه بالكوفة ؟ فقال يابن أخى ، إذا جاء الدين ذللنا<sup>(١)</sup> » .

كذلك حدث شريف من بني هاشم قال : « قدمت الشام وأنا شاب مع أبى ، فكنت أطوف في كنائسها ومساجدها ، فدخلت كنيسة دمشق ، وإذا الأخطال محبوس فيها ، فجعلت أنظر إليه ، فسأل عني فأخبر بنسبي ، فقال : يا فتى إنك لرجل شريف ، وإني أسألك حاجة . فقلت : حاجتك مقضية . فقال : إن القس حبسنى ها هنا ، فكلمه ليخلى عني . فأتيت القس ، وانتسبت له ، فرحب وعظم . قلت : إن لي إليك حاجة قال : ما حاجتك . قلت : الأخطال ، تخلى عنه . قال : أعيدك بالله من هذا ، مثلك لا يتكلم فيه ، إنه فاسق يشتم أعراض الناس ويهجوهم . فلم أزل أستعطفه حتى مضى معى متكثراً على عصاه ، فوقف عنده ، ورفع عصاه ، وقال : يا عدو الله أتعود تشتم الناس وتهجوهم وتقذف المحصنات ؟ وهو يقول لست بعائد ، ولا أفعل ، ويستخذى له . فقلت : يا أبا مالك ، الناس يهابونك ، والخليفة يكرمك ، وقدرك في الناس قدرك ، وأنت تخضع للقس هذا الخضوع ، وتستخذى له . فقال : إنه الدين ، إنه الدين<sup>(٢)</sup> » .

(١) الأغاني ١٧١/٧ .

(٢) الأغاني ١٧٣/٧ .

## موضوعات شعره

للاخطال مدح وهجاء ووصف وخمريات وغزل، لكننا نقصر دراستنا على شعره السياسي. ولنا نشك في أن السياسة كانت الباعث على أكثر مدحه وهجائه، فقد مدح بني أمية؛ لأن قبيلته تغلب ناصرتهم منذ قام معاوية بتمرده على عليّ، وهجأ جريراً لأنه — وهو تميمي — كان ينافح عن قيس ويهجو تغلب، وبين قيس وتغلب عدااء مستحكم طال الأجل.

### — ١ —

وهو في مدحه بني أمية يروج لجدارتهم بالخلافة، وأنزها حقهم، كما سبق في نماذج الشعر السياسي.

ويجهر بتفضيلهم على الشيعة وغيرهم، فقد نوّه بثورة معاوية على عليّ غضباً لقتل عثمان، وفضل الأمويين بقوله:

تَمَّتْ جُدُودُهُمُ وَاللَّهُ فَضْلُهُمْ وَجَدُّ قَوْمِ سَوَامٍ حَامِلٌ نَكِدٍ  
وَأَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتٍ لَا يُوَازِنُهُمْ بَيْتٌ إِذَا عَدَّتِ الْأَحْسَابُ وَالْعَدَدُ  
وَيَوْمَ صَفِينِ وَالْأَبْصَارِ خَاشِعَةٍ

أَمَدُهُمْ — إِذْ دَعَا — مَنْ رَجَمَ مَدَدُ

عَلَى الْأُلَى قَتَلُوا عُمَانَ مَظْلَمَةً

لَمْ يَنْتَهُمْ نَشْدُ عَنْهُ وَقَدْ نَشِدُوا

فَمِ قَرَّتْ عَيُونُ النَّائِرِينَ بِهِ وَأَدْرَكُوا كُلَّ تَبَلٍ عِنْدَهُ قَوْدُ

فَلَمْ تَزَلْ فِيلِقُ خَضِرَاءَ تَحْطُمُهُمْ تَدْعِي ابْنَ عَمَّانٍ حَتَّى أَفْرَخَ الصَّيْدُ (١)

ومدح بني أمية بأنهم مجمع الفضائل، وأحق المسلمين بالخلافة، لكفائتهم

وكرمهم وحسبهم ومهارتهم:

(١) ديوان الأخطال ١٧٤ نشد: طلب. نشدوا: طلبوا. تبل: ثار. قود: قصاص.

فيلق: المراد كتيبة ضخمة. خضراء: سوداء مما عليها من حديد. أفرخ الصيد:

مكن الكبر أي أن القملة خضعتوا وذلوا.

في نعمة من قریش يعصبون بها ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر  
حشد على الحق ، عيافو الخنا ، أنف

إذا ألت بهم مكروهة صبروا  
وإن تدجّت على الآفاق مظلمة<sup>(١)</sup> كان لهم مخرج منها ومعتصر  
أعطاهم الله جدا ينصرون به لا جد إلا صغير بعد محقر  
لم يأسروا فيه إذ كانوا مواليه ولو يكون لقوم غيرهم أسروا  
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا<sup>(٢)</sup>

وأشاد بحلمهم حيث يجدر الحلم ، وبشجاعتهم حيث تجب الشجاعة ، ثم عاد فنوه  
بامتثالهم للخلافة ، وبجهادهم في النار لعنان :

إن يحملوا عنك فالأحلام شيمتهم والموت ساعة يحمى منهم الغضب  
كانهم عند ذاكم ليس بينهم وبين من حاربوا قرى ولا نسب  
كانوا موالى حق يطلبون به فأدركوه وما ملوا وما لمبوا  
هم سموا بابن عفان الإمام وهم بعد الشمس مروها ثمت احتلبوا<sup>(٣)</sup>

وكان كثير المديح لعبد الملك ، والتنويه بصلاح السياسة في عهده ، كقوله: <sup>(٤)</sup>

إلى إمام تفاديفسا فواضله أخفّره الله فليهنأ له الظفر  
الخائض الغمر والميمون طأثره خليفة الله يستقى به الله المطر<sup>(٥)</sup>  
والمستقر به أمر الجميع فما يغتره بعد توكله له غرر<sup>(٦)</sup>  
نفسى فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النوجدأ يوم عارم ذكر<sup>(٦)</sup>

(١) الديوان ١٠٤ نعمة : شجرة جيدة والمراد الأصل . يعصون بها : يحيطون .  
عيافو الخنا : كارهون للفحش ، تدجّت : أظلمت . معتصر : ملجأ . لم يأسروا :  
لم يبطروا . شمس العداوة : أشداء في عداوتهم . يستقادهم : يخضع لهم .

(٢) الشمس : النفور والاستعصاء . مروها : المراد أخذوها بالرفق من مري.  
الناقة إذا مسح ضرعها لتدر .

(٣) الديوان ٩٨ . (٤) الخائض الغمر : المراد أنه ركاب الشدائد .

(٥) غرر : هلاك ، أى أنه في أمان من الانتفاض عليه بعد البيعة له .

(٦) عارم ذكر : نكبة شديدة وأذى مهلك .

وقد مدح غيره من بني أمية ، كقوله في مدح بشر بن مروان :

إذا أتيت أبا مروان تسأله      وجدته حاضرا الجود والحسب  
تري إليه رفاق للناس سائلة      من كل أوتب على أبوابه عُصَبُ  
يحتضرون سجالا من فواضله      والخير يُحتَضَرُ الأبواب مُنتَهَبُ

## — ٢ —

على أنه لم يكن ينسى قبيلته في مدائحه ، بل كان يمزج المدح بالفخر بها ، وبأثرها في توطيد الملك الأموي ، أو بتحريض بني أمية على خصوم تغلب .

وقد سبق تحريضه عبد الملك على الحجاج القيسي .

وشبه به تحريضه عبد الملك على زفر بن قيس الكلابي زعيم القيسية ، وعلى حلفائه من كليب ويربوع وسليم وغيرهم ، لأنهم خصوم بني أمية وخصوم تغلب الموالية لبني أمية على هؤلاء الأحناف وعلى الزبيريين (١) .

## خواص شعره

### — ١ —

عرف الأخطل بأنه يعاود شعره بالتنقيح والصقل ، حتى لقد قالوا إنه كان ينظم القصيدة تسعين بيتا ، ثم يضرب عن ستين ، ويبقى ثلاثين (٢) . وهذا هو السبب في جودة تعبيره ، وندرة سقطه .

وهو بهذا يشبه المنقحين القدماء ، مثل زهير والخطبة وأضرابهما ممن صامم الأصمعي عيب الشعر (٣) .

(٢) الأغاني ٨/ ٢٨٤

(١) ديوان الأخطل ٩٨

(٣) البيان والتبيين ٢/ ١١ .

يتسكف أحيانا في اختيار مفرداته ، ، فيغرب تارة ، ويجانب الموسيقى تارة .  
من هذا كلة ( مستعاز ) في قوله :

فإن لم تغيرها قريش بعدلها — يكن عن قريش مستعاز ومَرَّحِل  
وكلة ( جآجىء ) و ( مسحنفر ) في وصفه للفرات كما سيجىء .

ولعله الوحيد في العصر الإسلامى الذى استهل قصيدة المدح بالخرجات ، كما تجد  
في قصيدته :

خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا  
وأزعجتهم نوى في صرفها غيرُ

وربما كان السبب في هذا أنه نصرانى لا يتخرج من ذكر الخمر ، على حين أن  
شعراء المسلمين تخرجوا من ذكرها منذ حرمها الإسلام إلى أن أولعوا بها  
وبوصفها في العصر العباسى .

ثم إنه أراد أن يجدد في بدء القصائد ، ويغير ما ألفه الشعراء منذ الجاهلية ،  
وما ألفه هو نفسه في بعض قصائده من الوقوف على الأطلال ، ومن الغزل  
التمهيدى .

يستمد بعض صوره من الشعر الجاهلى ، إلا أنه لا ينقل الصورة كلها ثم يرسمها  
بالوان أخرى ، بل ينقل من الصورة خطوطها ومعالمها العامة ، ثم يضيف إلى  
ما نقل ألوانا وظلالا وتفاصيل من عنده .

( ١ ) ففي نغره مشابه من نغر عمرو بن كلثوم ، ولا غرابة في هذا ، فكلاهما  
من تغلب ، وكلاهما مسرف في زهوه بتغلب وفي تصويره لقوتها ، وفي شعر  
الأخطل مباهاة بعمرو بن كلثوم قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة ، ومباهاة بمُرَّة  
ابن كلثوم قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر ، وهو في نغاره بهما يسميهما عميئة :



أبني كليب إن عميُّ اللذا قتل الملوكة وفكَّكَ الأغلالا  
أما الشبه فيتبين من الموازنة بين قول عمرو بن كلثوم (١) :

فإن قناتنا ياعمرؤ أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا  
إذا عض الثقافُ بها اشمازت وولَّتهم عَشَوُ زَنَّةَ زُبُونَا (٢)  
عشوزنة إذا انقلبت أرنت تدقُّ قفا المثقف والجبينَا  
.....

وأيام لنا غرَّ طوال عصينا الملك فيها أن ندينا  
وقول الأخطل :

إذا الملكُ آلى أن يقيم قناتنا فليس علينا يوم ذاك بقادر  
إذا الأصعرُ الجبار سَعَّرَ خده أقننا له من خده المتصاعر  
بضربة سيف أو بنجلاء ثرة

إذا نشِجتْ مَجَّتْ دماء الأباهر (٣)

فكل من الشاعرين مزهو بتأبي قومه على الملوك ، والصورتان متقاربتان .  
(ب) وهو يشبه النابغة الذبياني في تشبيهه بمدوحه بالفرات .  
قال النابغة في مدح الثعمان بن المنذر (٤) :

وما الفراتُ إذا هبَّ الرياحُ له ترمي أواذيه العبرين بالزُّبد (٥)  
يمده كلُّ وادٍ مُترعٍ لجبٍ

فيه رُكَّامٌ من الينبوتِ والخضد (٦)

(١) المعلقة

(٢) الثقاف : التقويم : اشمازت : نفرت واستعصت . عشوزنه : صلبة . زبون : شديدة الدفع .

(٣) نجلاء : طعنة واسعة . ثرة : متدفقة بالدم . نشجت : كان لها نشيج وصوت . الأباهر : جمع أبهر وهو الوريد .

(٤) المعلقة . (٥) أواذيه : أمواجه . العبرين : الشاطئين .

(٦) مترع : ملآن . لجب : صاحب الموج . الينبوت : شجر الحشخاش أو الخروب أو شجر آخر ضخم . الخضد : نبت أو كل ما قطع من الأعواد وتكسر من الشجر .

يظل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد<sup>(١)</sup>  
يوماً بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد<sup>(٢)</sup>

فالنافلة ينفي أن يكون الفرات فائضاً أجود من النعمان ، بأسلوب معتمد على النفي بما ، وخبرها اسم تفضيل مسبوق بياء زائدة ، ويفصل القول في وصف الفرات ، فيذكر أن الرياح هبت على منابعه ، لأن دجلة والفرات معاً فيضان من ذوبان الثلوج التي تتجمد في الشتاء على مرتفعات أرمينية ، فإذا هبت عليها رياح الصيف الساخنة ابتداء من إبريل ، أخذت الثلوج تذوب ، ومدت النهرين بالماء المنحدر يحمل أنواعاً من النبات اجترفها في طريقه .

والمعروف أن الملاحين يحذرون الفرق في هذا الفيضان ، لأن الماء قوى التدفق والسرعة ، فإن نهري دجلة والفرات شديداً الانحدار<sup>(٣)</sup> ، ولا يصلحان للملاحة إلا باستخدام القفف المصنوعة من الخوص ، وهي التي يسمونها الأكلاك ( جمع كلك ) وهم في ملاحظتهم يتخوفون الفرق ، ويلقون جهداً ومشقات .

هذه الصورة بأسلوبها ونظمها راقية الأختل ، فقال في مدح عبد الملك :

وما الفرات إذا جاشت غواربه في حافته وفي أوساطه المشر<sup>(٤)</sup>  
وزعزعته رياح الصيف واضطربت فوق الجأجي من آذيه غدر<sup>(٥)</sup>  
مُسَخَفَرٌ من جبال الروم يستره منها أكافيف فيها دونه زور<sup>(٦)</sup>  
يوماً بأجود منه حين تسأله ولا بأجهر منه حين يجتهر<sup>(٧)</sup>

(١) الخيزرانة : العصا الطويلة التي يعتمد عليها الملاح في تحريك قاربه وتوجيهه ، فهناك نوع من القوارب يشبه القفة الكبيرة وعلى جانبيها قربتان مملوءتان بالماء وليس للقارب شراع ولا سكان . الأين : الجهد . النجد : العرق والجهد . (٢) سيب نافلة : عطاء كثير .

(٣) انحدار دجلة ١ : ١٧٥٠ والفرات ١ : ٣٠٠٠ .

(٤) جاشت غواربه : تعالت أمواجه . العشر : شجر جيد النار .

(٥) زعزعته : حركته . الجأجي : جمع جؤجؤ وهو الصدر . آذيه : موجه . غدر :

جمع غدير .

(٦) مسخفر : منحدر مسرع . أكافيف : الكفة نقرة يجتمع فيها الماء ، جهها كفف

كعب وكفاف مثل كتاب ، فالأكافيف جمع الجمع . زور : ميل .

(٧) جهر الرجل صوته : أعلاه ، وجهر غيره إذا عظمه .

فهو يقبس المنظر العام من تصوير النابغة ، وينقل طريقته في النفي والتفضيل ، ويستمد بعض ألوانه وظلاله ، لكنه يغير في الصورة .

ويتضح من النصين أنهما معاً تحدثا عن هبوب الرياح على أعالي الفرات ، لتذيب الثلوج التي تمد النهر بالماء الدافق ، لكن الأخطل كان أدق إذ خص الرياح بأنها صيفية . وتحدثا عن الشجر والغُشاء الذي يحمله الماء الجاري ، وإن كان النابغة خص بالذكر الينبوت والحُضد والأخطل خص بالذكر العُشَّير .

والشاعران يختاران الفرات للتشبيه به لسببين : أحدهما قربه من بيئتهما ، ومن بيئة المدوح ، وصلتهم جميعاً به ومعرفتهم بآثاره ، والآخر أن مجراه مملوء بالصخور وبالحفر التي تشبه البحيرات ، وهي مَسَامِيَّة تخزن بعض ماء الفيضان ، فإذا انخفض ماء النهر مدته مياه الحفر بالرشح ، فعاد إلى الارتفاع .

ومن هنا كان التشبيه به دقيقاً ، لأن ماءه لا يفيض ، وكذلك عطاء المدوح لا ينقطع . وإذا كان النابغة قد انفرد بالحديث عن خشية الملاح من الفرق ، ومن جهده وعرقه ، فإن الأخطل أضاف إلى الصورة أن ركام النبات يطفو على حافات النهر وعلى أوساطه ، وزاد على هذا أن الماء المنحدر السريع قد صنع طرائق في المجرى ، فبدت كأنها غدران يجاور بعضها بعضا ، وذكر جبال الروم وهي منابع الفرات ، ثم ذكر النقر التي تعترض المجرى ، لأن بعض الصخور تعترضه فيتخرج ، ولأن في واديه حفرا أشبه بالبحيرات المتقطعة ، ولم ينس الأخطل أن هذه النقر منحدره في اتجاه الوادي ، وهذا هو الزَّوَر الذي ذكره .

# الكُمَيْت

(شاعر الشيعة)

شاعر الشيعة الذي أصفاهم وده ، ونظم في التغني بحبهم ، والإشادة بهم ، والدفاع عن حقهم شعراً كثيراً ، بلغنا منه نحو ست مئة بيت ، يضمها ديوان الهاشميات .

## معالم حياته

هنالك بالكوفة معقل الشيعة ، ولد الكميت بن زيد الأسدي (٢) سنة ٦٠ هـ ٦٢٩ م وهي سنة لها في تاريخ الشيعة شأن أي شأن ، لأنهم لا ينسون أن الحسين ابن علي قتل فيها .

وعاش الكميت إلى أن قتله يوسف بن عمر الثقفي سنة ١٢٦ هـ في خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، قبل أن يتولى مروان بن محمد .

نشأ الكميت بالكوفة ، موئل الشيعة ، وينبوع التشيع ، ومنجم الثورات على بني أمية .

وكانت ميداناً فسيحاً للشعراء والخطباء وعلماء اللغة وعلماء الدين ، وكانت

---

(٠) الأغاني ١٠٩/١٥ دار الكتب والشعر والشعراء ١٣٩ والمؤانف والمختلف ١٧٠ للآمدي وخزانة الأدب للبغدادى ٦٧/١ ومروج الذهب ١١٥/٢ وهاشميات الكميت والبيان والتبيين

(٢) في قبيلة بني أسد بن خزيمه ثلاثة شعراء يسمى كل منهم الكميت ، هم الكميت بن ثعلبة الشاعر المخضرم وحفيده الكميت بن معروف ، والكميت بن زيد .

تنافس البصرة في هذا كله ، وسوقها الأدبية الكناسة قريبة المربد سوق البصرة ، وكانت تزخر بتيارات ثقافية شتى

فاستقى الكميت من هذه المعارف ، حتى صار من فقهاء الشيعة<sup>(١)</sup> ، ومن رواة الحديث<sup>(٢)</sup> .

ولعلنا لم ننس بعد ما أسلفنا في دراسة الشيعة من أن الكميت كان زيدياً ، وأن زيد بن علي كان تلميذاً لواصل المعتزلي ، فكانت الزيدية كلها من المعتزلة .

ويذكرون أن الكميت كانت له جدتان معمرتان تقصان عليه أخبار العرب في الجاهلية ، وتحديثانه بأيامها وأنسابها ، وكثيراً ما استقى الكميت منهما في كبره ، على أنه كان يقصد رؤبة فيسأله عن الغريب ، ثم يستعمله في شعره<sup>(٣)</sup> .

فلا عجب أن كان حجة ثقة في اللغة ورواية الشعر والأنساب والأيام ، وحسبه أنه ساجل حمادا الراوية ، فظهر عليه في اللغة وفي الرواية<sup>(٤)</sup> .

ولقد سبق في عوامل ازدهار الشعر أن الجدل كان حاداً في هذا العصر بين أصحاب الآراء والمعتقدات ، وأن القدرية انبروا للرد على المرجئة ، وأن زيد بن علي زعيم الشيعة الزيدية كان تلميذاً لواصل بن عطاء المعتزلي ، فكانت الفرقة كلها على مذهبه .

وبهذا أيضاً تأثر الكميت شاعر الزيدية ، وظهرت آثار ذلك في شعره .

(١) خزائن الأدب ٦٩/١ (٢) الأغاني ١٢٦/١٥ (٣) الأغاني ١٤٩/١٠

(٤) اجتماعاً بمسجد الكوفة وتذاكراً أيام العرب وأشعارها ، يخالفه حماد في شيء ، فقال له الكميت : أتظن أنك أعلم مني بأيام العرب وأشعارها ؟ قال حماد : بل أوقن ، فغضب الكميت ، وقال : لكم شاعر بصير يقال له عمرو بن فلان ، تروى ؟ ولستم شاعر أعور أو أعمى اسمه فلان بن عمرو ، تروى ؟ فقال حماد بعض القول . فجعل الكميت يذكر رجلاً رجلاً من كل صنف ، ويسأل حماداً : هل تعرفه ؟ فإذا قال لا ، أنشده من شعره حتى ضجر الحاضرون . ثم قال الكميت : فإني سأثلك عن شيء من الشعر ، وسأله عن معنى بيتين ، فأخبر حماد ولم يعرف ، وطلب من الكميت أن يفسرهما له ، ففعل .

### تشيعه

١ — عرفت أن الكميت ولد بالكوفة ونشأ بها ، ولعلك من نسبه عرفت أنه من قبيلة أسد ، وهي قبيلة اشتهرت بتشيعها قبل أن يولد الكميت ، فمن الطبيعي أن يكون الشاعر شيعيا على مذهب قبيلته الذي لقنه منذ الصغر ، وعلى مذهب مدينته التي كانت تزعم الدعوة وتدافع عنها وتثور من أجلها ، وطالما نكل الولاة بالدعاة وقتلوهم ، وطالما احتمل هؤلاء وجادوا بالأرواح والدماء في حماية مذهبهم والدفاع عن أنفسهم ، ولا شك أن هذا كله قد حمل الكميت على أن يتشيع ، وعلى أن يذود عن الشيعة بلسانه الحاد ، حتى لقد جعل يؤلب الناس على خالد القسري وإلى العراق لهشام بن عبد الملك ، وبخاصة أن خالدا كان يمتنحيا يتعصب لقومه على المضرية .

٢ — وقد عرف آل البيت ولاءهم لهم ، فأحبوه وقدروه .

يذكرون أنه دخل على الإمام جعفر الصادق وأنشده إحدى هاشمياته ، فلما انتهى قال الإمام : اللهم اغفر للكميت ما قدم وما أخر ، وما أسر وما أعلن ، حتى يرضى .

ودخل على السيدة فاطمة بنت الحسين ، فرحبت به وقالت : هذا شاعرنا أهل البيت .

وليس في تاريخ الكميت وصلته بالعلويين ما يوحي من قرب أو من بعد بأنه كان طالب منفعة أو طامعا في مال ، فإن فاطمة بنت الحسين بعد أن قالت : هذا شاعرنا أهل البيت ، جاءت بقدرح فيه سويق ، وحركته بيدها ، وسقت الكميت فشربه ، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ، وبمركب ، فهلمات عيناه ، وقال : لا ، والله لا أقبلها ، إنني لم أحبيكم للدنيا .

كذلك يروون أنه دخل على الإمام محمد الباقر ، فأمر له بألف دينار وكسوة ، فقال له الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأنيت من هي



في يديه ، ولكني أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فإني أقبلها  
لبركتها ، وأما المال فلا أقبله . وقبل الثياب ورد المال .

٣ — وفي تاريخ الكميت أنه تشيع مبكرا ، وقال الشعر الشيعي في مطلع  
حياته الشاعرة .

ذكر أبو الفرج أن علياً النوفلي قال : كان أول ما قال الكميت بن زيد  
من الشعر الهاشميات ، فسترها . ثم أتى الفرزدق فقال له يا أبا فراس ، إنك  
شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك . قال : فما حاجتك ؟ قال : نفث علي  
لساني ، فقلت شعرا أحببت أن أعرضه عليك ، فإن كان حسنا أمرتني بإذاعته ، وإن  
كان قبيحا أمرتني بسأته . قال الفرزدق : أما عقلك فحسن ، وإني لأرجو أن  
يكون شعرك على قدر عقلك ، فأشده :

طربت وما شوقا إلى الببيض أطرب .

قال الفرزدق : فقيم تطرب ؟ . قال الكميت :

ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب ؟

قال الفرزدق : بلى يا ابن أخي ، فالعب فإنك في عهد اللعب . فقال :

ولم يُلهمي دار ولا رسمُ منزل ولم يتطهر بني بنان مُحَضَّب

فقال الفرزدق : فما الذي يطربك يا ابن أخي ؟ قال :

ولا السامحاتُ البارحات عشيَّة

أمرئ سليم القرن أم مرء أعضب<sup>(١)</sup>

قال الفرزدق : أجل لا تطير . فقال الكميت :

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى وخير بني حواء والخير يُطلب

(١) السامحات : الطيور التي كانوا يزجرونها فتتيا من فيثاء لون بها ، والبارحات عكسها .  
أعضب : مكسور القرن وكانوا يتشامون به .

قال الفرزدق : من هؤلاء ، ويحك ؟ قال السكيت :

إلى النفر البيض الذين يُحِبُّهم إلى الله فيما نابى أتقرب

قال الفرزدق : أرِحنى ويحك ، من هؤلاء ؟ قال :

بنى هاشم رهط النبي فإننى بهم ولهم أَرْضَى مرارا وأغضب  
خفَضْتُ لهم من جناحى مودة

إلى كنف عِطْفَاء أَهْلٍ ومَرْحَبٍ

.....

فقال الفرزدق : يا ابن أخى أذِيعْ ثم أذِيعْ ، فأنت والله أشمر من مضى ومن  
بقي ، أحسنت إذ عدلتَ عن الزعانف والأوباش ، أظهرْ ثم أظهرْ وكذا الأعداء .

٤ — عاش السكيت بالكوفة مدة يقرض القصائد فى مدح آل البيت ،  
وفى رثاء موتاهم ، وفى المناظرة دفاعا عن حقوقهم ، ولكن لم يتعرض له وال من  
ولاية الكوفة ، بل إن خالد بن عبدالله القسرى كان فى أول الأمر يقربه ويوده  
ويحزل عطاءه .

لكن صفاء السكيت وطمأنينته وتغاضى الولاية عنه آن لها أن تزول ، فقد  
غضب عليه خالد (١) ، وغضب عليه الخليفة هشام بن عبد الملك غضبا أهدر الدم

(١) كان حكيم بن عياش الكلبي كثير الهجاء لمضر ، وكان شعراء مضر يردون عليه ،  
وطلبوا من السكيت أن يمينهم ، فاعتذر بأن خالد بن عبدالله القسرى محسن إليه ، وأن  
هجاءه لحكيم الكلبي يغضب خالداً ، فأسمعه ما قال حكيم فى نساء مضر ، فخمى وقال قصيدته :  
« ألاحيت عنايامدينا » وتناول فيها اليمن كلها وعشيرة خالد . وعلم خالد فاشترى جوارى وحفظهن  
الهاشميات ، ودسهن مع نخاس إلى هشام ، فلما أنشدته قصائد السكيت ، قال : ويالكن من  
قائل هذا الشعر ؟ قلن : السكيت بن زيد . قال . وأين هو ؟ قلن : بالكوفة . فكتب  
إلى خالد أن يبعث إليه برأسه ، فخبسه خالد حيناً ، ولكن السكيت هرب بأن طلب من امرأته  
حي أن تقيم مكانه ، وهرب فى ثيابها ، ثم لم يجد بداً من الظهور والاستغفار . وفى هذا يقول :  
خرجت خروجه قدح ابن مقبل على الرغم من تلك النوايح والمشي  
على ثياب الغانيات وتحتها عزيمة أمر أشبهت سلة النصل  
وقدح ابن مقبل من قدح الميسر ، كان لبني عامر بن صعصعة ، وهو لا يوضع فى القداح  
إلا فاز . المشلى . الذى يفرى الكلاب بالصيد .

وأُذِرَ بالقتل ، فاضطر أن يستجير بعنبة بن سعيد بن العاص كبير بني أمية ، ويستشفع به عند هشام ، فشفع له عند مسامة بن هشام ، ليشفع له عند أبيه . ومثل الكميت بين يدي الخليفة ، فخطب معتذرا ، فقرعه هشام على هجائه بني أمية ومدحه بني هشام ، فشعر الكميت معتذرا ومادحا ، فرضى هشام ، وأعلن رضاه وعفوه ، فقبل الكميت يده وقال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تزيد في تشريفي فلا تجعل لخالد إمارة على . قال هشام : قد فعلت ، وكتب لخالد بذلك ، وأمر للكميت بأربعين ألف درهم ، وثلاثين ثوبا هشامية ، وكتب لخالد أن يخلى امرأة الكميت ، ويعطيها عشرين ألف درهم وثلاثين ثوبا ، ففعل .

وقد ابتهج المضيرون بالشام بالعفو عنه ، وجمعوا له مالا كثيرا ، فرجع إلى الكوفة مطمئنا على حياته .

هـ - وكان المتوقع من الشيعة أن يشكوا في ولائه بعد مدحه بني أمية ، وأن يظروا إليه شزرا ، لكن هذا لم يحدث ، فقد أجازوا صنيعه ، ولم يلوموه على مدحه ، وكيف يلومونه ومذهبهم قائم على التقية والمداراة والمصانعة ؟ يتبين هذا من أن أبا جعفر محمد بن علي قال للكميت :

أنت القائل :

فالآن صرتُ إلى أمير — سة والأُمُور إلى مصائر

فأجاب : نعم ، قد قلت ، ولا والله ما أردت به إلا الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم . فقال له أبو جعفر : إن قلت ذلك إن التقية لتحل .

وإذا فقد كان الشيعة يعرفون أن مدح الكميت للأُمويين لم يكن ولاء لبني أمية وغدرا ببني هاشم ، وإنما كان تقيّة اضطر إليها شاعر يعيش بالكوفة ، ويتشيع على علم من وإلى العراق الصارم خالد القسري . ولعله أراد بمدحه في أول الأمر أن يتغافل عنه ، ولا ينقل خبره إلى هشام ، ثم إنه أيقن بالهلاك فيما بعد ،

فاضطرب إلى مدح هشام وبنى أمية ، لينجوا من الفتك ، وليخلص زوجته من السجن إذا فرّ هو من سجنه ، فأدخلت السجن بدلا منه .

على أنه كان بعيد النظر ، بارع الحيلة ، فقد أشاد ببنى أمية ليفهم خصما من خصومه وخصوم الشيعة ، ويقطع عليه طريق الرد والمناقضة .

ذلك أن حكيم بن عياش الكلبي كان مولعا بهجاء بنى هاشم وهجاء عليّ بنحاصة ، وكان من شعراء بنى أمية ، فهجاء الكميت ، واحتدم بينهما الخصام والهجاء ، فأشاد الكميت في بعض أهاجيه ببنى أمية ، وسأله ابنه المستهمل عن هذا بقوله : يا أبت إنك هجوت الكلبي ، ففخرت ببنى أمية ، وأنت تشهد عليهم بالكفر ، فهلا فخرت بعلي وبنى هاشم الذين تحبهم ؟ قال : يا بني ، أنت تعلم انقطاع الكلبي لبنى أمية ، وهم أعداء عليّ ، فلو ذكرته لهجاء الكلبي ، وأكون أنا الذي عرّضه للهجاء ، ولكني فخرت ببنى أمية ، فإن نقض عليّ قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غما ، وغلبته .

وكان ماتوقعه الكميت ، فإن الكلبي أمسك عن جوابه ، فغلبه الكميت وأخفه .

## أخلاقه

— ١ —

في تاريخه وشعره ما ينبئ عن حرص على الحياة وتقية وحذر من القتال ، وفرار من المعاطب ، وإلا ففيم كان مدحه لخالد القسري أول الأمر ؟ وفيم كان فراره من الحبس في ثياب زوجته ، وهو يعلم أنه يخلّوها للابتذال والانتقام ؟ وفيم كان تشفعه إلى هشام ومدحه ببنى أمية ؟

على أن جبنه هذا بيّن في بعض شعره ، إذ أعلن ولاء لآل البيت وحماسته لهم ، على ألا يقاتل في سبيلهم ، وقد أجرى حوارا بينه وبين نفسه كشف فيه عن جبن وتعلل وأعذار في قوله :

تجود لهم نفسى بما دون وثبة تظل بها الغربان حولى تحجل<sup>(١)</sup>  
 إذا صمت نفسى نصرهم وتطلعت إلى بعض مافيه الزعاف المثل<sup>(٢)</sup>  
 وقلت لها بيعى من العيش فانيا بياق ، أعزبها مرارا وأعذل  
 أتنى بتعليل ومنتنى المنى وقد يقهل الأمنية المتعلل

ولما خرج زيد بن حلى فى عهد هشام خروجا انتهى بقتله سنة ١٢٢ هـ بيد والى  
 العراق يوسف بن عمر الثقفى ، لم يؤازره الكميت ، لكنه لام نفسه ، وعبر عن  
 أساه فى تخليه عن مناصرة إمامه بقوله :

دهانى ابن الرسول فلم أجبه ألهى لهى للقلب الفروق  
 حذار منية لا بد منها وهل دون المنية من طريق ؟

لكنه رثا زيدا وهجا يوسف ، ثم وفد على يوسف لمدحه ، فكان جزاؤه  
 أن وضع الجند سيوفهم فى بطنه وهو ينشد يوسف مدحته ، فمات .  
 فهل أمر يوسف بقتله ، لأنه هجاه لما قتل زيد بن حلى ، وأفدع فى هجائه ،  
 كقوله :

يعز على أحمد بالذى أصاب ابنه أمس من يوسف  
 خبيث من العصابة الأخبثين وإن قلت زانين لم أقذف

أو أن الجند قتلوه ، لأنه فى مديحه ليوسف عرض بخالد القسرى سلفه على  
 العراق تعريضا أغضبهم ، لأنهم يمانية مثل خالد ؟

أما تعريضة بخالد فإنه تمهم بقوله وهو على المنبر : « أطعمونى ماء » حين  
 خرجت عليه الجعفرية أتباع أبى جعفر محمد بن حلى :

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن كمن حصنه فيه الرجاج المضرب

(١) وثبة تظل ... : كناية عن الحرب (٢) الزعاف المثل : السم الناقع :

(٣) البراح : المتسع من الأرض . الرجاج : الباب الكبير أو المغلق فيه باب صغير .

مضرب : عليه ضربة .

وما خالد يستظم المساء فافرا بعد ذلك، والداعى إلى الموت ينعب<sup>(١)</sup>

- ٢ -

وكان الرجل سمح النفس ، لا يضيق صدرآ بمخالفه في مذهبه ، فقد عرفنا أنه كان على صلة بخالد القسرى ، وأنه مدحه قبل أن يفسد ما بينهما . وعرفنا من تاريخه أنه صادق الطرماح بن حكيم ، وكان معجبا بشعر الطرماح وبروايته وخطابته ، حتى لقد سمع الطرماح يقول مزهوا :  
إِذَا قُبِضَتْ نَفْسُ الطَّرْمَاحِ أَخْلَقَتْ

عُرَا الْمَجْدِ وَاسْتَرَخَى عِنَانُ الْقَصَائِدِ

فقال : إى والله ، وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة . ولسكن لم خصصنا الطرماح بالذكر ؟

الأنه شاعر مثله ، فكان المتوقع أن ينفس عليه ؟

لا ، بل لأن بين الرجلين عدة فروق ، بل عدة أسباب للعداوة .

فالكُمَيْت داعية من دعاة الشيعة الزيدية ، والطرماح زعيم من زعماء الخوارج الصُفْرية . والكُميت مضرى يتعصب للعدنانية ، والطرماح قحطاني يتعصب لليمنية . والكُميت من الكوفة ، والطرماح من الشام ، وبين العراقيين والشاميين عدااء مستحکم كما عرفنا في دراسة العصبية .

ولكن كان بينهما « من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صرْم ولا جفوة ولا إعراض ، ولا شيء مما تدعو هذه الحصال إليه »<sup>(٢)</sup> .

وهذا العجب الذى نعجبه ليس جديدا ، فقد عجب بعض الناس من قبل ، وسألوا الكُميت فقالوا له : إنه لا شيء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطرماح ،

(١) فافرا : فاتحا فاه . عدل : نظير . ينعب : يصوت كنعيب الغراب

(٢) البيان والتبيين ١/٦٢



على تباعد ما يجمعكما من النسب والذهب والبلاد ، فكيف اتفقتا مع تباين المذهب  
وشدة العصبية ؟ فقال : اتفقتا على بغض العامة (١) .

وليس أدل على وثاقة الصداقة التي كانت بينهما ، من أن السكيت قاسم الطرماح  
إحدى جوائزه ، إذ وفد الطرماح والسكيت على محمد بن يزيد المهلبى ، فجلس لهما ،  
ودعاها ، فتقدم الطرماح لينشد ، فقال له محمد : أنشدنا قائماً ، فقال : كلا ،  
فلن يرفع الشعر من قدرى وأحط منه بضراعى ، وهو عمود الفخر ، وببيت الذكر  
لما أثر العرب . قيل له : فتنح أنت . ودعى السكيت فأنشد قائماً ، فأمر له محمد  
بخمسين ألف درهم . فلما خرج السكيت شاطرها الطرماح ، وقال له : أنت أبعد  
همة ، وأنا ألطف حيلة (٢) .

ومن سماحته أيضاً أنه لم يبدن بمادان به الشيعة أو أكثرهم من الحكم على  
أبى بكر وعمر بالخطأ تارة وبالكفر تارة إذ توليا الخلافة دون على ، فقد توقف  
السكيت عن الحكم ، وتركه لله :

أهوى عالياً أمير المؤمنين ولا أُلوم يوماً أباً بكر ولا عمراً  
ولا أقول وإن لم يعطيا قدراً بنت النبي ولا ميراثه ، كفراً  
الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

## موضوعات شعره

— ١ —

السياسة أهم موضوعات السكيت (٣) .

ونستطيع أن نوجز مذهبه السياسى فى فكرتين :

أما الأولى فهى أن الخلافة وراثية فى بنى هاشم وأولادهم أولاد على

(٢) الأغاني ١٤٩/٢٠

(١) الأغاني ١٤٩/١٠

(٣) شعره مجموع فى ( الهاشميات ) وعدد أبياتها ٥٣٦ بيتاً طبعت فى أوروبا ثم

فى مصر .

من فاطمة ، لأنهم أقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأجقتهم بوراثته ، وأجدرهم بنشر دينه والحفاظ عليه .

ومن هنا كان الذين يؤثرون أنفسهم بالخلافة من غير آل البيت عادين غاصبين .

وأما الثانية فهي أن بنى أمية طغاة ، سلبوا الخلافة ، وعصوا الله ، وعطلوا سنن نبيه ، واغتصبوا مال الأمة ، وسفكوا الدماء بغير حق ، فهم كفار ، ولن يستقيم حال المسلمين إلا بزوال ملكهم .

لهذا دعا إلى الثورة عليهم ، وتولية هاشمي يحكم الأمة بالعدل ، ويصدق عليها الخير :

فقل لبني أمية حيث حلُّوا وإن خفت المهند والقطيما<sup>(١)</sup>

ألا أفٌ لدهر كنت فيه هِدَانًا طائما لكم مطيما<sup>(٢)</sup>

أجاء الله من أشبعتموه وأشبع منَ بجوركم أجيعا

ويلعن فذاً أمته جهارا إذا ماس البرية والخليما<sup>(٣)</sup>

بمرضى السياسة هاشميٌ يكون حياً لأمته ربيما<sup>(٤)</sup>

وليتنا في المشاهد غير نكسٍ لتقويم البرية مستطيما<sup>(٥)</sup>

يقيم أمورها ويذبُّ عنها ويترك جديها أبداً مريما<sup>(٦)</sup>

وعقد موازنات بينهم وبين بنى هاشم ، فضل فيها بنى هاشم ، كقوله .

---

(١) المهند : السيف . القطيع : السقوط .  
 (٢) الهدان : الجبان .  
 (٣) الفذ : الفرد وهو أول القداح والمراد معاوية لأنه أول ملوك بنى أمية . الخليع : الوليد بن عبد الملك .  
 (٤) الحيا : المطر .  
 (٥) نكس : جبان .  
 (٦) المريم : الخصب .

أَسَدُ حَرْبٍ غِيُوْثٌ جَدْبٌ بِهَالِيْلٍ مُقَاوِيْلٌ غَيْرُ مَا أَفْدَامُ<sup>(١)</sup>  
 سَادَةٌ ذَادَةٌ عَنِ الْخَرْدِ الْبِيْسُ إِذَا الْيَوْمُ كَانَ كَالْأَيَّامِ<sup>(٢)</sup>  
 سَادَةٌ لَا كَمَنْ يَرَى رِغِيَّةَ الْفَا سِ سَوَادٌ وَرِغِيَّةَ الْأَنْعَامِ<sup>(٣)</sup>  
 لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيْدِ أَوْ سَلِيْمَانٍ بَعْدُ أَوْ كَهَشَامٍ  
 مَنْ يَمُتْ فَلَا يَمُتُ فَقِيْدًا وَمَنْ يَحْيَى فَلَا ذُوَ إِلٌ وَلَا ذُوَ ذِمَامٍ<sup>(٤)</sup>

- ٢ -

أَمَّا مَدَائِحُ لَبْنِي هَاشِمٍ فَكَثِيْرَةٌ جَدًّا ، كَقَوْلِهِ :  
 فَمَالِي إِلَّا آلَ أَحْمَدَ شِيْعَةً وَمَالِي إِلَّا مَشْعَبَ الْحَقِّ مَشْعَبُ  
 وَمَنْ غَيْرَهُمْ أَرْضَى لِنَفْسِي شِيْعَةً  
 وَمَنْ بَعْدَهُمْ ، لَأَمَنْ أَجَلٌ وَأَرْجَبُ<sup>(٥)</sup>  
 إِلَيْكُمْ ذَوِي آلِ النَّبِيِّ تَطَلَّعْتُ نَوَازِعُ مِنْ قَلْبِي ظَمَاءٌ ، وَالْأَلْبُ  
 فَطَائِفَةٌ قَدْ كَفَرْتَنِي بِحُبِّكُمْ وَطَائِفَةٌ قَالُوا مَسِيءٌ وَمَذْنِبُ  
 فَمَا سَاءَنِي تَكْفِيرُ هَاتِيكَ مِنْهُمْ وَلَا عَيْبُ هَاتِيكَ الَّتِي هِيَ أَعْيَبُ  
 يَعْيِبُونَنِي مِنْ خِيْبَتِهِمْ وَضَلَالِهِمْ عَلَى حُبِّكُمْ ، بَلْ يَسْخَرُونَ وَأَعْجَبُ

(١) بهاليل : جمع بهلول وهو الضحك . أفدام : جمع فدم وهو الثقل الفى . مقاويل :  
 جمع مقول وهو الملك أو الفصيح .  
 (٢) الخرد : جمع خريدة وهى الحسناء . كالأيام : أى كان اليوم مثل الأيام الشداد  
 وهى أيام الحرب .  
 (٣) كمن يرى . . : المراد بنو أمية لأنهم يسوسون الناس كأنهم أنعام .  
 (٤) الإل : العهد . الذمام : الذمة .  
 (٥) أرجب : أحق بالهبة والتعظيم .

وقالوا : تُرابيُّ هواه ورأيُه بذلك أدعى فيهم وألقب<sup>(١)</sup>

— ٣ —

كذلك من أهم موضوعات الكميت العصبية للعدنانية على القحطانية ، ولعله كان أسبق الشعراء إلى تأريثها ، حتى استطاع لها مدة من الزمان . ويذكر الأصفهاني أن عصبية الكميت للعدنانية ، وهجاءه لليمنية ، والمناقضة بينه وبين شعرائهم ، لم تزل شائعة في حياته ، وبقيت بعد وفاته نحو مئة سنة ، إذ ناقض دِعبل وابن أبي عيينة قصيدته ( ألا حيت عنا يا مدينا ) فأجابهما أبو الزلفاء البصري مولى بني هاشم ، ورد عليهما .

وهي قصيدة طويلة تزيد على ثلاث مئة بيت ، تفص بهجاء مقذع لليمنية .

وأغلب الظن أن هذه العصبية لم تنشأ إلا في ولاية خالد القسري على العراق<sup>(٢)</sup> ( ١٠٥ — ١٢٠ هـ ) لأن الكميت كان قبل ذلك شيعيا غير شديد الكراهية لبني أمية ، وغير مبغض لليمنية ، فقد مدح مخلد بن يزيد بن المهلب الذي ولاه أبوه على خراسان في خلافة سليمان بن عبد الملك ( ٦٦ — ٩٩ هـ ) ووفد على يزيد بن عبد الملك ومدحه ( ١٠١ — ١٠٥ هـ )

## خواص شعره

— ١ —

سبق الكميت الشعراء إلى المحاجة والمجادلة بالشعر في تأييد حق الهاشمين ، والتدليل عليه بالقرآن والمنطق .

وهو في هذا متأثر بطرائق المعتزلة في تفكيرهم واستدلالتهم على آرائهم ،

(١) ترابي : علوي ، لأن علي بن أبي طالب كان يكنى بأبي تراب .

(٢) تجد في فصل « العصبية القبلية » تفصيلا لاضطهاد خالد القسري العرب المضربة

والترازية .

فقد عرفنا صلته بزید بن علی زعيم الزيدية ، وعرفنا أن زيدا والزيدية كلهم كانوا متأثرين بواصل بن عطاء .

لهذا كان الجاحظ على الصواب في قوله : ما فتح للشيعنة باب الحجاج بالشعر إلا الكميته .

وهذا هو السبب في أنه لم يكن يفتن في شعره ، ولم يفوقه بألوان من الخيال كما يفعل الشعراء ، وإنما كان يسوق أفكاره مساق المتحدث الجدل . ومن هنا وصفه بعض النقاد بأنه خطيب لا شاعر ، وقال عنه بشار إنه ليس بشاعر .

وإذا فإن هاشمياته ليست مدائح لآل البيت بالمعنى المتعارف في المديح ، بل هي حجاج لهم ، ودفاع عن حقهم ، وحملة على بني أمية ، وترويج للزيدية . فهو يستدل لاستحقاق آل البيت وخدم الخلافة بنوعين من الأدلة .

النوع الأول القرآن الكريم ، كقوله تعالى « وآت ذا القربى حقه (١) » وقوله . « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٢) » وقوله . « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى (٣) » وقوله . « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة ، وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (٤) . تجد هذا في قوله :

بخاتمكم غصبا تجوز أمورهم فلم أر غصبا مثله يتفصّب  
وجدناكم في آل حاميم آية تأولها منا تقي ومُعرب (٥)  
وفي غيرها آيا وآيا تتابعت لكم نصب فيها لدى الشك منصب

أما النوع الثاني فهو أدلة نظرية عقلية قائمة على التدليل المنطقي . فإذا كان بنو أمية يزعمون أنهم ورثة الخلافة ، لأنهم من قريش ، فإن بن هاشم أحق منهم بوراثته الرسول ، لأنهم أقرب إليه .

(١) سورة الإسراء ٢٦ (٢) سورة الأحزاب ٣٣

(٣) سورة الشورى ٢٣ (٤) سورة الأنفال ٤١

(٥) بشير إلى قوله تعالى « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » .

وإذا كانوا يزعمون أن النبي لا يورث ، فإنهم إذا عادون غاصبون ، لأنهم سطاوا على حق العرب جميعاً وفيهم الأولى بالخلافة منهم ، كبنى هاشم وكالأنصار ، والأمويون إذ يستأثرون بالخلافة يناقضون أنفسهم ، لأنهم يدعون أن النبي لم يورث ، ويدعون أن الخلافة لقريش ، فكيف نوفق بين هاتين الدعويين المتناقضتين ؟ إن قولهم بمصر الخلافة في قريش هو الحق ، وإلا لشاركت في المطالبة بها كل قبائل العرب من عدنانية وقحطانية ، ولكان الأنصار أولى بها ، لأنهم هم الذين آووا ونصروا .

وإذا فإن أقرب القرشيين إلى النبي هم الذين يرثون هذا الحق ، ومن هم إلا بنو هاشم ؟ يقول الكمي :

بحقكم أمست قريش تقودنا	وبالقد منها والرديفين <sup>(١)</sup> نركب
وقالوا ورثناها أبانا وأمننا	وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم فضلا على الناس واجباً	سفاها ، وحق الهاشميين أوجب
ولكن مواريث ابن آمنة الذي	به دان شرقي لكم ومغرب
فدنى لك موروثا أبي وأبو أبي	ونفسي ، ونفسي بعد بالناس أطيب
وتستخلف الأموات غيرك كلهم	ونعتب لو كنا على الحق نعتب
يقولون : لم يورث ولولا ترائه	لقد شركت فيه بكيل وأرحب
وعك ونلم والسكون وحيد	وكفدة والحيان بكر وتغاب
ولانتشلت عضوين منه يحارب	وكان لعبد القيس عضو مؤرب <sup>(٢)</sup>

(١) الفذ : أول سهام الميسر ، والمراد معاوية أول ملوك بني أمية . الرديفين : جمع رديف وهو الذي يركب خلف الراكب أو الذي يجلس على عین الملك ويخلفه إذا غزا ، والمراد الملوك الذين بعد معاوية .

(٢) بكيل وأرحب : قبائل بعضها يعني وبعضها عدنان .



وما كانت الأنصار فيها أذلة      ولا غيبا عنها إذ الفاسُّ غيبٌ  
همُ شهدوا بدرا وخير بعدها      ويوم حنين والدماء تصبب  
فإن هي لم تصلح لى سوامُ      فإن ذوى القربى أحق وأقرب

— ٢ —

وهو في هاشميانه حار العاطفة ، صادق الشاعر ، لأنه ينافح عن عقيدة ،  
ويجد راحة نفسه وطمأنينة قلبه في هذا الدفاع ، ويطلب من الله الثواب على  
نصرة آل البيت ، ويعزف عن المال والجاه .

وقد سبق أنه رفض عطاء السيدة فاطمة بنت الحسين ، وقال : إني لم أحبيكم  
للدنيا ، ورفض دنائير الإمام محمد الباقر ، وقبل ثيابا أعطاه إياها ، لأنها لامست  
جسده .

— ٣ —

لم يبدأ هاشمياته يكاء الأطلال أو بالغزل ، وإنما بدأها بحبه لآل البيت ،  
كقوله :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب      ولا لعبا منى ، أذو الشيب يلعب ؟  
ولكن إلى أهل الفضائل والنثا      وخير بنى حواء ، والخير يُطلب  
فإذا أراد أن يحاكي القدماء في وصف الصحراء ختم القصيدة بهذا الوصف .

— ٤ —

وهو شاعر متدفق ، طويل النفس ، مطبوع .  
ومن هنا كانت مطولاته كثيرة ، حتى بلغت قصيدته التي رد بها على حكيم  
ابن عياش الكلبي نيفا وثلاث مئة بيت

— ٥ —

وقد كان لحفظه الكثير عن القدماء أثر عميق في تجويده ، حتى لتسبق بعض

عباراتهم إلى خاطره ، فيتخذ بعض النقاد من هذا دليلا على أنه يسرق ، وقديمه اتهمه بالسرقة خلف الأحمر ، لأنه متعصب عليه .

## نماذج من شعره

— ١ —

قال في الحملة على بنى أمية :

ألا هل هم في رأيه متأمِّل      وهل مُدبرٌ بعد الإساءة مُقبل ؟  
 وهل أمةٌ مستيقظون لرشدهم      فيكشف عنه النَّمْسَةُ المتزَمِّل  
 فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى

مساويهم لو كان ذا الميل يمدِّل

وَعُطِّلَتِ الْأَحْـكَامُ حَقِّي كَأَنَّا      على ملة غير التي نتنحِّل  
 كلام النبیین الهدى كَلَامُنَا      وأفعال أهل الجاهليين نفعل  
 رَضِينَا بِدِينِنَا لَا نَرِيدُ فِرَاقَهَا      على أَنَّا فيها نموت ونُقْتَل  
 ونحن بها مستمسكون كأنها      لنا جَنَّةٌ مما نخاف ومَعْقِل  
 أَرَانَا عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا      يُجَدُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَنَهْزَل  
 فَتلك أمور الناس أضحت كأنها      أمور مُضِيعٍ آثر النوم بهل<sup>(١)</sup>  
 فَيَاسَاةٌ هَاتُوا لَنَا مِنْ حَدِيثِكُمْ      ففِيكُمْ لِعَمْرِي ذُو أَفَانِينَ مِقْوَل  
 أَهْلَ كِتَابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأَنْتُمْ      على الحق نقضى بالكتاب ونعدل ؟  
 فَكَيْفَ وَمَنْ أَنَّى وَإِذْ نَحْنُ خَلْفَهُ      فَرِيقَانِ شَتَّى تَسْمَنُونَ وَنُهْزَل  
 أَتَصْلِحُ دِينَانَا جَمِيعًا ، وَدِينُنَا      على مَا بِهِ ؟ ضَاعَ السَّوَامُ الْمُؤَبَّل<sup>(٢)</sup>

(١) بهل : لا عمل له .

(٢) السوام والسائمة : الإبل الراحية . مؤبل : مهمل .

كَأَن كِتَابَ اللَّهِ يُعْنَى بِأَمْرِهِ      وَبِالنَّهْيِ فِيهِ الْكَوْذُ نِي الْمَرْكَلُ<sup>(١)</sup>  
أَلَمْ يَتَدَبَّرْ آيَةَ فَتْدَاهُ      عَلَى تَرْكِ مَا يَأْتِي أُمَ الْقَلْبِ مُقْفَلٌ ؟  
فَتِلْكَ مَلُوكُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مَلِكُهُمْ      فَخَيَّ مَ حَقِّ مَ الْعَنَاءُ الْمَطْوَلُ  
فِيَارِبْ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُرْتَجَى      عَلَيْهِمْ ، وَهَلْ إِلَّا عَلَيْكَ الْمَعْوَلُ ؟

— ٢ —

وَقَالَ لَمَّا وَلِيَ خَالِدَ الْقَسْرَى أَخَاهُ أَسَدًا عَلَى خِرَاسَانَ سَنَةَ ١١٧ هـ ، مُخَاطِبًا  
أَهْلَ مَرَوْ :

أَلَا أَبْلُغُ جَمَاعَةَ أَهْلِ مَرَوْ      عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَأْيٍ وَبَعْدِ  
رِسَالَةٍ نَاصِحٍ يَهْدِي سَلَامًا      وَيَأْمُرُ فِي الذِّى رَكِبُوا بِجِدٍّ  
فَلَا تَهِنُوا وَلَا تَرْضُوا بِنَحْسَفٍ      وَلَا يَفْرَرُكُمْ أَسَدٌ بَعْدَ  
وَلَا فَارْفَعُوا الرِّايَاتِ سَوْدًا      عَلَى أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالْتِمَادِ

— ٣ —

وَقَالَ فِي مَدْحِ بَنِي أُمَيَّةٍ وَالْإِعْتِذَارِ لِهَشَامٍ :

فَالْآنَ صَرْتُ إِلَى أُمَيَّةٍ وَالْأُمُورَ لَهَا مَصَائِرُ  
يَابْنَ الْعُقَاتِلِ لِلْعَقَا      ثُلُ وَالْجَحَاجِحَةِ الْأَخَاثِرُ<sup>(٢)</sup>  
مَنْ عَبْدُ شَمْسٍ وَالْأَكَا      بَرٍّ مِنْ أُمَيَّةٍ فَالْأَكَا  
إِنْ الْخِلَافَةُ وَالْإِلَا      فَ بَرِّغَمِ ذِي حَسَدٍ وَوَاعِرُ<sup>(٣)</sup>  
دَلْفَا مِنْ الشَّرَفِ الْقَائِي      د إِلَيْكَ بِالرَّفْدِ الْمَوَافِرُ<sup>(٤)</sup>  
فَخَلَّتْ مُعْتَلَجُ الْبَطَا      حَ وَحَلَّ غَيْرُكَ بِالظَّوَاهِرِ<sup>(٥)</sup>

(١) الكوذني : البرذون . المركل : المركول بالرجل ، والمراد هنا هشام بن عبد الملك

(٢) الجحاجة : السادة . الأخائر : الأخيار .

(٣) الإلاف : الإيلاف وهو العهد . واعر : حاقد

(٤) دلفا : أقبل على مهل ، والمراد الخلافة والعهد . الرفد : الخير

(٥) معتلج : ملتقى . البطاح : جمع بطحاء وأبطح وهو الأرض الواسعة ذات الحصا تسيل

بها الماء . الظواهر : ما ارتفع من الأرض .

كم قال قائلكم آعاً لك عند كثرتة لعائر  
وغفرتكم لدوى الذنوب ب من الأكاير والأصاغر  
أبى أمية إنكم أهل الوسائل والأوامر  
ثقتى بكل مُلِمَّة وعشيرتى دون العشائر  
أنتم معادن للخلافة كابر من بعد كابر  
بالسعة المتقابلة بين خلائفا وبخير عاشر  
وإلى القيامة لاتزال ل شافع منكم وواتر

— ٤ —

وقال فى مدح خالد القسرى :

لو قيل للمجد من حليفك ما إن كان إلا إليك ينقصب  
أنت أخوه وأنت صورته والرأس منه وغيرك الذنب  
أحرزت فضل النضال فى مهل فكل يوم بكفك القصب<sup>(١)</sup>  
لو أن كعباً وحاملاً نُشِراً كانا جميعاً من بعض ماتهمب  
لا تخلف الوعد إن وعدت ولا أنت عن المعتفين تحتجب<sup>(٢)</sup>  
مادونك اليوم من نوال ولا خلفك للراغبين مُنقلب

(١) القصب : قصب السبق وجائزته

(٢) المعتفون : طلاب الجود .

# عمران بن خطّان

شاعر الخوارج

## معالم حياته

هو عمران بن خطّان بن ظبيان ، ينتهي إلى ذهل بن ثعلبة ، من بكر ابن وائل ويكنى أبا سماك .

نشأ في البصرة ، ورحل إلى الحجاز ، حيث تلقى الحديث والفقه من عائشة وابن عباس وابن همر وأبي موسى الأشعري ، ثم حدث ، وروى عنه بعض المحدثين .

لهذا تميزت حياته أول الأمر بأنه فقيه ومحدث ، وبأنه على مذهب الجماعة ، لا ينجح إلى حزب سياسي أو فرقة دينية .

ثم تزوج قرية له — كانت على مذهب الخوارج — يريد أن يصرفها إلى مذهب الجماعة ، لكنها استمالت إلى مذهبها . وهي التي يقول فيها :

يا حمز إني على ما كان من خلقي      مُثْنٍ بِمَخَلَّتِ صَدَقَ كَلَامُكَ<sup>(١)</sup>  
الله يعلم أني لم أقل كذبا      فيما علمت وأنى لا أزكّيك

كان ذلك وقد كبرت سنه ، وطال عمره ، فضعف عن الحرب ، وقنع بالدعاية إلى مذهبه بلسانه ، ولم يستطع أن يشارك في الحرب بسيفه ، ورضى القعدة من

( \* ) الأغاني ١٦/١٤٩ — ١٥٤ ، ٧/٣، ١٢/١١٤ ، والكامل للبرد ٣/١٦٨

(١) حزة : اسم بنت عمه التي تزوجها .

الصفريّة (١) منه بهذا الجهد البياني ، فولوه زعامتهم ، تقديرا لبلائه في الشعر والخطابة ، وتقديرا لدرايته بالفقه والحديث .

لكن الحجاج لم يغفل عما لعمران من مقدرة في الإثارة ، فطارده ، ففر من العراق إلى الشام ، وجعل يتنقل من مدينة إلى مدينة ، في استخفاء وتمويه وتغيير للأسماء ، وكان إذا نزل بقبيلة انتسب نسباً يقربه إليها ، وفي ذلك يقول :

نزلنا في بني سعد بن زيد      وفي عكّ وعامر عوثيان  
وفي أنعم وفي أدد بن عمرو      وفي بكر وحى بني الغدان

ولم يسترح الحجاج إلى فراره واختفائه ، فأرسل إلى عبد الملك يعلمه خبره ، ويصفه له ، فاشتد عبد الملك في طلبه ، وأهدر دمه .

وإذا كان عمران يتنقل نزل على رّوح بن زنباع الجذامي ، وأنس إلى كومه وأخلاقه ، وادعى أنه أزديّ ، فاستضافه رّوح سنة كاملة ، كان فيها معجبا بتقوى ضيفه الأزدي وعلمه وأدبه ، وكان روح لا يسمع شعرا نادرا أو حديثا غريبا عند عبد الملك ، ثم يقصه على صاحبه ، أو يسأله عنه ، إلا وجده عليما به ، وزائدا عليه .

وذات يوم حدث رّوح عبد الملك بمزايا ضيفه الأزدي ، فقال عبد الملك إنه عمران بن حطان ، فأخبره .

فعاد رّوح إلى ضيفه مهموما ، وقص عليه ما دار بينه وبين عبد الملك ، فتظاهر عمران بالرضا ، ووعد مضيفه أن يلحق به .

ولما علم عبد الملك أيقن أنه سيهرب ، وقد تحقق يقينه ، فإن الرجل هرب ، واتجه إلى الجزيرة ، ونزل ضيفا على زفر بن الحارث الكلابي ، وانتسب أوزاعيا ، فأكرمه .

(١) فرقة من الخوارج تميز القعود عن الجهاد إذا لم يكن ميسورا ، وزعيمهم ومؤسس مذهبهم زياد بن الأصفر .



ثم نزل رجل من الشام على زفر ، فلما رأى عمران سلم عليه ، وهش له ، فقال له زفر : أتعرفه ؟ قال : نعم إنه شيخ من الأزد رأيتُه ضيفا لروح ابن زنباع . فقال زفر لعمران : يوما أوزاعيا ، ويوما أزديا ، إن كنت عائلا أغنيك ، وإن كنت خائفا آويناك . فقال عمران : إن الله هو المغنى . ورحل عنه . ثم قصد عمان ، فوجد قوما من الخوارج ، فكشف عن حقيقته واطمأن . لكن الحجاج ما زال يلبجُ في طلبه ، فاضطر إلى أن يستخفى بقرية قريبة من الكوفة ، قضى فيها بقية حياته بين جماعة من الأزد ، حمد عشرتهم ، إلى أن توفي سنة ٨٤ هـ .

### خواص شعره

من عجب أن هذا الرجل الخطيب الشاعر الذى أقلق الحجاج وأقلق عبد الملك لم يصلنا من شعره إلا قدر ضئيل جدا .

فهل كان مُقلًّا ؟

هل شغلته الخطابة عن الشعر ؟

هل شغله الورع والزهد والفقه والحديث ؟

هل ضاع كثير من شعره ؟

ربما كان الأمر راجعا إلى بعض هذا أو إليه كله .

وربما كان الأدنى إلى الصواب أن كثيرا من شعر الرجل ضاع أو ضُمِّع ، لأنه لا يمثل مذهب الجماعة والكثرة ، ولأنه طعن في أئمة المسلمين وفي مقدمتهم على وعثمان .

هذا إلى أن السمة العامة لشعراء الخوارج الإقلال كما سبق في التعليق على شعرهم .

أما شعره الباقي فيتسم بعدة خواص .

— ١ —

يتسم بالصدق ، وتوخى الحقيقة ، ويبرأ من الكذب والمبالغة . وقد عرفت

زوجته صدقه حتى في شعره ، ولم تدرك ما يحتاجه الشعر من خيال ، فقالت له يوما : زعمت أنك لا تكذب في شعرك . فقال لها : أو كان مني ذلك ؟ قالت : نعم ، قلت :

فكذلك تجزأة بن ثور ر كان أشجع من أسامه  
أرأيت رجلا أشجع من أسد ؟ فقال لها : رأيت تجزأة بن ثور فتح  
مدينة ، ولم أر أسدا يفتح مدينة .

ويذكرون أنه مر بالفرزدق وهو ينشد في جمع من الناس ، فقال له :

أيها المادح العباد لتُعْطَى إن الله ما بأيدي العباد  
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارجُ فضل المقسم العواد  
لا تقل في الجواد ما ليس فيه وتسم البخيل باسم الجواد

فقال الفرزدق : لولا أن الله شغل هذا عنا برأيه للقينا منه شرا .

وقد عرف له الأخطل هذا الحلة ، ذلك أن الشعراء اجتمعوا عند عبد الملك ابن مروان ، فقال لهم : أبقى أحد أشعر منكم ؟ قالوا : لا ، فقال الأخطل : كذبوا يا أمير المؤمنين ، قد بقي من هو أشعر منهم . قال : ومن هو ؟ قال : عمران ابن حطان . قال : وكيف صار أشعر منهم ؟ قال : لأنه قال وهو صادق ففاقهم ، فكيف لو كذب كما كذبوا ؟

وعرفها له الفرزدق إذ قال : لقد أحسن بنا عمران حيث لم يأخذ فيما أخذنا فيه ، ولو أخذ فيما أخذنا فيه لأسقطنا . يريد جودة شعره وصدق عاطفته .

— ٣ —

يتسم بانتقاء مفرداته في غير توعر وإغراب ، وبجزالة عباراته في نسق لا تعقيد فيه ولا التواء ولا اعتساف بتقديم وتأخير .

— ٣ —

أما أفكاره فمينة ، لم يجهد في الفوص وراءها ، وليست في حاجة إلى تروى

القارئ في إدراكها . وهي إلى هذا مرتبة ، وبخاصة حينما يقص حدثا من أحداثه ، كما نجد في ثنائه على روح بن زنباع ، وفي قصيدته لزفر بن الحارث .

— ٤ —

وأما خياله فنزر ، لأنه — كما يتبين من نماذج شعره — يؤثر التعبير بالحقيقة على التوسط بالخيال . وربما كان مرجع هذا إلى قناعته بصدق شعوره ، أو إلى توخي البعد عما قد يجره الخيال من تهويل وتضخيم ، لأنه كما عرفنا من حياته مؤثر للصدق ولتصوير الواقع ، ولقد يصح أن نشفع إلى هذا أنه لم يكن من ذوي المقدرة على التخيل والتخييل .

## نماذج من شعره

— ١ —

قال في الثناء على روح بن زنباع ، لما فارقه :

يارَوْحُ كمْ مِنْ أَخِي مَثْوًى نَزَلْتُ بِهِ	قَدْ ظَنَ ظَنُكَ مِنْ نَحْمٍ وَغَسَانِ
حَتَّى إِذَا خَفِثَتْهُ فَارَقْتَ مَنْزِلَهُ	مِنْ بَعْدِ مَا قِيلَ : عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانِ
قَدْ كُنْتَ ضَيْفَكَ حَوْلًا لَا تَرَوْهُنِي	فِيهِ الطَّوَارِقُ مِنْ إِنْسٍ وَمِنْ جَانِ
حَتَّى أَرَدْتَ بِي الْعِظْمَى فَأَدْرَكَنِي	مَا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ خَوْفِ ابْنِ مِرْوَانِ
فَاعْذِرْ أَخَاكَ ابْنَ زَنْبَاعٍ فَإِنْ لَهُ	فِي الْحَادِثَاتِ هَنَاتٌ ذَاتُ أَلْوَانِ
يَوْمًا يَمَانٍ إِذَا لَاقَيْتَ ذَا يَمَنِ	وَإِنْ لَقَيْتَ مَعَدْيَا فَمَعْدَانِي
لَوْ كُنْتُ مُسْتَغْفِرًا يَوْمًا لَطَاغِيَةً	كُنْتُ الْمَقْدَمُ فِي مَرَى وَإِعْلَانِي
لَكِنْ أَبْتُ لِي آيَاتٍ مُطَهَّرَةً	عِنْدَ التَّلَاوَةِ فِي طَهٍ وَعِمْرَانِ

فهو في ثنائه على ابن زنباع لم يبيع لنفسه أن يستغفر له ، لأنه ليس في رأيه

ممن يستحقون المغفرة ، فهو طاغية ، وكافر ، على طريقة أكثر الخوارج في تكفير مخالفهم .

— ٢ —

ولما اضطر إلى الفرار من جوار زفر بن الحارث السكلابي ، ترك رقعة فيها :

إن التي أصبحت يعيا بها زفر      أعت عياء هل روح بن زنباع  
ما زال يسألني حولا لأخبره      والناس من بين مخدوع وخداع  
حتى إذا انقطعت عني وسائله      كف السؤال ولم يولع بإهلاعي  
فاكفف كما كف عني إني رجل      إما صميم وإما فقة القاع  
واكفف لسانك عن لومي ومسألتي      ماذا تريد إلى شيخ لأوزاع ؟  
أما الصلاة فاني غير تاركها      كل امرئ للذي يُعنى به ساع  
أكرم بروح بن زنباع وأسرته      قوم دعا أوليهم للعلا داع  
جاورتهم سنة فيما أَسْرُ به      عرضي صحيح ونومي غير تهجاع

— ٣ —

وقال يمدح الأزد الذين قضى عندهم بقية حياته :

نزلت بحمد الله في خير منزل      نَسْرُ بما فيه من الأنس والخفَرُ  
نزلت بقوم يجمع الله شملهم      وليس لهم عود سوى المجد يُعْتَصَرُ  
من الأزد إن الأزد أكرم أسرة

يمانية طابوا إذا نُسِبَ البشر

فأصبحت فيهم آمنة لا كمشر      أتوني ، فقالوا : من ربيعة أمضر ؟

أم الحى قحطان؟ وتلك سفاهة      كما قال لى روح وصاحبه زفر  
وما منهما إلا يُسرُّ بنسبة      تقربنى منه وإن كان ذا نفر  
فتحصن بنو الإسلام والله ربنا      وأولى عباد الله بالله من شكر

— ٤ —

ولما طلبه الحجاج كتب إليه ، متهمًا بعجزه عن نيل غزاة الحرورية ،  
إذ دخلت عليه هى وزوجها شبيب الكوفة ، فتحصن منهما ، وأغلق عليه  
قصره :

أسد هلّى فى الحروب نعامه      ربّداء تجفّل من صفيّر الصافر  
هلا برزت إلى غزاة فى الوغى      بل كان قلبك فى جناحى طائر  
صدعت غزاة قلبه بفوارس      تركت مدايرَه كأمس الهابر

— ٥ —

وقال فى الحماسة ، والتطلع إلى أن يستشهد كما استشهد زميله أبو بلال  
مِرْدَاس بن أدية :

لقد زاد الحياة إلى بغضا      وحبًا للخروج أبو بلال  
أحاذر أن أموت على فراشى      وأرجو الموت تحت ذرا الموالى  
ولو أنى علمت بأن حتفى      نخنف أبى بلال لم أبال  
فمن يك همه الدنيا فإننى      لها والله ربّ البيت قالى

ولقد أثنى على عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام عليّ رضي الله عنه بقوله (١) :

لله درُّ المرادى الذى سفكت      كفاه مهجة شر الخلق إنسانا  
أصى عشية غشاه بضربته      مُعطى مذاه ، من الآثام هريانا  
يا ضربة من تقى ما أراد بها      إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا  
إني لأذكره يوما فأحسبه      أو فى البرية عند الله ميزانا

ورد عليه كثير من الشعراء فى عصور متى (٢) .

(١) مروج الذهب ٤٣/٢ والملل والنحل ١١٠/١ وخزانة الأدب ٤٣٦/٢ .

(٢) منهم القاضى أبو الطيب طاهر بن الشافعى فى قوله :

إني لأبرأ مما أنت قائله      عن ابن ملجم الملعون بهتانا  
يا ضربة من شقى ما أراد بها      لإلهدم للإسلام أركاننا  
إني لأذكره يوما فألفسه      ديننا وألعن عمران بن حطانا  
عليه ثم عليه الدهر متصلا      لمائن الله لإسرارا وإعلانا  
فأنتما من كلاب النار جاء به      نص الشريعة برهانا وتبياننا  
[ مروج الذهب ٤١/٢ ]

ومنها السيد الحميرى فى قوله :

فلا عفا الله عنه ما تحمله      ولا سقى قبر عمران بن حطانا  
بل ضربة من غوى أوردته لظى      فسوف يلقى بها الرحمن غضبانا  
طورا أقول ابن معاوين ملتقط      من نسل إبليس لا بل كان شيطانا  
عبدا تحمل أثما لو تحمله      شهلان طرفه عين هد شهلانا

( خزانة الأدب ٤٣٦/٢ )



# ابن قيس الرقيات

(شاعر الزيريين)

أما اسمه فمختلف فيه أهو عبد الله أم عبيد الله ، لكن الراجح أنه عبيد الله ،  
أما عبد الله فأخوه .

فهو عبيد الله بن قيس بن شريح ، ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب . وأمه  
قُتَيْلَة بنت وهب ، يرتفع نسبها إلى عبد مناة بن كنانة ، فهو إذاً قرشي الأب  
والأم .

وأما الرقيات فالراجح أنه لقب غلب عليه لا على أبيه ، لأنه تغزل في نساء ،  
منهن ثلاث كل منهن اسمها رقية .

## معالم حياته

مولده :

ليس في تاريخه تحديد للعام الذي ولد فيه ، لكن الراجح أنه ولد في أوائل  
العقد الثاني من الهجرة ، لأنه حينما استشفع بعبد الله بن جعفر إلى عبد الملك  
ابن مروان كان ذلك حوالي سنة ٧٣ هـ ، وجاء في حديثه لعبد الله بن جعفر أن  
منه حينذاك ستون سنة . وأغلب الظن أنه لم يتوخ الدقة ، وإنما قارب بزيادة  
أو بنقصان ، لهذا لا نستطيع أن نحدد سنة ميلاده بل نحوم حولها .

(١) الأغاني ٧٣/٥ دار الكتب ودبوان ابن قيس الرقيات والموشح للمرزباني ١٨٦  
والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢١٢ وخزانة الأدب للبغدادى والكامل للمبرد

أما وفاته فكانت حوالي سنة ٥٨٠هـ إذا صح أنه مات في السنة الخامسة عشرة لولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (١).

### صلته بالزبيريين :

كان ابن قيس زيرى الهوى ، وكان كلفه بمصعب بن الزبير أعظم من كلفه بأخيه عبد الله زعيم الحزب وصاحب الدعوة ، فليس له في عبد الله إلا قصيدة واحدة قصيرة المدح منها بيتان اثنان .

لكن قصائده في مدح مصعب وورثائه كثيرة العدد ، حارة العاطفة ، ولعل مبعث ذلك أن عبد الله كان بخيلاً (٢) ، على حين أن مصعباً كان جواداً .

ومهما يكن من شيء فقد أخلص الشاعر لمصعب ، وخرج معه إلى العراق لما ولاه أخوه عليها ، ولأزمه ، فلما جد عبد الملك في محاربة مصعب ، وتبين مصعب أن أنصاره غادرون به دعا ابن قيس ، وأمر بمال ومناطق فملاها من ذلك المال وألبسه منها ، وقال له : انطلق حيث شئت ، فأبى مقتول . فقال له ابن قيس : لا والله لا أرى حتى أرى سبيك . وأقام معه حتى قتل ، فهرب إلى الكوفة ، واختفى ، ثم شخص إلى المدينة ولجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ليشفع له عند عبد الملك .

ولم ينقص من مكانته عند الزبيريين أنه اتصل فيما بعد بعبد الملك ومدحه ، فإنه استأذن مرة على حمزة بن الزبير ، فقالت له الجارية : ليس عليه الآن إذن . فقال : ينبغي أن يكون هذا ابن قيس الرقيات ، أئذنى له . فأذنت له ، فقال : مرحباً بك يا ابن قيس ، هل من حاجة نزعك بك ؟ قال : نعم ، زوجت بنين لي ثلاثة بنات أخ لي ثلاث ، وزوجت ثلاثة من بنى أخ لي بثلاث بنات لأخ لي . فقال حمزة : فلكل من بنيك الثلاثة أربع مئة دينار ، ولكل من بنى أخيك الثلاثة أربع مئة دينار ، ولكل من بناتك الثلاث ثلاث مئة دينار ، ولكل من بنات

(١) النجوم الزاهرة ١/١٧١ ، ١٧٤ .

(٢) ارجع ما تقدم فى خواص شعر الزبيريين

أخيك اثلاث ثلاث مئة دينار . هل بقيت لك من حاجة ؟ قال : لا والله إلا مشونة السفر ، فأمر له بما يصلحه لسفره حتى رقع أخفاف الإبل .

صلته بعبد الملك :

لما قتل مصعب فر ابن قيس إلى الكوفة ، واختفى زمناً ، وكان عبد الله يجد في طلبه ، لأنه كان قد شذب بأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، وبنت عبد العزيز بن مروان ، فلما هدا الطلب ، لجأ الشاعر إلى عبد الله بن جعفر ليشفع له عند عبد الملك ، فكتب عبد الله إلى أم البنين ، يسألها أن تشفع له ، وكتب إلى أبيها يسأله أن يكتب إليها لتشفع ، وكان عبد الملك يعزها ويلبى رغائبها ، فاستجاب لشفاعتها ، وسمح للشاعر أن يدخل عليه ، واستمع إلى اعتذاره وإلى مدحه ، وأعلن عفوه عنه ، لسكنه حرمة العطاء .

فلما شكى إلى عبد الله بن جعفر أن حرمانه تركه حياً كميته ، عوضه من ماله بأربعين ألف درهم كل عام ، ما بقي حياً .

وروى أن عبد الله بن جعفر اصطحب الشاعر معه ، وقال لعبد الملك : هذا إنسان لا يجوز إلا أن يكون صادقاً إن استبقي ، وإن قتل كان أكذب الناس . قال عبد الملك : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه يقول .

ما نَقَمُوا من أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

فإن قتلته لغضبك عليه أكذبه فيما مدحك به . قال عبد الملك : فهو آمن ، ولا تكن لا أعطيه عطاء من بيت المال أبداً . قال : ولم وقد وهبته لي ؟ فأحب أن تهب لي عطاءه أيضاً كما وهبت لي دمه ، وعفوت لي عن ذنبه . فقال عبد الملك : قد فعلت . قال عبد الله : وتمطيه ما فات من العطاء . قال : قد فعلت ، وأمرت له بذلك .

ثم ضلع مع عبد العزيز بن مروان حينما اعتزم أخوه عبد الملك أن ينحيه عن ولاية العهد ، ويؤثر بها ابنه الوليد ، فغضب عليه عبد الملك وتوعده .

صلة عبد الله بن جعفر :

كان ابن قيس الرقيات منقطعا إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وكان ابن جعفر يصله ، ويقضى عنه دينه ، ثم استأمن عبد الملك فأمنه ، فلما حرره عبد الملك عطاه أمره عبد الله بن جعفر أن يقدر لنفسه ما يكفيه طول حياته ، ففعل ذلك ، فأعطاه ما سأل ، وعوضه عن عطائه أكثر منه ، إذ رتب له أربعين ألف درهم في كل سنة إلى أن يموت .

وله فيه مدائح كثيرة ، تنبئ عن صدق العاطفة وعظيم الوفاء ، كقوله :

إذا زرتُ عبد الله - نفسي فداؤه - رجعتُ بفضل من نداء ونائل  
وإن غبت عنه كان للودحافظا ولم يك عنى في المغيب بغافل<sup>(١)</sup>  
تداركني عبد الإله وقد بدت لدى الحقد والشفآن منى ممقاتلى  
فأنقذنى من غمرة الموت بعدما رأيت حياض الموت جم المناهل  
حبانى لما جنته بعطية وجارية حسناء ذات خلاخل

### مذهبه السياسى

قد يسبق إلى الحاطر أن عبيد الله لم يكن متعزبا للزييريين كما تحزب شعراء آخرون لأحزابهم ، لأنه اتصل بعد مقتل مصعب بعبد الملك ، وبعبد العزيز ابن مروان ، وأثنى على بنى أمية خصوم الزييريين ، ولأنه كان على صلة حميمة بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وهو من كبار الشيعة الذين عاداهم عبد الله ابن الزير .

لكن هذا الظن الذى قد يتبادر لا يلبث أن يزول ، إذا ما كشفنا عن دخيلة نفس الشاعر ، وتبيننا وجهته التى ولأها .

(١) كان عبد الله بن جعفر قد جاءت صلة من عبد الملك وابن قيس غائب ، فأمر خازنه نجبا صلة ابن قيس ، فلما قدم دفعها إليه ، وأعطاه جارية حسناء

١ — فهو زيرى المذهب مافى ذلك شك ، لأن عبد الله فى رأيه أجدر قرش بالخلافة ، كما يتضح ذلك من مدحه له ، ومن مدائح أخيه مصعب .

وأغلب الظن أن ولاءه للزيريين تابع من ينبوعين : قرشية عبد الله ، وجدارته بأن يكون خليفة المسلمين ، فلو لم يكن عبد الله قرشياً ما ناصرته ، ولو لم يكن كُفماً للخلافة ما آزره ، أما وقد جمع الزيتين فإنه لا مندوحة للشاعر عن الانضمام إليه ، والدعوة له ، والسخط على معارضيه .

٢ — وهو إلى زيريته قرشى الوالدين ، يعتز بقريش ، ويفخر بها ، ويدين بأن السيادة لها ؛ لهذا عارض الخوارج ، لأنهم دعاة إلى تساوى المسلمين فى استحقاق الخلافة ، وحمل على بنى أمية — قبل أن يتصل بهم — لثلاثة أسباب : أنهم ألداء لحزبه الذى يشايه ويتابعه ، وأنهم أبعدوا أكثر المضربين والقرشيين ، وتعصبوا عليهم ، واستنصروا بخصومهم البغينين ، ثم إنهم قتلوا الحسين ، فهدموا صرحاً باذخاً من صروح قريش ، لهذا صاروا عداة الشاعر ، ولا شفاء لنفسه إلا بقتلهم (١) . أما الزيريون فهم إلى قرشيتهم وكفاءتهم لم يستظهروا بالبغينين على المضربين ، ولم تكن سياستهم معاول فى تقويض الصرح القرشى .

لهذا ردد الشاعر لهفته إلى اتحاد قريش ، وحفاظها على مجدها العظيم الذى شيدته فى الجاهلية ، ورفعت سمكة فى الإسلام ، ولهج بحسرتها على وحدتها ، وأساء من فرقها ، وكثيراً مانوه بآثرها ، وحذرهما عواقب الانقسام ، وأهاب بها أن تلقى سلاحها ، وتلم شعنها ، وترأب صدعها ، وهو يمزج بهذا كله نغمته من البغنية ، لأنهم مقربون إلى بنى أمية ، ولأن تقريبتهم يوغر صدور المضرية ، ويفضهم من حول الأمويين ، فتضعف مكانة قريش ، ويزل سلطانها .

هذا النزوع القرشى هو السبب فى أننا لا نصف الشاعر بالفاق إذ اتصل — بعد ذهاب الزيريين — بالأمويين والمشيعة ثم ببني العباس ، لأن هؤلاء جميعاً من قريش ،

وإذا كان الحزب الذى والاه الشاعر قد ذهب ، فإن الصبغ القرشى لم يذهب من هؤلاء ، وأى قرشى يتولى الحكم فيه غناء وإن لم يكن كل الغناء .

## خواص شعره

— ١ —

لم يحبس شعره فى الدعاوة للزيريين ، فإنه تغزل ومدح الشيعة ، وافتخر بقريش ، وتحسر على وحدتها ، وخشى أن تطيح الفرقة بمجدها وعزتها ، ودعا القرشيين إلى الوثام ، وسخط على بنى أمية ، لأنهم تركوا الحجاز موئلا قريش ومقرها ، وأهملوا بنى عمومهم ، وراحوا ينتصرون بالبنية ، أعداء قريش من زمن قديم ، ثم مدح بنى أمية .

— ٢ —

شعره السياسى — فى دعوته إلى مذهبه الزيرى ، وفى حملته على بنى أمية — مصبوغ بصبغة خطائية ، فليس معتمدا على التدليل والحاجة كشعر الكهنة . لهذا كان متدفقا سيالا ، لم تعوق اندفاعه برهنة أو محاجة .

— ٣ —

وهو أصدق ما يكون عاطفة فى مدحه لمصعب بن الزبير وفى مدحه لعبد الله ابن جعفر ، وفى دعوته إلى الثورة على بنى أمية .

أما مدحه لعبد الملك فإن عنصر الصياغة فيه أقوى من العاطفة ، وتسكف الإشادة فيه أوضح من الصدق ومن التوفيق فيما ينبغى أن يشيد به . ولم يغفل عبد الملك نفسه عن هذا ، لأنه لما مدحه بقصيدة منها :

إن الأغـر الذى أبوه أبو المـاصى عليه الوقار والحُجب  
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب



قال له عبد الملك : يا بن قيس ، تمدحني بالتاج ، كأنني من العجم ، وتقول في مصعب :

إنما مصعب شهاب من اللـه تجلّت عن وجهه الظلماء  
ملكه ملكٌ عزّة ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياء

وعبد الملك محق في استنكاره ، لأن مدحة الشاعر لمصعب أروع وأبلغ وأليق بالحاكم العربي المسلم ، أما مدحته لعبد الملك فبعيدة من ذلك ، وبعيدة من الواقع ، فهو لا يحتجب عن الناس بأستار ، وهو لا يلبس تاجاً ، وخير من وصف جبينه بالإشراق أن يصفه هو بما يحب الرجال أن يوصفوا به من بسالة أو كرم أو عدل أو هبة أو ماشا كلها من فضائل نفسية وخلقية .

#### — ٤ —

يغلب على شعره — فيما عدا وصفه للإبل والحيل — سهولة التعبير ووضوحه ، واختيار مفرداته وتجانسها ، والبعد عن الحشو والاستكراه والالتواء . ومعانيه كلها متكشفة قريبة المنال ، يندر فيها العمق والبعد ، لهذا لا تحتاج في إدراكها إلى كد وجهد .

أما خياله فواضح ، لا تراحم فيه ولا تراكب ولا غرابة .

وأما أوزانه فأكثرها قصير ، سواء في ذلك الغزل والفخر والسياسة والمدح والثناء .

#### — ٥ —

يدل شعره على التأثر بالقرآن الكريم والاقتباس منه ، كقوله :

لو بـكـت هذه السماء على قوم كرام بكت علينا السماء

من قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض ، وما كانوا منظرين »<sup>(١)</sup>

وقوله :

يَأْمُرُ النَّاسَ أَنْ يَبْرُوا وَيَنْسَى عَلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ جَلَابِ  
أَيُّهَا الْمُسْتَحِيلَ لِحَى كُفْلِهِ مِنْ وَرَائِي وَمِنْ وَرَاءِ الْحَسَابِ

من قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (١) ومن قوله تعالى : « لَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ، فَكَرِهْتُمُوهُ » (٢) .

وقوله :

لَيْسَ لِلَّهِ حَرَمَةٌ مِثْلُ بَيْتِ نَحْنُ حُجَّابُهُ ، عَلَيْهِ الْمُلَاءُ  
خَصَّهُ اللَّهُ بِالْكَرَامَةِ قَالِبَا دُونَ وَالْعَاكِمُونَ فِيهِ سَوَاءُ

من قوله تعالى : « وَيَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءُ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ » (٣) .

— ٦ —

جَرَى عَلَى أَرْقِيسَ بْنِ الْحُطَيْمِ وَحَسَانَ بْنِ ثَابِتٍ وَغَيْرِهِمَا مِنْ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ  
إِذْ كَانُوا يَصْطَنَعُونَ الْغَزَلَ الْكِيدِيَّ لِإِغَاظَةِ خُصُومِهِمْ (٤) ، فَتَغَزَلَ بِأُمِّ الْبَنِينِ زَوْجَةَ  
الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَأَحْنَقَ الْخَلِيفَةُ وَابْنَهُ الْوَلِيدَ وَأَبَاهَا عَبْدَ الْعَزِيزِ  
ابْنَ مَرْوَانَ ، وَلَمْ يَنْجُهِ إِلَّا أَنَّهُ ذَكَرَ فِي غَزَلِهِ أَنَّهُ رَأَاهَا فِي الْمَنَامِ :

أَلَا هَزَاتُ بِنَا قَرَشِيَّةً يَهْتَزُّ مَوْكِبُهَا  
رَأَتْ بِي شَيْبَهُ فِي الرَّأْسِ مَنِيٌّ مَا أُغْيِبَهَا  
فَدَعُ هَذَا وَلَكِنْ حَا جَةً قَدْ كَفَتْ أَطْلُبَهَا  
إِلَى أُمِّ الْبَنِينِ مَنِيٌّ يُقَرَّبُهَا مُقَرَّبُهَا ؟

(١) رِسُوءُ الْبَقَرَةِ ٤٤ (٢) سُورَةُ الْحَجَرَاتِ ١٢ (٣) سُورَةُ الْحَجِّ ٢٥

(٤) رَاجِعِ الْغَزَلَ فِي الْمَصْرِ الْجَاهِلِيَّ لِلْمُؤَلِّفِ ، وَرَاجِعِ خَوَاصِ شُعْرِ الزَّبِيرِيِّينَ ، لَنَعْلَمَ أَنَّهُ

لَمْ يَكُنْ مُبْتَكِرًا هَذَا النَّوعَ مِنَ الْغَزْلِ ابْتِكَارًا كَامِلًا .

أَتَنَى فِي الْمَنَامِ هَذَا فَقَالَ      تَ هَذَا حِينَ أُعْتَبِهَا  
فَلَمَّا إِنِ فَرَحْتُ بِهَا      وَمَالٌ عَلَيَّ أَعْذِبُهَا  
شَرِبْتُ بِرِيقِهَا حَتَّى      نَهَلْتُ وَبَتُّ أَشْرِبُهَا  
وَبَتُّ ضَجِيعُهَا جَذَلًا      نَ تَعْجِبُنِي وَأَعْجِبُهَا  
فَكَانَتْ لَيْلَةً فِي النَّوْمِ      مَ نَسَمُورُهَا وَنَلَعِبُهَا

## نماذج من شعره

— ١ —

قال في الحسرة على وحدة قريش ، من قصيدة في مدح مصعب ابن الزبير :

حبذا العيش حين قومي جميع      لم تفرق أمورَها الأهـواء  
قبل أن تطمع القبائل في مُلـك قريش      ونشمت الأعداء  
أيها المشتهى فناء قريش      بيد الله عُمرُها والفناء  
إن تُودَّعْ من البلاد قريش      لا يكن بعدهم لحى بقاء  
لو تُتَقَى وتترك الناس كانوا      غنم الذئب غاب عنها الرِّعاء<sup>(١)</sup>  
هل ترى من مُحمَّد غير أن الله      يَبْقَى وتذهب الأشياء  
لم نزل آمنين بحسبنا الفـاء      س ويجرى لنا بذاك الثراء  
فرضينا ، فمت بدائك غمًّا      لا تُتميتنَّ غيرك الأدواء  
لو بكت هذه السماء على قو      م كرام بكت علينا السماء  
عين قابلي على قريش وهل يُر      جمع مافات - إن بكيت - البكاء؟  
معشر حَتَفَهُمْ سيوف بني العـلاء      ت يخشون أن يضيع اللواء<sup>(٢)</sup>

(١) تقى : تهلك . الرعاء : جمع راع

(٢) بنو العلات : بنو أمهات شتى من أب واحد ، والمراد أن القرشيين وهم أقارب

منقسمون على أنفسهم يبيد بعضهم بعضاً .

ترك الرأس كالشفامة منى نكبات تسرى بها الأنباء<sup>(١)</sup>

— ٢ —

من حملته على بنى أمية بعد مقتل الحسين ، في القصيدة نفسها :  
كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء<sup>(٢)</sup>  
تذهل الشيخ من بنيه وتبدي عن بُراها المقيلة العذراء<sup>(٣)</sup>  
أنا عنكم بنى أمية مُزوّ رء وأنتم في نفس الأعداء  
إن قتلى بالطف قد أوجعتني كان منكم لئن قُتِلتم شفاء<sup>(٤)</sup>

— ٣ —

ومدح مصعبا في القصيدة نفسها بقوله :  
إنما مصعب شهاب من الـ تَجَلَّتْ عن وجهه الظلماء  
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء  
يتقى الله في الأمور وقد أفـلح من كان همّه الاتقاء

— ٤ —

وقال في مدح مصعب :

على بيعة الإسلام بايعن مصعبا كراديس من خيل وجنعا مباركا<sup>(٥)</sup>  
تدارك أخرانا وتمضى أمامنا وتتبع ميمون النقيبة ناسكا  
إذا فرغت أظفاره من كنيبة

أمال على أخرى السيوف البواتكا<sup>(٦)</sup>

(١) الشفامة : شجرة بيضاء الزهر ، والمراد أنه شاب من حزنه .

(٢) شعواء : متفرقة .

(٣) البراءة : الغلخال ، والمراد أن الحرائر الحسان يخفن من السبي ، فيكشفن عن سيقانهن ليهظن أنهن إماء فلا يسبين . العقيلة : الكريمة الشريفة المخدرة

(٤) الطف : مكان قريب من الكوفة قتل به الحسين

(٥) كراديس : جمع كردوسة وهي الجماعة الكبيرة من الخيل

(٦) البواتك : جمع باتك وهو الفاطم .

قال في مدح عبد الله بن الزبير أو عبد الملك بن مروان<sup>(١)</sup> :

أنت ابن مُعتَلَج البطاح كَدَيْبًا فَكَدَّاهَا<sup>(٢)</sup>  
 فالبيت ذى الأركان فالْمُسْتَنُّ من بَطْحَاهَا<sup>(٣)</sup>  
 ففعلٌ أعلاها إلى عَرَافَتِهَا فخرائِها  
 مِنْ سِرِّهَا فِيهَا وَمَمْدِنِ بَرِّهَا ووفائِها  
 أوْفَى قريش بالعُلا في حُكْمِهَا وقضائِها  
 ولأنت أعلمُها بِهَا وَأَحْكَمُها مِنْ دَائِها  
 وأتمُّها نَسَبًا إِذَا نُسِبَتْ إِلَى آبَائِها  
 إن البلاد سوى بلا دك ضاق عَرْضُ فضائِها  
 فاجمَعْ بَنِيَّ إِلَى بَنِيكَ فَأَنْتَ خَيْرَ رِعايِها  
 نُشْهِدُكَ مِنْهَا مَشْهَدًا ضَنْكَا عَلَى أَعْدَائِها  
 نحن الفوارسُ من قريش يومَ جِدِّ لِقائِها

(١) في الديوان أنها في عبد الله وفي الموشح للمرزباني ١٨٦ أنها في عبد الملك ، وربما كانتا قصيدتين فتداخلتا ، لأن في القصيدة ما يفهم منه أنها في عبد الملك :

ولدتك عائشة التي فضلت أروم نساءها

متعطف الأعياص حول ل سريرها وفتنائها

وعائشة هذه هي بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية ، وهي أم عبد الملك . أما الزبير فأمه أسماء بنت أبي بكر . وإذا جاز القول بأنه يريد عائشة أم المؤمنين خالة بن الزبير ويسميتها أمه تجاوزا لأنها كانت تدعوه بابنها ، فإن الأعياص الملتفين حول السرير هم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص ، وهم أبناء أمية بن عبد شمس الأحد عشر .

(٢) كدى : جبل بأسفل مكة . كداء : جبل بأعلاها . معتلج البطاح : ملتقاها . والمراد

أنه سليل الأشراف الذين كانوا يقيمون ببطاح مكة .

(٣) المستن : المطروق المسلوك . البطحاء : مسهل واسع فيه دقاق الحصى .

ومن مدحه لعبد الملك بن مروان :

ما نقموا من بنى أمية إلا أنهم يحملون إن غضبوا  
وأنهم معدن الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب  
إن الأغر الذي أبوه أبو العا صى عليه الوقار والحجب  
خليفة الله فوق منبره جفت بذاك الأقلام والكتب  
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

---



# الحجاج

(خطيب الأمويين)

ساعد بن أمية الآمين ، وقسيم عبد الملك في توطيد دعائم الملك .

الوالى الذى تسلمح بلسانه ولسانه ، فلا يذكر والياً إلا ذكر خطيباً ، ولا يذكر خطيباً إلا ذكر والياً أو قائداً . البليغ الذى لم يلحن مرة ، لا فى جد ولا فى هزل ، المصلح الذى أشار بإعجام الحروف ، وشكلها بالحركات ، وحول ديوان العراق من الفارسية إلى العربية .

## معالم حياته

١ — الحجاج بن يوسف ، كنيته أبو محمد ، ينتهى نسبه إلى ثقيف الذى سميت القبيلة باسمه . ولد سنة ٤١ هـ ومات سنة ٩٥ (٧١٣ م) وكانت نشأته بالطائف وموته بمدينة واسط التى أنشأها . وهم مختلفون فى نسب القبيلة اخلافاً كبيراً (١) .

---

(\*) تاريخ الطبرى ٢٣٣/٧ وتهذيب الكامل للبهرى ١٨٠/١ والأغانى ٧٤/٤ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣٩٢/٣ والعقد الفريد ٢١٨/٣ ومروج الذهب ١٣٢/٢ ، ١١٨ ، ١٢٥ وشرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة ٩٣ والأعلاق النفيسة لابن رسته ٢١٦ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٢٠/١ .

(١) بعضهم يرى أنها من هوازن ، كما يزعم الثقفون ، وإذا فهمى عدنانية ، وعلى هذا جمهور الناس .

وبعضهم يردّها إلى قحطان ، وآخرون يرجعونها إلى ثمود . وفى خطبة لعلى بن أبى طالب أن ثقيفاً — جد القبيلة — كان عبداً لصالح عليه السلام ، وفى كتاب من عبد الملك إلى الحجاج = ( م ٣٥ — الأدب السياسى )

ومهما يكن من شيء فإن قبيلة ثقيف كانت قد آذت النبي حينما خرج إليها بعد موت أبي طالب واشتداد قريش عليه ، آملا أن تسلم وتحميه ، فردة كبراؤها رداً قبيحاً ، وأرسلوا وراءه سفهاءهم وغلمانهم فرموه بالحجارة حتى دَمَيْت عَقِبُهُ ، وما زالوا على جاهليتهم إلى العام التاسع بعد فتح مكة بهام فأسلموا .

٢ — وسنجد في بعض ما هجى به أن اسمه كُتِبَ ، ويقال إن أمه سمته كليباً ، ولقبته الحجاج ، تفاؤلاً أن يكون تقياً كثير الحج .

٣ — لطالما نال الناس من الحجاج وأبيه وأمه ، حقداً عليه ، وتشفياً منه وتنقيساً من الضيق الذي كانوا يجدون في حكمه

فهم يذكرون أنه ولد مُشَوَّهاً لادُّبر له ، فَشَقِبَ عن دبره . ويذكرون أنه أبي أن يلتقم ثدى أمه — الفارعة — ورفض أئداء غيرها ، حتى أعيام أمره ، فتصور لهم الشيطان في سورة الحارث بن كلدة — زوج أمه الأول في بعض الروايات — فقال : ما خبركم ؟ قالوا : ولد طفل ليوسف من الفارعة ، أبي أن يقبل ثدى أمه ، فقال : اذبحوا جدياً أسود ، وأولغوه دمه . ثم تيساً أسود وأولغوه دمه ، ثم ثعباناً أسود ساحلًا وأولغوه دمه ، واطلوا به وجهه ، فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع .

ففعّلوا به ذلك ، فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء ، وكان ينجر عن نفسه

== رتد كير بأن ثقيفا كان عبداً صالحاً ، وأمينه على الصدقات ، فهرب بها . وقال شبيب الشيباني الخارجي حين دخل الكوفة سنة ٧٦ :

عبد دعى من ثمود أصله لا بل يقال أبو أيهم يقدم

ويقدم — على وزن ينصر — جد ثقيف ، ومن أولاد لإياد . لكن الحجاج كان ينكر هذا ، فقد قال على المنبر : يزعمون أننا من بقايا ثمود ، فقد كذبهم الله بقوله : « وثمود فناء بقي » وقال في خطبة أخرى : لئن كنا من بقايا ثمود لما نجتمع صالح إلا خيارهم .

أن أعظم لذاته سفك الدماء ، وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ، ولا سبق إليها سواه (١) .

ويذكرون أن الحجاج وأباه — أو أخاه — كانا معلمين صبيان بالطائف ، قال أحد الشعراء في هجائه :

أينسى كليبُ زمانَ الهُزالِ وتعليمه سورةَ الكوثرِ  
رغيفٌ له فَلَكةٌ ما ترى وآخرَ كالقمرِ الأزهرِ (٢)

ويذكر الجاحظ أن سليمان بن عبد الملك أمر — بعد أن استخلف — بشتم الحجاج ، فقدم وفد العراق يشتمه ، فقال أحدهم : إن عدو الله كان زبابا (٣) ، لأنسب له في العرب .

ووصف مرة أخرى بأنه كان دباغا ، وصفه بهذا كعب الأشقرى — وكان من جند المهلب بن أبي صفرة — حينما كتب الحجاج إلى المهلب يستبطنه في حرب الأزارقة ويضعفه ، فأنشد كعب أبياتا منها :

إن ابن يوسف غره من غزوكم خفضُ المقام بجانب الأنصار  
لو شاهد الصفين حين تلافيا ضاقت عليه رحمة الأنطار  
ورأى معاودة الدباغ غنيمة أيام كان مُحالف الإفتار

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب ليوفد إليه كعبا ، فبعثه إلى عبد الملك ابن مروان ، ومعه كتاب شفاعته ، فاستنشده عبد الملك ما قال ، فأعجبه ، وكتب إلى الحجاج ليغفو عنه . فلما دخل كعب على الحجاج قال : إيه يا كعب ، « ورأى معاودة الدباغ غنيمة » .

فقال كعب : أيها الأمير ، والله لوددت في بعض ما شاهدته من تلك الحروب

(١) مروج الذهب ١٣١/٢

(٢) تهذيب الكامل ١٨١/١ يقصد أن خبز المعلمين متفاوت الحجم ، فبعضه صغير وبعضه كبير ، لأنه من بيوت شتى .

(٣) زباب : بائع زبيب .

أن أنجو منها ، وأكون حجابا ، أو حائكا ، فقال الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين ما تفعلك ما أسمع ، فالحق بالمهلب .

وبعض الرواة ينكر هذا القول ، ويراه من أكاذيب الشعراء (١) .

ولم تنج أمه من الأقاويل ، فهي تارة زوجة للحارث بن كلفة الطيب ، ثم طلقها ، وتزوجها بعده يوسف الثقفي ، وهي تارة زوجة المغيرة بن شعبه ، سمعها عمر تنشد :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج ؟  
فطلقها المغيرة ، وتزوجها يوسف .

لكني أشك في بعض ما وصف به الحجاج ، لأنهم زعموا أنه كان معلم صبيان تارة ، وأنه كان بائع زبيب تارة ، وأنه كان دباغا تارة . وربما كان التعليم أولى بالتصديق . أما بيع الزبيب ، والدباغة ، فتهمة سهّل إصاقتها به نشأته بالطائف ، حيث يكثر الزبيب ، ويحترف بعض الناس بدبغ الجلود .

على أننا نجد في بعض الأخبار أن أباه جليل القدر ، فقد تشفع به قاضي مصر سليم بن عمرو - وكان من أروع الناس وأتقاهم - إلى عبد الملك بن مروان ليغفیه من القضاء ، وهذا يدل على علو قدره ، لأنه شفع القاضي إلى الخليفة . ونجد في الخبر نفسه أن الحجاج استنكر من أبيه أن يقوم للقاضي : « يغفر الله لك يا أبت ، أنت ابن أبي عقيل ، تقوم إلى رجل من كندة أو تحييه ؟ » .

فقال له أبوه : إني أرى الناس مأيّحمون إلا بهذا وأشباهه . وفي هذا دليل على أن يوسف كان في نظر ابنه رفيع المكانة ، وفي رد أبيه عليه ما يشعر بصلاحه وتقواه .

ولست أتخذ من الخبر وحده دليلا على أن الرجل لم يكن معلم صبية ، لأنه ربما كان كذلك ، مع علو قدره ، لعله أو لورعه .

## صلته بالحكم

بدأ اتصاله بالحكم منذ عمل في شرطة رَوْح بن زُنباع ، مستشار عبد الملك ابن مروان ، ثم اتصل بعبد الملك إذ قلده أمر عسكره ، ثم ولاه تَبَالَه من أعمال اليمن ، فاستهان بها واستعفى عبد الملك من ولايتها فأعفاه .

ثم ندبه عبد الملك لقتال عبد الله بن الزبير ، فاستعمل في قتاله ما استعمل ، إذ حاصره بمكة ، وضربها بالمنجنيق سنة ٧٢ هـ حتى تفرق عن ابن الزبير أعوانه وخاصة أهله ، وظل يقاتل حتى قتل وُصَلب .

وبعد ذلك كافأه عبد الملك بتوليته على الحجاز واليمن واليامة سنة ٧٥ ومكث بها ثلاث سنين ، فاستصغر الحجاز وطمع في غيره ، إذ كتب إلى عبد الملك يقول : « قد حزت الحجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة » فولاه عبد الملك على العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة .

وإذا كان الحجاج قد جاوز الحد في حربه لابن الزبير بمكة ، فوصل إلى النتيجة التى أرادها منه عبد الملك ، وإلى النتيجة التى أرادها هو ثَمنا لرضا عبد الملك ، فإنه قد فعل ذلك نفسه بالعراق .

وما من شك في أن العراق — وخراسان تابعة له — كان قد تمرد على الحكم مرات ، وكان مجتمعا للأحزاب والفرق والمصبيات ، حتى ولى عليه معاوية المفيرة بن شعبة ثم زيادا فعنف زياد في حكمه ، ثم جاء الحجاج فاحتذاه ، وزاد .

نعم ، لقد حكم الحجاج العراق بالشدة التى لاهوادة فيها ، حتى خافه اللص في مأمنه ، والمنافق في خلوته ، وكان سيفه ولسانه يتعاونان في القضاء على بواعث الفتن ودعاة الانشقاق .

ويكاد تاريخ الرجل لا يخلو من حرب .

فقد حارب في جند روح بن زُنباع زُفَر بن الحارث ، وحارب في جيش عبد الملك ومصعب بن الزبير .

ثم حارب ابن الزبير في مسكة ، وقضى عليه .

وحارب الخوارج في عدة مواقع .

وحارب عبد الرحمن بن الأشعث في عشرات المواقع <sup>(١)</sup> .

وهي حروب لم يكن منها بُدٌّ ، لأن الحجاج وال من ولاية الخليفة ، عليه أن يصون مملكته ، ويصدع بأمره ، وما على الحجاج في هذا بأس ، إلا أن قسوته هي مناط اللوم .

فقد كان يقسو كثيرا ويعفو ويلين قليلا .

عفا عن عامر الشَّعْبِيَّ بعد هزيمة ابن الأشعث ، وكان الشَّعْبِيَّ من أعوانه <sup>(٢)</sup> ، وقسا إلى حد الوحشية مع الوافدين عليه من أهل الكوفة بعد موقعة دبر الجماجم ، إذ كان لا يبايعه أحد إلا قال له : أتشهد أنك قد كفرت ؟ فإذا قال نعم ، بايعه ، وإذا قال لا ، قتله <sup>(٣)</sup> .

(١) كان عامل الحجاج على سجستان - عبيد الله بن أبي بكرة - غزا زنبيل ( زنبيل ) الحاكم التركي لكابل ، وأوغل في بلاده ، فهلك أكثر جيشه ، فوجه الحجاج إلى زنبيل عبد الرحمن بن الأشعث ، على رأس جيش عظيم ، فامتلك بعض بلاده ، وكان يرى أن يتدرج في الفتح ، حتى لا يهلك جيشه ، فأبى عليه الحجاج ، وسخف رأيه ، وأمره بالتوغل ، ولما عزله . فغضب ابن الأشعث ، وبايعه جنده على خلع الحجاج وقتاله ، ثم خلع عبد الملك ابن مروان . وسار بهم إلى العراق ، وسار الحجاج للقائه في أهل الشام ، وحدث بينهما مواقع يزيد على الثمانين في ستة أشهر ، وكانت الحرب سجالا ، ثم انتهت بموقعة دبر الجماجم إذ انتصر الحجاج سنة ٨٣ و فر ابن الأشعث إلى فارس ، ثم جد الحجاج في طلبه ، وقتل نفسه سنة ٨٥ .

(٢) الطبري ٨/٣١ .

(٣) الطبري ٨/٢٥ ممن فعل بهم هذا سعيد بن جبير أحد كبار التابعين ، قال له : أنت سعيد بن جبير ؟ قال : نعم . قال : لا بل شقي بن كسير . قال سعيد : أمي أعلم باسمي منك . قال الحجاج : شقيت وشقيت أمك . قال سعيد : الشقاء لأهل النار . قال الحجاج : أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال سعيد : ما كفرت بالله مذ آمنت به . قال الحجاج : اضربوا عنقه . وجاء إليه رجل كان قد اعتزل الناس ، فسأله عن حاله ، فقال : ما زلت معتزلا منتظرا أمر الناس حتى غابت فانيتهك لأبايعك مع الناس ، قال الحجاج : أم ترين ؟ أتشهد أنك كافر ؟ قال الرجل بئس الرجل أنا إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر ، قال : إذا أقتلك ، وضرب عنقه



## طرف من أخلاقه

— ١ —

كان سخيا في بذل المال لتألف القلوب ، حكى أنه لما دخل المدينة فرق على أهلها عشرة آلاف دينار ، وقال لهم : أتيناكم ، وقد غاض المال لكثرة النوائب ، فاعذرونا . فقال له رجل : لا عذر الله من يعذرك ، وأنت أمير المِصْرَيْن ، فقال الحجاج : صدقت ، واقترض أموالا من التجار ، وفرقتها .

وحكى أنه لما ولى العراق كان يطعم في كل يوم عشرة آلاف شخص ، وكان يرسل إلى الناس ليحضروا الطعام ، فكثر عليه ذلك ، فقال : أيها الناس ، رسولى إليكم الشمس ، إذا طلعت فاحضروا للغداء (١) ، وإذا غربت فاحضروا للعشاء ، ففعلوا ذلك .

— ٢ —

وكان ذكيا صادق الفراسة ، قال عبد الله بن ظُجَيَّان الذى قتل مصعب ابن الزبير : كنت يوما واقفا على باب الحجاج ، فإذا به قد خرج وحده ، وليس بالباب أحد ، فوقع فى نفسى أن أقتله ، فنظر إلى وقال : هل لقيت يزيد بن أبى مسلم — كاتب الحجاج — ؟ قلت : لا : قال : ألمه فإن توليتك على الرئى معه . فطمعت وكففت عنه ، وتوجهت إلى يزيد ، فلم أجد عنده شيئا ، ففهمت أن الحجاج قال لى ذلك لشغلنى عما أردته به .

— ٣ —

وكان بارع الحيلة فى الخلاص من المضايق فقد بنى هو وعبد الملك بن مروان بابين فى مسجد ، فوقعت صاعقة أحرقت باب عبد الملك ، فداخله حسد للحجاج ، فكتب الحجاج إليه : إنما مثل أمير المؤمنين ومثلى كمثلى ابنى آدم ، إذ قرأ باقربانا ، فقبِّل من أحدهما ، ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر

== وأتى بشيخ وشاب فقال للشاب : أمؤمن أنت أم كافر ؟ قال . بل كافر قال الحجاج ولكن الشيخ لا يرضى بالكفر . قال الشيخ : أعن نفسى تخادعنى يا حجاج ؟ لو كان شيء أعظم من الكفر لرضيت به . فضحك الحجاج ، وخلق سبيلهما .

(١) الغداء : الفطور

ودخل عليه قاتل الحسين ، فقال له : أنت قاتل الحسين ؟ .

قال : نعم . قال كيف قتلته ؟ قال : دسرتّه بالرمح دَسْرًا ، ثم هبّرتّه بالسيف هبْرًا ، ووكلت أمر رأسه إلى أمير غير وکیل .

فقال الحجاج : أما والله لا يجتمعان في الجنة .

وهو يريد بهذا التوجيه في كلامه أن يرضى أهل العراق وأهل الشام . وقد تحقق ما أراد ، إذ خرج أهل العراق يقولون : صدق الحجاج ، لا يجتمع والله ابن الرسول وقاتله في الجنة ، وخرج أهل الشام يقولون : صدق الأمير ، لا يجتمع من شق عصا المسلمين ، وخالف أمير المؤمنين ، هو وقاتله في الجنة .

— ٤ —

وكان جاداً صارماً ، قليل الضحك ، مهيب المنظر ، مرعباً . وله في هذا أخبار كثيرة منها<sup>(١)</sup> أنه وفد على الوليد بن عبد الملك ، فوجده في بعض نزهه ، فلما رآه ترجل ، وقبل يده ، وجعل يمشى وعليه درع وكنانة وقوس عربية . فقال له الوليد : اركب يا أبا محمد ، فقال الحجاج : دعني يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد ، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنك .

ثم جلس مع الوليد في داره ، وأطال الجلوس عنده ، فبينما هما يتعادثان جاءت جارية فهمست في أذن الوليد ، ومضت ، ثم عادت وهمست في أذنه وانصرفت .

فقال الوليد للحجاج : أندري ما قالت هذه يا أبا محمد ؟

قال الحجاج : لا والله .

قال الوليد : بعثتها إليّ ابنة عمي أم البنين ، تقول ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة ؟ فأرسلت إليها أنه الحجاج ، فراعها ذلك وقالت : والله ما أحب أن يخلو بك ، وقد قتل الخلق .

قال الحجاج : يا أمير المؤمنين ، دع عنك مقالكه النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة<sup>(٢)</sup> ، فلا تطلعهن على شرك ولا مكابدة

(١) مروح الذهب ٢/١٥٢ .

(٢) مبطرة .

عدوك . ولا تشغلهم بأكثر من زيتهم . وإياك ومشاورتهم في الأمور ، فإن رأيهم إلى أفن<sup>(١)</sup> ، وعزمهم إلى وهن ... ولا تطل الجلس معهم ، فإن ذلك أوفر لعقلك .

— ٥ —

وأما الحديث عن قسوته وسفكه الدماء فكثير . ذكروا أنه قتل أكثر من مئة ألف صبوا ، وأن حبسه مات فيه أكثر من عشرين ألفاً ، لم يجب الحد على أحد منهم ، وكان حبسه بغير سقف ولا ظل صيفا وشتاء ، وكان مكتظا بالناس ، بعضهم على بعض ، وقد مرّ عليهم يوما فاستغاثوا به ، فقال : اخشوا فيها ولا تكلمون .

وروى عن بعض القراء قوله : قرأ الحجاج في سورة هود « إنه عمل غير صالح » فلم يدر أهى عمل أم عمل ، فقال : ائتوني بقارىء ، فأتوا به ، وقد قام من مجلسه ، فحُبِسْتُ ونسيت الحجاج ، حتى عرض السجن بعد ستة أشهر . فلما انتهى إلى قال : فيم حُبِسْتُ ؟ قلت : في ابن نوح ، أصلح الله الأمير . فضحك وأطلقني .

وأغلب الظن أن شدة الحجاج في الحجاز وفي العراق قد جرت عليه كثيرا من هذه المبالغات ، وجعلته مثالا في القسوة تضاف إليه الأقاويص ، فليس بمعقول أن يحبس القارىء في غير جريرة ولا شبه جريرة ، ثم يقضى في محبسه ستة أشهر .

وليس بمعقول ما يلصق به من أخبار ، هي أدخل في باب الفكاهات ، كقولهم : إن بعض ندمائه كان عنده ، ثم أخذت الحجاج سنة من النوم ، وعطس النديم عطسة منكرة ، فزع منها الحجاج ، فغضب ، وقال : ما أردت بهذه العطسة إلا أن تروعي . فقال النديم : أيها الأمير ، هذه والله عادتي . فقال الحجاج : والله إن لم تأتني بشاهد على ذلك ضربت عنقك .

نخرج الرجل ، فقص الأمر على صاحب له ، فقال له صاحبه : أنا أشهد لك .

(١) أفن : فساد .

ثم دخلا على الحجاج ، فقال لصاحبه : بم تشهد ؟ قال : أشهد بأنه عطس يوما عطسة ، وقع منه ضرره ، فضحك الحجاج ، حتى استلقى ، وقال : حسبك . وأمر بهما فأخرجا .

## خصائص خطابه

### — ١ —

تتسم خطب الحجاج كلها بقصر الفقرات ، حتى إن كثيرا من فقراتها مركب من كلمتين أو ثلاث ، كما تجد في خطبته بالبصرة ، وبالكوفة ، وفي خطبته بعد وقعة دير الجماجم ، وكقوله في أهل الكوفة والشام :

إِن الْفِتْنَةُ تُنْقَحُ بِالْجَوَى ، وَتُنْتَجَحُ بِالشُّكْوَى ، وَتُخْصَدُ بِالسَّيْفِ .  
أما والله إِن أَبْغَضْتُمُونِي لَا تُضُرُّونِي ، وَإِن أَحْبَبْتُمُونِي لَا تَنْفَعُونِي ، وَمَا أَنَا  
بِالْمُسْتَوْحِشِ لِعِدَاوَتِكُمْ ، وَلَا الْمُسْتَرْحِ إِلَى مَوَدَّتِكُمْ <sup>(١)</sup> ...

### — ٢ —

وتتسم بالإكثار من الاقتباس من القرآن الكريم ، اقتباسا ينبغي عن حفظ وفهم عميق وتذوق دقيق ، ولا عجب فقد كان يعلم القرآن .

فهو في خطبته في أهل الكوفة والشام يقول <sup>(٢)</sup> : زعمتم أني ساحر ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ » <sup>(٣)</sup> وقد أفلحت ... إلى أن يقول : بل أنتم يا أهل الشام كما قال الله سبحانه : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » <sup>(٤)</sup> .

وفي خطبة له بالبصرة يقول : قال الله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » فهذه

(٢) شرح نهج البلاغة ١/ ١١٥ .

(١) شرح نهج البلاغة ١/ ١١٥ .

(٣) سورة طه ٦٩

(٤) سورة الصافات ١٧٣

لله ، وفيها مثوبة . وقال : « واسمعوا وأطيعوا » وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك بن مروان ... (١)

ويقتبس من القرآن في خطب أخرى كخطبة له بالبصرة (٢) ، وخطبه له لما مات ولده في يوم واحد (٣)

على أن في بعض رسائله وحواره استشهادا بالقرآن الكريم ، وهذا دليل على أنه كان يحفظه كله ، أو يحفظ أكثره ، ويفهم ما يحفظ ، ويعي المرامي والمضامين .

ونجده هذا في ثلاث كتب إلى عبد الملك (٤)

ونجده في كتاب رابع قد أحسن التعليق وبرع في التلخيص ، فقد كان هو وعبد الملك بنينا بابين في أحد المساجد ، فوقعت صاعقة ، أحرقت باب عبد الملك ففاظه ذلك وحسد الحجاج ، فكتب الحجاج إليه هذا الكتاب : « إنما مثل أمير المؤمنين ومثلي ، كمثل ابني آدم ، إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر » (٥) .

### — ٣ —

وكذلك يكثر من الاستشهاد بالشعر ، وهذا واضح في خطبته الأولى وفي خطبته الثانية بها ، إذ تمثل بقول عمرو بن براق الحمداني .

و كنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يالهمدان ظالم  
متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميّا تجتذبك المظالم  
وفي بعض خطب أخرى .

وليس في هذا عجب ؛ لأن الرجل كان شاعر النفس ، ولعله لولا الحكم والسياسة والحروب لكان من الشعراء ، ثم إنه كان كلنا بسمع الشعر وروايته ،

(١) العقد الفريد ١٥٢/٢ .

(٢) العقد الفريد ١٥٣/٢ (٣) العقد الفريد ١٥٤/٢ .

(٤) العقد الفريد ٨/٣ ، ٢٠/٣ البيان والتبيين ٢٣٥/٣ .

(٥) سورة المائدة ٢٧

ولهذا قرب إليه الشعراء ، وشجعهم على مدحه ، وكان ينقد بعض ما يمدحونه به ،  
ومعروف أنه لما قدم البصرة قرب إليه جريرا ، وأعانه على الفرزدق .

— ٤ —

ولقد كان أكثر خطباء العصر تهويلا وتخيلا ، حتى إن قسوته في الحكم ،  
وغلظته على أهل الفتن لتعجلي في أقواله ، كما تتعجلي في أفعاله .

ووسيلته إلى هذا التهويل والتخيل مقدرته البيانية ، وصوره التخيلية ،  
وتأثيره الخطابي .

فهو حتى بلغته وأسلوبه ، مولع بالتشبيه والاستمارة والكناية والتمثيل .  
تأمل قوله : « والله لأحزمنكم حزم السَّلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل » وقوله : « إني لأرى رءوسا قد أُيْنَعَتْ وحن قطافها ، وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين المائيم واللاحي » .

وتأمل قوله : « إن الشيطان قد استبطنكم ، فخالط اللحم والدم والمصَّب والمسامع والأطراف والأعضاء والشَّفاف ، ثم أفضى إلى الخناخ والأصمخ ، ثم ارتفع فمشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم نفاقا وشقاقا » .

فلا عجب في أن كان بعض سامعيه من خصومه يتأثرون ببلagته ، ويخالون الحق في جانبه .

شهد مالك بن دينار أحد معاصريه فقال : مارأيت أحدا أْبَيَنَ من الحجاج ،  
إنه كان يرقى المنبر ، فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحته عنهم ، وإساءتهم  
إليه ، فأحسبه صادقا ، وأظنهم كاذبين .

وقال الحسن البصري : لقد وقَّذَني كلمة سمعتها من الحجاج ، هي قوله على  
المنبر : « إن امرا ذهبَت ساعة من عمره في خير ما خلق له ، لجدير أن تطول  
حسرتة » .



البراعة في تأييد وجهة نظره ، بالتدليل الخطابي ، الذي يكفل الإقناع ، أو على الأقل يزعزع الرأي السابق .

فإنه لما قَتَلَ ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر ، وقال : « ألا إن ابن الزبير كان من أخيار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ، ونازع فيها ، وخالف طاعة الله ، واستمكن بحرم الله .

ولو كان شيء مانعا للمصاة ، لمنع آدم حُرْمَةُ الجنة ، لأن الله تعالى خلقه يديه ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته .

فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة » .

فكأنه يقيس هذا القياس :

الطاعة السابقة والعزازة العظيمة لاتمنعان من عقوبة العاصي ، بدليل أن الله عاقب آدم .

وابن الزبير كان طائعا وعزيزا ، لكنه عصى .

وإذا فعقوبته حق .

أو هو يعتمد إلى التمثيل المعروف في القياس المضمر .

تشيع في خطبه الموسيقى الناشئة عن سجع قصير الفقرات ، أو الناشئة عن التقسيم والازدواج ، كما مر في النماذج المختارة له .

يكثر من ضمير المتكلم كقوله في خطبته بالكوفة : « إني لأرى رؤوسا... وإني لصاحبها .. وكأني أنظر ... ما يقع لي بالثمنان ... فِرَرْتُ عن ذكاء ، وفَدَّشْتُ عن تجربة ... »

وهذه الظاهرة واضحة أيضا في خطبته بالبصرة « فعندى دواؤه ... فعلى أن أعجلاه ... قصرت عليه باقيه » ونعل هذا راجع إلى اعتداده بنفسه ، واعتزازه بقوته وبطشه ، ورغبته في أن يزيد السامعين خوفا منه وتوقيا لعقابه ، لأنهم وانقون من شدته ، وهو حينما يضيف أفعاله إلى نفسه بضمير المتكلم يضاعف الفرق منه ومن نسكاله .

### من خطبته بعد موقعة دير أبلحاجم

« يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم <sup>(١)</sup> ، فخالط اللحيم والدم والعصب ، والمسامع والأطراف ، والأعضاء والشقاق <sup>(٢)</sup> ، ثم أفضى إلى الخناخ <sup>(٣)</sup> والأصمخ <sup>(٤)</sup> ، ثم ارتفع فمشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم نفاقا وشقاقا وأشمركم خلافا ، انخذتموه دليلا تتبعونه ، وقائدا تطيعونه ، ومؤامرا <sup>(٥)</sup> تسفسيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ، أو تعظكم وقعة ، أو يحجزكم إسلام ، أو ينفعكم بيان ؟ ..... إن بعثتكم إلى ثغوركم غلاتم <sup>(٦)</sup> وخنتم ، وإن أمنتم أرجفتكم <sup>(٧)</sup> ، وإن خنتم نافقتكم ، لا تذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة . هل استخفكم ناكث <sup>(٨)</sup> ، أو استغواكم غاو ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم ضالع <sup>(٩)</sup> ، إلا تبعتموه وآويتموه ، ونصرتوه وزكيتموه ؟ يا أهل العراق ، هل شغب شاغب <sup>(١٠)</sup> ، أو نعب ناعب ، أو زفر زافر ، إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟ يا أهل العراق ، ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع <sup>(١١)</sup> ؟

- |                         |   |
|-------------------------|---|
| (١) دخل في بطونكم .     | (٢) غلاف القلب أو حبته                          |
| (٢) جمع منح             | (٤) الصمخ : خرق الأذن الباطن الموصل إلى الرأس . |
| (٥) الواسر : المستشار . | (٧) أرجفتكم : كذبتم وأشعتم الفتن .              |
| (٦) غلاتم : خنتم .      | (٩) استعضدكم : استعان بكم . ضالع : نافض للعهد . |
| (٨) استغواكم خائن .     | (١١) نهاية الأرب ٢٤٥/٧ .                        |
| (١٠) شغب : تمرد وعصى .  |   |

# عبد الحميد بن يحيى

(كاتب الأمويين)

## معالم حياته

عبد الحميد بن يحيى مولى فارسى لبنى عامر .

نشأ بالشام فى أخريات الدولة الأموية ، ونجمها إلى غروب ، وريحها إلى ضعف .  
كان فى أول الأمر معلماً يتنقل ، ثم كتب بديوان الرسائل فى عهد هشام  
ابن عبد الملك ، ورئيسه آنذ سالم ، فتخرج عليه .

ثم عرفه مروان بن محمد - وكان والياً على الجزيرة وأرمينية - فاتخذ  
كاتباً له ، فلما تولى الخلافة سنة ١٢٧ هـ ( ٧٤٤ م ) عينه كاتب الدولة ، ثقة به ،  
ورغبة فى الانتفاع بعلمه وذكائه وخبرته .

ولقد توالى الحن على مروان فى السنوات الخمس التى قضاها خليفة ، إذ خرج  
عليه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن أبي جعفر بن أبي طالب بالكوفة ، ودعا لنفسه  
فأخذ ثورته وإلى العراق .

وثار بالشام سكان حمص ثم القوطة ثم فلسطين ، فأخذ مروان ثورتهم .  
ثم خرج سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وطالب بالخلافة ، وانضم إليه أهل  
الشام ، لكنه انهزم ، وانجلت هزيمته عن قتلى من الجيشين بلغوا ثلاثين ألفاً .

---

(\*) وفيات الأعيان والوزراء والكتاب ومروج الذهب والفهرست وعيون الأخبار  
والبيان والتبيين والصناعتين والمسالك والممالك وصبح الأعشى ومرح العيون .

وطمع الخوارج في ضعف الدولة ، واستولوا على الكوفة ؛ وكانت الحرب سجلا بينهم وبين مروان .

ثم يبيع لأبي العباس السفاح بالكوفة سنة ١٣٢ هـ ( ٧٤٩ م ) وهزمت جنوده جيش مروان ، ففر إلى مصر ، وتبعه العباسيون إليها فقتلوه ، وانتهت الدولة بمقتله .

لم يفارق عبد الحميد مروان في محنة هذه ، وفاء منه لسيده ، حتى لقد أشار عليه مروان حينما توات هزائمه ، وجدَّ العباسيون في طلبه ، أن ينضم إليهم ، لحاجتهم إلى أدبه ، وإعجابهم به ، وقال له : إن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن فيك ، فاستأمن إليهم ؛ وأظهر الغدر بي ، فلعلك تنفعي في حياتي ، أو بعد مماتي . فقال عبد الحميد :

أَسِرُّ وفاء ثم أظهر غَدْرَه فَن لِي بعذر يوسع الناس ظاهره ؟

يا أمير المؤمنين إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك ، وأقبحهما بي ، ولكفي سأصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك .

فلما قتل مروان اختبأ عبد الحميد عند صديقه ابن المقفع ، وفاجأها الطلب ، فقال الدين دخلوا : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كلاهما : أنا ، خوفا على صاحبه ، إلى أن عرف عبد الحميد ، فأخذ ، وسلمه السفاح إلى صاحب شرطته ، فكان يحمله طستا ، ويضعه على رأسه حتى مات سنة ١٣٢ هـ ( ٧٤٩ م )

### ثقافته

تزود عبد الحميد من القرآن واللغة والشعر والأخبار والحساب ، وتلمذ في الديوان لزوج أخته سالم مولى هشام بن عبد الملك ورئيس ديوان الرسائل في عهده .

وأغلب الظن أن صلة عبد الحميد بسالم عرفته بعض ما يتبعه اليونان في شرم

وفي رسائلهم ، إذ كان سالم يحذق اليونانية ، ويترجم منها ، وهو الذي ترجم بعض رسائل أرسطو إلى الإسكندر . وقد خلف سالم رسائل في مئة ورقة ، رآها الناس ، لكنها لم تصل إلينا<sup>(١)</sup> .

كذلك نرجح أن صداقته لابن المقفع وَصَلَتْهُ بالنثر الفارسي واليوناني معاً ، لأن ابن المقفع كان يجيد الفارسية ، وقد ترجم منها كلية ودمنة ، والأدب الكبير ، والأدب الصغير ، ولعله كان يعرف اليونانية ، لأنه ترجم منها بعض كتب أرسطو في المنطق والجدل والقياس . وقد مارس الكتابة في العصر الأموي ، إذ كتب لداود بن عمر بن هُبَيْرَة ، ثم كتب لعيسى بن علي عم المنصور .

وقد استطاع عبد الحميد بحذقه العربية ، ومعرفته بعض النظم المتبعة في اليونانية والفارسية أن يجدد في النثر الفني العربي ، على أنه قد تأثر بالثقافة الإغريقية التي سرت في المجتمع العربي منذ طلائع العصر الأموي ، كما سبق في عوامل ازدهار الكتابة .

## خواص كتابته

تميزت كتابته بعدة خواص ، بعضها جديد ، أو فيه تجديد ، لقد خيل إلى بعض الدارسين منذ عهد بعيد أن عبد الحميد أول كاتب ، فقالوا : بُدِثَتِ الكتابة بعبد الحميد وَخُتِمَتِ بابن العميد .

وإذا كانت المبالغة واضحة في الشطر الثاني من الدعوى ، فإنها قد تخفى في شطرها الأول ، لأن الأدب قد عرف كثيراً من الكتاب بعد ابن العميد (توفي سنة ٢٥٩) ، أصدق منه عاطفة ، وأرقى فكراً ، وأجود أسلوباً ، كالباقلاني المتوفى سنة ٤٠٢ وأبي حيان التوحيدي المتوفى سنة ٤١٤ ، لكنهم لم ينالوا من الشهرة مثل ما نال ، لأنه كان وزيراً ولم يكونوا وزراء ، وكانت له حاشية تدعو له وتذيع اسمه ، وتبالغ في وصفه ، ولم يكونوا هم كذلك .

(١) الفهرست ١٧١

أما عبد الحميد فإنه أول كاتب اشتهر بصناعة الكتابة ، فمن السهل أن يصدق الناس أنه بادیء الكتابة الفنية .

والحق أنه — كما بينا في حياته — سبق بأستاذه سالم ، لكن سالما لم يُرَزَق من الشهرة مارزقه عبد الحميد ، ولم تبق رسائله التي كتبها كما بقيت رسائل عبد الحميد .

فإذا أردنا التدقيق في الحكم قلنا إن النثر الفني كان معروفا قبل عبد الحميد ، فلم يخترعه اختراعا ، ولم يبتدعه ابتداعا ، كما يوم الحكم بأن الكتابة بُدِثَتْ به ، وإنما كان النثر الفني قد بلغ طوراً من النضج ومن التطور قبل عبد الحميد ، ثم جاء عبد الحميد فظهر هذا التطور على قلمه .

أريد أن أقول إن العرب لم يصطنعوا للرسائل كتاباً يكون إليهم تحبيرها قبل عهد هشام بن عبد الملك ، فهو الذي اصطنع مولاه سالما لهذا الغرض ، ثم جاء مروان بن محمد فاصطنع عبد الحميد .

فلما صارت الكتابة عملاً منوطاً بأشخاص ، بذلوا جهدهم في التجويد والافتنان ، فأدخلوا على النثر الفني المعهود بعض النظم والأشكال ، لكنهم لم يضيفوا إلى جوهره جديداً ، ولم يحدثوا في أصوله تغييراً يخرج به عن طابعه .

ولعل أول هؤلاء سالم ثم عبد الحميد .

وإذا فعبد الحميد في رأيي ليس أول من كتب نثراً فنياً ، بل هو أول كاتب اشتهر بصناعة الكتابة ، على اعتبار أنها عمله ومهنته ، وظهرت في رسائله مظاهر تطور النثر الفني المعروف من قبله .

وسيتبين من دراسة خواصه أنه جدد في الشكل أكثر مما جدد في الأصل (١) .

فإذا ما تجاوزنا عن التجديد في المظهر ، وجدنا نثره يكاد لا يختلف عن كثير من الرسائل التي كتبت قبله .

(١) راجع ما تقدم في دراسة الكتابة وعروبة النثر الفني .



وإذا كنت لا أوافق أن عبد الحميد هو الذي بدأ النثر الفني ، فإن هذا لا يمنعني من ذكر الخواص التي تفرد بها عبد الحميد ، فجعلته صاحب ابتداء في الكتابة ، وصاحب طريقة خاصة به ، حتى ليصح أن يقال إنه الكاتب الأول الذي تمّ تطور النثر الفني على قلمه ، باعتباره كاتباً مختصاً بالكتابة ، وباعتبار الكتابة مهنة له ، والفرق كبير بين أن يقال إنه أول من كتب نثراً فنياً ، وأن يقال إنه الكاتب الذي بدأ يكتمل تطور النثر الفني على قلمه .

— ١ —

فقد برع في الصياغة ، وإجادة التعبير عن المعاني ، والتأنق في اختيار المفردات الدالة .

وهو في هذا عامد مستأن ميعد القول إعداداً ، وينقحه تنقيحاً ، فلا يكتب متهجلاً ، ولا يُعْطَر كل ما يمليه الخاطر ؛ لأنه لا يريد تأدية المعنى فحسب ، بل يريد أن يكسو هذا الأداء رداء جميلاً فيه افتتان .

— ٢ —

وأخذ نفسه بتقسيم الجمل تقسيماً ، فهي إن طالت تساوت في طولها ، وإن قصرت تساوت في قصرها ، كأنما قد وزنها وزناً ، وأحياناً يزينا بسجعيات تبدو غير مستكرهة ولا متكلفة .

— ٣ —

كما عني بالخيال ، وبالتضاد في طبائقي أو مقابلة ، ليزيد الفكرة وضوحاً وتأيداً .

كتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان بن محمد<sup>(١)</sup> :

« أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكُرْه والسرور ، فمن ساعده  
الحظ فيها سكن إليها ، ومن عَصَتْه بنابها ذَمُّها ساخطا عليها ، وشكاها  
مستريدا لها<sup>(٢)</sup> . وقد كانت أذاقَتنا أفوايق<sup>(٣)</sup> استحليناها ، ثم جمَعَتْ بنا  
نافرة ، ورمَحَتنا مَوَالِيَةً ، فملَح عَذْبُها ، وخَشَنَ لَيْنُها ، فأبعدتنا عن  
الأوطان ، وفرَقَتنا عن الإخوان ، فالدارُ نازحة ، والطيرُ بارحة<sup>(٤)</sup> . وقد اكتبتُ  
والأيام تزيدنا منكم بُعْدًا ، وإليكم وَجْدًا ، فإن تَمَّ البَلِيَّةُ إلى أقصى مُدَّتِها  
يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يَلْحَقْنَا ظَفَرُ جَارِحٍ مِنْ أَظْفَارِ مَنْ يَلِيكُمْ  
نَرْجِعْ إليكم بذل الإِسَارِ ، والذل شر جار . نسأل الله الذي يميز من يشاء ،  
ويذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم أَلْفَةً جَامِعَةً ، في دار آمِنَةٍ ، تجمع  
سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين ، وأرحم الراحمين » .

ففي هذه الرسالة مفردات منتقاة للتعبير عن المعاني ، وسبك جيد للجمل ،  
وتناسب في التقسيم .

وفيه تخیل في قوله ( عضته بنابها ) وقوله ( يلحقنا ظفر جارح من أظفار  
من يليكم ) .

وبها صورة فنية مكتملة في قوله ( كانت أذاقنا . . . . . مولية )  
إذ صور الدنيا وهي مواتية بناقة حلوب طيبة تجود بلبنها على صاحبها ، فيستطيعه  
ويستحليه ، وصورها وهي مدبرة معاندة بهذه الناقة وقد تأبت على العطاء والطاعة  
فجمعت بصاحبها ، ثم رمحته .

والتضاد واضح بين قوله ( ساعده الحظ ) وقوله ( عضته بنابها ) وبين  
( سكن إليها ) و ( ذمها ساخطا عليها ) .

(١) شرح العيون ١٦٥ . (٢) مستريدا لها : غابا عليها .

(٣) جمع أفواق ، وهذه جمع فيقة وهي اللبن يجتمع في الضرع بين حلبتين .

(٤) البارح من الطير والوحش ما مر من اليمين إلى اليسار والعرب تنطير به .

— ٤ —

وهو أول من أكثر من الإطناب بالترادف ، وتكرير المعنى الواحد في عبارات عدة ، بعضها تأكيد وتوضيح لسابقه ، وبعضها تفصيل لجوانب من الفكرة ، وبعضها توليد وتشقيق .

لهذا أطال بعض الرسائل إطالة لم تعهد من قبل كأخبار الفتوح ، والحض على التأهب للحرب ، ورسائل الوعد والوعيد . ومن هذا رسالته على لسان مروان ابن محمد إلى ابنه عبد الله وقد سيره لمحاربة الضعك بن قيس الشيباني الخارجي ، فقد بلغت نيما وخمس مئة سطر (١) .

وزعموا أنه كتب عن مروان بن محمد إلى أبي مسلم الحراساني كتابا حمل على حمل ، لكبر حجمه ضمنه ماله قرى على أصحاب أبي مسلم لأوقع بينهم الاختلاف . وقال لمروان : كتبت كتابا متى قرأه بطل تدبيره ، فإن نجح فذاك ، وإلا فاهلاك .

لكن أبا مسلم لم يقرأه ، وأمر بإحراقه ، وكتب إلى مروان .

نحا السيف أسطوار البلاغة وانتحى

عليك ليوث الغاب من كل جانب (٢)

وما من شك في أن الكتاب لم يكن في الطول إلى هذا الحد الذي يقتضيه جملا ليحمله ، فالإغراق في المبالغة بين ، ولعل الكتاب أرسل مع شخص راكب جملا .

وكثيرا ما يبدو تطويله لطيفا مقبولا لا يشعر قارئه بملال ، كقوله في رسالته — عن مروان بن محمد — إلى أحد الولاة ، يعيب فيها المولعين بالشطرنج (٣) :

(١) صبح الأعشى ١٠/١٩٥ وجمهرة رسائل العرب ٢/٤٧٣ .

(٢) سرح العيون ١٦٣ . (٣) جمهرة رسائل العرب ٢/٥٤٠ .

« وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً ممن قبلك من أهل الإسلام قد ألهمهم<sup>(١)</sup> الشيطان بها ، وجمعهم عليها ، وألف بينهم فيها . فهم مُعْتَكِفُونَ عليها من لدن صبحهم إلى مُنْصَاهِم ، مُلْهِيةً لهم عن الصلوات ، شاغلةً لهم عما أُمِرُوا به من القيام بِسُنَنِ دينهم ، واقْتِرِضَ عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مُدَاعَبَتِهِمْ فيها ، وسوء لفظهم عليها ، وإن ذلك من فعائم ظاهر في الأندية والمجالس ، غير مُفَكَّرٍ ولا معيب ، ولا مستَفْظَمٍ عند أهل الفقه ؛ وذوى الورع والأديان والأسنان منهم ، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وكرهه واستكبره . . . »

ولقد تجيء إطالته مفتولة متكلفة لا باعث عليها إلا الرغبة في إظهار المقدرة على التصرف في التعبير والدراية باللغة ، كقوله في الرسالة التي بعثها على لسان الخليفة إلى ابنه حينما أرسله ليحارب الضحاك بن قيس :

أما بعد فإن أمير المؤمنين — عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجِلْفِ الجاني الأعرابي المذسَكِّع في حيرة الجهالة ، وظلم الفتنة ، ومهاوى الهلكة ، ورعاعه الذين عاثوا في الأرض فساداً ، وانتهكوا حرمة استخفافاً ، وبدلوا نعم الله كفراً ، واستحلوا دماء أهل سلمه جهلاً — أحب أن يمهّد إليك في لطائف أمورك ، وعوام شئونك ، ودخائل أحوالك ، ومُضْطَرِّ تنقلك ، عهداً يُحمِّلُكَ فيه أدبَه ، ويشرع لك عظمتَه . . . »

وكوصفه السلاح في هذه الرسالة نفسها ، فإن المکتوب إليه لم يكن في حاجة إلى أن يوصف له سلاحه الذي سيحارب به هذا الوصف

أما الرسائل المحتاجة إلى إيجاز ، فقد أوجز فيها ، كتكليف الرعية ، والإخبار بهزيمة ، وأوامر الخليفة إلى ولاته .

قال له مروان يوما — وقد أهدى إليه بعض العمال عبداً أسود فاستقله :

اكتب إلى هذا العامل كتاباً مختصراً ، وذمه على ما فعل .

فكتب إليه<sup>(١)</sup> .

« لو وجدت لونا شرا من السواد ، وعددا أقل من الواحد ، لأهديته ، والسلام » .

وكتب إلى رئيس يوصى بشخص :

« حقُّ مُوصِّلِ كتابي إليك كحقه علىّ ، إذ جعلت موضوعاً لأمله ، ورأيتني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدق أمله<sup>(٢)</sup> . »

- ٥ -

وهو يرتب أفكاره ترتيباً دالاً على حسن الاستعداد ، والمهارة في الإعداد ، فيقسم الموضوع إلى أجزاء كبار ، ثم يقسم كل جزء إلى أجزاء صغار ، فتظهر كتابته متلاحمة العناصر ، مترابطة الأفكار .

مثال ذلك رسالته التي أوصى فيها الكتاب<sup>(٣)</sup> ، فقد بين حاجة الدولة إليهم ، وبين مكانتهم وأقدارهم ، ثم حدثهم بالأساس الذي يقوم عليه صرحهم ؛ من أخلاق فاضلة ، وثقافة واسعة . ثم حذرهم سوء الخلق ، وذكرهم بحق سابقهم من الكتاب عليهم ، وأوصاهم بالدين أقدم الكبر أو عزلوا . ثم عطف على واجب الكتاب نحو الحكام ، وواجبهم نحو الشعب ، وحذرهم ثانية الإسراف والأبهة والمطامع والمعجب بالأنفس .

- ٦ -

أكثر من استعمال الحال ، معتمداً عليها في تحديد فكرته وتوضيحها وتقييدها ، وتجميل الكلام ، وإظهار الموسيقى . واستعمال الحال على هذا النحو

---

(١، ٢) جهرة . رسائل العرب ٢ / ٥٥٤ ، ٥٥٦ .

(٢) الوزراء والكتاب ٧٠٠ وصبح الأعشى ١ / ٨٥ .

من خصائص اللغة اليونانية ، ومن الأسباب التي يعتمد عليها اليونان في تحديد معانيهم<sup>(١)</sup> .

وقد سبقه إلى الإكثار من الحال أستاذة سالم ، فقال في إحدى رسائله :  
« أَعْظَمَتْ رَجُلَهُمْ عَلَيْكَ دَاخِلًا ، وَوَسَّعَتْ مَجْلِسَهُ إِذَا رَأَيْتَهُ إِلَيْكَ مَقْبَلًا ، وَتَجَافَيْتَ لَهُ عَنْ صَدْرِ فَرَاشِكَ مَكْرَمًا ، ثُمَّ قَاوَضْتَهُ مَقْبَلًا عَلَيْهِ بِبَشْرِكَ ، إِكْرَامًا لِأُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . . . » وسبقه أو مائله عبد الله بن سالم في رسالة له<sup>(٢)</sup>

وفي رسالته السابقة إلى أهله أحوال كثيرة (ساخطا ، مستزيدا ، نافرة ، مولية ، كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدا) .

## — ٧ —

أضاف إلى المظهر العام للرسائل ألوانا جديدة تتمثل في عدة مظاهر :  
١ - أطال التعميد في أول الرسائل ، وتوسع فيه ، بتكرير المعاني تارة ، وتوليد بعضها من بعض تارة ، وكان في بعض الرسائل يبدأ بالحمد ، ثم يعيده في فصولها .

من ذلك قوله<sup>(٣)</sup> :

الحمد لله الناصر لدينه وأوليائه وخلفائه ، المظهر للحق وأهله ، والمذل لأعدائه أهل البدعة والضلالة ، الذي لم يجمع بين حق وباطل ، وأهل طاعة ومعصية ، إلا جعل النصر والفلج<sup>(٤)</sup> والعاقبة لأهل حقه وطاعته ، وجعل الخزي والذل والصغار على أهل الباطل والخلاف والمعصية ، حمدا يتقبله ويرضاه ، ويوجب به لأمر المؤمنين وأهل طاعته الزيادة التي وَعَدَ مَنْ شَكَرَهُ .

٢ - نوع معاني التعميد ، مضاهاة للمقام ، ومناسبة للموضوع ، فكان

(١) من حديث الشعر والنثر ٤٢ . (٢) الكامل للمبرد ٧٩٣ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ٢/٥٥٠ . (٤) الفلج : الفوز .



تحميده في ولاية العهد غير تحميده في التبشير بفتح أو نصر ، وكان تحميده للتهنئة مغايرا لتحميده في التعزية .

٤ — وهو أول من عتب بالحمد بعد البسملة ، فاصلا بينهما بأما بعد ، فيقول مثلا : باسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فالحمد لله . . .

٥ — نوع في الختام كما نوع في البدء ، مراعاة للمقام ، وموضوع المقال .

## — ٨ —

على أنه قد يتكلف في تعبيره ، فيبدو فيه ثقل وجفاف ، يشعر القارىء أن الكاتب يتوقف ولا يتدفق ، وأنه يترث ليشق لقلمه طريقا وعرة ، كقوله في وصيته لعبد الله بن مروان<sup>(١)</sup> :

« وامنع أهل بطانتك ، وخاص خدامك ، وعامة رعيتك ، من استلحام أعراض الناس عندك بالفئبة ، والتقرب إليك بالسعادة ، والنميعة إليك بشيء من أحوالهم المسترة عندك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة ، فإنه أبلغ سموًا إلى مثال الشرف ، وأعون لك على محمود الذِّكر ، وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي ، وشرف الهمة ، وقوة التدبير »

وأوضح من هذا قوله في وصفه للسلاح في الرسالة نفسها :

« وخذهم من السلاح بأبدان الدروع<sup>(٢)</sup> ، وماذيه الحديد<sup>(٣)</sup> ، شاكّة النسيج<sup>(٤)</sup> ، مقاربة الخلق<sup>(٥)</sup> ، متلاحمة المسامير وأسواق<sup>(٦)</sup> الحديد ،

(١) صبح الأعشى ١٠/١٩٥ وجمهرة رسائل العرب ٢/٤٧٣ :

(٢) الأبدان : جمع بدن وهو الدرع من زرد أو القصيرة على قدر الجسد أو الدرع

عامة والإضافة هنا إضافة الكلمة إلى معناها . (٢) الماذى والمأذية : الدرع اللينة .

(٤) محكة النسيج . (٥) الخلق : الحلقات .

(٦) أسواق : جمع ساق .

مموهة الرُّكَب (١) ، مُحْكَمَةُ الطَّيَم (٢) ، خَفِيفَةُ الصَّوْنُغ (٣) . . . خالصة  
الجوهر ، سَابِغَةُ (٤) الملابس ، مُنْهَمَةُ السَّرْدُ (٥) ، وَافِيَةُ الْوِزْنِ ، كَثْرِيَّاتُ (٦)  
النِّعَامِ فِي الصَّنْعَةِ ، مُعْلَمَةُ بَأْصِنَافِ الْحَرِيرِ وَالْوَانِ الصَّبْغِ ، فَإِنَّهُ أَهْيَبُ لِمَدْوَمِ ،  
وَأَفْتُ (٧) لِأَعْضَادٍ مِنْ لَقِيَمِ . . .

ثم وصف السيوف بقوله :

« معهم لالسيوف الهندية ، وذَكَورُ (٨) البِيضِ الْيَمَانِيَةِ ، رِقَاقُ الشُّفَرَاتِ ،  
مَسْمُومَةُ الشَّخْذِ ، مُشَطَّبَةُ الضَّرَائِبِ (٩) صَانِيَةِ الصَّفَاخِ ، لَمْ يَدْخُلْهَا وَهْنُ  
الطَّبْعِ ، وَلَا عَابَهَا أُمْتُ (١٠) الصَّوْنُغِ ، وَلَا شَانَهَا رِخْفَةُ الْوِزْنِ » .

## وصيته للكتاب

كتب عبد الحميد رسالة إلى الكتاب يوصيهم فقال (١١)  
« أما بعد ، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ،  
فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم  
أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا ، وإن كانوا في الحقيقة سواء ، وصرفهم  
في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب رزقهم ،  
فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية ،  
بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وينصائحكم يصلح الله لخلق  
سلطانهم ، وتعمر بلادهم ، لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كاف إلا منكم ، فموقعكم  
من الملوك موقع أسماءهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم

(١) ممومة : مذهبة .

(٢) الطبع : الصنع . (٣) سابغه : طوبلة تامة .

(٤) مبهمه السرد : معتمة النسيج . (٥) التريك : جمع تريكة وهي البيضة

بعد خروج الفرخ ، أو خاض بالنعام . (٦) أفنت : أشد إضعافا وتخطيا .

(٧) ذكور : جمع ذكر وهو أبيض الحديد وأجوده

(٨) فيها طرائق (٩) الأمت : الضعف والموح

(١٠) صبح الأعشى ٨٥/١ والوزراء والكتاب ٢٧٠

الى بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم .

وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحموده وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم . أيها الكتاب إذا كتبتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن الكتاب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أوره أن يكون حليما في موضع الحلم ، فهما في موضع الحكم ، مقداما في موضع الإقدام محجما في موضع الإحجام ، مؤثرا للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوما للأسرار ، وفيما عند الشدائد ، عالما بما يأتي من النوارل ، يضع الأمور مواضعها ، والطوارق أما كنها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه ، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به ، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عدته وعتاده ، ويهيء لكل وجه هيئته وعادته .

فتنافسوا يامعشر الكتاب في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وأنشدوا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا تضيعوا النظر في الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها وسفساف الأمور ومحارها ، فإنها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءات ، وارثوا بأنفسكم عن السعاية والنيمة وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم والكبر والصلف والمظمة ، فإنها عداوة مجلبة من غير إحنة ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذي هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبيل من سلفكم . وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويشوب إليه أمره ، وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقدم معرفته ، وليكن

الرجل منكم على من اصطفته واستظهر به ليوم حاجته إليه أحفظ منه على ولده وأخيه ، فإن عرضت في الشغل عمدة فلا يضيفها إلا إلى صاحبه ، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه ، وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى الفراء ، وهو لكم أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل يبدل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه ، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وصبره ونصيحته وكنان سره وتدير أمره ما هو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه .

فاستشعروا — ذاكم وفقكم الله — من أنفسكم في حالة الرخاء والشدّة والحربان والمواساة والإحسان والسراء والضراء ، فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا ولي الرجل منكم أو صير إليه من خلق الله وعباله أمر فليراقب الله عز وجل ، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفا ، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعباله ، ثم ليكن بالعدل حاكما ، وللأشراف مكرما ، وللفيء موفرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعية تالفا ، وعن إبدائهم متخلفا ، وليكن في مجلسه متواضعا حلما ، وفي سجلات خراجة واستقضاء حقوقه رفيقا . وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلأته ، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوفقه من الحسن ، واحتال لصرفه عما يهواه من القبح بالطف حيلة وأجل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحا لم يهيجها إذا ركبها ، وإن كانت شبوبا اتقاها من قبل يديها ، وإن خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرونا قمع برفق هواها في طريقها ، فإن استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخاهم .

والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعته واطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس وينظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم

أوده من سائس البهيمية التي لا تحير جوابا ، ولا تعرف صوابا ، ولا تفهم خطابا ،  
إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها .

ألا فأمعنوا رحمكم الله في النظر ، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والتفكير  
تأمنوا بإذن الله ممن صحبتهم النبوة والاستئصال والجفوة ، ويصير منكم إلى الموافقة  
وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله تعالى .

ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه  
وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه ، فإنكم مع ما فضلكم الله به  
من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير ، وحفظة لا تحمل  
منكم أفعال التضييع والتبذير ، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته  
لكم وقصصته عليكم ، واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما  
يعقبان الفقر ، ويذلان الرقاب ، ويفضحان أهلها ، ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب  
وللأمر أشباه وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم بما سبقت  
إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضاعها محجة وأصدقها حجة  
وأحمدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله  
ورؤيته ، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته ، وليوجز في ابتدائه  
وجوابه ، وليأخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن  
إكثاره ، وليضرع إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده عناية وقوعه في الغلط  
المضر يبدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل إن الذي برز من  
جميل صنعه وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره ، فقد تعرض بظنه  
أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كاف ، وذلك  
على من تأمله غير خاف .

ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته  
ومصاحبه في خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الأبواب من رمى بالعجب وراء  
ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقل منه وأحمد في طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين



أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا تكأثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيرته ، وحمد الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزته والتحدث بنعمته .

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل ( من يلزم النصيحة يلزم العمل ) وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل ، فلذلك جعلته آخره ونعمت به .

تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتاب بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه ويده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

### في هذه الرسالة عدة أمور :

١ — يشيد عبد الحميد بصناعة الكتابة ومكانة الكتاب ، ويذكر فضلهم في صلاح الخلافة ، وتسديد الملوك ، وتوجيه الحكام .

٢ — ويذودهم بنصائح خلقية يجب أن يتحلوا بها ، من حلم وتبصر ومرونة وعفة وعدل وكتان للسر ووفاء .

٣ — ثم يوجههم إلى الاستزادة من الثقافة ، والنظر في كل فن من فنون المعرفة ، ويخص بالذكر صنوف الأدب — يريد الشعر والنثر واللغة والتاريخ وعلوم الدين ، وأهمها القرآن وتفسيره والميراث . ثم ينصحهم بتجويد الخط ، ويعود إلى تفصيل القول في الأدب ، فيوصيهم بحفظ الأشعار ومعرفة غريبها ومعانيها ، والإلمام بأيام العرب والعجم وسيرهم وأخبارهم ، ويوصيهم بمعرفة الحساب ، لأنه أساس في كتابة الخراج .

٤ — ثم يعود إلى الوصايا الأخلاقية ، فينصحهم بالترفع عن المطامع وعن الصغار ، وبالبعد عن السعاية والنيمة ، والتجرد من الكبر ، ويوصيهم بالتحاب والتعاون والتضامن ، بحيث إذا احتاج واحد منهم إلى مساعدة من جاهد ساعدوه ، وإن أقدمه الكبر بر عن الكسب والعمل زاروه وعظموه واستشاروه .



ويكرر وصاتهم بالوفاء لمن اسطنعوهم ، في أحوال الشدة والرخاء .

ويحضهم على العدل ومراقبة الله عز وجل ، والرفق بالضعفاء ، والإنصاف للمظلومين ، وأن ينزلوا الناس منازلهم ، وأن يراعوا إنفاق مال الدولة فيما يجلب النفع لها ، وأن يكونوا هداة من اسطنعوهم ، فإن رأوهم على حق أعانوهم ، وإن رأوهم على باطل احتملوا لصرفهم عن باطلهم بألف حيلة ، وضرب لهم المثل من سياسة الرجل للهيمة وتحاييله على ترويضها .

ثم ينبههم على أن يكون مظهرهم ملائماً لحالهم ، فلا يتجاوز أحدهم في ملبسه ومسكنه ومطعمه ومظهره العام ما يناسب قدره ، وهو يريد بهذا التوجيه أن يحذرهم الرشوة وانتهاز الفرص والاستيلاء على مال الدولة ، بدليل قوله « فإنكم خدمة لا تحملون على التقصير ، وحفظة لا تحمل منكم أفعال النضييع والتبذير » . ويعقب على هذا بتحذيرهم الترف والسرف .

ثم ينصحهم بالإخلاص لعمالهم ، والاستعانة بالله في توفيقهم وتسديدهم ، وبالتواضع لللائق بمكانتهم ، وعدم الغرور . وينبههم على الاعتراف بالإحسان لمن يساعدهم من الكتاب إذا أحسنوا ، وألا يحملهم الغرور أو الأثرة على إنكار فضل هؤلاء أو التعالي عليهم .

٥ — نلاحظ أن عبد الحميد حرص على تزويد الكتاب بعدة نصائح وتوجيهات تتصل بمهنتهم ، من ثقافية وخلقية ، وأنه وجههم إلى أن يتكافلوا ويتعاونوا ، فيرعى كبيرهم صغيرهم ، ويشجع من علاقده الشادين والناشئين ، ويعرف القادرون منهم على العمل والكسب أقدار الدين أقعدتهم السن . وفي هذا التوجيه خير عظيم للأدباء ، سبق به عبد الحميد عصره ، ولكن لم يحققه الأدباء إلى اليوم .

٦ — ونلاحظ أن أفكار الرسالة في حاجة إلى ترتيب أكثر ، ولعلها كانت على وضع غير هذا فقد نصح الكتاب بنصائح خلقية ، ثم ثقافية ، ثم عاد إلى بسط القول في النصائح الخلقية ، وكذلك فعل في التوجيه الثقافي إذ نبههم على العناية بالأدب ، ثم انتقل إلى العناية بالدين ، ثم عاد إلى الأدب .

## الخاتمة

أما بعد

فما للعالم البارزة في هذه الدراسة ؟

وما النتائج التي هدت إليها ؟

— ١ —

قامت في العصر الأموي أحزاب سياسية ، لكل منها أسسه التي بنى عليها دعوته ، ولكل منها وسائله في تحقيق أغراضه ، وآماله ، ولكل منها غايته وأهدافه ، ولكل منها أنصاره وأتباعه ودعائه ، فهي إذاً مكتملة المقومات الضرورية للحزب السياسي .

وهذه الأحزاب نشأت عربية إسلامية ، قبل أن يتصل العرب بغيرهم من الأمم الغالبة بأواصر شتى تكفل الامتزاج والتأثر والمحاكاة ، ثم تأثرت الشيعة وحدها بمؤثرات أجنبية أهمها فارسي .

ومن الطبيعي أن كانت هذه الأحزاب — من أمويين وشيعسة وخوارج وزبيريين — مصبوغة بصبغ سياسي خالص خال من المناهج الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية ، لأن أحوال العصر والمجتمع هي التي أملت عليها ذلك .

على أنها كانت تمزج السياسة بالدين ، لأن محورها الذي تدور حوله هو الخلافة ، وهي منصب سياسي ديني ، ولأن نظام الحكم نفسه كان قائماً على الدين ، يعتمد عليه ، ويستمد منه أحكامه وسلطاناه .

وكانت في العصر فرق دينية — جبرية ومرجئة ومعتزلة وأصحاب سنة أو جماعة —

منهجها ديني ، أو فكري متصل بالدين ، لكنها لم تكن بعيدة عن السياسة كل البعد ، ولم تكن قريبة إليها كل القرب .

وقد نشأت هذه الفرق عربية إسلامية ، ثم تأثرت بعدد بعوامل أجنبية شتى .

— ٢ —

تبين أن الشعر السياسي كانت له بذور في العصر الجاهلي ، وكان له نبت في صدر الإسلام ، لكنه لم يستقم أشجاراً قوية باسمه متميزة إلا في العصر الأموي .

فهر إذاً فن جديد وُلد في العصر ، ونشأ فيه وترعرع .

— ٣ —

واتضح أن الكتابة الفنية عرفت في العصر الأموي قبل عبد الحميد بن يحيى ، وقبل ابن المقفع ، فهي عربية النشأة ، وليست فارسية ولا يونانية ، لأن الموازنة بين ما كتبه العرب قبل عبد الحميد وابن المقفع ، وبين ما كتبه عبد الحميد وابن المقفع ، تكشف عن أصالة اثر الفن عند العرب ، ونحولنا أن نحكم بأن هذا النثر قد تقبل بعد ذلك أنواعاً من التأثير الفارسي واليوناني في العصر العباسي ، فتطور على أقلام الكتاب .

— ٤ —

كذلك التوقيعات نظام عربي أصيل ، عرفها العرب منذ عهد عمر بن الخطاب ، ثم توسعوا فيها في العصر الأموي ، وفي العصر العباسي ، فليست نوعاً من النثر نقله العرب عن الفرس ، أو حاكوه فيه .

— ٥ —

وفي العصر الأموي نشأ الأدب الشعبي ونما ، لا في العصر العباسي ، وكان  
( م ٢٧ — الأدب السياسي )

ممثلاً في مظهرين: زراية من العرب بالفرس وغيرهم ، وردّ من الفرس على العرب ،  
لكنه ردّ مقصور على دعوى المساواة ، والفخر بما ضيهم الجيد ، لأنهم لم يستطيعوا  
الجهر بتحقير العرب ودعوى التفوق عليهم إلا في العصر العباسي .

— ٦ —

كان الأدب السياسي — من شعر وخطابة وحوار ورسائل — مسائراً للحياة  
السياسية ، مصوراً لما بين الأحزاب من صراع على الحكم ، ومعبراً عن مشاعر  
الشعب .

وكان يتذرع بالدين ، ويتكىء عليه ، فنجد الأحزاب يُكفّر بعضها بعضاً ،  
ونجد كل حزب يزعم أنه وحده على الهدى ، وأنه وحده نصير الدين ، ونقرأ  
في أدب كل حزب أنه يرجو من الله التأييد والرعاية والنصر على أعداء الدين .

ولا شك أن مسابقة الأدب للحياة دليل على أنه حيٌّ مرِنٌ قابل للتطور  
ومجاراة الزمن ، يركض مع أهله إذا ركضوا ، ويركد معهم إذا ركدوا .

— ٧ —

ولقد تجلّى الأدب السياسي في عدة مظاهر : شعر وخطابة وحوار ورسائل ،  
لأنها كانت ألوان الأدب في ذلك العصر .

لكنه كان في الشعر والخطابة أكثر تجلّياً ، لأنهما وسيلة التأثير  
في الجماهير ، ووسيلة استمالتها إلى الرأي والمذهب ، وتنفيذها من الخصم .  
أما الرسائل والمحاورات فإنها كانت بين فرد وفرد ، ولما كانت متصلة بالجمهور  
أو مؤثرة فيه .

— ٨ —

وطبيعي ألا يكون هذا الأدب السياسي متحد الفرض ، مُوحّد الوجهة ، بل

الطبيعى أن تختلف مصالحه وأهدافه باختلاف الأحزاب التى عبّر عنها .

على أنه قد تناول مايراد منه : من تأييد للحزب ، ودعاية له ، وتدليل على أنه الجدير بالحكم ، ومن حملات على خصومه ، وتنديد بهم ، وتشهير بمظالمهم وسوء حكمهم ، واتهامهم بالزيف والضلال والكفر ، ومن تحميس على الثورة عليهم ، وتأميل فى الفوز والثواب ، ومن استمالة للشعب ، وتحذير من الفتنة ، ووعد للثوار ، ومن فرح بالانتصار ، وترج من الانكسار ، ورثاء للقتلى ، وتمجيد للأبطال .

— ٩ —

كان الأدب السياسى جديدا فى موضوعه ، وكان فيه تجديد فى طريقته وصياغته وفنيته وممانيه .

يتجلى ذلك فى خصائصه التى فصلت فيها القول ، ولست أستطيع أن أعيد فى الخاتمة ما قدّمت فى الدراسة ، وأعتقد أن إيجاز هذه الخصائص فى الشعر والخطابة والكتابة يحتاج إلى صفحات ، وأرى أن الاكتفاء بالإشارة الخاطفة يفقدها قيمتها ، فلتراجع فى مواضعها .

وقد استرعى نظرى أن الشعر مصطبغ بألوان الأحزاب التى ابتعثته ، مختلف بعض الاختلاف ، فدرست خواص الشعر الحزبى منفصلة ، ووازنت بين شعر الأحزاب كلها . أما الخطابة والحوار والرسائل فلم يتضح فيها مثل هذا الاختلاف ، فدرست خواص كل منها جملة .

— ١٠ —

على أن الأدب السياسى تلون بالحياة الإسلامية ، إذ تأثر بالقرآن الكريم والحديث الشريف والثقافة الإسلامية العامة والمذاهب الدينية القائمة .

وظهر تأثره فى أفكاره وصياغته واستدلّاله ، وفى الفضائل التى أشاد بها

الأدباء في مدح زعمائهم ، ووصف قاداتهم ، والترويج لهم ، وفي الرذائل التي وصموا بها خصومهم . ففيه إشادة بالعدل والمساواة والتواضع والتقوى ، ومنع الرشا والضرب على أيدي المفسدين والعاهشين والشُّرَّاق ، والحرص على طمأنينة الشعب ورفاهيته ، والاقتداء في الحكم بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وفيه تنديد وتشهير بالظلم والاستغلال والفجور والاستهتار بالذات وإهمال حقوق الشعب .

وقد جَلَّوتُ هذا كله في الدراسة ، معتمداً على النصوص التي استنبطت منها خصائص الشعر والخطابة والكتابة .

وبينت أن الأدباء اعتمدوا على الدين في تأييد مذاهبهم ، كما اعتمد رجال السياسة أنفسهم .

فالأُمويون ورثة عثمان بن عفان ، ومن قريش ، والشيعة ورثة علي ، وآل البيت ومن قريش ، والخوارج دعاة الانتخاب الحر ، وعداة الحكم الموروث ، والزيريون أ كفاً قريش وأولاهها بالحكم بعد مقتل الحسين .

وما من شك في أن هذا كله صدق للإسلام ، ودليل على ما جد في الأدب من تطور .

على أن هذا التجديد الذي طرأ على الأدب السياسي ، ولازمه منذ نشأته ، لم ينسخ ما كان منذ الجاهلية من إشادة ببعض الفضائل كالكرم والشجاعة والحسب ، وتعيير بعض الرذائل كالبلخل والجبن وحقارة النسب ، ولم ينسخ ما تعارف عليه الشعراء من تمهيد بالغزل ووقوف على الأطَّال ، ومن تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة ، فقد بقي هذا في الشعر السياسي ما عدا شعراً كثر الخوارج وبعض الشيعة ، وما زال غالباً على الشعر العربي كله إلى عهد قريب .

حتى الغزل الكيدي الذي اشتهر به ابن قيس الرقيات ، يرجع إلى أصل جاهلي ، فلم يخترعه ابن قيس اختراعاً ، وإن كان قد جدد فيه .



نستطيع من دراسة العوامل الفعالة في نهضة الشعر والخطابة والكتابة أن نستخلص نتيجتين :

### أولهما :

أن في العصر الأموي تيارات ثقافية عدة : دينية عمادها القرآن الكريم وتفسيره ، والحديث الشريف ، والتشريع ، وأصول علم الكلام ، وعربية أدبية أساسها اللغة والشعر والأخبار والأنساب والتاريخ ، ودخيلة فيها طب وكيمياء وجدل .

وقد ألفت كتب في هذه الثقافات ، وترجمت كتب في العصر الأموي نفسه ، وهذا يقتضينا أن نعيد النظر في تجاهل الحركة الثقافية في العصر الأموي ، ونسبة كل شيء إلى العصر العباسي ، فينبغي أن نوقن بأن النهضة العلمية في العصر العباسي لم تكن ثمرة لجهود العباسيين وحدهم ، واتصالهم بالعلوم اليونانية والأدب الفارسي والهندي فحسب ، بل نوقن أنها راجعة إلى هذا ، وأنها امتداد لرقى عقلي ، وتطور فكري ، منذ عهد بني أمية .

ودليلنا على ذلك هذه الألوان الثقافية التي كانت في العصر الأموي بالشرق ، وتلك الألوان الثقافية التي كانت في العصر الأموي بالأندلس ، قبل الاتصال بفلسفة اليونان وآداب الفرس والهند .

### ثانيتهما :

أن لنهضة الأدب السياسي أسبابا وبواعث ، بينها في مواضعها . لكن ليس من الحق أن يقال إن رعاية الدولة للأدب كانت أهم هذه البواعث ، فقد رعت الدولة الأدباء الموالين لها ، وشجعتهم ، فجعلوا يعجّدون حكاياها ، وينشرون بالمدح عاوة لها ، ويردون على خصومها .

غير أن هناك أدباء لم تقربهم الدولة ، ولم تغدق عليهم ، بل إنها كانت تطاردهم ، وتهدر دماءهم ، لأنهم من خصومها ، وكثيرا ما كان أدب هؤلاء أصدق عاطفة ، وأعلى حرارة ، وأعظم تأثيراً في النفوس ، من الأدب الحكومى الذى يوالى الدولة وتواليه الدولة ، وإذا فقد نهض الأدب مواليا للحكومة أو معادياً لها لأسباب شتى ، ليست رعاية الدولة أهمها .

ولقد يكون أعظم هذه البواعث شعور الأدباء بأنهم أحرار فيما يعتقدون من مذاهب سياسية ، وبأنهم طلقاء في موالاتهم لهذا الحزب أو ذاك ، غير مقيدين في تعبيرهم عما يحتاج في نفوسهم من عواطف ومشاعر وأهواء .

## - ١٢ -

تظهر في الشعر السياسى ألوان الحزبية أوضح من الألوان الفردية الشخصية ، لأن الشاعر المنتمى إلى حزب يجد في تأييد هذا الحزب ونصرته قوة له ونصرة ، فيتحدث عن حزبه أكثر من حديثه عن نفسه ، وكثيرا ما تتوارى شخصية الشاعر وراء جزييته ، فلا يظهر من معالم شخصيته إلا طريقته في الأداء ، وخصائصه الفنية .

## - ١٣ -

الطابع العام للشعر السياسى وللخطابة السياسية السهولة والوضوح في المفردات والعبارات والخيال ؛ لأن الأدب السياسى الصريف مقصود به التأثير وتيسير الذبوع والتنقل والفهم ، ليحدث أثره في العامة والخاصة ، بغير اضطراب إلى إجهادهم في التفهم والتفكير .

وقد تنقل الأدب السياسى في الأعصار ، موسوما بالسهولة والوضوح إلى العصر الحديث ، وإلى هذا الوقت الذى نحيا فيه .

## المراجع

- ١ — الأحكام السلطانية . الماوردي . مطبعة الوطن بمصر ١٢٩٨ هـ
- ٢ — أخبار الرسل والملوك . الطبري . المطبعة الحسينية بمصر
- ٣ — الأخبار الطوال . الدينوري . مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٠ هـ
- ٤ — أخبار مكة . الأزرق . طبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ وطبعة المدرسة المحروسة بمدينة غنتة ١٢٧٥ هـ
- ٥ — أصل الشريعة وأصولها . الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء
- ٦ — الأصنام . ابن الكلبي . مطبعة دار الكتب بمصر
- ٧ — الأعلام النفيسة . ابن رسته . مطبعة بريل بليدن ١٨٩١ م
- ٨ — أعيان الشيعة . السيد محسن الأمين الحسيني العاملي . مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٣٥٤ — ١٩٣٥
- ٩ — الأغاني . الأصفهاني . مطبعة دار الكتب وطبعة ماسي
- ١٠ — أقدم تدوين في الحديث النبوي ( صحيفة هام بن منبه ) للدكتور محمد حميد الله . دمشق ١٢٧٢ — ١٩٥٣
- ١١ — الأمالي . القالي . مطبعة دار الكتب
- ١٢ — أمثال العرب ، المفضل الضبي ، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .
- ١٣ — الأنساب . السمعاني . ليدن ١٩١٢ م
- ١٤ — أنساب الأشراف — البلاذري ( مخطوط )
- ٥ — البداية والنهاية في التاريخ . ابن كثير
- ١٦ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
- ١٧ — تاج العروس . الزبيدي
- ١٨ — تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩

- ١٩ — تاريخ الخلفاء ، السيوطي مطبعة السعادة بمصر ١٣٧١ - ١٩٥٢
  - ٢٠ — تاريخ الشعر السياسي . الأستاذ أحمد الشايب
  - ٢١ — تاريخ الشعوب الإسلامية . بروكلمان .
  - ٢٢ — تاريخ العرب ، فيليب حتى ، ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع . مطبعة دار العالم العربي بالقاهرة .
  - ٢٣ — التاريخ الكبير ، ابن عساكر ، مطبعة روضة الشام ١٣٢٩
  - ٢٤ — تاريخ يعقوبي . أحمد بن يعقوب ، نشره هوتسما
- M. Th. Hautsma.
- ٢٥ — التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية . ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي :  
مكتبة النهضة ١٩٢٦
  - ٢٦ — تهذيب الكامل للمبرد . الأستاذ السباعي يومي
  - ٢٧ — جمهرة أشعار العرب للقرشي . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ - ١٩٢٦
  - ٢٨ — جمهرة خطب العرب . الأستاذ أحمد زكي صفوت . مطبعة الحلبي
  - ٢٩ — جمهرة رسائل العرب   »   »   »   »   »   »
  - ٣٠ — حديث الأربعاء . الدكتور طه حسين . مطبعة المعارف بمصر
  - ٣١ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالموثرات الأجنبية ، فون كريم ، ترجمة  
الدكتور مصطفى بدر ، دار الفكر العربي ١٩٤٧
  - ٣٢ — حلية الكمي . النواجي
  - ٣٣ — الحياة العربية من الشعر الجاهلي . الدكتور أحمد محمد الحوفي
  - ٣٤ — خزائن الأدب . البغدادي
  - ٣٥ — خطط الكوفة . ماسينيون . ترجمة المصعبي . مطبعة المعارف بصيدا
  - ٣٦ — الحوارج والشيعة . يوليوس فلهوزن . ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي .
  - ٣٧ — ديوان ابن قيس الرقيات . طبعة فينا .

- ٣٨ — ديون الأخطل . تحقيق الأب أنطون صالحاني .
- ٣٩ — ديوان جرير . مطبعة الصاوى .
- ٤٠ — ديوان الحماسة . أبو تمام . شرح التبريزى . المطبعة الأميرية ١٢٩٦ هـ .
- ٤١ — ديوان الطرماح . تحقيق كرنكو .
- ٤٢ — ديوان الفرزدق . مطبعة الصاوى .
- ٤٣ — ديوان كثير . طبعة الجزائر .
- ٤٤ — رسائل الجاحظ . طبعة الساسى .
- ٤٥ — الرد على الجهمية الزنادقة . الإمام أحمد بن حنبل .
- ٤٦ — شرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون . ابن نباتة . مطبعة الحلبي ١٣٧٧ - ١٩٥٧ .
- ٤٧ — الشافى . الشريف الرضى .
- ٤٨ — شرح المقامات . الشريشى . طبعة القاهرة .
- ٤٩ — الشعر والشعراء . ابن قتيبة . ليدن والقاهرة .
- ٥٠ — صحيح مسلم بشرح النووى . المطبعة المصرية بالقاهرة .
- ٥١ — العقد الفريد . ابن عبد ربه . تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٩ - ١٩٤٠ .
- ٥٢ — العقيدة والشريعة فى الإسلام . جولد تسهر .
- ٥٣ — عيون الأخبار . ابن قتيبة . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .
- ٥٤ — الغزل فى العصر الجاهلى . الدكتور أحمد محمد الحوفى .
- ٥٥ — فتوح البلدان . البلاذرى .
- ٥٦ — فجر الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . الطبعة السادسة .
- ٥٧ — الفرق بين الفرق . البغدادى .
- ٥٨ — الفصل فى الملل والنحل . ابن حزم .

- ٥٩ — فن الخطابة . الدكتور أحمد محمد الحوفى .
- ٦٠ — الفهرست . ابن النديم . ليبزج ١٨٥٩ ومطبعة الاستقامة بالقاهرة .
- ٦١ — القاموس المحيط . الفيروزابادى .
- ٦٢ — السكامل . المبرد . تحقيق الأستاذين محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته  
مطبعة نهضة مصر
- ٦٣ — السكامل فى التاريخ . ابن الأثير .
- ٦٤ لسان العرب . ابن منظور .
- ٦٥ — المختصر فى أخبار البشر . أبو الفدا . المطبعة الحسينية بمصر .
- ٦٦ — المرأة فى الشعر الجاهلى . الدكتور أحمد الحوفى .
- ٦٧ — مروج الذهب . المسعودى . المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ .
- ٦٨ — مصر والسودان . الدكتور محمد فؤاد شكرى .
- ٦٩ — المعارف . ابن قتيبة .
- ٧٠ — معجم البلدان . ياقوت .
- ٧١ — مقدمة ابن خلدون . تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافي . مطبعة  
البيان العربى بمصر ١٣٧٦ — ١٩٥٧ .
- ٧٢ — الملل والنحل الشهرستانى . تحقيق الأستاذ محمد فتح الله بدران  
مطبعة نخيمر بالقاهرة .
- ٧٣ — من حديث الشعر والنثر . الدكتور طه حسين .
- ٧٤ — المنتقى فى أخبار أم القرى . الفاكهى . ليبزج ١٨٥٩ .
- ٧٥ — المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل : أحمد بن يحيى المرتضى .
- ٧٦ الموشح . المرزبانى . المطبعة السلفية بالقاهرة .



٧٧ — النثر الفنى فى القرن الرابع . الدكتور زكى مبارك .

٧٨ — نشوار المحاضرة . التتوخى .

٧٩ — نقد العلم والعلماء . ابن الجوزى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٠ هـ

٨٠ — هاشميات الكميٲ . الكميٲ .

٨١ — وفيات الأعيان . ابن خلكان . تحقيق الأستاذ محمد محي الدين .

عبد الحميد . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٨ .

٨٢ — الولاة والقضاء . الكندى .



## الفهرس

٥ - ٢

المقدمة

١٠ - ٦

تمهيد

الباب الأول

## الاحزاب السياسية

صفحة

١١

عوامل نشأتها

٢٨ - ١٤

الفصل الأول

## الامويون

١٤

نشأة الحزب . دعواه الأولوية بالخلافة

١٩

قيام الدولة

٢٠

توريث الملك

٢٤

طابع سياستهم

٨٣ - ٢٩

الفصل الثاني

## الشيعة

٢٩

نشأة الحزب

٣٤

بواعث إقبال العراق والكوفة بخاصة على التشيع

صفحة

٣٨	أهم ثوراتهم وأحداثهم
٤٥	أشهر فرقهم
٤٨	١ — الكيسانية
٤٨	من المختار زعيمهم
٥٣	دعائم مذهبهم
٥٦	بين آرائهم وآراء ابن سبأ
٥٨	٢ — الزيدية
٥٨	دعائم مذهبهم
٦٢	٣ — الرافضة
٦٣	دعائم مذهبهم
٦٤	مذهب الشيعة السياسي
٧٠	المهدية
٧٠	نشأتها وتنقلها وتطورها
٧٥	الغاية منها
٧٦	نتائجها
٧٧	رأى فيها

١٢٢—٨٤

الفصل الثالث

الخوارج

٨٤	نشأة الحزب
٨٧	عروبه في أول الأمر
٨٨	عداوتهم للإمام علي ولعاوية
٩٠	ثوراتهم وحروبهم في العصر الأموي
٩٥	أشهر فرقهم

صفحة

٩٥	١ - الأزارقة .
٩٦	دعائم مذهبهم
٩٨	٢ - النجدات .
٩٩	دعائم مذهبهم ..
١٠٠	٣ - الإباضية ..
١٠٠	دعائم مذهبهم ..
١٠٢	٤ - الصفرية ..
١٠٣	دعائم مذهبهم ..
١٠٤	مذهب الخوارج السياسي ..
١٠٥	مذهبهم الديني ..
١٠٦	أخلاقهم ..

١٢٢--١١٥

الفصل الرابع

الزيريون

١١٥	نشأة الحزب ..
١١٦	أدله على أولويته بالخلافة ..
١١٧	جهر عبد الله بن الزبير بالدعوة لنفسه ..
١٢٠	انتشار البيعة له ..
١٢١	مصرعه ..
١٢١	عوامل إخفاقه ..

١٢٣ - ١٣١

## الفصل الخامس

### المرجئة

١٢٣	..	..	..	..	..	..	نشأتهم
١٢٤	..	..	..	..	..	..	سبب تسميتهم
١٢٥	..	..	..	..	..	..	رأيهم في الإمامة والإمام
١٢٥	..	..	..	..	..	..	غلبة الحيدة عليهم
١٢٧	..	..	..	..	..	..	مشاركة بعضهم في السياسة
١٢٨	..	..	..	..	..	..	بعض آرائهم الدينية
١٢٩	..	..	..	..	..	..	تأثرهم بآراء مسيحية وإغريقية
١٣٠	..	..	..	..	..	..	طرف من تأثيرهم في الأدب

١٣٢ - ١٤٥

## الفصل السادس

### المعتزلة

١٣٢	..	..	..	..	..	..	نشأتهم
١٣٣	..	..	..	..	..	..	تأثرهم بالمرجئة وبالفلسفة اليونانية وغيرها
١٣٥	..	..	..	..	..	..	سبب تسميتهم بالمعتزلة
١٣٩	..	..	..	..	..	..	الأسماء التي أطلقوها على أنفسهم
١٤٠	..	..	..	..	..	..	دعائم مذهبهم
١٤١	..	..	..	..	..	..	صلتهم بالسياسة
١٤٥	..	..	..	..	..	..	إشارة إلى آثارهم في الفكر والأدب





صفحة

١٩٤	..	..	..	..	..	..	الاحتجاج للشيعة
١٩٧	..	..	..	..	..	..	الحملة على خصومهم
٢٠٦	..	..	..	..	..	..	رجعة الإمام
							خواص شعرهم :
٢١١	...	...	...	...	...	...	السياسة الدينية
٢١٤	...	...	...	...	...	...	غلبة السياسة على شعرهم
٢١٧	...	...	...	...	...	...	حرارة العاطفة
٢١٨	...	...	...	...	...	...	تفاوت الأساليب مجازاة للبواعث
٢١٩	...	...	...	...	...	...	بين شعرهم وشعر الأمويين

٢٢٠ — ٢٤١

### الفصل الثالث

## شعر الخوارج

نماذج منه :

٢٢٠	...	...	...	...	...	...	شجاعتهم وتقواهم
٢٢٣	...	...	...	...	...	...	الحض على الثورة
٢٢٦	...	...	...	...	...	...	رثاء القتلى
٢٢٨	...	...	...	...	...	...	تكفير مخالفهم
٢٢٨	...	...	...	...	...	...	الأم من الفرقة

خواص شعرهم :

٢٢٩	...	...	...	...	...	...	السياسة الدينية
٢٣٠	...	...	...	...	...	...	جزالة الأسلوب وقوته
٢٣٢	...	...	...	...	...	...	حرارة العاطفة وصدقها
٢٣٤	...	...	...	...	...	...	خلوه من العصبية
٢٣٦	...	...	...	...	...	...	وحدة الموضوع
٢٣٦	...	...	...	...	...	...	تشابه شعرهم



صفحة

٢٧٦	ازدهار الثقافة الدينية
٢٧٩	التعريض على التهاجى
٢٨١	الحرية

### الباب الثالث

### الخطابة

٢٨٥	الفصل الأول — خطب أموية
٣٠٩	الفصل الثانى — خطب شيعية
٣١٩	الفصل الثالث — خطب الخوارج
٣٣١	الفصل الرابع — خطب الزبيريين

٣٣٨ — ٣٦٢

### الفصل الخامس

### خصائص الخطابة

٣٣٨	الإعداد
٣٤٠	الافتتاح
٣٤١	الأجزاء
٣٤٣	العنف والتهديد
٣٤٦	التخييل والتصوير
٣٥٠	التعبير
٣٥٣	الاقتباس من القرآن الكريم
٣٥٧	استمداد المعانى منه
٣٦٠	الاستشهاد بالشعر

صفحة

٣٦١ .. .. . القياس

٣٦٧ — ٣٦٣ الفصل السادس

## بواعث ازدهارها

٣٦٣	..	..	..	..	..	..	الأحزاب السياسية
٣٦٣	..	..	..	..	..	..	الحرية
٣٦٥	..	..	..	..	..	..	الحروب والثورات
٣٦٥	..	..	..	..	..	..	فصاحة العرب
٣٦٦	..	..	..	..	..	..	تقدير الخطباء
٣٦٦	..	..	..	..	..	..	أسباب أخرى

٣٨٦ — ٣٦٨ الفصل السابع

## الحوار

٣٦٨	..	..	..	..	..	..	نماذج منه
٣٨٤	..	..	..	..	..	..	حقيقته
٣٨٤	..	..	..	..	..	..	عديته
٣٨٤	..	..	..	..	..	..	بعضه موضوع
٣٨٦ — ٣٨٥	...	...	...	...	...	...	خصائصه :

الإيجاز . قلب الحجة ، التعريض . حسن التخلص ، الرد بالمثل وبالتخييل ،  
القلب الفسكا هي .

## الباب الرابع الكتابة

٣٨٧ . . . . . الفصل الأول — رسائل أموية

صفحة

٣٩٨	الفصل الثاني -- رسائل شيعية
٤٠٣	الفصل الثالث -- رسائل خارجية
٤٠٩	الفصل الرابع -- رسائل زبيرية

٤١٤ -- ٤٣٢	الفصل الخامس
------------	--------------

## خواص الكتابة

٤١٥	التجويد
٤١٦	اختصاص كتاب بها
٤١٦	غلبة الإيحاء
٤١٧	كلمة عن التوقيعات، ونشأتها العربية، والرد على أن العرب نقلوها من الفرس
٤٢٠	في بعض الرسائل طول
٤٢١	الاقتباس من القرآن الكريم
٤٢٢	التأثر بالشعر، ورسائل كلها شعر، ورسائل مذيلة بالشعر، معان شعرية
٤٢٦	التهديد
٤٢٦	المحاجة
٤٢٧	فصر الجمل وتوازنها
٤٢٨	الخيال
٤٢٩	الإحالة إلى أحداث وأشعار
٤٣١	سجع غير مستكره
٤٣٢	اسم المرسل والمرسل إليه

٤٣٣ -- ٤٤٤	الفصل السادس
------------	--------------

## عوامل ازدهارها

٤٣٣	صيرورتها صناعة
-----	----------------





صفحة

٤٦٥	التهاجى . . . . .
٤٦٨	ازدهار الشعر السياسى . . . . .
٤٦٩	تسجيل الشعر للوقائع الجديدة . . . . .
٤٧٠	آثار عامة فى اللغة والأدب . . . . .
٤٧١	دالة بعض الشعراء على الدولة . . . . .
٤٧٤	عودة إلى النعرة الجاهلية . . . . .

٤٩١ — ٤٧٥

الفصل الثانى

العصبية الجنسية أو الشعوبية

٤٧١	كثرة الموالى . . . . .
٤٧٦	بواعث حنقهم . . . . .
٤٧٦	حنقهم على العرب عامة . . . . .
٤٧٨	حنقهم على بنى أمية خاصة .. ..
٤٨٢	مظهر العصبية الجنسية .. ..
٤٨٣	نتائجها الشعرية : تحقير العرب للموالى .. ..
٤٨٥	دفاع الموالى عن أنفسهم .. ..
٤٨٨	مناصرة بعض الموالى للأحزاب .. ..
٤٨٩	جراحة الموالى فى العصر العباسى .. ..

الباب السادس

تراجم موجزة

٥٠٠ — ٤٩٢

الأطفال

٤٩٣	معالم حياته .. ..
٤٩٣	صلته ببنى أمية .. ..



صفحة

٥٥٨ — ٥٤٥

### الحجاج

٥٤٥	.	.	.	.	.	.	.	.	.	معالم حياته
٥٤٩	.	.	.	.	.	.	.	.	.	صلاته بالحكم
٥٥١	.	.	.	.	.	.	.	.	.	طرف من أخلاقه
٥٥٤	.	.	.	.	.	.	.	.	.	خصائص خطابه

٥٧٥ — ٥٥٩

### عبد الحميد بن يحيى

٥٥٩	.	.	.	.	.	.	.	.	.	معالم حياته
٥٦٠	.	.	.	.	.	.	.	.	.	ثقافته
٥٦١	.	.	.	.	.	.	.	.	.	خواص كتابته
٥٧٠	.	.	.	.	.	.	.	.	.	وصيته للكتاب

٥٨٢ — ٥٧٦

### الخاتمة

٥٨٧ — ٥٨٣

### المراجع

## كتب للمؤلف

### ١ — وحى النسيب في شعر شوقي

دراسة لغزل شوقي من حيث بواعثه وخصائصه .

### ٢ — وطنية شوقي

دراسة منصفة للوطنية في شعر شوقي ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقي ، وموازناات بينه وبين غيره من شعراء العصر الحديث ، وتوضيح لموقفه من الخلافة العثمانية وأنه لا يتعارض مع وطنيته

### ٣ — الإسلام في شعر شوقي

دراسة لتدين شوقي ومظاهره في شعره ، من إيمان بالله ، ومدائح للنبي ، وإشادة بخصائص الإسلام ، ودفاع عنه ، ودراسة لنزعتة الإسلامية في تأييد الخلافة التي كانت قائمة ، ودراسة فنية لهذا الشعر الديني .

### ٤ — الفكاهة في الأدب

يتناول الفكاهة العربية وأصولها ، وتقسيمها إلى أنواع طبقا للبواعث النفسية ، ويعرض في تفصيل لدلالات الفكاهة الاجتماعية والسياسية واللغوية .

### ٥ — البطولة والأبطال

يعرض للبطولة وأسسها وأنواعها ، ولصور من أبطال العرب في الجاهلية والإسلام ، ولنماذج من أبطال مصر الحديثه مع التحليل .

### ٦ — أبو حيان التوحيدي

دراسة لعصره السياسي والعلمي والأدبي ، وعرض لحياته وثقافته وصلاته بوزراء عصره ، وتحليل لشخصيته ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازناات بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ :

## ٧ — سماحة الإسلام

تحليل منصف لمسامحة الإسلام في نواح شتى من تشريعه ، ومن معاملته لمخالفيه ، معتمد على النصوص والتشريع والتطبيق ، مع موازنات بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع والقوانين .

## ٨ — أدب السياسة في العصر الأموي

يتناول الأحزاب السياسية ونشأتها ومذاهبها ، ويعرض نماذج من أدبها شعرا وخطابة وحوارا وكتابة ، مع تحليل لهذا الأدب ودراسة لخصائصه ، وموازنات بين بعضه وبعض ، ويعرض للعصبية القبلية ، والعصبية الجنسية وأثرها في الشعر والسياسة

وبه تراجم لبعض الأدباء الساسة :

## ٩ — سوسن :

قصة مصرية سامية العرض ، نبيلة الغرض :

## ١٠ — مع ابن خلدون

عرض لآرائه في التربية وعلم الاجتماع التي لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه من نثر وشعر .

## ١١ — الغزل في العصر الجاهلي

دراسة للغزل في الجاهلية من حيث أصوله وبواعثه وأنواعه وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل في الجاهلية والإسلام :

« نال به المؤلف درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى »

## ١٢ — المرأة في الشعر الجاهلي

دراسة مفصلة للمرأة في العصر الجاهلي من الشعر ، من حيث مكانها في الأسرة وفي القبيلة وفي المجتمع ، أما وزوجة وبنات وأختا وقريبة .



ودراسة للمرأة في الحياة العامة في السلام وفي الحرب ، وثقافتها وصناعاتها :  
ودراسة للمرأة في الحياة الفنية من حيث روايتها للشعر ، ونقدتها له ، ومن حيث  
أثرها في الغناء ، ولشاعريتها ، أنواع شعرها وخصائصه ، مع موازانات بينها وبين  
النساء المعاصرات لها في العالم القديم

« نال به المؤلف درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز »

### ١٣ - أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي

عرض وتحليل لصور الطبيعة في الشعر الجاهلي من حيوان ، ونبات وجماد وظواهر  
في الأرض والجو ، واستنباط الخصائص العامة في تناول الشعراء للطبيعة ، ودراسة  
لأصداء البيئة في موضوعات الشعر وأخيلة الشعراء وفهم

### ١٤ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي

بحوث تمهيدية شتى ، وتوثيق للشعر الجاهلي ، ودراسة له من حيث تصويره  
لألوان الحياة الاجتماعية والدينية والعادات والمعتقدات ، وصلات العرب بغيرهم من الأمم

### ١٥ - التيارات المذهبية بين العرب والفرس

يتناول الصلات بين العرب والفرس في الجاهلية والإسلام ، وأثرها في كل من  
الشعبيين من حيث العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب ... الخ

### ١٦ - المثل السائر لابن الأثير

تقديم وتحقيق وتعليق

### ١٧ - الطبرى

دراسة لعصره ، وبيئته ، وحياته ، ومصادر ثقافته ، وألوانها وعرض لتلاميذه ،  
ولمؤلفاته ، ودراسة لشخصيته ، ولماجه في التفسير والتاريخ والفقه

### ١٨ - فن الخطابة

دراسة فنية للخطيب ، وعدته ، وصفاته ، وعوامل نجاحه ، ودراسة للخطابة  
وأنواعها ، وأصولها ، وأسلوبها . وتصور الأمم لها ، وتعقيب بدراسة مفصلة  
للخطابة السياسية في العصر الأموي

### ١٩ - بطولة وبطل

دراسة للبطولة ، وتحليل لبطولة الرئيس جمال عبد الناصر من خلال حياته  
وأعماله وأقواله

٢٠ - القومية في الشعر الحديث

دراسة مفصلة لدعائم القومية العربية ، وتأثرها بالشعر الحديث وأثرها فيه ،  
مع نصوص شتى لشعراء الوطن العربي من الخليج إلى المحيط [ يطبع ]

٢١ - الجاحظ

دراسة لعصره ، وحياته ، ومعالم شخصيته ، ومؤلفاته وخصائصه الفنية ، مع  
تحليل بعض كتبه

٢٢ تحت راية الإسلام

دفاع عن الإسلام ، ودحض لمفتريات خصومه ، وكشف عن بعض جوانب من  
مبوه وحكمته [ يطبع ]





يسر دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع

بان تقدم روائع الكتب التالية :

عصية لا طائفة	تأليف د. هاني يحيى نصري
علم الاجتماع الحضري	صياغة د. هاني يحيى نصري
الحياة العربية	احمد محمد الحوفي
ادب السياسة	احمد محمد الحوفي
تاريخ الشعر السياسي	احمد الشايب
الوساطة بين المتنبئ وخصومه	للجرجاني
تاريخ الفلسفة اليونانية	يوسف كرم
تاريخ الفلسفة الاوروبية	يوسف كرم
تاريخ الفلسفة الحديثة	يوسف كرم
الموسوعة الفلسفية المختصرة	جلال العشري